٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٣٠٩

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

تم الطالب بتعديل وتصويب ما طلب منه أثناء المناقشة .

الانحرافات العقدية والعلمية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

وآثارها في حياة الأمة

الطالب

علي بن بخيت بن عبد الله الزهراني

٤٠٠٠٠

باشراف / فضيلة الشيخ

محمد قطب

المجلد الأول

رسالة لنيل درجة الماجستير لعام / ١٤١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير بعنوان

(الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة)

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لانبي بعده ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وبعد :

تهدف هذه الرسالة إلى الكشف بوضوح عن مدى الانحرافات العقدية والعلمية الهائلة التي وقعت فيها الأمة ، وكانت السبب فيما حاق بها من ضعف وتخلف وتأخر ، وترسم الطريق الصحيح لعودة الأمة إلى مكانتها في الماضي ، ببيان ضرورة التخلص من تلك الانحرافات التي تقف حجر عثرة في طريق النهوض والعودة ، والتي أظهرت هذه الرسالة أنها كانت من الضخامة بما يفوق كل تصور ويدهش كل تفكير . وقد اشتملت الرسالة على مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة ، وشملت المقدمة بيان الموضوع وأهميته وأسباب اختياره والعقبات التي اعترضت طريقه ، وكان التمهيد عبارة عن نبذة عن أهمية العقيدة في حياة الأمة ببيان حال المتمسكين بها في الصدر الأول ، وعن ظهور هذه الانحرافات إلى قبيل الفترة التي ندرسها ؛ لأن هذه الانحرافات كان ظهورها في الغالب قديمًا ، ولكنها عظمت واستطالت في القرنين الثالث والرابع عشر الهجريين . وقد كان موضوع الباب الأول هو الانحرافات العقدية ، وكان الحديث عنه عبر تسعة فصول هي : انحصار مفهوم العبادة في الإسلام ، والفكر الإرجائي ، وضعف عقيدة الولاء والبراء وغربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها ، وهيمنة الفلسفة وعلم الكلام ، وانتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات ، والصوفية ، وازدياد نشاط الفرق المنحرفة ، وموقف العلماء ، وقد أزاح هذا الباب الستار عن الانحرافات العقدية العظيمة التي كانت الأمة غارقة فيها . وأما الباب الثاني فقد كان موضوعه الانحرافات العلمية التي تمثلت في انحدار المستوى التعليمي وجمود المناهج التعليمية ، واشتداد موجة التعصب المذهبي ، ورفض إعادة فتح باب الاجتهاد ، أما الثالث فقد كان موضوعه الآثار المترتبة على تلك الانحرافات العقدية والعلمية والتي كانت وخيمة للغاية سواء كانت الآثار الداخلية والمتمثلة في تفشي الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي أو الآثار الخارجية المتمثلة في الاستعمار والغزو الفكري والتنصير ، ومازالت الأمة تعاني من هذه الآثار إلى يومنا هذا . أما الباب الرابع فقد تحدث عن الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل ، وتناول الحديث الأثر العظيم لدعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما نسب إلى التأثر بتلك الدعوة وهو خطأ ، وتعرض لبيان بعض العقبات في طريق الصحوة ، والطريق الذي ينبغي على الصحوة أن تسلكه حتى تحقق هدفها المنشود . وأخيراً بيان بعض المبشرات وآفاق المستقبل في ضوء الأدلة الشرعية ، ثم الخاتمة التي حوت أهم نتائج البحث والتي كان منها :

١ ـ أن الأمة كانت ممكنة وقوية ومتصدرة للعالم حين كانت متمسكة بدينها ومحافظة على عقيدتها ، وأنها لم تضعف وتتقهقر إلا حين فرطت في دينها وانحرفت في عقيدتها . ٢ ـ أن الفكر الإرجائي من أخطر الانحرافات العقدية التي وقعت في الأمة ، ولهذا عظم ذم السلف للإرجاء . ٣ ـ أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة ، وإن الأمة لم تسقط فريسة للغزو الفكري إلا بعد أن ضعفت تلك العقيدة في نفوس المسلمين . ٤ ـ أن عقيدة أهل السنة والجماعة قد أصبحت في تلك الفترة غريبة ومحاربة من جماهير الأمة . ٥ ـ أن الدين قد تحول عند الغالبية من الناس في تلك الفترة إلى عبادة الأضرحة والأولياء وإلى التصوف بكل طرقه وطقوسه . ٦ ـ أنه بالرغم من ضخامة العقبات وكثرتها إلا أن هناك من المبشرات الشرعية والمحسوسة مايبشر بأن المستقبل للإسلام . انتهى

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . والحمد لله رب العالمين .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
علي بن بخيت بن عبد الله الزهراني	الشيخ / محمد قطب	د . عبد الله بن عمر الدميجي

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه، وأمينه على وحيه. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين .﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءا واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾. ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

أما بعد :

فقد أخبر النبي ﷺ بغربة هذا الدين ، وذلك بقوله : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء » (١)

وقد تحقق ما قاله المصطفى ﷺ فصار هذا الدين غريباً ، وأصبح المتمسكون به غرباء في أوطانهم وبين أهليهم وذويهم ، ابتلاء من الله ، ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذي صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [١، ٢، ٣، العنكبوت] .

يعيش المسلمون اليوم وللأسف الشديد على هامش العالم ، وفي ذيل القائمة رغم كثرتهم العارمة ، وبلادهم الشاسعة ، ولكنهم تركوا حبل الله المتين وأعرضوا عن هدي نبيه الكريم ، ونسوا أو تناسوا تاريخ أمتهم العظيم ، فتحققت فيهم نبوءة المصطفى ﷺ حين نعتهم بغثاء السيل ، والذي سريعاً ما يزول ويذهب .

---

(١) رواه مسلم برقم ١٤٥ في كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا . . . ١/١٣٠ من حديث أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه .

عاش المسلمون في الماضي متفيئين بظلال القرآن والسنة الشريفة ، فكانوا حقاً سادة الدنيا وقادة العالم ، فتحوا البلاد شرقاً وغرباً ، فتحوا القلوب قبل البلاد ، وأخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وسطروا بسيرهم سطوراً من نور على هام التاريخ البشري لا تزال تتلألأ على مر العصور والدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، عرفوا أن مصدر عزتهم وسر تمكينهم هو دينهم وأمتهم ، فتمسكوا بدينهم ، وعضوا عليه بالنواجذ ، والتفوا حول بعضهم ، فخرجت أعظم أمة عرفتها البشرية ، وحفظها التاريخ ، واليوم ما الذي حدث وكيف حدث ....؟

انهارت قوتهم ، وخارت عزائمهم ، وزال عنهم التمكين والاستخلاف ، وأصبحوا أذلة بعد أن كانوا أعز الناس ، وصاروا بعد الرفعة موضوعين ، وبعد الإلفة والجماعة متفرقين متباغضين ، قد هجروا كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ ، واستبدلوا بهما أرخص الأفكار وحثالة الأذهان ، وتكالب عليهم الأعداء من كل مكان يسومونهم سوء العذاب ، وينزلون بهم أصناف الهوان ، فتارة بالغزو العسكري وتارة بالحصار الاقتصادي ، وأخرى بالغزو الثقافي أو ما يسمى بالغزو الفكري .

وكل ما أصابهم ووقع عليهم من الضعف والخور والفقر والجهل وتسلط الأعداء فبما كسبت أيديهم حين تركوا كتاب الله وراءهم ظهريا ، وانتشر بين صفوفهم الشرك بكل أنواعه ومظاهره ، وحين فشت فيهم البدع والمنكرات فشواً ذريعاً ، وحين صار الدين عندم هو التصوف بكل عقائده وطقوسه ، وحين ترأس الجهال والمبتدعة ، وحين تقاعس العلماء عن أداء واجبهم، وركن غير قليل منهم إلى متاع الحياة الزائل .

وحين صار المسلمون فرقاً كثيرة ومذاهب عديدة ، كل فرقة تبدع الأخرى أو تفسقها أو تكفرها وهما عن الصواب بمعزل ، وحين هيمن الإرجاء على الحياة الإسلامية ، وحين انتشر الجهل المركب والأمية العمياء في صفوف المسلمين ، وجمدت المناهج التعليمية ، وانحدر المستوى التعليمي ، وأغلق باب الاجتهاد .

ولعلنا نتساءل بعد كل هذا كيف وصل حال المسلمين إلى هذا الحد الذي نعيش فيه ، ونكتوي بلظاه ، ونتجرع مرارته ، وكيف تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور ، وهبط أو نقول سقط المسلمون من أعلى الذروة إلى الحضيض ، والإسلام هو الإسلام لم يتغير ولم يتبدل ، والمسلمون يزداد عددهم يوما بعد آخر .

ولكننا لا نذهب بعيداً لنبحث عمن يجيبنا عن هذا التساؤل . فالقرآن الكريم يجيبنا عن هذا التساؤل المحير ، والسنة الربانية تزيل ما علق بأذهاننا من تعجب واستغراب . يقول تعالى : ﴿ إن الله

لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [١١ الرعد]، وقال تعالى :﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ [٩٦ الأعراف] ، ويقول الله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ [٧ محمد] ، وغيرها من الآيات الكثيرة.

وأما الأحاديث فسيرد بعضها في موضع قادم بإذن الله وأما السنة الربانية فقد شهدت بأن الله سبحانه وتعالى يمكن لهذة الأمة ما استقامت على دينه ، وسارت على الصراط المستقيم ، ويزول التمكين عنها وتهبط إلى الأسفل إن هي بدلت دينها ، أو أعرضت عن هدى ربها ، والإسلام لايعمل بنفسه وإنما يعمل بوجود أمة مؤمنة به ، تطبقه في حياتها، ويرى أثره حياً في واقعها.

ولاشك أن الانتقال من الذروة العليا في الصدر الأول إلى ما وصل اليه المسلمون في هذا العصر لم يكن دفعة واحدة ، ولكن الانحرافات التي أصابت المسلمين وبدأت معهم مبكراً كانت تتسع دائرتها شيئًا فشيئًا مع توالى القرون والآيام ، وإن كانت فى أول الآمر لم تظهر خطورتها ولم تستبن نتائجها، وما زالت هذة الدائرة تتسع وتكبر حتى وصل الأمر إلى ماهو عليه الآن من ضعف المسلمين وتخلفهم وتفككهم وتشتتهم وتناحرهم . ولقد مرت بالمسلمين محن كثيرة ، وتعرضوا لنكبات كبيرة ، ولكن مع كل هذا لم يصل الأمر إلى ما وصل إليه في هذه الأيام مما نراه ونلمسه من مظاهر الضعف والفساد ، والتبعية لغيرهم من قوى الشر والكفر .

ولاشك أنه في القرون الأخيرة من حياة المسلمين وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ازداد ضعف المسلمين ، وساءت الأحوال الدينية عندهم بشكل لم يعهد من قبل ، وأصبحت هذه الفترة مرحلة حرجة جداً في حياة المسلمين ، حيث بلغ الضعف والذل والتخلف بالمسلمين مبلغاً عظيماً يندى له جبين كل مؤمن .

وقد اخترت في بحثي الذي أتقدم به في مرحلة الماجستير أن أقوم بدراسة لأحوال هذه الفترة من حياة الأمة الأسلامية والآثار التي ترتبت عليها والعبرة المستفادة منها ، وجعلت عنوانه : «الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة».

وقد دفعتي لاختيار هذا الموضوع أسباب كثيرة منها :

أولاً : أن المسلمين كافة – حكاماً ومحكومين، علماء ومتعلمين – مطالبون بالنهوض بهذه الأمة من كبوتها الكبرى وسباتها العميق ، وهذا البحث هو لبنة صغيرة ، وجهد مقل في ذلك الأمر العظيم والواجب الضخم .

ثانياً : أن الفترة الزمنية المراد دراستها - وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان -تمثل أحرج المراحل في حياة الأمة الإسلامية . وذلك لأن أحوال المسلمين الدينيه في هذيين القرنين بلغت من الضعف والهبوط مبلغاً لم يعرف في زمن مضى .

ثالثًا : أنه في هذين القرنين ولدت الصحوة المباركة التي تبشر برجوع الأمة إلى الإسلام العظيم، والتخلص مما نحن فيه من تخلف وانحطاط.

رابعاً : هذا البحث بكاملة يركز ويبرز أهمية العقيدة في حياة المسلمين ، ويبين أن جميع ألوان التخلف الحضاري والعسكري والحربي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعلمي والفكري جاءت ثمرة مرة ونتيجة مذهلة للتخلف العقدي الذي أصاب المسلمين . وهذا الأمر هو زبدة البحث وثمرة الرسالة إن شاء الله تعالى .

خامساً : أن هذه الفترة الزمنية لم تستوف حقها من الدراسة والبحث ، إن لم يكن في كل المجالات ، فعلى الأقل في مجالنا هذا . فمع اتفاق جمهرة الكتاب والباحثين على انحدار هذه الفترة وانحرافها ، فالقليل منهم من يدرك ضخامة هذه الانحرافات العقدية والعلمية التي وقع فيها المسلمون في تلك الفترة ، ويلم بتفصيلاتها ، وهذه الرسالة إن شاء الله تعالى تسلط الضوء على تلك الفترة المظلمة ، وتحاول الكشف عن أسرارها وماخفي من معالمها ، وتوضح أن ماوقعت فيه الأمة من انحرافات ، يفوق كل تصور ويدهش كل تفكير . وهذا الأمر يكاد أن يكون هو محور البحث العام الذي تدور عليه موضوعات البحث ونتائجه . ويجب على الصحوة الإسلامية أن تدرك ذلك جيداً وأن تعيه تماماً وهي تحاول النهوض بالأمة والسير بها . لابد أن تدرك أن الانحرافات من الضخامة بمكان ، ولا يمكن تجاوزها والقضاء عليها إلا بجهد عظيم ، وعمل متواصل . وإصرار كثير من الجماعات الإسلامية العاملة في الحقل الإسلامي على إغفال هذه الانحرافات وإهمالها وعدم الاكتراث بها هو السبب الأول في إخفاق هذه الجماعات ، وعجزها عن تحقيق ماتصبو إليه . وما هذه الرسالة إلا نقطة على الطريق الصحيح الذي يجب على الصحوة أن تجعله نصب عينيها لتسير عليه ، فغايتها أن تكشف بوضوح عن مدى الانحرافات الهائلة التي وقعت فيها الأمة ، وكانت السبب فيما حاق بها من ضعف وتخلف وتأخر .

سادساً : تسبب الأحوال الدينية عند المسلمين في هذين القرنين في مايعانيه المسلمون اليوم من ضعف سياسي وعسكري واقتصادي وتأخر علمي ، وماترتب على ذلك من دخول الاستعمار الصليبي والاحتلال البلشفي إلى داخل العالم الإسلامي ، وقدوم التنصير الاستعماري وموجات الغزو الفكري والتيارات المعادية للدين. كل ذلك يحتاج منا إلى وقفة متأملة وعميقة. وهناك دوافع أخرى غير ماذكرت لا أود التطويل بذكرها .

وقد أدركت منذ البداية ضخامة الموضوع واتساع نطاقه ، وكان لمشرفي الفاضل حفظه الله أكبر الأثر في تقديري لحجم الموضوع وإعطائه قدره من البحث والقراءة . منذ أن كان مايزال في الذهن .

وهذه تكاد تكون هي العقبة الكبرى في طريق البحث وهي ضخامة الموضوع و اتساع نطاقه ، إذا أنه من الناحية الزمنية يشتمل على دراسة قرنين من أشد القرون تعقيداً وأكثرها حوادث مع ما ذكرناه سابقاً من أن هذه الفترة تمثل أحرج مرحلة في تاريخ الأمة الإسلامية .

ومن الناحية المكانية فإنه لا يقف عند بلد معين ، بل إنه يمتد ليشمل العالم الإسلامي كله من أقصاه إلى أقصاه . ولا يخفى مافي ذلك من صعوبة ومشقة تتطلب جهداً مضاعفاً وعملاً متواصلاً .

وزاد من الصعوبة تنوع الموضوعات واختلافها واستقلال كل منها بنفسه حتى أن كل موضوع يستحق كتابة رسالة مستقله .

بالإضافة إلى ندرة المصادر وعدم الاحتفال بها من قبل العلماء والمفكرين و المحققين ، مما جعل كثيراً منها تقبع في زاوية النسيان ، وتصبح بعيداً عن أيدي الباحثين . وبقراءة البحث كاملاً تعرف بعض الصعوبات الأخرى التي واجهت مسيره ، واعترضت طريقه .

أما خطة البحث فقد احتوت على مقدمة وتمهيد وأربعة أبواب وخاتمة .

أما **المقدمة** فقد اشتملت على بيان الموضوع ، وأهميته ، والأسباب التي دعت إلى اختياره ، وبعض ما اعترضه من عقبات .

أما **التمهيد** فقد كان عبارة عن نبذة مختصرة عن أحوال الأمة الإسلامية فيما قبل الفترة التي ندرسها وقد أوجزت القول فيه عن أهمية العقيدة في حياة الأمة ، وقد كان ذلك عن طريق الحديث عن حال المتمسكين بها في الصدر الأول من أصحاب رسول الله ﷺ ، حيث تعرضت إلى حالهم قبل أن تشرق عليهم شمس هذه العقيدة العظيمة ، وماكانوا يعيشونه في الجاهلية من شرك ووثنية وجهل وظلم وسفه وتخلف ، وكيف انتشلتهم هذه العقيدة من تلك الجاهلية الجهلاء ، لتضعهم في أعلى قمة وصلتها البشرية في تاريخها الطويل ، ولتصنع منهم أعظم أمة أخرجت للناس .

وتناولت فيه على عجل هذه الانحرافات منذ ظهورها إلى قبيل الفترة التي نقوم بدراستها ، لأن هذه الانحرافات كان ظهورها في الغالب قديماً ، ولكنها عظمت واستطالت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين .

وأما **الباب الأول** فقد كان موضوعه الانحرافات العقدية عند المسلمين في القرنين الماضيين ، وقد قسمته إلى تسعة فصول :

الفصل الأول :انحصار مفهوم العبادة في الإسلام ، وقد ناقشت هذا الانحراف الخطير الذي مايزال منتشراً إلى يومنا هذا .حيث يظن كثير من الناس أن العبادة هي مجرد أداء الشعائر التعبدية فقط ، وذكرت مانتج عنه من آثار سيئة .

الفصل الثاني : الفكر الإرجائي الذي يخرج العمل من الإيمان، ويعتبر الإنسان مؤمناً كامل الإيمان، ولو لم يعمل في الإسلام عملاً واحداً، وفداحة هذا الانحراف الذي هيمن على ساحة الفكر الإسلامي.

الفصل الثالث : ضعف عقيدة الولاء والبراء ، ذلك الجدار الضخم والحاجز الصلب الذي عمل أعداء الإسلام على تحطيمه وإزالته، حتى يصلوا إلى تغريب الأمة الإسلامية و إخضاعها والتحكم بمصيرها، وهو ما وقع فعلاً .

الفصل الرابع : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها ، حيث أضحت عقيدة السلف الصالح غريبة بل ومحاربة من جماهير الدهماء ، يقودهم في ذلك العلماء والحكام ، الذين ينكلون بدعاتها ، ويطاردونهم في كل مكان .

الفصل الخامس : هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على مؤلفات وعلماء العقيدة حيث كانت العقيدة لا توخذ إلا من كتب الكلام وعلى يد علماء الكلام ، مع شيوع الفلسفة والمنطق .

الفصل السادس: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات ويشتمل على :

أولاً : ظهور الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر ، وتفشي عبادة الأولياء والأضرحة ، وانتشار ذلك حتى لم يكد يسلم منه قطر ولا مصر .

ثانياً : انتشار البدع وتفشي الخرافات، حيث أصبحت حياة المسلمين ممزوجة بالبدع، مليئة بالخرافات ، وعظمت المصيبة باعتبار الناس مظاهر الشرك والبدع ديناً يتقربون به إلى الله .

الفصل السابع : الصوفية . وقد تعرضت بإيجاز إلى نشأتها، ثم أفضت في الحديث عن نظرتها المنحرفة إلى الحياة ، ومالحق بها من عقائد باطلة ، وكيف أنها كانت المعول الهدام الذي ضربت به الأمة في الصميم .

الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة التي تولت كبر شق عصا المسلمين ، و كانت ومازالت تتآمر مع أعداء الأمة ضد المسلمين ، وتكيد لهم في كل حين واستفحال شرورها في هذه الفترة .

الفصل التاسع : موقف العلماء ، وأنه لم يكن على المستوى المطلوب ، وتجافي كثير منهم عن المشاركة في الأحداث السياسية ، مع انغماس كثيرمنهم في متاع الحياة الدنيا ، وعدم قيامهم بالأمانة التي حملهم الله عز وجل أياها . وبذلك ينتهي الباب الأول ليستغرق حوالي نصف الرسالة ، إذ هو المقصود الأعظم من البحث .

وأما **الباب الثاني** فموضوعه : الانحرافات العلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المستوى التعليمي وجمود مناهج التعليم الدينية على فكر القرون المتقدمة دون أي ملائمة مع متغيرات الحياة ، وبالنسبة للمناهج الدنيوية فقد أخرجت من صلب المناهج الدراسية لأسباب تعرضنا لها في موضعها .

الفصل الثاني : التعصب المذهبي وأثره في انحدار الحالة العلمية ، وتسببه في تفرق المسلمين، بالإضافة إلى اشغاله المسلمين عن مدافعة الطوارق الخارجية التي كانت تصدر عن الأعداء

الفصل الثالث : إغلاق باب الاجتهاد وإن كان ذلك قد وقع في القرون المتقدمة ، إلا أن المسلمين في تلك الفترة عارضوا فتحه من جديد ، وشنعوا على من يحاول ذلك . فنتج عن ذلك آثار بعيدة المدى من التخلف والتحول إلى الخارج لاستيراد المبادىء والنظم .

أما **الباب الثالث** فموضوعه الآثار المترتبة على الأحوال الدينية في القرنيين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ويشتمل على فصلين :

الفصل الأول : الآثار الداخلية وهو ما تمثل في تفشي الضعف في الأمة ويشتمل على :

أولاً : الضعف السياسي والحربي وتمثل في سقوط الدولة العثمانية ، وتفكك ولاياتها ، وماسبق ذلك من امتيازات أجنبية وعلامات أخرى مهدت لذلك السقوط . وماوقع من ضعف حربي وعسكري كان سبباً مباشراً في هزائم المسلمين أمام جحافل الاستعمار ، وكان أثراً عظيماً من آثار التخلف العلمي الذي لحق بالمسلمين وصنواً للتخلف السياسي وتبعاً له .

ثانياً :الضعف الاقتصادي الذي أحاط بالعالم الإسلامي في تلك الفترة وأسباب حدوثه .

ثالثاً : الضعف العلمي حيث التخلف في كل المجالات، والأمية التي مازالت نسبتها مرتفعة جداً ، ووصل الضعف إلى حد دراسة الدين واللغة و التاريخ في جامعات الغرب .

رابعاً : الضعف الأخلاقي والاجتماعي ، وسقوط كثير من القيم الأخلاقية والاجتماعية ، بعد أن تحولت إلى تقاليد خاوية وعادات جوفاء .

أما **الفصل الثاني** فقد كان موضوعه الآثار الخارجية ويشتمل على :

أولاً : الاستعمار الذي بسط سيطرته على كل بلاد العالم الإسلامي تقريباً ، وكان مجيئه متوقعاً بعد أن فسدت أحوال المسلمين الدينية ، وأشرنا إلى بعض آثاره ، وأن رحيله عن البلاد الإسلامية لم يكن إلا ظاهرياً في أكثر الأحيان.

ثانياً : الغزو الفكري واستيراد المبادىء والنظم من الغرب وذلك بعد أن تولى قيادة الأمة زعماء التغريب والعلمنة ، وقد حاولنا دراسة أهم الخطوات التغريبية الأولى التي نقلت الأمة مسافة بعيدة عن دينها . وكان الواقع الديني المنحرف مدعاة لهؤلاء التغريبيين أن يقودوا الأمة إلى حيث يريدون .

ثالثاً : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي الذي استفحل في هذين القرنين ، واستغل الظروف الاجتماعية السيئة التي كان يموج بها العالم الإسلامي من فقر وجهل ومرض وتخلف .

أما **الباب الرابع** فقد كان موضوعه : الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل ويتضمن فصلين:

الفصل الأول : أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في العالم الإسلامي وماقيل عن بعض الجماعات الإسلامية أنها قد تأثرت بدعوة الشيخ ومناقشة ذلك ، وأن الحديث عن هذه الدعوة العظيمة يجب ألا ينسينا ضخامة الانحرافات التي مازالت موجودة بالفعل .

الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر ويشتمل على :

أولاً :العقبات في طريق الصحوة التي تعرقل مسيرتها ، وأهمها استمرار الانحرافات الدينية ، ومايقع من تفرق وتشاحن بين الجماعات الإسلامية ، بالإضافة إلى ضرب الصحوة وحربها من قبل أعداء الإسلام – منافقين ومشركين ويهود ونصارى ... وتواطئهم على إجهاضها ، ولكن الله عز وجل خيب مسعاهم رغم تضرر الصحوة بتلك الحرب الظالمة .

ثانياً : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل. حيث ذكرت بعض المبشرات المحسوسة كاتساع قاعدة الصحوة يوماً بعد آخر وإفلاس المذاهب المعادية للدين والشعارات المستوردة من الخارج وغيرها ، ثم تحدثت عن آفاق المستقبل في ضوء الأدلة الشرعية والمبشرات النبوية وبينت أن العاقبة للصحوة ، والمستقبل للإسلام ، مهما ضاقت الأرض على المؤمنين في هذا العصر ، وزلزلوا زلزالاً شديداً .

ثم أنهيت الموضوع بخاتمة موجزة حوت أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث .

أما منهج البحث فقد مال إلى المنهج الوصفي الذي يعتمد على وصف وتفسير الأحداث والوقائع مع سلوك المنهج التاريخي في كثير من الأحيان كل ذلك مع التحليل والتعليل وابداء الملاحظات والنقد على كل واقعة في الغالب بالإضافة إلى استخدام المنهج المقارن في كثير من الأحيان لتوضيح الفروق بين الأمة في ماضيها وحاضرها وقد التزمت في ذكر الحوادث والوقائع التي لا تخرج عن هذه الفترة وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان بقدرالإمكان ، وإن خرجت عن ذلك فلفائدة معينة .

كما جهدت أن أتتبع هذه الانحرافات في كثير من البلاد الإسلامية بقدر الإمكان حتى تكون الصورة عامة ومستقيمة مع عنوان الرسالة وقمت بقراءات واسعة في مجالات مختلفة بمعنى أنني أجيء إلى قسم التاريخ مثلاً فأحاول أن أقرأ كل كتاب يقع في يدي عن تلك الفترة لأعثر على ما أود البحث عنه ، وما كان لي من حيلة غير هذه ، ولولا هذه الطريقة لما خرجت من البحث بطائل . وقد ظفرت بمعلومات ثمينة بفضل هذه الطريقة التي تعتمد على بذل الجهد ومتابعة القراءة ، وقد أمضيت حوالي خمس سنوات تقريباً في القراءة والبحث هي مدة إتمام هذه الرسالة ، ولا أبالغ إذا قلت إنني حين كنت أدفع بملزمات البحث إلى الطباعة كنت أقرأ حول الموضوع إلى آخر لحظة وقد كنت أحياناً أقرأ الكتاب والكتابين والمجلد والمجلدين ، فلا أخرج بأية معلومة ، ، وربما فتحت كتاباً فألفيته طافحاً بالمعلومات محشواً بالانحرافات ، ولكن منهج البحث يقضى بتنويع المعلومات وملاحقة الانحرافات في البلاد الإسلامية .

وهناك كثير من المصادر والمراجع التي استفدت منها لنفسي، ولم أستفد منها في الرسالة رغبة في الاختصار ،

وقد قمت بتخريج ماورد في البحث من أحاديث من مصادرها الأصلية وترجمت لبعض الأعلام وأحلت الباقي إلى مصادر ترجمتهم ، وذكرت تواريخ وفياتهم في الغالب ، واكتفيت بالترجمة في كثير من الأحيان بالواقعة التي تخص المترجم ، إذ فيها غنى مع ذكر مصدر الترجمة وقد حرصت على ذكر تواريخ الوقائع والأحداث بالتاريخ الهجري حسب الإمكان وعلقت على مايستحق التعليق منها وكان خارج ميدان البحث .

وقد حال انتهاء الوقت وتضخم البحث عن اتمام البحث على الوجه الذي كنت أطمح إليه و عن وضع فهارس تفصيلية للأعلام والأماكن والموضوعات . ولعل مما يعوض بعض هذا النقص وجود فهرس عام للموضوعات الرئيسية .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه إلى الله عز وجل على ما منّ به علي من إنجاز هذا البحث الذي عايشته بعقلي وقلبي حوالي خمس سنوات عصفت بالأمة خلالها عواصف عظيمة ، وهزتها أحداث عنيفة وأسأل الله عز وجل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجعل فيه عوناً لأمتنا الإسلامية المنكوبة .

كما لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى أستاذي الفاضل ومشرفي الحبيب الشيخ محمد قطب حفظه الله ، الذي كان شرفُ الالتقاء به والتتلمذ على يديه حلماً يراودني منذ أيام الدراسة الثانوية بزهران حين عرفنا فضيلته عبر مقرر التوحيد الذي كان من تأليفه في ذلك الوقت ، ولقد كان يقابلني أثناء البحث عقبات كبيرة يضيق لها صدري ، ولكن ما إن التقي به حفظه الله حتى تزول بإذن الله على يديه بسعة علمه وصدره وثاقب نظره وفكره ، فأخرج من عند فضيلته منشرح الصدر والخاطر ، قد أخذت جرعة من النشاط إلى حين . ولقد استفدت منه علماً وفكراً ومعرفةً ، ونهلت منه خلقاً وأدباً وحلماً وتواضعاً . وقد رعى البحث منذ أن كان فكرة بسيطة إلى أن تم والحمد لله ، تعاهده خلال مدته بالتوجيه والتوضيح والتصحيح ، فجزاه الله خير الجزاء .

اللهم أطل عمره وبارك فيه وانفع بعلمه وكتبه ، وارفع درجته في المهديين .

كما أتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء للوالد العزيز الذي كان له الدور الأكبر في تنشئتي وتربيتي، وتشجيعي وحضي لمواصلة الدراسات العليا وأن يمد الله في عمره وصحته وأن يجزيه حسن الثواب

كما أتوجه بالشكر العميق إلى فضيلة الدكتور سليمان بن عبد الله السلومي الذي وقف معي كثيراً يؤازرني أثناء كتابة البحث ، وقام بتسليمي مفاتيح مكتبته التي استفدت منها فوائد جمه . وكذلك كل من فضيلة الدكتور علي بن عودة الغامدي، والأخ الأستاذ ناصر بن مسفر الزهراني ، ولكل من أعانني بكتاب .

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر والامتنان إلى فضيلة الدكتور عبد الله بن علي الغامدي رئيس قسم الدعوة الذي كان له دور مشكور في تخفيف الأعمال الاكاديمية في القسم عن كاهلي وعن كاهل كثير من الزملاء ، فجزاه الله خيراً .

كما لا يفوتني أيضاً أن أتوجه بالشكر إلى جامعة أم القرى ممثلة في كلية الدعوة وأصول الدين التي أتاحت لي فرصة المواصلة للدراسات العليا ، وأن يثيب القائمين عليها، وعلى قسم العقيدة الذي التحقت به .

اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، واهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ويؤمر فيه بالمعروف وينهي فيه عن المنكر وتعبد فيه وحدك ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH
٣٠٩ ح

تمهيد

نبذة عن أحوال الأمة الإسلامية قبل القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

إذا أردنا أن نتحدث بإيجاز عن أهمية العقيدة في حياة الأمة ، فلا مندوحة لنا من النظر إلى حال المتمسكين بها في صدر الإسلام ، لنرى البون الشاسع بين حال الأمة في ماضيها ، وحاضرها. ونخرج من تلك المقارنة الغريبة بالدروس والعبر، التى تساعدنا في العمل على عودة الأمة إلى ما كانت عليه من صدارة في الأرض ، وقيادة للعالم .

وإذا أردنا أن نعرف طرفاً من حال المتمسكين بالعقيدة في صدر الإسلام فيجب علينا أن نطلع على حالهم قبل أن تغمرهم هذه العقيدة بنورها وتشملهم بخيرها وبركتها ، لنرى مدى التحول العظيم الذي وقع في حياتهم ، والارتقاء الضخم الذي تحقق لهم بفضلها .

ولانجد من يخبر عن ذلك أفضل من كتاب الله سبحانه وتعالى ولاوصفاً لذلك التحول وذلك الارتقاء مثل كلام الله عز وجل .

يقول سبحانه : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ [١٢٢ الانعام] .

حقاً إنه تصوير رائع عجيب ..! تقف الأقلام حائرة في وصفه ، وكذلك الإسلوب القرآني في كل حين . تنهل منه الألباب، وتصدر عنه الأساليب وتعجز عن إيفائه حقه من التعبير . من الموت إلى الحياة .. ومن الظلمات الى النور .. هل يستويان مثلاً !!مسافة هائلة! ونقلة عظيمة لا يعرف عظمتها ، ويدرك مقدراها إلا من تمعن في حالهم في ضوء هذا البيان القرآني المعجز .

«كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين . قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف .... كانت قلوبهم مواتاً . وكانت أرواحهم ظلاماً .. ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز، وإذا ارواحهم يشرق فيها النور فتضيء، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد ، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد . الإنسان المتحرر المستنير ، الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد . أفمن نفخ الله في روحه الحياة ، وأفاض

على قلبه النور .. كمن حاله أنه في الظلمات ، لا مخرج له منها ؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! » (١)

ولنلق نظرة عاجلة إلى حياة الجاهلية لنرى عظمة هذه العقيدة في انتشال الناس من أوحال الشرك والعبودية لغير الله عز وجل ، وفي إخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلال إلى الهدى . فقد كانوا يعبدون الأصنام والأوثان والأشجار والأحجار، وكان لكل قبيلة صنم مشهور، ورب منحوت، كما كان لكل بيت في الغالب صنم خاص به . وكان في جوف الكعبة المشرفة وحولها ثلاثمائة وستون صنماً (٢) .

وارتكس الناس في الشرك ، وأمعنوا في الوثنية قال ابن اسحاق :واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله . قال فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد قالت قريش : ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾ [٥ ص].

وقال : وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ، وتهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها ».(٣)

وفي الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من التراب وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنابها .»(٤)

وربما اتخذ بعضهم وثناً من تمر ، فإذا جاع أكله . وهل بعد هذا من سقوط وإسفاف وانحدار

وجاء في حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مع رستم قبيل وقعة القادسية : « وكنا قوماً نعبد الحجارة والاوثان فإذا رأينا حجراً أحسن من حجر ألقيناه وأخذنا غيره .. » (٥)

---

(١) في ظلال القرآن ٣ / ١٢٠١الأستاذ سيد قطب . دار الشروق، القاهرة. الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م

(٢) روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبديء الباطل وما يعيد . أخرجه في صحيحه . كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا) برقم (٤٧٢٠) (الفتح ٨/ ٤٠٠). ورواه مسلم برقم (١٧٨١) كتاب الجهاد ١٤٠٨/٣ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . ورواه الترمذي برقم (٣١٣٨) كتاب تفسير القرآن .

(٣) البداية والنهاية ١٧٨/٢ الحافظ ابن كثير. تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م

(٤) رواه البخاري في كتاب المغازي ، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال برقم (٤٣٧٦) (الفتح٨/٩٠).

(٥) المستدرك ٤٥١/٣ . الحاكم النيسابوري . دار الكتب العلمية. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

ولم تكن هذه الأصنام والأوثان هي وحدها المربوبات التي اتخذها الناس آلهة يعبدونها من دون الله عز وجل . «بل كانت هناك في الحقيقة أرباب أخرى معبودة ومسيطرة على القلوب أكثر من سَيطرة الاله الذي يزعمون عبادته.

فالقبيلة كانت رباً يعبد ويطاع ولا يجرؤ أحد من أفرادها على المخالفة عن أمرها بما ينطبق عليه قول الشاعر :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

حتى إن أكبر تهديد كان يمكن أن يتعرض له إنسان هو« الخلع » من القبيلة فيصبح «خليعاً » منبوذاً لا يتحدث إليه أحد ولايتعامل معه أحد . ومن هنا يخضع أفراد القبيلة لسلطانها في غيها ورشدها سواء ، لايسألونها حين تأمرهم بقتال أو سلب أو نهب أو أي أمر آخر : أحلال هو أم حرام؟ ومتبع هو لما أنزل الله أم مخالف له ؟ وتلك هي الحمية الجاهلية التي تحدث عنها القرآن :﴿ **إذجعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية** ﴾ [٢٦ الفتح] . ولم تكن القبيلة وحدها هي صاحبة السلطان على قلوب الناس إلى جانب الآلهة المزعومة، بل كان عرف الآباء والأجداد كذلك سلطاناً قاهراً يستعبد الناس ، ويحول بينهم وبين الاستقامة على أمر الله الذي يزعمون عبادتة : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون** ﴾ [١٧٠البقرة]

كما كان الهوى ربا معبوداً من دون الله ، يطاع في معصية الله : { **أرأيت من اتخذ إلهه هواه** } [٤٣ الفرقان] .

فهذه كلها كانت أرباباً يشرك بها في الاعتقاد أو في الاتباع ، وتسيطر على مشاعر الناس وأفكارهم وتشكل سلوكهم .

كما أن عدم الإيمان باليوم الآخر كان له شأنه في تشكيل حياة الناس . فما دامت الحياة فرصة واحدة لا تتكرر ، وما دام العمر قصيراً مهما طال ، فلا بد اذن من انتهاب اللذات قبل أن تفوت، وهذا شأن الجاهليات دائماً في القديم و الحديث .

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فما دام لا يؤمن بالخلود ، فالأوفق – في نظره – أن يغتنم الفرصة الوحيدة ، المتاحة له ، ويغرق في الشهوات .»[1]

---

(١) الثقافة الإسلامية . المستوى الرابع ص١٦ الشيخ محمد قطب . جامعة أم القرى . مكة المكرمة.

وكانت معرفتهم بالله معرفة نظرية ، حيث كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية . قال عز وجل : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [١٠٦ يوسف] .

قال طائفة من السلف : تسألهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون به .(١) بعبادة غيره معه .

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى بذلك الإقرار النظري عند المشركين الذي لم يكن له أي تأثير على حياتهم في كثير من المواضع في كتابه الكريم .

ومنها قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ [٨٧ الزخرف] . وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [٢٥ لقمان] .

وحين سأل النبي ﷺ حصين الخزاعي والد الصحابي الجليل عمران رضي الله عنه : يا حصين كم تعبد من إله ؟ قال : سبعاً في الأرض ، وواحداً في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء ...(٢)

وكان الخوف من الجن والاستجارة بهم والتعوذ بكبرائهم من دين أهل الجاهلية . قال تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ [٦ الجن] .

قال السدي : كان الرجل يخرج بأهله فيأتي الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من الجن أن أضر أنا فيه أو مالي أو ولدي أو ما شيتي ..(٣)

وكانوا مؤمنين بالخرافة والسحر والشعوذة. وكان إتيان الكهان والعرافين ديدنهم في كل ما يلم بهم من أزمات .

وكانوا يطوفون بالبيت عراة يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على قبلها الشيء وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٤٩٥.

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٤٨١) في كتاب الدعوات . وأخرجه ابن خزيمة في التوحيد برقم (١٧٧) ج١ص٢٧٧، دار الرشد الرياض.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/٤٢٩.

ويتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها . وأعظم من ذلك افتراؤهم على الله عز وجل أنه أمرهم بهذا !!

{ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها أباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون } [٢٨ الاعراف] .(١)

وكانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله افتراءً عليه ، ويبتدعون من المحدثات مالم يأذن به الله . وقد قص الحق سبحانه وتعالى طرفاً من أحوالهم هذه في سورة الأنعام ، وفضحهم في غير موضع من تلك السورة الكريمة . وكانوا يحتجون بالقدر على شركهم ومعاصيهم .

{ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون } [١٤٨ الأنعام] .

ولئن كانت هذه الصورة القاتمة تدلنا على مبلغ التردي الذي وصلت إليه الحياة الدينية في الجاهلية فإن الحياة الاجتماعية والخلقية كانت ترسف في أغلال الجاهلية الظالمة ، وتسحق تحت وطأة الأعراف السائدة الجائرة .(٢) وخير من يعبر عن تلك الحياة مقالة المغيرة بن شعبة رضي الله بين يدي ملك الفرس يزدجرد الذي قال له :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكفونا كم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم . فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم .

فقال المغيرة رضي الله عنه : أما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغي بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالتنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ... (٣)

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٠٩.

(٢) كانت هناك بعض الأخلاق المحمودة عند العرب والخصال الطيبة من كرم ونجدة وشجاعة ومروءة وشهامة وغيرها . ولكن الصورة العامة كانت على خلاف ذلك .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ٤٢ .

أو ما قاله جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في حضرة النجاشي : أيها الملك كنا قوما على الشرك نعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار ونستحل المحارم بعضا من بعض في سفك الدماء وغيرها ...[١]

وكانوا يشربون الخمور ، ويزنون ، ويرتكبون الفواحش ، ويلعبون الميسر ويئدون البنات ، ويقتلون الأولاد خشية الإملاق ، ويعتدي الأقوياء على الضعفاء ويقومون بغارات السلب والنهب ، ويظلم بعضهم بعضاً ، ويبغي بعضهم على بعض ، وكانوا يحتقرون المرأة أيما احتقار ويمتهنونها في كثير من الأحيان فلا ترث ، بل تورث كسقط المتاع . وكان احتقار العبيد وازدراؤهم سمة من سمات العصر الجاهلي . « لقد ميز عرب الجاهلية بين الناس ، فهذا أصيل وذاك دخيل ، وآخر هجين .. وأغرب من هذا كله استعباد الأب لابنه إن كان من أمة سوداء . »[٢]

وكان التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب معلماً من معالم الجاهلية التي شيدت في طريق العصبية القبلية المقيتة . وكانوا بالنظر إلى الأمم المجاورة لهم أمة متخلفة فقيرة ضعيفة . فقد كان كثير من العرب خصوصاً من أبناء البوادي يحتقرون مهنة الزراعة والصناعة ويرون أنها من عمل أهل الذلة والهوان ويعيرون من يشتغل بهما ويرون أن أفضل المال ما أخذ بأطراف القنا والسيوف عن طريق الغزو والنهب !![٣]

لا غرو بعد ذلك أن تتسم حياتهم بالشظف والقسوة والفقر والتخلف . أما حياتهم السياسية فلم يكن لهم كيان سياسي موحد يلم شعثهم ، ويوحد كلمتهم ، بل كانوا قبائل متنافرة ، وجماعات متناحرة ، تنشب بينهم الحروب والمعارك لأتفه الأسباب ، وتستمر دهراً طويلاً ، لا يزيدها تعاقب السنين إلا ضراوة وشدة . وتنبعث الأحقاد والبغضاء ، وتسود الشحناء والخصام . ولم تكن هناك دولة بالمعنى المعروف . بل كانت هناك إمارتان هما المناذرة في العراق ، والغساسنة في الشام . «ولقد اصطنعت الدولتان الكبريان [٤] هاتين الإمارتين لتكونا درعاً واقية لهما ضد غارات الأعراب من القبائل العربية ، وكثيراً ما وقعت الحروب بين هاتين الإمارتين لصالح ملوك فارس والروم ..»[٥]

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٣٠٢ الحافظ أبي بكر البيهقي . تحقيق د/ عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٢) أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص ١٧ الأستاذ محمد الناصر . دار الرسالة . مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨ .

(٤) هما فارس والروم .

(٥) الحياة السياسة عند العرب . دراسة مقارنة على ضوء الإسلام ص ٢٩ الأستاذ : محمد الناصر مكتبة السنة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

«ولقد أدت هاتان الإمارتان : الغساسنة والمناذرة دورهما في خدمة سادتهما خير أداء ، فقد بطش ملوكهم بقبائل العرب بطشاً مريعاً ففي يوم أوارة الأول مثلاً بطش المنذر بن ماء السماء بقبيلة بكر لأنها رفضت طاعته وقتل منها خلقاً كثيراً بعد حرب دامية ، ثم أسر منهم عدداً كبيراً ، وأمر بهم أن يذبحوا على جبل أوارة ، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار ..»(١)

وما زالت تلك حالهم . وما برحت تلك حياتهم - ظلم وظلام ، وشرك وأوثان ، وفسق وفجور وآثام ، وخرافة ودجل ، وتفرق وتقاتل وتشاحن ، وعصبية واحتقار وامتهان ، وعداء متوارث ، وخصام متواصل ، وتخلف وضعف وانحطاط - حتى أشرقت عليهم شمس النبوة المحمدية . وأضاءت لهم أنوار العقيدة الإسلامية حياتهم ، وسرعان ما انقشعت دياجير الظلام وزالت أحجبة الشرك . فأقبلوا إلى هذا الدين الجديد بعد طول مكث في الحيرة والتردد والضياع ، ينهلون منه كما ينهل الظامىء الذي كاد يقتله العطش ، ويتشبثون به تشبث الغريق بحبل النجاة ، ويكرهون أن يعودوا إلى حالهم كما يكرهون أن يقذفوا في النار .

فارتفعوا من عبادة الشيطان في كل صورها إلى عبادة الله عز وجل . ومن دركات الشرك والخرافة والإغراق في الوثنية إلى ذروة التوحيد والتوكل والإيمان . وأصبحوا بنعمة الله إخواناً متآلفين ، لا فرق فيهم بين سيد وعبيد ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . يتحابون فيما بينهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . وباختصار صاروا خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم ربهم في محكم التنزيل : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ... ﴾ [١١٠ آل عمران] .

وكان ذلك بفضل الله ثم هذه العقيدة الربانية التي رسخت في نفوسهم ، وسرت في دمائهم ، وقد تلقوها عن معلم البشرية المربي الأعظم محمد رسول الله ﷺ غضة طرية كما أنزلت ، فخرج أعظم جيل عرفته البشرية على الإطلاق . « إنه الجيل الذي تم فيه اللقاء بين المثال والواقع ، فترجم مثاليات الإسلام إلى واقع ، وارتفع بالواقع البشري إلى درجة المثال ..» (٢) وهم الذين « عايشوا الجاهلية من قبل ثم انتقلوا إلى الإسلام ، فأدركوا - بالممارسة الواقعة - عظم النقلة التى انتقلوها من الجاهلية إلى الإسلام ، كما قال عمر رضي الله عنه : « لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية » ! أي لا يقدره حق قدره إلا من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية ..» (٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢) واقعنا المعاصر ص١٥ الشيخ محمد قطب . مؤسسة المدينة للصحافة . جدة الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(٣) المصدر السابق ص٢٥ .

لقد أنشأتهم هذه العقيدة نشأة جديدة ، وصاغتهم حتى لكأنهم خلقوا خلقاً جديداً . فإذا هم يبذلون أرواحهم ودماءهم وأموالهم في سبيلها ، وإذا هم يعذبون ويقتلون من أجلها فلا يتزحزحون عنها . وإذا بها تملأ حياتهم ، وتشغل أوقاتهم ، وتستنفد كل جهودهم وطاقاتهم .

فقد أدركوا نعمة هذه العقيدة التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور ، وأيقنوا أن مصيرهم في الدنيا والآخرة معقود بالإيمان بها والعمل على إعلائها .

فلا غرابة بعد هذا أن تحفل سيرهم بالأعاجيب ، وأن تتحقق في حياتهم المثل الرفيعة التى لا تزال تتلألأ على صفحات التاريخ مع مرور الأيام .

فإذا بالعصبية البغيضة تجتث من حياتهم بفضل هذه العقيدة، لتحل محلها الأخوة الدينية التى لا تقيم لغير العقيدة حساباً .

وإذا بالابن يقتل أباه ، والأب يقتل ابنه ، والأخ أخاه ، والرجل يقاتل بني عمه وعشيرته . وإذا بموازين الجاهلية ومعاييرها الظالمة تهتز وتضطرب ، ثم تتهاوى وتسقط أمام موازين العقيدة العادلة

وإذا بالصحابة الكرام ينطلقون يجاهدون تحت لواء المصطفى ﷺ، ويضربون بتضحياتهم أروع الأمثلة في تاريخ البشرية قاطبة .

فهذا عمير بن الحمام رضي الله عنه أول قتيل قتل في سبيل الله في الحرب يسمع النبي ﷺ يقول في غزوة بدر الكبرى : والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ألا أدخله الله الجنة . فيقول عمير وفي يده تمرات يأكلهن : بخ بخ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء فقذف التمر من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل وهو يقول :

ركضـــاً إلى اللــه بغيــر زاد إلا التقــى وعمـــل المعـــاد

والصبر في الله على الجهاد(١)

وهذا المقداد بن عمرو يقول حين استشار المصطفى ﷺ أصحابه عند مسيرهم إلى بدر لقتال المشركين : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ..

---

(١) الإصابة ٣/ ٣١ وفي رواية أخرى : لئن أنا حييت حتى آكل تمراً إنها لحياة طويلة . وأصل القصة في صحيح مسلم .

(٢) موضع بعد مكة بأميال من جهة الجنوب .

ويقول سعد بن معاذ : فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله(١)

وهذا الصديق رضي الله عنه يتصدق بكل ماله في غزوة تبوك ،لم يترك لأهله شيئاً ، فقد ترك الله لهم ورسوله ، وعمر الفاروق يتصدق بنصف ماله ، وعثمان رضي الله عنه يجهز جيش العسرة . وتصدق عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية ، وتصدق عاصم بن عدي الأنصاري بتسعين وسقاً من تمر ، وتصدق رجل من الأنصار يقال له أبو عقيل بصاع من تمر . يقول رضي الله عنه : بت ليلتي أجر بالجرير (٢) على صاعين ، والله ما كان عندي من شيء غيره – وهو يعتذر وهو يستحيي – فأتيت بأحدهما وتركت الآخر لأهلي ..(٣) . وإذا بالذين لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله تفيض أعينهم بالدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .(٤)

وإذا بفتيانهم الذين لم يعرفوا في الجاهلية إلا اللهو والعبث والضياع يتسابقون إلى ميادين الوغى ، ويتطاولون بأقدامهم في المعارك كي لا يردهم رسول الله ﷺ لصغر سنهم (٥)

وما التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى حتى طهرت جزيرة العرب من رجس الأوثان والأصنام ، واندحرت فلول المشركين ، وعلت راية التوحيد تخفق فيما حولها من البلدان .

وأوغلوا في بلاد فارس والروم يفتحونها حصناً حصناً ، ومدينة مدينة وينفقون كنوز كسرى وقيصر في سبيل الله .

ويدخل ربعي بن عامر رضي الله عنه إلى مجلس قائد الفرس رستم ، وقد زين بالنمارق المذهبة ، والزرابي الحرير ، واليواقيت العظيمة ، واللآليء الثمينة ، فيطأ بساطه ، فيسأله رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدينا إلى سعة الدنيا والآخرة ..(٦)

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/١٢٠، عز الدين بن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م . البداية والنهاية ٢ / ٢٦١.

(٢) الجرير : حبل يجعل للبعير ، والمعنى بت ليلتي كلها استقي الماء بالحبل بعوض صاعين .

(٣) حياة الصحابة ٢/ ١٣ الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي. دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٨٢ .

(٥) ذكر الحافظ ابن كثير أن النبي ﷺ رد جماعة من الغلمان يوم أحد لصغرهم منهم : عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وعرابة بن أوس وغيرهم رضي الله عن الصحابة أجمعين . البداية والنهاية ٤/ ١٦ .

(٦) المصدر نفسه ٧/٤٠ .

وعلى ضفاف اليرموك هزم الروم ، وارتكس الصليب واندحر القسس والرهبان وغلب الموحدون وفي حين كان يسلسل جيش الروم بالسلاسل والجبال حتى لا يفر جنوده من أرض المعركة ، [١] كان الصحابة رضي الله عنهم على الطرف الآخر يتبايعون على الموت في سبيل الله [٢] . ويتدافعون شربة الماء بينهم في الرمق الآخير . فحين أثخن بعضهم بالجراح استسقوا ماء فجيء إليهم بشربة ماء ، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال : ادفعها إليه ، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ما توا جميعاً ، ولم يشر بها أحد منهم ، رضي الله عنهم أجمعين .[٣] فأي إيثار هذا .. وأي عظمة تلك !!

وفي ساحة القادسية سحقت جحافل المجوسية ، وتضعضعت أركان الدولة الفارسية ، وتهدمت بيوت النيران . وتساقطت الأقاليم في أيدي المسلمين ، وفرت عقائد المجوس والنصارى واليهود من وجه عقيدة التوحيد ، واستوى الصحابة على مقاعد الحكم في البلدان المفتوحة ، يسوسون الناس بالإسلام ، بعدله وسماحته ورعايته ، فإذا الذين كانوا بالأمس لا تجاوز نظرتهم ميدان القبيلة واهتمامات القبيلة يحكمون أقطاراً شاسعة من المعمورة ، ويرعون شعوباً كثيرة مختلفة الأعراق والألوان. ويضطلعون بقيادة البشرية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً حين رأوا ما تحلى به أصحاب هذه العقيدة من خصال شريفة، واستروحوا في ظلال حكمهم نسائم الحرية والعدل والمساواة والإخاء فانتشر الإسلام ، ورفرفت هذه العقيدة فوق العالم المتحضر في ذلك الزمن .

وكان كل ذلك بفضل هذه العقيدة التي « تحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عزة ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ..»[٤]

فكانوا بحق مصاحف تمشي على الأرض ، تنير للعالمين سبل السلام ، وتهدي جموع الضالين إلى الطريق القويم ، فرساناً بالنهار ، رهباناً بالليل ، يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين .

---

(١) الكامل في التاريخ ٢/٤١٠ ، البداية والنهاية ٧/٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ٢/٤١٣ ، البداية والنهاية ٧/ ١١ .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١١ .

(٤) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص ٤١ . الأمير شكيب أرسلان تقديم الشيخ محمد رشيد رضا . دار البشير . القاهرة .

وإذا بعمر الذي كان جباراً غليظاً في الجاهلية ، لا ينام الليل ، يتفقد رعيته ، ويرعى اليتامى والأرامل والمعوزين ، ويحاسب نفسه حساباً عسيراً . وحسبنا من سيرة الفاروق العظيمة مثال واحد لنرى كيف صنعت منهم هذه العقيدة هذه النماذج التى لم يعرف التاريخ لها مثيلاً .

قال أسلم مولى عمر : خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم ، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال : يا أسلم ههنا ركب قد قصر بهم الليل ، انطلق بنا إليهم ، فأتيناهم فإذا امرأه معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، قالت : وعليك السلام . قال : أدنو . قالت : أدن أو دع . فدنا فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : من الجوع . فقال وأي شيء على النار ؟ قالت ماء أعللهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر . فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم ، وقال : يا أسلم احمله على ظهري ، فقلت أنا أحمله عنك ، فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟ فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر ، وألقى عليه من الشحم ، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة ، ثم أنزلها عن النار ، وقال : إيتني بصحفة . فأتي بها فغرفها ثم تركها بين الصبيان ، وقال : كلوا ، فأكلوا حتى شبعوا - والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه - فلم يزل عندهم حتى نام الصغار ، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف ، ثم أقبل علي فقال : يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم .(١)

أي شفافية تنسجها تلك العقيدة !؟ وأي عاطفة تبعثها !؟

إنها العقيدة العذبة الحية التى لم تتلوث بفلسفات وعلم كلام . إنها العقيدة المثمرة الطيبة التي أنزلت لتدير دفة الحياة ، وتقاوم الريح والأعاصير ، وتشق الأمواج ، وتمخر العباب ، حتى تصل إلى بر الأمان . إنها الطاقة الضخمة الفعالة التي أنزلت لتعين الإنسان على عمارة الأرض ، والاستخلاف فيها ، إنها المنحة الربانية التى ترفع الإنسان إلى مكانته اللائقة التى خلقها الله له ، وتضعه في منزلة التكريم الإلهي العظيم .

هذه العقيدة التي أنزلت لتصوغ حياة البشر كلها على ما أراده الله عز وجل . ولم تنزل لتتحول إلى بطون الكتب ، ولا ليتلاعب بها أهل الجدل والخلاف . ويوم كانت كذلك عند الصدر الأول صاروا سادة الدنيا وقادة العالم ، ورواد البشرية ، وتحقق فيهم قول الحق جل وعلا : { **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ...** } [٥٥ النور] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ٥٦٨/٢ للحافظ ابن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان . البداية والنهاية ٧ / ١٤٠ .

وعزوا بعد ذل ، وارتفعوا بعد ضعة ، وقووا بعد ضعف ، وتمكنوا بعد تشرد ومعاناة ، وآمنوا بعد خوف ، وصاروا أئمة للناس يهدون بأمر الله لما صبروا على تبعات هذه العقيدة ، وكانوا بها يوقنون .

فكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . واستمر من جاء بعدهم يتربعون على ذرى المجد والسؤدد، ويفتلون في عرى العز والتمكين، وتخشاهم ملوك العالم، وتدفع لهم الجزية عن يدوهم صاغرون . وما زال الأمر كذلك حتى ظهرت الفرق ، ونشأ الخلاف في العقيدة التى بدأت في التحول من ميدان الحياة المتدفق بالنشاط البشري إلى ميدان الجدل النظري العقيم ، وحدثت البدع، وبدأ ذلك الكيان الإسلامي الكبير يهبط تدريجيًا مع اشتداد وطأة الانحرافات، بعد أن تداعت أركانه، وإذا بالأمة تصل إلى الحضيض السحيق في الفترة التى نحن بصددها - وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان -

وقد بينا ـ فيما سبق ـ أن هذه الفترة التي ندرسها وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان من أحرج المراحل وأشدها بالنسبة لتاريخ الأمة الإسلامية . وإن أحوال المسلمين عامة والدينية بصفة خاصة في هذين القرنين قد بلغت من الضعف والهبوط مبلغًا لم يعرف في زمن مضى، ولا تزال آثار هذه المرحلة الحرجة تقف عائقًا في طريق النهوض ، وهنا يبرز سؤال مهم ، وهو كيف وصلت الأمة إلى هذه الحالة المؤسفة والمكانة الهابطة بعد أن كانت أعظم أمة عرفها التاريخ وحفظتها الأيام ؟

وبعد أن عرفنا شيئا عن حال المسلمين في الصدر الأول ، وما كانوا عليه من العزة والرفعة والتمكين في الأرض ، نتساءل : كيف وصل الأمر إلى ما وصل إليه في هذين القرنين من السقوط السحيق ، والضعف الشديد ، وبعبارة أخرى : « كيف تأتى للأمة التي ارتفعت إلى تلك القمم الشاهقة التي لم تسبقها إليها أمة في التاريخ ولا أدركتها بعدها أمة في التاريخ ، أن تتدنى إلى هذا الدرك من الضياع والذل والهوان والهبوط المسف الذي وصلت إليه اليوم ، والذي لا تكاد تدانيه أمة في الواقع المعاصر »(١).

حقًا إنه أمر محيّر جداً وإنه بمقدار ما يعجب المرء ويبتهج لحال هذه الأمة في الصدر الأول ، فإنه يصاب بالذهول ، ويدور في دوامة من الاستغراب الحزين ، حين يرى الهوة التي سقطت فيها ، والحالة المؤسفة التي وصلت إليها في هذه المرحلة ، والتي لا تزال آثارها السيئة تنخر بقوة ، وتعمل فتاكة في حياة هذه الأمة المغلوبة على أمرها .

---

(١) واقعنا المعاصر ، ص ١١٣ .

والحقيقة التي تبدو واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، أن الأحوال التي وصلت إليها الأمة في هذه الفترة كانت بسبب تفريطها وتهاونها في أمر دينها ، حين وقع في حياة الأمة كثير من الانحرافات التي لم تعالج في وقتها علاجًا حاسمًا ، ولم يقض عليها في مهدها ، والتي لم تزدد على مر التاريخ إلا ضراوة ، حتى آل بها الحال أن جثمت في القرنين الأخيرين على حياة الأمة ، وكادت أن تقضي عليها لولا أن منّ الله عز وجل بهذا البعث الجديد الذي نراه في الصحوة الإسلامية المباركة وإن كان ما زال ينوء بعبأ هذه الانحرافات الجاثمة على كيان هذه الأمة . وفي الواقع إن هبوط الأمة من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق كان نتيجة حتمية(١). لمثل هذه الانحرافات والاعوجاجات ، وهو أمر جرى على السنة الربانية ووفقًا لها تمامًا .يقول الله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد، ١١] ، ويقول تعالى ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الأنفال٥٣] .

ويقول النبي ﷺ (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم) (٢) ، والحديث كناية عن إقبال المسلمين على الدنيا وزينتها ، وركونهم إليها حيث تركوا الجهاد في سبيل الله والبذل والعمل من أجل إقامة دين الله، فكانت النتيجة المحققة أن أصيب المسلمون بالانحطاط والضعف ، وتسلط الأعداء عليهم من كل مكان ، وتحققت بذلك نبوة الرسول ﷺ حيث نجدها واضحة جلية في الفترة التي ندرسها ، وذلك حين قال ﷺ :

(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت) (٣).

(١) بالرغم من وضوح هذه الحقيقة وورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فإن بعض المنتسبين للعلم من المسلمين يجهلونها تمامًا ، وينسبون كل ما أصاب المسلمين إلى التخلف المادي والحضاري غافلين تمامًا عن التخلف الديني الذي لحق بالأمة ، وكان السبب الحقيقي والأول في تدهور أوضاع المسلمين وانحطاط شؤونهم . هذا بالنسبة لبعض المصلحين المخلصين ، أما العلمانيون والمنافقون فهم يحاولون طمس هذه الحقيقة الناصعة ، بل لم يكتفوا بذلك حتى صاروا ينسبون كل نقيصة لحقت بالمسلمين إلى الإسلام وأنه السبب في كل ما أصاب المسلمين . انظر (التخلف العقدي) في واقعنا المعاصر ، ص ١٦٥ .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٣٤٦٢) في كتاب الإجارة ، باب النهي عن العينة من حديث ابن عمر رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود ص٦٥٥.

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩٧) في كتاب الملاحم ، باب تدعي الأمم على الإسلام ، من حديث ثوبان رضي الله عنه . وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود ص٨١٠.

فكان ذلك التداعي العظيم ، والتكالب المريع الذي قادته أوروبا الصليبية والمعروف بالاستعمار الغربي أحد الآثار الخطيرة التي ظهرت بسبب سوء الأحوال الدينية وتدهورها عند المسلمين على ما سنعرفه فيما بعد . فيا ترى ما هي هذه الانحرافات الخطيرة التي وقعت في حياة الأمة ؟ وما هي الأمراض الفتاكة التي أصابتها ، وأوصلتها إلى هذه الحالة المؤسفة ؟ هذا ما سنعرضه باختصار شديد في هذا التمهيد علماً بأن هذه الإنحرافات قد ازدادت سوءاً في القرنين الماضيين كما سنبين ذلك في الباب الأول من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

عرفنا فيما سبق كيف كان حال المتمسكين بالعقيدة في الصدر الأول ، حين آمنوا بها حق الإيمان ، وبذلوا في سبيل إعلائها وتمكينها كل غال ونفيس ، فضحوا بدمائهم وأموالهم في سبيل ذلك ، وتخلقوا بأخلاق الإسلام ، فكانوا مصاحف تمشي على الأرض ، يحبون ويبغضون في الله ، ويوالون ويعادون لله ، قاموا بأمر الدين أتم قيام، وسعوا في أرجاء الأرض لنشر كلمة الإسلام، فتحوا القلوب قبل البلاد ، وأخرجوا الناس ، من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فحق لهم أن يخلد ذكرهم في القرآن ، ويذكرهم الله عز وجل في محكم الفرقان ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [آل عمران ١١٠]

فخرج أعظم جيل عرفته البشرية في التاريخ ، جيل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، ذلك الجيل الذي تربى في مدرسة النبوة ، والذين حق لزمانهم أن يكون خير الأزمان ، وقرنهم خير القرون، يقول ﷺ : (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ...)[(١)] .

هذا حال الجيل الأول الذي استطاع أن يطيح بأعظم امبراطوريتين ، في ذلك الزمن في فترة شديدة القصر مع قلة العدد وضعف العدة ، وشغلوا الباحثين والمفكرين من غير المسلمين ، فأخذوا يبحثون عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الانتصار العظيم[(٢)] ، وإن كثيراً منهم لينفي بخبث ودهاء أن يكون الدين هو الدافع لذلك ، جرياً على عادتهم في طمس الحقائق ، وقلب الأمور .

وإننا لنتساءل أيضاً بعد رؤيتنا لما وصلت إليه الأمة في هذه الفترة : هل كان التحول من العلو إلى السفول ومن التمكين في الأرض إلى الاستضعاف والاستذلال من الأعداء ، هل كان ذلك دفعة واحدة ، وهبوطاًمفاجئاً ؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم (٣٦٥١) (الفتح ٣/٧) . ورواه مسلم برقم (٢٥٣٣) ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ١٩٦٢/٤ .

(٢) انظر مقدمة «الإسلام في القرن العشرين» للعقاد . ولماذا تأخر المسلمون ص٤١ .

بالطبع لم يكن الأمر كذلك إنما كان ذلك على مراحل متدرجة وأزمنة متعددة .« فتلك سنة من سنن الله : التدرج في كل شيء.لا شيء يأتي فجأة في أحوال الناس في الأرض (إلا العقاب الصاعق من عند الله حين يقدره سبحانه) إنما يتم كل شيء بالتدريج ، ولكن على ذات الخط الذي يريده الناس لأنفسهم من البداية. فإن أرادوا الاستقامة على طريق الله يسر الله لهم الطريق، وإن أرادوا الانحراف زادهم مما يريدون »[١] .

لقد وقع في تاريخ الأمة مجموعة من الانحرافات الخطيرة ، وتباين وقت ظهورها ، فبعضها ظهر مبكرًا ، والآخر تأخر ظهوره نسبيًا، وإن تداخلت أسبابها، واختلطت نتائجها ، وقد تباينت درجة هذه الانحرافات من حيث خطورتها وقوة تأثيرها في حياة الأمة ، ولكنها كانت مجتمعة تنزل بالأمة وتهبط بها إلى الأسفل ، وما زالت تهبط بها مع مرور الزمن حتى ألقتها في الحضيض ، وهذا أمر نحاول في هذه السطور القليلة أن نبينه ونوضحه ، فنقول : إن من أوائل الانحرافات التي وقعت في تاريخ المسلمين ومن أشدها خطورة ، ما تمثل في نشأة الفرق وظهورها في حياة المسلمين ، وما تبع ذلك من نشأة علم الكلام وانتشار الفلسفة، وقد أخبر النبي ﷺ عن ظهور الفرق فقال «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين : اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة . وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »[٢]

وفي الواقع إن من ينظر في كتب الفرق هذه ويرى كثرتها ، قد يخيل إليه أن هذه الأمة قد تمزقت أشلاءً وأحزابًا ، وإن الاختلافات بين أفرادها وجماعاتها قد بلغ الغاية ، وهذا بالطبع غير صحيح ، بل لا يتفق والواقع الذي عاشته الأمة ، الأمر الذي يشير إلى أن تلك الاختلافات ، مهما عظمت ، لم تكن أكثر من آراء لجماعات صغيرة لم يتعد أثرها في كثير من الأحيان دوائر ضيقة ومحدودة .

أما المجتمع الإسلامي العريض فقد ظل متماسكاً وظلت الجماعة المسلمة ملتفة حول كتاب ربها وسنة نبيها ، وحملت تلك الجماعة ما تضمنه الكتاب والسنة من مبادىء وقيم وانتشرت بها في أرجاء الأرض» [٣] .

---

(١) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ٨٥ ، الشيخ محمد قطب ، مكتبة السنة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

(٢) أخرجه أبي داود برقم (٣٨٤٣) في كتاب السنة ، باب شرح السنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود ص٨٦٩.

(٣) دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين «الخوارج والشيعة» ، ص ٢٥ ، د . أحمد محمد جلي ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

ولكن هذا كان في أول الأمر يوم كانت الأمة قوية ومتماسكة ، أما فيما بعد فقد طغى الموج العنيف من هذه الفرق حتى كاد يحسر العقيدة الصحيحة ويقضي عليها ، كما سنعرف ذلك فيما يأتي من البحث إن شاء الله ، وقد أصبحت الأمة الإسلامية مع توالي القرون والأزمان فرقًا متنافرة ومذاهب متناحرة ، كل فرقة تكفر الأخرى أو تفسقها وترى كل فرقة أنها وحدها على الحق والصواب، وما سواها فهو مخطيء وضال ، وتعد فرقة الخوارج من أوائل هذه الفرق ظهوراً، حيث تعددت فرقها فيما بعد وتشعبت آراؤها ، وكانت بمثابة صخرة قوية وقفت أمام الدولة الإسلامية ، أزمنة ليست بالقصيرة ، ووقائع الخوارج مع عمال ابن الزبير ، ومع الأمويين من بعدهم مشهورة في التاريخ [١] .

وقد استطاع أحد هؤلاء الخوارج أن يخضع سائر المغرب الأقصى جنوب طنجة حتى وصل إلى السوس ، وبويع بالخلافة وخاطبه البربر بأمير المؤمنين ، ولكن جيوش الخلافة تمكنت بصعوبة من القضاء على هذه الحركة [٢].

«وظل الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية ، يهددونها ويحاربونها حرباً تكاد تكون متواصلة في شدة وشجاعة نادرة ، وأشرفوا في بعض مواقفهم على القضاء على الدولة ، وظل المهلب بن أبي صفرة يجادلهم ويعاني في قتالهم الشدائد والأهوال السنين الطوال» [٣] . وبلغ الأمر بهؤلاء الخوارج أن أحد فرسانهم المشهورين يدعى شبيب بن يزيد كان يدعي الخلافة ويتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره من الغرق لنال الخلافة ولما قدر عليه أحد [٤].

ولم ينته أمر الخوارج بانتهاء الدولة الأموية ، بل كان لهم نشاط واسع النطاق في عهد الدولة العباسية واستمرت ثوراتهم المتتابعة التي استنفدت الكثير من الجهد والأموال والرجال حتى تم القضاء عليها ، وكان بالإمكان أن توجه هذه الجهود في مد حركة الجهاد إلى الخارج ، وقد نجحت بعض هذه الثورات في دحر جيوش الخلافة وإنزال الهزائم بها ، حيث استطاع أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن رستم أن يقيم دولة في مدينة تاهرت بالجزائر ، وقد استمرت هذه الدولة قرابة المائة والخمسين عاماً (من عام ١٦٢ ـ ٢٩٧ هـ) [٥] .

واستطاع الإباضية أيضاً وهم من أشهر فرق الخوارج أن يكونوا لهم دولة في عمان استقلوا بها عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح (١٣٢ ـ ١٣٦ هـ) ، وامتد نفوذها إلى جزيرة

---

(١) البداية والنهاية ، أحداث سنة ٦٥ وما بعدها .

(٢) دراسة عن الفرق ، ص ٧٤ . وهذا الخارجي يدعى : ميسرة المظفري .

(٣) فجر الإسلام ، ص ٢٥٧ ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٩٧٥م .

(٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٢/٤٥٥ ابن خلكان ، دار صادر ، بيروت . البداية والنهاية ، ٢٢/٩ .

(٥) دراسة عن الفرق ص٧١ .

زنجبار ، ولا تزال مبادىء الإباضية وأفكارهم هي السائدة في هذه الأماكن (١) ، كما لا تزال طوائف وجماعات من الإباضية تنتشر في بعض واحات الصحراء الغربية إلى الآن (٢) .

وقد انقرضت أكثر فرق الخوارج ، وانمحت طوائفها لمبادئها الغالية ، وأفكارها المتشددة التي خرجت بها عن الصراط المستقيم ، والمنهج الوسط ، ولم يبق منهم غير فرقة الإباضية التي ذكرنا أماكن تواجدها، ومع انقراض الخوارج واختفائهم ، إلا أن الفكر الخارجي لم يزل باقياً عند جماعات ظهرت في هذا العصر، منها ما يسمى بجماعة التكفير والهجرة والذين حكموا بكفر كل من لا ينتسب إلى جماعتهم (٣).

أما الفرقة الكبيرة التي كانت وبالاً وشراً على المسلمين على طول تاريخهم ، وفي جميع مراحل حياتهم ، فهي فرقة الشيعة على تعدد طوائفها واختلاف نحلها ، بدءًا بالسبئية أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الملعون ، الذي كان رأساً في إذكاء نار الفتنة والدس بين صفوف المسلمين (٤) ، والذي وصل الأمر بهم إلى تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد تأثر الشيعة في كثير من عقائدهم الباطلة بالعقائد الفارسية وغيرها(٥) .

وقد أخذ كثير من فرق الشيعة بالتمويه على الناس للدخول في فرقتهم ، مستغلين في ذلك حب الناس لآل البيت. ومع مرور الزمن استطاع الشيطان أن يضل هذه الفرقة ضلالاً بعيداً ، ويغويهم عن الصراط المستقيم إغواءاً عظيماً، وصاروا أخطر على المسلمين من الخوارج ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:«وهؤلاء (الرافضة الشيعة) إن لم يكونوا شراً من الخوارج المنصوصين فليسوا دونهم ....، فإن أولئك إنما كفروا عثمان وعلياً، وأتباع عثمان وعلى فقط ، دون من قعد عن القتال أو مات قبل ذلك ، والرافضة كفرت أبا بكر وعمر وعثمان وعامة المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وكفروا جماهير أمة محمد ﷺ من المتقدمين والمتأخرين ....، ولهذا يكفرون أعلام الملة .. ويستحلون دماء من خرج عنهم ويسمون مذهبهم مذهب الجمهور.. ويرون أن كفرهم أغلظ من كفر اليهود والنصارى؛ لأن أولئك عندهم كفار أصليون ، وهؤلاء مرتدون، وكفر الردة أغلظ بالإجماع من الكفر الأصلي؛ ولهذا السبب يعاونون الكفار على الجمهور من المسلمين كما عاونوا

(١ ـ ٢) دراسة عن الفرق ، ص٧١ .

(٣) دراسة عن الفرق ، ص١٠٨ وما بعدها . وانظر كتاب «الحكم بغير ما أنزل الله» ، وأهل الغلو» لمحمد سرور بن نايف زين العابدين ، وكتاب «ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة» لعبد الله بن محمد القرني .

(٤) انظر «عبد الله بن سبأ وأثره في الفتنة الكبرى» . د . سليمان العودة . دار طيبة . الرياض .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي ، د علي سامي النشار ، ٣٥٢/٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السابعة .

التتار على المسلمين ، وكانوا من أعظم الأسباب في خروج جنكيز خان ، ملك الكفار ، إلى بلاد الإسلام ، وفي قدوم هولاكو إلى بلاد العراق ، وفي أخذ حلب ، ونهب الصالحية ، وغير ذلك ، بخبثهم ومكرهم ، لما دخل فيه من توزر منهم للمسلمين وغير من توزر منهم ، وبهذا السبب نهبوا عسكر المسلمين لما مر عليهم وقت انصرافه إلى مصر في النوبة الأولى ، وبهذا السبب يقطعون الطرقات على المسلمين . وبهذا السبب ظهر فيهم من معاونة التتار والإفرنج على المسلمين ، والكآبة الشديدة بانتصار الإسلام ما ظهر .

وكذلك لما فتح المسلمون الساحل ـ عكة وغيرها ـ ظهر فيهم من الانتصار للنصارى وتقديمهم على المسلمين ما قد سمعه الناس منهم ، وكل هذا الذي وصفت بعض أمورهم ، وإلا فالأمر أعظم من ذلك .... فهم أشد ضرراً على الدين وأهله ، وأبعد عن شرائع الإسلام من الخوارج الحرورية ، ولهذا كانوا أكذب فرق الأمة .. فليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أكثر كذباً ولا أكثر تصديقاً للكذب وتكذيباً للصدق منهم ، لا سيما النفاق فيهم أظهر منه في سائر الناس وكل من جربهم يعرف اشتمالهم على هذه الخصال ، ولهذا يستعملون التقية التي هي سيما المنافقين ، واليهود ، مع المسلمين ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ .... وهم يوالون اليهود والنصارى والمشركين على المسلمين وهذه شيم المنافقين ...... وهم مع هذا يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يقيمون فيها جمعة ولا جماعة ، ويبنون على القبور المكذوبة مساجد يتخذونها مشاهد ..... حتى إن من مشائخهم من يفضلها على حج البيت الذي أمر الله به ورسوله ، ووصف حالهم يطول [١] .

ومازال أمر هؤلاء الشيعة في زيادة حتى بلغ بطائفة القرامطة وهم من غلاتهم أن يروعوا الآمنين من المسلمين في أنحاء عديدة من الدولة الإسلامية ويعيثوا في الأرض فساداً ، حتى آل بهم الحال إلى اجتياح البلد الحرام ، وهتكوا الحرمات ، وسفكوا دماء الحجيج ، ودفنوا القتلى في بئر زمزم ، وقلعوا باب الكعبة ، وأخذوا الحجر الأسود معهم [٢] ، وألحدوا في الحرم إلحاداً بالغاً عظيماً ، وقتلوا من العلماء والحفاظ خلقاً كثيراً ، ومن الناس من لا يحصيهم إلا الله ، وهابت الدولة جانبهم ، وكسروا جيوشها في عدة مواقع . وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنع أنهم كفار زنادقة ، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنة ببلاد إفريقيا من أرض المغرب [٣].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢/٤٧٧ ـ ٤٨٢ .

(٢) مكث الحجر الأسود عند القرامطة اثنتين وعشرين سنة ، من عام ٣١٧هـ إلى ٣٣٩هـ .

(٣) راجع أخبار القرامطة في البداية والنهاية ١١/٦٥ ـ ٣٢٤ ، من أحداث سنة ٢٧٨ هـ إلى أحداث سنة ٣٧٥ هـ .

ولم يكن ظهور القرامطة غريباً أو مفاجئًا في نهاية القرن الثالث (٢٧٨هـ) ، فالخطة التي وضعها الملاحدة الباطنيون لضرب الإسلام كانت تقضي بنشر الدعاة في كل مكان يتظاهرون بالتقوى إذا وجدوا في بيئة سنية تقية ، ويتظاهرون بحب الفلسفة إذا وجدوا في بيئة تحب الفلسفة . ومن هؤلاء الدعاة : حسين الأهوازي الذي حل بسواد الكوفة واستطاع إغواء الهمج الرعاع ، ونقلهم من حال إلى حال حتى وصل بهم إلى مذهب الإباحية والكفر، واستباحة قتل المسلمين ، وكان من أشياعه حمدان قرمط ، فسمي أتباعهم بالقرامطة [١].

ثم ابتلي المسلمون حين ضعف أمر الخلافة بطائفة من الشيعة وهم البويهيون حيث استطاعوا أن يسيطروا على مقاليد الحكم في بغداد ، وأن يهينوا الخلفاء العباسين الذين ليس بيدهم من الأمور شيء ، وقد أراد البويهيون نزع الخلافة من العباسين وإعطائها لإخوتهم العبيدين بزعمهم أنهم من آل البيت ، ثم عدلوا عن ذلك .

وقد لاقى أهل السنة في عهد بني بويه الكثير من المآسي والنكبات ، فكانت لا تمر سنة واحدة إلا ويحدث بين الرافضة وأهل السنة كثير من المصادمات والفتن، حيث كان الرافضة في يوم عاشوراء من كل عام يفعلون بدعتهم الشنعاء ويغلقون الأسواق ، ويخرج نساؤهم حاسرات سافرات نائحات على الحسين ويلطمن وجوههن ، ويكتبون على أبواب المساجد لعنة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، وكتبوا أيضاً : ولعن الله من غصب فاطمة حقها وكانوا يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان، والحكام البويهيون يأمرون بذلك ، ويذودون عن إخوتهم الرافضة .

وكان هؤلاء البويهيون على صلة بالقرامطة والعبيديين في مصر، واستطاع بنو حمدان وهم من الشيعة أيضاً أن يقيموا لهم دولة في حلب والموصل وما جاورهما ، وإن كان لبني حمدان دور في صد غارات الروم وجيوشهم ، فإن لهم من التشيع والتواطؤ مع القرامطة شيء عظيم [٢] .

كما نجح العبيديون [٣] أيضاً في بسط سلطتهم على بلاد المغرب ومصر والشام ، وقد امتلأت البلاد رفضاً وسباً للصحابة من بني بويه وبني حمدان والفاطميين (العبيديين) ، وكل ملوك البلاد مصراً وشاماً وعراقاً وخراسان وغير ذلك من البلاد، كانوا رفضاً ، وكذلك الحجاز وغيره ، وغالب بلاد المغرب ، فكثر السب والتكفير منهم للصحابة [٤] .

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ، ص٥٣ ، محمد العبدة ، المنتدى الإسلامي ، لندن ، ١٤١١هـ .

(٢) البداية والنهاية ٢٧٠/١١ .

(٣) العبيديون المشهورون زوراً وبهتاناً بالفاطميين . راجع قضية النسب الفاطمي أمام منهج النقد التاريخي . د . عبد الحليم عويس .

(٤) البداية والنهاية ٢٤٧/١١ .

وقد كان هؤلاء العبيديون أشر حالاً وأكثر وبالاً ، وقد حكم العلماء بكفرهم وفسوقهم وفجورهم وأنهم ملحدون زنادقة، معطلون، وللإسلام جاحدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، وأحلوا الخمر وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية ، وكذبوهم في ادعائهم النسب إلى فاطمة [(١)].

وقد استمرت هذه الدولة الرافضية الباطنية قريباً من ثلاثمائة سنة [(٢)] ، حتى زالت على يد الملك العادل الصالح السلطان صلاح الدين الأيوبي – رحمه الله – ، وفي عهد هذه الدولة الأسود استحوذ الفرنج على سواحل الشام وبلاد الشام كلها، حتى بيت المقدس ، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها ، وجميع السواحل مع الفرنج ، والنواقيس النصرانية والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهق الحصون والقلاع ، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع [(٣)] .

وقد استطاع الصليحيون أيضاً وهم من غلاة الشيعة أن يقيموا لهم دولة في اليمن استمرت قرابة القرن من الزمن ، حاولوا خلالها ضم الحجاز لهم ، وكانوا دعاة للعبيديين في مصر ، وكانوا أيضاً من غلاة الشيعة الذين يسعون إلى هدم العقيدة وتقويض شرائع الإسلام، شأنهم في ذلك شأن القرامطة والعبيديين ، وغيرهم من طوائف الباطنية الأشرار، وإن من يقرأ التاريخ بتمعن ، ويربط الأحداث ببعضها البعض يرى أن العلاقات بين هذه الدول الشيعية كانت في قمتها ، حيث التعاون فيما بينها كان على مستوى كبير ، محاولين بذلك إحكام القبضة والسيطرة على العالم الإسلامي . والجدير بالذكر وهو مما يؤسف له حقًّا، إن هذه الدول أو أكثرها قام على أكتاف السنة ، ولو أن هؤلاء لم يساعدوا على قيامها ، أو لو أنهم قاوموها لانهارت بأقرب فرصة ، ولكن غفلة عوام السنة تجعلهم ألعوبة بيد أعدائهم ، يضربون بهم ، ويقيمون العروش على أكتافهم ، فقبائل كتامة لم تكن شيعية أو إسماعلية [(٤)] قبل أن يتلاعب بهم أبو عبد الله الشيعي[(٥)] ، وهم الذين أقاموا الدولة العبيدية ، والبويهيون حكموا بغداد عاصمة الخلافة ، وكان من العلماء والوزراء السنة من يعمل معهم ويساعدهم [(٦)] .

---

(١) انظر الوثيقة التي أصدرها العلماء في بغداد عام ٤٠٢هـ ، بشأن العبيديين في الكامل في التاريخ ٢٣٦/٩، و البداية والنهاية ٣٦٩/١١ .

(٢) البداية والنهاية ٢١٩/١٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢٥٦/١١ .

(٤) الاسماعيلية : فرقة من غلاة الشيعة وتسمى بالباطنية ، راجع دراسة عن الفرق ، ص ١٩٣ - ٢٣٩ .

(٥) أبو عبد الله الشيعي ، أحد المؤسسين للدولة العبيدية . راجع كتاب «المقفى الكبير» للمقريزي ، ص٢٥ وما بعدها ، تحقيق/ محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي ، ط١ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م . والبداية والنهاية ١٢٣/١١، ١٢٤ .

(٦) أبعيد التاريخ نفسه ، ص٦١ .

وفي أثناء حكم هؤلاء الشيعة الروافض اشرأبت أعناق اليهود والنصارى ، وقويت شوكتهم ، وصاروا أكابر بعد أن كانوا صاغرين ، ووصل بعضهم إلى كراسي الوزارة ، وألحقوا بالمسلمين من المظالم ما الله به عليم ، واستطاع الصليبيون في عهدهم الأسود أن يستولواعلى بيت المقدس دون أن يبذل واليها من قبل العبيديين أدنى مقاومة ، ولكن الله عز وجل أبطل مكر الشيعة وأوهن كيدهم ، وحل الخلل والضعف في دولهم ، ومكن لدينه ، وأظهره على دين الشيعة ومذهبهم، وذلك بظهور دولتين سنيتين قويتين وهم الغزنويون والسلاجقة .

أما الغزنويون فقد أعادوا للجهاد قيمته ورفعوا رايته، ووصلت فتوحاتهم إلى الهند ، وأحرقوا كتب العبيديين ، ورفضوا دعوتهم حين دعوهم وقتلوا داعيتهم ، وقتلوا من الباطنية خلقًا كثيراً [١].

وأما السلاجقة فقد استطاعوا أن ينقضوا على البويهيين الرافضة في بغداد ، ويحرروا الخلافة العباسية من ربقتهم، بعد أن وصل بهم الحال في آخر الأمر أن دعوا على المنابر لخليفة العبيديين [٢]، وأرادوا أن يكون للشيعة كامل السلطان وعظيم الهيمنة على ديار الإسلام كلها ، ولكن الله فضحهم وسلبهم ملكهم ورد كيدهم في نحرهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، بأن قيض الله لهذه الأمة من أظهر دينه ، وأعلى كلمته ، وهم السلاجقة الذين ردوا للخلافة اعتبارها ومكانتها ، وأبطلوا ما كان يفعله الرافضة من السب للصحابة ، ومن البدع الشنيعة الأخرى، وخرج التوقيع من ديوانهم بكفر من سب الصحابة وأظهر البدع [٣] .

وقد أبلوا بلاء عظيماً في رد عاديات الروم وغيرهم وكسروهم في موقعة « الزهوة» حيث أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والكرخ والفرنج وعدد عظيم وعُدَد، ومعه خمسة وثلاثون ألفًا من البطارقة ، مع كل بطريق مائتا ألف فارس [٤] ، ومعه من الفرنج خمسة وثلاثون ألفًا، ومن الغزاة الذين يسكنون القسطنطينية خمسة عشر ألفًا ، ومعه مائة ألف نقاب وحفار ، وألف روزجاري، ومعه أربعمائة عجلة تحمل النعال والمسامير، وألفا عجلة تحمل السلاح والسروج والقرادات والمناجيق ، منها منجنيق[٥] عدة ألف ومائتا رجل ، ومن عزمه قبحه الله أن يبيد الإسلام وأهله . ولكن السلطان «ألب أرسلان» وجيشه الذين بلغوا عشرين ألفًا كسروهم كسرة فظيعة ، وهزموهم هزيمة منكرة وأسروا أرمانوس [٦] .

---

(١) البداية والنهاية ١٢/٣٠ ـ ٣٢ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٨٦ . (٣) المصدر السابق ١٢/٩٩ .

(٤) لعله «مائتا فارس» فقط وهو الأقرب .

(٥) يبدو أن هنا سقطًا في الأصل لعله : «يجره عدة» .

(٦) المصدر السابق ١٢/١٠٧، ١٠٨ .

ولكن الرافضة والباطنية وسائر طوائف الشيعة كادوا يغصون بهذا النصر العظيم ، ويشرقون بهذه الدولة السنية الفتية ، وكعادتهم دائماً إذا كانت الدولة عليهم ، والغلبة لخصومهم ، فإنهم مثل الثعابين والأفاعي الخبيثة ، سرعان ما يختفون ، ويبدأون يحيكون الدسائس ، ويرسمون المؤامرات تحت جنح الظلام .

وقد اتخذ هؤلاء الباطنيون المجرمون أسلوب الاغتيالات لتنفيذ أهدافهم ومخططاتهم ، في ضرب الدول والمجتمعات السنية ، فقتلوا الوزراء والملوك والعلماء في الأوقات الحرجة وتحالفوا مع أعداء الإسلام من الصليبيين والتتار(١) . فقتلوا الوزير نظام الملك الذي كان من خيار الوزراء ، وقتلوا ابنه الوزير فخر الملك ، وقتلوا الوزير أبا طالب السميرمي وزير السلاجقة وقتلوا صاحب حلب آقسنقر في مقصورة جامعها يوم الجمعة، وقتلوا الخليفة العباسي المسترشد وقطعوه قطعاً (٢)، وقتلوا أيضاً تاج الملوك وسلطان دمشق بوري بن طغتكين ، والذي قتل من الباطنية خلقاً كثيراً ، وكان كثير الجهاد، لا يفتر من غزو الفرنج (٣) .

وقتلو أمير الموصل «مودود» الذي أبلى في جهاد الصليبين بلاءً حسناً ، وانتزع من أيديهم حصوناً كثيرة (٤) . وقد حاولوا اغتيال السلطان صلاح الدين الأيوبي غير مرة وجرحوه في إحدى المرات (٥)، وغير هؤلاء من ملوك الإسلام وحكامهم في أحرج الفترات ، وأضيق المآزق .

وقتلوا من العلماء الكثير فممن قتلوا من العلماء القاضي «عبد الواحد بن أحمد الروياني» شيخ الشافعية ، قتلوه بجامع آمل بطبرستان (٦) . وقتلوا «أبا المظفر الخجندي الواعظ» بالري (٧) . وقتلوا القاضي أحمد بن نصر الهروي بهمذان (٨)وغيرهم .

وتحالفوا مع أعداء الإسلام ومن أجل ذلك أخذوا يضربون القادة والملوك والعلماء من أهل السنة، وسلموا للصليبين كثيراً من الحصون ومنها حصن بانياس حيث باعوه لهم (٩) . هذا بالإضافة إلى ثوراتهم الكثيرة وسفكهم دماء الألوف من المسلمين .

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ، ص٢٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٢/١٥٠، ١٧٩، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢٣ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، للحافظ الذهبي ، تحقيق وتخريج : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٤) البداية والنهاية ١٢/١٨٥ .

(٥) سير أعلام النبلاء ٢١/٢٨٠ .

(٦) المصدر السابق ١٩/٢٦٢ .

(٧) البداية والنهاية ١٢/١٧٤ .

(٨) المصدر السابق ١٢/٢٠٩ .

(٩) سير أعلام النبلاء ١٩/٥٧٥ .

وهكذا كان هؤلاء الرافضة الباطنية خنجراً مسموماً استغله أعداء الإسلام من التتار والصليبين واليهود ، ونتيجة لغفلة المسلمين وتهاون خلفائهم ، تمكن الرافضي الخبيث «محمد بن أحمد بن محمد العلقمي» من الوصول إلى وزارة الخليفة المستعصم بالله ، فكانت النتيجة لتلك الغفلة والثقة بأمثال ابن العلقمي من الرافضة أن حل بالدولة الإسلامية والخلافة العباسية ، من الاجتياح الهمجي ، والاحتلال البربري من قبل هولاكو وجيشه من التتار المجرمين ، حيث قتل الخليفة وقتل من أهل بغداد ما يقدر في بعض الروايات بمليون وثمانمئة ألف قتيل (١)، فيهم من العلماء والحفاظ والفقهاء والأمراء والأعيان الجم الغفير وكل ذلك كان بسبب ممالأة هذا الوزير الرافضي ومصانعته لهولاكو وقطعان التتار الهمج .

وقد بدأ هذا الوزير الخبيث جريمته النكراء بأن أخذ يجتهد قبل مجيء التتار في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من ديوان الجند ، وقطع مرتباتهم إذ بلغ عدد العساكر في أواخر عهد المستنصر - والد المستعصم الذي استوزر هذا الرافضي - قريباً من مائة ألف مقاتل ، فلم يزل يجتهد هذا الوزير العميل في تقليلهم حتى لم يبق منهم سوى عشرة آلاف مع نقص اعطياتهم ، ثم أخذ قبحه الله يكاتب التتار ويطمعهم في البلاد طمعاً منه أن يزيل السنة بالكلية ، وأن يظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من العبيديين إخوته بالرفض ، وأن يبيد العلماء والمفتين (٢) ، ومازال دأبه ذلك حتى حل بالمسلمين من سقوط الدولة وذهاب الملك والصولة ، ولم ينج أحد من أهل بغداد غير الوزير وأهل بيته ومن التجأ إليه وأهل الذمة من اليهود والنصارى ، وكل ما وقع بسبب غفلة أهل السنة وتهاونهم في أمر هؤلاء الرافضة الذين يجعلون التقية دينهم ، واتخاذهم وزراء ، والركون إليهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد ردح من الزمن تمكن الشيعة الصفويون من أن يقيموا لهم دولة قوية في فارس ، قامت بينها وبين الدولة العثمانية كثير من المصادمات العنيفة والحروب الضارية ، وقد عملت هذه الدولة الشيعية على نشر المذهب الشيعي في الأناضول ، وهي الموطن الأصلي للدولة العثمانية ، ولقي المذهب الشيعي استجابة واسعة بين رعايا الدولة وبخاصة في شرق الأناضول ، ولكن السلطان سليم الأول أحس بالخطر الشيعي القادم ، فجيش الجيوش وجند الأجناد واستطاع أن ينزل الهزيمة بالشاه إسماعيل ملك الصفويين ، ودخل عاصمتهم تبريز ، واستولى على كثير من الأقاليم التي كانت تحت يدهم ، ولكنه لم يقض عليهم تماماً بسبب انشغاله بالحروب والفتوحات في الشرق العربي

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢١٥ .

(٢) المصدر السابق ١٣/٢١٣ - ٢١٦ .

الإسلامي [١] . ولا تزال طوائف الرافضة إلى يومنا هذا تسيطر على فارس وتعمل على نشر مذهبها في أنحاء العالم .

أما جماعات الباطنية فقد استمرت على خط سيرها الأثيم في زعزعة الأمن والاستقرار، وإحلال الفوضى مع تعاونهم السافر مع أعداء المسلمين ، وكانوا بمثابة طابور خامس يطعن في ظهور المسلمين من الخلف .

جاء في الفتوى المشهورة لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ التي أصدرها في شأن طائفة النصيرية وما اقترفوا من الجرائم من عداوتهم للمسلمين وحربهم لهم ، ووقوفهم مع أعداء المسلمين . يقول رحمه الله : «من المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم ، وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين ، فهم مع النصارى على المسلمين ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل ، وانقهار النصارى ، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ومن أعظم أعيادهم إذا استولى ـ والعياذ بالله تعالى ـ النصارى على ثغور المسلمين . إلى أن قال : فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على السواحل ، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره [٢].

ويقول أيضاً : وأما استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم ، فإنه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرعي الغنم ، فإنهم من أغش الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة [٣] . ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأجره في فتواه ونصيحته التي خالفها المسلمون كثيراً ، ولم يحترزوا من هؤلاء الباطنية الخبثاء .

وقد قام كل من النصيرية والدروز وهما من غلاة الشيعة بكثير من الثورات والحروب ضد الدولة العثمانية ، وقد بلغ عدد الدروز في فترة من الزمن مائة ألف ، واتصلوا بالنصارى الصليبيين ، كما اتصلوا بحكام فارس الرافضيين ، وتسببوا في خلق متاعب كثيرة للدولة ولجيرانهم [٤].

وما تزال طوائف الدروز والنصيرية موجودة إلى الآن في كل من سوريا ولبنان ، وتاريخ النصيرين منذ أن وجدوا في هذه المنطقة ، تاريخ أسود مشبوه ، إذ أنهم لم يخرجوا على العقائد

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ١٨/١ ـ ١٩ ، د . عبد العزيز الشناوي ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٥م .

(٢) مجموع الفتاوى ١٥٠/٣٥ ـ ١٥١ .

(٣) المصدر السابق ١٥٥/٣٥ .

(٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٧٤٠/٢ .

الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب ، بل إنهم كانوا دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية ، يتآمرون ضدها في الخفاء ، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً [١] .

أما الدروز فلا يقلون عنهم خبثاً ومكراً ، وتعاونهم مع الصهاينة في إسرائيل لا سيما أولئك الذين يعيشون في إسرائيل ، والذين أصبحوا جزءاً من المجتمع الصهيوني [٢] .

وهكذا ظل الشيعة على تباين نحلهم واختلاف طوائفهم العدو الأكبر والخطر الأعظم على المسلمين ، وقد رأينا أنهم حينما وصلوا إلى الحكم ، سرعان ما ألقوا بأقنعتهم المزيفة ، وكشفوا عن وجوههم الخبيثة ، وظهر ما كان مختفياً من الحقد والكراهية ضد المسلمين ، فاضطهدوهم وقتلوهم وعذبوهم ، ولولا أن الدين محفوظ من عند الله ، وأن الله يبعث له من يجدده ويظهره لاستطاع هؤلاء الأشرار القضاء على الإسلام ، وإبادة المسلمين نهائياً .

فالشيعة هي الفرقة الكبرى والشوكة المسمومة التي تولت كبر شق عصا المسلمين وتفريق كلمتهم، وإضعاف أمرهم ، «فبهذا تبين أنهم شر من عامة أهل الأهواء وأحق بالقتال من الخوارج»[٣]

على أن من أخطر ما أدخله الزنادقة والشيعة على الإسلام هو إظهار الشرك في الأمة . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية « فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك ، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد ، وتعطيل المساجد ، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف المعصوم ، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب أهل الكتاب ، حتى صنف كبيرهم ابن النعمان كتاباً في «مناسك حج المشاهد» وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه ، وغيروا ملته ، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد ، فصاروا جامعين بين الشرك والكذب . . » [٤] ، وما زال الشرك تضطرم ناره ، وينتشر لهيبه ، حتى كان غالبًا على الأمة في القرون المتأخرة كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى .

كل ما تقدم كان من أعظم الجنايات التي جنتها هذه الفرق على المسلمين ، على أن هناك كثيراً من الفرق الأخرى قد ألحقت بالإسلام والمسلمين أضراراً خطيرة بغير قتال وحروب في كثير من الأحيان كما فعلت الشيعة ، وإنما جاء خطرها عن طريق غزو العقائد ومحاولة تحريفها وذلك بعد أن ترجمت الكتب اليونانية والإغريقية المشحونة بالوثنيات القديمة والفلسفات العقيمة ، وقد دخل على المسلمين بسبب ذلك من الشرور والشبهات والشكوك ، ما تمخض عن نشأة كثير من الفرق التي

---

(١) دراسة في تاريخ الفرق ، ص٣٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٣٥٤ .

(٣) مجموع الفتاوى ٤٨٢/٢٨ .

(٤) المصدر السابق ١٦٢/٢٧ .

سببت زعزعة واضطراباً فكرياً عند كثير من أبناء المسلمين ، وكان المعتزلة من مهجنة هذا الغزو الفكري ، حيث تمثل منهجهم الخاطىء في تحكيم العقل في كل شيء ، وكان اعتمادهم على القضايا العقلية عند دراستهم لأمور العقائد ، فكل مسألة من مسائلهم يعرضونها على العقل ، فما قبله أقروه، وما لم يقبله رفضوه [(١)] .

وما زال أمر هؤلاء المعتزلة يزيد ، وشرهم يعظم ، حتى أصبحوا من أكابر الدولة العباسية ، وقد استطاعوا أن يزينوا للمأمون القول بخلق القرآن ، وقاموا بتأليب الدولة على امتحان الناس للقول بهذه البدعة الشنعاء والداهية الدهياء ، ومن لم يجب دعوتهم ، وينتحل بدعتهم ، قطعوا جرايته ، أو سجنوه وعذبوه ، أو حكموا بقتله، ولم تنته هذه الفتنة بموت المأمون، بل سار من جاء بعده من الخلفاء على طريقته وسيرته ، وامتلأت السجون في هذا العهد المظلم بعلماء الأمة وخيرتها ، واستمر المعتصم ثم الواثق في امتحان الناس ، وعظم الخطب ، واشتد المصاب بالمسلمين ، وتزلزلت كثير من الأقدام ، وثبت الله نفراً من علماء الأمة وقفوا بحزم وشجاعة في وجه هذا الطغيان المعتزلي المؤيد بقوة الدولة وسلطانها، ومن هؤلاء العلماء رأسهم وإمامهم إمام أهل السنة أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله، حيث سجن شهوراً ، وجلد وأوذي في الله كثيراً ، ثم أعز الله أهل السنة ورفع البلاء عنهم ، بعد أن تولى الخلافة المتوكل فأظهر السنة ورفع لواءها ، وقمع البدعة ونكل بدعاتها ، فاضمحل شأن المعتزلة سياسياً .

أما فكرهم ومنهجهم فقد ظل ردحاً من الزمن يشتغل به كثير من العلماء ، ولكن الزمن تكفل بطمس هؤلاء المعتزلة ، إلا أن فكرهم ما زال موجوداً عند فئة العقلانيين في عصرنا ، من الذين مجدوا العقل وضخموا دوره على حساب الدين . ولم يكن المعتزلة وحدهم الذين تأثروا بالعقلانية الإغريقية وانحرفوا بها عن عقيدة الإسلام الصحيحة ، فكل الذين خاضوا في قضايا الصفات من «المتكلمة» وفي قضايا القضاء والقدر والجبر والاختيار كان اعتمادهم في «الكلام» الذي قالوه على تلك العقلانية التي تعطي العقل أكبر من حجمه الحقيقي، وتجعله هو المرجع وهو الحكم في كل قضايا الوجود[(٢)]

وهذا في الحقيقة كان شأن جميع الفرق والطوائف ـ عدا أهل السنة والجماعة ـ ومع هذه الفرق نشأ ما يسمى بعلم الكلام ، الذي يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي ثبتت بالوحي[(٣)] .

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية ١٤٤/١ ، الشيخ محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .

(٢) واقعنا المعاصر ، ص ١٢٧ .

(٣) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ، ص١٢٥ ، د . عرفان عبد الحميد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

وهكذا خرجت جميع الفرق عن الخط الأصيل للكتاب والسنة وحادت عن الصراط المستقيم ، وأخذ كل منها يبحث ويأتي بأدلة وحجج واعتراضات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يأمرهم الله بهذا ، ولا كلفهم بها ، فانزلقوا إلى تصورات لا هي إسلامية صافية ، ولا كانت العقيدة الإسلامية الواضحة البسيطة السمحة في حاجة إلى شيء منها، ولا هي قدمت أي خدمة لتلك العقيدة بل حولتها من تصور صاف ووجدان حي وسلوك عملي يقصد به مرضات الله ، إلى قضايا ذهنية تجريدية باردة، لا تزيد الإيمان، إن لم تبعث على إثارة الشكوك والشبهات المناقضة للإيمان ، ولا تحرك الوجدان ، ولا تؤدي إلى سلوك واقعي (١) .

وإن المرء ليعجب أشد العجب من كثرة ما كتبه هؤلاء المتكلمة من مؤلفات وكتب فتمر عليك الصفحات منها دون أن تكتحل عيناك منها برؤية آية واحدة ، أو حديث واحد ، وهم يبحثون كما يقولون في أصول الدين وفي مسائل الإيمان ، إنما هي تصورات ذهنية ، وفلسفات قديمة (قد أكل الدهر عليها وشرب) ، واستدلالات تورث الحيرة والشك ، أفنوا أعمارهم ، وأهدروا أوقاتهم ، في أشياء غير نافعة وجهود ضائعة ، ولسان حالهم كقول قائلهم :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك العوالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقنه أو قارعاً سن نادم(٢)

أو كقول الآخر :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قال وقالوا(٣)

وتعتبر فرقتا الأشاعرة والماتريدية (٤) من أكبر الفرق الإسلامية ، ومن أعظم طوائف المتكلمة ، والتي لا تزال إلى اليوم تمثل نسبة كبيرة بين المسلمين ، وقد وصل الأمر بالأشاعرة في بعض الأحيان إلى محاربة عقيدة السلف والنيل من علمائها ، واستعداء السلطة عليهم ، كما فُعل بالحافظ

---

(١) واقعنا المعاصر ، ص١٢٧ .

(٢) البيتان للشهرستاني محمد بن عبد الكريم ، صاحب كتاب «الملل والنحل» ، المتوفي سنة ٥٤٩هـ . سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٢٠.

(٣) الأبيات لفخر الدين الرازي ، المتوفى سنة ٦٠٦هـ . سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢١ .

(٤) الأشاعرة : أتباع أبي الحسن الأشعري . والماتريدية : أتباع أبي منصور الماتريدي . انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص١٨٠ وما بعدها ، ص١٩٥ وما بعدها .

عبد الغني المقدسي [١] ، حين طردوه من البلد ، ومن قبله بأبي إسماعيل الهروي [٢] ، والذي جرى منهم لشيخ الإسلام ابن تيمية أمر مشهور ، حيث تسببوا في نفيه وسجنه وحرق كتبه ، وآذوه وأتباعه أشد الإيذاء ، حتى صار كثير منهم يخفي عقيدته حتى لا تطوله أيدي هؤلاء المبتدعة من الأشاعرة وغيرهم، واستمر هؤلاء المتكلمة في نشر عقائدهم الكلامية ، ومحاربة العقيدة الصحيحة، ومنع القراءة في كتب هذه العقيدة وعلمائها كابن تيمية وغيره ، ومما يؤسف له أن كان للأزهر من هذه العداوة أوفر الحظ والنصيب ، حيث لم يكن لحاملي هذه العقيدة من العلماء فيه مكان يذكر ، ولم ترتفع راية هذه العقيدة فوق منبره يوماً من الأيام ؛ لأن المتكلمين ورثوه بعد زوال مؤسسيه من العبيديين وعملوا على نشر مذهبهم دون مذهب السلف .

على أن من أعظم الأخطاء التي أخرجتها هذه الفرق من المتكلمين مشكلة الإرجاء ، وهي القول بأن الإيمان تصديق وإقرار دون إدخال العمل في مسمى الإيمان خلافاً لما تواتر عن السلف الصالح من أن الإيمان قول وعمل ، قول القلب وقول اللسان ، وعمل القلب وعمل الجوارح وفي الواقع إن هذه المشكلة العويصة ، وهي مشكلة الإرجاء لم تؤت ثمارها السيئة إلا بعد مضي الزمن ، حيث تساهل الناس في كثير من التكاليف الشرعية وفرطوا فيها، وتباطأوا عن العمل لأن فيه مشقة ، فجاء الإرجاء فأطمعهم في نيل الثواب وتحصيل الأجر، ماداموا مؤمنين بقلوبهم ومقرين بألسنتهم، فعند ذلك تراخى الكثير من المسلمين عن العمل ، وتقاعسوا عن العبادات في صورتها الصحيحة .

وما دام أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص على رأي أولئك المتكلمين فما فائدة العمل ؟ إذ إن من يعمل كثيراً وينصب ويجهد نفسه في العمل كمن لا يعمل شيئاً البتة. إيمانهم ثابت لا يزيد ولا ينقص.

وهذه في الواقع من المصائب الكبرى التي جناها المتكلمون على الإسلام ، إذ كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقاً في القلب وإقراراً باللسان دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة [٣] ؟ وسنتحدث عن هذا الأمر بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى عند حديثنا عن انحسار العقيدة في القرنين الأخيرين .

---

(١) هو الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي ، ولد سنة ٥٤١هـ ، برز في علوم كثيرة ، وبرع في الحديث وأسماء الرجال خاصة ، امتحن غير مرة بسبب عقيدته السلفية . مات سنة ٦٠٠هـ .
انظر البداية والنهاية ٤٢/١٣ .

(٢) هو الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري لهروي ، ولد سنة ٣٩٦هـ ، نعته الذهبي بشيخ الإسلام . مات سنة ٤٨١هـ .
انظر سير أعلام النبلاء ٥٠٩/١٨ ـ ٥١٢ .

(٣) واقعنا المعاصر ، ص١٢٩ .

ومن الانحرافات الخطيرة التي ظهرت في تاريخ الأمة والتي ماتزال إلى وقتنا هذا ، ما يسمى بالصوفية ، هذه الطائفة التي ابتلي الإسلام والمسلمون بها ، والتي صارت مع الزمن طرقًا كثيرة ومذاهب عديدة . والصوفية من أعظم الرزايا التي رزىء بها الإسلام على طول تاريخه ، والتي ألحقت بالمسلمين ما لا يعلمه إلا الله ، من الضعف والخور والخنوع والخضوع للواقع المؤلم دون محاولة لتغييره .

وقد استشرى مع الزمن ضررها ، وتعاظم خطرها ، ومازالت تعلو وتنتفش حتى وصل بها الحال في القرنين الماضيين وقبلهما بزمن يسير إلى أن صارت في عرف السواد الأعظم من المسلمين هي الدين ، ودخل فيها من الطقوس والبدع والخرافات في تقديس الشيوخ ماجعل الكثير من هؤلاء الصوفية ينسون الله سبحانه وتعالى ، ويفرون في الأزمات ، ويلجؤون إلى شيوخهم من دون الله من الذين اتخذوهم أربابًا ، يلتمسون منهم كشف ماحل بهم ، وإزالة الضيم الذي وقع عليهم .

ومع الصوفية جاء الموج الهائل من البدع والخرافات والأساطير ، والتي لوثت عقول الكثيرين من المسلمين ، ويكفي من هذه البدع بدعة المولد وحدها ، ومايحدث فيها من إنشاد القصائد الشركية، والمنظومات الكفرية ، وقتل عواطف المسلمين تجاه نبيهم بهذا الابتداع بدلاً من توجيههم إلى العمل بسنته ، وتحكيم شرعه . أضف إلى ذلك مايحدث في هذه الموالد من الإسراف والتبذير .

ويذكر الحافظ ابن كثير أن المولد كان يصرف عليه في بعض الأحيان ثلاثمائة ألف دينار (١) وهذا مبلغ ضخم في ذلك الزمن كان الأولى صرفه في الجهاد الذي كان قائمًا مع الصليبيين ، وفي حفظ الثغور والمدن الإسلامية . ونظرًا لخطر هذا الانحراف الصوفي ، وتفشيه بين المسلمين خصوصًا في الماضي ، فسنفرد له فصلاً كاملاً - إن شاء الله - لنرى كم سببته هذه الصوفية من النكبات والبلايا للمسلمين .

كما أن من الانحرافات التي وقعت أيضًا عند المسلمين ما يسمى بالتعصب المذهبي بين أتباع المذاهب ، والتي كان يصل العداء بين أتباعها من المتعصبين إلى حد التقاتل والتخاصم ، وكم روت لنا كتب التاريخ من المآسي والمصائب بسبب هذا التعصب . فكم من عالم أخرج من بلد لمخالفته مذهب أهل ذلك البلد، وكم من مرة وقع القتال بين هؤلاء المتمذهبين وقامت بسببهم فتنة عمياء يهلك فيها خلق كثير ، وصار كثير من هؤلاء السفهاء يحب ويبغض ويوالي ويعادي من أجل مذهبه الذي قد يجهل كثيرًا منه ، ويرى كل فريق من هؤلاء البؤساء أنهم وحدهم على الحق، وأن إمامهم لا ينطق عن الهوى، ولا يخطئ أبدًا .

---

(١) البداية والنهاية ، ١٣/١٤٧ .

هذه المذاهب مع ما أحدثته بين المسلمين من تفرق وتشاحن وتباغض، فقد كبلت مع مرور الزمن العقول وحجرت على الأفهام ، حيث إن كل فوج من العلماء والفقهاء يأتي بعد من سبقه ، ولا همّ لهم ولا شغل يشغلهم إلا الانتصار لمذهبهم ، والرد على خصومهم ؛ لذا ألفت المختصرات ، وكتبت الشروح، وكثرت الحواشي في كل مذهب، ومع انتشار هذه المذاهب وهيمنتها على الساحة الإسلامية وترؤس المتعصبين وتصدرهم للتعليم والتدريس ، جاءت الداهية العظيمة والمصيبة الجسيمة ، وهي القول بقفل باب الاجتهاد، وأن الناس لم يعودوا بحاجة إلى الاجتهاد؛ لأن علماء المذاهب وفوا وكفوا في ذلك، ولم يتركوا لأحد مقدار أنملة تحتاج إلى اجتهاد، وبذلك حجروا واسعًا، ووضعوا أمام العقول والأفكار من القيود والحواجز ما يضعف تفكيرها، ويغل فقهها واستنباطها، هذا إن لم يمتها ويذهبها بالكلية ، ومن تجرأ من العلماء على الاجتهاد واستطاع أن يتخطى قيودهم وحواجزهم ، فسرعان ما يتألب عليه أرباب المذاهب ، وسفهاء التعصب ، وينالون منه غاية النيل ، ويؤذونه أشد الإيذاء ، وليتهم يكتفوا بذلك ، ولكنهم يبدعونه ويفسقونه ، وقد وصل بهم الطيش إلى أن يكفروه ، ويستعدوا السلطان عليه ، حتى وصل الأمر أن منعت الدولة العثمانية إعادة فتح باب الاجتهاد ، وبذلك قضوا على المجتهدين ، وفتحوا للزائغين والمستغربين طريقًا إلى تقويض الإسلام وهم لا يشعرون كما سنرى ذلك عند حديثنا عن التعصب المذهبي وقفل باب الاجتهاد وما تسبب عن ذلك من آثار وخيمة .

هذه الانحرافات الدينية إذا أضفنا إليها من الأحوال العامة بعض الانحرافات الأخرى كتحول الحكم من خلافة راشدة إلى ملك وراثي يتوارثه الأبناء عن الآباء والأجداد ، وقد وصل الأمر في بعض الأحيان إلى أن يعهد بالحكم إلى طفل غير مميز أو سفيه غير رشيد ، أو فاسق شديد الفسوق بحجة أن آباه من قبل قد أوصى بالحكم له ، مع ما صحب ذلك كله من استبداد الحكام وظلم الكثيرين منهم، حتى دب الوهن إلى الخلافة ، واستقلت أكثر الأقاليم بشؤونها في عهد بني العباس حتى لم يبق مع الخليفة إلا بغداد وبعض بلاد العراق ؛ وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال في أكثر الأوقات(١)

وقد كان قيام العداوات بين هذه الدويلات المنشقة عن الخلافة أمرًا طبيعيًا ، وشرًا متوقعًا ، كل دويلة تحاول على حساب الأخرى أن تزيد من ملكها وأن تهيمن سلطتها على من حولها ، وهذا ما حدث كثيرًا ، وانظر إلى حال هاته الدويلات قبيل مجيء الصليبيين والتتار وما ارتكبه هؤلاء الآثمون ، فسترى ما يصيبك بالدهشة والذهول والأسف من تناحر هذه الدويلات فيما بينها ، ومحاولة كل دويلة

---

(١) المصدر السابق ٢١٨/١٣ .

القضاء على الأخرى ، والهيمنة والتفرد في البلاد ، وأنى لها هذا ؟ وقد وصل الذل والحقد المجنون ببعض هذه الدويلات أن استعانت بالصليبيين وقاتلت المسلمين تحت صلبان الفرنج ورايتهم [1] ، وأصبح حال المسلمين كما قال الشاعر :

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وقد لاقى المسلمون من هذا التفرق ومن هذه الدويلات الكثير من الويلات والمصائب والشرور ، حيث سفكت الدماء وهتكت الأعراض، ونهبت الأموال، كل ذلك من أجل إشباع نهمة حفنة من الحكام الانتهازيين الذين لا هم لهم إلا اللهث والتكالب للوصول إلى مقاعد الحكم ، ولو كان ذلك على طريق مفروشة بدماء المسلمين وأشلائهم ، وقد مكن هؤلاء الحكام باقتتالهم وتحاربهم لأعداء الإسلام ، وأعطوهم بذلك الفرصة السانحة التي طالما كانوا يتحينونها ، فكان ذلك الصراع الدامي الذي استمر عشرات السنين جزاءً للمسلمين الذي تنازعوا فيما بينهم ، فتوقفت ريحهم وفشلت دويلاتهم ، واصطلوا بنيران الحروب ولهيب المعارك كما هو بيِّن في التاريخ من حملات الصليبيين المتتالية على المسلمين ، ومن مجيء التتار الهمج وما ارتكبوه من فظائع وجرائم تقشعر لسماعها الأبدان .

ومع انشغال الحكام بشهواتهم وإهمالهم أمور رعيتهم ، سرى الداء أيضًا إلى الرعية ، فصار الهمّ الأكبر عند الكثير منهم طلب العيش الرغيد والأخذ بأذناب البقر ، والانهماك في الزرع والحرث والاتجار ، وغير ذلك من شؤون الحياة ، وعند ذلك فترت النفوس ، وقست القلوب ، ودب الوهن إليها ، فركنوا إلى الدنيا واغتروا بها ، وتركوا الجهاد في سبيل الله ، وغطوا في سبات عميق ، واستحكمت عليهم الغفلة ، وأمنوا مكر العدو المتربص بهم الدوائر ، ولم يستيقظوا إلا على رؤية جحافله وجيوشه قد غزتهم في عقر دارهم ، وحلت بساحتهم .

كما أن الترف الذي أصاب المجتمع المسلم بعد أن ضربت الدولة الإسلامية بأطنابها في أرجاء الأرض ، وأخذ الخراج والمال يتدفق عليها من كل مكان ، وركن الكثير من الناس إلى متاع الدنيا وزخرفها ، والتفنن في المآكل والمشارب والملابس والمناكح ، وقامت مع ذلك سوق الجواري والمغنيات ، حتى أن الجارية المغنية كانت تشترى بالألوف المؤلفة من الدنانير .

وهذا على المستوى المتوسط ، أما إذا نظرنا إلى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار التجار، فإننا نجد أمورًا هي إلى الخيال أقرب من الواقع ، وذلك من تلاعب هؤلاء بالأموال ، والإسراف فيها ، وإنفاقها في أمور اللهو واللعب ما لا عائد من ورائه ، حتى أن دخل أم خليفة من الخلفاء العباسيين

---

(١) المصدر السابق ١٣/١٧٦ .

بلغ في السنة الواحدة ألف ألف دينار [١] ، فكيف بالخلفاء أنفسهم وأمرائهم ووزرائهم وحجابهم ، وكان بعض الخلفاء يملك في قصره أحد عشر ألف خادم خصي ، عدا الباقين من الصقالبة والفرس والروم والسودان [٢] .

أما حفلات هؤلاء الخلفاء واعتناؤهم بمهام ختان أولادهم ونكاحهم فما على القارئ إلا أن يتصفح التاريخ فيرى ما لا يكاد يصدق ، من تضييع الأموال العظيمة ، وإنفاقها في وجوه غير مشروعة ، وقد أعطى أحد الخلفاء من قام بختان ولده قرية كلها من فضة ، بيوتها وأعاليقها وأبقارها وجمالها ودوابها وطيورها وخيولها ، وزروعها وثمارها وأشجارها وأنهارها وما يتبع ذلك مما يكون في القرى ، الجميع من فضة مصور [٣] .

أما حفلات الزواج وأمهار النساء عند هؤلاء الحكام فقد بلغ حد الجنون بسبب ما يهدر فيها من الأموال ، ويكاد القلم يعجز عن وصف ذلك . ومع مرور الزمن كان ذلك الترف قد أتى أثره من العجز والضعف والانشغال عن الجهاد وعن العمل لإقامة دين الله ، وكان هذا الترف الفاضح على حساب السواد الأعظم من المسلمين المغلوبين على أمرهم ، الذين ضاقت عليهم سبل العيش الكريم ، وسدت الحياة أبوابها في وجوههم ، فانتشر الفقر وعمّ الجهل وأنشب المرض أنيابه فيهم ، فلجؤوا إلى أبواب المخاريق والكرامات المزعومة ، وفروا من الواقع الأليم ، علهم يجدون في هذه الأبواب تخفيفاً لمشاكلهم أو فرجاً من الشدائد التي لحقتهم ، وهذا الحال نجده واضحاً في القرون الستة الأخيرة .

ويضاف إلى كل ما تقدم من انحرافات وأخطاء أمر آخر من أشدها خطورة وأكثرها أهمية ، وهو تقاعس العلماء وتهاونهم وتقصيرهم في مهمتهم الكبرى ، ووظيفتهم العظمى في وراثة أعباء النبوة ، وتكاليف الرسالة ، وتجديد أمر هذا الدين ، والنصح للأمة ، وتبصير الناس بأمور دينهم والوقوف في وجه البغي والظلم والطغيان . وإن من يقرأ التاريخ الإسلامي بعد انقضاء القرون المفضلة ليعجب أشد العجب من بعد العلماء عن الساحة ، وعدم مشاركتهم في أحداث الأمة الكبيرة ، ويزداد العجب حين يرى المرء أن الفترات التي ثارت فيها الفتن ، وعظمت فيها الخطوب ، وكثرت فيها الأحداث ، كانت مزدانة بحركة علمية ضخمة أدار دفتها جمع غفير من العلماء الأجلاء ، ولكن هذا الجمع الغفير كان بمنأى عن هذه الأحداث السياسية ، فقد آثر جلهم البقاء منزوياً بين حلقات العلم والتلاميذ من ناحية ، وبين التأليف والرحلة بين الأقطار من ناحية أخرى ، اللهم إذا استثنينا نفراً من هؤلاء العلماء شاركوا بوجه أو بآخر في بعض هذه الأحداث .

(١) المصدر السابق ١٨٧/١١ .
(٢) المصدر السابق ١٨١/١١ .
(٣) المصدر السابق ١٨٢/١١ .

ويعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مثالاً رائعًا وواقعًا ملموسًا لموقف العالم المسلم الذي يقوم بأداء أمانته على أكمل وجه ، فنراه يشارك مشاركة فعالة في الأحداث العامة ، ويقوم بدور الاصلاح العملي والدعوة الحية ، فالعلماء لهم دور كبير وواجب ضخم ملقى على عواتقهم ، وسنرى في طيات بحثنا هذا خلال الفترة التي ندرسها كيف تخلى كثير من العلماء عن دورهم ، وتقاعسوا عن آداء واجبهم ، واستطاع بعض الظلمة أن يستغلهم ويتسنمهم ليصل إلى مآربه الشخصية وأغراضه العدوانية .

وبعد فهذه لفتات عابرة ، وإيماءات سريعة عن بعض ما وقع في تاريخ الأمة من انحرافات ظل أكثرها باقيًا مع الزمن ينخر في كيانها، ويضعف من قوتها، هذه الانحرافات بدأت من قرون واتسعت رقعتها واشتدت مع الزمن حدتها وخطورتها ، وبلغت منتهى قوتها في القرنيين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، فحدث للأمة ما نراه وما نعيشه من هذا الواقع الأليم والانحطاط السحيق ، وهو ما سوف نتحدث عنه في الباب الثاني عند حديثنا عن الآثار السيئة لتلك الانحرافات - إن شاء الله .

* * *

الباب الأول

الانحرافات العقدية
في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

تمهيد :

إن ما وصلت إليه الأمة الإسلامية خلال هذين القرنين من ضعف وانحطاط ، وما يعيشه المسلمون اليوم من ذلة واضطهاد، وفرقة وشتات ، وتبعية مخزية لقوى الكفر والإلحاد ، لهو نتيجة حتمية للحالة العقدية التي وصل إليها المسلمون في هذه الفترة ولغيرها من الأحوال الدينية الأخرى، فالفراغ العقدي الهائل الذي خلفته عوامل عديدة يأتي الحديث عنها ، والضعف الذي أصاب العقيدة وأخذ يشتد مع مرور الأيام كان السبب الأول في تدهور أوضاع الأمة في جميع المجالات وفي إفراز هذا الواقع السيء.

فيوم كانت العقيدة عند المسلمين صحيحة قوية تحكم جميع شئون حياتهم وتنطلق منها كل معاملاتهم ، كانوا ممكنين في الأرض ، واستطاعوا بفضل هذه العقيدة حين وعوها وعملوا بمقتضاها أن يقودوا العالم من ورائهم، ويقيموا أفضل حضارة عرفتها البشرية، تلك الحضارة الرائعة التي جمعت بين مطالب الروح والجسد ، ومثلت بحق ما يتطلع إليه البشر من مكانة في هذا الوجود . أما حين دب الضعف والخلل إلى هذه العقيدة ، فخبت جذوتها أو كادت في نفوس المسلمين ، وتخلى أكثرهم عن العمل بمقتضاها ، أصابهم ما أصابهم من نزع التمكين ، ودالت دولتهم، واستبيحت ديارهم، وسوف نرى إن شاء الله تعالى فيما يأتي من مباحث الحالة السيئة والمتردية التي وصلت إليها العقيدة.

وقد أصيبت العقيدة الإسلامية في هذين القرنين بموجة انحراف شديدة كادت أن تزول معها بالكلية لولا عناية الله وتكفله بحفظها ثم بجهود عظيمة لبعض العلماء المخلصين من أهل السنة والجماعة .

وقد ساهمت عدة عوامل [1] في هذا الانحراف يأتي على رأسها الفرق التي انتشرت بصورة عظيمة على اختلاف نحلها ، وأخذت تفسد العقيدة الإسلامية التي كانت قد أصيبت بالضعف والتراخي ، وإلا فلو كانت قوية راسخة لثبتت في وجه هذه الفرق الزاحفة.

عامل آخر كان له أثر كبير في انحراف العقيدة وزيادة ضعفها، إلا وهو الصوفية التي ما فتئت منذ نشأتها إلى وقتنا هذا تناجز العقيدة الصحيحة ، وتشن عليها بعقائدها الباطلة وتصوراتها المنحرفة حربا شعواء لا هوادة فيها . واستطاعت مع كرور الأيام أن تتصدر الميدان، وتهيمن على الساحة ، ويفرض رجالها سلطانهم فوق السواد الأعظم من المسلمين، لينزوي من خالفهم بعيداً ،

---

(١) يأتي الحديث عن هذه العوامل مفصلاً إن شاء الله تعالى في الفصول القادمة.

ولتنفرد وحدها في الميدان وتعمل بقصد أو بدون قصد - على تقويض دعائم الإسلام ، والإجهاز على ما بقي منه في النفوس.

ومع الصوفية وغيرها جاءت الداهية الكبرى والظلم العظيم ، جاء الشرك بأنواعه. وانتشرت مظاهره ، وغدا ديناً يتقرب به ، ولم يكد ينجو منه بلد ، وتفشت البدع والخرافات، وامتزجت حياة الناس بها ، وانحسر مفهوم العبادة ، وتضعضعت عقيدة الولاء والبراء، وهيمنت الفلسفة وعلم الكلام، وانتشر الإرجاء.

فاشتد الخطب وعظمت المصيبة، وأضحت هذه العقيدة الغالية غريبة في ديار الإسلام، محاربة من غالب العلماء، فضلاً عن الحكام والعامة، وأعداء الأمة يتربصون بها الدوائر، ويحيكون المؤامرات والدسائس، ونفوذهم في ازدياد وخطرهم يحدق بها من كل أفق وحال الأمة كما ذكرنا آنفاً.

يقول الشيخ محمد بهجت الأثري متحدثاً عن الحالة العقدية في تلك الفترة : «فظهرت دجاجلة الطرق والملبسون متظاهرين بالدين يبثون روح الفساد ويغررون بالعامة. ومن ورائهم السلطة تؤيدهم وتعزز دعوتهم ... فبنيت التكايا، وشيدت القباب على قبور المتمشيخة والدجالين من رفاعيين ونقشبنديين وقادريين وعيدروسيين ، وعظم سلطان الشرك والرياء ونذرت للقبور النذور ، وقربت لها القرابين ، وعلقت بها التمائم ، وأوقدت عليها السرج ، حتى صار المتدين في نظر الناس من يضرب بالدف ويرقص في حلقة «الذكر» ...وصار العالم المستقل والموحد العريق إذا أنكر عليهم شيئاً من أضاليلهم ينبز «بوهابي» بل ينبذ ويسخط عليه وينتقم منه بكل ما يقتدر عليه ويساعد عليه السلطان الجائر. . . .وهكذا انقلب الحال وساء المآل وأخمدت الأرواح الحية ، ووئدت الحرية الدينية ، واشتدت وطأة الجهل واستفحل أمر الرياء ، وعلقت جسم المجتمع الأدواء ، فما كان يولد يومئذ مولود إلا أفسد ذلك «المجتمع العليل» فطرته ، وأخمد ما أودع الله فيه من نور ..» [١].

وسوف نبسط الحديث في الفصول التالية بإذن الله تعالى .

*

---

(١) أعلام العراق ص٩٨ المطبعة السلفية ومكتبتها ١٣٤٥هـ.

الفصل الأول : انحصار مفهوم العبادة في الإسلام .

لا بد لنا قبل أن نخوض في تفاصيل هذا الانحراف الخطير أن نبين الصورة الصحيحة للعبادة، كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية ، وكما فهمها السلف الصالح رضوان الله عليهم، فهي :

«العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضاء بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف لعذابه ، وأمثال ذلك ، هي من العبادات لله». (٢) والدين كله داخل في العبادة (٣) ؛ لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق الله الخلق لأجلها كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾. الذاريات ٦٥.

وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ كما قال كل من نوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله عليهم لأقوامهم : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ النحل ٣٦. وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ الأنبياء ٢٥.

ولا نستطيع أن نفهم هذه الآيات وغيرها حق الفهم ما لم نفسر العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده الله عز وجل ، وهي أن تشمل كل نشاط في حياة الإنسان : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ الأنعام ١٦٢-١٦٣.

ولو لم تكن العبادة المذكورة في كتاب الله بهذا الشمول وهذه السعة فكيف نوفق بين قوله تعالى: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ وبين التكاليف الربانية الكثيرة المختلفة التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟ إن المعنى لا يستقيم إلا إذا كانت هذه التكاليف كلها داخلة في مفهوم العبادة الواسع الشامل كما أراده الله . فحين يقول الله عز وجل : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ البقرة ٣٠. وحين يقول على لسان نبيه صالح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ هود٦١. وحين يقول : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ الملك ١٥. وغير ذلك من الآيات الكثيرة فإن هذه الآيات لا يتضح معناها الحقيقي إلا إذا أدرجت التكاليف الواردة فيها ضمن مفهوم العبادة الشامل.

---

(١) العبودية ص٢٠. شيخ الإسلام ابن تيمية. تحقيق : خالد عبد اللطيف العلمي . دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) المصدر السابق ص٢٢.

(٣) الأعراف ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥.

هذا المعنى العظيم للعبادة هو الذي سار عليه الرسول ﷺ في حياته كلها ، وعمل بمقتضاه إلى حين لحاقه بالرفيق الأعلى عملاً بقول الحق جل وعلا : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ الحجر ٩٩. فكانت جميع أفعاله وأقواله وحركاته وسكناته عبادة لله عز وجل، وكذلك دعوته وهجرته وجهاده ، وحربه وسلمه ، وإقامته ، ويقظته ومنامه ، عبادة لله عز وجل.

«وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾ الإسراء ١. وقال في الإيحاء : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ النجم ١٠. وقال في الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ الجن ١٩. وقال في التحدي : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ البقرة ٢٣. [١]

هكذا كانت حياة المصطفى ﷺ الحافلة بالأعمال العظيمة من بناء للدولة المسلمة وتربية دائبة لصحابته الكرام ، وتعليم للقرآن والعلم ، وجهاد للكافرين والمنافقين وقيام على أمور المسلمين ، ورعاية لبناته وأزواجه وأحفاده ، كلها عبادة لله تعالى. أما صلاته وصيامه وسائر طاعاته وقرباته فأمر يعجز القلم عن وصفه.

لقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه. وحين سألته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » . [٢]

وكان ﷺ يربي صحابته على هذا المفهوم الشامل للعبادة. يربيهم بالقرآن الكريم وبما احتواه من توجيهات عظيمة تصب كلها في دائرة العبادة الواسعة. ومن هذه التوجيهات :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ البقرة ١٧٢.

وقوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ البقرة ١٧٧.

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ النساء ١٩.

وقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت إيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ النساء ٣٦.

---

(١) المصدر السابق ص٢٢. (٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة الفتح ، برقم ٤٨٣٧ (الفتح ٥٨٤/٨).

وقوله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ النساء ٥٨.

وقوله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٤٥ ، ٤٦.

وقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾الأنفال٦٠

وقوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ النحل ٩٠ ، ٩١.

وقوله تعالى : ﴿ يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ الأعراف ٣١ ، ٣٢.

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ الجمعة ١٠.

وغير ذلك من التوجيهات القرآنية التي تدور كلها في داخل فلك العبادة ويفهمها الصحابة رضي الله عنهم كذلك.

وكان ﷺ يربيهم بسيرته العظيمة التي يرونها بين ظهرانيهم وقد تمثلت فيها عبودية الله عز وجل الكاملة فيتأسون بها كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ الأحزاب ٢١.

ويربيهم كذلك بتوجيهاته المباشرة في تلك القضية كقوله ﷺ : «إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر» (١)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ قال : الإيمان والجهاد في سبيل الله، قلت : فأي الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً ، قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً وتصنع لأخرق ، قلت : يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال : تكف شرك عن الناس فإنها صدقة» (٢)

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال : «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة » (٣).

وعن أبي مسعود الأنصاري عن النبي ﷺ قال : « نفقة الرجل على أهله صدقة »(٤). وعن سعد

---

(١) رواه مسلم برقم : ١٠٠٦ كتاب الزكاة ٦٩٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العتق ، باب أي الرقاب أفضل ، برقم : ٢٥١٨ (الفتح ١٤٨/٥، ومسلم برقم : ٨٤ كتاب الإيمان ٨٩/١.

(٣) أخرجه الترمذي برقم : ١٩٥٦ كتاب البر والصلة ، وانظر صحيح الجامع برقم : ٢٩٠٨.

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي، رقم : ٤٠٠٦ (الفتح ٣١٧/٧).

ابن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة ترفعها إلى في أمرأتك »[١]. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو دابة إلا كان له صدقة»[٢]. وعن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي ﷺ : «الخازن الأمين الذي يؤدي ما أمر به طيبة نفسه أحد المتصدقين » [٣]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ : « إذا أنفقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة كان لها أجر ما أنفقت ، ولزوجها أجر ما اكتسب ، ولخازنه مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم أجر بعض » [٤]. وروى عنه ﷺ قوله : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »[٥]. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها » [٦]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميت العاطس » [٧].

وغيرها من التوجيهات النبوية المستفيضة التي تربيهم على العبادة بمفهومها الشامل. وقد أثمرت هذه التربية النبوية العظيمة للصحابة الكرام فهماً حقيقياً ومتكاملاً لمفهوم العبادة فكانت حياتهم من مبدئها إلى منتهاها عبادة لله عز وجل ، وليس ما يقومون به من شعائر تعبدية فحسب . و « بعبارة أخرى لم تكن الحياة تنقسم في حسهم إلى «عبادات» و«معاملات» إنما هي عبادات مختلفة ، بعضها شعائر مفروضة ذات أوقات محددة ، وبعضها معاملات مفتوحة تشمل كل نشاط الإنسان السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والعلمي والحضاري. ولكنها كلها داخلة في دائرة العبادة التي يذكر فيها اسم الله ويلتزم فيها بما أنزل الله»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب حجة الوداع، برقم : ٤٤٠٩ (الفتح ١٠٩/٨)

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحرث والمزارعة. باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، برقم : ٢٣٢٠ (الفتح ٣/٥) ، ومسلم برقم ١٥٥٣ كتاب المساقاة ١١٨٩/٣ باب فضل الغرس والزرع.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإجارة. باب استئجار الرجل الصالح ، برقم: ٢٢٦٠ (الفتح ٤٣٩/٤)، ومسلم برقم ١٠٢٣ كتاب الزكاة ٧١٠/٢ باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت.

(٤) أخرجه البخاري برقم ١٤٢٥ (الفتح ٢٩٣/٣. كتاب الزكاة. باب من أمر خادمه بالصدقة ولم يناول بنفسه. ومسلم برقم ١٠٢٤ كتاب الزكاة ٧١/٣ باب أجر الخازن الأمين والمرأة إذا تصدقت.

(٥) أخرجه الترمذي برقم : ١٢٠٩ كتاب البيوع .

(٦) أخرجه الإمام أحمد (٣، ١٨٣، ١٨٤، ١٩١) وهو الحديث التاسع في السلسلة الصحيحة للشيخ ناصر الدين الألباني.

(٧) أخرجه البخاري برقم ١٢٤٠ (الفتح ١١٢/٣ ، كتاب الجنائز ، باب الأمر باتباع الجنائز .

(٨) واقعنا المعاصر. ص١٦٩.

ومن طالع سير الصحابة رضوان الله عليهم وقرأ تراجمهم عرف أن حياتهم كلها كانت عبادة لله عز وجل ، وحسبنا من ذلك هذه الأمثلة المختصرة :

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه : «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي »(١). فكانوا رضوان الله عليهم يرون أن نومهم عبادة كما يرون قيامهم عبادة. وأن أكلهم وشربهم عبادة كما يرون صيامهم عبادة. وكل شيء في حياتهم يرونه عبادة يحتسبون فيها الأجر عند الله.

وعن الحارث بن لقيط قال : «كان الرجل منا تنتج فرسه فينحرها فيقول : أنا أعيش حتى أركب هذه ؟ فجاءنا كتاب عمر - رضي الله عنه - : أن أصلحوا ما رزقكم الله، فإن في الأمر تنفسا» (٢).

«ولذلك اعتبر بعض الصحابة الرجل يعمل في إصلاح أرضه عاملاً من عمال الله عز وجل، فروى البخاري في الأدب المفرد (رقم ٤٤٨) عن نافع بن عاصم أنه سمع عبد الله بن عمرو ، قال لابن أخ له خرج من (الوهط) : أيعمل عمالك ؟ قال : لا أدري، قال : أما لو كنت ثقيفاً لعلمت ما يعمل عمالك ، ثم التفت إلينا فقال : إن الرجل إذا عمل مع عماله في داره «وقال الراوي مرة : في ماله» كان عاملاً من عمال الله عز وجل . وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

و «الوهط» في اللغة هو البستان ، وهي أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثة أميال من « وج » يبدو أنه خلفها لأولاده ، وقد روى ابن عساكر في تاريخه (١٣/٢٦٤/٢) بسند صحيح عن عمرو بن دينار قال : دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له : «الوهط» فيه ألف ألف خشبة ، اشترى كل خشبة بدرهم يعني يقيم بها الأعناب» (٣).

هكذا كان مفهوم العبادة عند الصحابة والقرون المفضلة ، يرون أن جميع حركاتهم وسكناتهم عبادة لله عز وجل.

لقد «كان المفهوم الصحيح للعبادة في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما فهموا من قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ الذاريات ٥٦. إن هذه الآية الكريمة كانت تمثل في حسهم معنى هائلاً جداً ، وعميقاً جداً ، وشاملاً لكل حياة الإنسان ، فالقرآن نازل بلغتهم وهم يفهمون إيحاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغته. فيدركون من معنى الآية أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة لا تتعداها إلى شيء غيرها على الإطلاق.فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي. ومعناهما النفي البات من جهة ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع برقم : ٤٣٤٤ (الفتح ٦٢/٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد. وقال الألباني : سنده صحيح . انظر الصحيحة ١٢/١.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٣/١.

والحصر الكامل من الجهة الأخرى : نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله.....

ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسهم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها ، كما انحصر في حس الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام. إن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل العبادة المطلوبة من الإنسان فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله فأنى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟. كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟ وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصراً كاملاً في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان ـ من عند نفسه ـ أن يجعل لوجوده ـ أو لجزء من وجوده غاية لم يأذن بها الله؟»[1].

لقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم ، كما قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى يقولون بلسان حالهم ومقالهم : «إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن ، والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعليم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به. والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده ، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن ، أو المال ، : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص١٧٤ الشيخ محمد قطب ـ دار الشروق ـ القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك . والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لا سيما التكبير والتهليل والتحميد. فهو أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم ، أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه . والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم في الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه ، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم ، فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه. وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق : والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد.(١)

فمتى خرج أحدهم من النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبده عليها. فهو لا يزال متنقلاً في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى .... فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيها لذاتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذاتها في سواه ؛ فهذا هو المتحقق بـ ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ حقاً ، القائم بهما صدقاً ، ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً. لا تملكه

---

(١) هم ثلاثة أصناف ذكرهم رحمه الله قبل الصنف الرابع الذين هم أهل التعبد المطلق والثلاثة هم : الصنف الأول : يرون أن أفضل العبادات وأنفعها أشقها على النفوس وأصعبها . والصنف الثاني : يرون أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطراح الاهتمام بها . والصنف الثالث : يرون أفضل العبادات ما كان فيه نفع متعد، كخدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم.

إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه ، يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل. كالغيث حيث وقع نفع»[١].

«تلك هي العبادة التي كلف بها الإنسان، تشمل الصلاة والنسك ـ أي الشعائر التعبدية ـ وتشمل معها كل الحياة .. وكذلك فهم الجيل الأول ـ رضوان الله عليهم معنى العبادة ، لم يحصروها قط في معنى الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية ، هي وحدها لحظات العبادة ، وتكون بقية حياتهم «خارج العبادة؟» !.

إنما كان في حسهم أن حياتهم كلها عبادة ، وأن الشعائر إنما هي لحظات مركزة ، يتزود الإنسان فيها بالطاقة الروحية التي تعينه على أداء بقية العبادة المطلوبة منه ، ولذلك كانوا يحتفلون بها احتفالاً خاصاً ، كما يحتفل المسافر بالزاد الذي يعينه على الطريق ، وباللحظة التي يحصل فيها على الزاد. كانوا كما وصفهم ربهم : ﴿ **يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾ آل عمران ١٩١. أي في جميع أحوالهم[٢].

ولكن هذا المفهوم الشامل للعبادة أخذ يضيق تدريجياً مع توالي القرون حتى انحصرت العبادة في مفهومها الضيق في الشعائر التعبدية التي فقدت روحها وصارت تؤدى بصورة تقليدية عند غالب المسلمين الذين اهتموا «بمظاهر العبادات ....، ظناً منهم أنها هي التي تنجيهم عند الله ، وأنها تكفر عنهم وتغفر لهم ظلمهم للناس. فتجد الرجل يصلي ويصوم ويحج ، وربما زاد على الفرائض ... وهو في الوقت نفسه لا يهتم بدين يماطل في أدائه ، وإجحاف بحق عمال يشتغلون عنده ، واحتكار لأقوات العباد . . . »[٣].

وأصبحت العبادة في القرون الأخيرة لا سيما القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين منحصرة في صورة الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها ، اللهم إلا ما تستغرقه من زمن لأدائها.

وتم «عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً ، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية . ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب ، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى ، وغضوا النظر عنها وأنزلوا

---

(١) مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين» ١/ ١٠٠ـ١٠٢. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣م.

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح. ص١٧٩.

(٣) المجتمع الإسلامي المعاصر. ص ٦٥ الشيخ محمد المبارك. دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى ، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م .

مرتبتها. ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات ، فالجهاد وإنكار المنكر ورد الطغيان والاستعمار ومقاومة الظلم والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة ، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس وما أكثرهم في عصور الانحطاط [١] ـ فضول يشغل عن الله وعبادته . . . وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة ، وجهاد وعلم وعدل وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان. كل ذلك مقروناً بتوحيد الله والإخلاص له أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات[٢]. وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي والاجتماعي والأخلاقي».[٣]

وقد ساعد على هذا الانحسار والضيق في مفهوم العبادة ما عرف من تقسيم للنشاط الإنساني عند الفقهاء إلى عبادات ومعاملات.

«إن تقسيم النشاط الإنساني إلى «عبادات» و«معاملات» مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة «الفقه». ومع أنه كان المقصود به ـ في أول الأمر ـ مجرد التقسيم «الفني» الذي هو طابع التأليف العلمي. إلا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة في التصور، تبعته بعد فترة ـ آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة «العبادة» إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله «فقه العبادات». بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط ، الذي يتناوله «فقه المعاملات» وهو انحراف بالتصور الإسلامي لا شك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي، ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة. أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً.

. . . إن ذلك التقسيم ـ مع مرور الزمن ـ جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا «مسلمين» إذا هم أدوا نشاط «العبادات» ـ وفق أحكام الإسلام ـ بينما هم يزاولون كل نشاط «المعاملات» وفق منهج آخر. لا يتلقونه من الله. ولكن من إله آخر! هو الذي يشرع لهم في شؤون الحياة ، ما لم يأذن به الله !

وهذا وهم كبير. فالإسلام وحدة لا تنفصم ، وكل من يفصمه إلى شطرين ـ على هذا النحو ـ

---

(١) وقد تولت الصوفية كبر هذا الجرم كما سنرى ذلك عند الحديث عنها.

(٢) ثم تمادى الانحراف فأصبحت مقاييس الصلاح والتقوى بفضل الصوفية بمقدار ما يزعم الرجل من خوارق وكرامات كما سيجيء الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى ص

(٣) المصدر السابق. ص٦٦ ، ٦٧.

فإنما يخرج من هذه الوحدة ، أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين» [١].

وقد تسبب هذا الانحسار في مفهوم العبادة في السلبيات التالية :

أولاً : صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية ، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام. فلا تؤدى هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادة الأخرى. فالصلاة التي يخبر الله عز وجل عنها بقوله : ﴿إن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر﴾ العنكبوت ٤٥. لم تعد ذات أثر واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر. وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

ثانيًا : تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى ، إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء. حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد ، ثم يخرج ويحلف على عتبة المسجد كاذباً ، ويغش في بيعه وشرائه ، ويحتال في معاملاته ، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة ، ويقع في أعراض الناس ، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير ، هادىء الخاطر ، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

ثالثًا : العناية بالجانب الفردي الشخصي ، وإهمال الجوانب الاجتماعية. فنجد أن المسلمين قد «عنوا بالآداب الفردية المتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين ، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين ، ناسياً أن «إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان» كما ورد في الحديث.[٢] وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه ، ولكنه لا يبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها» [٣].

ويدهي أن يقع مثل هذا الازدواج في حياة الأفراد حين ينحصر مفهوم العبادة عندهم في الشعائر وحدها وتخرج من بقية الأعمال فيهتموا بشؤونهم الخاصة ويهملوا الشئون العامة. وتنمو الروح الفردية على حساب الروح الاجتماعية.

رابعًا : ابتداع عبادات جديدة. وليتهم حين حصروا العبادة في الشعائر التعبدية اكتفوا بذلك. بل أضافوا إلى تلك الشعائر عبادات ابتدعوها من عند أنفسهم «حتى غدت العبادة في أصلها

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص١٠٩. الأستاذ سيد قطب. دار الشروق ـ القاهرة. الطبعة العاشرة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) أخرجه مسلم بلفظ «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من شعب الإيمان» كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان. ٦٣/١.

(٣) المجتمع الإسلامي المعاصر ص٦٦.

المشروع وزياداتها المبتدعة الشغل الشاغل الذي لا يبقي مكاناً لجهاد أو لعمل اجتماعي نافع أو للتفكر في قضايا عامة تهم المسلمين»[١]. وسوف يأتي مزيد من الكلام حول هذه القضية عند حديثنا عن البدع.

خامساً : إقامة العبادة مقام العمل ، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب «فقراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه ، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق الله وإقامة العدل والميزان بالقسط ، والحكم بما أنزل الله واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أن ذلك كله عبادة ... وبينما كان الرسول ﷺ عليه يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره الله ويدعو الله ويبتهل إليه لينصره إذا بالمسلمين في هذه العصور الآخيرة يجعلون الصلاة والدعاء ، المأثور منه والمبتدع المخترع ، بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر لا بأسبابها المشروعة التي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها ، بل بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها ، وربما اخترعوا لذلك رقى وتمائم وحجباً ، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها ..»[٢] وسوف نرى أنه حين كانت تحل بالمسلمين نازلة كيف يهرع علماؤهم إلى تجزئة صحيح البخاري بينهم إلى أجزاء يتقاسمون قراءتها لكشف ما نزل بهم. وإذا مرض لأحدهم مريض فسرعان ما ينطلق إلى بائعي التمائم والرقى والدعوات - وما أكثرهم - ليستشفي لمريضه ، بدلاً من اتخاذ الأسباب المشروعة التي منها الدعاء.

ولقد نتج عن هذا الانحسار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة. فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم ، وتقديم النصيحة إليه ، والسهر على تطبيق الشريعة وإجراء العدل في حياة الناس. ثم «لم يكن من المتوقع أن يقف الانحسار في مفهوم العقيدة ومفهوم العبادة عند هذا الحد. إنما كان المتوقع أن يسرى الانحسار تدريجياً إلى بقية أنواع العمل ، فأخرجت تدريجياً من دائرة الإيمان ودائرة العبادة. لا بمعنى أن الناس لم يعودوا يعملوا ، فالإنسان لا يمكن أن يكف عن العمل في الحياة الدنيا ، وقد خلقه الله للكدح الدائم فيها : ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ الانشقاق ٦.إنما بمعنى أن العمل في الحياة الدنيا انفصل في حس الناس عن دائرة الإيمان حين انحصرت هذه في التصديق والإقرار، وعن دائرة العبادة حين انحصرت هذه في الشعائر .. فصار للعمل ركيزة أخرى غير العبادة ، لتكن هي الكسب ، أو هي الاقتناء والملك ، أو هي الغلبة والسيطرة ، أو هي المتاع الحسي أو المتاع المعنوي .. أو أي دافع من الدوافع الذاتية التي تدفع الإنسان للإنتاج والعمل غير

---

(١) المصدر السابق ص٦٦.

(٢) المصدر السابق ص٦٩.

مرتبطة بالإيمان بالله أو التعبد إليه .. وصار في حس الإنسان أنه حين يعبد ينقطع عن العمل ، وحين يعمل ينقطع عن العبادة ، وصارت له ساعتان منفصلتان تماماً لا يربط بينهما رابط : ساعة العمل وساعة العبادة ، فضلاً عن ساعة ثالثة خارج العمل والعبادة جميعاً ، هي ساعة اللهو أو الترويح - بريئاً أو غير بريء! - فصارت كل واحدة من هذه الدوائر منفصلة عن الأخرى ، مقفلة على ما فيها ، ولم يعد الإنسان يصل إلى أي واحدة منها إلا بالخروج من الدائرتين الأخريين» [1] «ولم يكن العمل وحده - بجميع مجالاته - هو الذي خرج من مفهوم العبادة حين انحصرت في الشعائر التعبدية .. إنما كانت الطامة في خروج الأخلاق من دائرة العبادة» [2] فندر تمسك الناس بالأخلاق الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء ، وفشت الأخلاق السيئة كالكذب والخيانة وإخلاف الوعود. وسرت في أوساط الناس، والأدهى من ذلك أن أصبحت تلك الأخلاق السيئة هي التي تطبع جانب التعامل بينهم. فلا تكاد تجد بائعاً يصدق في بيعه أو لم يروج بالكذب بضاعته. واختفى الصدق حتى غدا عزيز الوجود. وقلت الأمانة حتى صارت نادرة الوقوع. «وليس الغريب أن يتفلت الناس من قيود الأخلاق. فهي قيود ثقيلة إلا على الذين هدى الله ! ولكن الغريب أن هذا التفلت - بكل آثاره المدمرة في حياة الأمة - غير موصول في حس الناس بأمر العبادة! فالعبادة هي الشعائر ومن أدى الشعائر فقد أدى العبادة المطلوبة. وأما هذه السقطات الأخلاقية فهي معيبة نعم ، والوعاظ يتكلمون عنها في كل خطبة ، نعم ، ولكنها في دائرة أخرى غير دائرة العبادة. فهذه مقفلة على الشعائر فحسب!»[3].

إن الواقع الأخلاقي السيء للمسلمين ليصد الناس عن الدخول في الإسلام ، وتقف الأخلاق السيئة التي تسود الكثير من المسلمين عقبة في طريق هداية الناس الحيارى في الغرب. «إن كثيراً من الناس في الغرب يستمعون إلى الدعاة المسلمين يحدثونهم عن الإسلام ، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو بلسان المقال : إذا كان الإسلام بهذه الصورة الجميلة التي تعرضونها ، فلماذا أنتم هكذا؟! لماذا أنتم كذابون غشاشون مخادعون مخلفون للوعد غير مستقيمين في تعاملكم .. فضلاً عن كونكم - فيما بينكم وبين أنفسكم - متعادين متباغضين لا تجتمعون على شيء» ؟ [4].

إن الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وغيرها أصبحت في نظر الناس أموراً لا علاقة لها بالعبادة ، ولم تعد لازمة عندهم. نعم لا زال الناس يمتدحون هذه الأخلاق ويؤمنون بفضلها ولكن واقعهم يفتقر إليها تماماً بعد أن خرجت من دائرة العبادة.

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح ص٢٠٢.

(٢) المصدر السابق ص٢١٤.

(٣) المصدر السابق ص٢٢٠.

(٤) المصدر السابق ص٢٢٦.

كما خرج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العبادة مع أنه من أعظم العبادات على الإطلاق. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ومن عبادته وطاعة أمره ـ أي الله عز وجل ـ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، بحسب الإمكان ، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون في إقامة دينه ، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات». (١)

ولقد كان لخروج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دائرة العبادة آثار سيئة للغاية في فشو المنكرات والتعالن بها . فلم يعد كثير من الناس يكترث بأمر هذه المنكرات التى يشاهدونها ماداموا يرون أنهم قد حافظوا على الشعائر التعبدية .

وصلاح المجتمع أو فساده أمر يخرج في نظرهم عن العبادة الضيقة التى حصروا أنفسهم فيها. وتلك لعمر الله بلية ابتلي بها المسلمون في العصور المتأخرة حين عزل كثير من الناس أنفسهم داخل الدائرة الضيقة للعبادة ، ولم يعودوا يبالون بظهور المنكرات من حولهم ، وكأن الأمر لا يعنيهم . بل وصل الأمر بهم إلى اتهام من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بالتطفل وإقحام النفس في شئون الآخرين ويستدلون بالحديث النبوي في غير موضعه «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» (٢) ومع خروج الأخلاق من دائرة العبادة ، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخروجه من دائرة العبادة ايضاً تفككت عرى الأخلاق ، وضعفت الروابط الاجتماعية كالتعاون على البر والتقوى والتكافل الاجتماعي وصلة الرحم ، وتخلخلت الأسرة واهتزت القيم التي تقوم عليها. فلم يعد الشعور بالمسؤلية عند رب الأسرة وربتها نابعا من دائرة العبادة كما هو المفترض. بل إن تدبيرهما لأمر الأسرة ورعايتهما لها لا يمكن أن يخطر لواحد منهما أنه من العبادة لله عز وجل.

وحين خرجت الأخلاق وخرج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دائرة العبادة كان ذلك سبباً جوهرياً في سقوط الأخلاق فيما بعد تحت هجمات الغزو الفكري ؛ فسقط الحجاب وفشا الاختلاط وظهر الفساد العريض في البر والبحر كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى عند حديثنا عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي.

وبعد أن كان المسلمون في العصور الأولى يبادرون إلى الأخذ بالأسباب تقرباً إلى الله عز وجل إذ هو سبحانه وتعالى مسبب الأسباب وخالقها ويرون أن ذلك من صميم عبادة الله ، صاروا في القرون الأخيرة يتهاونون في الأخذ بها ، بل ويدعون إلى تركها وإهمالها ، وربما دعا بعضهم إلى تحريمها.

---

(١) العبودية ص٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي برقم : ٢٣١٧ كتاب الزهد. ، وابن ماجه برقم : ٣٩٧٦ وهو حديث صحيح. انظر : صحيح سنن ابن ماجه رقم : ٣٢١١. وانظر شرحه في جامع العلوم والحكم ص١٠٥ للحافظ ابن رجب الحنبلي ـ دار المعرفة ـ بيروت.

وحين خرج الأخذ بالأسباب من دائرة العبادة ، وظن التاركون لها أن تركهم إياها عبادة وأن ذلك من تمام التوكل على الله وحدث ذلك كله مع انتشار الفكر الإرجائي والتصوف ترك المسلمون علوم الدنيا وأهملوا عمارة الأرض وتقاعسوا عن طلب الرزق ونكلوا عن الجهاد وأعرضوا عن التداوي والاستشفاء.

وتقدم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قوله : «ومن عبادته وطاعة أمره : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحسب الإمكان ، والجهاد في سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فيجتهدون في إقامة دينه ، مستعينين به ، دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات ، دافعين بذلك ما قد يخاف من ذلك ، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل ، ويدفع به الجوع المستقبل ، وكذلك إذا أزال البرد ودفعه باللباس ، وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا للنبيﷺ : «أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقي بها ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال : هي من قدر الله» (١) وفي الحديث : «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان فيعتلجان بين السماء والأرض» (٢).

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله ، وكل ذلك من العبادة» (٣).

ويقول الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى : «وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل ، كما لا ينافيه دفع داء الجوع ، والعطش ، والحر ، والبرد بأضدادها بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدراً وشرعاً ، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل ، فإن تركها عجزاً ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ، ولا توكله عجزاً». (٤)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «فالعبد لابد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً فقيراً له ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً له ، ولهذا كانت

---

(١) أخرجه الترمذي برقم : ٢٠٦٥ كتاب الطب باب ما جاء في الرقى والأدوية. وأخرجه ابن ماجه برقم : ٣٤٣٧ وهو ضعيف كما ذكر ذلك الشيخ الألباني في كتابه : ضعيف سنن ابن ماجه برقم : ٧٤٩. ولكن صح الأمر بالتداوي في غير ما حديث وأن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له دواء. انظر بعض الأحاديث الواردة في ذلك في زاد المعاد في هدي خير العباد : ١٣/٤ للحافظ ابن القيم.

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٤٦/١٠ للطبراني في الأوسط والبزار ثم قال : «وفيه زكريا بن منظور وثقه أحمد بن صالح المصري وضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات. » ولفظ البزار قريب من لفظ الطبراني

(٣) العبودية ص ٣٢.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد ١٥/٤.

مسألة المخلوق محرمة في الأصل ، وإنما أبيحت للضرورة [1] . وقد نتج عن تعطيل الأخذ بالأسباب وخروجه من دائرة العبادة آثار وخيمة كانتشار الجهل والفقر والمرض والضعف بعد أن عطلت أسباب دفعها وإزالتها.[2]

إن حصر مفهوم العبادة في الشعائر التعبدية انحراف خطير وقع في حياة الأمة ، ودفعت الأمة ثمنه غالياً جداً.

فقد تسبب هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة في إضعاف الوعي لشمول الإسلام وأضعف تمييز المسلمين بين درجات الانحراف ومعرفة أشدها خطورة ، فحين يترك حاكم الجهاد في سبيل الله أو يخضع لبعض أعداء الكفار فيواليهم ، ويسير في ركابهم ، فإن هذا الأمر عند من فهموا العبادة بفهومها الضيق يعد أمراً صغيراً ، أما أن يتجرأ هذا الحاكم أو غيره على ترك بعض السنن والآداب أو ما اخترع من بدع فإن ذلك عندهم كبيرة لا تغتفر. «وتلك مصيبة كبرى أصابت المسلمين في تفكيرهم وفي فهمهم ولا سيما حين يقع فيها العلماء والدعاة إلى الإسلام».[3]

هذه بعض الانحرافات التي وقعت في مفهوم العبادة حين حصر في الشعائر التعبدية، يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله مبيناً لحقيقة العبادة ومستنكراً لمن يحصرها في الشعائر التعبدية : «إن الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء».[4]

وهذا هو معنى العبادة الشامل الذي وعاه سلف هذه الأمة ، وطبقوه في حياتهم ، وعملوا به في واقع الأرض ، فدانت لهم الممالك ، وخضعت أمامهم الطواغيت ، ومكن الله لهم في الأرض ، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة ويوم تغير ذلك المفهوم وانحصر في دائرة ضيقة ، فقد فترت الهمم وخارت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف والهبوط. ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ يقول : «إذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد

---

(١) العبودية ص ٥٢.

(٢) هذا كله مع انتشار الفكر الإرجائي والتصوف كما قلنا قبل ذلك.

(٣) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٧٣.

(٤) في ظلال القرآن ٤/١٩٣٨.

العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، أو أن الخروج عنها أكمل ، فهو من أجهل الخلق وأضلهم».[١]

فكذلك الأمة لا تكمل قوتها ويستقيم أمرها إلا إذا رسخ مفهوم العبادة الشامل في تفكيرها ، أما إذا حصرت العبادة في مجال معين وجانب ضيق فإن ذلك يضعفها عن القيام بما أوجبه الله عليها.

« إن ما حل بالمسلمين من تأخر حضاري وعلمي وعسكري وسياسي ومادي واقتصادي واجتماعي وفكري وروحي . . . إلخ لم يكن سببه أنهم مسلمون![٢] ولم يكن سببه حتميات تاريخية ولا أطواراً اقتصادية![٣] إنما سببه الأصيل هو فساد سلوك المسلمين أولاً ، ثم فساد تصورهم ثانياً ، وإفراغ الإسلام أخيراً من محتواه.

فيوم كانت : ﴿ وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ﴾ عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أرض المسلمين واستلاب خيراتهم!

ويوم كان «طلب العلم فريضة» لم يكن هناك تخلف علمي ، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي تعلمت أوربا في مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ عبادة ، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» عبادة ، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسئول عن رعيته ، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية ، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله!

ويوم كانت ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ عبادة ، لم تكن للمرأة المسلمة قضية ؛ لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها طاعة لله ، وعبادة لله!

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».[٤]

لقد كان هذا الانحراف بالإضافة إلى الفكر الإرجائي والصوفية سبباً في إفساح المجال في الفترة الأخيرة لشيوع المذهب العلماني ، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقطار الإسلامية وذلك من أخطر الآفات التي أصابت العالم الإسلامي في عهده الأخير.

---

(١) العبودية ص ٤٦.

(٢) تلك قولة الغرب التي استخدمها في الغزو الفكري لسلخ المسلمين مما بقي لهم من إسلام.

(٣) تلك قولة الشيوعيين التي يستخدمونها في الغزو الفكري لإقناع الناس أنه لا حل لهم إلا الشيوعية.

(٤) مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ٢٤٩.

الفصل الثاني : الفكر الإرجائي

يعتبر الفكر الإرجائي من أشد الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية ، ونتج عن ذلك الفكر الخطير آثار مدمرة في حياة الأمة لا تزال إلى يومنا هذا. وما من شك أن الفكر الإرجائي كان من أشد الانحرافات التي أفرزتها الفرق التي حادت عن طريق أهل السنة والجماعة.

ولسنا هنا بصدد البحث عن نشأة هذا الفكر ولا عن الأطوار التي مر بها ولا عن الفرق التي ساهمت في نشأته ، أو تبنته بعد ذلك [١] ، وإنما الذي يعنينا في هذا الموضوع المهم انتشار ذلك الفكر المدمر في أوساط الأمة الإسلامية ، ومدى ما تسبب فيه من تدهور لأحوال المسلمين ، وما خلفه من آثار سيئة في حياتهم ، ومع ما مر به هذا الفكر من مراحل وتباين في معناه من طائفة لأخرى ، ومن بدء ظهوره إلى زمن استقراره النهائي فإنه لا يهمنا من ذلك كله إلا خطان اثنان سار خلالهما ، وإن كان أولهما أهون من الثاني على حد قول الشاعر : (حنانيك بعض الشر أهون من بعض).

فالخط الأول ما سمي بإرجاء الفقهاء ، وهو التصديق بالقلب والإقرار باللسان أو «المعرفة بالله والإقرار بالله والمعرفة بالرسول والإقرار بما جاء من عند الله في الجملة دون التفسير».[٢] وقد نقل هذا المذهب عن حماد بن أبي سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ وتلميذه الإمام أبي حنيفة (المتوفى سنة ١٥٠هـ) وقد قيل إن أبا حنيفة رجع عن مذهبه إلى مذهب السلف[٣] .

ويلاحظ على مذهب هؤلاء المرجئة الفقهاء أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان عندهم ، وقد لاقى هذا المذهب الفاسد مقاومة شديدة من قبل علماء السلف الذين لم يألوا جهداً في دحر هذه البدعة الناشئة التي يوشك أن يستعر شررها ويستفحل خطرها. فهذا الأوزاعي رحمه الله يقول «كان يحيى ابن أبي كثير وقتادة يقولان ليس من أهل الأهواء شيء أخوف عندهم على الأمة من الإرجاء».[٤]

---

(١) لمزيد الاطلاع والدراسة عن الفكر الإرجائي والرد عليه، راجع : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة بجامعة أم القرى، من إعداد د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي فهي خير ما كتب في ذلك الموضوع الخطير وجديرة بالاطلاع والدراسة.

(٢) مقالات الإسلاميين ٢٢١/١ لأبي الحسن الأشعري، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية ١٩٦٩م، مكتبة النهضة المصرية.

(٣) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٩٠، ويرجح الدكتور الحوالي سفر ذلك القول، وهذا هو الظن بأبي حنيفة رحمه الله.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٩٥/٧.

وقال إبراهيم أيضاً : « لفتنتهم - يعني المرجئة - أخوف على هذه الأمة من فتنة الأزارقة» .

وقال الزهري : «ما ابتدعت في الإسلام بدعة أضر على أهله من الإرجاء.» .

وقال شريك القاضي وذكر المرجئة فقال : «هم أخبث قوم ، حسبك بالرافضة خبثاً ، ولكن المرجئة يكذبون على الله »[١] .

هذا هو الخط الأول الذي سار عليه الإرجاء وهو ما سمي بإرجاء الفقهاء وهو الاكتفاء بالقول دون العمل في مسمى الإيمان ، وهذا هو الإرجاء الذي ذمه علماء السلف وبالغوا في التحذير منه. يقول الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي عن هذا النوع من الإرجاء«والقضية التي لا ينبغي أن تفوتنا هي أن كلمة المرجئة في اصطلاح هؤلاء العلماء (يعني علماء السلف الذين ذموا الإرجاء) إنما تعنى هذا الإرجاء أي إرجاء الفقهاء ، وظل هذا قائماً حتى بعد ظهور الجهمية كما سنرى. فكل ذم أو عيب قيل في المرجئة فهو منصرف لهم وحدهم حتى منتصف القرن الثاني تقريباً ، بل هو الأغلب إلى القرن الثالث».[٢]

ورحم الله السلف الصالح الذين أدركوا خطورة هذه البدعة وما قد ينشأ عنها من آثار سيئة فقاوموها مقاومة شديدة ، وحذروا الأمة من مغبة الوقوع فيها.

وأما الخط الثاني الذي سار عليه الفكر الإرجائي فهو ما يسمى بإرجاء الجهمية[٣] وهو القول بأن الإيمان هو المعرفة فقط[٤]. « وقد انقرض القائلون بأن الإيمان هو مجرد المعرفة القلبية ، ولكن العجيب هو قيام أعظم مذهبين في الإرجاء وهما الأشعرية والماتريدية اللذان يشكلان جملة الظاهرة العامة على أصوله في أن الإيمان هو ما في القلب فقط. حتى إن الماتريدية (وكلهم أحناف) أولت ما هو مشهور عن أبي حنيفة من أن الإقرار باللسان ركن آخر للإيمان وجعلوه علامة فقط[٥] . وهكذا استطاع هذا الخط الجهمي أن يحتوي الخط الأول وغيره من الخطوط ، ويصبح هو المهيمن على فكر أكثر الفرق الإسلامية انتشاراً. وإن زعم الأشاعرة والماتريدية أن التصديق القلبي الذي جعلوه حقيقة الإيمان عندهم غير المعرفة القلبية التي قال بها جهم. «وعلى أية حال فإن الفرق بين التصديق المجرد

---

(١) كتاب الإيمان ص ٣٢٩. شيخ الإسلام ابن تيمية. دار الكتب العلمية. بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٧م.

(٢) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٦٤.

(٣) نسبة إلى الجهم بن صفوان رأس الضلالات. انظر : سير أعلام النبلاء ٦/٢٦.

(٤) مقالات الإسلاميين ١/٢١١.

(٥) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٢٨٨.

من أعمال القلب وبين المعرفة مما يتعذر على العقول إدراكه كما نص شيخ الإسلام».[١] بل إن مذهب المرجئة الفقهاء قد مهد لرأي جهم ثم جاء المرجئة المتكلمون كالأشعري والماتريدي ، فجعلوه عقيدة أكثر الأمة.[٢]

«والخلاصة أن الظاهرة العامة للإرجاء في طورها النهائي أصبحت مكونة من مذهبي الأشعرية والماتريدية الذين شمل انتشارهما معظم الأقطار الإسلامية وتبنتها أكثر المعاهد الإسلامية شرقاً وغرباً ، وهذا من أعظم السمات الفكرية لعصور الانحراف في الفكر الإسلامي والحياة الإسلامية العامة».[٣]

المهم من كل ما سبق أن العمل أخرج من مسمى الإيمان ، وأصبح الإنسان مؤمناً كامل الإيمان ، ولو لم يركع لله ركعة ، ولو لم يعمل في الإسلام خيراً. وحتى تتضح الصورة ننقل بعض عبارات المرجئين من الفرقتين المذكورتين لنرى خطورة ذلك الفكر المنحرف ومدى ما سببه من آثار وخيمة.

فكثير من الأشعرية والماتريدية صرحوا بنفي أن يكون النطق شهادة ألا إله إلا الله داخلة في الإيمان. يقول أبو منصور البغدادي أحد أئمة الأشعرية : «وأما الإقرار - وهو قول كلمة الشهادة - والعمل - الذي هو فعل المأمورات وترك المنهيات - فليسا من الإيمان ولا يكون تاركهما كافراً ، فإن كان تاركاً للإقرار كان مؤمناً عند الله فحسب ، وإن كان تاركاً للعمل كان مؤمناً عند الله وفي أحكام الدنيا أيضاً.[٤]

وهذا سعد الدين التفتازاني يقول ضمن كلام معقد طويل عن مسألة النطق بالشهادتين وحكمه : «أن هاهنا مطلبين ؛ الأول: أن الإقرار ليس جزءاً من الإيمان. والثاني: أنه (أي الإيمان) التصديق لاغير».[٥] ثم أخذ يطنب في الكلام ويحشد في الأدلة على هذين المطلبين الفاسدين على غير طائل.

ويقول الدسوقي شارحاً لكلام السنوسي أحد أئمة الأشاعرة المتأخرين بعد ذكر حكم التلفظ بالشهادة ، وهل هي داخلة في الإيمان ، والأقوال في ذلك ، حيث رجح أن النطق بالشهادتين ليس شرطاً في صحة الإيمان ولا جزءاً من مفهومه ، وإنما هو شرط لإجراء الأحكام الدنيوية وهو المعتمد في المذهب الأشعري كما يقول. وعليه فمن صدق بقلبه ولم ينطق بالشهادتين ، سواء كان قادراً على

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٣.

النطق أو عاجزاً عنه ، فهو مؤمن عند الله يدخل الجنة ، وإن كانت لا تجري عليه الأحكام الدنيوية من غسل وصلاة عليه ودفن في مقابر المسلمين ولا ترثه ورثته المسلمون.

فقول الشارح (يعني السنوسي) : هذا هو المشهور (أي وجوب النطق وأنه شرط) غير مسلم بل هذا ضعيف. وقوله : (وقيل لا يصح الإيمان بدونها مطلقاً) أي سواء كان قادراً على النطق أو كان عاجزاً. وهذا القول منكر!!».(١)

ويقول الكمال في حاشية جمع الجوامع حول هذه المسألة : وإيضاح ذلك أن يقال في التلفظ هل هو شرط لإجراء أحكام المؤمنين في الدنيا من التوارث والمناكحة وغيرها فيكون غير داخل في مسمى الإيمان ، أو هو شطر منه أي جزء من مسماه؟ قال : والذي عليه جمهور المحققين الأول ؛ وعليه فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه مع تمكنه من الإقرار كان مؤمناً عند الله تعالى».(٢)

ويقول صاحب الجوهرة :

وفسـر الإيمـان بالتصديـق والنطـق فيـه الخلف بالتحقيـق

فقيل شرط كالعمـل وقيـل بل شطر والإسلام اشرحن بالعمل

مثـال هـذا الحـج والصـلاة كـذا الصيـام فـادر والزكـاة

يقول الباجوري أحد شراح الجوهرة شارحاً للبيت الثالث : «والمراد إذعان المذكورات وتسليمها وعدم مقابلتها بالرد والاستكبار».(٣) أي : إن الإيمان بها ليس بعملها وأدائها وإنما بالإذعان لها والإقرار بوجوبها.

وإذا كانت الشهادتان(٤) وهما الركن الأول من أركان الإسلام قد أخرجهما هؤلاء المرجئة الضالون من حقيقة الإيمان وجعلوهما شرطاً لإجراء أحكام الدنيا على المكلف فحسب ، فما بال الأركان الأخرى والأعمال الفضلى التي أمر بها الإسلام.

وهكذا تغالى المرجئة إلى أن «جعلوا أعظم أركان الإسلام - التي هي الجزء الظاهر من الإيمان بالله - بمنزلة شهادة الشهود أو القرائن الظاهرة التي قد يكون الواقع مخالفاً لها حتى إنهم قالوا :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٥. نعوذ بالله من العمى والضلال بل قوله هذا هو المنكر.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

(٤) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين وهو كافر باطناً وظاهراً عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها ، وذهب طائفة من المرجئة - وهم جهمية المرجئة وأتباعهما (وهو مذهب الأشاعرة والماتريدية كما وضحنا) إلى أنه إذا كان مصدقاً بقلبه كان كافراً في الظاهر دون الباطن. وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة . المصدر السابق ص٣٨١.

إن من سب الله أو قتل الرسول يجوز أن يكون مؤمناً في الباطن ولا يكون كافراً قط إلا إذا انتفى العلم الباطني من قلبه ، فإذا قيل لهم قد جاء الكتاب والسنة بتكفير من كان لديه علم وتصديق باطن بدون انقياد بالقلب وإقرار باللسان ، قالوا من ورد فيه النص علمنا انتفاء الإيمان عنه بالنص لا بالنظر والفهم. وما سوى ذلك لا نجزم بكفره وإن أقمنا عليه أحكامه الظاهرة.(١)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان ، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه ، وهو مع هذا يسب الله ورسوله ويعادي أولياء الله ، ويوالي أعداء الله ، ويقتل الأنبياء ويهدم المسجد ، ويهين المصاحف ، ويكرم الكفار غاية الكرامة ، ويهين المؤمنين غاية الإهانة ، قالوا : وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه ، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن . قالوا : وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار؛ لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر كما يحكم بالإقرار والشهود ......

إلى أن قال : وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة ، وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول».(٢)

ويقول في موضع آخر : «والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقيق الارتباط الذي بين البدن والقلب ، مثل أن يقولوا رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان ، يقولون هذا مؤمن تام الإيمان ، فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار».(٣)

ونقل رحمه الله عن ابن أبي مليكة قوله : «لقد أتى علي برهة من الدهر ، وما أراني أدرك قوماً يقول أحدهم: إني مؤمن مستكمل الإيمان ، ثم ما رضي حتى قال إيماني على إيمان جبريل وميكائيل، وما زال بهم الشيطان حتى قال أحدهم إني مؤمن وإن نكح أخته وأمه وبنته ، والله لقد أدركت كذا وكذا من أصحاب النبي ﷺ ما مات أحد منهم إلا وهو يخشى النفاق على نفسه ، وقد ذكر هذا المعنى البخاري في صحيحه قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وما منهم أحد يقول إيمانه كإيمان جبريل».(٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٠.

(٢) كتاب الإيمان ص ١٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ١٨١. وأثر ابن أبي مليكة رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (الفتح ١/١٠٩).

هذا هو الفكر الإرجائي الذي أفرزته هذه الفرق المنحرفة.[١] وإن الإنسان ليكاد يصدم من أول وهلة حين يطالع ما كتبه المرجئة من المتكلمين حول حقيقة الإيمان «وما من شك أن هذا الفكر كان في مبدئه عدوى من الفلسفة والمنطق البعيدين عن روح هذا الدين. وأنه كان عند علماء المرجئة الأوائل مجرد «أفكار» تجريدية تدور في «الأبراج العاجية» ولا تتصل بالواقع! ... ولكن خطورة هذا الفكر تزايدت مع امتداد الزمن، وبدء التفلت من التكاليف .. وعلى امتداد الزمن زادت المساحة التي يغطيها الفكر الإرجائي! فحين كان العمل ـ مثلاً ـ يغطي تسعين في المائة من المساحة، كان الفكر الإرجائي يغطي العشرة في المائة التي انحسر عنها العمل! فلما انحسر العمل خمسين في المائة غطى الفكر الإرجائي الخمسين! فلما انحسر العمل كلية غطى الفكر الإرجائي الساحة كلها، وجاء في العصر الآخير من يقول «من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام».[٢]

«إن الإرجاء لم يكن في الأصل دعوة واعية مقصودة لترك العمل والتفلت من الطاعات وإنما كان تفسيراً ضالاً لحقيقة الإيمان أنتجته أسباب تاريخية ... ولكن الأمة وهي تتراخى عن العمل بالتدريج وتنفلت من الواجبات وتنحدر عن قمة الامتثال رويداً رويداً كانت تجد في الإرجاء تفسيراً مريحاً يبرر لها تراخيها وتفريطها ـ وهذه حقيقة نفسية معروفة ـ فكل ما انحسر عنه العمل واقعياً ستره ثوب الإرجاء الواسع نظريا ولهذا لم يكن المرجئة القدماء بحاجة إلى أكثر من كشف شبهاتهم النظرية وردهم بالدليل العلمي الصريح.

ولكن الحال تغير بعد انتشار الظاهرة وسيطرتها إذ أصبحت الأمة في القرون الأخيرة تتبنى الإرجاء عقيدة ومنهجاً وتعد مخالفه خارجاً مارقاً وتضبط دينها وأحكام إيمانها بأصوله وقواعده.

فصارت تعتقد أن التصديق القلبي المجرد من قول اللسان وعمل الأركان هو حقيقة الإيمان الذي أنزل الله به الكتب وبعث به الرسل وجعله مناط النجاة من عذابه في الآخرة وتبني على ذلك لوازم وأحكاماً أهونها تخطئة السلف في إجماعهم على أنه قول وعمل وعدم تكفير طوائف من المرتدين.

وأصبح معنى كون الصلاة والزكاة والحج أركاناً للإسلام هو اعتقاد وجوبها والإقرار به وإن لم يعمل من ذلك شيئاً».[٣]

---

(١) يقول الدكتور سفر الحوالي: أنه خرج من دراسته المتخصصة في تلك القضية الخطيرة بنتيجة صدقها البحث التاريخي المستقصي وهي أن عقيدة المرجئة لم تكن على الإطلاق ثمرة نظر في النصوص الشرعية ولا وليدة اجتهاد عقلي سوي وإنما وليدة مواقف انفعالية جدلية أفرزتها المعارك الكلامية الطاحنة بين الفرق البدعية، تلك الفرق التي كان جهلها بالشرع وإعراضها عنه سبباً في تعلقها لدفع خصومها بأوهام ذاتية أو تصورات غريبة منقولة عن مصادر وثنية. ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ١٢٦.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٣١.

(٣) من مقدمة «ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي».

«إن إخراج العمل من مسمى الإيمان في هذا الدين الذي نزل لينشيء «واقعاً» معيناً تحكمه شريعة الله ومنهجه للحياة ، أمر مذهل في مجرد تصوره فضلاً عن أن يصدر عن «علماء» معتبرين في تاريخ هذه الأمة.

كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقاً بالقلب وإقراراً باللسان[١] ، دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار في واقع الحياة؟!

ألهذا أنزل الله دينه وأرسل رسوله ﷺ؟ لمجرد أن يصدق الناس بقلوبهم ويقروا بألسنتهم ، ثم يتركوا واقع الحياة تحكمه الجاهلية التي لا تصدق بقلبها ولا تقر بلسانها؟ وكيف يغيرون ذلك الواقع الجاهلي بغير «عمل» واقعي إيجابي ملموس مشهود ، تكون نتيجته إزالة الباطل بعقائده الفاسدة ، ونظمه الهابطة التى تعبد الناس لغير الله، وأنماط سلوكه المختلفة التى تبتدعها شياطين الإنس والجن في كل جاهلية ، وإنشاء النظام الرباني بدلاً منه ، بعقائده الصحيحة ، ونظامه القويم المؤسس على شريعة الله ، وأنماط سلوكه المستمدة من أخلاقيات لا إله الا الله ، المحكومة بميزان الله ؟

ثم كيف يحافظون على النظام الرباني - بعد إنشائه - من عدوان الجاهلية الدائم ،ومحاولتها الدائبة لنقض النظام الرباني ، وإقامة حكم الطواغيت بدلاً منه ، بوسائلها الدائمة التى تستخدمها ، من عدوان بالجيوش ، وعدوان بالأفكار الباطلة والمعتقدات ، وعدوان بالأنظمة التى لا تحكم بما أنزل الله ، وعدوان بالأنماط المبتدعة من السلوك كل ذلك يتم بمجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان ؟

يالها من مهزلة مذهلة حين تلصق بالإسلام ؟ وكيف يستقيم هذا مع قوله تعالى : {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب. من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً }. النساء [١٢٣ - ١٢٤].

بل كيف يستقيم مع تعاليم القرآن كلها من مبدئها إلى منتهاها ، التي توجه الناس للاعتقاد الصحيح ، والعمل بمقتضى ذلك الاعتقاد الصحيح».[٢]

ومع أن ذلك الفكر مهزلة مذهلة إلا أنه حظي بتأييد المئات من العلماء الذين تلقفوه كحقيقة لا يجوز الجدال فيها ، وأخذوا ينتصرون له في مؤلفاتهم ومناظراتهم حتى غدا هو العقيدة السائدة عند المسلمين ، ومن خالفها رموه بالضلال ولم يميزوا بين مذهب السلف الذين يدخلون الأعمال في مسمى

---

(١) هذا مع المرجئة الفقهاء ، فكيف بإرجاء الجهمية؟.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٢٩.

الإيمان ، وبين مذهب الخوارج وخلطوا بينهما فلم يكادوا يفرقون بينهما.[١]

والسؤال بعد كل هذا : كيف كان حال الفكر الإرجائي في الفترة التي ندرسها وما مدى آثاره التي تسبب فيها؟

في الحقيقة أن الفكر الإرجائي كان كغيره من الانحرافات العقدية الأخرى التي حدثت مبكراً واتسعت مع مرور الزمن واشتدت حدتها في القرنين الماضيين بشكل كبير.

وإن المقاومة العنيفة التي لاقتها دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - ، والحرب التي أوقدت نارها عليها لهي مقاومة من قبل المرجئة ، وحرب بين العقيدة الصحيحة من جانب والإرجاء من جانب آخر.

فإن الشيخ - رحمه الله - لما قام إلى الله داعياً محتسباً نافضاً عن عمود الدين ما علق به من شرك وبدع وخرافات ، محيياً لمذهب السلف الذي كاد أن يندرس ، كبر على أهل الابتداع في زمانه ما يدعوهم إليه من هدم لعقائد باطلة اعتقدوها ولمحدثات بالية ألفوها ، ولخرافات وأساطير صدقوها. ظانين أن ذلك كله من شعائر الدين وأوامر الإسلام التي يرون وجوب المحافظة عليها ، وعدم التهاون فيها ، وينتقصون من لا يؤمن بها ويقوم بها ، فكيف بمن يحاول النيل منها فلما ضاقت عليهم السبل في مدافعتها (يعني دعوة الشيخ) لم يكن عندهم وفي اعتقادهم أمضى من سيف الإرجاء المصلت الذي بادروا بإشهاره في وجه هذه الدعوة ، فأخذوا يقارعون به رجالها المخلصين ، واتهموهم بتكفير المسلمين ، وتفريق جماعتهم ، وشق كلمتهم ، كشأن أهل البدع في غالب الأمكنة والأزمنة.

وكان هذا الموقف العنيف منسجماً مع عقيدة الإرجاء التي تفشت في أوساط المسلمين وزادها رسوخاً علماء الكلام المرجئون الذين عكفوا عليها تدريساً وتأليفاً.

فيوم أن صدع الشيخ بالحق وأنكر ما وقع في الأمة من شرك أكبر وأصغر من استغاثة بالمخلوقين من دون الله عز وجل وتوسل بهم وتقرب إليهم. ومن بناء للقباب والأضرحة التي يطاف بها ويتعلق بها من دون الله عز وجل ، تعالت صيحات المستنكرين من كل فج ، وتفجرت ثورات المرجئين في كل مكان قائلين : كيف تكفرون المسلمين وتحكمون بشركهم لأنهم طافوا بالقبور ، وقدموا للأولياء القرابين والنذور ، وتوسلوا بالأولياء والصالحين. أليسوا هم بمسلمين ؟ أليسوا يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويصومون ؟

---

(١) مذهب الخوارج والمعتزلة كمذهب أهل السنة في الأركان من قول وعمل ، ولكن الفارق أن الخوارج والمعتزلة يقولون إن الإيمان حقيقة واحدة لا يتبعض فإذا زال منه ركن زال بالكلية ولذا كفر الخوارج مرتكب الكبيرة. أما السلف فيقولون إن الإيمان منه مايزول معه بالكلية ومنه ما يبقى معه شئ منه فالإيمان عندهم يتبعض أي بمعنى أنه قد يوجد بعضه ويذهب بعضه ، أما الآخرون فقالوا إذا زال جزء من الإيمان فإنه يزول بالكلية لأن الإيمان لا يتبعض. ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ٢٠٢/٢-٥٠٣.

ولبس عليهم الإرجاء وجه الحقيقة ، وأخذوا يجادلون به ليدحضوا به الحق المبين ، ويشيعون في الناس أن هؤلاء يكفرون المسلمين ويرونهم من المشركين ظانين أنهم بفعلهم هذا يستطيعون إطفاء نور هذه الدعوة في مهدها ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ويعلي دينه.

ولقد كان الإرجاء عقبة كأداء نصبها المبتدعة في طريق الدعوة السلفية ، ومن أشد المصاعب التي واجهت الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه رحمهم الله تعالى.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ بعد أن ذكر حال المشركين المقرين بتوحيد الربوبية : «فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله) والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها ، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق به ، والكفر بما يعبد من دون الله ، والبراءة منه فإنه لما قال لهم قولوا : لا إله إلا الله. قالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ص ٥].

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني. والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله ، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله».(١)

ويقول ـ رحمه الله ـ في موضع آخر : «فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم فاصغ سمعك لجوابها وهي أنهم يقولون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويكذبون الرسول ، وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ويجعلونه سحراً ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ، ونصلي ونصوم فكيف يجعلوننا مثل أولئك؟»(٢) ثم أخذ ـ رحمه الله ـ يجيب عن شبهتهم ويرد عليها . إلى أن قال : «فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ، ثم تأمل جوابها فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق».(٣)

---

(١) كشف الشبهات ص ٨ تعليق الشيخ محمد حامد الفقي. دار الثقافة للطباعة. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤. وملخص جوابه رحمه الله : أنه لاخلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام ، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن ، وجحد بعضه ، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف إذا جحد الإنسان شيئًا من هذه الأمور كفر ؟ ولو عمل بكل ماجاء به الرسول ، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر ؟ وقد قاتل الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة ، وقد أسلموا مع النبي ﷺ

ويقول في موضع ثالث : «وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال : لا إله إلا الله ، وقال له : (أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟)(١) وكذلك قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)(٢) وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها ، ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل».(٣)

ويقول ـ رحمه الله ـ في إحدى رسائله التي بين فيها أنواع التوحيد بعد أن ذكر ما أطبق عليه مرجئة زمانه من أن الذي يقول لا إله إلا الله لا يكفر بشيء : «وأعظم من ذلك وأكبر تصريحهم بأن البوادي ليس معهم من الإسلام شعرة ، ولكن يقولون : لا إله إلا الله ، وهم بهذه اللفظة إسلام ، وحرم الإسلام مالهم ودمهم مع إقرارهم أنهم تركوا الإسلام كله ومع علمهم بإنكارهم البعث ، واستهزائهم بمن أقر به و واستهزائهم ، وتفضيلهم دين آبائهم مخالفاً لدين النبي ﷺ ومع هذا يصرح هؤلاء الشياطين المردة الجهلة أن البدو أسلموا ، ولو جرى منهم ذلك كله ، لأنهم يقولون : لا إله إلا الله».(٤)

ويقول حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن ـ رحمه الله ـ بعد أن تحدث عن عظم شأن كلمة لا إله إلا الله : «فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان ، جعلوا المتلفظ بها عادة وهذياناً ، والقعقعة بحروفها ، فهي عندهم الإسلام والإيمان، مع ما هدموه من التوحيد الذي هو حق الله ، وأكبوا وأقبلوا على عبادة المشاهد والأوثان وضيقوا الفرائض وسائر الأركان ، وزين لهم ما ارتكبوه من التبدع

وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويصلون ويؤذنون فإن قيل : إنهم يقولون : إن مسيلمة نبي . قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه ، ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع شمسان ويوسف (من المقبورين في نجد قديماً) صحابياً أو نبياً إلى مرتبة جبار السموات والأرض . وقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من غلا فيه مع أنهم يدعون الإسلام ، وهم من أصحابه ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟ أيظن أحد أن الصحابة يكفرون المسلمين ، أم أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لايضر ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر ، وقد أجمع العلماء على كفر بني عبيد القداح وقد كانوا يشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويدعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة لما أظهروا مخالفة الشريعة ؟ ثم ما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب « باب حكم المرتد » حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها يصبح بها مرتداً . انتهى .

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة برقم ٤٢٦٩ (الفتح ٧/٥١٧)، ورواه مسلم برقم ٩٦ كتاب الإيمان باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ١/٩٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ برقم ٧٢٨٤ (الفتح ١٣/٢٥٠) ، ورواه مسلم برقم ٢١ كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. ١/٥٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥.

(٤) مجموعة التوحيد ص ٣٤ المكتبة السلفية . المدينة المنورة. وذكر الدكتور صالح العبود أن هناك خلافاً في نسبة تلك الرسالة إلى الشيخ محمد ، ومن المحتمل أن تكون من رسائل حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن . عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي . ص ١٤٥ . وإن كان الكثيرون على أنها من رسائل الشيخ رحمه الله ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم في الدرر السنية ٢/٣٤ ـ ٣٧ وعبد الله بن سعد الرويشد في كتابه عن تاريخ الشيخ ، والدكتور أحمد الضبيب في سجله البليجرافي الذي أعده لمؤلفات الشيخ .

والتنطع والعصيان إلا أنهم يقولون : لا إله إلا الله . فما أحسن ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : لا إله إلا الله سماها الله كلمة التقوى ، فجعلوها كلمة الفجور».[١]

ويقول العلامة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين (المتوفى سنة ١٢٨٢هـ) في رسالته المسماة بـ «الانتصار لحزب الله الموحدين والرد على المجادل عن المشركين» : «ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول : من قال لا إله إلا الله ما تقول فيه شيئاً وإن فعل ما فعل ، لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفياً وإثباتاً .... فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب قيل هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره لأنه يتكلم بكلمة التوحيد».[٢]

ويقول الشيخ إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (المتوفى سنة ١٣١٩هـ) واصفاً بعض ما واجهته الدعوة فيقول : «وكثر الطعن في الدعوة الإسلامية والملة الحنفية المحمدية وفاه بين العوام أن من تكلم بالشهادتين فهو من أهل الإسلام ، وخفي عليهم ما وضعت له من إخلاص العبادة لله والكفر بما يعبد من دون الله ، ونودي بالمسالمة لمن لاذ بالأوهام ، وألحد في الدين ، وعادى المسلمين».[٣]

ويقول الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالي : «وقد اصطدمت هذه الفكرة (يعني الإرجاء) بالعقيدة السلفية بطبيعة الحال وجرى بين المنهجين جولات ومعارك ، أبرزها التي دارت أيام شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم الجولة التي دارت بظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وما تزال المعركة قائمة على أشدها ، وما يزال مذهب المرجئة هو الطاغي على أكثر بقاع العالم الإسلامي.

وهكذا ظلت هذه القضية هي جوهر كل الدعاوى التي أشهرها المؤلفون الإرجائيون على عقيدة أهل السنة والجماعة باسم الرد على ما أسموه «الوهابية».[٤]

وفي ضوء الفكر الإرجائي نستطيع أن نفسر كثيراً من الانحرافات التي اشتدت وطأتها في هذين القرنين وعلى رأسها انتشار مظاهر الشرك الأكبر.

«فالقوم لما خفيت عليهم حقيقة الإيمان الجامعة وترابط أجزائه المحكم وقعوا في هذه الغلطة الكبرى (الإرجاء) التي كان لانتشارها من الآثار المدمرة في الأمة الإسلامية ما تنوء بشرحه المجلدات

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٥ .

(٢) عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين ص ١٣. عشرون رسالة لجمع من أئمة الدعوة منها الرسالة المذكورة. جمع وترتيب : الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي. تقديم سماحة الشيخ : عبد العزيز بن باز.

(٣) عقيدة الموحدين ص ١٦٤.

(٤) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي. ص ٤٠٥.

وحسبك ما وقعت فيه الأمة من شرك أكبر ـ قديماً وحديثا ـ وهي تحسب أنها في ذروة الإيمان ؛ لأن القلب مصدق للرسول واللسان ناطق بأن لا إله إلا الله!!!».[(١)]

وسوف نرى في مبحث قادم ـ إن شاء الله تعالى ـ مظاهر الشرك الأكبر التي لم يكد يخلو بلد منها والتي سقط فيها الناس تحت غمرة الإرجاء.

وفي ضوء هذا الفكر يمكننا أن نفهم كثيراً من شحطات الصوفية وشذوذ الطرقية ، وسكوت الناس على هذا السقوط والإسفاف.

وفي ضوئه أيضاً لا نتعجب من عدم الإنكار لتصرفات بعض الحاكمين الهوجاء وصمت الناس حيال ما يصدر من حكامهم من خرق لأحكام الدين وانتهاك لمحارمه ومن ظلم واضطهاد للناس، وأعظم من ذلك كله موالاة الكافرين ومناصرتهم وعداوة المؤمنين، مادام أن هؤلاء الحكام يتفوهون بالشهادة ويتكلمون باسم الدين وقد سبق أن عرفنا أن خلقاً من المرجئة قالوا إن السجود لصنم أو سب الرسول ليس بكفر مادام أن القلب مصدق ، فكيف بمن ينطق بالشهادتين ويدعي حب الإسلام أو تطبيقه!!

ولما أهدي للباي أحمد ملك تونس نيشان على شكل صليب من دولة «سردانية» عام ١٢٦٧هـ تردد في حمله ، فأفتاه بعض الراسخين في العلم (والإرجاء)! بالجواز إذا لم يعتقد معتقد أهله.[(٢)] وهذا مثال حي ينطق بفداحة الفكر الإرجائي في ذلك الزمن ، فيمكن تحت مظلة ذلك الفكر المنحرف أن يفعل الإنسان ما يشاء من صور الكفر والشرك وأن يرتكب من ضروب الطغيان والإجرام ما يعن له ، وهو بعد ذلك آمن من وصمة الكفر مطمئن في ظلال تلك الفكرة الباطلة.

وقد استمر التيار الإرجائي يَنخر في كيان الأمة الإسلامية ، ويذكيه ما كان ينشره علماء الكلام ويقومون بتدريسه في كبرى المعاهد الإسلامية كالأزهر والزيتونة والقرويين[(٣)] وغيرها من المعاهد والمساجد ودور العلم التي هيمن عليها الإرجاء.

ونعود مرة أخرى فنقول :إن المقاومة العنيفة التي ووجهت بها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث، والحملات الشديدة التي قوبلت بها كانت منطلقة من قواعد الإرجاء يقودها أفواج المرجئين الحانقين على هذه الدعوة حتى أمست غريبة في العالم الإسلامي الموبوءة أجواؤه بالفكر الإرجائي.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٨.

(٢) اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ٦/ ١٤٠. أحمد بن أبي الضياف. المطبعة الرسمية الجمهورية التونسية. تحقيق : أحمد عبد السلام. ١٩٧١م .

(٣) مما يؤسف له استمرار هذه المراكز العلمية في تبني علم الكلام وعقائد المتكلمين وإعراضها عن عقيدة السلف بل ومقاومتها في كثير من الأحيان.

« ولئن كان علماء عصور الإسلام الوسطى ــ من المرجئة أو المتأثرين بالإرجاء ــ يحجمون عن تكفير ملاحدة وحدة الوجود وأمثالهم من الزنادقة أو الساخرين بالدين من الكتاب والشعراء ويتمحلون لهم التأويلات والتبريرات ، فقد استغنى علماء الإرجاء في عصرنا الحاضر عن هذه التأويلات لأن الإسلام في عرفهم وراثة لازمة كما تورث الأسماء ، وأحرف تكتب في الهوية لا ينسخها عمل ولا قول يرتكبه حاملها ، ولهذا تجرأ الملاحدة زعماء وكتابا على دين الله سخرية واستهزاء وأصبح هذا ميداناً للزعماء والمفكرين وملهاة للشعراء والصحفيين وجرت ألفاظ الاستهزاء على ألسنة العوام فأصبحت في أحيان كثيرة كالسلام.

وعم البلاء حتى تعدى مجال الاستهزاء إلى مجال الكفر الجاد الجلي الذي كان أمراً محظوراً - ولو عرفاً وعادة - فنسي الناس تكفير الباطنية والقرامطة والدروز والنصيرية وأمثالها ، وغاب عنهم تماماً كفر طواغيت الدجل والخرافة والسحر ، أما طواغيت الحكم والتشريع فقد نسخوا شريعة الله جهاراً نهاراً وحكموا شرائع الطاغوت في الدماء والأعراض والأموال ، وألزموا الناس في مناهجهم ووسائل تربيتهم بموالاة الكفار ، والموبقات ضروباً وألواناً ، وسخروا من الحدود والحجاب وتعدد الزوجات وأحكام الميراث والعبادات والأخلاق ..... وانضم أغلب الطبقة المثقفة - كما يسمونها - إلى الأحزاب الكفرية والمنظمات الإلحادية والمذاهب الأدبية التي تستر الكفر بالشعر ..... وسقط حد الردة إلا من كتب الفقه الموروثة ، بل ظهر في صفوف المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية اتجاه جديد ينكر حد الردة ضمن ما ينكر من حدود الإسلام وأصوله. ومر على الأمة الإسلامية أجيال بل قرون لم تسمع فيها أن حد الردة أقيم على زنديق مجاهر أو ملحد مكابر ، في حين أن الآلاف من الأرواح تزهق لأسباب سياسية أو خلافات شخصية».(١)

«ومن أفسد الأصول التي بناها المرجئة على هذا الاعتقاد - أي انحصار الإيمان في التصديق القلبي وحده - أنهم حصروا الكفر في التكذيب القلبي أيضاً حتى أنهم لم يعتبروا الأعمال الكفرية الصريحة كالسجود للصنم ، وإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ إلا دلالات على انتفاء التصديق القلبي وليست مكفرة بذاتها .(٢)

وكان لهذه العقيدة آثار عميقة المدى على الأمة ، بل هي في عصرنا هذا أساس للضلال والتخبط الواقع في مسألة التكفير ، ومنها نشأ التوسع في استخدام «شرط الاستحلال» حتى اشترطوه في أعمال الكفر الصريحة كإهانة المصحف وسب الرسول ﷺ وإلغاء شريعة الله ، فقالوا لا يكفر فاعلها إلا إذا كان مستحلاً بقلبه!! واشترط بعضهم مساءلة المرتد قبل الحكم عليه ، فإن أقر أنه

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، ص ٤٧.

(٢) وهذا من الأصول الثابتة في مذهب الأشاعرة قديماً وحديثاً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك .

يعتقد أن فعله كفر كفر ، وإن قال إنه مصدق بقلبه ، ويعتقد أن الإسلام أفضل مما هو عليه من الردة لم يكفروه».(١)

لقد كان الفكر الإرجائي ولا زال من أخطر الانحرافات العقدية التي وقعت فيها الأمة الإسلامية.

وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « فليس لأحد أن يقول بخلاف قول الله ورسوله ، لا سيما وقد صار ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم ، وإلى ظهور الفسق ، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سبباً لخطأ عظيم في العقائد والأعمال ، فلهذا عظم القول في الإرجاء».(٢)

وإذا كان ظهور الفسق في الأمة من آثار الفكر الإرجائي قد وقع في القرن الثاني الهجري حتى حمل السلف عليه حملة عظيمة ، فكيف الحال بعد ذلك. لقد تفاقم الفسق والفجور بعد ذلك ، بل لقد وقع الشرك الأكبر وتفشت مظاهره ، واستمرت تسرى في المجتمعات الإسلامية سريان النار في الهشيم عبر القرون ، حتى جاء العصر الحاضر وبرز شرك العصر المعروف وهو شرك الاتباع والتشريع بغير ما أنزل الله ، فألغيت المحاكم الشرعية في أكثر البلدان ومن بقيت فيها حجم دورها وقلمت صلاحياتها ، وشيدت المحاكم الوضعية التي تحكم بـ«القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي والقانون البريطاني ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين للشريعة وغير ذلك. فهذه المحاكم الآن في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب ، والناس إليها أسراب إثر أسراب ، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به وتقرهم عليه وتحتمه عليهم.

فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة».(٣)

«ومع هذا يدعي أصحاب هذا الفكر المبين ورجال دينهم محبة الله ورسوله ويعبرون عن هذا الحب المزعوم بالمظاهر والاحتفالات البدعية وأعمال الضرار الأخرى ، ويستدرجون بهذا عقول بعض العلماء الناصحين فيتورعون عن الحكم عليهم بما حكم الله عليهم به متذرعين بأنهم غير مستحلين!»(٤)

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩١ وقال المؤلف تعليقاً على ذلك : وغرضهم هو التثبت في إطلاق الكفر - بزعمهم - وهذا إلى أفعال الحمقى أقرب منه إلى أفعال المتثبتين ، وإلا فهل يذهب عاقل إلى طاغوت محارب للشريعة أو إلى زعيم حزب شيوعي فيسأله هل تعتقد أن الإسلام أفضل؟.

(٢) كتاب الإيمان ص ٣٣٩ وقد ذكرنا بعض أقوال السلف في ذم الإرجاء. انظر : ص ٢٩ وما بعدها .

(٣) رسالة تحكيم القوانين ص ٦. للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى.

(٤) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ص ٤٢٢.

لقد فاقت آثار الفكر الإرجائي في الفترة التي نقوم بدراستها وفي العصر الحاضر ما سببه من آثار في الماضي. وإذا كان الفكر الإرجائي في القرن الأول حدث كرد فعل ضد الفكر الخارجي ، فإن العكس هو الذي حدث في عصرنا هذا حيث كان فكر التكفير الغالي رداً على الفكر الإرجائي المعاصر الذي غلا به أصحابه كما رأينا.

« فكما أن المرجئة القدامى تصوروا وجود الإيمان في قلب من عاش دهره كله لم يسجد لله سجدة ولا صام له يوما ولا أدى من زكاة ماله درهماً ولا عقد النية على حج بيته ، بل ربما كان معلنا بسب الله ورسوله مهينا للمصحف عمداً حتى ولو قتلناه على شيء من ذلك قالوا إن كان مقرا في نفسه فإنه يموت مسلماً عاصياً ، وإذا امتنع عن التوبة يقتل حداً لا كفراً.

كما تصوروا ذلك جاء المرجئة المعاصرون فقالوا :

إن من كان لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله ولا يقيم من شريعة الله إلا جزءاً قد يقل أو يكثر - لا يقيمه لأنه من أمر الله وامتثالا له وإيماناً بدينه ، لأنه موافق للهوى والمصلحة الذاتية ومقر ممن يملك حق الإقرار والتشريع سواء كان شخص الزعيم أو الحزب أو المجلس التشريعي - فإنه لا يكفر إلا إذا علمنا أنه في قلبه يفضل شرائع البشر على شريعة أحكم الحاكمين، وما لم نطلع على ذلك فكل أعماله هي على سبيل المعصية حتى وهو يصدر القوانين تلو القوانين ويترصد للمطالبين بتطبيق الشريعة ويلاحقهم بصنوف الأذى ، ويظهر الموالاة الصريحة للكفار ، ويلغي ما شرعه الله من الفروق الجلية بين المؤمنين والكفار من الرعية ويرفض إقامة أحزاب دينية . كل ذلك معاص لا تخرجه من الإسلام ما لم نطلع على ما في قلبه فنعلم أنه يفضل شرعا وحكما غير شرع الله ، وحكمه على شرع الله وحكمه. فمرجئة عصرنا أكثر غلواً من جهة أنهم لم يحكموا له بشيء من أحكام الكفر لا ظاهرا ولا باطناً. وأولئك لم يخالفوا في إجراء الأحكام الظاهرة عليه لكن جوزوا إيمانه باطنا ، فقالوا : لو قتلناه لأنه سب الله ورسوله فهذا السب دليل على كفره وهو يوجب علينا تكفيره وقتله في أحكام الدنيا لكن إن كان في قلبه مقراً بصدق الرسول فهو مؤمن ناج عند الله. أما هؤلاء فيحكمون بإيمان من ذكرنا مثاله ظاهراً وباطناً ولا يرونه مستوجباً لحد فضلاً عن تكفير.»[١]

«ومن المعلوم في بدائه العقول أن كلمة التوحيد لو كانت مجرد لفظ فقط لما لقي رسول الله ﷺ ما لقي من عنت في سبيلها هو وأصحابه الأبرار ، ولكنها كلمة قامت بها السموات والأرض ، وكلمة لها شروط ونواقض. ولو فهم الصحابة والتابعون رحمهم الله ما فهمت المرجئة لما قام لدين الله قائمة،

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠٠.

ولما انتشر الإسلام وبقي إلى هذا اليوم ، ولما جردت السيوف ، وضربت الرقاب في سبيل الله ، ولما تغير مجرى تاريخ البشرية بعد ظهور الدين » [١] .

فكيف يرجى بعد هذا الفكر الخطير المدمر أن تظل الأمة قوية تدافع عن نفسها ودينها . وما كان ذلك ليقع والفكر الإرجائي وغيره من الانحرافات ينخر في كيانها وأضحى كالداء العضال الذي لا يرجى برؤه.

(١) من مقدمة تحقيق كتاب السنة ص٧١ للدكتور محمد بن سعيد القحطاني . دار ابن القيم . الدمام . ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الفصل الثالث : ضعف عقيدة الولاء والبراء :

تعتبر عقيدة الولاء والبراء في الإسلام من أهم الأمور التي يجب على المسلم أن يعتقدها ويسير في شئون حياته وفقها. فيحب المؤمنين ويواليهم ، ويبغض الكافرين ويعاديهم إذ «إنه ليس في كتاب الله حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم - أي الولاء والبراء - بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده».(١)

وعلى الرغم من وضوح هذه العقيدة في القرآن والسنة وفهم الأجيال الأولى من المسلمين لمعناها، وتطبيقها في حياتهم تطبيقاً كاملاً ، إلا أنها أصيبت كباقي مجالات العقيدة الأخرى بالانحرف ، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب البلدان الإسلامية ، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها ، ويأخذون بزمامها إلى الطريق المستقيم.

ولعل من العوامل التي ساعدت على إضعاف هذه العقيدة ما أصيب به المسلمون في عصورهم الأخيرة وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من ضعف وتخلف جعل الكثير من المسلمين خصوصاً الحكام منهم يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولونهم من دون المؤمنين. حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية ، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضعف والانحطاط. فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة. فالواقع المليء بكافة صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوربي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء ، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبارهم بواقع الكافرين إذ لو كان إيمانهم صادقاً ، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة ، كما كان حال الجيل الأول رضي الله عنه الذي استعلى بدينه وإيمانه على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة ، ولحظة الفشل كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران ١٣٩].

ومع كل هذا فإننا نستطيع أن نقول بأن هذه العقيدة الغالية على المستوى الجماهيري(٢) على الأقل كانت لا تزال متوهجة في النفوس ، مستقرة في العقول. فقد كان المسلم في الشام مثلاً يحب

---

(١) من كلام العلامة حمد بن عتيق رحمه الله. انظر الولاء والبراء ص ١٣ د. محمد بن سعيد القحطاني. الناشر : دار طيبة. الرياض. ط٢. ١٤٠٤هـ.

(٢) أما بعد أن بسط الاستعمار سيطرته على بلاد المسلمين وسلط عليهم موجات عنيفة من الغزو الفكري ، والمسخ العقلي ، وبفضل صنائعه في الأرض المسلمة ممن ساروا في ركابه وحدث الانبهار و الفشل النفسي والهزيمة الروحية تهاوت هذه العقيدة ، وخبت في النفوس المغلوبة ، ونشأت أجيال ممسوخة متفرنجة تريد التغريب والعلمنة بكل وسيلة وبأي ثمن. ولمزيد من الإيضاح انظر : كتاب الولاء والبراء السابق ذكره ، فهو من خير ما كتب في ذلك الموضوع .

أخاه المسلم في مصر ويبغض جاره النصراني. وكان المسلم في مصر يبغض النصارى الأقباط في بلده ، ويحب إخوانه المسلمين في المغرب والهند والعراق وكل مكان ، وكان المسلم يتنقل من أي بلد شاء إلى أي بلد شاء لا تعوقه عوائق ، ولا تحول دون تنقله حواجز ، ولا يشعر بأنه غريب ؛ لأنه أينما حل أو أقام فهو بين إخوانه المسلمين، وليس أدل على ذلك من إحساس المسلمين في كل مكان بما يقع لإخوانهم في الدين من اعتداءات ونكبات ، ومشاركة بعضهم لبعض في جهاد المعتدين ، والنفير في سبيل الله. فكانوا إلى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.(١)

ونضرب لذلك مثالين اثنين - وإلا فالأمثلة كثيرة - لنرى أن هذه العقيدة لم تصب على المستوى العام ، وإنما كانت إصابتها على المستوى الخاص الذي يمثله الحكام كما سنوضح ذلك.

المثال الأول : عندما احتل الفرنسيون مصر عام ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م وذاع نبأ احتلالهم في أرجاء العالم الإسلامي ، وعلت موجات السخط والاستياء في أوساطه. فقد قام أحد الشيوخ المغاربة ويدعى الشيخ الكيلاني وكان مجاوراً بمكة والمدينة بدعوة المسلمين في الحجاز - الذي أنزعج أهله من نبأ سقوط مصر في يد الفرنسيين إلى الجهاد - ، وتحريضهم على نصرة الحق والدين ، وقرأ عليهم كتاباً في الحرم ألفه لذلك الأمر ، فاجتمع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر وانضم معهم جملة من أهل ينبع وبعض الأتراك والمغاربة والغز وأهل الصعيد ، وتقاتلوا مع الفرنسيين في عدة معارك على غير طائل كما يقول الجبرتي.(٢) فقد هب المسلمون في الحجاز وغيره لمشاركة إخوانهم المسلمين في مصر في محنتهم إحساساً بالرابطة الدينية والأخوة الإسلامية في حين كان الموقف السياسي عند بعض الحكام يختلف عن ذلك اختلافاً كاملاً. فقد تجنب سليمان الكبير حاكم العراق أن يتخذ أي إجراءات ضد القنصل الفرنسي في بغداد ، ووقع يوسف القره منلي حاكم طرابلس (ليبيا) معاهدة مع الفرنسيين ليفتح لهم طريق الاتصال بين فرنسا ومصر عبر ليبيا.

مع أن هذا الموقف مخالف حتى لموقف السلطان العثماني نفسه الذي كان يتبعه هذان الحاكمان.(٣)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم ، برقم ٦٠١١ (الفتح ١٠/٤٣٨)، ورواه مسلم برقم ٢٥٨٦ كتاب البر والصلة والآداب - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤/١٩٩٩.

(٢) عجائب الآثار ٢/٢٥٠. وكان ذلك في أول شهر رجب عام ١٢١٣هـ. ويذكر الجبرتي أن الشيخ المذكور قد توفي في شهر ذي القعدة من نفس السنة ، وأن أتباعه قد تفرقوا في البلاد وأن من أسباب إخفاقهم عدم ثبات أهل الصعيد معهم حيث يوهمونهم أنهم معهم وعند الحروب يتخلون عنهم. عجائب الآثار ٢/٢٧٣.

(٣) تاريخ العرب الحديث ، العراق ١/١٠٨ د . عبد العزيز سليمان نوار ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٩٧٦م .

والمثال الثاني : ما تمثل في دعوة السلطان عبد الحميد الثاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التلسط الأوربي والروسي وغيرهما ، وقد أثمرت هذه الدعوة إلى حد كبير.[١] وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم. وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخط البالغة ثلاثة ملايين ليرة تركية.[٢]

وكما قلنا فإن الشعور بالترابط الديني بين المسلمين كان متقداً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توحي بالفرقة والاختلاف كالطرق الصوفية والمذاهب الفقهية والكلامية ، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة إلى حد كبير في نفوس العامة ، ولم يكن وجود النصارى مثلاً في بلد كمصر يمكن أن ينال من هذه العقيدة التي رسخت في نفوس المسلمين.

ولا يمنع بعد هذا من وجود شواذ على المستوى الجماهيري شذوا عن الحالة التي ذكرنا ، فقاموا بموالاة الكفار خصوصاً من كان منهم محتلاً لأرض المسلمين فتقربوا منهم بغية الجاه والمال والمنصب ، ولكن هؤلاء كانوا شواذاً كما قلنا والشاذ لا حكم له. لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً صلباً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم. ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الإسلامية ممن بأيديهم مقاليد الأمور من الحكام وغيرهم كما سنرى فيما بعد.

ولكن هل بقيت هذه العقيدة دون غيرها سليمة من الانحراف؟ والجواب بالنفي قطعاً . فمن الناحية الإجمالية فإن الخلل الذي طرأ على العقيدة قد أصاب جميع جوانبها ، وإن تفاوتت شدته من جانب إلى آخر. ومن الناحية التفصيلية فقد تعرضت هذه العقيدة إلى انحرافين هما :

الأول : حيث أصبحت هذه العقيدة الهامة عقيدة عمياء - إن صح التعبير - عند كثير من أبناء المسلمين ، أو بمعنى آخر فقد أصاب هذه العقيدة شيء من الغلو والجنوح ، فبعد أن كانت هذه العقيدة تقوم على محبة المؤمنين ومناصرتهم وبغض الكفار ومعاداتهم مع الاستفادة مما عندهم من علوم مادية ومنافع دنيوية كما كان حال المسلمين في العصر الأول حيث لم يمنعهم عداء فارس والروم من أن يستفيدوا بما عند أولئك من علوم وصنائع.

---

(١) انظر حول ذلك. السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية. لموفق المرجة. والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. للدكتور محمد محمد حسين.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٩٤ كارل بروكلمان.

ولكن المسلمين في عصور الانحطاط وخاصة هذين القرنين جنحوا في فهم هذه العقيدة، فزادوا على بغض الكفار وعداوتهم بغض كل ما يرد عنهم ويخرج من ديارهم حتى ولو كان علماً نافعاً ومصلحة ظاهرة ، وبذلك سدوا على أنفسهم أبواباً من العلوم والمعارف كانوا بأشد الحاجة إليها ، بدعوى أنها جاءت من بلاد الكفار ، وما يأتي من بلادهم إلا الكفر والضلال، ونسوا «أن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها».(١)

وهذا هو الموقف السلبي الذي وقفته كثير من بلاد المسلمين إما موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل المحايد في وجه الحضارة الأوربية الغازية وعدم الانتفاع بما فيها من تجارب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة والميكانيكا والطب والهندسة ، واستيراد الآلات النافعة وأدوات الحرب والبضائع.(٢)

وقد كان لهذا الموقف آثار بعيدة المدى في اتساع هوة التخلف والضعف في شتى المجالات عند المسلمين ، وبذلك الفهم المنحرف ازدادت أوضاع المسلمين تردياً ، وعاش المسلمون معزولين عن العالم الذي دبت فيه مظاهر التطور والتغير بشكل سريع ، وأخذ الكثير منهم يجتهد في عزلته الخاطئة ويوصد الأبواب أمام كل العلوم القادمة حفاظاً على دينه وخدمة لعقيدته التي ظلمها بفهمه الخاطيء . ولم يكن تردي أوضاع المسلمين وازديادها سوءاً هو الأثر الوحيد الذي نشأ من الغلو الذي أصاب هذه العقيدة والعمى الذي غشيها ، بل هناك أثر آخر لا يقل خطورة عن السابق يتمثل في الموقف السلبي الذي وقفه السواد الأعظم من المسلمين من الحضارة الحديثة والذي مكن فيما بعد لدعاة التغريب من أبناء المسلمين الذين رضعوا لبان الغرب وتغذوا بثقافته وظهروا في ثياب المصلحين والناصحين أن يجروا الأمة المنهكة من ورائهم بعيداً عن الخط الإسلامي ، ويندفعوا بها إلى طرق العلمنة والتغريب والتفرنج المظلمة ، وذلك حين خلت لهم الساحة بغياب العلماء الربانيين ، وابتعدت الأمة كثيراً عن العقيدة الإسلامية التي كان عليها السلف الصالح ، وأصبحت متعلقة بكثير من التقاليد والرسوم الخاوية مما جعل الفترة التي عاشتها الأمة بعيدة عن مظاهر التقدم ، والتغيرات التي استجدت في العالم فترة قصيرة ومضطربة ، ومهددة بالاكتساح والزوال من قبل هذه الحضارة الغازية.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي : «ويشك كل عاقل عرف قوة نفوذ هذه الحضارة وسعته ، وعرف ضعف هذه الأقطار (يعني أقطار الإسلام) الروحي والمادي ، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٨٧، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة. وانظر مبحث الانتفاع بالكفار وبما عندهم، الولاء والبراء ص ٣٦٤.

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٢، أبو الحسن الندوي، ط٥، ١٤٠٥/١٩٨٥، دار القلم، الكويت.

من إيمان وقوة وشخصية وثقة ، ويشك في طول هذه الفترة ، لأنها مع وجود هذا الضعف في الشخصية والفقر في القوة المعنوية - غير صالحة للطول والامتداد ، فضلاً عن البقاء والاستمرار).[١] وذلك أن العادات والتقاليد التي لم تقم على عقيدة راسخة صافية لا تستطيع الصمود طويلاً أمام الهجمات القوية والمستمرة ؛ لذا سرعان ما تلاشت واختفت ، وأعقب الإفراط في العزلة والانزواء إفراط مقابل في الانغماس والاختلاط ، وهذه سنة مشهودة في وجوب التوسط في الأمور كلها ، وأخذها من غير غلو وإجحاف ، ومن دون تساهل وانجراف ، وهذا هو المنهج الوسط والدين القويم الذي أنزل على الأمة الوسطية. قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة ١٤٣].

أما الانحراف الثاني والأخطر فهو ما تمثل في موالاة الكافرين واتباعهم واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين. فقد حدث هذا الانحراف الخطير عند فئة ممن كانوا يتولون أمور المسلمين ويتربعون على مقاعد الحكم في ديارهم ، فقد ولى هؤلاء الحكام وجوههم شطر أعداء أمتهم ، وخرقوا هذا السياج المنيع الذي أقامته عقيدة الولاء والبراء ، متحدين بذلك شعوبهم المسلمة ، غير آبهين بمستنكر أو ساخط. وظلوا يعملون دائبين على تخطي هذا السياج وتحطيمه في نفوس شعوبهم واجتثاثه بالكلية . ولئن رأينا في الانحراف الأول ما وقع فيه من غلو وإفراط فإننا في هذا المجال سوف نرى أمثلة كثيرة لحوادث مزرية تمثل فيها الضعف والخنوع وصوراً مؤسفة لموالاة الكافرين واتباعهم قوض بها أو كاد صرح هذه العقيدة الغالية .

ونعود فنقول إن هذا الانحراف الخطير كان مجاله عند فئة من حكام المسلمين ورؤسائهم فقط ، أما السواد الأعظم فقد رأينا كيف غلوا في هذه العقيدة فكان من العسير أن يحدث بينهم في ذلك العهد تفريط أو تساهل في هذا الجانب.

ونود أن نلفت الانتباه إلى أن ما سنذكره من أمثلة ليست بدرجة واحدة من الانحراف وذلك «أن مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة كذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات».[٢]

كما نود أن ننبه أيضاً أننا في هذا المقام لسنا بصدد الحكم على أشخاص معينين ورد ذكرهم في هذا البحث ، ووقعت منهم أعمال ومخالفات زعزعت هذه العقيدة أو قوضتها؛ لأنه كما يقول أهل العلم - قد يكون القول أو الفعل كفراً ولكن لايكفر المعين حتى تتوفر فيه الشروط المكفرة وتنتفي عنه الموانع.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٤.

(٢) الولاء والبراء ص ٢٣٣.

إنما منهجنا أن نورد صوراً منحرفة حدثت بالفعل وأصابت هذه العقيدة في الصميم. فمن ذلك ما يلي :

قيام السلطان العثماني «محمود الثاني» (المتوفى سنة ١٨٣٩م) بحركة نسبت إلى الإصلاح واعتمدت هذه الحركة على مسخ عقيدة الولاء والبراء ومحاولة طمسها في النفوس ، واستبدال الطابع الأوربي بالإسلامي.

ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه .. إنني لا أريد ابتداء من الآن أن يميز المسلمون إلا في المسجد ، والمسيحيون إلا في الكنيسة ، واليهود إلا في المعبد ، إني أريد ما دام يتوجه الجميع نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحمايتي الأبوية . . .

ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق.(١)

وفي هذا العصر الإصلاحي انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعًا بفضل رعاية السلطان وتشجيعه . . (٢)

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النمسوي ، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان . (٣)

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة ، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم ، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم ، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة ، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطيًا موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس . (٤)

والأدهى من ذلك ما « حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل ، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة ، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد تزودها بأدق المعلومات والخطط (٥) ، وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا ، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء .

---

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩ م) ص ٢١٤ . د . محمد عبد اللطيف البحراوي . دار التراث . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٠ .

(٣) المصدر السابق ص٢٥٨ .

(٤) المصدر السابق ص٢٦١ .

(٥) المصدر السابق ص٢٤٧ .

هذا مثال بارز على استهانة بعض السلاطين العثمانيين بعقيدة الولاء والبراء، وتخطيهم لحواجزها وعملهم الطويل على تحطيمها .

وفي تونس يذكر أحمد ابن أبي الضياف[١] كاتب الديوان في دولة المشير أحمد باي[٢] ملك تونس أن الباي أحمد قد قام بزيارة إلى فرنسا عام ١٢٦٢هـ واستقبله ملك فرنسا في قصره باسم الوجه ثم قدم إليه زوجته وأخته ونساء أولاده، والملك يقدمهن واحدة بعد الأخرى والباي يسلم عليهن.[٣] ويذكر أيضاً أن الباي أثناء إقامته في باريس زاره الوزراء الفرنسيون حتى أنهم لما خرجوا من عنده قام لمشايعتهم حتى منعوه وقال له المارشال : لا نقبل منك شيئاً زائداً على ما اعتدناه من ملوكنا.[٤]

وإن القارئ قد تمر عليه هذه الحادثة دون أن تثير انتباهه. ولكن المطلع على أحوال تلك الحقبة من الزمن والتي كان الاستعمار الصليبي قد أحاط فيها ببلاد المغرب العربي كلها ليدرك شيئاً من أسرار هذه الزيارة المشبوهة من ملك ضعيف إلى دولة مستعمرة قوية تهدد أمن بلاده ومستقبلها، ومحتلة عسكرياً لجارتها الجزائر.

وإن الشكوك لتساورنا في الاستقبال النسوي الذي أقامه حكام فرنسا للباي، وفي زيارات الوزراء وترددهم عليه أثناء إقامته هناك، ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن الدعوة قد وجهت له من قبل حكامها ورتبوا لها ترتيباً يليق بملك صغير يراد ببلاده وأمته شر مستطير.

وقد اقتبس كما يقول الزركلي أساليب حديثة أدخلها بعد ذلك على جيشه. وأنشأ مدرسة حربية جلب لها الأساتذة من أوربا.[٥] وهذه بعض الثمرات التي جناها الباي من علاقاته مع فرنسا.

ولكي ندرك بعض الملامح الرئيسية لسياسة هذا الباي نشير إلى وجود وزير فرنسي في بلاطه هو جوازب دافو الوزير المعتمد من حكومة فرنسا . وقد كان هذا الوزير - كما يقول ابن أبي الضياف - مقربا ومؤتمنا على الأسرار في حكومة الباي، وكان له دور كبير في رسم السياسة الداخلية والخارجية لتلك الدولة وتسخيرها لمصالح بلاده حتى إنه كان يقوم بتقديم النواشين والأوسمة التى يرسلها ملوك أوربا إلى الباي لمكانته البارزة ومنصبه المرموق في بلاط الباي.[٦]

---

(١) الأعلام ١/١٣٨.
(٢) الأعلام ١/٢٥٨.
(٣) إتحاف أهل الزمان ٦/١٤٠.
(٤) المصدر السابق ٦/١٤٠ .
(٥) الأعلام ٢/٢٥٨ .
(٦) المصدر السابق ٦/١٧٨.

لقد كان لهذا الوزير النصراني دور خبيث ومرسوم في العداء للإسلام والمسلمين وفي نفع بني دينه من النصارى ورفع مكانتهم في نفس الوقت الذي كان يتآمر فيه على المسلمين ويخطط لإضعافهم والقضاء عليهم ولا غرابة في هذا !

ومن ذلك أن النصارى في تونس شكوا الى الباي على لسان أكبر قسسهم هناك من ضيق كنيستهم ، فأصدر الباي أمره [١] بإعطائهم من أرض المسلمين ما يوسعون به كنيستهم ، وبإسقاط الإيجار السنوي عنها. تآليفا للوافدين من التجار[٢] بزعمه ، وكتب بذلك الى قنصل فرنسا بتونس ثم زاد في توسيعها بعد ذلك.[٣]

وكأن أرض المسلمين صارت ملكا لهذا الباي ورثها كابرا عن كابر يمنح منها ما يشاء حتى لو كانت هذه المنح لأعداء الله من النصارى الصليبيين يقيمون عليها كنائسهم ، وينشرون منها كفرهم وضلالهم وفجورهم.

هذه بعض مداخل هذا الوزير الصليبي الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب الابن وفوق ذلك صاحب الأسرار ..؟[٤]

والجدير بالذكر أن هذه الفادحة أو المنحة كانت بعيد تلك الزيارة المشبوهة التى قام بها الباي إلى فرنسا.

---

(١) وهذا هو نص المرسوم الذي أصدره الباي أحمد بشأن إجابة طلب النصارى توسيع كنيستهم. «أصدرنا هذا المنشور والخطاب المسطور. ليعلم الواقف عليه من رهبان الملة المسيحية وأعيان أهلها القاطنين بدار ملكنا تونس أحاطها الله بأمنه أن الكنيسة الكائنة داخل باب البحر التي كانت أسبيتال من أملاك الدولة التونسية بلغنا أنها ضيقة الفضاء لا تفي لضروريات من فيها. فزدناها تسعة عشر ذراعاً على مسافة عرضها وهي عشرون ذراعاً من أرض الدولة المجاورة للكنيسة التي يسكنها قنصل الصبنيول. وأمرنا في ذلك بيد الوكيل وزدنا لكمال راحة سكان بلدنا من أهل أوربا وإعانتهم بأن أسقطنا عنهم الألف ريال التي كنا نأخذها في كل عام كراء ما ذكر إسقاطاً تاماً. وسرحناهم في التصرف في هذه الكنيسة المذكورة بما أضيف لها من غير كراء بشرط ألا يحدثون فيها شيئاً ظاهراً ينافى ديانة أهل البلاد أو عاداتهم الجارية. صدر ذلك منا على يد صاحب أسرارنا الموقر المحترم الوجيه الثقة المقرب ابننا الكولين جوزاب دافو الأميرالاي» المصدر السابق ١١٧/٦. وأننا لنلمس عبارات التفخيم والتعظيم في ثنايا المرسوم الباطل (وأن ما ذكر من شروط لم يكن أكثر من حبر على ورق . وبعد ذلك نعلم حقيقة الدور الذي لعبه ذلك الابن المقرب والوزير النصراني.

(٢) وصدق الله العظيم حين يقول { يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء } [التوبة ٢٨] وإن كان الحكم مختصاً بالحرم إلا أن العلة التي تعلق بها بعض الناس حين نزول الآية بانقطاع الأسواق وكساد التجارة لا حجة فيها لمسلم في أي مكان فالله الغني سوف يغني من آمن به وصدقه ونصر دينه.

(٣) المصدر السابق ١١٨/٦.

(٤) هذه الألقاب والمسميات هي الألفاظ التي أطلقها الباي بعينها على وزيره المحترم .

ولعل أخطر دور قام به ذلك الوزير الماكر هو إلحاحه المستمر على الباي وتشجيعه له على تخفيض عدد الجيش التونسي ، وتسريح عدد كبير من جنوده.

جاء ذلك في الاجتماع الذي عقده الباي مع وزرائه ليتباحثوا في العجز المالي الذي كانت تعاني منه الدولة ، لارتفاع المصروفات التى كان ينفق أكثرها على الجيش ، و انخفاض الدخل. حيث أشار ذلك الوزير المقرب والثقة المؤتمن بضرورة تقليل عدد الجيش وقال للباي : «إن الدول بأوربة لا يبقون تحت السلاح إلا القدر المحتاج إليه ولابد ، ويسرحون الزائد اعتباراً للمصروف ولراحة المسرحين مع غناهم الذريع».(١) والأمر غني عن التعليق. ولا يحتاج إلى بيان في أن هؤلاء الحكام المشبوهين قد أطلقوا العنان لهؤلاء الصليبيين الحاقدين في سياسة أمور المسلمين وأخطر شئونهم. ولا يشك عاقل في كذب ما قاله ذلك الوزير الحاقد وفي زيف ما ادعاه. وإلا فكيف يقبل مثل هذا الاقتراح المشؤوم بتقليل عدد الجيش في وقت حرج للغاية حيث كان هناك مئات الآلاف من الجنود الصليبيين يحيطون بالعالم الإسلامي إحاطة السوار بالمعصم ويحتلون أجزاء منه ، ويتربصون بالأجزاء الباقية؟ ودولة الوزير نفسها وهي فرنسا كانت إحدى القوتين العالميتين في ذلك الزمن ، وكانت تملك من الجيوش والعتاد والأساطيل ما جعلها تفرض سيطرتها على كثير من البلاد ، ومنها دولة الجزائر المجاورة لتونس التي ينصح بايها بتقليل عدد جيشه. ثم إن قياس تونس وغيرها من الدول الضعيفة على دول أوربا القوية في ذلك الزمن قياس باطل. وهل تفكر دولة عاقلة تحدق بها الأخطار من كل صوب وهي في أشد الحاجة إلى جندي واحد هل تفكر في تقليل عدد جيشها الذي لم يكن يتجاوز على أي حال الثلاثين ألفا . وأكذب من ذلك قوله بغنى الجند الذريع ، فلولا حاجة كثير منهم لما التحقوا بسلك الجندية وانخرطوا في الجيش .

ويذكر الدكتور عبد الجليل التميمي إن ولاة تونس ومنهم هذا الباي بالطبع وقعوا في نزاع مع فرنسا التي لم تسمح لهم أبداً أن يتخذوا أكثر من ثلاثين ألفاً وأن قنصل فرنسا نصح الباي بتنزيل عدد الجيش إلى النصف ، فرأى الباي في ذلك تدبيراً عاجلاً ، فأذن بتسريح خمسة عشر ألف جندي، والحفاظ على النصف الآخر ، إلا أن ذلك لم يجد ، غير أن نصحاء الباي ومستشاريه أشاروا عليه من جديد بتقليل الجيش إلا أن الأجل وافاه.(٢)

وعلى أية حال فإنه بعد حوالي ربع قرن تقريباً وفي عام ١٨٨١م قامت فرنسا باحتلال تونس

---

(١) المصدر السابق ١٨٨/٦ وانظر ما فعله صليبي آخر هو أركان الحرب الأمريكي في الحملة المصرية على الحبشة في عهد الخديوي إسماعيل ص .

(٢) بحوث ووثائق في التاريخ العربي. تونس ، الجزائر ، ليبيا ، من ١٨١٦م- ١٨٧١م. د. عبد الجليل التميمي. الدار التونسية للنشر. الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

حيث ساقت عليها من البر جيشاً مؤلفاً من ثلاثين ألف جندي ، ومن البحر أسطولاً قوياً يحمل ثمانية آلاف جندي ، وقامت بحركات سريعة ، مكنتها من الاستيلاء على مدينة تونس بسهولة ، ومن إجبار «الباي» على قبول الحماية الفرنسية بموجب الاتفاقية التي وقع عليها في «قصر باردو» في ١٢/٥/١٨٨١م.[(١)]

وجنت الأمة الثمرة المرة لتولي هؤلاء الكافرين من قبل بعض حكامها ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ [آل عمران ١١٨].

وقد أرادت فرنسا ذات مرة أن تختبر ود الباي ومدى ولائه لها بعد أن برهن على ذلك بزيارتها واستورد بعض أساليبها ونظمها ، فبعثت إليه بأبناء ملكها لويس فليب ، فكان عند حسن ظنها به ، حيث « احتفل بقدومهم ، وعظم زيارتهم ، وبالغ في إكرامهم ، وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي ، وانتدب وزيره شيخ الدولة أبا النخبة مصطفى صاحب الطابع إلى تأنيسهم والركوب معهم إلى القنص والأماكن التي تشوقوا إلى معرفتها ، وأنزلهم بدار المملكة بالقصبة وبعث ابن عمه وولي عهده في أعيان من رجال دولته لتلقيهم بالدار ، وتعرض لهم بنفسه عند باب السراية ورتب لهم بدار نزلهم عشة تناسب مقامهم ... وهاداهم بنيشان آله ... وركب إلى حلق الوادي لمشايعتهم، وبعث ولي عهده في أعيان من رجال دولته لمشايعتهم إلى القابور في يوم حافل مشهود».[(٢)] وإنا لنلحظ في عبارات ابن أبي الضياف مقدار التعظيم والاحتفاء والتقرب الذي قام به الباي ورجال دولته لهؤلاء الصبية النصارى، وانظر إلى قوله (وأكد الوصلة بذلك بينه وبين الجنس الفرنساوي) ولا ندري ما هي صفة هذه الوصلة إلا إن كان يعني صلة الولاء والمودة لغير المسلمين. وهي وصلة لا تتم أبداً إلا بعد أن تبتر وصلة الولاء والبراء ويقضي عليها نهائياً. وكذلك إلى عبارته التي توحي بشيء من الانتقاد وهي قوله (وتعرض لهم بنفسه عند باب السراية) وفي اعتقادي أنه لولا خوف الباي من ألسنة الناس وامتعاضهم منه لكان هو المبادر إلى استقبالهم بنفسه والمؤنس لهم والراكب معهم إلى القنص وغيره خصوصاً إذا علمنا أن هؤلاء الزائرين كانوا صغاراً في السن مما يزيد في حدة الانتقاد.

ولم يكن النصارى وحدهم هم الذين ركن إليهم الباي واتخذهم بطانة من دون المؤمنين ، فلقد كان لليهود في عهده دور كبير ، ومكانة بارزة ، وليس أدل على ذلك من أن النائب في دار المال وهو ما

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٥٩ ساطع الحصري. دار العلم للملايين. الطبعة الثالثة ١٩٦٥م. ومما ينبه إليه أن هذا الباي ليس هو الباي أحمد الذي تحدثنا عنه. ومع ذلك فقد دفع ثمن سياسة سلفه وهزمه الفرنسيون وأبقوا له عرشه اسمياً وسلبوا منه جميع السلطات الحقيقية بلا استثناء. انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٣٠.

(٢) إتحاف أهل الزمان ٦/١٣٠.

يضاهي منصب وزير المالية في عصرنا كان كبير اليهود في عصره ويدعى القائد نسيم بيش.[١] وما عسى أن ينتظر بعد ذلك وقد وسد ذلك المنصب الخطير إلى كبير اليهود؟.

وفي المغرب الأقصى كان السلطان محمد بن عبد الرحمن العلوي (المتوفى سنة ١٢٩٠هـ)[٢] مواليًا للفرنسيين متساهلاً معهم ، وكانت تربطه بملك فرنسا نابليون الثالث صداقة حميمة كما عبر عنها في رسالته التي بعث بها إليه عام ١٢٨٢هـ مع مندوبين إلى فرنسا: «من عبد الله المتوكل على الله .. محمد بن عبد الرحمن .. إلى المحب الذي حل من مراتب الرياسة أسناها ، وحاز من خصال التقدم أقصاها وأدناها ، وأصبحت ألسن الرؤساء لهجة بذكره مفصحة بتسليم نتائج فكره ، ملك الممالك الفرنساوية السلطان نابليون الثالث بونابرتي أما بعد : فموجب تحرير هذا المسطور إليكم إعلامكم بما تضمنه الفؤاد من خالص المحبة وحفظ الوداد ، وإننا مسرورون بما يتجدد لدينا كل وقت من عقد أسبابها وما يظهر كل حين من تشييد أركانها وفتح أبوابها ، فإن محبتنا معكم الشخصية زادت ما كانت عليه في عهد الأسلاف وذلك لما جبلتم عليه من صفاء الطوية وحسن الائتلاف ... والغرض من توجيههما (المبعوثين) تجديد العهد بكم والحرص على موالاة المواصلة معكم لما في ذلك من تأكيد أسباب المحبة بين الدولتين وتمهيد طريق الخير بين الإيالتين ... وأوصيناهم بحسن الاستماع لما تلقونه إليهم والأدب في تلقي ما تعرضونه عليهم ...».[٣]

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ [المجادلة ٢٢]. ولا ندري كيف نحمل تلك العواطف القلبية التي فاضت بها عبارات تلك الرسالة في وقت كانت فرنسا ترتكب أبشع المذابح وتمارس أشد القمع في بلاد الجزائر المسلمة. ومما يذكر أيضاً أن التجار الفرنسيين كثروا في أيامه نتيجة لتساهله معهم وقد منحهم امتيازات اتخذوها بعد ذلك ذريعة للاستعمار والاحتلال.[٤]

ومن بلاد المغرب العربي ننتقل إلى مصر الكنانة ، ونقف بعض الشيء مع نفر من بكواتها وبشواتها لنرى كيف أسقطت هذه العقيدة من حساباتهم ومعاملاتهم فلم يراعوا لها حرمة أو يلقوا لها بالاً.

يذكر المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي أن إبراهيم بك أحد زعماء المماليك وشيخ البلد في

---

(١) المصدر السابق ١٩٣/٦.

(٢) الأعلام ١٩٨/٦.

(٣) الاستقصا ٢٢٩/٤.

(٤) الأعلام ١٩٨/٦.

عصره.[١] قد حزن لموت المعلم إبراهيم الجوهري القبطي رئيس الكتبة الأقباط ، وأنه خرج يوم موته إلى قصر العيني حتى يشاهد جنازته وهم ذاهبون به إلى المقبرة ، وتأسف على فقده تأسفاً زائداً.[٢]

والجدير بالذكر أن هذا النصراني كما يقول الجبرتي قد «أدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم ، وأول ظهوره من أيام المعلم رزق[٣] كاتب علي بك الكبير. ولما مات علي بك والمعلم رزق ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام محمد بك فلما انقضت أيام محمد بك وترأس إبراهيم بك قلده جميع الأمور فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة والميري[٤] ، وجميع الايراد والمنصرف ، وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته» [٥] ؛ لذا لا نتعجب بعد ذلك من قول الجبرتي عنه «وعمرت في أيامه الكنائس ودور النصارى، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة والأطيان، ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال».[٦]

وماذا كان ينتظر من هؤلاء النصارى الذين ركن إليهم الحكام وأسندوا إليهم أهم المسؤوليات إلا خدمة دينهم ومعتقداتهم؟.

أما الزعيم المملوكي مراد بك الذي كان نظيراً لإبراهيم بك في القوة والرياسة ، فلقد كان له اهتمام خاص بالنصارى الأقباط حيث أحضر جمعاً منهم فأنشأوا له عدة حربية وسفناً مزودة بمدافع وآلات للحرب، وصرف عليها أموالاً عظيمة، ورتب بها عساكر بحرية [٧] وأدر عليهم الجماكي[٨] والأرزاق الكثيرة ، وجعل عليهم رئيساً كبيراً رجلاً نصرانياً يدعى نقولا بنى له داراً عظيمة بالجيزة ، وأخرى بمصر ، وله عزوة وأتباع من النصارى ، وكان المذكور يركب الخيل ويلبس الملابس الفاخرة ، ويمشي في شوارع مصر راكباً وأمامه وخلفه الجنود يوسعون له الطريق في مروره على هيئة ركوب الأمراء.[٩]

---

(١) شيخ البلد هو صاحب السلطة الفعلية ورئيس الحكومة. وكان عادة من زعماء المماليك المرموقين أما الوالي التركي أو الباشا فلم يكن له بجانب الأول حول ولا قوة. وكان شيوخ البلد من المماليك يعبثون بهؤلاء الولاة ويعزلونهم في أحايين كثيرة. بعد أن تطرق الضعف إلى الدولة العثمانية منذ أواخر القرن السابع عشر الميلاد. انظر تاريخ الحركة القومية ٢٤/١ عبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الرابعة ١٩٥٥م - ١٣٧٤هـ. مكتبة النهضة المصرية.

(٢) عجائب الآثار ١٧٣/٢.

(٣) وكان نصرانياً أيضاً.

(٤) الروزنامة : الخراج أو ضرائب الأطيان. والميري تعني الأراضي الأميرية. تاريخ الحركة القومية ٢١/١.

(٥) عجائب الآثار ١٧٢/٢.

(٦) المصدر السابق ١٧٣/٢.

(٧) هذا الأسطول البحري استولى على أكثره الفرنسيون لدى حملتهم على مصر سنة ١٢١٣هـ.

(٨) جمع جامكية وأظنها كلمة تركية. وتعني المرتبات.

(٩) المصدر السابق ٤٩٦/٢.

ومما ينبغي أن يتنبه له أن هؤلاء النصارى وغيرهم من الكفار الموجودين في مصر الذين تولاهم هؤلاء الحكام وركنوا إليهم واستعملوهم في أهم أعمال المسلمين وأخطرها كانت لهم مواقف عدائية وصحائف سوداء عندما حانت لهم الفرصة ، وجاءت لهم الساعة التي ينفثون فيها ما بصدورهم من حقد وبغضاء على المسلمين.

فعندما احتل الفرنسيون مصر اشرأبت أعناقهم وتطاولوا برؤوسهم على المسلمين ولنستمع إلى كلام المؤرخ المصري المسلم الجبرتي المعاصر لتلك الحملة الصليبية وهو يتحدث عن ذلك فيقول في معرض سوقه لأخبار عام ١٢١٣هـ الذي دخل فيه الفرنسيون مصر : «ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلاء ، وتجاهرهم بفاحش القول ، واستذلالهم للمسلمين .[١]

وقال رحمه الله في موضع آخر : « وتطاولت النصارى من القبط والنصارى الشوام على المسلمين بالسب والضرب ، ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصلح مكاناً ، وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين »[٢]

وقد استغل نصارى مصر وجود أهل ملتهم من الفرنسيين فجمع يعقوب القبطي أحد كبرائهم شبان القبط ، وحلق لحاهم ، وزياهم بزي مشابه لعسكر الفرنسيين و جمعهم من أقصى الصعيد ، وهدم الاماكن المجاورة لحارة النصارى التى هو ساكن بها ، وبنى قلعة وجعل عليها سوراً عظيماً ، وأبراجاً للمدافع والبنادق على هيئة سور مصر، الى غير ذلك من التحصينات التى عملها بحارات النصارى[٣] وكانوا جيشاً عميلاً للفرنسيين وشاركوهم فيما ارتكبوه من مذابح ومجازر ضد المسلمين

وإذا كان هذا هو حال بعض البكوات في مصر وإخلادهم إلى النصارى ، وتعظيم شأنهم فإن ذلك لا يكاد يذكر بالنسبة لما قام به حاكم مصر فيما بعد محمد علي باشا ذلك الرجل المفتون بالغرب ، والمتيم بمتابعة الأوربيين ، والسير على خطاهم. والذي ما فتيء خلال فترة حكمه الطويلة التي بلغت خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار ويصانعهم ، ويعلي من شأنهم ، ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم وقوانينهم ، والسير في ركابهم ، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين ، واستهانته بهم لذا لم يكن لنا بد من أن نقف بعض الشيء للحديث عن هذه الشخصية التي تعد أظهر مثال على تخطي عقيدة الولاء والبراء وعلى ضربها في الصميم ، وتعتبر سابقة في المضمار التغريبي الذي يناقض هذه العقيدة ورائدة له في العالم الإسلامي.

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٥٠

(٢) المصدر السابق ٢/٣٥٠.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٣٧ وهذه الواقعة مما يدمغ به دعاة القومية والوطنية.

ويكفي في ذلك ما أورده الجبرتي المعاصر لهذه الشخصية ، وما سجله عليها من سيئات ، وما رصدها به من تحركات مشبوهة ، وانتهاكات مكشوفة ، مع أن الجبرتي يقف بتاريخه عند نهاية سنة ١٢٣٦هـ. أي بعد حوالي ستة عشر عاماً من ارتقاء محمد علي لعرش مصر. وهي في نظرنا فترة كافية استطاع خلالها أن يسبر غور شخصية محمد علي ويعرف مداخلها وتوجهاتها ، ويلم بتطلعاتها وأهدافها.[١]

ومع ذلك فقد استمر محمد علي في سدة الحكم بعد ذلك حوالي تسعة وعشرين عاماً ، لم يدركها الجبرتي[٢] ، وعمل في تلك المدة من الزمن ما لم يكن يخطر على بال الجبرتي من الأعمال وأضعاف أضعاف ما انتقده عليه ، وسجله في تاريخه.

والآن ننتقل إلى عقيدة الولاء والبراء ، وإلى موقف محمد علي منها ، لنرى كيف كان يتعمد تحطيمها وإزالتها من قلوب المسلمين ونفوسهم ولو بالقوة والنار ، ليرضي أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات الصليبية واليهودية. ونحن بعد ذلك نومىء إيماءات سريعة لضيق المقام. فمن ذلك بيعه للغلال والحبوب إلى الإنجليز وغيرهم من الإفرنج حتى شحت الغلال وغلت الأسعار وخلت منها الأسواق ، بل أمر بمداهمة البيوت والدور لكبس الأقوات المدخرة ، بدون ثمن.[٣] لسوقها إلى الكفار الإنجليز الذين كانت تجوب أساطيلهم البحار لضرب المسلمين والتربص ببلادهم ، والاستعداد للاستيلاء عليها. وأحدث مكوساً جديدة ، وفرض ضرائب باهظة ، حتى لقد ارتفعت الأسعار بشكل عظيم ، وزاد ثمن كثير من البضائع إلى أكثر من عشرة أضعاف ثمنها.[٤]

---

(١) انتقد كثير من المؤرخين ذوي المنهج الاستشراقي الجبرتي في إسرافه كما يقولون في نقد محمد علي ، وقالوا : إن الجبرتي لم يعش ليرى ثمرة ما قام به محمد علي من أعمال عظيمة. وهذا واضح من تأثير الميكافيلية، إذ يبررون الوسيلة بالغاية ، هذا على فرض أن غايته كانت نبيلة من أن هذا خلاف الواقع.

انظر : الجبرتي ومحمد علي - بحث ضمن ندوة الجبرتي - القاهرة سنة ١٩٧٦.

(٢) لأنه قد توفى عام ١٢٣٧هـ على المشهور من الروايات. بعد أن قتل ولده فبكاه كثيراً حتى ذهب بصره ، ولم يطل عماه فقد عاجلته وفاته ، مخنوقاً بشارع شبرا. ونظراً للآراء الجريئة التي أطلقها في تاريخه ضد محمد علي باشا ، وعدم تملقه إياه ، وممالأته له ، ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن محمد علي كان وراء تلك الجريمة البشعة ، خصوصاً أنه كان خارجاً لتوه من قصره بشبرا وكان الجبرتي يشغل منصب إفتاء الحنفية في عهد محمد علي. وقيل أن محمد بك الدفتردار وهو صهر محمد علي كان يحقد عليه فدس له من قتله ، وتلك حجة أخرى تدين محمد علي لمكانة الدفتردار منه، ولا يبتعد أن يكونا متواطئين. انظر ترجمته في الأعلام ٣/٢٠٤.

(٣) عجائب الآثار ٣/٣٤٢ ، ٣٦٣.

(٤) يذكر الجبرتي أن الثوب الذي قيمته مائتي نصف فضة أصبح بألفين فضة ، وأن النعل الذي كان يباع بستين نصفاً صار يباع بأربعمائة نصف ، والذراع الواحد من الجوخ كان يباع بمائة نصف فضة فبلغ ثمنه ألف نصف فضة. هذا سعر الدولة غير ربح البائع وطمع التاجر كما يقول الجبرتي. المصدر السابق ٣/٣٧١.

وحل الكرب والضيق بالمسلمين ، وأوذوا في معاشاتهم وأرزاقهم إيذاء عظيما.[١]

وإن كان من ذكرنا من بكوات مصر قد ركنوا إلى بعض النصارى ، واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين ، فإن محمد علي كان قد اعتاد أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود.[٢] الذين قد تغلغلوا في حكومته وبلاطه ، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته ، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها ، والذين ليس لهم شغل إلا فيما يزيد مكانتهم وحظوتهم عند مخدومهم وموافقة أغراضه ، وتحسين مخترعاته ، وربما ذكروه ونبهوه على أشياء تركها أو غفل عنها من المبتدعات ، وما يتحصل منها من المال والمكاسب.[٣]

وقد أظهر الجبرتي - رحمه الله - ألمه وتأسفه لما وصل إليه حال الكفار ، والمكانة التي تبوءوها في عهد محمد علي وأنهم صاروا أعيان الناس ويتقلدون المناصب الرفيعة ويلبسون ثياب الأكابر ، ويركبون البغال والخيول المسومة والراهوانات وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم وبأيديهم العصي يطردون الناس ويفرجون لهم الطرق[٤] ويتسرون بالجواري بيضاً وحبوشاً ، ويسكنون المساكن العالية الجليلة يشترونها بأغلى الأثمان ، ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر للنزهة ، ومنهم من عمر له داراً ، وصرف عليها ألوفاً من الأكياس ، وكذلك أكابر الدولة لاستيلاء كل من في خطة على جميع دورها ، وأخذها من أربابها بأي وجه، وتوصلوا بتقليدهم مناصب البدع[٥] إلى إذلال المسلمين؛ لأنهم يحتاجون إلى كتبة وخدم وأعوان والتحكم في أهل الحرفة بالضرب والشتم والحبس من غير إنكار ، ويقف الشريف والعامي بين يدي الكافر ذليلاً.[٦]

ومن البديهي بعد أن قد أحاط محمد علي نفسه ببطانة من اليهود والنصارى ، أن يعتمد عليهم كثيراً ، وأن يسند إليهم عدداً كبيراً من المناصب الهامة في الدولة ، ومع ذلك فلولا خوفه وخشيته من

---

(١) يقول ﷺ في الحديث الصحيح : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به». أخرجه مسلم ١٤٥٨/٣ في كتاب الإمارة ، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية برقم (١٨٢٨) ، والإمام أحمد في المسند ٦٢/٦، ٩٣، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠.

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي ص ١٥٩. د. زكريا سليمان بيومي. عالم المعرفة. جدة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

(٣) عجائب الآثار ٥٤٨/٣.

(٤) هذا بدلاً من تضييقها عليهم كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه» أخرجه الترمذي برقم ٢٧٠٠ كتاب الاستئذان. باب ما جاء في التسليم على أهل الذمة وقال حديث حسن صحيح ، ورواه أبو داود برقم ٥٢٠٥ كتاب الأدب. باب في السلام على أهل الذمة. وهو حديث صحيح كما قال الشيخ الألباني . انظر صحيح أبي داود برقم (٤٣٣٧) .

(٥) يعني الضرائب والمكوس المحدثة .

(٦) المصدر السابق ٦٢٣/٣ .

إثارة المسلمين وتألبهم عليه لاعتمد عليهم بالكلية ولأسند إليهم جميع المسؤوليات والمناصب دون مواراة. وهذا ما عبر عنه محمد علي بنفسه حين هلك كاتب الخزينة في عهده وكان رجلاً نصرانياً يدعى عبود النصراني وكان محمد علي يحبه ويثق فيه ويقول عنه : لولا الملامة لقلدته الدفتردارية.(١)

والملامة التي كان يخشاها محمد علي هي جزء من بقايا هذه العقيدة الطيبة في نفوس المسلمين من بغض للكفار ومعاداتهم تجعل الباشا المفتون بهؤلاء الكفار يتوقف بعض الشيء في ولائه السافر لهم ، وفي نقل خطوات مسيرته التغريبية بالأمة.(٢)

ومع ذلك فإن هؤلاء الكفار كانوا يشكلون مراكز الثقل في دولة محمد علي ، وخصوصاً في المجالات المهمة كالشئون المالية والتعليمية والعسكرية ، ولئن كان الدفتردار ليس واحداً منهم.(٣) فإن جميع الوظائف المالية الأخرى تقريباً قد احتكرها النصارى وغيرهم. فقد مر معنا أن كاتب الخزينة كان نصرانياً ، وكذلك فإن جميع الكتبة والصيارفة كانوا من النصارى أيضاً.

أما وزارة الخارجية فطبيعي جداً أن تكون من نصيب النصارى حيث العلاقات كانت قائمة على أشدها مع الدول الأوربية وقد أسند هذا المنصب الهام إلى وزير أرمني يدعى باغوص بك الأرمني.(٤)

أما إدارة الجمارك وهي من الوظائف المهمة فقد كان يرأسها رجل نصراني له أعوان وجند كما يقول الجبرتي يحجزون أمتعة الناس ، ويقبضون على المسلمين ، ويسجنونهم ، ويضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم ، ومن العجب على حد قوله أن بضائع المسلمين يؤخذ عشرها وبضائع الإفرنج والنصارى ومن ينتسب إليهم يؤخذ عليها من المائة اثنان ونصف.(٥)

وما دام أن رئيس الجمارك نصراني حقود فلا نعجب بعد ذلك من التفاوت المذهل في أخذ الرسوم على الواردات من البضائع بين المسلمين وغيرهم. حيث يؤخذ على المسلمين من الرسوم أربعة أضعاف ما يؤخذ على غيرهم من كفار العالم.

٢,٥٪ إلى ١٠٪ تفاوت ظالم ، وربما كان ذلك تألّيفاً للوافدين من التجار كما فعل الباي!! وعلى أي حال فلا يعدو ذلك المثال عن كونه واحداً من الأمثلة الصارخة على استهانة محمد علي بعقيدة

---

(١) المصدر السابق ٦٠٢/٣. والدفتردار وظيفته إدارة الشئون المالية وضبط الخراج والدخل وبيده سجلات ملكية الأرض. وكانت وظيفته تشبه وظيفة وزير المالية. تاريخ الحركة القومية ٢١/١.

(٢) أما في زماننا هذا فقد خفت صوت هذه العقيدة إلا عند قلة من الناس ، فلم يعد الحكام يخشون من ملامة أحد فيما يقومون به في وضح النهار من ولاء الكفار وتبعية مخزية لهم بل كثيراً ما تصفق لهم الشعوب لأجل ذلك.

(٣) وكان اسمه محمد بك وهو صهر محمد علي وزوج ابنته وشريكه في الظلم والعسف والجور.

(٤) رحلة كنفليك إلى الشرق ص ١٢٢. ترجمة محمود العابدي . جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان ١٩٧١م .

(٥) عجائب الآثار ٢٧١/٣.

الولاء والبراء وعدم تقديره لها. وقد أصبحت مصر في عهد محمد علي وبالذات القاهرة محط نزول الكافرين من كل جنس، وذلك باستدعائه لكثير منهم، وفتحه المجال أمام استثماراتهم وتجاراتهم، مما جعل البلد تضيق بالسكان، وتغص بالقادمين من الكفار الذين ضايقوا المسلمين في معايشهم حتى إن الإنسان ليقاسي الشدة والهول إذا مر بالشارع من الازدحام الشديد، وبالإضافة إلى طوائف اليهود والنصارى فقد استدعى أعداداً غفيرة من الدروز والمتاولة والنصيرية وغيرهم من الفرق الخارجة عن الإسلام.[١] وحق لمدينة مثل القاهرة التي لم يكن يتجاوز طولها في ذلك الوقت الخمسة كيلو مترات. أن تكتظ بهؤلاء الكافرين الذين تسابقوا إليها من كل حدب وصوب.

وفي تلك الفترة التي نقوم بدراستها كانت تكثر الاضطرابات، وتشيع الفتن والمصادمات، خصوصاً بسبب ثورات العسكر المتلاحقة لقطع المرتبات وغير ذلك. وكان الشعب هو الضحية لتلك الثورات المحمومة. وفي إحدى تلك الثورات العسكرية التي نهبت فيها الأسواق، وحطمت خلالها الحوانيت. أراد المسلمون في أثنائها أن يحصنوا بعض الحارات النافذة ويقوموا بإغلاقها حتى يقطعوا الطريق على جموع العساكر الهائجة ولكن كتخدا الباشا[٢] منعهم من ذلك، في نفس الوقت الذي كان محمد علي يمد فيه النصارى بالبارود وآلات الحرب، بعد أن أتموا تحصين جهاتهم على أكمل وجه.[٣] وهذه الواقعة تغني عن أي تعليق، وتدل على مدى العلاقة المريبة في الخفاء بين محمد علي ونائبه من جانب وبين النصارى من جانب آخر.

وحين قام محمد علي بإجراء واسع النطاق لهدم الدور والمساكن التى بها شيء من الخلل، كانوا يأمرون صاحب البيت الذي تم الكشف عليه بهدمه ثم تعميره، وإن كان يعجز عن ذلك فإنه يؤمر بإخلائه، ويعاد بناؤه على طرف الميري[٤] وتصير من حقوق الدولة فهدمت مئات الدور التى كان يملكها أو يسكنها المسلمون. اما النصارى فلنستمع الى كلمة للجبرتي في ذلك حيث قال: وأما نصارى الأرمن وما أدراك ما نصارى الأرمن الذين هم أخصاء الدولة الآن فإنهم أنشؤوا دوراً وقصورا وبساتين بمصر القديمة ... فهم يهدمون أيضاً وينقلون لا بنيتهم ما شاؤوا ولا حرج عليهم، وإنما الحرج والمنع والحجر والهدم على المسلمين من أهل البلدة فقط.[٥]

---

(١) المصدر السابق ٥٦٨/٣. (٢) الكتخدا بمعنى: نائب الوالي. انظر الحركة القومية ٢١/١.

(٣) عجائب الآثار ٤٨٧/٣. ومما ينبه عليه أن هذه الثورة العسكرية العارمة كانت بسبب محاولة محمد علي إدخال ما يسمى بالنظام الجديد في الجيش الذي لا يعني سوى نقل النظام الأوربي الأفرنجي برمته إلى مصر. ومن الغريب في الأمر أن محمد علي قد قام بتعويض المنهوبين مع شدة ظلمه وذلك خشية اجتماع الأهالي مع العسكر ضده كما يقول الجبرتي في وقت هو في أشد الحاجة لكسب الناس لتنفيذ خطواته التغريبية والأغرب من ذلك مواكبة هذا العمل التغريبي في مصر لعمل تغريبي آخر في تركيا كان يتولاه السلطان محمود الثاني مما يدل على أن المخطط واحد وإن اختلف المنفذون.

(٤) الميري: الدولة وهي عامية محرفة عن كلمة الأميري.

(٥) المصدر السابق ٥٢١/٣.

وعندما تولى الحسبة رجل يدعى مصطفى كاشف أراد أن يعيد الكفار الى حالتهم التى كانوا عليها قبل مجئ محمد علي الى سدة الحكم ، فأمر مناديه بمصر القديمة أن ينادي على نصارى الأرمن والاروام والشوام بإخلاء البيوت التى عمروها وزخرفوها وسكنوا بها والمطلة على النيل ، وأن يعودوا إلى زيهم الأول من لبس العمائم الزرق ، وعدم ركوبهم الخيول والبغال والراهوانات الفارهة واستخدامهم المسلمين.

ولكن محمد علي قطع الطريق على هذا الإصلاح ، وأمر بكف هذا المحتسب بعد أن تم زجره وتأنيبه ، وذلك بعد أن تقدم أعاظمهم إليه بالشكوى وهو يراعي جانبهم لأنهم صاروا أخصاء الدولة وجلساء الحضرة وندماء الصحبة كما يقول الجبرتي.(١)

ويمتد حبل الموالاة والمودة للكافرين في عهد محمد علي إلى شيء آخر له خطورته البالغة، وهو فتحه البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب ، واكتشاف الآثار ، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم.(٢)

وإذا تجاوزنا هدفهم الرئيسي لتلك العمليات والتنقيب ، وهو وضع أيديهم على مراكز الثروة ، ودراستهم للمواقع دراسة تخطيطية ، مما أفادهم ولا شك في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢م خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الإنجليز.

فإن هناك أهدافاً أخرى قد تفوق ماذكرناه خطورة لم يفطن لها كثير من الباحثين وندع الكلام لأحد المستشرقين ليكشف لنا هذه الأهداف البعيدة.

يقول ذلك المستشرق في كتابه «الشرق الأدنى. مجتمعه وثقافته» : «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه ، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم الى عقائد ما قبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات ..»(٣)

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً ، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها بدءا بالفرنسيين ثم بالإنجليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة.(٤)

---

(١) المصدر السابق ٣/٥٦٦.

(٢) المصدر السابق ٣/٥٧١ ، ٦١٧.

(٣) انظر واقعنا المعاصر ص ٢٠٢.

(٤) والداهية أن يقوم كثير من الباحثين والأدباء بترجمة لرحلات الكثيرين من هؤلاء الأوربيين الصليبيين الذين لم يتركوا بلداً إسلامياً إلا وطئوه بغية ما ذكرناه من الأهداف السابقة ، وينعتوها بأنها رحلات موضوعية ونزيهة هدفها خدمة الإنسانية ونشر العلم والمعرفة فحسب دون النظر إلى دين أو جنس ولكن سرعان ما يدهشك ما تجده في طيات هذه الرحلات من

يقول الشيخ محمد قطب : «ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام».(١)

وبذلك يكون محمد علي باشا قد ساعد هؤلاء الصليبيين في تنفيذ مخططاتهم والوصول الى أهدافهم بفتحه البلاد لهم شرقا وغربا يجوبونها بحرية تامة.

ويذكر الشيخ محمد قطب أن فرنسا قد احتضنت محمد علي احتضانًا كاملاً لينفذ لها كل مخططاتها حيث أنشأت له جيشا مدربا على أحدث الأساليب ومجهزاً باحدث الأسلحة المتاحة يومئذ وكان ذلك باشراف سليمان الفرنساوي ، وأنشأت له أسطولاً بحرياً حديثاً وترسانة بحرية في دمياط ، وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر ، وكل ذلك كما يقول الشيخ ليس حبًا في شخص محمد علي أو حبًا في مصر ، وإنما كان ذلك لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بعد أن اضطرت للرحيل ، وكان ذلك المخطط الخبيث يرمى إلى عدة أمور منها : القضاء على الدولة العثمانية ، والقيام بتغريب العالم الإسلامي عن طريق تغريب مصر - بلد الأزهر(٢)

وقد قام محمد علي بالدور خير قيام ! فإن الجيش الذي صنعته له فرنسا ، وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوي قد استخدمه محمد علي لا في محاولة الاستقلال عن الدولة العثمانية فحسب ، بل في محاربة الدولة نفسها! وقد كاد أن يقضي عليها لولا تدخل بريطانيا خوفا من استئثار فرنسا بصداقة السلطان وبالنفوذ في مصر ، وفي الوقت نفسه لتخدم الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى ، فقد أوقفت بريطانيا محمد علي عند حده في الظاهر ، ومنعته من مهاجمة الدولة ، وفي الوقت ذاته ضمنت له الاستقلال الفعلي عن الدولة ، والاستئثار بحكم مصر حكماً وراثيًا ينتقل في ذريته ، مع التبعية الاسمية للسلطان !! هذا بينما تجمعت أوربا الصليبية كلها لتحطيم محمد علي في معركة «نافارين» لأنه نسي نفسه وتجرأ على مهاجمة دولة صليبية هي اليونان ، فقد كبرته الصليبية وسلحته

حقد صليبي دفين على الإسلام وأهله وعبارات مليئة بالسم الزعاف. وبعضهم كان يظهر صليبيته صراحة كما فعل الرحالة اليوت واربرتون في كتابة (الهلال والصليب) وكثير منهم يحاول عدم إظهار شيء من ذلك ، ولكن تابى عليهم صليبيتهم الحاقدة التي رضعوها مع لبن أمهاتهم محاولة إخفائه ، وتفضح ما ادعوه من موضوعية وتجرد .

(١) المصدر السابق ص ٢٠٢ ويذكر الشيخ محمد قطب حافظ إبراهيم مثالاً لهؤلاء الذين نجح الصليبيون في ذبذبة ولائهم بين الإسلام وبين النعرة الفرعونية . فمع شعر حافظ الإسلامي الكثير ، فإن له شعراً يفتخر فيه بالفراعنة وآثارهم ، وينتسب فيه لغير الإسلام كقوله :

أنا مصري بناني من بنى   هرم الدهر الذي أعيا الفنا

وأصبح كثير من أبناء المسلمين ينتسب ليس للإسلام ولكن لأمم جاهلية بائدة عفى عليها الزمن ، ويحني رأسه خجلاً إذا نسب إلى الإسلام.

(٢) المصدر السباق ص ٢٠٥.

لمحاربة الإسلام فقط ، فإذا فعل ذلك فله كل العون ، وأما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص ، فمس أحد الصليبيين بسوء ، فهنا يجب تأديبه ، بل تحطيمه تحطيماً كاملاً إذا لزم الأمر.[١]

على أن الجرم العظيم الذي تولى كبره محمد علي باشا هو قيامه بضرب الاتجاه الإسلامي السلفي في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين ، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما ، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر.[٢] وقد كان على رأس تلك الجيوش التى وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى.[٣] وقد سرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر ، وكذلك بريطانيا وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية.[٤] ومن ذلك بالطبع ضرب الاتجاه السلفي في الجزيرة العربية.

أما تغريب العالم الإسلامي فقد عمل محمد علي على تحقيقه بفرض سياستين تغريبيتين ، كانت الأولى تقضى بابتعاث الطلاب الشبان وإرسالهم الى أوربا ليتعلموا هناك. وكان هذا - كما يقول الشيخ محمد قطب - أخطر ما فعله في الحقيقة .. لأنه من هناك بدأ «الخط العلماني» يدخل ساحة التعليم ، ومن ورائه ساحة الحياة في مصر الإسلامية[٥] ، وقد كان من هؤلاء المبتعثين الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي إمام إحدى البعثات وشيخها ، والذى عاد حاملاً معه بذور التغريب والعلمنة كالدعوة الى تحرير المرأة ، وأخذ يسهم في زعزعة عقيدة الولاء والبراء بإغراقه في مديح أوربا الكافرة والثناء عليها في كتب كثيرة لعل من أبرزها كتابه في مدح باريس.[٦] والذي قيل إنه أهداه الى محمد علي فقبله باحترام.

وقد كاد أن يتم إرسال أطفال بين الثامنة والتاسعة الى أوربا ، واشترط نوبارا باشا وهو سكرتير إبراهيم باشا ولي عهد محمد علي ونجله الأكبر أن يفصل بعضهم عن بعض في المعيشة أو يوضع كل اثنين في غرفة صغيرة.[٧] ولكن هذا المخطط الخبيث أوقف تنفيذه بسبب هلاك إبراهيم

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧.

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٧.

(٤) الخطط التوفيقية ١٠/١٧٧ علي باشا مبارك. دار الكتب. الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

(٥) واقعنا المعاصر ص ٢٠٧.

(٦) المصدر السابق ص ٢٠٩.

(٧) وذلك حتى يسهل صهرهم تماماً في المجتمع الأوربي (وما عسانا كنا) ننتظر من هذا السكرتير الصليبي. تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٤٣٢. أحمد عزت عبد الكريم. مكتبة النهضة المصرية ، ط١٩٣٨م .

باشا ـ حتى جاء الخديوى توفيق ونفذ ذلك المخطط وبدأ بإرسال نجليه الأميرين عباس حلمي ومحمد علي إلى سويسرا وكان عمر الأول اثنتى عشرة سنة والثاني عشر سنوات.(١)

أما السياسة التغريبية الثانية التى سار عليها محمد علي فهي إنشاء نظام تعليمي جديد على نسق الأنظمة التعليمية في الغرب.

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : «ومهما يكن من شيء ، فقد ظهر لمحمد علي أن التعليم في الأزهر لا يمكن أن يحقق أغراضه .. كما ظهر له أن التعليم الغربي او التعليم الذي عرفته أوربا في عصره كان وحده الوسيلة لتحقيق أغراضه. وكان هذا كافيا ليحمل محمد علي أن يحول وجهه عن الأزهر و «الكتاتيب» وينشئ بجانبها «نظاما تعليميا» قائما بنفسه ، مقتبسا من الغرب ، وليس بينه وبين النظام التعليمي القديم إلا ما يكون بين نظامين يقومان جنبًا الى جنب ويتجاذبان تعليم نابتة البلاد.(٢)

وإلا فلو كان محمد علي مسلمًا حقًا ولم يكن منفذاً لأهداف الغرب ومخططاته لاتجه الى إصلاح الأزهر والتعليم في عصره بردهما إلى الوضع الصحيح ، ووضع كل إمكانياته التى استغلها في التغريب في سبيل ذلك الهدف الكبير.

ولكن محمد علي قد أصر على السير بالأمة في المضمار التغريبي المؤدي إلى الحياة الغربية وأساليبها وثقافتها ، فقرر إنشاء نظام تعليمي كامل من المرحلة الابتدائية الى المراحل العليا ، وفتح المدارس على نمط المدارس الغربية.

وقد لجأ محمد علي إلى طريق الترجمة ، حيث ترجمت كثير من الكتب في مختلف العلوم والقوانين العسكرية والبحرية ، وقام بابتعاث الطلاب الى هناك ، واستقدام الأساتذة الأجانب الى المدارس الجديدة التى أنشأها.(٣)

على أن هناك هدفا خطيرا كان يرمي إليه محمد علي باشا من وراء إنشاء هذا النظام التعليمي الجديد ألا وهو إلغاء دور الأزهر في المجتمع ومن ثم القضاء عليه بصورة غير مباشرة ، وذلك حين يقوم بفتح العديد من المدارس ذات المميزات العاليه التى تؤهل الدارسين فيها لتبوء المناصب الهامة ، والأعمال الرفيعة في دولة الباشا.

يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم : «ولكن ابتعاد الأزهر عن مجال التوظيف او عدم اتخاذه

---

(١) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٤٣٣ . وقد تولى الأول حكم مصر بعد ذلك .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٨.

(٣) المصدر السابق ص ٣٠.

الأهبة لإعداد تلامذته بما يؤهلهم للحياة وللمجتمع الذي يعيشون فيه لم يلبث أن باعد بينه وبين كثير من خاصة الناس وصرفهم عنه الى حد كبير. فقد كانت المناصب التى يصيبها خريجوا المدارس والثراء والاحترام اللذان يحظون بهما في أنحاء البلاد من سواد الناس ومن إليهم ... كل أولئك كان يخلب ألبابهم ويستهويهم الى المدارس التى تقدم لهم هذا كله»(١)

وهل يكون إلغاء دور الأزهر وتحجيم أنشطته إلا بصرفه عن مجالات التوظيف ، أو على الأصح بصرف مجالات التوظيف عنه ..؟ وقطع صلته بالحياة العامة . . ؟

وحين أنشأ محمد علي مدارسه الحديثة كان محتاجا الى معلمين للغة العربية ولم يكن هناك بالطبع غير الأزهر. لذا فقد اتجه محمد علي إليه وأخذ منه ما يكفي مدارسه ومكاتبه من المعلمين ، فكانوا فريقا هاما من موظفي المدارس.(٢) ولكن ياترى كيف كانت معاملته لهؤلاء الأزهريين الذين أعوزته الحاجة إليهم و قاموا بدور كبير في تدريس اللغة العربية وفروعها داخل مدارس محمد علي كما يشهد بذلك كل من كتب في التعليم في ذلك العصر..؟

يجيبنا على ذلك الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فيقول : «وكانت الحكومة تعلم أنهم لم يكونوا يمنحون في الأزهر مرتبات كبيرة ، ولهذا نراها تبخل عليهم بتلك المرتبات وترى أنهم إنما يقومون «بمقاصد خيرية» ثوابها عند ربهم.!! فقد كان هناك مدرسون بل رؤساء مدرسين قضوا بمدارسهم اثنى عشر عاما لا يصيبون من الحكومة إلا مائتي قرش في الشهر وهو قدر ضئيل يناله خريج مدرسة خصوصية حديث العهد بالوظائف ثم هي تبخل عليهم بعد هذا ببضعة قروش تضيفها إلى مرتباتهم.

أما مكاتب المبتديان(٣) فقد كان نظارها من علماء الأزهر .... وكان المشايخ من الأزهر وما إليه هم القائمون بالتدريس في مكاتب المبتديان ... وكان مرتب الواحد منهم أربعين قرشا في الشهر أي بزيادة عشرة قروش على مرتب (الحلاق) أو الخياط ..وكان كاتب المكتب يصيب من المرتب أكثر مما يصيبه المعلم بعشرين قرشا وكان يحمل الحكومة على هذا ما ذكرنا من أنها كانت تعلم أن أهل الأزهر لم يكونوا يصيبون فيه إلا أجراً ضئيلاً ان كانوا قوما زاهدين ، لا يغرنهم متاع الحياة الدنيا».(٤) وما ذكر من تبرير ساقط لا يمكن أن يخفي أبداً مقدار البغض والاحتقار الذي كان يكنه محمد علي للأزهر ورجاله.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٧٣.

(٢) المصدر السابق ص ٥٧٥.

(٣) يعني : الابتدائية. والمبتديان لفظة تركية معناها «المبتدئون» بزيادة الألف والنون على الطريقة التركية مثل مجلس المبعوثان أي المبعوثين. من فوائد المشرف حفظه الله.

(٤) المصدر السابق ص ٥٧٥. لا شك أن الأجواء الموبؤة بالتصوف هي التي أوحت إلى محمد علي ورجال دولته إلى التعلل

وإن كان الانجليز فيما بعد قد نهجوا نفس السياسة في احتقار الأزهريين وبخسهم مرتباتهم وحقوقهم ، وفي إقصائهم عن مجالات التوظيف.[١] فليس ذلك بمستغرب منهم ، ولكنا نستغرب أشد الاستغراب أن يقوم بمثل ذلك من يحسب على الإسلام والمسلمين ، ويدّعي الإسلام مثل محمد علي.

ولكن سرعان ما يزول هذا الاستغراب إذا عرفنا أن القائمين على التعليم في عهد محمد علي كان معظمهم من الغربيين النصارى ، فمجلس شورى المدارس وهو الهيئة العليا للتخطيط والتنفيذ كان جميع أعضائه من الأجانب ما عدا ثلاثة.

على أن هناك أمرا تجدر الإشارة إليه حول ما ذكر من ضآلة الأجور والمرتبات في الأزهر ، والتى كان من أهم أسبابها قيام محمد علي بالاستيلاء على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة، وبالتالي إحكام السيطرة على المشايخ والقائمين على التعليم من رجال الأزهر.[٢]

وحتى الكتاتيب التى تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين. لم تنج من غائلة محمد علي ، فقد ذكر الجبرتي - رحمه الله - أن كثيرا من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها.[٣]

هذه السياسة التغريبية [٤] التى نهجها محمد علي والمفروضة قهرا على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الرحيل [٥] . وهو أمر أكده المؤرخ الانجليزي أرنولد توينبي في قوله «كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية الى حقائق فعالة في مصر»[٦]

بمثل هذا الهراء الساقط للنيل من الأزهر ورجاله الذين كانت تعصف بهم رياح التصوف وأمواجه حين كان الفقر والحرمان والإعراض عن الدنيا تماماً منزلة يتسابق الناس إليها . ووجد هؤلاء التغريبيون المجال رحباً للسخرية بهؤلاء الأزهريين الذين يعملون عندهم طلباً للأجر في الآخرة ، وراضين بما تلقيه الحكومة لهم من فتات.

(١) واقعنا المعاصر ص ٢١٧.

(٢) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٧٩ .

(٣) عجائب الآثار ٤٧٨/٣ وتاريخ نظام التعليم في جمهورية مصر العربية ص ٨٠ منير عطا الله سليمان وآخرون الطبعة الثالثة ١٩٧٢م مطبعة الأنجلو المصرية.

(٤) ونسجل هنا ملاحظة ذكرها المؤرخون حول أهداف التعليم وغاياته في عصر محمد علي وأنها لا تعدو تخريج جيل يدين بالولاء التام لشخص محمد علي أو الجناب العالي كما كانوا يسمونه ويتقرب بخدمته. تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٦٢١ أما أن يكون الهدف هو إعداد جيل من الشباب المسلم يخدم دينه وأمته فذاك أمر لا يتفق مع سياسة محمد علي في ولائه للغرب وتبعيته له .

(٥) واقعنا المعاصر ص ٢٠٦.

(٦) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٢.

وهل يشك باحث عاقل بعد كل هذه الحقائق التى أوردناها أن محمد علي كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلا من عملائهم.

وسواء أكان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي أو على الأخص تخطيط فرنسي أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره ونفاقه أو كان للأمرين معا[1] ، فإن هذا كله لا يغير شيئا ، ولا ينفي أن محمد علي قد احتوته الدول الغربية ، وأخذت تقوده في ركابها ، خصوصا وأن فيه من الصفات والخلال التى ينشدها المستعمرون دائما كجنون العظمة وغلظة القلب وفظاظة الطبع ورقة الديانة أو عدمها.[2]

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء ، واستخدام سياسة العسف والإرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين ، ويقضي عليها قضاء مبرماً.

ويحسن بنا لتتضح لنا الصورة تماماً أن ننقل مقتطفات من مصدر غربي هو عبارة عن رحلة قام بها الى الشرق الإسلامي أحد الرحالة الإنجليز في النصف الأخير من حكم محمد علي. ويدعى «كنغليك» عام ١٢٥٢ -١٢٥٣هـ ، ١٨٣٣-١٨٣٤م. حيث زار كلاً من لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وغيرها من البلدان الرازحة تحت حكم محمد علي باشا ، ودوّن ملاحظاته ومشاهدته ، وأبدى سروره وإعجابه بما كان يتمتع به الأوربيون في تلك البلاد من نفوذ عظيم ، وبالسطوة والرهبة التي كانت ترافقهم خلال تنقلاتهم داخل الأقطار الإسلامية فلا يجرؤ أحد من المسلمين على تصويب النظر إليهم فضلاً عن معارضتهم أو انتقادهم.

يقول ذلك الرحالة الصليبي المدعو «كنغليك» عندما زار مدينة «نابلس» : «تعتبر «نابلس» مركز التعصب الإسلامي[3] ، وأذكر أنه ظهر في أسواقها - قبل وصولي إليها ببضعة أشهر - رجل باللباس الأفرنجي وقد اعتبر هذا تحدياً للسكان ، فاهتاجوا لذلك وهاجموه في صورة جنونية إلى أن قضى

---

(١) ويرجح عندي الأمران معاً وإن كان من يقرأ تاريخ الجبرتي يستبعد الأمر الأول ويجزم بالأمر الثاني. إلا أن الظروف تشير إلى وقوع الأمر الأول كما يقول الشيخ محمد قطب. ويؤيد هذا د. زكريا سليمان بيومي الذي أشار مع غيره من الباحثين إلى دور الماسونية الفرنسية في تولية محمد علي. انظر قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٦٠ - ١٧٠ وواقعنا المعاصر ص ٢٠٥ وما بعدها. وليس عجيباً بعد هذا أن يتابع محمد علي أخبار حروب نابليون وفرنسا وأن يوافيه القنصل الفرنسي في القاهرة بهذه الأخبار أولاً بأول وتنشر في ملصقات على الجدران في حارات الأجانب وغيرها.

(٢) يقول الشيخ محمد قطب : ليس من باب المصادفة أن الذين اختيروا للأدوار الكبرى في حرب الإسلام كان متصفين بجنون العظمة وقسوة القلب من أمثال محمد علي وكمال أتاتورك وجمال عبد الناصر .. ذلك أنهما صفتان لازمتان لمثل هذا الدور العظيم. واقعنا المعاصر. هامش ص ٢٠٥.

(٣) هذا الذي اطلق عليه التعصب الإسلامي لم يكن إلا عبارة عما كان يتوهج في قلوب المسلمين هناك من بغض للكفار وامتثال لبعض الأحكام المختصة بهم من دون المسلمين التي وردت في الشرع.

إبراهيم باشا [١] بعنف على هذه الجمود والصلف فلم يعودوا يجسرون على توجيه أي إساءة لأي أوربي فيما بعد.

وعندما تجولت في الطرق والأسواق ، وجدت الأمن مخيماً فاطمأننت ، ولكن هذا لم يكن ليمنع الرجل منهم أن يوقف عمله ويرميني بنظرات حادة [٢] ، وكأنَّ لسان حاله يقول (ما شاء الله) ... كيف شاءت قدرته تعالى أن يسمح لكلب نصراني بالسير في طريق المؤمنين».[٣]

ويذكر أيضاً أنه كان ماراً في السوق ، فمد شخص لسانه تهكماً واحتقاراً ، فداهمه ديمتري (أحد المرافقين لكنغليك وهو صليبي متعصب كما يقول صاحب الرحلة) بحصانه وطرحه أرضاً أمام كل الناس الذين لم يجرأوا على إظهار أي عنف أو قوة.[٤]

ثم يذكر أن السوق الرئيسية بدمشق كان بها ممشى للمارة وحوله صفة ترتفع قدمين أمام الدكاكين، لم يكن يسمح لغير المسلمين أن يمشوا عليها. فلما جاء القنصل البريطاني وسويت الأمور، وبينما كان كنغليك يمشي على هذا الرصيف الممنوع من قبل وكأنه في أحد أسواق لندن على حد تعبيره ، يقول : إن أحد الرعايا المسيحيين كان يمشي على الأرض الواطئة وينظر إليه باستغراب ، ثم تشجع بعد ذلك وارتقى هذا الرصيف وسايره في الطريق وهو يظهر افتخاره عندما يرى أحداً من أبناء دينه يمشي على السراط المخصص للمؤمنين والمحرم على الكفار. ثم يذكر أنه قابله فيما بعد وأنه قال له بالحرف الواحد : أنا أيضاً إنجليزي واعتبر أعداء الإنجليز أعدائي ، ولكننا شعب واحد والمسيح ملكنا ثم يقول كنغليك بعد هذا : إنني لم أجد مبرراً لهذا الشعور المرير المكبوت في نفوس المسيحيين في الشرق.[٥]

بلى إن المبرر موجود ما دام أن الحقد الصليبي لا ينقطع أبداً **﴿و لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾**.[١٢٠ البقرة] .

ثم يقول : قبل سنتين كانت دمشق قد بلغت الذروة في كره المسيحيين الأوربيين حتى لم يتجاسر أحد أن يظهر في أسواق دمشق وهو يرتدي اللباس الفرنجي. ولكن جهود المستر فارين-

(١) الابن الأكبر لمحمد علي وحاكم الشام من قبل أبيه. وكان أكثر انفتاحاً على الغرب من والده كما يروي ذلك الغربيون أنفسهم. انظر ترجمته في الأعلام ١/ ٧٠ .

(٢) أترى حتى هذه النظرات التي لم يبق للمسلمين سواها للتنفيس عما يلتهب في صدورهم يريد هؤلاء الأوربيون من محمد علي باشا ونجله الموهوب إسكاتها بالمرة؟.

(٣) رحلة كنغليك إلى المشرق ص ١٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٥) المصدر السابق ص ١٢٤ ومهما عمل محمد علي من إذلال المسلمين للغرب فإن الحقد الصليبي المشتعل لا يمكن أن يطفئه شيء.

قنصل بريطانيا وضعت حداً لمصاعب الإنجليز في دمشق حتى أصبحت دمشق العربية آمن من أكسفورد الإنجليزية والتي لاقى فيها سائح أمريكي من الصعاب ما أدى إلى تدخل قنصل بلاده لدى حكومة صاحب الجلالة البريطانية في العام الماضي.(١)

ويتضح من هذا القصص كيف استغلت سياسة العسف والإرهاب من قبل محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا في القضاء على ما كانت تنطوي عليه نفوس المسلمين من بغض وعداوة للكفار ، لأنهما كبر عليهما أن يرتميا خلف أذيال الأوربيين ، والمسلمون في بلادهم يكرهون هؤلاء الأسياد ورعاياهم كرهاً شديداً ، لذا لم يكن لهما بد من اللجوء إلى وسائل القمع والإرهاب لتنفيذ ما عزما على تحقيقه . ثم يذكر «كنغليك» حادثة جرت له في «نابلس» فيقول بعبارات نفثها الحقد الصليبي : «ولكن الله سلطني على مسلمي نابلس، وسلط خدمي عليهم أيضاً. فعندما تجمع عدد كبير منهم في الشارع الرئيسي ليروا موكبنا ، رأى «مسيري»(٢) تصرفاً منحرفاً (٣) من أحد المتعصبين فاقترب منه وجلله بسوطه . وقد تسرب الخوف إلى نفسي من ثورة الجمهور علينا، ولكنهم ارتدوا مبهورين ، ثم وقفوا لا يتحركون».(٤) ولا أستطيع أن ألتمس تعليقاً لهذا النص الذي يغني عن أي تعليق ...

ولم يفت الرحالة «كنغليك» أن يغمز الباشا المفتون ، ويذكر بتبعيته للغرب وعدم استقلاله الكامل بإصدار القرار إلا بعد موافقة أسياده عليه.

يقول «وبرغم وجود الجيوش المصرية الكثيرة فقد فهم كل فلاح(٥) أن أربعة أو خمسة من الوجوه الشاحبة في فيينا أو بطرسبورج أو لندن (٦) يمكن أن ينزلوا الباشا المصري من عليائه بمجرد ورقة يكتبون عليها حكمهم عليه. وكان علم الأهالي أن قوة محمد علي مستمدة من القائد الفرنسي وفنونه الحربية.(٧) ومن المحركات والآلات الإنجليزية..» ثم يذكر كيف أن الأهالي من المسلمين كانوا يتنبئون وقوع بلادهم تحت الاحتلال والحكم الغربي المباشر إما الفرنسي أو الإنجليزي وذلك لتعاظم نفوذهما في البلاد.(٨)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٣. (٢) أحد رفاقه.

(٣) وددنا أن أخبرنا عن حقيقة هذا التصرف المنحرف ، ومما لا شك فيه أنه تصرف له علاقة بامتعاض المسلمين من هذا الموكب الصليبي الصغير!

(٤) المصدر السابق ص ١١٠ وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ﴾[٨ التوبة].

(٥) يعني مسلم. وذلك لغلبة مهنة الزراعة على جمهور المسلمين في بلاد الشام وغيرها من البلدان.

(٦) في هامش الصفحة : يعني رجال السياسة.

(٧) وهذا أمر ظاهر كما قلنا وقد ذكر كلام الشيخ محمد قطب في احتضان فرنسا له.

(٨) المصدر السابق ص ١١١. وقد صدق حدس الأهالي الذين عايشوا ذلك النفوذ الخطير «فسقطت سوريا تحت الاحتلال الفرنسي الغاشم عام ١٣٣٨هـ- ١٩٢٠م بعد وقعة ميسلون المعروفة.

كما لم ينس أن يسجل استياء المسلمين في الشام من حكم محمد علي إذ اعتبروا حكمه ضربة أصابت الإسلام وقضت على الفضائل الإسلامية.[١] وفي هذا دليل على ما قررناه أولاً من أن هذه العقيدة لم تصب بالضعف على المستوى الجماهيري . وقد حرص أيضاً على إظهار تأكيد النفوذ الأوربي وتغلغله في حكومة محمد علي وضرب على ذلك مثلين. أحدهما: عن شيخ مسلم فر من الخدمة العسكرية جاء يلتمس من لابس البرنيطة الملعونة الحماية لصاحب العمة التي لم تعد ذات فائدة في حماية صاحبها. والثاني: قائد الحماية العسكرية في غزة مثلاً كان يحرص على أخذ شهادة مكتوبة من سائح بسيط يزكي فيها حسن سلوكه ، ويعتبرها جائزة كبيرة وأنه ملك حظاً أوفر.[٢]

ومهما قد يبدو في ذلك من المبالغة إلا أنه بالتأكيد يدل دلالة واضحة على تعاظم النفوذ الأوربي حتى ليصل الأمر أن يهرع بعض المسئولين في حكومة الباشا إلى سائح مجهول ليلتمس منه ورقة يقدمها بدوره إلى حاكمه الذي لم يكن ليملأ عينيه ويرضى غروره إلا كل ما هو أوربي حتى لو كان ذلك الأوربي نكرة مهملاً في بلاده [٣] . وقد قام ابنه إبراهيم باشا بإلغاء كافة القيود المفروضة على النصارى واليهود في كل بلد سيطر عليه تحت دعوى المساواة والحرية. وذلك في أثناء حكمه للشام من قبل أبيه ، وقام بإعطاء النصارى امتيازات ، ومن ذلك فتح محلات علنية لبيع الخمور في دمشق والسماح بحمل الصلبان وشرب الخمر في الشارع.[٤]

وعندما ذهب إليه نفر من علماء الشام يشكون إليه انقلاب الأوضاع ويبسطون أمامه أملهم من استعلاء الذميين وركوبهم الخيل كالمسلمين لم يكن من إبراهيم إلا أن سخر منهم سخرية مرة وردهم كاسفي البال إذ نصحهم أن يركبوا الجمال من اليوم حتى يصيروا أعلى من النصارى كافة؟.[٥]

وقد شمخ النصارى بأنوفهم ، وأشرأبت أعناقهم خصوصاً رجال الدين منهم في عهد محمد علي وابنه إبراهيم باشا. ومن ذلك أن بطريرك الروم مكسيموس في حلب وقت احتلال إبراهيم باشا لها كان يدور أحياناً في شوارع حلب وهو راكب بأبهة زائدة وموكب حافل يتلقى المسلمون منه ذلك كإرغام لهم وتعال عليهم وقاصداً إهانتهم.[٦]

---

(١) المصدر السابق ص ١١١.

(٢) المصدر السابق ص ١١٢.

(٣) وهكذا هي الهزيمة الروحية دائماً!

(٤) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٩٢ وما ذكر من أمور فيه إشارة إلى تأثير المحفل الماسوني عليه ودور هذا المحفل التابع لفرنسا في دعم أطماعه وأطماع أبيه.

(٥) الشرق الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٧٥. حسين مؤنس. مطبعة حجازي. القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٣٨م.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٢٧٥ كامل بن حسين البالي الحلبي الغزي. المطبعة المارونية ١٣٤٢هـ.

أما اليهود فقد شملهم عطف الباشا ، ونعموا بالحرية التي أطلقها لهم ، والامتيازات التي منحهم إياها.

وحادثة يهود صفد أوضح مثال على ذلك. يوم أن ثار المسلمون عليهم ونهبوا بعض أموالهم وممتلكاتهم ، ولسنا الآن بصدد الحديث عن هذه الثورة وأسبابها ، إنما الذي يعنينا هو ما حدث بعد هذه الثورة من إصرار القناصل الأوربيين على دفع التعويض من خزينة الدولة العلوية ، وقد بالغ كل من القناصل واليهود في تقدير حجم الخسائر والمنهوبات ، أما قنصل بريطانيا في الإسكندرية فقد قدر من مكانه هناك بأن خسائر اليهود قد بلغت سبعين ألف جنيه ، وهو رقم يفوق ما وقع أضعافاً مضاعفة.

ولم يسع محمد علي تحت ضغط القناصل إلا أن يصدر أمراً بتعويض اليهود ، ولكن ليس من خزينة الدولة التي يملكها ، بل من أموال وممتلكات المسلمين الذين تحمل فقراؤهم والمعسرون منهم ثقل هذا التعويض.

ومع علم محمد علي بكذب ادعاءات اليهود والقناصل ومبالغتهم في تقدير الخسائر إلا أنه كما قال : «ما دام أصدقاؤنا القناصل أصروا وصمموا على ذلك فتخلصنا من هذه القائلة. فقد صدرت الأوامر خطية إلى سليمان باشا (الفرنساوي) ببيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسم أثمانها على المدعين كذباً ـ وتلك الأوامر مرسلة عن طيه لتسليمها إلى القناصل ليوصلوها بمعرفتهم إلى الباشا المومى إليه».(١)

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات التعليمية والاقتصادية والعسكرية إلا أنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه يكره المصريين ويحتقرهم ويزدريهم أيما إزدراء كما قال أحدهم : إن محمد علي كان يحب مصر ولم يكن يحب المصريين.

وليس أدل من ذلك إلا قوله يخاطب الفرنسيين ويفاوضهم على مسألة احتلال الجزائر وهو : «ثقوا أن قراري .. لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني متحرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي ... وقد تقولون أن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها».(٢)

---

(١) من مرسوم أصدره محمد علي باشا بتاريخ ٢٩ رجب١٢٥٢هـ. رحلة كنغليك هامش ص١٢٢ ووقوف القناصل الأوربيين بجانب اليهود أمر ليس بالغريب (بعضهم أولياء بعض). وإحراج الأسياد وإذلالهم لعملائهم أمر ظاهر للعقلاء. وإن فهمه السذج والبسطاء على غير ذلك الوجه.

(٢) قراء جديدة في سياسة محمد علي باشا التوسعية ص ٨٤ الدكتور سليمان الغنام دار تهامة ، سنة ١٩٨٠م ، ط الأولى .

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر ، حتى لقد هم بعد أن جاءته الأوامر بالطبع! أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين وعملاً لحسابهم الخاص إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم لذا بادروا إلى إلغائها ، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال.(١)

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما علمت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكر في ذلك (٢).

وبعد فهذه وقفة متأنية مع واحد ممن حكموا المسلمين فترة طويلة وعملوا على القضاء على مظاهر هذه العقيدة بشكل مباشر تمثل في سياسة العسف والإرهاب. وبشكل غير مباشر إتخذ التغريب له مساراً ، وإن كان الشكل الثاني كانت له آثار بعيدة المدى ، على عكس الأول الذي ما زاد هذه العقيدة في نفوس المسلمين إلا رسوخاً. واستحق بذلك جد الأسرة العلوية أن يكون رائد التغريب الأول في العالم الإسلامي. وعلى رأس من لجوا في موالاة الكافرين ، وأمعنوا في اتباعهم ، وسعوا في تقويض هذه العقيدة الغالية بكل ما أوتوه من وسائل القوة التي كانوا يملكونها.

أما أولاد الباشا وأحفاده من بعده، فقد ظلوا يتعاهدون ما غرسه لهم والدهم وجدهم من غراس التغريب والعلمنة ، ويسيرون في نفس الطريق التي مهدها أمامهم، ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب، وخطب وده.(٣)

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٣١١.

(٢) قراءة جديدة في سياسة محمد علي باشا .ص٨٤ .

(٣) يقول الشيخ محمد قطب : كان محمد علي وأبناؤه حتى الخديوي إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم فأسسوا النفوذ الفرنسي في مصر ... حتى جاء توفيق فتغير الربان الذي يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه. واقعنا المعاصر ص ٢١٥. ولعل من الإنصاف أن نذكر أن ثالث الولاة من أسرة محمد علي بمصر وهو عباس باشا بن طوسون بن محمد علي الذي تولى الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا أواخر سنة ١٢٦٤هـ كان كما يقول المؤرخون شديد الكره للأوربيين، حذراً من دسائسهم. أنجد الدولة العثمانية بخمسة عشر ألف مقاتل في حربهم مع الروس المعروفة بحرب القرم. وقام بنفي السحرة والدجالين والمشعوذين إلى السودان. وأخذ عليه إغلاق كثير من المعاهد والمدارس لعله رأى في ذلك وضع حد للنفوذ الأوربي. مات مقتولاً سنة ١٢٧٠هـ واختلف في سبب قتله ، ولا يستبعد أن يكون الأوربيون وراء ذلك نتيجة لموقفه منهم. انظر الأعلام ٣/٢٦١.

ومما قاله عباس باشا عن جده محمد علي : « لقد كان جدي يعتقد أنه حاكم مطلق ، وقد كان كذلك بالنسبة لنا وبالنسبة لخادميه ولأطفالنا ، غير أنه كان مستعبداً للقناصل العموميين . . . ».

انظر : الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث ص١٨٤ . د أحمد علي المجنوب . الزهراء للإعلام العربي . القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م .

«فسعيد باشا» قد توالت أعطياته وسخاؤه على منح الإرساليات التنصيرية فوق ما تحلم به من عون وتأييد. فقد تفضل ذات مرة بإهداء إحدى الإرساليات قطعة أرض بالقاهرة في حي الخرنفش، وليته اكتفى بذلك، بل قام بمنحهم ٣٠ ألف فرنك سنة ١٨٥٩.(١)

ومن العجيب أن الأقباط لم ينشئوا لهم مدارس «نظامية» حتى عهد «إسماعيل»(٢) حين توالت عليهم هباته فأنشأوا مدرستهم الكبرى بجانب كنيستهم العامة وجعلوا التعليم فيها بالمجان، وأباحوا لبعض المسلمين الا لتحاق بها.(٣)

أما اليهود فقد كان لهم مدرسة خاصة بأبنائهم في عصر «محمد علي» أسسها أحد أثريائهم ويدعى «مسيو كريمو» وسميت المدرسه باسمه.

أما في عهد «إسماعيل باشا» فقد صار لليهود أربعة مكاتب بالقاهرة اثنان منها للبنين ومثلهما للبنات، ولهم مدرسة نظامية بالقاهرة أيضاً، كما أنهم لم يهملوا إنشاء مكاتب لهم بالإسكندرية.

أما طوائف النصارى الأخرى فليسوا أقل مما ذكرنا فإن الطائفة الأرمنية هي من أقل الطوائف في عهد محمد علي التي أنشأت مدارس على النظام الأوربي، فقد أسست مدرسة «كالرسديان» ببولاق سنة ١٨٢٨م وهي تابعة لبطركخانتها الأرثوذكسية. أما الطائفة اليونانية ففي سنة ١٨٤٧م أسست مدرسة «توستا» بشارع جامع مسجد العطارين بالإسكندرية، وكانت هذه المدرسة أول مدرسة أنشأها اليونانيون بمصر. ومنذ ذلك الوقت أخذوا في تأسيس مدارس لهم.

أما الايطاليون فقد بدأوا في إنشاء مدارسهم في مصر حوالي سنة ١٨٦٠م.(٤)

وبمثل هذه التسهيلات والدعم انتشرت الإرساليات في مصر بشكل كبير، وانبرى النصارى على تنوع جنسياتهم، واختلاف طوائفهم ومذاهبهم يتسابقون في إنشاء المدارس التنصيرية، وتشييد دور العبادة الكنسية دون حسيب أو رقيب، بل قد قدم لهم ما لم يدر بخلدهم من الدعم والتشجيع. ومع أن هذه المدارس وتلك الإرساليات قد قامت بجهود ضخمة في تحقيق أهدافها التنصيرية، إلا أن نجاحها كان ضعيفاً أو أن النجاح لم يحالفها، وذلك بسبب ما قدمناه في بداية هذا الموضوع من أن الجماهير المسلمة كان يرتكز في قلوبها بغض الكافرين وعداوتهم.

---

(١) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ٦٧١.

(٢) ولي مصر عام ١٢٧٩هـ وعزل عام ١٢٩٦هـ وتوفي عام ١٣١٢هـ وهو أول من أطلق عليه لقب «الخديوية» من رجال أسرته. انظر الأعلام ٣٠٨/١..

(٣) هؤلاء البعض حتماً كانوا من أولاد الأثرياء والوجهاء...

(٤) المصدر السابق ص ٦٦٨ وما بعدها.

ومع هذا الفشل الذريع الذي منيت به هذه المؤسسات الصليبية فقد حاول القساوسة والمنصرون أن يلجأوا إلى وسائل أخرى ويغطوا على ما يرمون إليه من أهداف باتت مكشوفة ، فقام أحدهم ويدعى « بارثلميو » بفتح مدرسة بالاكتتاب لتعليم الأطفال من جميع الأديان ، فقبل «محمد علي» أن تقوم الحكومة المصرية بجميع نفقاتها على ألا يدخلها إلا المصريون فقط بشرط عدم التدخل في ديانتهم.(١)

حقاً إنه شرط غريب .. فكيف يعهد بمدرسة للأطفال إلى قسيس نصراني ثم يشترط عليه عدم التدخل في ديانتهم؟ وفي اعتقادنا أن هذا الشرط ليس أكثر من طعم في ذلك الشرك الذي اتفق على نصبه كل من محمد علي والمنصرين. وذلك للإيقاع بأبناء المسلمين ودفعهم بين براثن التنصير.

أما حين تولى مقاليد الحكم «الخديوي إسماعيل» الذي كان يسعى إلى جعل مصر قطعة من أوربا كما قال (٢) ، فقد تأسست عدة مدارس حرة بالمجان لكل الأديان في سنة ١٨٦٩م بسبب رعاية الخديوي ودعمه السخي حتى يحقق أمنيته المنشودة في جعل مصر قطعة من أوربا.(٣)

وفي نفس الوقت الذي كنا نرى خلاله هؤلاء الحكام يتسابقون إلى دعم المدارس الأجنبية وإزاحة العوائق من طريقها ، نرى أنهم قد أهملوا تعليم المسلمين في بلادهم فلم يلتفتوا إليه إلا قليلاً.

«فسعيد باشا» في الوقت الذي أهمل فيه تعليم المصريين نجده يقدم إلى المدارس الأجنبية كل التسهيلات التي تساعدها على أداء رسالتها. فقدم إليها الأراضي التي تبني عليها مدارسها مجاناً ، ومنحها المساعدات المالية الضخمة (كما سبق أن ذكرنا) والكتب الدراسية التي تطلبها بل كانت الدولة تدفع مرتبات المدرسين الذين تعينهم المدارس لتدريس اللغة العربية.

وفي رأي أحد المؤرخين الأجانب للتعليم في هذه الفترة أن ما منحه سعيد للفرير(٤) والإيطاليين

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧٢.

(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/١٩٠ ، واقعنا المعاصر ص٢١٥ .

(٣) وجاء طه حسين بعد ذلك يتخبط في نفس الطريق التغريبي ويعتبر أن مصر لم تكن يوماً واحداً من الشرق. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله في مقالة عنوانها (مصر شرقية أم غربية) : للدكتور وجهة عامة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) أن تكون ثقافتنا في المستقبل ثقافة أوربية خالصة ، وأن يكون اتجاهنا في الحياة اتجاهاً أوربياً خالصاً .. وهو يقرر في كتابه أن مصر أمة غربية وليست أمة شرقية وأنها كانت غربية منذ عهد الفراعنة حتى اليوم. قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٥٠. وهذا ما عبر عنه سلامة موسى ووصل فيه إلى حد التطرف واعتبر حتى الأزهر جامعة أوربية أسسها رجل أوربي هو جوهر الصقلي ، ولا يأسف هذا الصليبي الحاقد على شيء أسفه على الدم الشرقي الذي تسرب إلى المصريين من الإخشيديين والمماليك والعثمانيين. الاتجاهات الوطنية ٢/٢٢٣. راجع كلام طه حسين في الاتجاهات الوطنية ٢/٢٣١.

(٤) كلمة فرنسية معناها «الإخوة» وهم فريق من المصريين الفرنسيين فتحوا مدارس تنصيرية في مصر. من فوائد المشرف حفظه الله.

بالإسكندرية يفوق ما أنفقه على ميزانية التعليم طوال حكمه.(١)

ومع الإمعان في السير داخل الطريق التغريبي، والإيغال في منعطفاته ومنحدراته من قبل حكام مصر أصبح عدد المدارس الأجنبية يفوق عدد المدارس الحكومية التي أنشأتها الحكومة في فترات من حكمها. ففي سنة ١٨٧٥م كان عدد المدارس الأجنبية ٩٣ مدرسة بها ٨٩١٦ تلميذاً وتلميذة. بينما كان عدد المدارس الحكومية ٣٦ مدرسة بها ٤٨٧٨ تلميذاً وتلميذة. وفي سنة ١٨٨٧م كان عدد المدارس الحكومية ٤٠ مدرسة كان عدد الطلاب فيها ٥٥٠٠ طالب، بينما كان عدد المدارس الأجنبية ١٩١ مدرسة، كان عدد الطلاب فيها ٢٢٧٦٤ طالب.(٢)

وفي هذه الأرقام والإحصائيات ما يغني عن التعليق، وبرهان ساطع على تولي هؤلاء الحكام للكفار، وفسح المجال لهم في بلاد المسلمين يعيثون فيها فساداً، بل وتقديم الدعم والعون والتشجيع إلى مؤسساتهم وقسسم ومنصريهم.

أما الاهتمام بالتعليم في الأزهر فأقل ما يمكن أن يقال أنه كان عندهم ملقى في زوايا الإهمال والنسيان.

وكما رأينا «الباي أحمد» لا يحيد قيد أنملة عن آراء وزيره المؤتمن الفرنسي «جوزاب دافو» ويقوم بتنفيذ ما يقرره ويراه، حتى لو كان ذلك في أخطر أمور البلاد وأهمها كالنواحي الدفاعية والعسكرية لتسقط البلاد فريسة سهلة تحت الاحتلال الفرنسي.

فإن «الخديوي إسماعيل» كان لا يثق إلا بكل ما هو آت من الغرب وبكل ما هو أوربي ففي المجال العسكري مثلاً كان الضابط الأوربي الجديد مقدماً على من هو أعلى منه رتبة وأكثر خبرة وتمرساً من الضباط المصريين والمسلمين بالطبع.

هذه الثقة العمياء التي منحها «الخديوي إسماعيل» العسكريين النصارى، وهذا الولاء المعلن الذي أولاهم إياه كانت له عواقب وخيمة جداً، ودفعت البلاد الثمن باهظاً لتلك السياسة الخرقاء. ولعل أصدق مثال على ذلك هو هذه الحادثة المؤلمة التي يرويها لنا واحد ممن عاشوا وقائعها، وهو

---

(١) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ٦٣ د. حسن فقي. دار المعارف بمصر، ص٢ ١٩٧١م. ليس غريباً على الشاخصين بالأبصار نحو الغرب أن يكون ما أنفقه أحدهم على مدارس طائفتين نصرانيتين في مدينة واحدة كالاسكندرية يفوق ما صرفه على التعليم في بلاده طول مدة حكمه!

(٢) المصدر السابق ص ٨٩.

القائد المعروف «أحمد عرابي»[(١)] فحين قام «الخديوي إسماعيل» بتسيير حملة عسكرية إلى بلاد الحبشة عام ١٢٩٢هـ وعهد بقيادتها إلى «راتب باشا» سردار العساكر المصرية ، وأمر هذا القائد أن يكون مقيداً برأي أركان حربه الجنرال «لورنج» وهو أمريكي كما يقول أحمد عرابي «لا يعرف الفنون العسكرية ، وإنما كان رئيس فرقة في الحرب الأمريكية من ضمن الفرق غير النظامية أي «المتطوعين» وكان أكثر رجال أركان الحرب الذين معه من بني جنسه فكان هذا الترتيب سبب الفشل الذي حاق بالمصريين في تلك الحملة».

ثم يذكر أحمد عرابي كيفية سير هذه الحملة ووصولها إلى الحبشة ويبين سبب الفشل الذي منيت به ، والمصير الأسود الذي واجهته فيقول : «وكان أحد القسس الفرنساويين المبشرين في بلاد الأحباش يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب الجنرال «لورنج» الأمريكي مستطلعاً أحوال الجيش المصري حتى علم مقداره ، واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون سبباً لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ معلوماته كل يوم إلى الملك (ملك الحبشة) فحشد هذا الملك جيشه وكان عدده ينيف على الثلاثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم في الدفاع عن كيان بلادهم».[(٢)]

ثم كتب عرابي فصلاً بعنوان (في خيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين في الجيش المصري) فكان مما قاله حول هذه الخيانة «واستعد جميع أركان الحرب الأوربيين والأمريكيين للحملة فألقوا جانباً طرابيشهم الرسمية ولبسوا قبعاتهم ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند إختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس السابق ذكره. ثم ذكر ما حل بالجيش المصري المسلم من هلاك عظيم ، وسقوطه بين قتيل وأسير وجريح ، عدا الغنائم التي غنمها الأحباش النصارى من هذا الجيش البائس.[(٣)] وصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً. ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ [آل عمران ١١٨].

وصدق رسول الله ﷺ حين قال للمشرك ذي الجرأة والنجدة الذي أراد القتال معه في غزوة بدر : «فارجع فلن أستعين بمشرك».[(٤)]

---

(١) الأعلام ١/١٦٨ توفي عرابي ١٣٢٩هـ.

(٢) كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية ١/٣٦ أحمد عرابي الحسيني. مطبعة مصر. شركة مساهمة مصرية ط ١٢٩٨هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢م.

(٣) المصدر السابق ١/٣٩.

(٤) رواه مسلم برقم ١٨١٧ كتاب الجهاد والسير. باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر ٣/١٤٤٩.

وهكذا كان الجيش المصري المسلم في هذه الحملة الخاسرة ضحية لتآمر الجنرالات الصليبيين الذين ركن إليهم «الخديوي إسماعيل» ووثق فيهم ثقة عمياء. وكبل قائد الجيش العام بأوامر أحدهم ممن ليس لديهم أية دراية بالأمور العسكرية.

بل إننا نكاد نجزم أن هذه الحملة وما تلاها من حملات إلى بلاد الحبشة في عهد «الخديوي إسماعيل» لم تكن من باب التوسع والفتوحات كما يعتبرها كثير من المؤرخين ، وإنما كانت من باب إلقاء الجيش المصري إلى التهلكة والإبادة [1] ، ولسنا نهدف بالطبع إلى إستقصاء الحديث عنها ، والدخول في أسبابها والظروف المحيطة بها ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نشير إلى ما يؤيد ما ذهبنا إليه آنفاً لعلاقة ذلك بموضوع الولاء والبراء فنقول أن حكم «الخديوي إسماعيل» في ذلك العصر قد بلغ من الضعف والعجز مبلغاً عظيماً. بسبب الديون الضخمة التي أرهق البلاد بها ، مما تمخض عنه أن تستأثر الدول الدائنة وفي مقدمتها دولتا بريطانيا وفرنسا بالسلطة في عهده حيث قامت كل منهما بتعيين وزير مراقب في الظاهر ، ومهيمن على نصاب الأمور والسلطة في الحقيقة ، فكيف يمكن لدولة أثقلتها الديون ، وأنهكها الإفلاس والعجز أن تسير الحملات الحربية الباهظة التكاليف في بلاد مجهولة وصعبة التضاريس من أجل التوسع فقط..؟ ولماذا لزم الوزيران الصمت حيال هذه الحملات التي ترهق ميزانية الدولة التي عينا لمراقبتها ، واستخلاص الديون منها..؟

وإذا كان النفوذ الأوربي قد تغلغل في عهد «إسماعيل» تغلغلاً عظيماً ، وأصبحت حكومته وقصوره وسراياه تعج بالأوربيين والأمريكيين ، فكيف تسمح أوربا الصليبية ومن ورائها الوزراء والقناصل والجنرالات المتواجدون في حكومة الخديوي بأن يقوم هذا الحاكم بغزو الحبشة النصرانية وفتحها. في الواقع أن هذا أمر لا يمكن حدوثه مطلقاً إلا إذا كانت هناك أهداف غير ظاهرة يراد تحقيقها وأكبر دليل على هذا أن جده محمد علي باشا لما عزم على غزو الحبشة سنة ١٨٤٠م حذره السفير الإنجليزي (سالت) وقال له «تقع الحبشة «أثيوبيا» تحت حمايتنا وهي البلد الوحيد في أفريقيا الذي اعتنق الدين المسيحي ، وصمدت صموداً طويلاً مظفراً خلال أجيال أمام هجمات المسلمين ، ولا ينبغي لأحد أن يتوقع من أوربا عامة ومن انكلترا خاصة أن تقف موقف اللامبالاة إذا ما تعرض هذا البلد للهجوم .. وهناك كثيرون من جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا يهتمون بمستقبل هذا البلد (يعني التنصير).[2]

لذا كان إرسال كثير من الجنرالات العسكريين والأوربيين والأمريكيين على رأس هذه الحملات ، وإصرار الخديوي على ائتمار قيادة الجيش برأيهم مع كونهم عارين من الخبرات العسكرية. كل ذلك

(١) وقد مر معنا الذي حدث في تونس.

(٢) فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ص ٢٨٧ بسام العسلي ، دار الفكر.

يؤيد ما ذهبنا إليه. وقد رأينا أن هؤلاء العسكريين كانوا سبباً مباشراً في القضاء على هذه الحملات بخيانتهم وغدرهم وتواطئهم مع أبناء ملتهم الأحباش. ثمة سبب آخر لا يمكننا أن نسقطه من حسابنا إلا وهو تآمر الدول الصليبية في ذلك الوقت على استعمار العالم الإسلامي. فانجلترا كانت تتربص بمصر الدوائر ، وتتحين الفرص للانقضاض عليها، وما من شك أن ضعف الجيش المصري وقلة عدده سيسهل عليها تنفيذ ما تهدف إليه بلا عناء.

فيرجح أنها أو غيرها قد أو عزت إلى «الخديوي إسماعيل» وزينت له فكرة إرسال حملات إلى الحبشة. لتأكدها من إخفاق هذه الحملات لوعورة أراضي الحبشة وكثرة المصاعب فيها وتحقق الهلكة لمن رام غزوها خصوصاً للجيوش غير المتمرسة على مثل تضاريس الحبشة كالجيش المصري. ومن المحتمل أن الوزراء الأوربيين قد أفهموا «الخديوي» أن في بقاء الجيش على حاله بلا عمل فيه خطورة عليه ، وإلا فأي معنى لتصرفاته الرعناء ، وإصراره المريب على تتابع الحملات إلى الحبشة ، كلما هلكت حملة أردفها بأخرى.

وبالفعل فقد جنت مصر ثمرة هذه الحملات الفاشلة ودفعت ثمنها باهظاً جداً ، عندما قامت بريطانيا باحتلالها عام ١٨٨٢م ، وهزمت الجيش المصري في موقعة «التل الكبير» ويا ترى كيف كانت ستكون النتيجة لو لم تبتلع جبال الحبشة وأحراشها ألوفاً من الجيش المصري قبل سنوات من الاحتلال.

ومن الأمور العجيبة في ذلك العهد أن القائد المعروف «أحمد عرابي» الذي اكتوى بخيانة هؤلاء الصليبيين أثناء الحملة على الحبشة ، ورأى تآمرهم وغدرهم ، يقع في شراكهم ، وينخدع بهم ، ولنستمع له عندما عين وكيلاً لنظارة الجهادية حيث يقول : «ولما استلمت منصبي الجديد كثر توارد المتظلمين علي من أرجاء البلاد ... في تلك المدة حضر إلى منزلي الرجل المتفاني في حب الحق والعدل والحرية!! ، محب الشرقيين عموماً والمصريين خصوصاً!!! (المستر ولفرن سكاون بلانت) ، وكان معه صاحبه العلامة «القس الصابرنجي» صاحب جرنال النحلة. وعرض علي قبول صداقته لي فقبلت منه ذلك ، فمد يده إلي ومددت يدي إليه ، وتصافحنا وتعاقدنا على الصداقة والإخلاص ، وكنت أظن أننا بواسطته وبفخامة مركزه في قومه ، وشدة غيرته على الحرية نتمكن من تذليل الصعوبات التي يلقيها قناصل الإنجليز في طريق حريتنا ونجاح بلادنا بدعوى الإنسانية والعدل والإنصاف بين الأمم والشعوب ، وهذا ما يدعيه الغربيون زوراً وتضليلاً دائماً وهي كلمات محبوبة يدسون بها السم في الدسم ليتمكنوا من الاستيلاء على مشارق الأرض ومغاربها طمعاً وجشعاً. وكذلك حضر لزيارتنا

كاتم أسرار ملكة الإنجليز محب الحرية (السير وليم جريجري) الرجل الإرلندي الذي كان قد تولى حكومة جزيرة سيلان[١] مرتين إجابة لرغبة أهل تلك البلاد».[٢]

فواعجباً متى كان الصليبيون والقساوسة متفانين في حب الحق والعدل والحرية ، عاشقين للشرقيين عموماً ، وللمصريين خصوصاً . وغريب أمر هذا الرجل .. فهل كل من يهرع إلى مكتبه أو يزوره في بيته يكون محباً للحرية والعدل حتى ولو كان أميناً لأسرار ملكة بريطانيا!!. والحقيقة التي يؤسف لها أن «القائد أحمد عرابي» الذي قاد الثورة الشعبية ضد الإنجليز و«الخديوي توفيق» عام ١٨٨٢م كان في الواقع بعيداً عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، جاهلاً لكثير من قضاياها المهمة التي على رأسها عقيدة الولاء والبراء والتي أجزم أنه لم يع معناها أبداً. بالإضافة إلى عدم وضوح المنهج وصفاء الرؤية واعتقاده الساذج أنه يمكن أن يستغل علاقاته بهؤلاء الماكرين في إزالة الصعوبات التي كان يضعها الإنجليز في طريق حرية البلاد واستقلالها.

هذا الخلل الخطير في شخصية الزعيم «أحمد عرابي» كان من الأسباب الخطيرة في انهزام الجيش المصري ، وانتصار الجيش البريطاني بكل سهولة.

فحين احتل الإنجليز الإسكندرية عزم عرابي على ردم مدخل القناة ليمنع الاسطول الإنجليزي من إنزال جنوده في الجبهة الشرقية، ولكن المستر ديلسبس أثناه عن عمله هذا، ووعده بمنع الاسطول من المرور في القنال اعتماداً على حيادها. [٣]

ولكن هذه الوعود سرعان ما تلاشت ، وخدع بها القائد «عرابي» وعبر الاسطول الإنجليزي قناة السويس ليطوق البلاد من الشرق والغرب ، وتقع الكارثة ، ويجثم الاحتلال الإنجليزي على صدر مصر قرابة السبعين عاماً.

حقاً إنها مأساة متكررة ، فكم رزئت الأمة بأعداد من الحكام والقواد الذين لم يكونوا جديرين ومؤهلين لقيادتها ، ومع إخلاص بعضهم إلا أن جهلهم بالعقيدة الصحيحة كان سبباً في إخفاق إخلاصهم ، ونكبة أممهم وشعوبهم ، ومن هؤلاء القائد «أحمد عرابي» الذي تصدى لقيادة الثورة والجهاد ، وخلفه جموع الأمة وعلماؤها. ولكنه كان غير خليق بالقيادة بسبب ما ذكرنا.

---

(١) ومن العجيب أن يكون عرابي قد نفي إلى هذه الجزيرة ، ومكث بها تسعة عشر عاماً فلعل صاحبه السير وليم هو الذي أشار بذلك رعاية لحق الصداقة!!

(٢) كشف الستار ١/٢٧٠.

(٣) لأن قناة السويس اتفقت الدول على جعلها محايدة ، أو هكذا زعموا.

وفي بلاد المغرب العربي ، وبعد جهاد طويل ضد الفرنسيين نكص «أحمد الريسوني» على عقبيه ودعا القبائل المغربية إلى موالاة الإسبان بعد أن بذلوا له العهود والوعود وعقد صلحاً معهم.(١)

وفي عمان استنجد السلطان «سعيد بن سلطان البوسعيدي» (المتوفي سنة ١٢٧٣هـ) بالإنجليز سنة ١٢٢٤هـ ، ونقض عهده مع الإمام سعود بن عبد العزيز ، وقاتل عماله في نواحي عمان ثم استعان بحكومة إيران سنة ١٢٢٥هـ على قتال أهل الدعوة فانهزم ، ثم عاد فأصلح بعض أمره. وعقد معاهدة تجارية مع بريطانيا سنة ١٢٥٥هـ ، جاء فيها : «إن رعايا صاحب الجلالة البريطانية يمنحون الحرية الكاملة في الدخول والإقامة والمتاجرة والمرور مع بضائعهم في جميع أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط» قال : جورج رنس : ومعنى ذلك ولو من حيث المبدأ ، أن تفتح أمام الأجانب مناطق يصر كثيرون من زعماء الداخل على إيصادها في وجوههم. كما عقد معاهدتين مع الفرنسيين ، الأولى سنة ١٢٢٢هـ ، والثانية سنة ١٢٦٠هـ ، ومعاهدة مع الحكومة الأميريكية سنة ١٢٤٩هـ وقعها إدموند روبرتس في القصر السلطاني بمسقط.(٢)

وفي بلاد المغرب الأقصى وقع خلاف بين سلاطين الدول العلوية ، واشتد النزاع بين الأخوين «عبد العزيز » و«عبد الحفيظ» ابني «الحسن بن محمد الحسني العلوي». وكانت البلاد مستقلة ، فاتخذ «عبد العزيز» من ممثلي الألمان أنصاراً ، واتخذ «عبد الحفيظ» من الفرنسيين أولياء ، وخلع «عبد العزيز» بفاس. وانتظم الأمر «لعبد الحفيظ» ، وثارت عليه القبائل وقام أخ ثان له «المولى زين» بثورة في مكناس. فعمد عبد الحفيظ كما يقول الزركلي : إلى أفظع الخطط وأسوئها . فطلب عون الحكومة الفرنسية ، وسرعان ما أجابت فقضت على الثورتين، وأعلنت حمايتها للمغرب بعد أن أمضى عبد الحفيظ معاهدة ٣٠ مارس ١٩١٢ المعروفة بمعاهدة الحماية.(٣)

وهكذا ضاعت البلاد ، ونكب العباد ، وتسلط الكفار بأناس أهملوا مصالح الأمة وجروا بلادهم وشعوبهم إلى هاوية الإستعمار ، بخلافاتهم الدنيوية وموالاتهم للكفار واستعانتهم بهم.

وبعد فهذه وقفة متأنية قمنا خلالها بجولة سريعة لنستطلع موقف الأمة الإسلامية من هذه القضية. قضية الولاء والبراء فيما ندرسه من حقبة زمنية وقد رأينا في هذه الوقفة أن السواد الأعظم من المسلمين كانوا مؤمنين بهذه العقيدة ، واعين لها إلى حد كبير ، إلا أن الغلو قد مزج فهمهم لهذه العقيدة فنتج عن ذلك أن زادوا على البراءة من الكافرين وبغضهم البراءة من كل ما يأتي من عندهم

---

(١) الأعلام ٢٥١/١ توفي الريسوني عام ١٣٤٣هـ.

(٢) المصدر السابق ٩٥/٣.

(٣) المصدر السابق ٢٧٧/٣.

وبغضه حتى ولو كان شيئاً نافعاً مما كان له آثار وخيمة في حياتهم ، ومع كل هذا فإن باستطاعتنا أن نعتبر أن عقيدة الولاء والبراء في القرنين الثالث عشر والرابع عشر[١] الهجريين كانت متماسكة وقوية إلى درجة كبيرة وذلك على المستوى الجماهيري للأمة ، وقد دللنا على ذلك بما لا نود إعادته أما الضعف والخلل الذي طرأ على هذه العقيدة فهذا إنما كان وجوده عند فئة من حكام المسلمين الذين أمعنوا في موالاة الكافرين وألقوا إليهم بالمودة ، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين. وعرفنا أن هذا الانحراف هو الذي أصاب عقيدة الولاء والبراء في الصميم ، ووقع منها في مقتل. لأنه يميع على المسلمين شخصيتهم وهويتهم ، ويزيل عنهم تميزهم عن غيرهم. ويفقدوا بالتالي أبرز مقوماتهم ، ويسهل على الأعداء بعد ذلك احتوائهم وابتلاعهم.

* * *

(١) إلى منتصفه تقريبا ، ثم خبت جذوة هذه العقيدة بعد أن ظهر مفعول الغزو الفكري.

الفصل الرابع: غربة العقيدة الصحيحة ومقاومتها :

إن الناظر إلى الحالة العقدية عند المسلمين في القرنين الماضيين ، وما طرأ عليها من انحرافات وزيادات طغت على العقيدة الإسلامية ، وحجبت نورها ، ليدرك من أول وهلة كما ذكرنا من قبل أن هذه العقيدة قد باتت غريبة بين خضم من العقائد الباطلة وركام من البدع والخرافات والتصورات الفاسدة ، ويرى أن الناس قد ابتعدوا بعداً عظيماً عن العقيدة الصحيحة ، وذلك بفعل عوامل كثيرة أحدثت أثرها على مدى قرون طويلة ، فأصبحوا متشبثين بأغشية من الجهل والسذاجة والخرافة على أنها من صميم الدين وكل ما خالفها فهو غريب ومردود ، فمن ثم لم نكن نستغرب ما آلت إليه هذه العقيدة من غربة ، وما تعرضت له من رد وهجوم ، لأنها بالفعل كانت غريبة عن واقع السواد الأعظم من المسلمين ، وأي أمر غريب عن واقعهم ومألوفهم فلا مكان له في حياتهم ، خصوصاً إذا كان هذا الأمر يطرق عليهم باباً من أبواب الدين التي أوصدوها على أنفسهم وعقولهم ، وويل لمن يحاول طرق هذه الأبواب الموصودة. فضلاً عن أن يحاول فتحها ، فإن ذلك في حسهم جرم عظيم ، وانتهاك لحمى الإسلام الذي أحاطوه بسياج منيع فلا يجرؤ أحد على الوصول إليه.

فالصوفية بطرقها وطقوسها ، والمتكلمون بجدلهم وفلسفاتهم. مع ما صاحب ذلك من تعصب مذهبي وتقليد مقيت أحدث في حياة الناس وواقعهم مزيجاً منحرفاً اتخذ الدين له اسماً ، وبقدر ما ينغمس المرء منهم في حمأة ذلك المزيج يكون عندهم قد أخذ من الدين بأوفر نصيب. وقد اتخذ هذا المزيج العجيب صوراً شتى نراها عند حديثنا عن الحالة العقدية وانتشار مظهر الشرك الأكبر والأصغر والغلو المفرط في الأولياء ، وهيمنة الصوفية على حياة الناس ، وقعود الناس عن الأخذ بالأسباب والركون إلى الغيبيات والخوارق والكرامات ، وطغيان الإرجاء والتقاعس عن العمل ، والجمود العلمي، والانكباب على علم الكلام والمنطق والفلسفة تصنيفاً وتدريساً واعتقاداً ، واشتداد الأغلال المذهبية ، ومصادرة الدليل ، واستهوال إعادة فتح باب الاجتهاد، فيولد الطفل فيحنك بجرعة من ذلك المزيج .

ولا بد له مع بواكير الشباب ، ورحيل الصبا من طريقة يسلكها ، وجدالات كلامية يعتقدها ، ومذهب من المذاهب يتعصب له ، كل بحسب بلده الذي ترعرع فيه ، فيقال للواحد منهم مثلاً : الشافعي مذهباً الأشعري معتقداً الأحمدي طريقة. وهكذا تعاظم هذا البلاء وعم وطم ، فلاتكاد ترى منتسباً للعلم سلم من أوضار هذه اللوثات الثلاث ، فمن هنا لم يكن بمستغرب على السواد الأعظم في ذلك الوقت أن يبادر إلى إنكار ما خرج عن هذا المألوف المنحرف ، والمزيج العجيب. ويشن عليه غارات شديدة تحت راية الانتصار للدين ، والجهاد ضد أعداء سيد المرسلين ، حتى ولو كان ذلك دعوة صادقة للرجوع إلى حقيقة الدين الذي ابتعدوا عنه.

أعتقد بعد هذا كله أنه يمكن أن نفسر إلى حد كبير الهجمة الشرسة والمقاومة العنيفة التي قوبلت بها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث التي جدد أمرها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وأتباعه ، وما اعترض سبيلها من عقبات ، وما اكتنفها من مصاعب ووصل الأمر إلى حد الحكم بكفرهم واستباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، وإنفاذ الجيوش إلى عقر دارهم، ومقاتلتهم على أنهم كفار ، وأن مقاتليهم مجاهدون في سبيل الله.

وسنحاول في هذا المقام أن نلقي الأضواء على غربة العقيدة الصحيحة ، وما منيت به من حرب وصراع مرير بعد أن قدمنا بين يدي ذلك القصد إطلالة سريعة على حياة المسلمين في ذلك العهد المظلم الذي كان من الطبيعي فيه أن تلقى أي دعوة للإصلاح والعودة إلى الطريق المستقيم جميع مظاهر العنف ، وشتى طرق المقاومة والبطش والتنكيل، وسوف يكون محور الكلام دائراً حول المقاومة العنيفة التي جوبهت بها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، لأنها كانت هي الحركة الإصلاحية التي تبنت العقيدة السلفية ، وسارت عليها في تلك الفترة.

لم يكد يمضي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري حتى كانت الدولة السعودية الأولى قد امتدت رقعتها من الخليج العربي شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً ، ومن نواحي حضرموت ونجران جنوباً إلى مشارف الموصل ومعان شمالاً.

وقد أقلق هذا التوسع السريع جهات عديدة ، فالدولة العثمانية قد كبر على سلاطينها أن ينتزع منهم الحرمان الشريفان اللذان كانا يقويان من مكانتهم في العالم الإسلامي ، وكذلك الزيود في اليمن ، والرافضة في إيران خاصة بعد توالي حملات أهل الدعوة على العتبات والأضرحة التي يقدسها الشيعة في العراق. (١) وهناك الإنجليز والفرنسيون الذين انزعجوا من ذلك الخطر الداهم الذي بات يهدد مصالحهم ، ويقضي على آمالهم ، وهناك أيضاً والي مصر محمد علي باشا الذي رأى في تلك الدولة الفتية تبديداً لأحلامه التوسعية.(٢) ولكن ذلك كله مع خطورته كان لا يعد شيئاً أمام هياج الرأي الإسلامي العام ، وسخط السواد الأعظم من المسلمين على هؤلاء المحتلين للحرمين الشريفين الذين انتهكوا الحرمات بزعمهم ، وأزالوا كثيراً من مظاهر الشرك والبدع التي ألفوها ،

---

(١) ويأتي على رأسها تلك الحملة الكبيرة التي قادها الإمام سعود في أواخر إمامة والده الإمام عبد العزيز عام ١٢١٦هـ إلى كربلاء وإقتحامها وهدم القبة المنسوبة إلى الحسين رضي الله عنه والاستيلاء على ذخائرها وكنوزها. انظر عنوان المجد في تاريخ نجد ١٢١/١. لعثمان بن بشر. مكتبة الرياض الحديثة. وعندما سقطت الدرعية عام ١٢٣٣هـ على يد قوات محمد علي باشا بعث شاه العجم وملك الرافضة في إيران إلى محمد علي رسالة يعبر فيها عن فرحته الشديدة وبعث إليه بسيف من حديد توارثه ملوك الرافضة وخاتماً من فيروزج.. انظر نص الرسالة في ملحق رقم ١٨ ص٤٠٠ في كتاب الدولة السعودية الأولى لعبد الرحيم عبد الرحمن ، جامعة الدول العربية ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩م .

(٢) ينصح بقراءة كتاب «قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية» د. سليمان بن محمد الغنام .

وصاروا يتقربون بها إلى الله. على أن من أهم الأسباب لاستيلاء أهل الدعوة على الحرمين الشريفين هو منعهم من الحج من قبل أشراف مكة المتتابعين على حكمها. (١)

وقد كان لهذا الاستيلاء أصداء سياسية واجتماعية واسعة النطاق في العالم الإسلامي الذي أدهشه خروج الحرمين الشريفين من حوزة الدولة العثمانية ذات القوة والهيمنة ولعل ما قام به أهل الدعوة من إحياء لمعالم الدين المندرسة، وهدم لصروح الشرك المشيدة، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإعادة للأمور إلى نصابها قد فاق عند الناس خبر استيلائهم على مكة والمدينة.

ويذكر مؤرخ العصر عبد الرحمن الجبرتي خبر استيلائهم على مكة عام ١٢٢١هـ وكيف أنهم أمروا بمنع المنكرات والتجاهر بها كشرب الدخان والأراجيل في المسعاة، وبالمحافظة على الصلوات في الجماعة، ودفع الزكاة، وترك لبس الحرير والمقصبات، وإبطال المكوس والمظالم، وكانوا كما يقول قد خرجوا عن الحدود في ذلك حتى إن الميت لا يستطيع ذووه غسله ودفنه إلا بعد دفعهم ضريبة مالية، بالإضافة إلى كثير من المظالم والمغارم التي أحدثوها على المبيعات والمشتريات وعلى البائع والمشتري، ومصادرة الناس في أموالهم ودورهم، والأهم من ذلك كله ترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والمهمات، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور، والصور والزخارف وتقبيل الأعتاب، والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها واجتماع أصناف الخلائق، واختلاط النساء بالرجال، وهدمت جميع القباب المبنية على القبور والأضرحة، وعاهدهم الشريف غالب على منع ذلك، بعدما أقيمت مناظرة مع علماء الحرم وأقاموا عليهم الحجة بالأدلة القطعية التي لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة.

ثم يذكر الجبرتي ما حدث من الأمن والرخاء بعد ذلك فيقول: «فعند ذلك أمنت السبل، وسلكت الطرق بين مكة والمدينة، وبين مكة وجدة والطائف وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات». (٢)

وفي عام ١٢٢٢هـ أحضر الإمام سعود (٣) أمير الركب المصري وسأله عن المحمل، فقال هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم فأمره بعدم المجيء به بعد هذا العام وتوعده بإحراقه لو عاد به. (٤)

---

(١) وأولهم الشريف مسعود الذي كاتبه أهل الدعوة فمنعهم. ثم الشريف مساعد الذي أبى دخولهم هو الآخر ثم جاء الشريف أحمد بن سعيد فلم يسمح لهم بأداء فريضة الحج. وتمت على عهد ذلك الشريف مناظرة بين عالم بعثه أهل الدعوة إلى مكة وبين علمائها. ولكن دون أن تسفر هذه المناظرة عن نتيجة. ثم ولي الشريف سرور فراسلوه، فوافق على أن يقبض منهم ضريبة، فأبوا عليه ذلك. إلى أن جاء الشريف غالب فراسلوه كأسلافه، فتهددهم ثم جهز جيشاً لقتالهم عام ١٢٠٥هـ وطال أمد الحرب بين الشريف غالب وبين أهل الدعوة إلى أن تمكنوا من دخول مكة في ٨ محرم ١٢١٨هـ. انظر: تاريخ مكة للسباعي. وعنوان المجد في تاريخ نجد

(٢) عجائب الآثار ١١٦/٣.

(٣) في تاريخ الجبرتي مسعود الوهابي والصحيح ما ذكرنا.

(٤) المصدر السابق ١٨٩/٣.

فيا ترى ما هي ردود الفعل التي حدثت لما قام به أهل الدعوة من جهود لإصلاح الأحوال الدينية، وكيف قوبل هذا الإصلاح من سواد المسلمين ، وما هي الأصداء التي نتجت عنه؟

في الواقع أن امتناع كثير من الحجاج بل امتناع أقطار بأكملها عن القدوم للحج متذرعين في ذلك بمنعهم ممن ينعتونهم بالوهابية - كان من أوائل ردود الفعل التي دوى صداها في أرجاء العالم الإسلامي.

يقول الجبرتي رحمه الله عن أحداث عام ١٢٢٣هـ : «ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي للناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحدا يأتي الحج على الطريق المشروعة وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التى لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشئ.» (١)

وقد أدى الاتهام الظالم لأهل الدعوة بمنع الناس من الحج إلى تشويه سمعتهم ونفور السواد الأعظم منهم. (٢)

ولم يكتف أهل البدع والمحدثات بمقاطعة الحج وادعائهم بمنع أهل الدعوة لهم من ذلك. بل لجأوا إلى وسائل أخرى كانت أنكى في النيل والتشهير بأهل الدعوة. ومن ذلك قطع جميع المساعدات والهبات والصدقات عن مكة والمدينة ويأتى في مقدمة ذلك الأموال المخصصة للحرمين من قبل الدولة العثمانية (٣) ، وقد تسببت هذه المقاطعة الشديدة أو الحصار الاقتصادي في هياج الرأي العام عند

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٤٧.

(٢) ذكر ابن بشر أن الإمام سعود أمر عماله في النواحي أن يمنعوا الحواج التي تاتي من جهة الشام واستامبول خوفاً من انتفاض الشريف غالب عليهم ، عنوان المجد ١/١٣٩.

وفي رسالة من الإمام عبد الله بن سعود إلى محمد علي يرجح أنها كانت في عام ١٢٣١هـ يوضح أن رد الحجاج القادمين من مصر في عهد والده « وأظن ذلك صحبة المحمل » كان بإيعاز من الشريف غالب خوفًا من قيامهم بفتنة في الحرم وأن الدولة العثمانية إذا تعهدت بعدم إحداث فتنة فيسمح لهم بالحج ويكون ذلك تحت الحماية .

وقد طلب الشريف غالب من والده أن يتولى إرسال مضمون ذلك إلى الدولة ، ثم غير وبدل في الرسائل على لسان الإمام سعود بما يورث الإحن والعداوة مع العثمانيين .

الدولة السعودية الأولى ، ملحق ١٦، ص ٣٩٤ .

(٣) كانت الدولة العثمانية تجعل للحرمين مخصصات مالية وأخرى عينية من الغلال ، وتبعث بها سنوياً إلى الحرمين فتوزع على أهلهما خصوصاً العلماء وطلبة العلم والفقراء والمجاورين وكثيراً من الأهالي ، وقد تسبب ذلك في تكاسل الأهالي فيهما وماذا عليهم وقد كفوا مؤنة العيش وكلفته. ومع أن هذه حسنة من حسنات هذه الدولة ، إلا أنه كان الأجدر بها أن تنشىء المشاريع في أرض الحرمين وأن توجد الأعمال للأهالي لكيلا يكونوا اتكاليين تحت رحمة الآخرين فيحل بهم من

المسلمين ، وتحويله ضد أهل الدعوة ، خصوصاً بعد أن أخذ يسري تنفيذها ، وضج كثير من أهل الحرمين الذين كانوا لا يتعيشون إلا عن طريق تلك الموارد ، «وخرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم، ولم يمكث الا الذي ليس له إيراد من ذلك ، وأتوا إلى مصر والشام ومنهم من ذهب إلى اسلامبول يتشكون من الوهابي ، ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التى كانوا عليها من إجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التى بأسماء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك. (١)

ولنا أن نتصور ما أحدثه هؤلاء المهاجرون من أصداء واسعة المدى في أوساط المسلمين بسبب رحيلهم وتشكيهم من أهل الدعوة ، ومن مظاهر السخط والنقمة التى سادت المسلمين لأجل ما أصاب أهل الحرمين الذين لهم مكانة خاصة عندهم وإننا لنكاد نلمس آثار هذه المقاطعة الشديدة في تحويل الرأي العام عند المسلمين خصوصاً عند أهل الحرمين ضد أهل الدعوة ، حيث ألقوا باللائمة عليهم فيما حل بهم من نكبة ومصيبة ، ولجأوا إلى البلدان الأخرى يقصون ما أصابهم ، وما وقع لهم من نقص المعيشة وتقلب الزمان ، وأخذوا ينالون من أهل الدعوة ويدعون إلى الخلاص منهم ، ليس انتصاراً للدين ، بقدر ما هو انتصار للنفوس وحظوظها من المعايش والمتاع الزائل.

وهنا نرى أنه لا بد لنا من وقفة عند نقطة جديرة بالانتباه ، قل من تعرض لها ممن تناول بالدراسة أصداء دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومقاومة المناوئين لها. ونعني بذلك تأثير الأحداث السياسية والاقتصادية في صد الناس عن الدخول في الدعوة فمع الحالة العقدية المتدهورة في ذلك الوقت إلا أن الأحداث المذكورة كان لها دور بارز في ذلك الصد ، فقد رأينا حين استولى أهل الدعوة على الحرمين الشريفين وقاموا بإزالة مظاهر الشرك والبدع والمنكرات ، وإبطال المظالم ، ونشر التوحيد والسنة ، وإحياء العدل ، أنه قد انتشر الرخاء ، وساد الأمن ، وانحلت الأسعار (٢) ، وفاضت الأقوات. فكيف لو استمر الحال على ذلك من توطيد الأمن وإقامة العدل ، ونشر العقيدة الصحيحة ، وهم في أقدس بقعة يؤمها عشرات الآلاف من المسلمين سنويا ، فيرون عدل هؤلاء الفاتحين ، وتطبيقهم لأحكام الشريعة؟ حتماً سيكون لذلك أبلغ الأثر في نفوسهم ، فكبر الحال عند ذلك على أهل البدع ، وأرقهم ما آل إليه أمر هذه الدعوة من نصر وتمكين ، وخافوا أن تتسع دائرة الدعوة ، وتحدث بين الناس تغييراً فيهبوا ضد سلطانهم الغارق في البدع والمنكرات والظلم .

= المآسي كما وقع لهم عندما قامت الدولة العثمانية بقطع تلك المساعدات حين استولى أهل الدعوة على الحرمين. انظر تاريخ السباعي والكلام حول تلك القضية.

(١) المصدر السابق ٢٤٧/٣.

(٢) صار الأردب من القمح بأربعة ريالات بعد أن وصل سعره إلى ثلاثمائة وعشرة ريال انظر عجائب الآثار ١١٦/٣ وذلك ببركة تلك الدعوة الصادقة.

عند ذلك امتنعوا عن الحج تظاهراً بمنع أهل الدعوة لهم. ولجأوا إلى قطع جميع المساعدات والمخصصات عن بلاد الحرمين مما تسبب في نشوء أزمة اقتصادية خانقة دفع أهل الحرمين ثمنها ، وألقي بتبعتها على أهل الدعوة.

فكان لتلك التصرفات التى قام بها رؤوس المبتدعة أثر عظيم في تشويه سمعة أهل الدعوة ، وفي تهييج الرأي ضدهم ، وأخذوا يبثون دعاياتهم وتلفيقاتهم للنيل من أهل الدعوة. كتلك الدعاية التى تقول إنهم يبغضون النبي ﷺ وينتقصون من جنابه الكريم .وكان أخذهم لما احتوته الحجرة النبوية الشريفة من ذخائر وأموال كفيلاً بتصديق الناس لهذه الدعاية الخطيرة. وكانوا كما يقول الجبرتى يرون أن أخذها من الكبائر العظام ، وقد وضعها في الحجرة ضعاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم. (١)

فامتناع الحجاج عن أداء فريضة الحج ، وقطع المخصصات والمساعدات المالية عن الحرمين الشريفين كانا من أوائل ردود الفعل التى أحدثت تأثيراً على المستوى الجماهيري.

ثم جاءت الخطوة الكبرى وهي إعلان الحرب وتجريد الجيوش لغزو أهل الدعوة ولتحرير الحرمين من أيديهم. ولكن هل كان هذا الحدث أمراً معتاداً ، بمعنى أن الدولة العثمانية قامت بهذه الخطوة استعادة لسيطرتها على الحرمين ، ورداً لاعتبارها. كما كان يحدث لها في كثير من الأقاليم والثورات، أم أن الموقف هنا كان مختلفا عما سبق؟

الواقع أن العثمانيين في تعاملهم مع أهل الدعوة جنحوا إلى أمر خطير جداً وهو تكفيرهم لأهل الدعوة ، واعتبارهم من الخوارج لا من حيث الخروج عليهم فحسب ، بل من حيث الدعوة التى حملوها وأعلنوها ، واعتبروا قتالهم جهاداً ومن يقتل منهم شهيداً ، ففي رسالة من والي الشام كنج يوسف إلى والي مصر محمد علي باشا بتاريخ ١٩ صفر ١٢٢٣هـ يحثه فيها على إجابة أمر السلطان لقتال أهل الدعوة وجاء فيها : وأنكم ستنفذون الأمر بكل رغبة وقبول وأنكم ستنصرون الدولة العلية التى تتمنون لها الدوام الأبدي .. وستبذلون جهدكم في مقاتلة أولئك الوهابيين الخوارج ، وفي سبيل جلائهم عن أرض الحرمين الشريفين، وإنقاذ هذه الأرض وأهلها من شر هؤلاء الخوارج وفسادهم(٢)

وجاء في رسالة لمحمد علي رداً على المرسوم العالي الذي جاء من الأستانة :

« حتى وقفت لتنظيف البلدتين المباركتين وتطهيرهما من لوث وجود الخوارج. .... أن الدرعية مقر نحوسة هؤلاء الطائفة الخائفة طائفة الخوارج ما لم تشاهد ولم تلق صدمة قاهرة من العساكر

---

(١) المصدر السابق ٢٤٨/٢.

(٢) انظر ملحق ٢ص٣٤٥ في الدولة السعودية الأولى.

السلطانية الذين لهم مآثر الظفر وما لم يصبح أكثر هؤلاء الخوارج طعمة سيوف الغزاة ولم تدخل البقية الباقية من هؤلاء الخوارج داخل سلك الإيمان بأن يتوبوا ويستغفروا قلبا وروحاً ...[١]» .

وجاء له في رسالة أخرى : وظاهر بالتواتر خروج أكثر قبائل العربان بطريق الحج منذ عشرين سنة عن طريق أهل السنة المستقيم وتبعيتهم للسعود المردود وكونهم أشد كفراً من الكافر الخارجي المذهب.[٢]

وبلغ الأمر أن السلطان العثماني بعد أن تمكنت جيوشه من استعادة الحرمين الشريفين ، وإلحاق الهزيمة بأهل الدعوة أن تلقب بخادم الحرمين الشريفين ؛ لأنه استخلصهما من الكفار. وبعث بالرسل إلى الأقاليم والأمصار تحمل المراسيم والأوامر إلى خطباء المساجد بأن يدعوا للسلطان بهذا اللقب ثلاثاً على المنابر يوم الجمعة. وفي ذلك يقول الجبرتي رحمه الله : «وفي آخره [٣] وصل من الديار الرومية (يعنى التركية) واصل على يده مرسوم فقرئ بالمحكمة ... ومضمونه الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر. بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان السلطان ابن السلطان بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان بن السلطان أحمد خان الغازي خادم الحرمين الشريفين. لأنه استحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين ، وغزت الخوارج ، وأخرجتهم منها ؛ لأن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين ، ولخروجهم على السلطان ، وقتلهم الأنفس ، وأن من قاتلهم يكون مغازياً ومجاهداً وشهيداً إذا قتل» [٤]

ثم تولى كبر ذلك النزاع محمد علي باشا الذي استطاع بإرسال حملاته المتتابعة وبمعاونة فرنسا وبريطانيا من هزيمة أهل الدعوة في عقر دارهم، وتقويض دولتهم ، وهدم الدرعية عاصمتهم[٥]

وقد كانت الأوامر تصدر الى الفقهاء والمجاورين في الأزهر بقراءة صحيح البخاري بقصد حصول النصر لإبراهيم باشا على أهل الدعوة [٦] ، وهذه مع كونها بدعة فإنها كانت لا تصنع إلا في الشدائد ، وفي قتال الكفار خاصة ، كما وقع عند مجيء الفرنسيين وعند حروب الدولة العثمانية مع الروس وغيرهم.

---

(١) انظر ملحق ١٠ص٢٧٠ في الدولة السعودية الأولى. وآثرنا نقل هذه العبارات على ركاكتها كما جاءت في الوثيقة .

(٢) انظر ملحق ١١ص٣٧٥ في الدولة السعودية الأولى.

(٣) آخر جماد الثانية عام ١٢٢٨هـ.

(٤) عجائب الآثار ٣/٤٠٦.

(٥) انظر حول ذلك :قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. بعنوان محمد علي وضرب الاتجاه الإسلامي في الجزيرة العربية ص١٨٥.

(٦) عجائب الآثار ٣/٥٦٨-٥٧٩-٥٨١. وهي عدة أوامر متكررة صدرت بعد إبطاء النصر.

أما الاحتفالات التي أقيمت في مصر بعد أن تم النصر على أهل الدعوة ، والقضاء على دولتهم فخبرها يفوق الوصف. فقد زينت مدينة القاهرة سبعة أيام (٢٧ذي الحجة - ٤ محرم و نصبت الصواوين خارجها ، وأخرجوا من المدافع مائة وعشرة مدافع حيث كان ينطلق منها في الساعة الواحدة ما يقرب من ثمانين ألف قذيفة. هذا من دون بنادق الخيالة. والناس كانوا ملازمين للسهر والزينة ليلاً ونهاراً.

وكانت أكثر الزينات من صنع الإفرنج وحول مساكنهم ..؟ وتوسع الناس في ذلك جداً ، وأسرفوا ، فكان كل من تخيل بفكره شيئاً ملعوباً أو تصويراً ذهب الى الترسخانة حيث الأخشاب والصناع فيعمله على طرف الميرى [١] حتى يبرزه إلى الخارج ، ويأخذ على ابتكاره البقشيش. [٢]

وإذا كان هذا غريبا فإن الغريب حقاً هو مشاركة كثير من العلماء والفقهاء للناس في هذه الاحتفالات ، حيث تواطئوا مع الحكام واتفقوا معهم في حرب الدعوة السلفية ، وفي الابتهاج بما أحرز من نصر وغلبة على أتباعها ، حتى لقد وصل بعضهم إلى حد الإسفاف. وخرجوا في ذلك عن الأوضاع الشرعية والأدبية كما يقول الجبرتي. [٣]

فالكثير من العلماء كانوا يرون تكفير أهل الدعوة الذين يسمونهم بالوهابية ، وقليل منهم لم يكونوا يرون ذلك ، ومن هؤلاء الجبرتي رحمه الله حيث يقول : «وفيه [٤] وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز وصحبتهم أسرى من الوهابية نساء وبنات وغلماناً نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون أحرار.» [٥]

والذي يظهر أن الجبرتي رحمه الله كان من القلة الذين فقهوا حقيقة هذه الدعوة ومالوا إليها ، وليس أدل على ذلك من كلامه حين استولى أهلها على الحرمين ، ووصفه لدعوتهم أنها رجوع إلى ما كان عليه أهل القرون المفضلة من هدى ودين ، وكيف أنهم أقاموا عمود الدين ، ومنعوا المنكرات التي أعظمها الشرك ، وكيف أنه دفع التهمة الساقطة التي أطلقها أهل الابتداع ضدهم وهي منع الناس من الحج. بل إن هناك نصاً من كلام الجبرتي له دلالته المهمة وهو قوله : «وفيه [٦] وصلت الأخبار أيضاً من عبد الله بن سعود [٧] أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون ،

---

(١) الميري : الحكومة.

(٢) المصدر السابق ٣/٦٠٠.

(٣) المصدر ٣/٥٩٤.

(٤) أي في شهر صفر سنة ١٢٣٥.

(٥) المصدر السابق ٣/٦٠٦.

(٦) أي في جمادى الأولى عام ١٢٣٤هـ.

(٧) في الأصل : مسعود والصحيح ما ذكرنا.

وقتلوا أتباعه أيضاً في نواح متفرقة فذهبوا مع الشهداء». (١)

فقوله رحمه الله : فذهبوا مع الشهداء يدل على أنه يرى أنهم على الحق ، وأنهم قد استشهدوا في سبيله. ولكن من يجرؤ في ذلك الزمن العصيب الذي ترأس فيه المبتدعة ، وتسلط فيه الخرافيون أن ينصف أهل الدعوة فيصرح بأنهم على الحق ، وما سواهم على الضلال ، أو حتى يتوقف في تكفيرهم أو يحكم بإسلامهم. هذه بعض مظاهر الصراع بين أهل الدعوة وبين خصومهم من أهل البدع الذين لم يكتفوا ببدعهم وخرافاتهم وشركياتهم حتى أخذوا يكفرون أهل الدعوة ويستحلون دمائهم وأموالهم، ويعتبرونهم من الخوارج.

وإن كانت هذه المرحلة من الصراع قد تبلورت في صورة الصراع السياسي أكثر من غيره ، إلا أن الصراع الفكري كان هو الأقوى والمستمر خصوصاً بعد أن تم إسقاط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٤هـ.

حيث انطلقت الدعايات الكاذبة ، والتهم الباطلة التي أثارها عباد القبور ، ومجاورو الأضرحة من المتصوفة وغيرهم ضد أهل الدعوة في أرجاء العالم الإسلامي الذي كان غارقاً فيما سبق أن وضحناه من حالة متدهورة. فانكمش الناس عن هذه الدعوة ، ونفروا منها ، وأخذوا يطعنون فيها ، وينالون من حملتها ، ويحذرون بعضهم من قبولها أو حتى السماع لها ، ويتناقلون الإشاعات فيما بينهم مما روجه المبتدعة الذين كبر عليهم ما وصلت إليه الدعوة من مكانة وانتشار ، وخافوا أن يجتثوا من الأرض. كقولهم عن أهل الدعوة إنهم يكفرون المسلمين ، ويبغضون النبيﷺ وأصحابه وأولياء الله الصالحين ويطعنون في أئمة المذاهب المعتبرين إلى غير ذلك من الأقوال المرذولة والإشاعات الساقطة.

والداهية أن تنتقل هذه الأقوال المكذوبة ، والدعايات المختلفة من إشاعات يتناقلها الناس في كل مكان إلى جمهرة من العلماء والفقهاء ممن تصدوا للتدريس والتأليف فيلتقفوها دون تبين وتثبت ، ويودعوها مؤلفاتهم كحقائق لا جدال فيها ، وزاد الأمر سوءاً أن يكون جزء لا بأس به من هذه المؤلفات من مناهج التعليم الأساسية التي يعكف على تدريسها ودراستها ألوف من العلماء والطلبة في كثير من الأمصار ، وعبر حقب زمنية متوالية. ولعل أظهر مثال على ذلك هو الفقيه المعروف بابن عابدين الحنفي صاحب الحاشية المشهور المسماة بـ«رد المحتار على الدر المختار» ، فقد ذكر في باب البغاة تحت قول صاحب المتن (ويكفرون أصحاب نبيناﷺ) مايلي : «علمت أن هذا غير شرط في مسمى الخوارج ، بل هو بيان لمن خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه ، وإلا فيكفي فيهم اعتقادهم كفر من خرجوا عليهم كما وقع في زماننا في أتباع عبد الوهاب (٢) الذين خرجوا من نجد وتغلبوا على

---

(١) المصدر السابق ٣/٦٠٠.

(٢) ومن المعلوم أن هذا ليس اسماً للشيخ محمد رحمه الله ، بل اسم لوالده ، وهذا من جهل صاحب الحاشية بِبَدائه الأمور

الحرمين ، و كانوا ينتحلون مذهب الحنابلة ، لكنهم اعتقدوا أنهم المسلمون ، وأن من خالف اعتقادهم مشركون ، واستباحوا بذلك قتل أهل الشر وقتل علمائهم حتى كسر الله تعالى شوكتهم وخرب بلادهم، وظفر بهم عساكر المسلمين عام ثلاث و ثلاثين ومائتين وألف.» [١]

وكذلك ما فعله صاحب الهامش على سنن النسائي المطبوع في الهند في الطبعة النظامية سنة ١٢٩٦هـ حين قال في صفحة ٤١٢ : ثم ليعلم أن الذين يدينون دين عبد الوهاب النجدي[٢]، ويسلكون مسالكه في الأصول والفروع ويدعون في بلادنا باسم الوهابيين وغير المقلدين ، ويزعمون أن تقليد الأئمة الأربعة رضوان الله عليهم شرك ، وأن من خالفهم هم المشركون ، ويستبيحون قتلنا أهل السنة[٣] وسبي نسائنا وغير ذلك من العقائد الشنيعة التى وصلت إلينا بواسطة الثقات ، وسمعنا بعضًا ، فهم أيضاً هم فرقة من الخوارج ، وقد صرح به العلامة الشامي في كتابه (رد المحتار) [٤]. يعنى ابن عابدين.

وهكذا انساق هؤلاء العلماء وغيرهم كثير فأودعوا كتبهم ومؤلفاتهم العلمية كثيراً من هذه الإشاعات التى كانت رائجة في زمانهم عن الدعوة السلفية التى جدد الله أمرها على أيدي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه رحمهم الله. وحكموا فيها بكفرهم ، وعدوهم من فرق الخوارج و وبذلك تعمقت شقة الخلاف واتسع مجالها بدخولها الى صلب المناهج التعليمية ، حيث كانت خطوة خطيرة تولى كبرها جماعة من العلماء الذين لم يدركوا من أمر هذه الدعوة في كثير من الأحيان إلا ما يتناقله العوام من حكايات رثة وإشاعات كاذبة.

ولعل مفتي مكة المكرمة الشيخ أحمد زيني دحلان المتوفى (١٣٠٤هـ)[٥] يأتي على رأس العلماء الكثيرين الذين استماتوا في محاولة إطفاء نور هذه الدعوة ، والكيد لها ، والطعن في دعاتها ، والنيل من مؤسسها.

وتأتي رسالته التى خصصها في هذا المقام في مقدمة نشاطه الذي دأب عليه طوال عمره الطويل للقضاء على هذه الدعوة.

في هذه الدعوة. وإن من يقرأ في كتابات المؤرخين والعلماء حول هذه الدعوة ليجد تخليطاً عجيباً ولبساً مبيناً يعلم أبسط المطلعين على أمر هذه الدعوة خطأه وجهله. وقد رأيت من ذلك شيئاً كثيراً من خلال قراءتي لعدد لا بأس به من هذه المؤلفات. والسبب الأول في ذلك أنهم لم يعرفوا عن هذه الدعوة إلا من خلال أعدائها .

(١) حاشية ابن عابدين ٢٦٢/٤ دار الفكر الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

(٢) وهذا من جهله أيضاً.

(٣) أي سنة يقصد ياترى..؟.

(٤) نقلاً عن مقدمة صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان. للشيخ محمد رشيد رضا.

(٥) الأعلام ١٢٩/١.

وقد قام بطباعة هذه الرسالة في أول مطبعة أنشئت في مكة المكرمة في زمنه واستطاع بمعاونة أمراء مكة ورجال الدولة أن يطبع منها أعداداً كثيرة ، ونسخاً وفيرة ، ويوزعها على حجاج الآفاق ، فعم نشرها ، واستطال شرها ، وتناقل الناس محتواها ، وسرت فيهم سريان النار في الهشيم. إذ الزمان زمان بدعة وخرافة والنفوس غارقة في ألوان من البدع والمخالفات.

ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله (المتوفى سنة ١٣٥٤هـ) (١) في مقدمته للرد العظيم على هذه الرسالة وهو «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي رحمه الله. (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) (٢) أن الناس تناقلوا مفتريات أحمد زيني دحلان وبهتانه في كل الأقطار ، وصدقها العوام وكثير من الخواص ، وكان لها أثر بالغ وذلك حين اتخذ المبتدعة والحشوية والخرافيون رواياته ونقوله الموضوعة والواهية المنكرة، وتحريفاته للروايات الصحيحة حججاً يعتمدون عليها في الرد على دعاة السنة المصلحين ، ويذكر أيضا أن هذه الرسالة قد فنيت ولم يبق منها شيء بين الأيدي ، ولكن الألسن والأقلام لا تزال تتناقل كل ما فيها من غير عزو إليها ، ودأب البشر العناية بنقل ما يوافق أهواءهم فكيف إذا وافقت هوى ملوكهم وحكامهم.

ثم يقول الشيخ : كنا نسمع في صغرنا أخبار الوهابية المستمدة من رسالة دحلان هذا وأمثاله فنصدقها بالتبع لمشايخنا وآبائنا ، ونصدق أن الدولة العثمانية هي حامية الدين ولأجله حاربتهم وخضدت شوكتهم. وأنا لم أعلم بحقيقة هذه الطائفة إلا بعد الهجرة إلى مصر والاطلاع على تاريخ الجبرتي وتاريخ الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى. وأن الدولة العثمانية ما حاربتهم إلا خوفا من تجديد ملك العرب وإعادة الخلافة الإسلامية سيرتها الأولى. (٣)

وهذه الرسالة في حقيقتها تدور على قطبين اثنين كما قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

القطب الأول : قطب الكذب والإفتراء على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه رحمهم الله.

القطب الثاني : قطب الجهل بتخطئة الشيخ فيما هو مصيب فيه. (٤)

وقد جاء في هذه الرسالة من الافتراء والمغالطات والكذب ما الله به عليم ، وحاول دحلان من خلالها أن يتظاهر بالدعوة إلى وحدة المسلمين وعدم تفريق كلمتهم ، واعتبر أن الجماعة المأمور بلزومها هم الأكثرون عدداً في كل عصر وأن أهل الدعوة قلة مفارقة للجماعة. وتلك جهالة ظاهرة !

---

(١) الأعلام : ١٢٦/٦.

(٢) الأعلام : ٥٢/٦.

(٣) صيانة الإنسان ص١١. لعل هذا واحد من الأهداف التى سعت إليها الدولة العثمانية في حربها مع الدعوة السلفية ، بل إن الدولة العثمانية كانت ترى أنها حامية للدين الذي فهمته ، فاعتبرت حربها مع الدعوة من هذا الباب حربا دينية وجهاداً مقدساً.

(٤) المصدر السابق ص١١.

وهذه دعوى براقة يلوح بها أهل البدع والضلال في كل زمان ومكان في وجوه أهل السنة من المصلحين ، واتهامهم بتفريق جماعة المسلمين ، وشق كلمتهم ويتخذون من قلة عددهم غرضاً للطعن في دعوتهم وإصلاحهم.

ونسوق هنا بعض ماورد في هذه الرسالة من مفتريات ساقطة ، وأشياء لا يكاد يصدقها إلا ضعاف العقول وفاقدو البصائر ممن أوغرت صدورهم ببغض أهل السنة والجماعة ، وتشربت قلوبهم بحب البدع والمنافحة عنها.

وقد أعمت البدع دحلان ، فانطلق في دهاليزها المظلمة يكيل التهم الباطلة ويحشد الادعاءات الكاذبة ، وأجلب بخيله ورجله في محاولة منه لإطفاء نور هذه الدعوة المباركة ، ولكن الله عز وجل أبطل مكره وأحبط كيده فكان كما قيل :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وهذه بعض ماحوته رسالته من مفتريات وأباطيل :

أولاً : منع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أتباعه من مطالعة كتب الفقه والتفسير والحديث وإحراقه لكثير منها.

ثانياً : إذن الشيخ لكل من اتبعه أن يفسر القرآن بحسب فهمه حتى همج الهمج على حد قوله.

ثالثاً : تفرس العلماء للشيخ في صغره بأنه سيكون من أهل الإلحاد والضلال ، وحتى والده كان من هؤلاء المتفرسين.

رابعاً : قول الشيخ لأتباعه : إني أدعوكم الى الدين ، وجميع ما هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ، ومن قتل مشركاً فله الجنة.

خامساً : حكم الشيخ وأتباعه بكفر الأمة منذ ستمائة عام.

سادساً : استحلال دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم.

سابعاً : انتهاكهم حرمة النبي ﷺ بارتكابهم أنواع التحقير له ولمن أحبه.

ثامناً : قوله عن الشيخ وأتباعه : كانوا إذا أراد أحد أن يتبعهم على دينهم طوعاً أو كرهاً يأمرونه بالإتيان بالشهادتين أولاً ثم يقولون له اشهد على نفسك أنك كنت كافراً ، أو اشهد على والديك أنهما ماتا كافرين ، واشهد على فلان وفلان أنه كان كافراً ويسمون له جماعة من أكابر العلماء الماضين ، فإن شهدوا بذلك قبلوهم وإلا أمروا بقتلهم. وإن كان الداخل معهم قد حج حجة الإسلام فحجته باطلة لأنه كان مشركاً.

تاسعاً : ولع الشيخ في أول أمره بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسي ، وطليحة الأسدي وأضرابهم.

عاشراً : قوله عن الشيخ : كان يضمر في نفسه دعوى النبوة ولو أمكنه إظهار النبوة لأظهرها ، وكان يقول لأصحابه : إني أتيتكم بدين جديد ، ويظهر ذلك من أقواله وأفعاله.

حادي عشر : طعن الشيخ في مذاهب الأئمة وأقوال العلماء.

ثاني عشر : عدم قبوله من دين الإسلام إلا القرآن ظاهراً ويؤوله هو وأتباعه حسب مرادهم.

ثالث عشر : رده لأحاديث النبي ﷺ وأقاويل الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين.

رابع عشر : رفضه للإجماع والقياس الصحيح.

خامس عشر : ادعاؤه الانتساب الى مذهب الإمام أحمد كذباً وتستراً وزوراً والإمام أحمد منه بريء .

سادس عشر : كان الشيخ يأمر أتباعه بحلق رؤوس النساء اللاتي يتبعنه.

سابع عشر : قول العلماء في رواية (قرنا الشيطان) في الحديث [١] أنهما مسيلمة الكذاب وابن عبد الوهاب.

ثامن عشر : وضع دحلان وغيره من طغام المبتدعة عدة أحاديث في الشيخ و أتباعه في الطعن والتنفير عليهم. كحديث «سيخرج في ثاني عشر قرناً في وادي بني حنيفة رجل كهيئة الثور لايزال يلعق براطمه يكثر في زمانه الهرج والمرج . .» إلخ ذلك الحديث المختلق وغيره من الأحاديث المكذوبة المفتراة على رسول الله ﷺ [٢] .

تاسع عشر : ترديده بأنه من المحتمل أن يكون الشيخ من عقب ذي الخويصرة التميمي الذي جاء فيه حديث البخاري عن أبي سعيد الخدري[٣] لأن الشيخ من تميم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي. باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن برقم : ٤٣٨٧ (الفتح ٩٨/٨). ورواه مسلم برقم : ٥١ كتاب الإيمان. باب تفاضل أهل الإيمان فيه ٧١/١ ولفظه : «أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن فقال : «ألا إن الإيمان هاهنا. وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل. حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر».

(٢) الدرر السنية في الرد على الوهابية ص٥٥ أحمد بن زيني دحلان . ط٤ . ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . مطبعة البابي الحلبي. القاهرة.

(٣) الحديث : بينما النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه. قال : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

رواه البخاري كتاب استتابة المرتدين. باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس منه برقم ٦٩٣٣ (الفتح ٢٩٠/١٢).

عشرون : قوله : وأما ما نقل عن بعض العلماء أنه استصوب من فعل النجدي الذي جمع البدو على الصلاة ، وترك الفواحش الظاهرة ، وقطع الطريق ، والدعوة إلى التوحيد (١) ، فهو غلط حين حسن فعله ، ولم يطلع على ما ذكرناه من منكراته ، وتكفيره الأمة من ستمائة سنة ، وحرق الكتب الكثيرة ، وقتله كثيراً من العلماء وخواص الناس وعوامهم.

واحد وعشرون : نبش قبور الأولياء وأمره لبعض أتباعه في الأحساء أن تجعل بعض قبور الأولياء محلاً لقضاء الحاجة.

ثاني وعشرون : منع الشيخ زيارة النبي ﷺ(٢)

هذا قليل من كثير مما حشيت به هذه الرسالة ، ولسنا هنا في مقام الرد على ما جاء فيها من مفتريات ، فقد تصدى لذلك الشيخ محمد بشير السهسواني رحمه الله من علماء الهند فكشف عوارها وأظهر زيفها وبطلانها في كتابه «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان»

وبقدر ما يستغرب القارئ عظم هذه المفتريات ، وفداحة هذه المكذوبات فإنه سيصاب باستغراب أكبر حين يرى هذه المفتريات والإشاعات تنتشر في طول البلاد الإسلامية وعرضها ، فيتلقفها العلماء قبل العامة على أنها حقائق مسلمة ، ويعمل أهل البدع على تضخيمها ونشرها فيصدقها الناس في كل مكان إلا من رحم الله ، فتثور ثائرتهم وتتحد كلمتهم (٣) في صدّ هذه الدعوة والوقوف في وجهها ، ومحاربتها ، والتضييق عليها.

وقد تولت الدولة العثمانية رسمياً حرب هذه الدعوة السلفية في جميع المجالات العسكرية والفكرية والإعلامية، وتسابق العلماء في رحابها في الرد على هذه الدعوة، والنيل منها، لعلمهم أن هذا وأمثاله مما تقر به أعين الدولة ويرضي حكامها. وقد تألب أهل البدع على اختلاف طوائفهم من متصوفة ومتكلمة ومتمذهبة وغيرهم ، واستطاعوا في ظل هذه الدولة أن ينالوا من أهل السنة والجماعة، ويتطاولوا عليهم بالإيذاء مع قلة عددهم وضعف حيلتهم وهوانهم على الناس وغربتهم بينهم.

وما كادت شمس القرن الثالث عشر تشرق على العالم الإسلامي حتى غدت دعوة التوحيد التي جدد أمرها الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب منبوذة ومحاربة في شتى الأقطار ، وأضحت كلمة

---

(١) وهذا دليل على انتشار الدعوة وتأييد بعض العلماء لها ، وانزعاج دحلان وغيره من المبتدعة من هذا الانتشار والتأييد.

(٢) هذه المفتريات منقولة عن رسالة دحلان السابقة ص٤٢ ـ ص٥٨.

(٣) اتحدت كلمة أهل البدع على شدة الخلاف بينهم ضد أهل الدعوة حيث تألب عليهم المتصوفة والمتكلمون والمتمذهبون على اختلاف طرقهم وفرقهم ومذاهبهم.

«الوهابية» تهمة خطيرة يطلقها أرباب البدع والخرافة ضد كل داعية إلى الإصلاح والعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح من عقيدة وصراط مستقيم. وقد كانت هذه التهمة كفيلة بنبذ من أطلقت ضده ، ووسيلة سهلة لاستعداء رجال السلطة والحكم عليه ، وإنزال ما عنَّ لهم من عقوبات وإيذاء.

فهذا الشيخ محمد بهجت الأثري يقول عن شيخه العلامة محمود شكري الألوسي : وهتف مع شدة وطأة الاستبداد الحميدي بضرورة تطهير الدين من أوضار البدع التي طرأت عليه ونبذ التقليد الذي هو علة العلل في انحطاط المدارك والأفكار ، وشن الغارات الشعواء على الانحرافات المتأصلة في النفوس والتقاليد السخيفة التي شب عليها القوم وشابوا ... فغاظ ذلك أصحاب العمائم المكورة ... وصاروا يشنعون في مجالسهم وينبزونه بوهابي وهي كلمة ينفر منها السواد الجاهل حيث توحي إليه أبالستهم زخرف القول زوراً ، ويذكرون لهم عن الوهابي أنه منكر للرسل وعدو لجميع المسلمين يريق الدماء ويستحل الحرمات. (١)

ففي العراق كان العلامة محمود شكري الألوسي يحمل على أهل البدع كما قدمنا ، فعاداه أرباب البدع وسعوا به لدى والي بغداد عبد الوهاب باشا فكتب إلى مرجعه السلطان عبد الحميد الثاني ، فصدر الأمر بنفيه من بغداد إلى بلاد الأناضول ، فأخذه وابن عمه والحاج حمد العسافي النجدي مخفورين وما كادوا يصلون الموصل حتى قام أعيانها وسعوا لدى السلطان عبد الحميد حتى سمح له بالعودة إلى بغداد. (٢)

وفي بغداد أيضاً أوذي الشيخ علي علاء الدين الألوسي المتوفي ١٣٤٠هـ وكان الجامدون من فريق المقلدة يشنعون عليه وينبزونه «بالوهابية». (٣)

وفي الموصل كان الشيخ «ملا أحمد بن الكولة» من المصلحين الذين جاهروا بالدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ونبذ الخرافات والبدع، وقد تألب عليه المشايخ وأصحاب الطرق وشكوه إلى والي الموصل الحاج حسين باشا الجليلي، ورغم إلحاحهم على الوالي وإصرارهم على أذية ابن الكولة، فإنهم لم يثبتوا أمام حججه القوية ، فتركوه وشأنه ، واستمر في دعوته حتى توفي سنة ١١٧٠هـ .

وكان ابنه «ملا محمد» قد سار على نهج والده في الإنكار على المبتدعة ، فتألب عليه الناس وسافر إلى بغداد وديار بكر وتقلد القضاء فيها ، كما تقلد القضاء في الموصل ، وكان كلما حل في مدينة جاهر بدعوته إلى الحق ، فيلاقي مقاومة عنيفة ويبقى صابراً محتسباً. ويروي ياسين بن خير الله

(١) أعلام العراق ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق ص ١٠١.
(٣) المصدر السابق ص ٧٢.

الخطيب العمري عنه أنه كان يؤيد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ويدعو إليها في الرجوع إلى الكتاب والسنة . (١)

وفي بلاد الشام أوذي الشيخ عبد القادر بن مصطفى الشهير بابن بدران الحنبلي (المتوفي سنة ١٣٤٦هـ) (٢) لما أنكر على بعض المتصوفة ما يبثونه في الناس من خرافات وسخافات ورموه بأنه زنديق وأنه وهابي. (٣) وكما يقول أحدهم : وإنه ليؤلك كثيراً أن تعلم أن هذا الفاضل الراحل قد توفى في مدرسة من مدارس الأوقاف في غرفة حقيرة ، وأن الألم ليزداد في نفسك إذ تعلم أن جنازة هذا العالم الشيخ بدران لم يمش وراءها أديب أو عالم أو لم يحس بها أحد على الأرجح. تلك هي حالة هذا العالم الأديب عاش شريفاً فقيراً ومات كما عاش. (٤)

وقد كانت كتب العقائد السلفية ومؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية محظورة وممنوعة في الدولة العثمانية ، وكذلك كل كتاب يرون فيه شائبة الوهابية. وحتى ندرك شدة كراهية الأتراك للدعوة السلفية نسوق القصة الآتية التي وقعت في الربع الأول من القرن الرابع عشر في مكة المكرمة :

فقد نمى إلى عثمان باشا والي الحجاز في عهد العثمانيين أن كمية من الكتب السلفية (الوهابية) وردت باسم أحد الوهابيين المجاورين في مكة من الهند ، وفي الحال أصدر أمره بإحضار صناديقها إلى مقر الحكومة ووضع عليها حراساً ، ولما علم الحراس أن الصناديق بها كتب وهابية أخذوا يقفون عليها ويضربونها بأحذيتهم، وفي يوم من الأيام قرر عثمان باشا البت في مصير تلك الكتب فأحضر عنده شيخ الإسلام العثماني والقاضي التركي ونفراً من الهنود المعروفين بميلهم إلى الوهابية ، ولما فتحت الصناديق وجدت فيها كتب مؤلفة باللغة الفارسية والأردية للشيخ صديق حسن ومؤلفين آخرين في الهند. ثم دعوا ترجمان ليقرأ لهم اسم الكتاب واسم المؤلف حيث يأخذ شيخ الإسلام التركي الكتاب من الترجمان بواسطة منديله الحريري خشية أن تلمس أصابعه غلاف الكتاب ويسلمه للباشا الذي يقوم بتقليبه بين يديه ويقرأ اسم الكتاب واسم المؤلف في سخرية واستهزاء ثم يمسكه بيديه ويمزقه شر تمزيق ويلقيه أمامهم ويأخذ غيره ، واستمر كذلك حتى أتى على جميع ما في الصناديق من الكتب القيمة ومزقها ، ولم يبق من كل الكتب غير نسخة واحدة من كتاب «بلوغ المرام». (٥)

---

(١) من مقدمة ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء ص ٢٦ لسعيد الديوه جي .

(٢) الأعلام ٣٧/٤ .

(٣) وتعني كلمة وهابي جميع ما ذكره الزيني دحلان من مفتريات وأكاذيب.

(٤) منتخبات تواريخ دمشق ص ٧٦٣ محمد أديب الحصني. وقد حاول بعضهم الاعتذار بأنه لم يعلم بوفاته أحد. ولكن أهل البدع والتصوف والتعصب قطعوا الطريق على كل معتذر.

(٥) ذكريات ص ٢٥. أحمد علي. الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ. منشورات نادي الطائف الأدبي.

وحسبنا أن الشيخ محمود شكري الألوسي لما قام بتأليف كتابه (غاية الأماني في الرد على النبهاني) وأراد أن يطبعه في مصر لم يتمكن من وضع اسمه على الكتاب ، بل كتب : تأليف أبي المعالي الحسيني السلامي الشافعي لئلا يتضح اسمه خوفاً على نفسه ، وذلك أن العلماء السلفيين في ذلك العصر كانوا يخافون على أنفسهم في معارضة أهل البدع والخرافيين ، ومن جملة الأسباب لذلك أن السلطان عبد الحميد الثاني قد قرب المشايخ من أهل الطرق من الصوفية وأنصار البدع ، فلذلك خاف الشيخ محمود شكري من إظهار اسمه على الكتاب وكذلك صاحب المطبعة فرج الله زكي خاف على نفسه ، ولم يذكر اسمه إلا رمزاً (ف ، ج ، ز) ولا اسم مطبعته ولا البلد التي فيها المطبعة. ومع ذلك فلم يتمكنوا من توزيعه إلا عندما أخذت الدولة العثمانية بالقوانين الوضعية الأوربية ، وأعلنت الدستور ، وكان الدستور يقضي بحرية العقائد والأديان ، فعند ذلك تم توزيع الكتاب. (١)

وفي مكة أوذي الشيخ أبو بكر بن محمد خوقير مفتي الحنابلة (المتوفي سنة ١٣٤٩هـ)(٢) ونكب في أيام الشريف حسين بن علي فحبس ثمانية عشر شهراً ، ثم نحواً من سبعين شهراً (سبع سنين وثلاثة أشهر) لمعتقده السلفي ، وإنكاره على عباد القبور والأضرحة ، ولم يزل مسجوناً حتى دخل الملك عبد العزيز مكة فاتحاً وأخرجه من سجنه. (٣)

وفي حماة في بلاد الشام لما أنكر الشيخ حسن الرزق المتوفي ١٣٣٠هـ البدع وحاربها ودعا إلى الإصلاح ثار أدعياء العلم فأثاروا عليه العامة باسم الدين ، واضطرت الحكومة إلى زجه في السجن يومين ، تسكينا لهياج الرعاع سنة ١٣٢١هـ ، ومنعت الناس من مخاطبته ومجالسته. فأقام لا يختلط بالناس عاماً كاملاً. (٤)

وفي تونس ألف الشيخ إبراهيم الرياحي (المتوفي ١٢٦٦هـ) (٥) رئيس المفتين في تونس رسالة في الرد على الوهابية. (٦)

---

(١) انظر ذلك في ترجمة الألوسي في مقدمة الكتاب المذكور، والترجمة للشيخ محمد عبد الله السبيل ص ١١. المطبعة العربية. لاهور سنة ١٤٠٢هـ /١٩٨٢).

(٢) الأعلام ٢/٧٠.

(٣) الأعلام ٢/٧٠.

(٤) المصدر السابق ٢/١٩٠.

(٥) الأعلام ١/٤٨.

(٦) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٢٨٩ محمد بن محمد مخلوف. دار الكتاب العربي. بيروت.

وفي بلاد المغرب كان الشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي (المتوفي ١٣١٥هـ) [١] شديداً على أهل البدع ، شديد الإنكار عليهم ، منددا بالطوائف وأرباب الأهواء الذين أدخلوا في الدين الإسلامي ما ليس منه ، حتى شوهوا وجهه معتقداً أن كل تأخر حل بالإسلام والمسلمين إنما أتى من هاته النزعات والبدع. وقد وقع له مع بعض الطوائف ماوقع إذ كان يندد بهم ، وينكر عليهم في دروسه التفسيرية بسلا ، فشكوه إلى سلطان المغرب المولى حسن الأول وورد عليه مكتوب يطالبه بالتخفيف من ذلك ، شيء جعل الطوائف تشمت به ورغم هذا كله فلم يزده تشبثه بالسنة والذود عن حياض المبادىء الصحيحة إلا قوة وثباتا. [٢]

وفي ولاية قزان [٣] في روسيا كان الشيخ العلامة المحقق عبد النصير أبو النصر ابن إبراهيم القورصاوي المتوفي ١٢٢٧هـ [٤] متبعاً لمذهب السلف مجافياً لما أحدثه الخلف. يظهر عقيدته ومذهبه دون مبالاة منه لكثرة الجهال والمقلدين والجامدين.

وعندما سافر إلى بخارى سنة ١٢٢٣هـ وجاهر بمخالفة البدع ودعا إلى العمل بالكتاب والسنة قام عليه علماء بخارى وكفروه ورفعوا أمره إلى الأمير حيدر بن معصوم البخاري وحرضوه على قتله. فدعاه الأمير وجمع العلماء المذكورين فحصلت المناظرة بينهم فحكموا بابتداعه بل بكفره ووجوب قتله إن لم يرجع عن مذهبه ، فلما رأى أن لا خلاص منه ولا مناص إلا بالتوبة والرجوع عن مذهبه أظهر التوبة في الظاهر عن مذهبه ، وفي الحقيقة تاب عما يجب منه التوبة ، وقرأ متن العقايد النسفية من أوله إلى آخره وقال إن معتقده هو هذا. فاطلقوا سبيله وأمروا بإحراق كتبه الموجودة وأمروا منادياً ينادي بصورة الحادثة وبأن من يوجد عنده [٥] شيء من كتبه المؤلفة ، ولم يأت به لدار القضاء والإمارة يكون دمه هدراً. ومع ذلك قيل إن الأمير حيدر كان يندم على عدم قتله. [٦] وفي بلاد الهند كانت الدعوة السلفية تلقى مقاومة من رجال الطرق والمبتدعين هناك.

وقد قاد تلك المقاومة أحمد رضا البريلوي وألف كتاباً أسماه : «الكواكب الشهابية في كفريات أبي الوهابية» قال فيه على سبيل المثال لا الحصر : «إن الوهابية وزعماءهم كفرة لوجوه كثيرة ،

---

(١) الأعلام ١/١٢٠.

(٢) من أعلام الفكر المعاصر ١/١٢. عبدالله الجراري.

(٣) وتلفظ : قازان أيضاً وتقع في حوض الفلغة شرقي روسيا الأوربية وهي ذات حضارة إسلامية عريقة. انظر : المسلمون في الاتحاد السوفيتي ص ٢٧ محمد إسماعيل.

(٤) من أهل قورصا التابعة لولاية قزان.

(٥) في الأصل : يوجد فيه وهو خطأ.

(٦) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ٢/٤١٧ تاليف م. م. الرمزي. الطبعة الأولى. ١٢٢٥هـ المطبعة الكريمية والحسينية ببلدة «اورنبورغ».

ونطقهم بالشهادة ليس ينافي الكفر»[١] وقال : «إن الطائفة الوهابية ثبت كفرهم بآلاف الوجوه والأسباب» . وقال «إن الوهابيين مرتدون ومنافقون لأنهم يتظاهرون بالإسلام وبالشهادة» وقال «إن الوهابيين أرذل من إبليس وأفسد منه وأضل ، لأن الشيطان لا يكذب وهؤلاء يكذبون».

وقال : «إن الوهابيين أخبث وأضر من الكفرة الحقيقيين من اليهود والوثنيين وغيرهم».

وقال عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ابن تيمية كان يهذي جزافاً وأفسد نظام الشريعة، وأنه مبتدع ضال.

وقال : إن الشوكاني عقله ناقص مثل متأخري الوهابية وكان فاسد المذهب. [٢] إلى غير تلك الهراءات والسخافات التي أخذ ينفثها هذا المصدور ضد دعاة أهل السنة والجماعة.

ولعل ذروة هذه المقاومة العنيفة التي شنها الطرقية والمبتدعة ضد الحركة السلفية في الهند هي التآمر والخيانة ضد رجالها وحملتها هناك.

فعندما قام الشيخ أحمد بن عرفان الشهيد المتوفي ١٢٤٦هـ بحركته المعروفة ودعا إلى نبذ البدع والخرافات، وأقام دولة على هذا الأساس، وأعلن الجهاد في سبيل الله، وحقق عدة انتصارات.

وبينما كان الشيخ رحمه وجيشه يخوضون معركة حامية مع جموع السيخ المتآمرة مع المحتلين الإنجليز في تلال بالاكوت عام ١٢٤٦هـ. انخذل عدد من القبائل المسلمة عن أرض المعركة ، وخانوا الشهيد رحمه الله في أحرج الأوقات ، نتيجة لتواطئهم مع السيخ ، كل ذلك وقع لاتهامه بالوهابية. وأسفرت المعركة الغادرة عن مقتل الشيخ وكثير من أنصاره ، لينتصر الوثنيون السيخ ، ويجثم الاحتلال الإنجليزي بعد ذلك قرابة قرن وربع قرن على أرض الهند. [٣]

يقول الشيخ عبد الحي الحسني عنه : «فأحيا كثيراً من السنن المماتة ، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات ، فتعصب أعداء الله ورسوله في شأنه وشأن أتباعه حتى نسبوا طريقته إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي ولقبوهم بالوهابية. ورغبوا إلى الكفار وصاروا أوليائهم في السر حتى انحازوا عنه في معركة «بالاكوت» فنال درجة الشهادة العليا وفاز بين أقرانهم بالقدح المعلى ، وبلغ منتهى أمله وانقضى أجله في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف. [٤]

---

(١) على النقيض من مذهب المرجئة الذي يدين به غالب هؤلاء المبتدعة.

(٢) نقلاً عن : الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية ص ٢٤٣. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة. جامعة أم القرى. ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧هـ لعبد الوهاب خليل الرحمن.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٦. وانظر : أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد ص٦٩ لسعيد الأعظمي ، دار القلم ، دمشق ط٢ ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨ م .

(٤) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢١/٧ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدر آباد الدكن. الهند. ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م.

وقبل ذلك دس بعض هؤلاء المبتدعة السم للشيخ المجاهد في عشائه ، ولكن الله نجاه منه بعد أن أغمي عليه بضعة أيام. (١)

وكان دعاة الشيخ أحمد بن عرفان قد كفرهم العلماء المبتدعون في عصرهم كما فعل بالشيخ محمد علي الرامبوري (المتوفي ١٢٥٨هـ) حيث كفروه وأحرقوا «تقوية الإيمان» للشهيد إسماعيل الدهلوي ، وسعوا به إلى الحكام فأمروا بجلائه عن مدراس. (٢)

ويذكر الشيخ محمد السنوسي أنه اجتمع بالشيخ رحمة الله الهندي (المتوفي سنة ١٣٠٦هـ) (٣) في مكة المكرمة في ٢٩ ذي القعدة عام ١٢٩٩هـ وقال : وبالمناسبة سألته عن السلطان حسن صديق صاحب التفسير والتآليف الأخيرة التي نشرت بالمطابع الهندية والشرقية على ما يتراءى في أثنائها من خرق سياجات المجتهدين والاقتصار على ما يصل من الحديث ونحو ذلك مما يدل على عقلية الرجل. فأخبرني أنه رئيس الوهابية (٤) ولا يجلس في مجلسه إلا من يشتم الأئمة الأربعة. (٥) وقد تصدى كثير من سنيي علماء بلاده (٦) وغيرها من البلاد الهندية للرد عليه بتآليف نشرت في المطابع الهندية. فكشف لي بذلك عن الضمير المستكن. (٧)

وقبله كان الصوفي الشهير أحمد بن إدريس (المتوفي بصبيا سنة ١٢٥٣) (٨) يكره الوهابيين ، ويحمل عليهم وعلى عقيدتهم حملات شديدة يوم كان في أم القرى. (٩)

ومع هذه الحرب الشرسة التي شنها المبتدعة على الدعوة السلفية وأتباعها خفتت أصوات كثير من العلماء والمصلحين عن مقاومة ما تموج به المجتمعات الإسلامية من بدع وخرافات وانحرافات ، بل ربما تلبس بعضهم بها خشية الأذى من جماهير البدعة الهوجاء.

يقول الشيخ محمد المجذوب : «وإذا البدع التي تلتهم عقائد العامة هي التي تفرض نفسها على

---

(١) تاريخ الإسلام في الهند ص ٤١٩ عبد المنعم النمر. الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م. دار العهد الجديد للطباعة . القاهرة.

(٢) نزهة الخواطر ٤٥٤/٧.

(٣) الأعلام ١٨/٣. ومؤسس المدرسة الصولتية في مكة المكرمة .

(٤) وتلك تهمة تكفي في عقولهم إسقاط منزلة وعدالة من وصم بها.

(٥) وهذا كذب واضح ، والمعلوم من سيرة صديق حسن خان غير هذا.

(٦) يقصد المتكلمين على مذهب الماتريدي ، والأحناف المتعصبين.

(٧) الرحلة الحجازية ١٠٩/٢ لمحمد بن علي السنوسي. والسنوسي هو الآخر على مذهب الأشاعرة في الأصول وعلى مذهب المالكية في الفروع. ووافق شن طبقه .

(٨) الأعلام ٩٥/١. وهو مؤسس الطريقة الإدريسية الأحمدية .

(٩) تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ١١٥. عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني. مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

شيوخ المسجد ، حتى لا يجرؤ هؤلاء على مخالفتها وإعطاء حكم الشريعة فيها ، خشية أن ينبذوا بالوهابية والسلفية .. ونحو ذلك من الألقاب». (١) .

وحين أراد بعض المصلحين منع ما يسمى بالأغاني الدينية وتسبيحات الفجر التي تؤرق النائمين ، ثار الناس واتهم هذا المصلح بأنه يريد منع المؤذن من توحيد الله.

ثم يعقب على ذلك بقوله : «وانتبه إلى هذا الزعم الخبيث الذي يتهم المصلحين بأنهم يريدون منع الناس من التوحيد! أنه الحجة نفسها التي يلقيها الشيطان على ألسنة الغوغاء عندما حين يتهمون المصلحين ببغض الرسول ﷺ لا لسبب سوى أن هؤلاء يدعون إلى الوقوف بالأذان عند صيغته النبوية دون تزيد، فلا يجهر المؤذن بغير ألفاظه التي جاءت في عصر النبوة .. فإذا هؤلاء يضجون ويصرخون: يا غارة الله! .. إن أولئك يريدون منع الناس من الصلاة على الرسول ﷺ. (٢)

وهذه شنشنة يعرفها أهل السنة والجماعة من أنصار البدع وناشري الخرافة فإذا قيل إن المولد بدعة ، وإن التوسل بالرسول ﷺ حرام ، وإن الرحال لا تشد إلا لثلاثة مساجد ، ولا يجوز أن تشد إلى القبور حتى ولو كان ذلك قبر النبي ﷺ. تصايح المبتدعة في كل مكان هاتفين : إن هؤلاء يبغضون النبي ﷺ. وقد رأينا حين أبطل أهل الدعوة البدع في الحج كيف هتف المبتدعة في كل مكان وتعالت صيحاتهم قائلين : إن الوهابية يمنعون الناس من الحج وهكذا حوربت عقيدة السلف حرباً لا هوادة فيها ، وشن عليها المبتدعة هجوماً عنيفاً واستطالوا على أتباعها وتعدوا عليهم بألوان من الإيذاء.

فقد رأينا كيف أمر بنفي بعضهم ، وهجر فريق منهم ، وسجن طائفة أخرى منهم ، واستحلال دمائهم ، وإجبارهم بحد السيف على التراجع عن معتقدهم وأخيراً التآمر والخيانة والتواطؤ مع الكافرين ضدهم. حتى أصبحت عقيدة السلف الصالح في القرنين الماضيين غريبة عن واقع المسلمين وأحوالهم الدينية ، محاربة في غالب الأقطار والبلدان.

ونتيجة لما جوبهت به دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله من صد ورفض وإعراض وللموقف السلبي والسيء الذي وقفه السواد الأعظم من المسلمين ، أغلقت على المسلمين أبواب من الخير كانت جديرة بانتشالهم وإخراجهم مما هم فيه من هوة وتخلف ، وكفيلة بإصلاح أوضاعهم ، وجعل الأمة تستيقظ من سباتها الطويل وتتقي مؤامرات الأعداء ومخططاتهم التي تهدف إلى القضاء عليها. ولكن ذلك لم يكن ليحدث بسبب سيادة أهل البدع وتسلطهم على الناس ، فكان لذلك الصد العنيف تأثير كبير في زيادة التخلف والهبوط ، وانزلاق الأمة في دركات الجهل والضعف والفرقة.

---

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٢. ط ١٣٩٠هـ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٨.

وإن مما يزيد في حسـرة المسلم أن يرى أنه في الوقت الذي كانت تحارب فيه هذه الدعوة ، وتتألب ضدها جماهير الأمة ، ويصدها العلماء قبل العوام ، كانت أوربا الصليبية تعد عدتها ، وتجهز جيوشها لغزو العالم الإسلامي والسيطرة عليه. وقد نجحت بالفعل في تحقيق أهدافها وذلك للأحوال العقدية والدينية المتردية التي كان من أشدها تلك المقاومة العنيفة التي لاقتها الدعوة السلفية في مطلع العصر الحديث.

* * *

الفصل الخامس: هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على علماء العقيدة ومؤلفاتها

يعتبر الخليفة العباسي المأمون (المتوفي سنة ٢١٨هـ) أول من أدخل الفلسفة اليونانية إلى المسلمين، وفتح الباب على مصراعيه لدخول هذه الانحرافات الفكرية إلى الأوساط العلمية في الأمة الإسلامية التي كانت ترد مورداً عذباً واحداً هو الكتاب والسنة، فتعكر ذلك المورد الصافي، فكان لذلك أعظم الأثر في حياة المسلمين.

«وتشير رواية إلى أن المأمون هو الذي طلب من صاحب جزيرة قبرص خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد، فأشار عليه خواصه بإجابة المأمون إلى طلبه بهدف إحداث الفتن بينهم. فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها».(١)

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح، فقد وقع ما جاء في فحواها من تيقن الإفساد والدمار الذي تحدثه هذه السموم الفكرية. وجنت الأمة المسلمة ثمار ترجمتها ودفعت الثمن غالياً. ولذلك انتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله المأمون على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم الفلسفية بين أهلها.(٢)

ومن عجائب الأمور أن حركة الترجمة هذه كان قد تولى العمل بها والإشراف عليها أناس ليسوا بمسلمين، من يهود ونصارى ومجوس وطوائف شتى. فما عسى أن تكون النتيجة حين أسندت حركة الترجمة إلى تلك الطوائف الحاقدة على الإسلام التي انطلقت في ظل رعاية الدولة وفي كنف تشجيعها تتبارى في إخراج تلك السموم من مكامنها لحقن فكر المسلمين وعقولهم بها؟

وبصرف النظر عن صحة الرواية التي أشارت إلى طلب المأمون لفلسفة اليونان وإرسال حاكم قبرص إياها له بغية الإفساد والوقيعة بين العلماء، فإن تهافت هؤلاء المترجمين من أعداء الإسلام على القيام بترجمة هذه الفلسفة ليؤكد لنا أن هناك مؤامرة خفية أو اتفاقاً على الأقل بين هذه الفئات الحاقدة لتدمير المسلمين من الداخل، وغزوهم فكرياً بهذه السموم الخطيرة.

---

(١) الإسلام والمذاهب الفلسفية ص ٩٧. د. مصطفى حلمي. دار الدعوة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) المصدر السابق ص ٩٨ - بدأت حركة الترجمة من أيام خالد بن يزيد بن معاوية ت ٨٥هـ ثم في عهد أبي جعفر المنصور ثم في عهد الرشيد حيث توسع فيها يحي بن خالد بن برمك، ثم ازدهرت في عهد المأمون الذي أشرف عليها بنفسه وسخر إمكانات الدولة لصالحها حتى إن المترجم ليأخذ عدل ما ترجمه ذهباً. فهو الأول حقيقة وعملاً لأن الترجمة قبله شيء لا يكاد يذكر بالنسبة لما وقع في عصره.

وقد تكفل المأمون بتبني حركة الترجمة لهذه اللوثات الفكرية «وحث الناس على دراستها. وفي عهده نالت هذه المؤلفات رواجاً عاماً ، ونالت الفلسفة ازدهاراً كبيراً ، وأقبل الشباب هم الآخرون على اتقان هذه المواد ، وجاء به كل كهدية إلى بلاط المأمون السخي، وأكرموا بالجوائز والصلات والمناصب العالية ، وهكذا فإن الدولة العباسية أصبحت منافسة للدولة الرومية في هذه العلوم ، وقد ظل عمل الترجمة هذا مستمراً إلى ما بعد المأمون حتى القرن الرابع الهجري تقريباً».(١)

ومع أن حركة الترجمة شملت غالب مؤلفات فلاسفة اليونان كأرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس ، إلا أن كتب أرسطو هي التي نالت القبول والإعجاب في أوساط العالم الإسلامي العلمية أكثر من غيره. «ولعل من سوء حظ العالم الإسلامي أنه لم يحظ من فلاسفة اليونان إلا بمن كان أبعد وأجهل من الجميع في تفهم روح الأديان السماوية ومفاهيمها وحقائقها ، وكان أكبر داعية للفكرة المادية ومن كبار أنصارها ومؤيديها».(٢)

هذا ولقد عورضت هذه الفلسفة في بادىء الأمر ، وتصدت طائفة من العلماء للرد عليها خلال عدة قرون ، ولم يأل علماء السنة والجماعة جهداً في محاولة دحرها غير أن هذه الفلسفة كانت قد استحوذت على مشاعر الكثيرين من العلماء وعقولهم. ولم يكد يطل القرن الثامن الهجري على العالم الإسلامي حتى غدت للفلسفة والمنطق اليونانيين الهيمنة على جميع الأوساط العلمية فيه. «وكان يعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يفهم المرء مسائلهما وبحثوهما ، ولم يكن لأحد أن يتجرأ على القول بإزائهما أو ضدهما ، ولم يكن المحدثون والفقهاء فرسان هذا الميدان ، وجل ما كان يسعهم هو أن يفتوا بحرمتها ، إلا أن هذا السيل ما كان يقف بهذا ومثله من الأعمال ، فقد كان العالم الإسلامي يعيش تحت ضغطهما».(٣)

وبالرغم من إجماع سلف الأمة على ذم الكلام وأهله والتحذير منه حتى قال الشافعي رحمه الله : «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ، ويحملوا على الإبل ، ويطاف بهم في العشائر ، وينادى عليهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».(٤) إلا أن كثيراً ممن جاء بعدهم ألقوا بذلك التحذير عرض الحائط ، وأخذوا يقبلون بنهم على ما حذرهم منه سلفهم الصالح من تلك العلوم الضارة ، حتى خلفوا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وراءهم ظهريا.

وأصبح العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه يموج بالفلسفة والمنطق وبعلم الكلام الذي حاول أربابه أن يخلطوا قواعد المنطق والفلسفة بالكتاب والسنة فجاءوا بهجين بعيد عن روح الإسلام وتعاليمه كل البعد.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام. الجزء الثاني. شيخ الإسلام ابن تيمية ص ١٦٣. دار القبلة. الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤. وسوء الحظ هنا من باب أن بعض الشر أهون من بعض ، وإلا فمن سوء الحظ أصلاً ترجمة هذه الفلسفات العقيمة على اختلافها وتفاوت انحرافاتها.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٩/١٠. وذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن السلف قد اتفقوا على ذم الكلام والمتكلمين وصنفوا في ذلك مصنفات. وذكر من هؤلاء السلف الشافعي وأحمد بن حنبل ومالكاً وأبا يوسف . انظر كتاب «النبوات» ص ٨٥. دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

وقد جاء شيخ الإسلام ابن تيمية في عصر سادت فيه هذه الفلسفات والمنطق وعلم الكلام، وأصبحت مهيمنة على أنحاء العالم الإسلامي على اتساعه يتوارثها المسلمون جيلاً بعد جيل على أنها من العلوم المقدسة والمعارف المحترمة «ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقد صريح واستعراض علمي حر للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحة الستار عن مواضع ضعفها العلمية، وقد أنجز حاجة الساعة هذه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقام بنقد الفلسفة اليونانية ومحاسبتها العلمية مؤيداً بحوثه بالدلائل والبراهين، وناظر أرسطو مناظرة علمية وجهاً لوجه، ذلك الذي كان علماء الفلسفة يعتبرونه شخصية فوق مستوى البشر وغنية عن النقد والرد».(١)

لقد بذل شيخ الإسلام رحمه الله جهوداً عظيمة في نقد هذه التيارات المنحرفة عند المسلمين فنقد الفلسفة وعلم الكلام والمنطق، وتصدى بالردود القوية على أشياع هذه التيارات، ووجه الأنظار إلى المنهج الرباني الذي يجب على المسلمين أن يتجهوا إليه ولا يلتفتوا إلى غيره.

وقد كانت هذه المحاولة الفريدة من شيخ الإسلام جديرة بإنهاض المسلمين من كبوتهم التي أوقعهم فيها سلوك هذه التيارات، وإرجاعهم إلى الصراط المستقيم الذي ابتعدوا عنه كثيراً، ولكن شاء الله تعالى ألا تثمر هذه المحاولات إلا بعد حين من الدهر.(٢) واستمر المسلمون بعد ابن تيمية على نفس السبيل التي نابذها وقاومها، يقبلون عليها، ويقدسونها، دائبين في الإعراض عن المنهج القرآني وجمد المسلمون في القرنين الماضيين على ما كان متداولاً في القرون التي هيمنت عليها هذه التيارات الفلسفية والمنطقية والكلامية.

واستطاع أنصار هذه التيارات أن يغلقوا الأبواب في وجه الدعوة التي حملها ابن تيمية ويصدوها صداً عنيفاً لتظل بعيدة عن واقعهم. وبذلك ساعدوا في إحداث مزيد من الانزلاق الخطير الذي كانت الأمة تهبط فيه وسدوا باباً كان من الممكن أن ينقذ الأمة وينتشلها مما وقعت فيه من دركات.

وحين كانت الفرصة مهيأة مرة أخرى لبعث الجهود التي بذلها شيخ الإسلام ابن تيمية من جديد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه فقد ضاعت للمرة الثانية على أيدي علماء الكلام والفلسفة والمنطق. وقوومت تلك المحاولة مقاومة شديدة كما وضحنا ذلك عند حديثنا عن غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها وفي الفترة التي ندرسها ازداد الأمر سوءاً بعكوف العلماء على مؤلفات هذه التيارات، لا لينتقدوها، بل ليضعوا عليها الحواشي والشروح والتقريرات، ويزيدوا في تعقيدها ونشرها بين المسلمين.

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص ١٦٧.

(٢) وذلك حين قام الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بتجديد الدعوة السلفية التي أوشكت على الاندراس في منتصف القرن الثاني عشر الهجري. وقد كانت الثمرة الأولى لجهود شيخ الإسلام ابن تيمية تلاميذه المتميزين، ثم شاء الله أن تخرج ثمارها العظيمة على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه الذين اعتمدوا كثيراً على التراث العلمي الذي خلفه ابن تيمية وإظهاره للناس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾.

ولم يكن هناك بد للعلماء البارزين في ذلك العصر من الاحتفاء بعلوم الكلام والمنطق والفلسفة ، فبذلك يتصدر في الدروس والوظائف ، ويتفوق على الأقران ، ويكون الظهور والبروز.

فهذا الدردير المالكي المتوفى سنة ١٢٠١هـ شيخ علماء المالكية في الأزهر يصرف كثيراً من نشاطه وجهده في التصنيف في تلك العلوم ولكن على طريقة المتأخرين النائية عن التجديد والابتكار ، والاكتفاء بالحواشي والشروح والنظومات.

فله في ذلك المضمار : نظم الخريدة السنية في التوحيد وشرحها . وله أيضاً شرح مقدمة نظم التوحيد لمحمد كمال الدين البكري، وشرح على رسالة التوحيد من كلام دمرداش. وله التوجيه الأسنى بنظم الأسماء الحسنى.(١)

أما معاصره الشيخ الصبان (المتوفي ١٢٠٦هـ) فله حاشية على شرح العصام على السمرقندية وحاشية أخرى على شرح الملوى على السلم.(٢)

والشيخ محمد بن محمد بن عبد القادر المالكي الأزهري الشهير بالأمير الكبير حاشية على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة ، وحاشية على شرح الملوي على السمرقندية.(٣)

ومن الكتب والمؤلفات التي راجت في ذلك العصر : الشرح الصغير على السلم للشيخ الملوي. شرح الشيخ عبد السلام على جوهرة التوحيد. أم البراهين. شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني. شرح أم البراهين للحفص. مختصر السعد على التلخيص. شرح القطب على الشمسية. إلى غير ذلك.

وقد شغف العلماء بهذه العلوم وما صنف فيها وعكفوا على تدريسها . فهذا الحبيب بن علي البوسليماني السوسي المغربي (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ) عكف زمناً على تدريس «أم البراهين» وشروحها ، وحاشية الدسوقي عليها ، و«شرح الكبرى» للشيخ عليش ، وصنف «شرح السلم» مطول في المنطق.(٤)

وهذا محمد السنوسي لما اجتمع بالشيخ حبيب الرحمن الهندي عام ١٣٠٠هـ بالمدينة سارع لتوه في قراءة كتاب «الهداية الحكمية بشرح المبيدي» وهو متن في المنطق والطبيعي والإلهي ، وابتدأ قراءة الكتاب المذكور ضحوة الاثنين تاسع المحرم ، وجعل الوقت المختص بالقراءة فيما بعد صلاة العشاء. يقول السنوسي : فكنا نستغرق أكثر الليل في الدرس ... إلى أن يسر الله لي ختم الكتاب ... ليلة الجمعة الثالث عشر من المحرم وأنشدته عند الختم قولي :

جزيت حبيب الله عني بخير ما ... يجازى بـه عمن بعلـم تعلـما
أفـدت بإقرائي هدايـة حكمـه ... وتحرير ما فيها بما منك أحكما

---

(١) عجائب الآثار ٢/٨٨.

(٢) المصدر السابق ٢/

(٣) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر٣/١٢٦٨. عبد الرزاق البيطار، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.١٣٨٠هـ تحقيق : محمد بهجت البيطار .

(٤) الأعلام ٢/١٦٦.

بتقريرها طبنا ليالي أربعاً   بها قد ختمناها لديكم تفهما
وإني على ما قد أفدتم لشاكر   لأنك قد أسديت بالعلم أنعما
فلا زلت تهدي من يؤمك طالباً   وهذا مرادي منكم اليوم تمما(١)

ولا ندري كيف تكون الهداية بالمنطق، ومؤكد أنها هداية بعيدة عن هداية الكتاب والسنة.

وحتى تزداد الصورة وضوحاً نضرب على ذلك مثالاً واحداً لنكشف صفحة قاتمة من صفحات تلك الفترة، لنرى إلى أي مدى وصلت الحالة الفكرية، ونرى كيف كان يعايش العلماء قضايا العقيدة ومباحثها.

فقد سئل الشيخ إبراهيم بن محمد التادلي المتوفي سنة ١٣١١هـ عن قول الغزالي: (ليس في الإمكان أبدع مما كان) فأجاب السائل قائلاً: قول الإمام الغزالي رضي الله عنه (ليس بالإمكان أبدع مما كان) كما في السؤال هو بظاهره لا يصلح لأنه يقتضي محالاً كالعجز فيجب تأويله، وباب التأويل واسع يحتمل محامل كثيرة منها - ما يرجع للظاهر كالجري على قواعد علم التوحيد وغيره من العلوم العقلية وعلى قواعد علم العربية وغيره من العلوم الشرعية، ومنها ما يرجع للباطن كعلم الكشف.

والثاني - ليس نحن من أهله(٢)، وأهله لا يتكلمون فيه، بل يشتغلون بما هو أهم منه كالفكر والذكر والصلاة وتلاوة القرآن، ويقولون إن الإنسان مطلقاً تصدر عنه مقالات ظاهرها منكر شرعاً بحيث لو تبدل حال قائله وراجع نفسه - لأنكره كما قيل في قوله تعالى في سورة يوسف حكاية عن نبي الله يوسف عليه السلام: { توفني مسلماً وألحقني بالصالحين } فإن ظاهره مخالف لقواعد التوحيد من عصمة الأنبياء من الصغائر فضلاً عن الكبائر فضلاً عن الكفر فضلاً عن الموت عليه.(٣)

يقول الفقيه: محال الكذب، إلخ وقد أجيب عنه بأجوبة منها:

جواب السيوطي رضي الله عنه: إن صدر منه ذلك السؤال حال استيلاء الخوف عليه حتى ينسى ويدهش عن الجواب والمحال، وهو (والله أعلم) أحسن الأجوبة كما أشار الشهاب على الشفاء في فصل خوفه ﷺ، وكما صدر من قول الحلاج رضي الله عنه: (ما في الجبة إلا الله) ونحو ذلك.

---

(١) الرحلة الحجازية ١٢١/٢.

(٢) والأولى أن يقول: لسنا من أهله للاختصار.

(٣) هذا الاستشهاد لا يسلم لقائله. وليس يقدح في العصمة كما توهم. وقد أجيب على الآية بالوجوة التالية: الأول: أن يوسف عليه السلام سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره. لا أنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين. الثاني: أنه سأل ذلك عند احتضاره كما ثبت قريباً من ذلك عن نبينا محمد ﷺ في مرض موته حيث جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى». الثالث: أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم. والجمهور على القول الأول كما ذكر الشوكاني. انظر: تفسير ابن كثير ٤٩٢/٢، فتح القدير ٥٧/٣. دار الفكر. بيروت. ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م.

واللائق بالكامل أن ينظر في القول وفي قائله إن كان من أكابر العلماء والأولياء كالغزالي وصدر منه كلام ظاهره في بادي الرأي منكر عقلاً وشرعاً ، أن يجريه على حكم المتشابه ، فيصرفه عن ظاهره إجماعاً ثم يقول على مذهب السلف : الله أعلم بمراده.[١] وعلى مذهب الخلف يجريه على قواعد العربية أولاً ، ثم على قواعد العلوم الشرعية كالتوحيد ، وليجتهد غايته في تصحيحه ولا يبادر للإنكار ، فقد قالوا : اعتقد ولا تنتقد ، فإن كان فارغاً من تلك العلوم ـ فليمسك عن الكلام خوف الوقوع في المحظور خصوصاً في مسألة كلامية. فقد عد الإمام السنوسي رضي الله عنه في شرح المقدمات ـ من أوجه الشرك بل من أصول الكفر ـ الجهل بالقواعد العقلية والجهل باللسان العربي فراجعه إن شئت لتكون على بصيرة في ذلك. وإذا رجعنا للقواعد العربية فنتكلم على مفردات هذا التركيب أولاً ثم على مركباته إذ المفرد سابق طبعاً على المركب ، ولأن الحكم على الشيء فرع تصوره لقول السلم : وقدم الأول عند الوضع إلخ ...... فتحتاج إلى استحضار قواعد العلوم العربية الأثني عشر المشهورة أو جلها ـ فتقول : ليس فعل ماض حقيقة في نفس الحال ، وقد تكون للنفي المطلق مجازاً ، فلعل هذا الكلام صدر من الغزالي في حالة فنائه[٢] فقال في الحال : ليس في الإمكان إلخ وتفهم منه أن في غير تلك الحال : يكون في الإمكان أبدع منه ، أو تقول هي للنفي مطلقاً فيجيء الإشكال المتقدم ثم تقول : الإمكان مصدر أمكن الشيء جاز وهو عند المتكلمين ثلاثة كما أشار له الشيخ الطيب شيخ شيوخنا رحمهم الله عند قول المرشد : وجائز اما قبل الأمرين إلخ. فجعلوا الإمكان الذاتي ثلاثة أقسام ، ثم تقول : وهل المراد الإمكان العقلي أو العادل أو الشرعي ، كما ذكره في تقسيم الحكم إلى ثلاثة أقسام ، وأشار إليها في المرشد بقوله : وحكمنا العقلي قضية . ثم تقول أبدع اسم تفضيل من بدع ، وأبدع الله الخلق أوجدهم وخلقهم لا عن مثال. واسم تفضيل يدل على المشاركة والزيادة على أصل الفعل ، وهل النفي مسلط على المقيد وهو أصل الفعل ، أو على القيد وهو الزيادة أو عليهما معاً وما يتعلق بأبدع. وكان مشترك بين معان ، فيكون تاماً وناقصاً ، ويكون بمعنى صار كقوله تعالى : ﴿فكان من المغرقين﴾ كما ذكروه في بحث كان ـ فأنت ترى كم في كل لفظ من الاحتمالات. هذا باعتبار الألفاظ المذكورة ، فإذا جوزنا احتمال الحذف في الكلام أو أوجبناه اتسع الخرق على الراقع ، فقد يحتمل الحذف في أول الكلام أو في وسطه أو في آخره ، وقد يحتمل حذف مضاف أو مضافين

---

(١) بل هو مذهب أهل التفويض والتجهيل. انظر ص ٢٤ القواعد المثلى لابن عثيمين .

(٢) بمثل هذا الانحراف الخطير وغيره من عقائد المتصوفة لبس الزنادقة وأعداء الإسلام على العوام والجهال ، بل على العلماء كما نرى ، واستطاعوا تضليلهم وغوايتهم ونفث أحقادهم وهم أمنون بعد ذلك في رحاب تلك العقائد الهدامة. فلايمكن مؤاخذة المرتدين والزنادقة مهما قالوا أو فعلوا بحجة الفناء. واليوم يحدث شبيه بهذا ولكن تحت ستار البحث وحرية الفكر والتعبير عن الآراء ، فلا يؤاخذ القائل المرتد مهما قال في الإسلام بتلك الحجة. إتجاه واحد للكيد والمؤامرة وإن تعددت الصور والأشكال.

فأكثر ولذا قال جمهور الأصوليين : إن دلالة الألفاظ ولو ألفاظ القرآن ظنية لا تفيد اليقين إلا بانضمام تواتر أو غيره.

وهذه المسألة من علم التوحيد المطلوب فيه القطع واليقين ، ولا ينفي الظن فيه من الحق شيئاً. ثم تقول هل المراد فيمكن أحسن مما وجد في الماضي ، وأما في الحال فيمكن ، أو في الاستقبال. وأما في غيره فيمكن أو لا يمكن أبدع مما سبق في العلم القديم ، أو كان مجردة عن الزمان (الله أعلم بالمراد...) وقد قال الشيخ إبراهيم التادلي عن قول الغزالي : ليس في الإمكان أبدع مما كان. لعله صدر من الغزالي في حالة فنائه».(١)

وقد كتب الزبيدي (المتوفي سنة ١٢٠٥هـ) حول هذه المسألة ست عشره صفحة وذلك أثناء شرحه للإحياء . كما تكلم عليها صاحب الذهب الأبريز وغيرهما . بل لقد كانت هذه الكلمة الصغيرة التي أطلقها الغزالي مجالاً رحباً لتنافس العلماء في دفع المعنى الظاهر لتلك العبارة ، وحشد الردود والشروح في ذلك.(٢)

وفي الوقت نفسه كانت تلك العبارة معتركاً ضيقاً لا يدخله إلا الفطاحلة من العلماء في نظر أهل العصر ، ويمتحنون فيه إذا نزلوا في مدينة أمام شيوخها والمتصدرين فيها . كما وقع ذلك للمؤرخ الجزائري الذي قام بزيارة الشام.(٣)

هذا مثال مؤسف له دلالته الخطيرة ، ومؤشر دقيق يشير إلى أن الأمة في هذه الفترة قد بانت عن المنهج الرباني في عقيدته الواضحة بوناً شاسعاً ، وانشغل علماؤها بأمور ساقطة ، وقضايا تافهة لا تستحق الوقوف عندها ، أو العكوف عليها بالشرح والدراسة ، بل لقد كان الواجب ألا يوقف عندها إلا بالنقد والإبطال ، ولكن أنى يحدث مثل هذا ، وفاقد الشيء لا يعطيه.

وياليت القرآن الكريم والسنة النبوية قد حظيا من أولئك العلماء بمثل ما حظيت به عبارة الغزالي تلك. ولكن المتكلمين هم أبعد الناس عنهما وعن أتباعهما كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.(٤)

---

(١) من أعلام الفكر المعاصر ٢٤٧/٢ عبدالله الجراري.

(٢) لا أظن أن الغزالي قد خطر بباله أن عبارته تلك ستكون هي الشغل الشاغل للعلماء من بعده على مدار القرون ، وأنهم سيحتفلون بها ، ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في حملها على غير ظاهرها .

(٣) يراجع عبد الرحمن الجبرتي. الموسوعة عبارة عن مؤتمر حول الجبرتي أقيم في القاهرة. في بحث بعنوان : مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي .

(٤) مجموع الفتاوي ٩٥/٤. ويذكر رحمه الله أن هؤلاء المتكلمين من أجهل الناس بالحديث حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم به منهم. وهم أيضاً لا يعلمون معاني القرآن ولا يحفظونه. ويقول رحمه الله أن ثقة حدثه أن بعض أئمة المتكلمين تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر فأعطوه جزءاً من الربعة فقرأ : { بسم الله الرحمن الرحيم. المص } حتى قيل له : ألف لام ميم صاد.

ويمثل هذا الغثاء كانت تنصب اهتمامات العلماء وتنضب جهودهم في الانشغال به ، وتفنى الأعمار في تحصيل تلك العلوم العقيمة التي تحجر العقول ، وتبلد الأفهام ، وتضيق النفوس ، وتقسي القلوب. فلم يعودوا قادرين على الرجوع إلى المنهج الرباني والعقيدة الصحيحة وبينها وبينهم حجاب كثيف يحول دون رجوعهم إليها وليس لديهم وقت للتفكير في أحوال المسلمين وقضاياهم لانشغالهم بهذه العلوم التي كانوا يرون أنهم يخدمون بها الأمة ، ويقومون بواجبهم من خلالها.

وبعد ذلك فلابد لنا من عدة وقفات سريعة نقف فيها مع ما أوردناه من مثال لنرى مدى الانحدار الذي وصل إليه جمهور العلماء في القرنين الماضيين والعلوم التي كانوا يعايشونها ، وإذا كان هذا هو حال العلماء فكيف يكون حال أمتهم التي تنقاد خلفهم ، وتثق فيهم ثقة عمياء.

الوقفة الأولى : هيمنة التأويل ذلك الطاغوت(١) على فكر علماء المسلمين وعقولهم حتى غدا كسيف معلق يسله من شاء من المبتدعة في وجه النصوص الشرعية.

وقد أضفوا على ذلك الطاغوت هالات من التقديس والتبجيل ، وجعلوه من صميم العقيدة. مع أنه قاعدة غير منضبطة على الإطلاق.

ثانياً : إيمان العلماء بانقسام العلم إلى ظاهر وإلى باطن ، فالعلم الظاهر هو ما يكون بالتعلم ويدخل تحت هذا النوع جميع العلوم بما في ذلك العلوم الشرعية. والعلم الباطن يحصل بالكشف.(٢) وهذا في الحقيقة من تأثيرات الصوفية التي تعتبر ذلك التقسيم من أهم عقائدها. وقد يسمون الأول بعلم الشريعة ، والثاني بعلم الحقيقة. فيزهدون في الأول وربما لا يرفعون به رأساً ، وينتقصون الفقهاء لأجله ، بينما يمتدحون الثاني ويفخرون به على من سواهم.

وقد نتج عن ذلك كما ستعرف إهمال شديد لعلوم الشرع وغيرها من العلوم المهمة بحجة أنها من علوم الظاهر التي لا ينبغي للخاصة أن يصرفوا أوقاتهم فيها. وحفلوا بعلم الكشف الذي ليس هو إلا محض خيال وأوهام ، واجتيال شياطين.

---

(١) انظر كسر هذا الطاغوت وإبطاله للعلامة الرباني ابن قيم الجوزية في مختصر الصواعق المرسلة للشيخ الموصلي ص ١١ - ٨٢. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) يقول الغزالي عن هذا العلم : علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم ... وهو علم الصديقين والمقربين ... فهو عبارة عن نور يظهر في القلب ، عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته الباقيات التامات وبأفعاله وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم.....الإحياء ٣١/١.

ثالثًا : ومن لوثات الصوفية وأوضارها التي اعتذر بها عن الغزالي الفناء وقد يعبر عنه بالكشف حيث قال : إن الإنسان مطلقاً تصدر عنه مقالات ظاهرها منكر شرعاً... إلخ ثم قال في آخر الجواب : لعله صدر من الغزالي في حالة فنائه. ثم خلط في هذا المقام بين رسل الله وصفوة خلقه وبين أعداء الله من زنادقة المتصوفة من أمثال الحلاج وغيره. فيمكن بعد ذلك لكل زنديق أن يطعن في الإسلام ويستحل المحرمات بدعوى الكشف والفناء دون أن يجرؤ أحد على مؤاخذته.(١)

رابعاً : إنزال كلام الرجال منهم بمنزلة كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وجعل كلامهم ولغطهم بل وكفرهم بمنزلة الكتاب والسنة ، وذلك بصرف الكلام عن ظاهره إجماعاً كما زعم. ولا أدري أي الجرمين في ذلك أعظم ، أهو جعلهم كلام البشر بمنزلة كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، أم هو صرف كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن ظاهرهما ، أما الجرم الثالث فهو ادعاؤه الإجماع على وجوب صرف الأدلة الشرعية عن ظاهرها(٢) اللهم إن كان يعني إجماع أحزاب البدع والضلالة فنعم.

خامساً : طغيان ما يسمى بمذهب الخلف على معاهد المسلمين في الشرق والغرب. وقصور فهمهم لمذهب السلف ، والخلط بينه وبين مذهب المفوضة الذين يقولون : الله أعلم بمراده ويعنون بذلك أن ما خاطب الله به المؤمنين من آيات الصفات وغيرها أشياء غير مفهومة ، أو من قبيل المتشابه.

سادساً : قولهم (اعتقد ولا تنتقد) هذا يصح في باب العقائد المبنية على نصوص الكتاب والسنة حيث يجب الإيمان بها دون جدال. أما أن تنسحب هذه القاعدة على كلام البشر فأمر لا يسلم به البتة ، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ.

سابعاً : قول السنوسي إن من أوجه الشرك وأصول الكفر الجهل بالقواعد العقلية أما أن يجهلوا العقيدة الصحيحة ويحرفوها ويؤولوها فليس ذلك من أصول الكفر ، إنما من أصول الكفر الجهل بقواعد مختلفة وآراء منحرفة وهذا ضلال مبين. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ثامناً : قوله : «إن جمهور الأصوليين قالوا بأن دلالة الألفاظ ظنية حتى ألفاظ القرآن ظنية لا تفيد اليقين إلا بإنضمام تواتر وغيره»وهذه الداهية من سموم الفلسفة وعلم الكلام. وكل تلك الضلالات من تقديم عقولهم وأهوائهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهذا أحد الطواغيت الأربعة التي حطمها ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة (٣).

---

(١) سوف نتعرض لتلك القضية عند حديثنا عن الصوفية.

(٢) بل قال جمهور المتكلمين إن ظواهر النصوص كفر تقتضي التمثيل. لذا وجب صرفها عن ظاهرها وقال قائلهم :

وكل نص أوهم التشبيه　　أوله أو فوض ورم تنزيها

تعالى الله عن قول هؤلاء الظالمين علواً كبيراً. وقد أجاد الرد عليهم في تلك المسألة شيخ الإسلام في رسالته التدمرية في القاعدة الثالثة ص ٦٩. تحقيق محمد عودة السعوي ، ط١ ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، طبع شركة العبيكان ، الرياض.

(٣) انظر : مختصر الصواعق المرسلة ص

هذه بعض الوقفات السريعة التي تلقي لنا بعض الأضواء على الحالة الفكرية في الفترة المدروسة. فكل تلك الزوبعة التي أثيرت على أيدي علماء الكلام حول تلك العبارة الشنيعة التي تلفظ بها الغزالي والتي كفره بها جمع من العلماء لم يكن ثمة داع لها على الإطلاق ، ولكن تعودهم على الخوض الدائب في مشكلات علم الكلام ، وإضاعة الأوقات والجهود في أمثال هذا الهراء جعلهم يستمرؤن الخوض في أية قضية مهما كانت تفاهتها ، بل ويتنافسون في المسارعة إلى الخوض فيها وكشف لججها كما يزعمون.

وقد طغى المذهب الأشعري على العالم الإسلامي منذ القرن الخامس. ، ولم يكن ليرتد عن ناحية إلا وجد بها مذهب آخر كالمذهب الماتريدي الذي غلب على الأحناف أكثر من غيره.

وقد ظل المذهب الأشعري صاحب السيادة الكاملة ، والهيمنة التامة ، واعتقد غالبية الناس أنه مذهب أهل السنة والجماعة. مما جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يشتد في نقده «ويتعرض له كثيراً حتى يمحو من الأذهان ذلك السلطان الذي كان يتمتع به هذا المذهب في معظم أقطار الإسلام».(١)

ولكنه مع ذلك ظل هو الغالب على المعاهد الإسلامية ، وجاء القرن الثالث عشر الهجري والحال كما هي عليه من سيادة للمذاهب الكلامية متمثلة في المذهب الأشعري والمذهب الماتريدي.

وحين ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وسرت أخبارها في البلدان لقيت مقاومة عنيفة من قبل أرباب المذاهب الكلامية ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك عند حديثنا عن الإرجاء ، إذ يعتبر الإرجاء من أبرز العقائد الكلامية وثمرة من ثمارها. ولم تفلح الجهود التي بذلت من قبل أتباع الدعوة السلفية في مقاومة المذاهب الكلامية التي ظلت سائدة في غالب الأقطار ، وقد كاد أن يعود ما اندثر من معارك وقعت زمن شيخ الإسلام ابن تيمية مرة ثانية ، حيث عاد المبتدعة يتهمون أتباع الدعوة السلفية بالتشبيه والتجسيم. وبأنهم مبتدعة.(٢)

ولما حج ابن سلطان المغرب وكان معه نفر من العلماء عام ١٢٢٦هـ قال أحدهم للإمام عبد الله ابن سعود بعد أن افتتح أهل الدعوة بلاد الحرمين في مناقشة مع الإمام : بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوى فقال لهم معاذ الله إنما نقول كما قال مالك. الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة (٣)...

---

(١) ابن تيمية السلفي ص ٢٣. د. محمد خليل هراس. الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ. مكتبة الصحابة - بطنطا. ومما زاد الأمر غموضاً هو مرور أبي الحسن الأشعري بثلاث مراحل كان آخرها رجوعه إلى مذهب السلف.

(٢) غاية الأماني ٩٢/١.

(٣) الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ١٤٥/٤. الشيخ أحمد بن خالد السلاوي . المطبعة المصرية . ١٣١٢هـ .

وقد كانت هناك محاولة أخرى جادة بذلت في أواخر القرن الثاني عشر الهجري في بلاد المغرب الأقصى للقضاء على المذهب الكلامي المتمثل في المذهب الأشعري ؛ وذلك حين قام المولى محمد بن عبدالله السجلماسي العلوي ملك المغرب (المتوفى سنة ١٢٠٤هـ)(١) بمحاولة منه لإرجاع الناس إلى مذهب السلف ، والقضاء على مذهب الخلف الذي يدور حول علم الكلام. فقد كان «ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية وكان يحض الناس على مذهب السلف والاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة بلا تأويل. وكان يقول عن نفسه إنه مالكي مذهباً حنبلي اعتقاداً.(٢) ولكن تلك المحاولة وئدت مع طلوع فجر القرن الثالث عشر الهجري بوفاة المولى محمد ، حيث قام خلفه على العرش من بعده وأمر الناس بالرجوع إلى كتب المتكلمين ومصنفات المقلدين. وعلى الرغم مما قام به المولى محمد من جهود لمقاومة المذهب الأشعري وإحياء المذهب السلفي إلا أن تلك الجهود كانت ضعيفة الجدوى ، وذلك لعدم وجود نهضة فكرية وعلمية مصاحبة لها. ولم يفلح تبني هذا السلطان لعقيدة السلف في نشرها بين الناس حين لم يتبنها العلماء. وظلت كما كانت غريبة ومحاربة من قبل أرباب الكلام وعلمائه ونستطيع أن نقول إن الهيمنة في الفترة التي نقوم بدراستها كانت للمذاهب الكلامية التي كان يساندها السلاطين والحكام ويقفون بجانبها رغبة منهم في احتواء العلماء المؤمنين بها للوقوف بجانبهم وقد رأينا عند حديثنا عن غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها كيف استطال أرباب الكلام على أتباعها بالإيذاء والتعدي. وكيف أهدرت دماؤهم ، واستبيحت أعراضهم. وكيف كان يمتحن العلماء السلفيون بقراءة كتب الكلام ، ويكرهون بالقوة على اعتناق عقائد المتكلمين التي ما أنزل الله بها من سلطان. كما فعل مع الشيخ عبد النصير القورصاوي حين أمر بقراءة متن العقائد النسفية من أوله إلى آخره وأجبر على اعتقاده تحت وطأة السيف ورهبة السلطان.(٣)

أما المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر وغيره فلم توفق إلى تدريس المذهب السلفي ، أو حتى

---

(١) الأعلام ٢٤١/٦ وقد كان المولى محمد بن عبد الله من خيار ملوك الدولة السجلماسية العلوية بالمغرب وهو أول من اتخذ مراكش عاصمة له . كان مولعاً بالجهاد في البحر. استطاع أن يرد هجمات الفرنسيين والبرتغاليين وجعل في كل ثغر حامية قوية من رجال البحرية ، وعمل لإصلاح ما أفسدته الحوادث في الدولة وبنى مدناً ومساجد ومدارس وأنشأ مجموعة كبيرة من المراكب الحربية والبحرية وأنفق أموالاً طائلة على فكاك أسرى المسلمين من أيدي الأفرنج وقد بلغ عددهم ٤٨٠٠٠ أسير ، وهابته ملوك الأفرنج ووفدت عليه رسلهم بالهدايا ، وازدهر المغرب في أيامه ، وراجت بضاعة العلم وله تآليف بإعانة بعض الفقهاء منها كتاب «مساند الأئمة الأربعة» انظر الاستقصا ٩١/٤.

(٢) الاستقصا ١٢٠/٤ وقد كانت للمولى محمد انتفاضة أخرى للقضاء على الركود الفقهي السائد في ذلك العصر حتى كان ينهى عن قراءة المختصرات كمختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما وكان يحض الناس على قراءة الرسالة والتهذيب وغيرها من الكتب المتقدمة ، حتى خلفه المولى سليمان فصار يحض الناس على قراءة المختصر ويبذل في حفظه الأموال الطائلة.

(٣) انظر ذلك عند حديثنا عن غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها ص

تحاول ذلك. وظلت كما هي عليه دوما من تبن للمذاهب الكلامية وإعراض بل وعداء متوارث لمذهب السلف.

ومع ما يدرس في الأزهر من مذاهب فلسفية قديمة وحديثة فيها من الكفريات والضلالات الشيء الكثير. إلا أن كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لم يسمح بتدريسها أو النظر فيها ، ولم يفسح لها المجال مطلقا.(١)

ولا يزال المذهب الأشعري غالباً على بلاد الإسلام رغم التنافس الشديد بينه وبين المذهب السلفي.(٢)

كما لا يزال التراث الكلامي والجدل الذي خاضته الفرق هو المعني بدراسته. وكان الأولى عزل ذلك التراث جملة ، ودراسته دراسة تاريخية بحتة ، لبيان زوايا الانحراف فيه ، وأسباب هذا الانحراف، وتجنب نظائرها.(٣)

ولم تكن الفلسفة وعلم الكلام في يوم من الأيام دافعة إلى العمل الإيجابي المثمر «ومن ثم لم يكن للفلسفة دور يذكر في الحياة البشرية العامة ، ولم تدفع بالبشرية إلى الأمام شيئاً مما دفعتها العقيدة ، التي تقدمت البشرية على حدائها في تيه الزمن ، وظلام الطريق. لابد أن تعرض العقيدة بأسلوب العقيدة ، إذ أن محاولة عرضها بأسلوب الفلسفة يقتلها ، ويطفىء إشعاعها وإيحائها ... ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها ، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها».(٤)

وهكذا قتلت العقيدة يوم أن مزجت بعلم الكلام ، وأصبحت ضعيفة الأثر عديمة الفائدة. فإذا كانت العقيدة القرآنية تعطي «إيماناً مفصلاً كما قال جندب بن عبد الله (تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً) والقرآن يصف لنا ربنا وأن له وجهاً ويداً وسمعاً وبصراً ، ويعدد لنا أسماءه وصفاته : فهو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ... ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته ، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنار كأننا نراهما ، فإن طريقة المتكلمين غاية ما عندهم إيمان مجمل لا يعطي علماً وافياً ، ولا تصوراً واضحاً».(٥) ولا يخفي ما في هذه الطريقة من نضوب للعاطفة وتبديد للطاقة.

---

(١) انظر : ابن تيمية السلفي ص ١٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٦.

(٣) خصائص التصور الإسلامي ص ١٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦.

(٥) العقيدة في الله ص ٤٠ د. عمر الأشقر. مكتبة الفلاح. الكويت. الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.

فحين يأتي المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم فيقولون: إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين للعالم ولا محايث له. فإن هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم ، وليست هي مستلزمة صفة ثبوت ولهذا قال محمود بن سبكتكين لمن ادعى ذلك في الخالق : ميز لنا بين هذا الرب الذي تثبته وبين المعدوم.

وكذلك كونه لا يتكلم ، أو لا ينزل ، ليس في ذلك صفة مدح ولا كمال بل هذه الصفات منها ما لا يتصف به إلا المعدوم ، ومنها ما لا يتصف به إلا الجماد أو الناقص .. فمن قال : لا هو مباين للعالم ولا مداخل للعالم ، فهو بمنزلة من قال : لا هو قائم بنفسه ولا بغيره ، ولا قديم ولا محدث ، ولا متقدم على العالم ولا مقارن له. ومن قال : إنه ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم لزمه أن يكون ميتاً أصم أعمى أبكم.(١) فما عسى أن تكون النتيجة؟

وما تأثير ذلك في حياة الناس ، وهل يمكن أن تكون دافعة لهم إلى العمل المثمر البناء؟ أي عقيدة تلك! وأي ضلال هذا!

«وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق وأنه لا شريك له ، ويظنون أن هذا هو المراد بـ(لا إله إلا الله)».(٢)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عن توحيد المتكلمين : «فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع ، فيقولون : هو واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث : وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد ، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها ، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب ، وأن هذا هو معنى قولنا : لا إله إلا الله ، حتى قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الإختراع. ومعلوم أن المشركين من العرب الذي بعث إليهم محمد ﷺ أولاً - لم يكونوا يخالفونه في هذا ، بل كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء ، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضاً ، وهم مع هذا مشركون».(٣)

ولهذا لم يحفل المتكلمون بتوحيد الألوهية ، وإنما كان غاية همهم هو تقرير توحيد الربوبية.(٤)

ويقول رحمه الله : «الذين يقولون» التوحيد ، هو توحيد الربوبية و«الألهية» عندهم هي القدرة على الاختراع ، ولا يعرفون توحيد الألهية ، ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود. وأن مجرد الإقرار

---

(١) التدمرية ص ٦٠ .

(٢) العقيدة في الله . ص ٣٢.

(٣) التدمرية ص ١٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٦.

بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾. قال عكرمة : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم يعبدون غيره ... وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام إلى أن قال : فإن هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم وبيده كل شيء ... ومع هذا فلم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له، بل عبدوا غيره وكانوا مشركين شراً من اليهود والنصارى. فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين.

وهذا المقام وأي مقام !!! زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين المسلمين والتبس فيه التوحيد بعبادة الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام».(١)

ثم قال رحمه الله : «فهذا أصل عظيم على المسلم أن يعرفه ، فإنه أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان من أهل الكفر ، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله. وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين(٢) ، أو أحدهما ، مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة ، فإقرار المرء بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله ، فلايستحق العبادة أحد إلا هو ، وأن محمداً رسول الله ، فيجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر».(٣)

وقد ترتب على إهمال توحيد الألوهية عند المتكلمين أثر خطير من شيوع للشرك الأكبر وعبادة لغير الله عز وجل. كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وكما سنراه فيما بعد. ولم يلق ذلك أية مقاومة من قبل علماء الكلام لانحراف منهجهم الذي أفنوا أعمارهم في السير عليه.

كما أن كثيراً من المتكلمين قد أنكروا الأسباب بالكلية وجعلوا وجودها كعدمها.(٤) ومن هنا غلطوا في ترك الأسباب المأمور بها ، وظنوا أن هذا من تمام التوكل.(٥) وقد روج بعض المتكلمين من المتأخرين أن الاعتقاد بتوليد الأسباب لنتائجها يناقض ويعارض الاعتقاد بأن الله هو الخالق للحوادث، وهونوا من شأنها تهويناً يؤدي إلى تعطيل التفكر وربط الأسباب بالنتائج.(٦) ولا شك أن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠٢/٨.

(٢) يعني بالأصلين : توحيد الألوهية وتوحيد الاتباع لنبيه محمد ﷺ. أو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وقد تحدث عنهما بعد ذلك.

(٣) التدمرية ص ١٩٥.

(٤) مجموع الفتاوى ١٧٥/٨.

(٥) المصدر السابق ١٧٧/٨.

(٦) الثقافة الإسلامية المستوى الرابع ص ١٠٥ محمد المبارك. مطابع جامعة أم القرى. مكة المكرمة.

ذلك ساعد على مزيد من الانحطاط الذي وقعت فيه الأمة. وزاد الانحطاط ظلمة «جدل المتكلمين الذين بلبلوا الأفكار وضيعوا العامة في متاهات العمى والجهل بشؤون دنياهم ، وأبدلوا العمل الإسلامي الهادف إلى الكسب والسعي نحو تجسيد الفضيلة الخلقية في المجتمع بالجدل العقيم الذي لا نهاية له. لقد كمنت هذه الأمراض الفكرية في المجتمع الإسلامي آنذاك ، وأصبح العامة في وضع اجتماعي مقلق ، فإذا مالوا مع المتكلمين أضاعوا دينهم ، وإذا تصوفوا ضيعوا دنياهم».[١]

«إن مذهب السلف ذو علاقة بالأمة وبعقيدة المجتمع ، أما عقيدة المتكلمين من أهل السنة[٢] بقيت بين أسوار المدارس لا يعرف عنها المجتمع شيئاً .... فالمتكلمون في كتبهم المشهورة اشتغلوا بالرد على أفلاطون وارسطو وآراء اليونان وآراء أخرى مذهبية فأضاعوا قومهم ... وأبسط شيء للعوام أنهم يريدون ما وافق الكتاب والحديث ..... ولذا خسرت الأمة ، ولا سبب سوى إهمالها ، فقد علماؤنا خصيصة تربية الأمة فأضاعوا المكانة وصاروا أجانب عنها ، أو أنهم غرباء لا يعرفونها ولا تعرفهم ومن زمن بعيد من يوم تكونت المدارس أهملنا عقيدة الأمة ، فصار لا يشترك فيها السواد الأعظم..».[٣]

إن تحول العقيدة إلى قضايا جدلية ومشكلات ذهنية كان انحرافاً أوقعه المتكلمون في الأمة. إن أقصى ما فعله هؤلاء أن أحالوا العقيدة إلى مجرد معرفة باردة لا تتعدى الأذهان. أما مهمة العقيدة الحقيقة فلا تقف عند المعرفة ، وإنما تهدف إلى الحركة من وراء ذلك. وأن تكون قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع. «وأن ترجع البشرية إلى ربها ، وإلى منهجه الذي أراد لها ، وإلى الحياة الكريمة الرفيعة التي كتبها الله للإنسان ، والتي تحققت في فترة من فترات التاريخ ، على ضوء هذا التصور عندما استحال واقعاً في الأرض ، يتمثل في أمة ، تقود البشرية إلى الخير والصلاح

الفصل السادس

انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات

ويشتمل على :

أولاً : انتشار مظاهر الشرك .

ثانياً : انتشار البدع وتفشي الخرافات .

أولاً : انتشار مظاهر الشرك

إن الدارس لهذه الفترة التي نعنى بها ليصاب بدهشة عظيمة فيما حل بالمسلمين ، من شرك تعددت مظاهره ، واختلفت أشكاله ، حتى لكأنما عقيدة التوحيد قد قضي عليها تماماً ، وأن الموحدين قد انعدموا من الأرض ، فلم يعد هناك إلا من أشرك بالأولياء في عبادة الله ، فهو يدعوهم رغباً ورهباً.

إننا لا نغلو إذا قلنا إن الأمة في هذين القرنين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات ، وأنها انحرفت في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً ، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم.

لقد ضرب الشرك الأكبر بأطنابه في ديار الإسلام ، وانتشر في غالب القرى والبلدان فشيدت القباب على الأضرحة ، وأنشئت المساجد على القبور ، وأقيمت مزارات ومشاهد ، وزينت بالسرج والقناديل ، وزخرفت بأنواع الزخارف ، وكسيت من غالي الديباج ونفيس الستارات ، وحليت أبوابها ونوافذها بسبائك الذهب والفضة وطلائهما ، وأهديت عقوداً من اليواقيت واللآلىء والزبرجد وغيرها ، فقصدها القاصي والداني ، ولجأ إلى رحابها المسافر والمقيم ، وهرع نحوها العلماء قبل الجهال ، والكبار قبل الصغار ، والجميع يرتمون بساحاتها ، ويتمرغون في جنباتها ويلثمون أعتابها ، فتراهم من حولها يطوفون ، وبأصحابها يستغيثون ويستعينون ، وفي عرصاتها يهرقون دماء نذورهم وقرابينهم. وكل هذا من الشرك الأكبر وصورة من صور الوثنية ، وإن اختلفت الأسماء ، وتبدلت الهيئات والأشكال.

يقول الإمام الصنعاني ـ رحمه الله ـ : «والنذور بالمال على الميت ونحوه ، والنحر على القبر والتوسل به ، وطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كان تفعله الجاهلية ، وإنما يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً ، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً ، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني ... وكذلك تسمية القبر مشهداً ، ومن يعتقدون فيه ولياً ، لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن ، إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام ، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام ، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت ، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم : على الله وعليك ، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها ، وهو بعينه فعل المشركين في الأصنام، كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود ليس ذلك من ودي

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلت لغير الله جهلاً على عمد

وكم طـائف حـول القبـور مقبـلاً　　　ويلتمس الأركان منهن بالأيدي[١]

ومـهـمـا حـاول أنصـار البدعـة ومروجو الشرك في الأمة أن يتمحلوا الأعذار ، وينتحلوا الأدلة ، ويردوا البراهين أو يؤولوها لتهوين ما وقع في حياة الأمة من مظاهر كثيرة للشرك الأكبر والأصغر ، فإن ذلك لا يغير من الحقيقة شيئاً.[٢]

ولسنا هنا في مقام الرد عليهم ونقض شبههم ، وتعرية مواقفهم ، فقد تولى ذلك علماء السنة والجماعة الذين أبطلوا مذهب هؤلاء القبوريين من أسه ، وكشفوا عن عواره وزيفه.[٣]

ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية إلى الشرك ، وتحذير النبي ﷺ منها ، وتشديده في ذلك قبل وفاته . كقوله ﷺ في الصحيحين : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . يحذر ما فعلوا).

قالت عائشة رضي الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً.[٤] وقوله ﷺ : (لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد السرج).[٥]

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس : (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك).[٦]

---

(١) تطهير الاعتقاد عن أدران الالحاد. ص٥٧٤ ـ ص٥٧٥. ضمن رسائل الجامع الفريد . تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي. الطبعة الثالثة. طبع على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ. طبع شركة العبيكان. الرياض. والأبيات المذكورة من قصيدته الطويلة التي بعث بها إلى الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين بلغته دعوته ومطلعها :

سـلام على نجد و من حل في نجـد　　　وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

انظر عنوان المجد : ٥٤/١.

(٢) وهذه من أعظم البلايا في الدين حيث رزئت الأمة بطغمة من هؤلاء المنافحين عن عبادة القبور والواقفين في طريق الحق يصدون عنها ويبغونها عوجاً ، والمتربصين بأهل التوحيد والسنة. قاتلهم الله أنى يؤفكون.

(٣) وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم والإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأولاده وأحفاده وتلامذتهم إلى زمننا هذا ، والعلامة الصنعاني والإمام الشوكاني وعلامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي وعلامة العراق محمود شكري الألوسي ، وعلامة الهند صديق حسن خان القنوجي وغيرهم رحمهم الله تعالى أجمعين.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور. برقم ١٣٣٠ (الفتح٣/٢٠٠). ورواه مسلم برقم ٥٢٩ كتاب المساجد ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٦/١.

(٥) رواه الترمذي برقم ٣٢٠ كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً. وحسنه ، وحسنه أيضاً الشيخ أحمد شاكر أيضاً ١٣٧/٢. وضعفه الشيخ الألباني في إرواء الغليل برقم ٧٦١ ، والحديث له شواهد كثيرة كما قال لكن بدون «السرج» الإرواء ٢١٢/٣.

(٦) رواه مسلم برقم ٥٣٢ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٧/١.

وقوله ﷺ : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد).[١] وقوله ﷺ : (لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها).[٢]

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسة رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير ، قال ﷺ : (إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله).[٣] وأمر ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته).[٤] ونهيه ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه.[٥] وجاء في رواية أخرى النهي عن الكتابة عليها.[٦]

أقول مع تضافر الأدلة على التشديد في هذا الأمر الخطير ، فإن الأمة في غالبها لم تلتفت إلى هذه النصوص ، أو تحاول العمل بها ، حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور ، وتذكر فضله وتحث عليه فاستجابت الأمة لها ، ومعاذ الله أن يكون ذلك. وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً ، واحتجوا بقولهم : إن بعض السلف استحسن ذلك ، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنفاتهم التي يعكف على دراستها الطلاب.[٧]

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية ، والمزارات الوثنية في الأمة هم الشيعة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع : «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد ، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف امام معصوم ، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن

---

(١) رواه مالك في الموطأ ١٧٢/١، والإمام أحمد في مسنده ٢٤٦/٢ وغيرهما . وصححه صاحب النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد ص١١٥.

(٢) رواه مسلم برقم ٩٧٢ كتاب الجنائز باب النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه ٦٦٨/٢.

(٣) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، برقم ٤٢٧ (الفتح ٥٢٣/١) . ورواه مسلم برقم ٥٢٨ كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٥/١.

(٤) رواه مسلم برقم ٩٦٩ كتاب الجنائز باب الأمر بتسوية القبر ٦٦٦/٢.

(٥) رواه مسلم برقم ٩٧٠ كتاب الجنائز ، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه ٦٦٧/٢.

(٦) رواه الترمذي برقم ١٠٥ كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها وقد صححه الشيخ الألباني في الإرواء برقم ٧٥٧.

(٧) أدب الطلب ص١٧١. الامام محمد بن علي الشوكاني. مركز الدراسات والأبحاث اليمنية. صنعاء ١٩٧٩م. وهذا محض افتراء على السلف حيث تقولوا عليهم ما لم يقولوا. ثم هب أنه قد صح ما ذكره هؤلاء من استحسان بعض السلف فلا حجة في استحسان من استحسن مخالفة الشرع كائناً من كان كما قاله الشوكاني رحمه الله.

النعمان[١] كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه ، وغيروا ملته ، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد».[٢]

وانتقل هذا الوباء إلى المسلمين ، وتعاظم مده ، ووقع ما حذر منه النبي ﷺ أمته من الشرك العظيم.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في :

بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور :

على الرغم من النصوص الشرعية التي أوردنا طرفاً منها ، وتنهي أشد النهي عن بناء المساجد على القبور ، وعن الصلاة فيها ، وعلى الرغم من تعيين قبر النبي ﷺ في ذلك النهي إلا أن الخلوف من المسلمين لم يراعوا لهذه النصوص حرمة فيقفوا عند حدودها وذلك حين بنوا قبة على قبره الشريف.

وما زال الملوك يبالغون في تحسينها وتزيينها ورفع سمكها ، ويقومون بإهدائها كثيراً من قناديل الذهب والفضة والجواهر الفاخرة واللآلىء الثمينة والأحجار الكريمة وقطع الماس التي لا تقدر بثمن.

ويتحدث محمد لبيب البتنوني[٣] صاحب «الرحلة الحجازية»[٤] عن كسوة الحجرة الشريفة وعن مدخراتها وكنوزها . فيذكر أن الخيزرانة أم هارون الرشيد هي أول من كسا الحجرة الشريفة ، وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين.

ثم يتحدث عن مدخرات هذه الحجرة ، ويصف ما فيها من المجوهرات والماس والذهب والفضة فيقدر ثمنها بسبعة ملايين من الجنيهات.[٥] ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه التقديرات بالجنيه كانت بعملة تلك الأيام ، وأنها لو قدر ثمنها بالعملات الحالية لبلغت مئات الملايين وربما بلغت الألوف.

---

(١) من كبار علماء الشيعة الاسماعيلية في مصر.

(٢) مجموع الفتاوى ١٦٢/٢٧.

(٣) الأعلام : ١٥/٧.

(٤) قام برحلته تلك رفقة الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٣٢٧ لأداء فريضة الحج.

(٥) الرحلة الحجازية. ص٢٤٧ـ ص٢٤٩. مطبعة المعارف. الناشر محمد سعيد كمال. الطائف. الطبعة الثالثة من هذه المدخرات إحدى وثلاثون مشكاة ذهبية مرصعة بالماس والزمرد والياقوت وكثير من ثريات الذهب والفضة ومائة مصباح وستة من الذهب والفضة ايضاً. ومقابل الرجه الشريف حجر من الماس البرلانتي في حجم بيضة الحمام الصغير ، يحيط به اطار من الذهب المرصع. ويقدر ثمنه في ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، ويسمى بالكوكب الدري لشدة تألقه ، وهو مثبت في لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة كبيرة من الجواهر الثمينة. بالاضافة إلى كثير

هذا التقدير الذي ذكره البتنوني كان في عام ١٣٢٧هـ. فكيف كان الحال عام ١٢٢٣هـ حين استولى أهل الدعوة على المدينة المنورة، وأخذوا ما كان بالحجرة النبوية الشريفة من ذخائر وكنوز لينفقوها في الجهاد في سبيل الله وفي مصالح المسلمين وهذه الذخائر والجواهر كما يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي أرسلها ووضعها خساف العقول[١] من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء. فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة فارتدت معنى لا حقيقة، وارتسم في الأذهان حرمة تناولها، وأنها صارت مالاً للنبي ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها، والنبي ﷺ منزه عن ذلك، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته وقد أعطاه الله الشرف الأعلى وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، واختار أن يكون نبياً عبداً ولم يختر أن يكون نبياً ملكاً.[٢]

وذكر الجبرتي رحمه الله أن ملوك المسلمين في زمانه كانوا بأشد الحاجة إلى الأموال ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيئاً، بل ربما أرسلوا من مدخراتهم الخاصة هدية إلى الحجرة، في نفس الوقت الذي كان يفرضون على رعاياهم الضرائب والمكوس والمصادرات.[٣]

والأهم من ذلك إنفاقها في الجهاد ورد هجمات الصليبيين وغاراتهم، وإخراجهم من أقطار المسلمين التي كانوا يحتلونها. ولكن تلك كانت أمنية حال دون تحقيقها انحراف العقيدة وسوء الفهم.

والعجب بعد كل هذا مسارعة أولئك الجاهلين بعد أن زالت دولة أهل الدعوة وانحسر ظلها عن الحرمين الشريفين في إرسال الأموال والمدخرات إلى الحجرة الشريفة، ورد بعض ما أخذ منها إليها. ورأوا في ذلك الفعل المحدث أنهم أسدوا إلى الإسلام أعظم خدمة، وأنهم ردوا للمقام النبوي والحجرة الشريفة ما فقداه من هيبة واحترام.[٤]

من عقود الآلئ والمرجان وشمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين، وإلى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ومراوح مرصعة بالأحجار الكريمة، ومباخر مرصعة، والعديد من المصاحف المجوهرة، والتحف الفاخرة وكثير من الأساور والأقراط وخلافها.

(١) هكذا في الأصل. ولعلها ضعاف أوسخاف.

(٢) عجائب الآثار ٢٤٨/٣. والحديث كما في مجمع الزوائد ١٨/٩ رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح.

(٣) ذكر الجبرتي أن أهل الدعوة عبوا أربع سحاحير (صناديق كبار) من الجواهر المحلاة بالالماس و الياقوت العظيمة القدر. ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة الماس مستطيلة يضيئ نورها في الظلام. ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم وغير ذلك. عجائب الآثار ٢٥٠/٣.

(٤) لذلك كانوا يرون أن أخذ أهل الدعوة لهذه المدخرات من الكبائر، وقد كان لهذا الفعل ردود فعل واسعة على مستوى =

ولم يقف الأمر عند قبر المصطفى ﷺ ، بل تعداه إلى غالب القبور المنسوبة إلى الأنبياء والصالحين ، فعمرت عليها المساجد ، وبنيت عليها القباب ، وأقيمت لها الموالد. ولم يهتم هؤلاء في التثبت من صحة نسبة هذه القبور للمدفونين فيها فذاك لعمر الله أمر لو فعلوه ما بقي لهم من ضريح تصح نسبته إلى نبي من الأنبياء ؛ لأن جميع هذه القبور المنسوبة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معروفة. فإن القبر المتفق عليه هو قبر النبي ﷺ بين قبور الأنبياء جميعا[١] ، ومع أن جميع قبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ـ غير معروفة ، فإنه لم يبق نبي إلا له قبر معروف ومزار مشهور .

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن القبر الذي بجبل لبنان بالبقاع ويقال له قبر نوح كان قد ظهر في أثناء المائة السابعة ويذكر أن جيران القبر حدثوه أنهم شموا من القبر رائحة طيبة ووجدوا عظاماً كبيرة ، فقالوا هذه تدل على كبير خلق البنية ، فقالوا ـ بطريق الظن ـ هذا قبر نوح وكان بالبقعة موتى كثيرون من جنس هؤلاء.[٢]

وهكذا طمست البدعة بصائرهم حين جهلوا أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأن جسومهم لا تبلى ـ عليهم من ربهم أفضل الصلاة والسلام ـ كما ثبت في الحديث.[٣]

ويذكر القاياتي (المتوفي ١٣٢٠هـ) [٤] عدداً من الأضرحة والمزارات المنسوبة إلى الأنبياء في بلاد الشام التي زارها هناك بعد نفيه من مصر في أعقاب الثورة العرابية في بداية القرن الرابع عشر الهجري ، ومن هذه القبور :

مزار يحيى بن زكريا عليه السلام في صيدا في جنوب لبنان في قمة جبل يشرف على البلد والبحر وهو في غاية النضارة كما يقول.[٥] وذكر أنه مر على مشهد منسوب إليه أيضاً في مغارة في

= العالم الإسلامي ، ورأى الناس في ذلك انتهاكاً لمقام النبي ﷺ وانتقاصاً له. بل وصل الأمر إلى تكفيرهم والحكم بردتهم من أجل ذلك.

(١) وفي قبر الخليل عليه السلام خلاف، والجمهور على أن الموضع المعروف هو قبره كما حكى ذلك شيخ الإسلام. مجموع الفتاوى ٢٧/٤٤٥.

(٢) المصدر السابق ٢٧/٦١،٤٥٩.

(٣) رواه النسائي . انظر : صحيح النسائي برقم (١٣٠١) للشيخ الألباني .

(٤) الأعلام ٦/١٨٥.

(٥) نفحة البشام في رحلة الشام ص٦٢. محمد بن عبد الجواد القاياتي. دار الرائد العربي ـ بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ضيعة سبسطة بفلسطين[١] مع أن المقام المشهور الذي دفن فيه رأس يحيى بن زكريا عليه السلام كما يقولون يقع في دمشق في قلب الجامع الأموي وله قبة وشباك.[٢] ولا يثبت من هذه المواضع شيء .

وهناك أيضاً مقام ثالث في الجامع الأموي بحلب «حيث توجد حجرة تعرف بـ (الحضرة النبوية) يقال إن بها رأس يحيى بن زكريا عليه السلام في صندوق جرن وقيل إن بها عضواً من أعضاء نبي الله زكريا عليه السلام في صندوق مرمر.

أما صندوق الجرن الشريف فهو في وسط الحجرة من الخشب على صفة ضريح عليه كسوة من مخمل مزركش بالقصب الفضي مكتوب فيه بعض سورة مريم ، وهذه الكسوة أنعم بها المرحوم السلطان عبد العزيز خان سنة ١٢٩١هـ .. .. وهذه الكسوة التي هي قبل الكسوة الحاضرة أرسلت إلى استانبول ، ووضعت هناك في محل الآثار القديمة ، وعلى هذه الكسوة الجديدة فوق سنام الضريح عدة شالات ثمينة عجمية وهندية ، ومما يوجد في الحضرة مصحف شريف مكتوب على قفا أول صفحة منه (هذا المصحف الشريف بقلم المغيرة بن شعبة الصحابي رضي الله عنه بخط كوفي) على أن خط هذا المصحف مغربي لا كوفي ، ولا دليل على أنه خط المغيرة بن شعبة.[٣]

ويقول الغزي (المتوفى سنة ١٣٥١)[٤] بعد أن ذكر الخلاف في الدفين : «وعلى كل حال فليس يخلو الجامع من أثر شريف نبوي جدير أن تفتخر حلب بوجوده».[٥]

ولا يمتنع في عرف هؤلاء المولعين بالأضرحة والمشاهد أن يكون للنبي أو الولي أكثر من ضريح ومشهد في أكثر من بلد. ولهم في ذلك تبريرات ساقطة سنشير إلى بعضها قريباً . ونعود الآن إلى ما ذكره القاياتي من الأضرحة والمشاهد النبوية المنسوبة إلى الأنبياء في الشام :

مزار شمعون[٦] في الجانب الشرقي من صيدا يخرج إليه أهل البلد في الغداة والعشي لشم الهواء[٧] مع أن هناك مزاراً مشهوراً للاسم نفسه في قضاء كلز من أعمال حلب.[٨]

---

(١) المصدر السابق ص١٠٢.

(٢) شهر في دمشق عبد الله بن خميس. مطابع الرياض ـ ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٢٤٤ .

(٤) الأعلام ٥/٢١٧.

(٥) نهر الذهب ٢/٢٤٧.

(٦) منهجنا هنا أن نذكر الأضرحة التي زعموا أنها لأنبياء سواء أصح ذلك أو لم يصح. ومن هؤلاء كثير ممن قيل إنهم أنبياء من بني اسرائيل ، ولم يرد عندنا في ديننا ما يصدق أو يكذب ذلك. ومن هؤلاء شمعون وصيدون وكالب وغيرهم. والله أعلم بحقيقة الحال.

(٧) نفحة البشام ص٦٣.

(٨) نهر الذهب ٢/٢٧١.

مزار صيدون في وسط البساتين في صيدا. يقولون أنه من الأنبياء أيضاً.[١]

مزار داود عليه السلام في جنوب غرب صيدا على نحو ساعة.[٢] مع أن هناك مزاراً آخر منسوباً إليه في قضاء كلز من أعمال حلب.[٣]

مزار أيوب عليه السلام، ومزار صالح عليه السلام في يافا بفلسطين.[٤]

مع أن هناك في حضرموت في واد سر يوجد قبر طويل عليه قبة كبيرة يزعم الناس أنه قبر صالح عليه السلام، والتاريخ لا يثبت وجود قبر صالح عليه السلام في حضرموت لأنه مات في الحجاز.[٥]

ضريح الخليل عليه السلام وعليه قبة وبابه من فضة، وضريح إسحاق عليه السلام.

وضريح يعقوب عليه السلام، وضريح يوسف عليه السلام. وكل تلك الأضرحة داخل مسجد كبير في مدينة الخليل.[٦]

ضريح يونس عليه السلام في بلدة (حلحول) بين القدس والخليل. وكان به عمارة جديدة لم تكمل[٧] كما يقول القاياتي مع أن هناك جامعاً كبيراً به ضريح في قرية نينوى في العراق يدعى «جامع النبي يونس» وهو أحد الجوامع الكبيرة المقصودة بسواد الموصل.[٨]

وأعجب من ذلك أن القاياتي نفسه ذكر أنه أثناء خروجه من نابلس مر في الطريق على ضيعة يقال إن فيها مزار سيدنا يونس عليه السلام. وهذا المزار عبارة عن قبة صغيرة ومن داخلها غار يقال إن فيه قبر نبي الله يونس.[٩]

ضريح الأسباط إخوة يوسف عليه السلام في نابلس.[١٠]

---

(١) نفحة البشام ص٦٣.
(٢) المصدر السابق ص٦٤.
(٣) نهر الذهب ٢/٢٧١.
(٤) نفحة البشام ص٨٦.
(٥) تاريخ حضرموت السياسي ص٥٢ صلاح البكري الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م مكتبة ومطبعة البابي حلبي وأولاده بمصر.
(٦) نفحة البشام ص٨٦
(٧) المصدر السابق ص١٠١.
(٨) جوامع الموصل في مختلف العصور، ص٧٣ ـ ص١٠٦ سعيد الديوه جي مدير متحف الموصل مطبعة شفيق. بغداد ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.
(٩) نفحة البشام ص١٠٩.
(١٠) المصدر السابق ص١٠٢.

ضريح موسى عليه السلام في الشام في المحل المشهور بالقدم.[(١)]

ضريح ذي الكفل عليه السلام في جبل قاسيون في دمشق.[(٢)]

هذه بعض القبور التي ذكرها القاياتي في بلاد الشام ونسبت إلى الأنبياء. ونذكر الآن بعض القبور الأخرى المنسوبة إلى الأنبياء التي ذكرها غيره :

ضريح يوشع عليه السلام في معرة النعمان بالشام.[(٣)]

ضريح شيث عليه السلام[(٤)] في معرة النعمان. مع أن هناك جامعاً كبيراً في الموصل يسمى جامع النبي شيث داخله ضريح يعتقد أنه مدفون فيه. «ولم يكن قبر النبي شيث[(٥)] معروفاً قبل القرن الحادي عشر للهجرة حيث رأى أحد ولاة الموصل في ذلك القرن مناماً يدل على موضع القبر! فبني الضريح ، ثم بني عليه جامع كبير.[(٦)]

ضريح الخضر عليه السلام في معرة النعمان في مغارة هناك.[(٧)] وهناك مغارة في الصالحية بدمشق تسمى مغارة الأربعين يقال إنه مات بها أربعون نبياً جوعاً.[(٨)]

وهناك قبر منسوب إلى هود عليه السلام في حضرموت.[(٩)] وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن العامة في دمشق يسمون قبراً بحائط مسجد دمشق بقبر هود ، وأن الراجح أنه قبر معاوية رضي الله عنه.[(١٠)]

مع أن هذه القبور ليست ثابتة كما سبق وقلنا.[(١١)] بل غالبها مكذوب ومصطنع. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وغالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء[(١٢)] أن يدعى أنه رأى مناماً أو أنه وجد

---

(١) المصدر السابق ص١٣٢.
(٢) المصدر السابق ص١٣٥.
(٣) تاريخ معرة النعمان ٣٥٦/١ محمد سليم الجندي، تحقيق عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
(٤) وكان نبياً كما قال الحافظ ابن كثير. انظر البداية والنهاية ٩٢/١.
(٥) في الأصل : شيت بالتاء ، والأصح ما أثبتناه وهو ما ذكره ابن كثير وغيره.
(٦) جوامع الموصل ص٢١٣.
(٧) تاريخ معرة النعمان ٤٦٨/١.
(٨) الرحلة الحجازية ٣١٤/٢ محمد السنوسي.
(٩) تاريخ حضرموت السياسي ص٥٣.
(١٠) مجموع الفتاوي ٤٤٧/٢٧ - ٤٩١.
(١١) عدا قبر إبراهيم الخليل الذي رجح الجمهور صحته كما ذكر ذلك شيخ الإسلام. انظر هامش (١) ص
(١٢) يعني المعتقدين بصحة هذه القبور.

بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه : إما رائحة طيبة ، وإما توهم خرق عادة ونحوها وإما حكاية بعض الناس : إنه كان يعظم ذلك القبر.[(١)] فأما المنامات فكثير منها ، بل أكثرها كذب وقد عرفنا في زماننا بمصر والشام والعراق من يدعي أنه رأى منامات تتعلق ببعض البقاع أنه قبر نبي ، أو أن فيه أثر نبي ونحو ذلك. ويكون كاذباً ، وهذا الشيء منتشر. فرائي المنام غالباً ما يكون كاذباً ، وبتقدير صدقه فقد يكون الذي أخبره بذلك شيطان ، والرؤيا المحضة التي لا دليل يدل على صحتها لا يجوز أن يثبت بها شيء بالاتفاق. فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : «الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه ، ورؤيا من الشيطان».[(٢)]

فإذا كان جنس الرؤيا تحته أنواع ثلاثة ، فلا بد من تمييز كل نوع منها عن نوع».[(٣)] وبعضهم يكون مستنده في ذلك وما أكثرهم حكاية يحكيها عن مجهول ، «حتى إن منهم من يقول : حدثني أخي الخضر أن قبر الخضر بمكان كذا»[(٤)] فانظر إلى هذا الهراء.

وكل هذه الأمور التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ويستند إليها هؤلاء القبوريون في إثبات هذه القبور ونسبتها إلى الأنبياء كالمنامات وظهور رائحة طيبة ونحوها وتعظيم بعض الناس لها. كل هذه من التبريرات الساقطة والحجج الواهية ، ولكن لا حياة لمن تنادي.

وفي حلب «يوجد هناك مسجد يعرف بمسجد النبي منسوب إلى نبي يدعى كالب بن يوفنا من سبط يهوذا ، ومكتوب تحت الضريح قصيدة نظمها الشيخ علي بن مصطفى الميقاتي منها :

مقام عليه هيبة وجلالة ... تدل على التحقيق ما شاع واشتهر
بأن الذي هذا الضريح يضمه ... نبي له في الذكر شأن وفي الأثر
فزر لنبي الله يا طالب الهدى ... وصل عليه مثلما جاء في الأثر
وسل عنده الحاجات تظفر بنيلها ... فما خاب عبد بالنبيين انتصر

ويقول الغزي بعد أن ذكر أمر هذا الضريح : «وعلى كل حال فلا بأس من زيارته على من توهم من وجوده. فقد قال في طبقات الصوفية للعلامة المناوي أن الأرض لأجسام الأنبياء والأولياء كالماء للسمك فيظهرون بأماكن متعددة ، ويزار كل مكان قيل عنه إنه فيه نبي كريم أو ولي عظيم».[(٥)]

---

(١) وقد تجتمع كل هذه الأمور في كثير من تلك القبور فيكون أحدهم رأى مناماً أخبر فيه بأن قبر فلان من الأنبياء أو غيرهم في المكان الفلاني. ثم يدعى أنه شم رائحة طيبة تنبعث منه ، ثم ينقل عن بعض المنسوبين للصلاح أنه كان يعظم ذلك القبر ، ثم يدعى أن للمقبور إن وجد!! كرامات وخوارق.

(٢) رواه البخاري ، كتاب التعبير ، باب القيد في المنام ، برقم ٧٠١٧ (الفتح ١٢/٤٠٤) ، ورواه مسلم برقم ٢٢٦٣. كتاب الرؤيا ٤/١٧٧٣.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٥٧.

(٤) المصدر السابق ٢٧/٤٥٨.

(٥) نهر الذهب ٢/١٢٨.

وهذه أيضاً من تبريراتهم الساقطة التي يموهون بها على عقول العامة ، ويخدعون بها السذج والبسطاء في نسبة هذه القبور إلى الأنبياء.

فإن الهيبة والإجلال الذي يضطرم في نفوس هؤلاء القبوريين المتعلقين بكل ضريح والمشدوهين بكل مقبور دليل عندهم على صحة النسبة. فكيف إذا اشتهر عند الرعاع وشاع عندهم أن ذلك القبر هو للنبي فلان . فإن هذه يحقق صدق النسبة وصحة الادعاء.

وليس أعجب من ذلك إلا تلك الخرافة التي نسجها الصوفية حول الأنبياء والأولياء وأن الأرض لأجسامهم كالماء للسمك فيظهرون بأماكن متعددة. محاولة منهم لتبرير الأضرحة المتكررة لكثير من الأنبياء والأولياء ، كما رأينا فيما سبق من وجود عدة أضرحة لنبي واحد في أماكن متفرقة. بل لم يعد الأمر يحتاج إلى تثبت وتحقيق عند هؤلاء ، بل يكفي في عرفهم الفاسد أن يقال إن في المكان الفلاني قبر النبي فلان ، حتى لو نسب لذلك النبي أكثر من قبر ، فلا يضيرهم ذلك أبداً ، والغاية عندهم كما ستتضح لنا فيما بعد هي ما عبر عنه الميقاتي في البيت الرابع بقوله :

وسل عنده الحاجات تظفر بنيلها   فما خاب عبد بالنبيين انتصر

فإن ذلك دينهم وغايتهم التي يدورون حولها ، ويروجون لأجلها الأباطيل.

وندع الآن ما نسبه الجهال والمبتدعة من قبور إلى الأنبياء ، لننتقل إلى الأولياء والصالحين بل وحتى من غيرهم لنرى مئات بل ألوفاً من القبور والأضرحة المنسوبة إليهم. والعجيب في الأمر أن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم قد نسبت لهم أضرحة ومشاهد في بلدان لم يموتوا فيها ، بل ربما لم يطأوها مطلقاً.

فهذا الصحابي الجليل أبو الدرداء رضي الله عنه مات بدمشق ودفن فيها،(١) ومع ذلك فله قبر معروف وضريح كبير في الاسكندرية. «ولم تستطع بلدية الاسكندرية نقل هذا الضريح المزعوم لتوسيع الشارع الضيق الذي يقع فيه الضريح نظراً لمظاهر الاستياء التي عمت بين الناس الذي لا يتشككون ولو لحظة واحدة في صحة هذا المقام ، ويروون حول ذلك خرافات كثيرة ، مثل قصة العامل الذي أصيب بالشلل حين عزمت البلدية على نقل الضريح. مما جعل البلدية تلغي فكرة نقل الضريح ، وتتحايل لتوسيع الشارع من جانبيه».(٢)

---

(١) انظر : الإصابة : ٤٥/٣ ، سير أعلام النبلاء ٣٣٥/٢.

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١٥٢/١. د. سعاد ماهر. مطبعة الأهرام التجارية. نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ط ١٩٧١م. وإنني أتوقف في تصديق هذه الحكاية ، بل أميل إلى نفيها ، لأن هذه وأمثالها واحدة من آلاف الحكايات والمخترعات التي يختلقها الجهال والدجالون من مجاوري الأضرحة وعباد القبور ، وينشرونها بين الناس. والأقرب من هذا إن صحت الحكاية أن هؤلاء العمال كغيرهم مأخوذون برهبة الضريح ، وهيبة الموقف ، وممن يؤمنون

وهذا الحسين بن علي رضي الله عنهما[١] سبط رسول الله ﷺ استشهد بكربلاء بالعراق ودفن بدنه بمكان استشهاده ، وأما رأسه رضي الله عنه فالراجح أنه دفن في المدينة كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[٢]. ومع ذلك فله مقام عظيم وضريح كبير ومسجد مشهور معروف باسمه في مدينة القاهرة. يقول عنه صاحب الخطط التوفيقية[٣] : «هذا المسجد هو الحرم المصري والمشهد الحسيني المنفرد بالمزايا السنية والأنوار الحسينية ، اعتنى الأكابر والأمراء في كل عصر بعمارته وزخرفته وإعلاء شأنه وفرشه بالفرش النفيسة وتنويره بالشموع والزيوت الطيبة في قناديل البلور ونجفاته ورتبوا له فوق الكفاية من الأئمة والمؤذنين والبوابين ونحوهم وقراء لقراءة القرآن والدلائل[٤] والتوسلات ، ووقفوا عليه أوقافاً جمة».[٥]

وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في إبطال صحة ذلك المشهد ، وأورد من الأدلة والحجج في ذلك الشيء الكبير ، وبين أن العبيديين في آخر دولتهم أقاموه ، ونقل أقوال العلماء السابقين في بيان زيفه وكذبه.[٦]

ولكن مجاوري الأضرحة وعباد القبور يأبون ذلك أشد الإباء ، وقد يقبلون التشكيك في أشياء ثابتة ، ولكنهم لا يقبلون أبداً التشكيك في صحة هذا المشهد ، ويوقنون أشد اليقين أنه للحسين ، ولا يرفعون بغير ذلك رأساً.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض الشيوخ المشهورين بالعلم والدين قالوا إنه قبر نصراني.[٧]

وليس ذلك بغريب أبداً. ففي الجزائر كان الشعب هناك يؤم ضريحاً في بعض المناطق الشرقية ويتبرك بأعتابه ثم اكتشف أن هذا القبر كان لراهب مسيحي ولم يصدق الناس ذلك حتى عثروا على الصليب في القبر.[٨]

= بقدرة الأضرحة على النفع والضر ، وخاصة أن ذلك الفعل في حس العامة يعتبر من الموبقات التي لا تغتفر ، فلعل صاحبهم هذا لم يتمالك نفسه ، ولم يستطع التحكم في أعصابه للموقف العصيب الذي يقفه ، فلم يستطع تحريك يديه خوفاً ورهبة ، وتلك حالة نفسية قد تقع لمثل هؤلاء في مثل تلك المواقف عندهم ، وقد يكون ذلك كذباً وفعله تمثيلاً كي لا ينقل الضريح. ولو غدونا نصدق كل ما يلفقه هؤلاء السفهاء لصرنا في أمر مريج .

(١) سير أعلام النبلاء ٣/٢٨٠ . الإصابة : ١/٣٣٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٨٢.

(٣) هو علي باشا مبارك المتوفى ١٣١١هـ انظر الأعلام ٤/٣٢٢ .

(٤) يعني دلائل الخيرات للجزولي وهي أذكار مبتدعة وصلوات على النبي ﷺ مختلقة يأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

(٥) الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ٢/٢٨٢ .

(٦) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٥٠ ـ ٤٩٠.

(٧) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٦٠

(٨) صفحات من تاريخ الجزائر ص٣٢٤ د. صالح خرفي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

وفي مدينة حلب مشهد يعرف بمشهد الحسين ، وسبب إحداثه كعادة القبوريين قصة خرافية تقوم على منام كاذب ، وأشخاص مجهولين.(١)

وقد ذكر الغزي أن هذا المشهد كان مهملاً ثم بدىء في إصلاحه. وفي سنة ١٣٠٢هـ جددت بعض جدرانه. وبعد بضع سنين أهدى السلطان عبد الحميد ستاراً حريرياً مزركشاً بآيات قرآنية وضع على المحراب وفرشت أرض قبليته بالطنافس الجميلة ، وجدد ترخيم أرض الصحن ، ورتب له إمام ومؤذن وخادم وموظفون يقرأون كل يوم أجزاء شريفة ، والنفقات على ذلك كله من صندوق أملاك السلطان عبد الحميد في حلب.(٢)

وهناك الكثير من القبور التي نسبت إلى الصحابة وقد يصح منها شيء وهو القليل النادر ، والغالب منها لا يصح ، والسبب في ذلك كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «أن عامة أمر هذه القبور والمشاهد مضطرب مختلق ، لا يكاد يوقف منه على العلم إلا في قليل منها بعد بحث شديد. وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام ، ولا ذلك من حكم الذكر الذي تكفل الله بحفظه حيث قال : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [٩ الحجر]. بل قد نهى النبي ﷺ عما يفعله المبتدعون عندها.(٣)

ونحن نذكر بعد ذلك جملة من القبور المنسوبة إلى الصحابة رضوان الله عليهم بنيت عليها القباب والمساجد ، وشيدت عليها الأضرحة وزينت بأنواع الزينات وأوقدت السرج والقناديل فيها.

فمن تلك القبور قبر أبي أيوب الأنصاري(٤) رضي الله عنه في الأستانة (القسطنطينية) وقد بني عليه جامع ضخم هو«أقدس جامع في الأستانة» كما يقول صاحب دليل الأستانة(٥) ويقول عنه السنوسي الذي زاره في مطلع القرن الرابع عشر الهجري : «فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة ، وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها خطيبه جلال الدين أفندي. فكان لوجود مدفن ذلك الصحابي في تلك البلاد فخر لمقر السلطنة الإسلامية من بلاد الروم».(٦)

ويذكر السنوسي أنه زار ثلاثة قبور نسبت إلى حفصة وأم سلمة وأم حبيبة أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن في دمشق. وقد تعجب من ذلك لأنهن مدفونات في المدينة.(٧)

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٢٨٠ وتراجع القصة هناك. وقد ذكر شيخ الإسلام أن المشهد الذي في حلب لا أصل له. مجموع الفتاوى ٢٧/٤٦٩.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٢.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٤٨.

(٤) الإصابة ١/٤٠٥. سير أعلام النبلاء ٢/٤٠٢.

(٥) دليل الأستانة ص٤٩ محمد شكري الناعمة. مطبعة جرجي غرزوزي. الاسكندرية ١٩٠٩م.

(٦) الرحلة الحجازية ٢/٦٤.

(٧) المصدر السابق ٢/٢١٤.

وقبر أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، مع أنها ماتت في مكة بعد مقتل ولدها عبد الله بن الزبير بأيام قليلة.(١)

ويذكر أبو الثناء الألوسي(٢) أنه في أثناء عودته من رحلته إلى الأستانة عام ١٢٦٣هـ مر في طريقه ببلدة «طور خال» بحجرة منمقة البناء يقول الناس هناك إن فيها صحابياً يسمك كيسك باش. «وينقلون في شأنه حكايات تستوحش منها غواني الصحة غاية الاستيحاش. ومثل ذلك كثير في أكثر البلدان .. قد اتخذ الناس فيها قبوراً هي عندهم من السماك أسمى وشغفوا بها شغف المجنون بليلى وإن هي إلا أسما».(٣)

وذكر أيضاً أنه رأى قبة في نصيبين يزعمون أنها لسلمان الفارسي مع أنه رضي الله عنه دفن في المدائن.(٤)

وهناك ضريح في معرة النعمان لرجل يدعى عطا الله يزعمون أنه صحابي(٥). ولا يعرف في الصحابة مثل هذا الاسم.

وهناك ضريح في بلدة الرها من أعمال حلب يقال إنه لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما(٦) مع أن جابراً توفي في المدينة(٧)، وكان آخر الصحابة موتاً بها.(٨)

وقد ذكر محمد بن خليفة النبهاني (المتوفى سنة ١٣٦٩هـ)(٩) عدداً من الأضرحة المنسوبة إلى الصحابة في البصرة. منها ضريح الزبير بن العوام وضريح عتبة بن غزوان وضريح طلحة الخير، وضريح المقداد بن الأسود وضريح عبد الرحمن بن عوف وضريح أنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين.(١٠) مع أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مات بالمدينة ودفن بالبقيع.(١١)

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/٢٨٧. الإصابة ٤/٢٣١.

(٢) الأعلام ٧/١٧٦.

(٣) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص١٨ مطبعة ولاية بغداد. سنة ١٢٩٣هـ وهذا الاسم الذي عدوه صحابياً ليس معروفاً. ولم يكن عند الصحابة من الألقاب الأعجمية ولا من غيرها شيء. ولعله من اختراع الأعاجم هناك. شأنهم في ذلك كشأن غالب المسلمين في تلك الأزمنة.

(٤) المصدر السابق ص٩١ وانظر سير أعلام النبلاء ٢/٥٠٥ والإصابة ٢/٦٢.

(٥) تاريخ معرة النعمان ١/٤٦٨.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٥٤٢.

(٧) سير أعلام النبلاء ٣/١٩٢.

(٨) الإصابة ١/٢١٣.

(٩) الأعلام ٦/١١٦.

(١٠) التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية ص٦٢ منشورات مركز دراسات الخليج العربي. جامعة البصرة (٣٧) ١٩٨٠ مستل من الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ.

(١١) الإصابة ٢/٤١٧. سير أعلام النبلاء ١/٩٢.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن بعض أصحابه حدثه «أنه ظهر بشاطىء الفرات رجلان ، وكان أحدهما قد اتخذ قبراً تجبى إليه أموال ممن يزروه وينذر له من الضلال ، فعمد الآخر إلى قبر ، وزعم أنه رأى في المنام أنه قبر عبد الرحمن بن عوف ، وجعل فيه من أنواع الطيب ما ظهرت له رائحة عظيمة»[١] فلعل ما ذكره شيخ الإسلام هو الذي ذكره النبهاني ، لأن أكثر تلك المشاهد مكذوبة كما عرفنا ذلك. وكذلك المقداد بن الأسود مات بالمدينة ودفن رضي الله عنه في البقيع.[٢]

وقد ذكر النبهاني أن الدولة العثمانية قد أعفت أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف ، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة ، يعني الزبير بن العوام رضي الله عنه. وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً ، وقامت والدة السلطان عبد العزيز بترميم القبب ، وتكبير المسجد ، فصار جامعاً حسناً!.

وفي سنة ١٢٩٣هـ ورد أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون). ثم في سنة ١٣٠٥هـ أمر السلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القبب وتعمير المسجد ، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين. وهذه الأثاثات صارت على نظارة شعبان باشا والي البصرة سنة ١٣٠٦هـ ، والأدوات المذكورة باقية إلى اليوم تحت يد القيم ، يبرزها وينشر الحلل على الضريحين في المواسم الإسلامية والليالي المباركة».[٣]

وفي سوس ببلاد المغرب الأقصى مدفن يعتقد أنه به ثلاثة أنبياء ، وهناك أيضاً مدفن آخر يعتقد أنه لسبعة من الصحابة. يقول أحدهم : «وينبغي أن لا يستبعد شيء من هذه الأخبار ، لا من نسبة الصحبة لهؤلاء السبعة ، ولا من دفن الأنبياء المذكورين بالمحل المذكور بل يجب علينا التسليم في ذلك كله! ، واعتقاد تعظيم القبور المذكورة بما يعد تعظيماً! ، وبكل ما يليق من الاحترام ، ولو على تقدير توهم الصحبة ، لا سيما مع ما انضم إلى ذلك من الشيوع وتواطىء الألسنة على ما ذكر خلفاً عن سلف».[٤]

فالغاية عندهم كما سنرى هي تعظيم القبور مهما كان المقبور. فكيف إذا ما شاع عند العامة وتواطأ عند الغوغاء مع العلم الباطن الذي يدعيه دجاجلة المتصوفة ، وزنادقة الطريق.

وإذا تجاوزنا ما نسب إلى الصحابة من قبور ، وغالبها مكذوب كما رأينا ، نجد أن ما نسب

---

(١) مجموع الفتاوي ٤٥٩/٢٧.

(٢) الإصابة ٤١٧/٢. سير أعلام النبلاء ٣٨٦/١.

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ ـ ص ١١٨.

(٤) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٢٧٢/٣ العباس بن إبراهيم السملالي، المطبعة الملكية . الرباط ١٩٧٤م .

إلى من جاء بعدهم لا يكاد يحصر ، فقد بني على كل قبر يعتقد أنه لولي ولكن على طريقة الصوفية في تحديد الأولياء التي يوضع فيها كثير من الدجالين والمارقين والمجانين بجانب أولياء الله الصالحين.

لقد كانت عمارة الأضرحة والقباب على القبور ظاهرة بارزة لتلك الفترة التي ندرسها ولم يكن يعمر مسجد أو جامع إلا على ضريح ، وقل أن يعمر مسجد ليس على ضريح ويذكر صاحب الخطط التوفيقية علي باشا مبارك (المتوفى ١٣١١هـ) أن الموجود في زمنه في القاهرة وحدها مائتان وأربعة وتسعون ضريحاً.[١] ومن أشهرها ضريح الحسين وضريح السيدة سكينة ، وضريح السيدة نفيسة ، وضريح السيدة زينب ، وضريح الإمام الشافعي ، وضريح الليث بن سعد ، وكل هذه الأضرحة قد بني عليها جوامع ومساجد. وتذكر الدكتورة سعاد ماهر أن الأضرحة المشهورة يزيد عددها في مصر على الألف.[٢] ومن أشهر الأضرحة خارج القاهرة ما يسمى بضريح السيد البدوي في طنطا.

ولم تكن الأقطار الأخرى أحسن حالاً من القطر المصري. ففي الشام مثلاً عشرات من الأضرحة والمزارات المشهورة. وقد ذكر القاياتي الأضرحة التي زارها فبلغت أكثر من أربعين ضريحاً، وقد ذكرنا بعضاً منها.[٣]

وقد ذكر عبد الرحمن بك سامي الذي قام بزيارة إلى الشام عام ١٨٩٠م[٤] الترب والأضرحة والمزارات في دمشق وضواحيها فبلغت مائة وأربعة وتسعين موضعاً.[٥] أما نعمان قسطالي فقد عد فيها أكثر من أربعة وأربعين ضريحاً. وهذه هي المشهورة منها. وذكر أن الصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبراً ، لكل واحد منها قبة ويزار ويتبرك به.[٦]

وفي الأستانة عاصمة السلطنة العثمانية يوجد أربعمائة وواحد وثمانون جامعاً لا يكاد يخلو جامع فيها من ضريح.[٧]

---

(١) الخطط التوفيقية ٢٤٤/١.

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٤٤/١ فإذا طرحنا من هذه الألف ما ذكره صاحب الخطط وهو الموجود في القاهرة البالغ مائتين وأربعة وتسعين كان المتبقي هو سبعمائة وستة ويكون هذا هو عدد الأضرحة خارج القاهرة في نواحي متفرقة من القطر المصري. وهذا هو المشهور فقط.

(٣) انظر : نفحة البشام في رحلة الشام.

(٤) حوالي عام ١٣٠٨هـ.

(٥) القول الحق في بيروت ودمشق ص٩٧ دار الرائد العربي. بيروت ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٦) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ص١٣١ دار الرائد العربي. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٧) دليل الأستانة ص٤٨.

وفي الهند يوجد أكثر من مائة وخمسين ضريحاً ما تزال موجودة إلى يومنا هذا كما ذكر أحد الباحثين[(١)] وهذه هي الأضرحة الكبيرة المشهورة التي يؤمها الآلاف من الناس.

وفي بغداد كان يوجد أكثر من مائة وخمسين جامعاً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وقل أن يخلو جامع منها من ضريح.[(٢)]

وفي الموصل يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحاً مشهوراً كلها داخل مساجد.[(٣)]

وهذا كله بالنسبة إلى الجوامع ، أما المساجد وهي التي لا تقام فيها الجمعة فهي تزيد على الجوامع أضعافاً مضاعفة ، ولم يكن يخلو مسجد منها من ضريح إلا في النادر القليل وهناك أيضاً الأضرحة التي تكون في الزوايا والتكايا. وهناك أيضاً الأضرحة المكشوفة التي لم يبن عليها جوامع أو مساجد ، وتلك كثيرة أيضاً.

ولا تخلو مدينة من المدن في تلك الفترة من تلك الأضرحة على مستوى العالم الإسلامي كله[(٤)]. بل لم يعد البناء على القبور قربة عند هؤلاء فحسب ، بل صار ذلك ميداناً فسيحاً للتنافس بين البلدان ، والتفاخر بتلك الأضرحة ، وبمقدار ما يحوزه البلد من أضرحة الأولياء تكون أفضليته عند الناس ويرغب في سكناه والمجاورة فيه وإذا افترض أن هناك بلداً لم يتشرف بحيازة شيء من هذه الأضرحة فإنه لا يعدم من أهله من يختلق أكذوبة وإشاعة يدعي فيها أنه رأى رؤيا أن المكان الفلاني من البلد يوجد به قبر ولي من الأولياء ، فيسارع الناس إلى البناء على ذلك الموضع المزعوم ، وإذ به يغدو بعد أيام قلائل مزاراً يهرع إليه أهل البلد.

وأقبل السلاطين والملوك والأمراء على عمارة المشاهد والأضرحة ، وتنافس الأثرياء والموسرون في ذلك العمل الذي كانوا يرونه أعظم قربة لهم ، وتعلق الناس بذلك أيما تعلق ، وكان كثير من الملوك والحكام في ذلك الزمن يلجأون إلى عمارة تلك الأضرحة والإنفاق عليها ليس إيماناً بها بقدر ما كان إرضاءاً لمشاعر الناس ومحاولة لكسب ولائهم والعمل على إلهائهم بتلك الأضرحة التي تعبد من دون الله عز وجل ، واطمئناناً على الأقل من ثوراتهم وتمرداتهم نتيجة لما كان يمارسه هؤلاء الحكام من

---

(١) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية. ص١٣٩ .

(٢) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ٧٢/١ محمد رؤوف السيد طه الشيخلي خريج الكلية العسكرية في استانبول سنة ١٣٢١هـ. مطبعة البصرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٣) ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء. أحمد بن الخياط الموصلي. تحقيق سعيد الديوه جي مطبعة الجمهورية. الموصل ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

(٤) باستثناء نجد وملحقاتها وذلك بفضل دعوة الشيخ محمد التي نفع الله بها.

ظلم وطغيان. «إن تشييد أكثر المقامات والمشاهد كان لغاية سياسية فإن رجال الحكم الذين كانوا يريدون أن يعززوا حكمهم، ويجعلون له صبغة دينية فإنهم كانوا يقربون أرباب الطرق ويشيدون المراقد والمشاهد».(١)

وهكذا كان الحال في جميع الأقطار الإسلامية. في الحجاز واليمن وافريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها.

وأخذت تلك الأقطار تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها. إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون.

بل لقد كان ذلك علامة على صلاح وعدل من يفعله من الحكام والأمراء. فمن كان منهم مكرماً للأولياء بزعمهم يبنى الأضرحة على قبورهم ويشيد القباب عليها ويزور تربهم ويمرغ خديه على عتباتهم فهو الحاكم الصالح المحبوب عند رعيته ولو كان من أظلم الظالمين.

ويذكر أحمد بن الخياط (المتوفى ١٢٨٥هـ) أن الذي دفعه إلى تأليف كتابه «ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء» هو ما رآه من والي الموصل في زمنه (نجيب باشا) ومحبته للأولياء، وزياراته المتكررة لمدافنهم ومشاهدهم، وأن ذلك من توفيق الله له لأن من أحب قوماً فهو معهم. وقد أهداه مؤلفه المذكور.(٢)

ولم يكن باستطاعة أحد في ذلك الزمن أن يقف أمام ذلك الطوفان العظيم من التعلق بالقبور وتعظيم الموتى إلا ما كان من حال الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، وأفراد قلائل لا يلبث أن تخمد دعوتهم.

وقد ذكر القاياتي مقام إبراهيم بن أدهم وما أعد فيه من خلوات لنوم الغرباء، ووصف بنائه، وقال بأن ملوك الزمان قد خدمته.(٣)

وكثيراً ما يذكر في تراجم الحكام والأمراء ضمن محاسنهم تجديد الأضرحة وإقامة المشاهد. كما ذكر على سبيل المثال المولى محمود باشا باي تونس (المتوفى ١٢٣٩هـ) والمولى حسين باشا باي تونس (المتوفى ١٢٥١هـ).(٤)

وهذا السلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمن العلوي سلطان المغرب (المتوفى سنة

---

(١) المصدر السابق ص١٤.

(٢) ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء ص٢٦.

(٣) نفحة البشام ص٦٦.

(٤) أعيان القرن الثالث عشر ص ٢٦٤ خليل مردم بك. لجنة التراث العربي. لبنان ١٩٧١م.

١٣١١هـ)[١] كان كما يقول عنه السملالي : «زواراً للصالحين ، وأولياء الله المفلحين ، كثير التطواف على أمكنتهم ، بحاثاً عن أضرحتهم ، وكم جدد لهم من مقام وشيد من قباب فخام ... »[٢] ثم شرع يذكر ما بناه من أضرحة وما جدده منها.

وعندما مات الصوفي المشهور خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي عام ١٢٤٢هـ[٣] بنى السلطان عبد المجيد خان على قبرة قبة عظيمة ومسجداً وعدة مقاصير للمريدين والمتجردين ومطبخاً وبركة عظيمة للماء.[٤]

ولم يقتصر الأمر على بناء الأضرحة والقباب على قبور الأنبياء والأولياء والصالحين بل تعدى ذلك إلى البناء على من له رئاسة دنيوية ، وإن كان من أفجر الفجرة وقد يوصى أحدهم بذلك.[٥]

ولما مات والي الشام أحمد حمدي باشا سنة ١٣٠٣هـ في بيروت ، أمر السلطان عبدالحميد الثاني بتعمير زاوية لمدفنه ، يصرف عليها من ماله الخاص أربعة وستون ألفاً صاغاً.[٦]

وللمؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي نص هام في بيان تعلق الناس واهتمامهم ببناء الأضرحة حيث ذكر سفر والي مصر حسن باشا وأنه لم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر ، فلم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة ، ثم قال بعد ذلك : «ولو مات حسن باشا بالاسكندرية أو رشيد لهلك عليه أهل الإقليم أسفاً وبنوا على قبرة مزاراً وقبة وضريحاً يقصد للزيارة».[٧] فإن ذلك ديدن أهل العصر، ووباء خبيث قلّ من نجى منه .

ووصل الأمر أحياناً أن يبنى على قبر صعلوك كان يقطع الطريق جامع وقبة. كما صنع الخديوي إسماعيل سنة ١٢٨٠هـ برجل يدعى صالح أبو حديد كان قاطع طريق ، ويعمل له حضرة كل أسبوع ومولد كل عام ، وأوقف عليه أوقافاً تفي بإقامة شعائره المبتدعة.[٨]

ويعلق صاحب الخطط التوفيقية عند الحديث عن هذا الجامع بقوله : «وهو جامع عظيم لم يبن

---

(١) الأعلام ٢/٢٢١.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/١٧٢.

(٣) الأعلام ٢/٢٩٤.

(٤) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ١/٥٨٦

(٥) أدب الطلب ص١٧٠ .

(٦) حلية البشر ١/١٤٠. وفي هامش الصفحة لمحقق الكتاب الشيخ محمد بهجت البيطار قوله : الصدقة الجارية ليست بتعمير الزاوية. وهذا المبلغ يكفي لتعليم عشرات من الطلاب كثيراً من العلوم والفنون والآداب.

(٧) عجائب الآثار ٢/٣٢.

(٨) الخطط التوفيقية ٢/٢٣٨.

لغيره من الأفاضل ذوي المعارف والعلوم الذين انتفع الكثير بعلومهم ومعارفهم، ولكن هذه عادة قديمة ألفها المصريون من قديم الزمان. وطالما نبه عليها كثير من المؤلفين في كتبهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». (١)

وهذا المجذوب علي البكري ، الذي كان يطوف الشوارع عرياناً ، قام أخوه بعد موته وعمد إلى أحد مساجد القاهرة واجتزأ نصفه ظلماً وجعله ضريحاً لأخيه ليرد إليه الناس من كل أنحاء القطر. (٢)

وفي حلب يوجد مسجد عرف بمسجد العريان يعتقده أهل المحلة الموجود بها ، ويقولون إنه عرف بالعريان لأنه كان في أكثر أوقاته يغلب عليه الحال فيتجرد من ثيابه. (٣)

« وليس هذا فحسب ، بل إن هناك مقامات لدواب هؤلاء الشفعاء (يعني الأولياء) تقدم إليها النذور، ويوقد عليها البخور ، والويل لمن تحدثه نفسه بالاعتراض ، أو يسول له عقله الانتفاض» (٤) ويذكر الشيخ محمد المجذوب أن في اللاذقية حضرة يقال إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي .. لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر. (٥)

ولطالما تعدى هؤلاء القبوريون على المساجد والمدارس ظلماً وعدواناً وحولوها إلى ترب يدفنون فيها من يعتقدونهم من الأموات ويبنون عليها الأضرحة والقباب . ويتحدث العلامة الشيخ عبد القادر ابن بدران عن تعدي الناس على المدارس وأوقافها في دمشق خصوصاً دور الحديث ، وأنه أراد أن يستقصي أوقاف كل مدرسة ويصفها ولكنه كما يقول لم يجد إلا هباء منثورا لتعدي الناس عليها ، ولم يبق من ذلك إلا قبر الواقف : «فمن ثم ترى بستاناً وهو نزهة الناظرين ، وفيه قبة عالية بها قبر عظيم، فإذا سألت عنه قيل لك : هذا قبر الولي الفلاني ، أو الصحابي ويسميه باسم غريب ، ويكون أصل ذلك

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٤٠ والبناء على القبور لا يجوز سواء أكان الميت فاضلاً أم لا. وأصل قصة الشيخ صالح هذا أنه كان على رأس عصابة تقطع الطريق وتقتل المارة وتسلبهم ، وعندما كشف أمرهم فر صالح إلى بيت مغنية مشهورة وادعت أنه مجنون ووضعت في رجليه قيداً من حديد ، وقد اعتقل لسانه من شدة الخوف ثم شاع عنه بين الناس أن له كرامات وأخباراً بالمغيبات وكان ذلك بفعل المجتمعين من حوله من الأوباش ، وأقبل الناس عليه بالهدايا والنذور لاستكشاف المغيبات واستمر على هذا إلى أن مات وكان ما كان.

(٢) عجائب الآثار ٢/١٥٥. وقد كان ذلك قبل احتلال الفرنسيين لمصر بسنوات.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٤٣٥.

(٤) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص١٣٤ .

(٥) المصدر السابق ص ١٣٤. وقد حدثنا أحد أساتذتنا في السنة المنهجية عام ١٤٠٩هـ وهو الدكتور مصطفى حلمي أن البلدية في الاسكندرية عزمت على نقل ضريح من أحد الطرق فثار الغوغاء هناك واستنكروا نقل الولي من قبره ، ولكن البلدية أصرت على عزمها ، وكانت المفاجأة أن القبر كان يضم عظام حمار!! ولكن المثل السائر في مصر هو (تحت القبة شيخ) ـ انظر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ١/٤٦. حتى ولو كان المدفون حماراً.

البستان مدرسة أو جامعاً ، فاختلس مكانهما وغرس بالأشجار ، وأعطى القبر لقب ولي أو صحابي وربما قيل عنه نبي، ثم مع مرور الزمن يخترعون له مناقب وكرامات ، ويعلقون الخرق فوقه لصرف أفكار البسطاء نحوه ، وإقبالهم على زيارته ، وبذل الدراهم لخدامته ، فيجعلونه كشجرة يقصدون ثمرها بكرة وعشيا».

ثم يذكر مثالاً على ذلك فيقول : «كما أني حرت في معرفتي للمدرسة الكروسية ، فلم أقدر على معرفة محلها لاندراسها ، ودخولها في الدور. فبينما أنا أفتش ، إذ برجل قال لي : هذا مقام السلمي وهو صحابي جليل وهذا الزقاق يسمى باسمه. فنظرت في ترجمة واقف المدرسة ، فإذا هو السلمي ، فاهتديت إلى مكانها ، وأريت صاحبي ترجمته وأعلمته بأنه ليس بصحابي . وصاحبي هذا من أهل العلم الذين لهم تلامذة في زمننا فما ظنك بالعوام».(١)

وقد أولع العثمانيون خاصة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثاراً لأنبياء أو غير ذلك.

ففي الطريق الجبلي إلى غار حراء بناء متين تعلوه قبة طوله ستة أمتار في مثلها عرضاً في ثمانية ارتفاعاً ، وفي أرض هذا البناء حجر أملس أسود به شق في وسطه يقال إنه المكان الذي شق فيه صدر الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

ويعلق صاحب «مرآة الحرمين» اللواء إبراهيم رفعت باشا (المتوفى سنة ١٣٥٣هـ)(٢) على ذلك بقوله : «اللهم إن هذا بهتان عظيم مبين ظنه الناس صدقاً وتوارثوا هذا الظن حتى بلغ من نفس السلطان عبد العزيز أن حركه لبناء قبة على هذا المكان المزعوم في سنة ١٢٧٩هـ ، وقد وجدت هذا مكتوباً في جدارها الجنوبي محلى بماء الذهب».(٣)

وبالقرب من الهفوف كان يوجد هناك عين ينبع منها الماء الحار صيفاً وشتاء تسمى «بعين نجم» كان العوام يعتقدون أن من به عاهة إذا اغتسل في هذه العين يبرأ ، وقد خشي بعض أهل العلم السلفيين الفتنة على الناس ، واختلال عقائدهم فدفنوها سداً للذريعة، وبعد انقيادها لزمام الدولة العثمانية أعادوها كما كانت وبنوا عليها قبة ومباني لطيفة فعاد الناس ينتابون إليها».(٤)

ولم يكتف العثمانيون بعمارة الأضرحة والقباب على قبور أهل السنة ، بل كانوا يهتمون

---

(١) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص ٥٣ المكتب الإسلامي. دمشق ١٣٧٩هـ.

(٢) الأعلام ١/٣٩.

(٣) مرآة الحرمين ١/٥٩ بدون تاريخ طبع واسم مطبعة ، رحلات عبد الوهاب عزام ص٣٤٦ الرسالة. الطبعة الثالثة ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م.

(٤) تاريخ نجد ص٥٣ العلامة محمود شكري الألوسي. الناشر المكتبة العربية. بغداد المطبعة السلفية - القاهرة ١٣٤٣هـ. وما تزال هذه العين موجودة إلى يومنا هذا كما حدثني من زارها .

بالعتبات المقدسة عند الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية ويديرون شؤونها من خلال دائرة الأوقاف العثمانية وييسرون السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارتها.(١)

وحين أظهر الله عز وجل أهل الدعوة على عباد القبور والأضرحة، ونصرهم عليهم ومكن لدولتهم، أعادوا الأمور إلى نصابها ، وقاموا بهدم تلك الأضرحة والقباب وتقويض معالمها في مكة والمدينة والحجاز وغيرها كان ذلك عند الناس أمراً عظيماً ، وكفراً مبيناً ، إذ ذلك خلاف المعهود عندهم وما نشأوا عليه وورثوه عن أسلافهم، وانقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وننقل نبذة للمؤرخ محمود فهمي المهندس (المتوفى ١٣١١هـ)(٢) ذكر فيها خبر استيلاء أهل الدعوة على الطائف وما قاموا به من هدم للأضرحة والقباب. يقول : «وهدم جميع القبور الطاهرة وكان من ضمن هذه القبور قبر العباس عم النبي ﷺ(٣) أشهر وأفخر محل يزار في أنحاء بلاد العرب في جماله ونظامه وطهارته».(٤)

وقال بعد ذكر دخولهم مكة سنة ١٢١٨ في الرابع من محرم : «وأمر في الوقت بهدم ما ينوف عن ثمانين قبة فاخرة البناء كانت على قبور ذراري الرسول ﷺ وعليها مدار رونق مكة وبهجتها وسواها جميعها بالأرض حتى القبة التي على قبر خديجة رضي اله عنها».(٥)

لقد كان ما قام به أهل الدعوة من هدم لتلك الأضرحة والقباب سبباً في نفور السواد الجاهل من الناس ، ومخالفاً لما ألفوه عبر الأزمنة من تعظيم القبور وتقديس لها. لذا سرعان ما بادروا بعد انحسار ظل دولة أهل الدعوة عن الحجاز بإعادة البناء على القبور من جديد ، فأقاموا الأضرحة وبنوا القباب ، واستمر الوضع على ذلك حيناً من الدهر حتى تولى الشريف عون (المتوفى سنة ١٣٢٣هـ)(٦) فكلمه الشيخ أحمد بن عيسى (المتوفى سنة ١٣٢٩هـ) وأشار على الشريف بأن يهدم جميع القباب فهدمها وأزال ما كان في القبور من تشييد وغلو في جميع الحجاز وما حولها إلا ما كان من قبر حواء وخديجة وابن عباس في الطائف فإنه تركه مخافة من تشويش السلطان عبد الحميد الثاني(٧) ثم

---

(١) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٠٣ ـ ٨١٢.

(٢) الأعلام : ٧/١٨٠.

(٣) هكذا قال والصحيح أنه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. أما العباس فمجمع على موته في المدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، ودفن في البقيع. انظر الإصابة ٢/٢٧١ وسير أعلام النبلاء ٢/١٠٠.

(٤) البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر ١/١٧٥ مطبعة بولاق ١٣١٢هـ.

(٥) المصدر السابق ١/١٧٦. (٦) الأعلام ٥/٩٧.

(٧) روضة الناضرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين ١/٧٥ محمد بن عثمان بن صالح القاضي. الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨٩م مطبعة الحلبي. القاهرة. ويذكر البتنوني سبباً طريفاً لمنع هدم قبر حواء هو اعتراض القناصل الأجانب في جدة على ذلك بحجة أن حواء أم لجميع الناس وليست أماً للمسلمين فقط. وكما قيل : شر البلية ما يضحك. الرحلة الحجازية ص١٥ .

أعاد القبوريون أكثر تلك القباب حتى فتحت مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ على يد الملك عبد العزيز وجيشه من الإخوان فأزالوها نهائياً والحمد لله ، وشنع عليهم أنصار البدعة وعباد الأضرحة وكبر على العوام هدم ضريح السيدة خديجة وبيت السيدة فاطمة والمولد النبوي لاحتفاء الأتراك بها زمن دولتهم.(١)

وفي ريف المغرب الذي كان يحتله الأسبان ، قامت القبائل هناك بثورة عارمة ضدهم، حين بنى الأسبانيون مراكزاً للحراسة بقرب ضريح تقدسه القبائل.(٢)

وعندما استولى الأسبان على مدينة تطوان بالمغرب الأقصى عام ١٢٧٦هـ قال أحد الفقهاء يرثي قائلاً :

فالديـن يبكي بدمـع   يحكيه صوب الغمامـة
على مساجد أضـحت   تبـاع فيـها المدامـة
كم مـن ضـريح ولي   تلـوح منه الكرامـــة
علـــق فيـــه رهيـب   صـليبه ولجـــامـه
تطـوان ما كنـت إلا   بين البلاد حمـامـة(٣)

فالجهاد من أجل الأضرحة ، والدفاع عنها ، والبكاء لهدمها ، والرثاء لها من سمات تلك الفترة. وهل ضاع الدين وانتصر الصليبيون إلا بهيمنة تلك الأضرحة واللجوء إلى أصحابها من دون الله عز وجل. وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾ [هود ١٠١].

وكما كان لبيوت الأصنام في الجاهلية سدنة وحجاب، فكذلك كان الحال بالنسبة لتلك الأضرحة، حيث يقوم ألوف من السدنة في أرجاء العالم الإسلامي بخدمتها ورعايتها ، ويعيشون في رغد وثراء من ورائها.

وكان سادن الضريح سيداً مطاعاً ، وشخصاً مهاباً ، يستمد طاعته وهيبته من الضريح الذي يقوم على سدانته. وكان التعدي عليه كفيلاً بإثارة مظاهر السخط والاستياء عند جمهور الناس ، بل كان العلماء يهيجون عند حدوث شيء من ذلك ، ويستنكرون أيما استنكار. فعندما صودر أولاد سعد الخادم وهم سدنة ضريح السيد البدوي هاج العلماء في الأزهر وامتنعوا عن التدريس إنكاراً لمن قام

---

(١) تذكرة أولى النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان ٣/٩١. الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن. مطابع مؤسسة النور. الرياض. الطبعة الأولى.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/١٩٥ غير أن سلطان المغرب صالحهم ودفع دية قتلاهم أربعة ملايين ريال!.

(٣) الاستقصا ٤/٢٠٥. أعيان القرن الثالث عشر ص١٩٩ .

بمصادرته ، ولم يعودوا إلا بعد أن طيبت خواطرهم ووعدوا بتلبية رغبتهم.(١)

وكانت سدانة الأضرحة وظيفة متوارثة يرثها الأبناء عن الآباء ، وتنتقل في عقبهم وذراريهم ولا ينزعها منهم إلا ظالم كما يزعمون. ولم تكن لتنزع من أسرة إلا ليعهد بها إلى أسرة أخرى.

كما وقع للشريف عون الرفيق حين نزع خدمة ضريح خديجة رضي الله عنها من الشيخ عبد الله باروم ، وأنعم به على غيره. فما كان من المذكور إلا أن سافر يتشكى إلى حكام الأستانة حيث تحقق له ما أراد ، وذلك بعد أن مات الشريف عون. وظل في خدمة الضريح المذكور حتى وفاته.(٢)

وكثيراً ما تقرأ في تراجم العلماء أن أحدهم كان متولياً على خدمة الضريح الفلاني. فهذا الشيخ علي قدسي (المتوفى ١٢٩٥هـ) ، ابن مفتي الشافعية كان ناظراً لأوقاف زاوية علي البدوي في شعب عامر وخادماً لضريح الشيخ العادلي بمحلة الشامية ، وأن هاتين الوظيفتين كانتا في بيتهم يتوارثونها خلفاً عن سلف.(٣)

أما الضريح المنسوب إلى موسى الكليم عليه السلام فيقوم على خدمته بيت الحسيني من قديم. والمعروف أن في بيتهم الإفتاء أيضاً.(٤)

وربما تولى سدانة الضريح واحد من ذرية الميت كما وقع لضريح الشيخ عبد الغني النابلسي (المتوفى ١١٤٣هـ).(٥) «حيث يشرف عليه أحد أحفاده.(٦)

ولضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني حيث كان يقوم عليه الشيخ سليمان الجيلي أحد ذريته.(٧)

وكان سادن الضريح في الغالب من الأعيان المرموقين. ويقول القاياتي الذي ذهب إلى زيارة ضريح السلطان إبراهيم بن أدهم كما كانوا يطلقون عليه في مكان يدعى جبلة بالقرب من اللاذقية : «ولقد زارنا من أهل جبلة حضرة مفتي أفندي الشيخ طه من وجهاء البلد وأعيانها المعتبرين وله شهرة بالسخاء والفتوة ، وهو ناظر وقف السلطان إبراهيم الذي يدير حركة الضريح والمسجد والحرم».(٨)

---

(١) عجائب الآثار ٣/٤٢.

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ٢/٢٤٣ الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير. اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي، أحمد علي. من مطبوعات نادي الطائف الأدبي. الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٣) المصدر السابق ٢/٢٢٢.

(٤) نفحة البشام ص٩٥.

(٥) الأعلام ٤/٣٢.

(٦) نفحة البشام ص١٣٤.

(٧) الرحلة الحجازية ٢/٢١٩.

(٨) نفحة البشام ص٧٠.

والشيخ سليمان الجيلي الذي مرّ ذكره آنفًا ، كان نقيباً للأشراف في بغداد.[١]

وقد كان لتلك الأضرحة أوقاف كثيرة تدر عليها وعلى سدنتها الأموال الوفيرة ، هذا غير العطايا الجزيلة والهدايا الثمينة والنذور التى تقدم إليها من قبل المولعين بها تقرباً إلى أصحابها.[٢]

وحسبناعلى ذلك أن نعلم أن ما كان يصل إلى ضريح الجيلاني في السنة من أموال الزائرين يفوق ماكانت تصرفه الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين في السنة الواحدة بأضعاف مضاعفة. وأن ما كان يدخل عليه من أوقافه يفوق ذلك أيضاً.

يقول السنوسي : «بلغني عن الشريف المشير الشيخ السيد سليمان الجيلي أحد ذرية الشيخ عبد القادر نقيب الأشراف ونقيب زاوية جده ببغداد أنه لما قدم إلى الحج منذ ثلاثة أعوام ، وقد بلغت قيمة ما أهداه السلطان من الخيل والمجوهرات إلى المليونين فرنكاً. وكان مع الركب فسأل أمين الصرة عن مبلغ مصاريف الدولة العلية على الحرمين الشريفين ، ولما علمه استصغره جداً وقال له : إن خطباء المسلمين في جميع الدنيا ينادون بأن السلطان خادم الحرمين الشريفين. وهذا المبلغ اذا اعتبرنا منه مصاريف الركب ، ونظرنا لخصوص ما ينال أهالي الحرمين مع كون أوقاف المسلمين على الحرمين من الممالك العثمانية بيد نظارة الأوقاف لا نجد فيه نسبة معتبرة. وأنا بموجب نظارتي على زاوية جدي في بغداد يصلني كل سنة من زيارات أهل الأقطار مبلغ أكثر مما يصل للحرمين من الدولة فضلاً عن مداخيل وقف الزاوية في سائر الجهات وهي أيضاً في نفسها أكثر من هذا المبلغ تصل إلى النقباء والعلماء والمجاورين وتصرف في الإيقاد والتحصير [٣] والإطعام العام على مر الأيام».[٤]

ويتحدث محمد سليم الجندي (المتوفي سنة ١٣٧٥هـ)[٥] ، عن المقام المنسوب إلى يوشع عليه السلام في معرة النعمان فيقول : «ولهذا المسجد أوقاف كثيرة ، كان ينفق عليه من ريعها ثم أصبحت نهباً مقسماً بين المتولين و المتغلبين ، فلم يبق إلا النزر اليسير منها ..» وذكر أكثر من خمسين وقفاً منها بساتين وحقول وأراض ومزارع.[٦] وهذا النزر اليسير فكيف بالكثير الذي نهب !! وقد ذكر الجبرتي عن سدنة الأضرحة أنهم أغنى الناس.[٧]

---

(١) الرحلة الحجازية ٢/٢١٩.

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «والكسب الذي يكسب بمثل ذلك خبيث من جنس كسب الذين يكذبون على الله ورسوله ويأخذون على ذلك جعلاً ، ومن جنس كسب سدنة الأصنام الذين يأمرون بالشرك ويأخذون على ذلك جعلاً. فإن هذه الأمور من جملة ما نهى عنه من أسباب الشرك ودواعيه وأجزائه. مجموع الفتاوي ٢٧/١٠٩.

(٣) التحصير فرش الحصر جميع حصير.

(٤) الرحلة الحجازية ٢/٢١٩ .

(٥) الأعلام ٦/١٤٨.

(٦) تاريخ معرة النعمان ١/٣٦٠.

(٧) عجائب الآثار ٣/٤٢٦.

وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها وصرفوا جهودهم وأموالهم ، وشغلوا عقولهم وقلوبهم بتلك الأعمال التى لا طائل من ورائها إلا وقوع الشرك وفشو المنكرات ، وإضاعة الأعمار والأوقات.

وكان كل ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم وتوفير وسائل العيش الكريم لهم ، وتقوية الأمة التى كان أعداؤها في الخارج يتربصون بها الدوائر. يقول الامام الشوكاني رحمه الله : «وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية (١) تكاثرت الأوقاف على القبور ، وبلغت مبلغاً عظيماً ، حتى بلغت غلات ما يوقف على المشهورين منهم ما لو اجتمعت أوقافه لبلغ ما يقتاته أهل قرية كبيرة من قرى المسلمين. ولو بيعت تلك الحبائس الباطلة لأغنى الله بها طائفة عظيمة من الفقراء ، وكلها من النذر في معصية الله».(٢)

وكان التعلق بآثار الأنبياء والصالحين ، والتفتيش عنها ، وتصديق كل ما ينسب إليهم من آثار سمة بارزة من سمات تلك الفترة التي نقوم بدراستها.

«ففي جامع الكريمة في حلب رخامة صفراء في الجدار بارزة السطح في وسطها حجر فيه صورة قدم غائص يقولون إنه أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام فيزار ويتبرك الناس به وينقلون عنه الكرامات ، وكان قد سرقه الأعاجم من أحد بيوت مكة المكرمة بقصد أن يضعه في أحد جوامع بلدته لتحرز شرفاً جديدا!. فأخذ منه ووضع في ذلك الجامع.(٣)

وفي حمام الواساني في حلب جرن(٤) أسود يذكر أن الخليل عليه السلام اغتسل منه ولم يزل هذا الأمر مشهوراً حتى الآن. وهو حمام مبارك يدخله الناس للتبرك بآثار الخليل عليه السلام ويحصل لهم الشفاء من أمراضهم خصوصاً النساء».(٥)

«وفي حلب كان يوجد مشهد الخليل عليه السلام فيه قدم من الحجر ينسب إليه يعرف بمقام إبراهيم».(٦)

وهناك مزار بفلسطين يعرف بمحل حزن يعقوب(٧). ولم يبق على هؤلاء الجهال إلا أن يقولوا :

---

(١) يعني بذلك البناء على القبور وإيقاد السرج فيها وتجصيصها.

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور. نقلاً عن الجامع الفريد ص٥٢٨.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٩٨/٢.

(٤) قال في مختار الصحاح : الجرن (بتسكين الراء) والجرين موضع التمر الذي يجفف فيه ، ص٤٣ ولعل المراد به هنا نوع من الآنية.

(٥) نهر الذهب في تاريخ حلب ١٩٧/٢.

(٦) المصدر السابق ٣٦٨/٢.

(٧) نفحة البشام ص١٠٣.

هذا المحل الذي أكل الذئب فيه يوسف عليه السلام وفي الأستانة في سراية طولغيو يوجد ما يسمى بالآثار النبوية ومحلها من أعظم المزارات هناك، يخرج لها السلطان في خاصة رجاله ليلة السابع والعشرين من رمضان كل سنة فيتبرك بمشاهدتها ويبيح التبرك بها بقية أيام الشهر.[١]

وفي كشمير يوجد في إحدى المدن هناك مسجد يعرف بمسجد «حضرة بال»[٢] يعتقد أنه فيه شعيرات من شعر النبي ﷺ، وفي إحدى المرات عام ١٩٦٣م اختفت تلك الشعرات فثار المسلمون ثورة عارمة وقاموا بمظاهرات متصلة. ولم تهدأ الأمور في كشمير إلا بعد اعادة تلك الشعرات إلى مكانها، حيث وجدت الشعرات في نفس صندوقها موضوعاً في مكانه بمسجد «حضرة بال».[٣]

وفي صحن الجامع الأموي بحلب ثلاث درجات الثانية منها محزوزة[٤] من جنوبيها إلى شماليها حزاً مستقيماً متى بلغته الشمس أذن الظهر. قيل إن الخضر عليه السلام هو الذي حزها، والصحيح أن الذي حزها هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الحنبلي الميقاتي.[٥]

وفي مكة المكرمة كثير من الآثار التي يتبرك بها الحجاج كل عام. فمن ذلك غار حراء في جبل النور، وغار ثور، وبيت المولد النبوي كما يقولون.

وفي الجبل الشمالي من منى توجد مغارة يقولون إن إبراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر في جوف الجبل ومن خارجها مصلى في مكان يقولون عنه إنه مذبح إسماعيل، وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل، فيها فلح[٦] كبير يزعمون أن تلك السكين التي أراد أن يذبح بها إبراهيم ولده فلتت من يده رحمه للذبيح فغاصت في هذا الصخر ففلحته على ما ترى وهذا الاعتقاد باق بمكة إلى يومنا هذا!.[٧]

ولا يكاد يوجد بلد من البلدان يخلو من بعض هذه الآثار المزعومة، وما أسهل أن يقوم أحد الدجالين فيزعم أنه رأى في منامه أن الأثر الفلاني للنبي فلان. فيصبح ما ادعاه أثراً مقدساً يتبرك به الجهال، ويتعاهدون الحفاظ عليه جيلاً بعد جيل.

---

(١) الرحلة الحجازية ٧٥/٢ محمد السنوسي.

(٢) بال معناه شعر واسم المسجد منسوب إلى الشعرة. والمعنى مسجد حضرة الشعرة.

(٣) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص١٥٢ وفي أيامنا هذا من شهر جمادى الأول من عام ١٤١٤هـ فرضت القوات الهندية حصاراً على المسجد نفسه حيث قيل إن مجموعة من المجاهدين الكشميريين اعتصموا به. ولعل السر في اعتصامهم به دون غيره علمهم أن السلطات الهندية لا تقدم على نسفه لما له من قدسية واهتمام عند الناس هناك. وقد استسلموا بعد مضي شهر من الحصار.

(٤) محزوزة : أي مقطوعة. انظر مختار الصحاح ص٥٦.

(٥) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٥١/٢.

(٦) الفلح : هو الشق أو القطع. انظر مختار الصحاح ص٢١٤، مكتبة لبنان ١٩٨٦م.

(٧) الرحلة الحجازية ص١٩٦ محمد لبيب البتنوني.

لقد كان هذا حال جميع الأقطار الإسلامية ، تتنافس فيما بينها على احداث الأضرحة والقباب والمشاهد ، وتتسابق إلى تعظيمها وتقديسها. وأصبحت حياة الناس مرتبطة أشد الارتباط بهذه الأضرحة والقبور. وامتلأت بحبها جوانحهم ، وشغفت بها قلوبهم ، فهم يلجأون إليها في الشدائد والملمات ، ويلتمسون منها أسباب النصر ودحر الأعداء ، ويطلبون منها الرزق والولد والشفاء من الأمراض ويتحرون الدعاء في رحابها ، ويرون أنه مستجاب لا يرد، ويرد إليها المظلومون والمضطهدون لعلها تكشف ما بهم ، وتكف أيدي الظالمين عنهم ، ويأوي إليها الفقراء والمحاويج ليعيشوا في كنفها وعلى ريع أوقافها ، وما يقدم لها من نذور وقرابين ، ويفر إليها العصاة والمجرمون فيعتصمون بها ، ويلوذ بها الخائفون فلا يلحقهم أذى ولا تمتد إليهم يد ما داموا في حرمها الآمن. ويزورونها في المناسبات والأعياد، وتكون آخر عهدهم إذا ودعوا الأهل والبلدان ، وأول شيء يبدأون به إذا عادوا إلى أوطانهم ، أو نزلوا في بلد غريب ، وكثيراً ما تتحرك الجيوش من رحابها بعد أن تطلب من أربابها أن تمنحهم أسباب الفوز والظفر وإذا رزق أحدهم بمولود فسرعان ما يحمله إليها لتبارك في عمره ورزقه، ومن كان عقيماً سأل منها الولد. ومن كانت عانساً رجت منها بعلاً.

«ولا تكاد تخلو قرية من إله صغير يقدم الناس له ولأتباعه الذبائح ويقسم به الأطفال ، وتقام له الموالد ، وهناك آلهة أكبر يمكن أن تعتبر آلهة مناطق ، ومقرها المدن ، وتلك يهرع لها إذا تعذر على الإله الصغير أن يحقق الآمال ويمضي الزمن ولا يحقق هذا ولا ذاك أملاً ولكن الناس في غيهم سادرون».(١)

ومن هنا كانت هذه الأضرحة أكبر الصوارف عن رسالة المسجد الحقيقية التي كانت تؤدى في عهود المسلمين الأولى على خير وجه. بل زاد الأمر على ذلك حين غدت هذه الأضرحة آلهة من دون الله يصرف لها كثير من العبادات ، وأصبحت هي الدين عند الناس، وقل من خرج من دائرتهم أو أنكر عليهم.

وقد تجلت مظاهر الشرك والانحرافات في تلك الفترة في الصور التالية :-

أولاً : الاستغاثة والاستعانة بأصحاب هذه الأضرحة في الشدائد والأزمات ودعاؤهم من دون الله عز وجل

يذكر أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة بالسلطة السنارية قصة مفادها أن جارية قتلت سيدها بقبة الشيخ خوجلي فسجن أولاد خوجلي وضربوا وتوعدوا بالقتل لاتهامهم بقتل المذكور. فما كان من الشيخ إبراهيم عبد الدامغ (٢) ، وهو من المعتقدين في الشيخ خوجلي والمحبين لأولاده إلا أن

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٣٨ د/ أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٧م.

(٢) الدامغ ليس من أسماء الله تعالى .

هرع إلى ضريح الشيخ خوجلي وأنشد قصيدة تربو على الثلاثين بيتاً يتوسل فيها بالشيخ خوجلي والصالحين من قبله ، ويستغيث بهم ويستعين بهم في دفع الضيم الذي لحق بأولاد الشيخ خوجلي وتبرئة ساحتهم والاقتصاص ممن ظلمهم. يقول ذلك الشيخ :

اليوم يا خوجلي يا غوث من ذعرا ... أبناؤك الغر من بين الورى أسرا
سموا لصوصاً وقالوا إنهم قتلوا ... نزيلهم في جوار الناس والفقرا
وأبطنت شرهم كل الطوائف من ... ذوي الصدور وأهل الرأي والأمرا
والأمر أشكل والآراء قد عميت ... عما يقال ولا شخص لهم عذرا
وقد عهدناك طوداً يستغاث به ... لدى الشدائد والأمر الذي عسرا
كم مرة صاح محزون فكنت له ... في الحال خير مغيث عندما قهرا
وكم أتاك كئيب القلب في نوب ... أعيت فجاء له النصر الذي انتظرا
وكم أجبت بقفر الأرض منقطعاً ... عن الرفاق وكنت العون والوزرا
إن لم تكن ناصراً أبناء صلبك من ... يرجوك تنجده في الدهر إن عثرا
لك العناية من رب العباد فقم ... مشمر الساق في تبيان من غدرا
والشبل في الغيل إن ضبع له عرضا ... قامت لنصرته في الحين أسد شرا
والعرب كانوا إذا جار بهم نزلا ... حموه بالرمح والسيف الذي شهرا
وبين أربعكم بل عند مسجدكم ... ذل الجوار وحقاً عهدكم خفرا
وضيفكم لعبت فيه المدى وغدا ... رهين رمس فهلا سركم ظهرا
لا غرو إن لم تقم في الحال معتقلا ... سهم الإصابة في نحر الذي فجرا
ولا يزار بعيد اليوم قبرك إن ... ونيت عن هذه جزماً بغير مرا
والخطب قد عم والأبناء قد سجنوا ... ألا غياث للهوف غدا حذرا
ألا إغاثة قطب الوقت تنجدهم ... ألا الإمامان أعني صحبة الوزرا
ألا الذين هم في العد أربعة ... أهل الولاية والسر الذي بهرا
ألا من البدلا تأتي إغاثتهم ... ألا من العشر سيف النصر قد شهرا
ألا الأئمة سلوا غضب غارتهم ... ألا معين ألا من قام وانتصرا
ألا الأولى عددوا من بعدهم ظهروا ... بالانتصار ألا معروفهم حضرا
ألا سر بهم يسري بعسكره ... ضرب الإله الذي نالوا به ظفرا
ألا الجنيد ألا الجيلاني ينصرهم ... ألا الدسوقي ألا المتبولي منه قرا
ألا الرفاعي ألا المشهور سيدنا ... أبو اللثام الذي كم فك من أسرا
ألا من الشاذلي نصر يبين لنا ... ألا لمرسيهم أسياف من قهرا

إلا أبو مـــدين يأتي على عـــجل ... إلا من الغــرب أبطال من النصــرا
أمــا إلى الحـاتمي سـيف يصـول به ... إلا من الشــرق أعــلام من الكبــرا
إلا رجــال لنصــر القــوم ينتـدبوا ... من الذين هم قـد سـرمـدوا سـحـرا
عـسى بجـاه أولاك لقـوم ينقـذهم ... رب العـبـاد بلطف يعـجـز النصـرا
ندعـوه بالمصطفى والآل أجـمـعـهم ... وأهـل بدر ومـن آوى ومن نـصــــرا
أن لا يرى ضـدنا مـا قـد يسـر به ... ولا نرى دهرنا في عــمــرنا كــدرا
وصل ربي على المخـــتـــار مـــا طلعت ... شـمس النهـار ومـا بدر السـمـاء بدى

ثم يعقب كاتب الشونة على ذلك بقوله : «وقد حصلت بركة الجميع فأنطق الله الجارية، وأقرت بقتل سيدها ، وقتلت به ، وأنقذ الله ذرية الشيخ خوجلي ببركة أبيهم. نفعنا الله به وبجميع من ذكر فيها ومن لم يذكر من الأولياء».(١)

وهكذا حشيت هذه القصيدة بعشرات من التوسلات الشركية والاستغاثات الكفرية وطلب المدد والنصر والعون من غير الله تعالى ، من أناس يعتقد فيهم ذلك الشاعر الجاهل وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً حتى يتعدوا بالنفع إلى غيرهم.

وهذا الشيخ محمد بن عبد الجواد القاياتي كان من جملة المنفيين إلى الشام بعد القضاء على الثورة العرابية(٢) واحتلال الإنجليز الصليبيين لأرض مصر الكنانة وخيانة الخديوي توفيق لدينه وأمانته. فكان طيلة مقامه هناك يزور الأضرحة ويستغيث بأصحابها ويستشفع بهم في كشف كربته.

يقول محمد القاياتي بعد أن زار الضريح المنسوب إلى إبراهيم بن أدهم في بلدة جبلة بقرب اللاذقية : «ولقد أنشأ الفقير قصيدة استغاثية وشكوى حال واقعية وجعلتها في صورة عرض حال(٣) بسبب ما وقع لنا من الغربة والارتحال ، وقدمته لجنابه ، وألقيتها في رحابه ، متوسلاً إلى الله بكل أحبابه ، ومفاتيح أبوابه :

جــــــئت والوقت بالمكارم أظلم ... أبتـغي العـون من جناب ابن أدهم
مـــأمل الآملين في كل خـيـــر ... ملجـــأ الخـائفين إن أفــرط الهم
مـعـدن الجـود في الوجـود فـزره ... فـحــمـــاه للكـل مـغنى ومـــغنم
حـرم الأمن كـعـبـة اليـمن لكن ... بيـــتــه للوفــود غــيـــر مـــحـــرم

---

(١) تاريخ السلطنة السنارية ص ١٠٧ ـ ١٠٩. أحمد بن الحجاج أبو علي كاتب الشونة. دار إحياء الكتب. ط ١٩٦١م.

(٢) نسبة إلى قائدها أحمد عرابي المتوفى عام ١٣٢٩هـ .

(٣) عرض الحال هو المعروض في لغتنا الدارجة اليوم.

قطب غوث يغيث من حل فيه ... ويحل المقصود ما لم يحتم
ما أتى حيه طريد خطوب ... يشتكيها إلا وأجلى وأنعم
بحر فضل يعم فيض عطاه ... كل راج لذلك اليم يمم
جئت في حالة افتقار وذل ... وانكسار والله بالحال أعلم
وفؤادي على الضريح ينادي ... ما لهذا الجريح غيرك مرهم
مسني الضر من عوادي الزمان ... وقد الحجر في الضمير وأخرم
من مجيري إن جار دهري جهاداً ... واجترى عادياً علي وأجرم
فالتفت سيدي لعبد ذليل ... وتعطف واسمع له وتكرم
رد عنه كيد الزمان وأدرك ... أرض مصر[1] فالكرب فيها تجسم
يا إمام العلوم أنجد مريداً ... هو بالحب في جنابك مغرم
قد عرضنا عليه قصة حال ... ثم ننهي في الحال عما تقدم
جئت ضيفاً في حيكم ونزيلا ... زائراً ذلك المقام المعظم
أنت باب للفتح والمنح حقاً ... والنوال العميم منك لقد عم
فتحنن يابن الكرام علينا ... علنا من حوادث الدهر نسلم
شد يابن أدهم الرجال عليهم ... خيل عزم على النزال مصمم
واعترضهم إن جئت عارض رمح ... هو أقوى على الدفاع وأقوم
عظم الكرب والبلاء علينا ... وعزيز الإسلام بالذل أسلم[2]
فالنزال النزال واجلب عليهم ... وأبدهم بجيش سر عرمرم[3]
بشرتني بشائر الظن فيكم ... ونسيم القبول لما تبسم
فتعطف ياقطب وارحم وادفع ... عن نزيل وقل مرادك تم[4]

هذه صورة من مئات بل من آلاف الصور المزرية التي كان يموج بها العالم الإسلامي من انتشار مظاهر الشرك، ووقوع السواد الأعظم في كثير منها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. ولعل هذه الصورة وما شابهها تفسر لنا شيئاً من السقوط السحيق والواقع الأليم الذي عاشته أمتنا الإسلامية وما تزال تعيشه.

---

(١) قاتل الله أمثال هؤلاء القبوريين. وهل أضاع أرض مصر وغيرها من بلاد المسلمين إلا هؤلاء الجهال بشركهم وجهلهم ولجوئهم إلى أصحاب الأضرحة والقبور لطلب الانتصار والعون وما دام الأمر هكذا عند أولئك الجهال فلا ضير عليهم أن ينكلوا عن الحرب، وينزووا على أنفسهم ويتقاعسوا عن الجهاد واسترداد الأوطان ما دام أن لهم من دون الله أرباباً في كل قطر تحت أطباق الثرى يهرعون إليهم ويلجأون إليهم إذا اشتدت الخطوب فيقومون بدحر المعتدين وطرد المحتلين.

(٢) وهل هناك أعظم من الذل والانكسار الذي يقوم به مثل هذا الرجل على عتبة ذلك الضريح.

(٣) الجيش العرمرم هو الجيش الكبير. انظر مختار الصحاح ص١٨٠.

(٤) نفحة البشام ص ٦٦ ـ ٦٨.

وذلك حين كان يداهم الأمة عدو أو ينزل بها خطب فلا تستعد كما يجب إن هي استعدت أصلاً لأن عندها من الأرباب ما لم يخل منهم قطر ولا مصر ، فإذا دهمهم خطر فسرعان ما يهرع كل أهل بلد إلى مربوبهم (مقبورهم) الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فيلوذون به ويستغيثون بجنابه ويصرخون ويتمرغون ببابه راجين منه دفع الخطر وحصول الظفر ، معتقدين أنهم قد أخذوا بأعظم الأسباب ، وطرقوا أنفع الوسائل.

فهذا القاياتي الذي عاش مرارة الهزيمة وتمكن الكفار من بلاد المسلمين ، ثم نفي إلى بلاد الشام وبقي فيها مشرداً كان يطلب من أصحاب الأضرحة نصر الأمة وكشف الغمة وإنهاء الغربة. وقد رأينا في قصيدته التي حشاها بألفاظ الشرك الأكبر كيف عقد آماله على أعتاب ذلك الضريح ليتدارك صاحبه أرض مصر ويقوم بطرد المحتلين بجيش عرمرم. وكان الواجب على مثل القاياتي وهو معدود في زمرة العلماء في ذلك الزمن أن يلجأ إلى الله وحده ، ويطلب العون والمدد والنصر منه وحده دون غيره. وكان الأجدر به وهو يجوب بلاد الشام لزيارة الأضرحة أن يحث الناس هناك على الجهاد ضد المحتلين الصليبيين بدلاً من التذلل والانكسار بين عتبات الأضرحة وتراب القبور.

وقد ذكر الجبرتي حادثة قال عنها إنها جزئية من جملة الجزئيات ولكنها تدل على ظاهرة عامة ، وهي اتكال الناس على الأضرحة في نصرهم ودفع عدوهم ، وملخص الحادثة أن رجلاً صيرفيًا قال : إن السيد أحمد البدوي بالشرق والسيد إبراهيم الدسوقي في الغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى ، وكان ذلك زمن الحملة الفرنسية على مصر فبلغ الفرنسيين ذلك فسجنوه ثم أطلق بعد أن ضرب مائة سوط[(١)].

وهذا محمد السنوسي حين كان راكباً في البحر ، وهاجت الرياح ، وتلاطمت الأمواج حتى كادت السفينة أن تغرق أخذ يستجير كما يقول بكل ما يستحضره من الأولياء كي يكشفوا كربته. ويذكر أنه رأى ثلاثة من كبار الأولياء زاروه في منامه ، وأخبروه بسلامتهم ووصولهم إلى البر آمنين وكان منهم عبد القادر الجيلاني ، فأنشأ هذه الأبيات :

من ضاق عنه لأمر مسلك الحيل	فما له غير عبد القادر الجيلي
فهو السريع لما يدعى إليه إذا	ضاق الخناق على من ضل في السبل
فناد باسمه فيما عز مدركه	تلق العناية قد جاءتك بالأمل
غوث يغيث الذي يدعوه منتصراً	بغاية الحزم إذ يأتيه عن عجل[(٢)]

إلى آخر قصيدته التي طفحت بالشرك وفاضت بالكفر.

وهذا الشيخ أمين بن محمد الجندي الحمصي الشافعي (المتوفى سنة ١٢٥٦هـ) لما قبض عليه

---

(١) عجائب الآثار ٢/٢١٢ .

(٢) الرحلة الحجازية ٣/٨٥.

عامل حمص وحبسه بإسطبل الدواب حين أخبر أنه هجا السلطان محمود خان[١] فبدلاً من أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ويسأله أن يكشف كربته أخذ ينظم قصيدة طويلة يستغيث بالنبي ﷺ ويتوسل به نذكر منها :

توسلت بالمختار أرجى الوسائل نبي لمثلي خير كاف وكافل
دعوتك يا الله مستشفعاً به فكن منجدي يا منتهى كل آمل
سألتك كشف الضر عني بجاهه وحاشاك أن لا تستجيب لسائل
فإني بطه مستغيث وراغب إلى الله فهو الغوث في كل هائل
وإخوانه الرسل الكرام جميعهم وباقي النبيين البدور الكوامل
وبالخلفاء الراشدين وآله وأصحابه الغر الثقات الأماثل

إلى آخر قصيدته تلك .

وفي اليوم الرابع من حبسه دخل سليم بن باكير الدنادشة أحد العربان حمص قهراً ومعه مائتا فارس ، فقتلوا العامل المذكور شر قتلة وخرج الجندي من الحبس وفرج الله عنه ببركة النبي ﷺ كما يقول البيطار.[٢]

ولما وقعت فتنة في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بادر الشيخ حسين بن علي بن عبد الكريم الأنصاري المدني (المتوفى بعد سنة ١٢٠٠هـ) إلى قبر الرسول ﷺ بقصيدة : «أنشأها متوجعاً باكياً ولحضرة صاحب الرسالة شاكياً» :

أخي إذا ما جئت في سوح أحمدا تضرع له وامدد إلى نحوه يدا
وناد وقل يا سيد الرسل نجدة تفرج عنا ما أقام وأقعدا
لقد طال هذا الكرب واشتد عسره وشتت جيش الصبر طراً[٣] وبددا
وكدر وجه الدهر بعد ابتهاجه ونغص عيش المؤمنين ونكدا

إلى أن قال :

فيا سيد الكونين صار الذي ترى من الحزن والكرب الذي قد ترددا
ويا كهف من يلوي عناناً ببابه ويا خير من نودي سريعاً فأنجدا

---

(١) هو السلطان محمود الثاني بن عبد الحميد الأول زعيم حركة التغريب في تركيا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله في الباب الثاني. ولعل سياسته تلك هي التي جعلت من الجندي أن يهجوه. ووقعت الأمة في تلك الفترة بين جماهير القبوريين وقيادات التغريبيين. فالله المستعان.

(٢) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣٣١/١ .

(٣) طراً : بضم الطاء يعني : جميعاً انظر مختار الصحاح ص١٦٤.

تلاطم بحـر الكرب واشـتـد مـوجـه　　على أهل حق بالجـــوار تأكـــدا
عــــسى نظرة منكم تؤلف بينهم　　ليصبح سيف الدين في الكفر مغمدا(١)

وصدق الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله حين قال : «أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ومشركو زماننا شركهم دائم في الرخاء والشدة. والدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ [العنكبوت ٦٥].(٢)

وقد كان هؤلاء القبوريون يحثون غيرهم على زيارة الأضرحة والانكسار على أعتابها والتذلل لأصحابها وطلب الحاجات منهم وينشدون الأشعار في ذلك.

«يقول الشيخ يوسف بن عمر البشتاوي مستغيثاً بيحيى الحصور ﷺ(٣) :

باكر مصلى بني أمية في الدجا　　واعطف على كنز السماحة معرجا
وأرقب مــهب الجـود من أعـتـابه　　والزم لذياك المقـام أخا الحـجـا
يمم وقف مــتـضــرعــاً بجنابه　　وابسط أكف الفقر في باب الرجا
وأدعـوه يا يحيى الحصـور وقل له　　عطفاً على حـان إليك قد التجا
يا سـيــداً وصف الإله كـمـاله　　في محكم التنزيل أضحى مدرجا
ذو الجاه يرجى في الخطوب ولم يزل　　عند الشدائد مسعفاً ومفرجا
إني رجوتك حاجة فاشفع بها　　عند الكريم ومن رجاك فقد نجا
عجل بها يا ابن الكرام أجب أجب　　فـالأمـر ألجأ للجاج وأحوجا
سل خـالقي فيما رجوت إجابة　　واسأله لي من كل ضيق مخرجا(٤)

ويقول الشيخ أمين الجندي الحمصي حينما دخل المقام المنسوب إلى يوشع عليه السلام في المعرة :

قلبي لشمس جمال حسنك مطلع　　أفهل يرى فيه لغيرك موضع
ما لي إليك وسيلة في نيل ما　　أملتـــــه إلا نبـــــيك يوشع
كهف به أهل المعرة قد نجوا　　من هول كل مـعـرة تتوقع(٥)

---

(١) حلية البشر ٥٥٧/١.
(٢) عقيدة الموحدين ص١١٩ وهي القاعدة الرابعة من القواعد الأربع التي ذكرها الشيخ رحمه الله.
(٣) عند زيارة الضريح المنسوب إليه في جامع بني أمية الكبير في دمشق.
(٤) حلية البشر ١٦٠٧/٣.
(٥) تاريخ معرة النعمان ٣٥٦/١.

فقد كان يعتقد القبوريون أن البلاء والشر يندفع عنهم بفضل هؤلاء المدفونين عندهم كما يقول الجندي وأن الخير والرخاء يجلب إليهم بواسطة هذه الأضرحة وأنهم ينصرون ويدفعون الأعداء ببركتها، « وكانت كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء ، فهو الذي يحميها من العين ومن الغارات ومن نكبات الطبيعة ، ومن طمع الطامعين (١)

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كلام رائع وموفق في الرد على هذا الاعتقاد الخاطىء الذي لم تزل الأمة تجني ثمرته المرة بوقوعها لقمة سائغة للأعداء المتكالبين عليها من كل مكان، وفريسة سهلة للجهل والتخلف والمرض والفقر. آثرنا لأهميته أن ننقل طرفاً كبيراً منه يقول رحمه الله

«وأما ما يظنه بعض الناس من أن البلاء يندفع عن أهل بلد أو إقليم بمن هو مدفون عندهم من الأنبياء والصالحين ، كما يظن بعض الناس أنه يندفع عن أهل بغداد البلاء لقبور ثلاثة : أحمد بن حنبل ، وبشر الحافي ، ومنصور بن عمار ، ويظن بعضهم أنه يندفع البلاء عن أهل الشام بمن عندهم من قبور الأنبياء الخليل وغيره عليهم السلام. وبعضهم يظن أنه يندفع البلاء عن أهل مصر بنفيسة أو غيرها ، أو يندفع عن أهل الحجاز بقبر النبي ﷺ وأهل البقيع أو غيرهم.

فكل هذا غلو مخالف لدين الإسلام ، مخالف للكتاب والسنة والاجماع. فالبيت المقدس كان عنده من قبور الأنبياء والصالحين ما شاء الله ، فلما عصوا الأنبياء وخالفوا ما أمر الله به ورسله سلط عليهم من انتقم منهم .... وقد ضمن الله لكل من أطاع الرسول أن يهديه وينصره فمن خالف أمر الرسول استحق العذاب ولم يغن عنه أحد من الله شيئا .... وكان أهل المدينة في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان على أفضل أمور الدنيا والآخرة لتمسكهم بطاعة الرسول. ثم تغيروا بعض التغير بقتل عثمان رضي الله عنه ، وخرجت الخلافة النبوية من عندهم وصاروا رعية لغيرهم. ثم تغيروا بعض التغير فجرى عليهم عام الحرة من القتل والنهب وغير ذلك من المصائب ما لم يجر عليهم من قبل. والذي فعل بهم ذلك وإن كان ظالماً معتديا فليس هو أظلم ممن فعل بالنبي ﷺ وأصحابه ما فعل. وقد قال الله تعالى : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ قل هو من عند أنفسكم** ﴾ [آل عمران ١٦٥] وقد كان النبي ﷺ والسابقون الأولون مدفونين في المدينة.

وكذلك الشام كانوا في أول الإسلام في سعادة الدنيا والدين. ثم جرت فتن وخرج الملك من أيديهم ، ثم سلط عليهم المنافقون الملاحدة والنصارى بذنوبهم ، واستولوا على بيت المقدس وقبر الخليل وفتحوا البناء الذي كان عليه وجعلوه كنيسة. ثم صلح دينهم فأعزهم الله ونصرهم على عدوهم لما أطاعوا الله ورسوله وأتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ....(٢)

---

(١) تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري ١/٢٦٢ د . أبو القاسم سعد الله ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط١ ، ١٩٨١ .

(٢) مجموع الفتاوى ٢٧/٤٣٥ - ٤٣٧.

ومع انتشار الأضرحة بالمئات والآلاف في أرجاء العالم الإسلامي انتشر الشرك الأكبر، وتعددت مظاهره، ووقع غالب الناس في وهدته ولم يكد ينجو منه إلا القليل.

فعند القبر المنسوب إلى هود في حضرموت يحدث من الشرك الأكبر ما يعجز القلم عن وصفه. شأنه في ذلك شأن كل الأضرحة في البلاد الأخرى.

«وقد بولغ في تقديس هذا الضريح، فتراهم يشدون الرحال لزيارته وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للات والعزى يستعينون به ويتجهون إليه، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات واستنزال البركات ودفع الكربات».(١)

وفي المخلاف السليماني كان الناس يعتقدون في مقبور عندهم يسمى أبو سبعة، يطلبون منه ما يطلب العبد من الرب من الاستغاثة والتوكل.(٢)

وعند قبر ابن عربي في دمشق يمارس القبوريون شتى ألوان الشرك الأكبر.

يقول أحد الزائرين لدمشق: «لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون.. وجدتهم يطوفون حوله ويتوسلون به، ويعلنون دعاءهم له من دون الله. وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي: اغثني يا محيي الدين.. وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن أمامه الأكف ويمسحن الوجوه ويخشعن ويتضرعن..»(٣)

وفي الهند يوجد كما ذكرنا سابقاً أكثر من مائة وخمسين ضريحاً اتخذ الناس أصحابها أرباباً من دون الله عز وجل.

ومن هذه الأضرحة ضريح الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني(٤) «وهو من الأضرحة العظيمة ومن أبنية الملوك والأمراء وزادوا فيه وقتا بعد وقت، وأصبح قبره مرجع الخلائق في العصر الأخير، ويطوفون حوله ويعملون ويصنعون على قبره جميع الأعمال اللائقة بالمعبود كالسجود والنذور وما أشبه ذلك».(٥)

وضريح الشيخ علي الهجوري في لاهور في باكستان وهو من القبور العظيمة. «والناس يزورونه كل سنة بل كل يوم، ويطوفون حوله ويسجدون له، ويقدمون النذور ويستغيثون به ويطلبون العون والمدد..»(٦) وعشرات من الأضرحة غيرهما.

---

(١) تاريخ حضرموت السياسي ص٥٢.

(٢) نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود ص٩٤ للشيخ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي. دار الملك عبد العزيز. تحقيق محمد أحمد العقيلي ـ الرياض ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٣) شهر في دمشق ص ٦٤ ـ ٦٥.

(٤) نسبة إلى بلدة ملتان في الهند.

(٥) الدعوة السلفية في شبة القارة الهندية ص١٣٦.

(٦) المصدر السابق ص١٢٧.

وفي طنطا بمصر يربض الشرك الأكبر في الجامع الأحمدي المنسوب إلى ضريح المدعو بالسيد أحمد البدوي. يقول الشيخ جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢هـ)[١] حين قام بزيارة مصر سنة ١٣٢١هـ : «ولما وصلنا طنطا ... وأدينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء في الجامع الأحمدي ، وشاهدنا الغلو في الزيارة الأحمدية ، كالسجود على عتبة الضريح ، والتمسح بقفصه[٢]، مما لا يختلف الفقهاء من أرباب المذاهب على منعه وحظره ولا حول ولا قوة إلا بالله».[٣]

وفي القاهرة توجد الأضرحة الكبيرة التي تعبد من دون الله عز وجل. كضريح الحسين المنسوب إليه ، وضريح الامام الشافعي وضريح الليث بن سعد وغيرها وضريح الست نفيسة.[٤] وللمصريين فيها اعتقاد عظيم من قديم.

يقول الحافظ الذهبي رحمه الله : «ولجهلة المصريين فيها اعتقاد يتجاوز الوصف ، ولا يجوز مما فيه من الشرك ، ويسجدون لها ، ويلتمسون منها المغفرة ، وكان ذلك من دسائس العبيدية»[٥]

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله : «وإلى الآن قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً ، ولا سيما عوام مصر فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة[٦] مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنها لا تجوز.»[٧]

---

(١) حلية البشر ٤٣٦/١ ، الأعلام ١٣٥/٢.

(٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وأما التمسح بالقبر - أي قبر كان - وتقبيله وتمريغ الخد عليه فمنهي عنه باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء ، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هذا من الشرك». مجموع الفتاوي ٩٢/٢٧.

(٣) جمال الدين القاسمي وعصره ص١٣٦ ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي. ومما ينبه له أن الصلاة في تلك المساجد المبنية على القبور لا تجوز وقد ذكرنا الأحاديث التي تنهى عن ذلك في أول هذا الفصل. انظر مجموع الفتاوي ١٤٠/٢٧ - ١٥٨ ومنها قوله ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» متفق عليه. والصحيح أن الصلاة في تلك المساجد لا تصح ويجب إعادتها وهو اختيار الإمام ابن قدامة. انظر المغنى ٧٥٦/١ دار الفكر. لبنان. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. وقد أخطأ الشيخ القاسمي بصلاته في هذا الجامع ومن كان يجرؤ في ذلك العصر ليقول إن الصلاة في تلك المساجد لا تجوز!!.

(٤) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب. توفيت في القاهرة سنة ٢٠٨هـ انظر سير أعلام النبلاء ١٠٦/١٠ والبداية والنهاية ٢٧٣/١٠ والدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص٥٢١.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٠٦/١٠. وقد أخطأ الذهبي رحمه الله في قوله : «والدعاء مستجاب عند قبرها بل وعند قبور الأنبياء والصالحين». ١٠٧/١٠ وهو قول ليس له أصل في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا قال به أحد من السلف الصالح كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية. مجموع الفتاوي ١١٥/٢٧ - ١٢٣. ويقول رحمه الله : فإذا كان قد حرم اتخاذها مساجد والايقاد عليها علم أنه لم يجعلها محلاً للعبادة لله والدعاء ١٨١/٢٧.

(٦) والصحيح بشعة.

(٧) البداية والنهاية ٢٧٤/١٠.

ولا زال الناس هناك يعتقدون فيها ، ويقسمون بها ، ويصرفون لها ولبقية الأضرحة هناك ألواناً عديدة من العبادة التى صرفها لغير الله شرك أكبر. ولا يكاد يوجد ضريح في تلك الفترة إلا اتخذ ربًا من دون الله عز وجل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثانياً : الذبح والنذر للأضرحه [١]

لم يكتف القبوريون بالدعاء لتلك الأضرحة والاستغاثة بها من دون الله عز وجل ، والسجود لها ، والطواف حولها ، وتقبيل أعتابها ، وتمريغ الخد في ترابها. بل سارعوا إلى ذبح القرابين في ساحاتها ، تقرباً إلى أربابها ودفعاً للشر والأذى بزعمهم ، تماماً كالذي كان يفعله عباد الأصنام في جاهليتهم عند أصنامهم. وبادروا إلى تقديم النذور لأصحابها.

يقول السملالي : «فائدة : أخبرني صاحبنا الفقيه أبو سرحان المغازي رحمه الله أن بعض الأولياء اجتمع بالشيخ أبي العباس السبتي فقال له الشيخ : إذا أتيت لضريحي بصدقة فاجعلها ذبيحة لأن الروحانيين من الجن ملازمون للضريح وهم ينتفعون بدم الذبيحة وظلفها دون غيرها فإنه لا يحصل لهم منها كبير فائدة».[٢]

وما من شك أن ذلك المتكلم ليس هو أبا العباس السبتي وإنما هو من شياطين الجن الذين يتقصدون إغواء بني آدم واضلالهم عن سواء السبيل كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.[٣]

وذكر رحمه الله أن الشياطين تتمثل على صورة بعض المشايخ من الأحياء والميتين لتضل بنى آدم ، كما تدخل الشياطين في الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض حوائجهم ، كما كان ذلك في أصنام مشركي العرب.[٤]

وقد كان الحكام والأمراء والأعيان والقواد يبذلون أموالهم في ذبح القرابين لتلك الأضرحة ، ويسرفون في إراقة دمائها في ساحاتها.

فعندما تولى السلطان الحسن بن محمد المتوفى سنة ١٣١١هـ [٥] مقاليد الحكم في بلاده سارع إلى تقديم الذبائح إلى الضريح الإدريسي [٦] .

---

(١) انظر : الباب العاشر من كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب. باب ما جاء في الذبح لغير الله. والباب الثاني عشر منه. باب من الشرك النذر لغير الله.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ١/٣٢٥.

(٣) مجموع الفتاوي ٢٧/٨٢.

(٤) المصدر السابق ١/٣٥٩ وما بعدها.

(٥) الأعلام ٢/٢٢٠.

(٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/٢٣٩.

وعند مغادرة الفرنسيين للقاهرة سنة ١٢١٦هـ هرع قائد الجيش العثماني حسين باشا القبطان إلى زيارة المشهد الحسيني وذبح فيه خمس جواميس وسبعة كباش ، واقتسمتها خدمة الضريح ، وحلّق تاج المقام بأربعة شيلان كشميري ، وأخذ قياس المقام ليصنع له سترا جديداً.(١)

ولما اشتد مرض الشيخ على الدرقاوي وكثر هذيانه بادر والده فذهب بذبيحة إلى ضريح إزاء المدرسة التي كان يدرس فيها لما سمعه من أن ما أصابه ربما جاءه من تلك المدرسة.(٢)

وهذا المدعو بأبي حمارة الذي قام بثورة عنيفة عام ١٣٢١هـ ضد سلطان المغرب . بدأ ثورته بحضور موسم مشهود لقبيلة الحياينة حول قبر محمد بن الحسن الجناتي معتقد القبيلة ، ووليها الصالح وتحضره قبائل أخرى فشهد الموسم ، واشترى سبعة ثيران وذبحها قرباناً على قبر الولي المذكور فكان لذلك أثر بالغ في إثارة مشاعر القبائل وسوقهم تحت رايته ثم بدأ ثورته التى امتدت زهاء سبعة أعوام.(٣)

يقول الامام الشوكاني رحمه الله : «ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه وراء حائط الإسلام ، ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين : أن كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر ، متقرباً به إليه ، راجياً ما يضمر حصوله له منه. فيهل به لغير الله ، ويتعبد به لوثن من الأوثان ، إذ إنه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثنًا وبين قبر لميت يسمونه قبراً . ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغنى من الحق شيئاً ، ولا يؤثر تحليلاً وتحريماً».(٤)

ويذكر البتنوني أن بعض سدنة الأضرحة في أرياف مصر يرسلون عجلاً صغيراً في حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولي ، ولا يزال سائباً على حريته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهيه منها ، وأربابها لا يجسرون على طرده أو إهانته خوفاً من الولي الذي هو في حمايته حتى يأتي مولده فيأخذه السدنة سميناً معلوفاً ويذبحونه وينتفعون به.(٥)

أما النذور فيحدثنا محمد بن سليم الجندي عن طريقتها فيقول : «اذا مرض أحد و كان عزيزاً على ذويه ، أو كان غائباً عنهم ، أو كان يتوقع نعمة ، أو يخشى نقمة ، ينذرون له كبشاً يذبحونه ، أو طعاماً يصنعونه ، في مقام رجل من الصالحين فإذا برئ من مرضه، أو عاد من سفره أو بلغ ما يأمله

(١) عجائب الآثار ٢/٤٧٩.

(٢) المعسول ١/٢٠٧ محمد المختار السوسي. وللشيخ علي حكاية مأساوية سترد إن شاء الله في فصل الصوفية.

(٣) أعلام المغرب العربي ١/٣٠٨ عبد الوهاب بن منصور- المطبعة الملكية. الرباط ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م وسوف نورد نبذة عن أبي حمارة هذا في فصل الصوفية أيضاً في الموضع المناسب.

(٤) شرح الصدور بتحريم رفع القبور. نقلاً عن الجامع الفريد ص٦٠٤ .

(٥) الرحلة الحجازية ص ١٩٤ كما يصنع الهندوس حين يطلقون الأبقار في الحقول والأسواق.

دعا أهله جماعة من أقربائهم وأحبائهم ، وربما راح فريق من غيرهم معهم ، وذهبوا جميعاً إلى ذلك المقام للإيفاء بالنذر ..».[١]

وقد انتشرت تلك النذور الشيطانية انتشاراً عظيماً ، وصرفت فيها الأموال استجلاباً للخير أو توقياً للشر ودفعاً له.

ففي محلة الضوضو بحلب قبة على قارعة الطريق فيها دفين يسمونه الشيخ محمد الضوضو يعتقده أهل المحلة ، ويروون له كرامات ، وينذرون له الزيت.[٢]

وفي المعرة مغارة يزعم الناس هناك أنها مقام الخضر ، والعامة تنذر له البرغل المطبوخ بالدردار ، وهو نوع من النبات عندهم ، ويسمى ذلك الطعام المفحومة ، ومنهم من يذبح الخرفان وهذا النذر يسمى الحناء أيضاً [٣].

وعلى ضريح الشيخ عطا الله بالمعرة يزعمون أنه صحابي يعلقون على شباكه خروقاً من ثياب المريض ، وينذرون له زيتاً ليوقد عند ضريحه.

وعلى ضريح الشيخ محمد الرشيدي ينذرون له (معلاقاً) يجتمع النساء عنده اذا برئ المريض أو حضر الغائب ، ويشتوين معلاقاً ويأكلنه (والمعلاق هو جزء من الحيوان يشتمل على الكبد والرئة والقلب والمرئ وما عليها من شحم.[٤]

وعلى ضريح الشيخ دبس : ينذر له الناس خبزاً و دبسا.[٥]

وفي حلب بمحلة خراب خان مدفن الشيخ خليل الرام حمداني يعتقده أهل المحلة و يزورونه وينذرون له قناديل تسرج عند ضريحه.[٦]

وفي شرقي المعرة مسجد ومقام يزعمون أن فيه قبر أويس القرني.[٧] يعظمه أهل المعرة ويكثرون زيارته ، وتقريب القرابين والوفاء بالنذور فيه.[٨] وقد ينذرون لبعض الأشجار ويعلقون عليها الخرق كما ذكر السنوسي ذلك[٩].

---

(١) تاريخ معرة النعمان ٢/٣٤.

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٣٤٨.

(٣) تاريخ معرة النعمان ١/٤٦٨.

(٤) المصدر السابق ١/٤٧٠.

(٥) المصدر السابق ١/٤٧١.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٤٣٨ .

(٧) مع أن أويساً قتل في صفين مع علي رضي الله عنه كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/١١٧.

(٨) تاريخ معرة النعمان ١/٣٦٣.

(٩) الرحلة الحجازية ٢/٢٤٧.

ثالثاً : الاستشفاء وطلب البرء من الأضرحة

لم يحفل الناس في القرون المتأخرة بشؤون الصحة وتعلم الطب وعلاج الأمراض كما كان ينبغي ومع توالي القرون وعزوف المسلمين عن الطب لايتعلمونه ولايعملون به لجأ الناس إلى الأضرحة يستشفون بأصحابها، ويطلبون معافاة المرضى منهم وعلاج ذوي العاهات فيهم فبانوا عن الطب الذي يقوم على اتخاذ الأسباب بوناً شاسعاً وأوغلوا في الانحدار في هاوية الدجل والخرافة والشرك.

ويذكر المؤرخ الحضرمي صلاح البكري أن طائفة العلويين في حضرموت يضعون في قباب موتاهم إنائين ، واحد للنقود ، والآخر للزيت الذي يقدمه المريض لطلب الشفاء وذكر أن بعض المرضى يبالغون في الضلال فيأكلون من تراب بعض تلك القبور طلباً للشفاء وذكر أنه مرض وهو صغير بالحمى فذهب إلى قبة الهدار العلوي ، وأكل قليلاً من تراب قبره ، وقبل ضريحه ، وتوسل إليه ليذهب الآلام ، ووضع في خزانته بعض النقود ، ثم عاد إلى البيت وهو يرتعد من الحمى وأنه كما يقول من حسن حظه شفي في اليوم الثاني ولكن من سوء حظه كما يقول أن زاد اعتقاده في الهدار واعتماده عليه من دون الله ، وأنه ذهب إلى السوق وابتاع رطلاً من زيت السمسم ، ووهبه لخزانة الضريح. ثم يقول : وهكذا ذكرت صاحب القبة في السراء والضراء خفية وجهرة وهو لا ينفعني بشيء ، ولم أذكر الله عز وجل الذي هو أقرب إلي من حبل الوريد ، وبيده كل شيء».(١)

ويقول : «ويبالغ بعض الدجالين من أصحاب السلطة الروحية فيسقون المريض ماءً ممزوجاً ببزاقهم للشفاء ، ويتجرع هذا المريض المغفل ذلك البزاق القذر وهو مسرور كل السرور متوهماً أن الشفاء آت لا ريب فيه.»(٢). وعلى شاطئ بلدة القلمون في الشام قبر يعلق الناس به خرقاً صغيرة يقطعونها من ثيابهم الخلقة يسمونها آثاراً لأجل شفاء المرضى.(٣)

وفي حلب كان اذا تعسر مخاض المرأة سقوها شيئاً من السمن المذاب ، وبعضهم يحضر لها حربة مركوزة عند أضرحة بعض الصالحين فتتوكأ عليها تبركا وهي على الكرسي إلى أن تضع.(٤)

واعتاد بعض الناس هناك أن يسافروا إلى ضريح الشيخ ريح زاعمين أنهم يشفون من ريحهم(٥) والناس يقصدونه من أماكن بعيدة يشربون من ماء ينبع في جانب قبره فيبرؤن من علة الريح.(٦) والناس في قبر أبي العلاء المعري اعتقاد عظيم يبيتون على قبره شربة ماء ويستعملونها للبرد من الحمى.(٧)

---

(١) تاريخ حضرموت السياسي ص١١٩. (٢) المصدر السابق ص١٢٠.

(٣) رحلات الإمام محمد رشيد رضا ص٢١ جمع الدكتور يوسف ايبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧١م.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٤٤/١. (٥) المصدر السابق ٢٧٤/١.

(٦) المصدر السابق ٣٧١/٢. (٧) المصدر السابق ٤١٨/١.

وفي مدينة طنطا يطلب الناس هناك من ضريح عز الرجال وهو أحد تلاميذ البدوي شفاء الأطفال [١] ، ويطلبون من ضريح الشيخة صباح في طنطا كذلك إبراء النساء من العقم ، ومن ضريح محمد الحدري المعروف بالعمري شفاء أمراض الروماتيزم لأن الذين يلجأون إليه يتدحرجون أمام باب الضريح الذي هو عبارة عن منحدر واضح من الأرض [٢].

وهناك زاوية بيت الكيالي التي يقول عنها الغزي : «هي الآن عامرة وللناس اعتقاد حسن بمن دفن فيها فيقصدونها للاستشفاء من الأدواء وينذرون لها النذور ..»[٣]

ويحسن بنا أن نتحدث في هذا المقام عن الرقى والتمائم[٤] تلك التي قضت بانتشارها على ما بقي من بصيص للتوحيد في النفوس وجعلتها أسيرة للدجل والخرافة والجهل ، وقطعت الطريق أمام كل باحث عن التطبيب والعلاج عبر الأسباب المشروعة وقد استولى ذلك الشر المستطير على أكثر المسلمين إلا من رحم الله ، وكانت هذه التمائم والرقى تسيطر على غالب شؤن الناس. يستشفى بها من الأمراض ويحترز بها من الأدواء والعلل ، ويتقى بها الكثير من الشرور ، ويطلب بها الرزق والولد. إذن فما الداعي إلى الأطباء بعد ذلك وإلى الأخذ بالأسباب طالما أن هناك من هذه التمائم والرقى وما يقوم بالحاجة كما كانوا يتصورون بل لقد كانوا يرون أن الأطباء الحقيقين هم صانعوا الرقى والتمائم في كثير من الأحوال.

يقول علي باشا مبارك واصفاً لحال القاهرة التي كانت تعتبر من أفضل مدن المسلمين في زمنه : «ولم يكن بالمدينة أطباء يعانون المرضى ، بل كانوا يعولون في ذلك على ما تصفه العجائز ، وعلى أقوال الدجالين والمشعبذين ، فإذا مرض إنسان ذهب أهله فطرقوا له الودع[٥] والفول ، وحسبوا له النجم ، وقاسوا أثره، فما أخبرهم به الدجال اعتمدوه وكتبوا له الأحجبة[٦] أو بخروه باللبان والجلد، و علقوا عليه الخرز وكانت لهم خرزات ، كل واحدة يزعمون أنها تبرئ داءً فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة وللرقبة خرزة بيضاء مصفرة تسمى خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للخضة - أي الفزعة - وللحمى ، ويسمونها حجر الشفاء ، ومن لسع حكوا له الخرتيت ، أو وضعوا على اللسعة فصاً ، ويسمى فص العقرب ، وغير ذلك.[٧] ولم ينج من شر هذه التمائم والرقى حتى من قل حظهم في الإسلام.

---

(١) الحكومة الباطنية ص١٦٧ ، د. حسن محمد الشرقاوي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ . وهذا الكتاب من شر الكتب المؤلفة حديثًا في التصوف ويدور على ترويج الشرك الأكبر في هذا العصر ، ويهون من شأنه أيما تهوين ، ويبرر لعباد القبور شركهم وكفرهم ، ويحاول عرض كل ذلك في أسلوب جديد يناسب روح هذا العصر ، ويحتاج الكتاب إلى مجلد كبير للرد عليه والتحذير منه .

(٢) المصدر السابق ص١٧٥ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٧٢.

(٤) انظر الباب الثامن من كتاب التوحيد. باب ما جاء في الرقى والتمائم.

(٥) في مختار الصحاح : الودعات خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصغر والكبر. الواحدة ودعة. ص٢٩٧.

(٦) الأحجبة لعلها جمع حجاب وهو ما يحجب الشر أو المرض وهو بمعنى التميمة.

(٧) الخطط التوفيقية ١/١٩٩.

فالخديوي توفيق الذي احتل الإنجليز مصر في حكمه ونكبت البلاد في عصره كانت عنده امرأة مختصة لذلك الشر تدعى الست عائشة الكوديا حيث كانت تقوم بتبخيره وملابسه وبتلاوة العزائم والتمائم عليه.(١)

وهذا المدعو صالح بن عبد الله الزادي (المتوفى نحو ١٢٦٠هـ) يقول عنه محمد المختار السوسي(٢) «كان سيدي صالح مقصوداً في عصره بالرقى والتمائم والدعوات معروفاً بذلك. فلا يخلو مكانه من الواردين ، وكان إذا رأى من أطال المكث عنده يقول : إن أردت دعوة أو تميمة أو رقية فها هي عندي ، وإن أردت مائدة ممدودة وفراشاً مبسوطاً فعليك بسيدي إبراهيم بن سليمان. يقول ذلك لأن هذا غني كريم موطوء العتبة بكرة وعشياً بالوارد والصادر.»(٣)

ويقول عن محمد بن أحمد السعيدي (المتوفي ١٣١٦هـ) : وكان الناس ينتابونه للرقى والتمائم والتطبيب.(٤)

وهذا واحد ممن يسمونهم بالأولياء ويدعى الحسن السوسي الهشتوكي (المتوفى سنة ١٢٧٩هـ) كان يصنع التمائم لإخراج من وقع في أزمة أو أحاطت به كربة يقول أحدهم : «وكان بعض الناس معتقلاً وطال سجنه ، وتعذر خلاصه ، وكان له بي تعلق ، فكلمته في شأنه ، فكتب تميمة فقال لي : قل له يجعلها عند رأسه ، ففعلت فسرح بعد اليوم واليومين»(٥)

وكانت ولادة الشيخ محمد الحامد (المتوفى ١٣٨٩هـ) بعد انقطاع حمل أمه عدداً من السنين ، حتى شكا والده إلى بعض خواصه انقطاع حمل زوجته فأخبروه أنه كان في حمص شيخ مبارك! اسمه الشيخ سليم خلف يكتب بعض الكلمات على ورقة يعطيها لمن تشكو إليه انقطاع حملها فتلحسها ، فتحمل بإذن الله تعالى ، ولقد توفي ، لكن ولده الشيخ محمد أبو النصر يقوم مقامه في هذا. وتمت كتابة الورقة وحملت بالمذكور.(٦)

وهذا محمد بن أحمد المانوزي (المتوفى سنة ١٣٦٥هـ) انقطع في أعوامه الآخيرة في مسكنه بمكناس يشتغل بالرقى والتمائم.(٧)

---

(١) كشف الستار ص٣٦.

(٢) الأعلام ٧/٩٢.

(٣) المعسول ١/١٤٦.

(٤) المصدر السابق ١/١٤٧.

(٥) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/١٦٩.

(٦) الشيخ محمد الحامد ص١٢ عبد الحميد طهماز. الطبعة الأولى ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م. دار القلم. بيروت. دمشق.

(٧) الأعلام ٦/٢٤.

رابعاً : الاعتصام بالأضرحة

وفي تلك العصور المظلمة كانت تلك الأضرحة الوثنية حرماً آمنة يهرع إليها المجرمون والفارون، ويلجأ إليها الخائفون ، ليأمنوا في رحابها ، ويستريحوا في ظلالها. ولم يكن ليجرؤ أحد من الحكام في ذلك الزمن أن ينتهك حرمة ضريح لاذ به مجرم أو عاذ به فار فيلقى عليه القبض مهما كان جرمه ومهما بلغت جنايته. وكثيراً ما عفى عن اللائذين بالأضرحة من المجرمين إكراماً للمدفونين فيها أو خشية ورهبة من انتقامهم وبأسهم. أما إن كانوا قد أصروا على إنزال العقاب بهؤلاء المجرمين المحترمين بالأضرحة فإنهم يترصدونهم ويترقبونهم بعد أن يحكموا الحصار حولهم حتى يبارحوا حرمها فيمسكون بهم، وإلا فلا يمد أحد لهم يداً ما داموا معتصمين بها.

ويذكر السملالي سبباً لتأمين المعتصمين بالأضرحة والزوايا فيقول عند ترجمة أبي عمر بن أحمد الأمين القسطلي من متصوفة القرن العاشر : «ولما غضب الوزير على مشوري من أصحابه احترم بزاوية الشيخ ، فبعث الوزير إلى الشيخ بالأمان عليه ، فقال المشوري يقتلني. فقال يقتله الله إن قتلك ، فلما قتله سلط الله على الوزير أكلة في جسمه فتمزق ، ومن ذلك الوقت احترم الناس والسلطان زاويته غاية الاحترام ، وصار الأمراء يتحامون من احتمى بها خوفاً من العاهات.[١]

وهناك حكاية أخرى أوردها السملالي بقوله : «ومن كرامات القطب الجزولي[٢] رضي الله عنه أن بعض من احترم به لما أخرج كرهاً عليه من ضريحه الشريف رأى بعضهم مناماً الشيخ رمى بيدي ورجلي من أخرجه في طنجير يغلي بباب قبته ، فأصبح المجترىء المذكور معطل الجوارح المذكورة ، وما زال يبلى بالمصائب والعياذ بالله من التجرىء على أوليائه ، فإن الله تعالى يغار عليهم».[٣]

وبصرف النظر عن هاتين الحكايتين وغيرهما مما ينشره القبوريون ، فإن الاحترام بالأضرحة وتأمين المحترمين بها ناشيء في الدرجة الأولى عن اعتقاد القبوريين في هذه الأضرحة ، وأنها تجلب النفع وتكشف الضر ، وتغيث المكروب ، وتؤمن الخائف ، فلا غرو أن يكون رحابها أماناً للفارين ، وملجأ للفزعين والمطلوبين.

ففي عام ١٢٠١هـ غزى سلطان المغرب قبيلة اشرافة باحواز[٤] فاس فنهبهم وشردهم فلجأوا إلى ضريح الشيخ أبي الشتاء بغشتالة فعفا عنهم.[٥]

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ١/٢٣٥.

(٢) هو محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» الذي يأتي الحديث عليه. مات عام ٨٧٠هـ عن ١٢٦٦٥ مريداً. الأعلام ٦/١٥١.

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٥/٩٣.

(٤) الأحواز جمع حوزة وهي الناحية وجمعها نواحي. انظر مختار الصحاح ص٦٨.

(٥) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/١١٧.

وعندما وقع خلاف بين سلطان المغرب المولى محمد بن عبد الله ، وبين ولده المولى يزيد ، اعتصم الثاني بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش ، فأرسل والده جنداً وأمرهم بالتضييق عليه حتى يمنعوه من النزول من الحرم! كما يقولون. ولم يزل يزيد معتصماً بالضريح حتى هلك والده.(١)

وحين خلعت قبيلة الرصامنة وغيرها من القبائل طاعة المولى هشام ، وبايعوا أخاه المولى حسين بن محمد ، وزحفوا إلى مراكش ، فلم يرع المولى هشاماً إلا طبولهم تقرع حول القصبة ، وأرهقوه وأعجلوه عن ركوب فرسه ، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي فعاذ به وثابت إليه نفسه ، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى أسفي.(٢)

وعندما هجا الحاج العربي المشرفي السيد عبد الله بن أحمد احترم بضريح المولى إدريس نحو عامين.(٣)

ولما ثار الناس على والي فاس من أجل المكس سنة ١٢٩١هـ ، هدموا داره وانتهبوا أثاثه ، واستصفوا موجوده ، وأرادوا قتله ، فاختفى ببعض الأماكن حتى سكنت الهيعة ، ثم تسرب إلى حرم المولى إدريس رضي الله عنه فأقام به وأمن على نفسه.(٤)

وهذا المدعو بابن نونة كان أحد الثائرين على الأمير عبد القادر ، فلما هزم فر إلى ضريح الغوث سيدي «أبي مدين» رضي الله عنه في قرية العباد ، ثم دخل الأمير تلمسان. ومن الغد توجه إلى زيارة الغوث ، ووجد ابن نونة متعلقاً بأستار الضريح ، لائذاً به فأمنه ، وعفا عنه ، وتقبل فيئه(٥) وأمره على قيادة طائفته.(٦)

وعندما عزم نائب الوالي في القاهرة على الفتك بأحد مدعي الولاية لاذ بمقام الإمام الشافعي ، فخوفه الناس من انتهاك حرمة الضريح ، فلم يقربه ، ثم إن هذا الفار غادر المقام المذكور إلى مقام الليث حتى يستطيع الفرار منه ، ولكن ما إن خرج منه حتى قبض عليه وقتل.(٧)

وهكذا عظمت هذه الأضرحة الوثنية ، وسميت كل تربة منها بالحرم ، حتى لقد فاقت الحرمين الشريفين حرمة وتعظيماً بعد أن رفرف الأمن على قبابها ، وأطمأن المجرمون في رحابها.

---

(١) المصدر السابق ٤/١١٨ ـ ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ٤/١٣٤. وأسفي اسم لبلدة في المغرب تقع في البحر .

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/٥٢.

(٤) المصدر السابق ٣/١٤٧.

(٥) يعني : رجوعه. انظر مختار الصحاح ص٢١٦.

(٦) تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ١/١٧٠ محمد عبد القادر الجزائري. دار اليقظة العربية. تعليق ممدوح حقي. الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(٧) عجائب الآثار ٣/٢١٢.

ومما يدل على ذلك ما جاء في مذكرة الاحتجاج التى قدمها حمدان بن عثمان خوجة[١] (المتوفى حوالي ١٢٦١هـ) بتاريخ ١٥ محرم ١٢٤٩هـ - ١٨٣٣م إلى وزير الحربية الفرنسي وعدد فيها الأخطاء التى ارتكبها حكام الجزائر الفرنسيون وشكايات الجزائريين ضدهم ، وكانت هذه المذكرة عبارة عن ثمانية عشر بنداً.

جاء في البند الثامن منها : «مقتضى ديننا وسياستنا ، احترام الأولياء واحترام تربتهم حتى أن من هرب إلى تربة ولي ، ولو كان عليه قصاص شرعي ، لا نخرجه من التربة ، بل نترصد خروجه بنفسه ، احتراماً لذلك الولي ، وتعظيماً لمن أطاع الله فهي بمنزلة الجوامع في الاحترام[٢] واشتراك الناس في زيارتها والاحتماء بها.[٣]

ولا أدري كيف أباح هؤلاء القبوريون لأنفسهم أن يجعلوا أضرحتهم تلك بمنزلة المسجد الحرام الذي من دخله كان آمناً ويسمونها حرماً [٤]، ومع أن أهل العلم قد اختلفوا فيمن وجب عليه القتل ثم لجأ إلى الحرم لائذاً به ، فذهب إلى تأمينه جمهور التابعين وهو مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد وكثير من العلماء ، وقالوا لا يقتل في الحرم، بل يضيق عليه ويعالج حتى يخرج منه ، فإذا خرج أقيم عليه الحد.

وذهب الإمامان مالك والشافعي إلى أنه يستوفى منه الحد في الحرم[٥] ، وليس من شأننا في هذا المقام أن نستعرض أدلة الفريقين وحججهما. وإنما الذي يعنينا هو اختلاف أهل العلم فيمن ارتكب جناية خارج الحرم ثم عاذ به هل يقتص منه في الحرم أم لا[٦]. أما هؤلاء القبوريون فقد اتفقوا على تأمين المعتصمين بالأضرحة و ألا يمسوهم بسوء حتى ولو كان جرمهم عظيماً ، واستحقوا عليه القصاص والقتل. وإنما غاية ما عندهم التضييق عليهم حتى يبارحوا تلك الأضرحة فيقيمون عليهم الحدود.

---

(١) من المقاومين للإستعمار الفرنسي بقلمه ولسانه كما قال عنه الزركلي. الأعلام ٢/٢٧٤.

(٢) بل هي أشد وأعظم وليس للجوامع عندهم حرمة إلا إذا احتوت على تلك الأضرحة كما رأينا.

(٣) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص١٥٢.

(٤) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : «وليس ببيت المقدس مكان يسمى «حرماً» ولا بتربة الخليل ولا بغير ذلك من البقاع إلا ثلاثة أماكن. وذكر حرم مكة وهو باتفاق المسلمين وحرم المدينة وهو حرم عند الجمهور من عير إلى ثور ، والثالث وادي وج وهو حرم عند الشافعي لاعتقاده صحة الحديث الوارد في ذلك ولم يثبت . ثم قال : وأما ما سوى هذه الأماكن الثلاثة فليس حرماً عند أحد من علماء المسلمين ، فإن الحرم ما حرم الله صيده ونباته ، ولم يحرم الله صيد مكان ونباته خارجاً عن هذه الأماكن الثلاثة». مجموع الفتاوي ٢٧/١٥.

(٥) انظر الخلاف حول ذلك في: المغني لابن قدامة ١٠/٢٣٠ وأحكام القرآن لابن العربي ١/٢٧٣ وتيسير العلام شرح عمدة الأحكام للبسام ٢/٤٩.

(٦) أما من الحد في الحرم فارتكب ما يوجب القتل أقيم عليه القصاص في الحرم. قال ابن قدامة : لا نعلم فيه خلافاً. المغني ١٠/٢٢٣ وإنما الخلاف فيمن فعل ذلك خارج الحرم ثم لجأ إليه.

خامساً : الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس كلها

بالإضافة إلى ما سبق ذكره حول هذه الأضرحة والقبور وما تسببت به من وقوع الشرك في الأمة وانتشاره بين صفوفها ، فإننا نذكر في مقامنا هذا بعض الجوانب التي تبين من خلالها أن هذه الأضرحة والقبور قد أصبحت مهيمنة على حياة الناس كلهم علمائهم وعوامهم إلا من رحم الله. وأن حياتهم غدت مرتبطة أشد الارتباط بهذه الأضرحة. ومن هذه الجوانب :

* **إكرام الضيوف والوافدين بتيسير زياراتهم للأضرحة والقبور والمشاهد :**

ونرى ذلك واضحاً في رحلة القاياتي إلى الشام حين كان ينزل إلى كل بلد فيستقبله علماؤها وكبراؤها ، ويكون أعظم قرى يقدمونه لذلك الضيف هو الذهاب به إلى الأضرحة والمشاهد الموجودة في بلدتهم. ويعبر عن ذلك القاياتي نفسه حيث يقول : «فيذهبون بنا إلى مزارات الصالحين ومدارس المعلمين والمتعلمين.[(١)] فزرنا في هذا البلد (نابلس) ضريح الأسباط..»[(٢)]

ويقول عن أحد العلماء الذين استقبلوه في دمشق الفيحاء : «ودعانا إلى منزله أيضاً .. وصار يتودد إلينا ، ويتردد علينا كثيراً. ويذهب بنا إلى بعض المزارات بنفسه. فممن زرنا بها من الصحابة الكرام أوس بن أوس الثقفي من أهل الصفة ومنهم سيدنا بلال الحبشي مولى الصديق ومؤذن الإسلام».[(٣)]

وذكر أن مفتي القدس استقبلهم في مشهد الكليم عليه الصلاة والسلام أيام مولده وأكرمهم غاية الإكرام ، وقدم لهم وللحاضرين عشاء من مطبخه الخاص ، وأرسل وقت النوم فرشاً وألحفة للغطاء ..[(٤)]

ويتحدث القاياتي عن مقامهم بصيدا فيقول : «فكنا مدة إقامتنا بها نأخذ الغذاء منها بكرة ونذهب إلى مزار من المزارات ، ونمر على البساتين ذهاباً وإياباً ونقضي مدة النهار خارج البلدة إلى أن يرجعنا إليها الليل والمبيت».[(٥)]

كما نرى ذلك واضحاً في «الرحلة الحجازية» لمحمد السنوسي. وبالطبع كان هناك أناس يسمون بالمزورين يقومون بتزوير الغريب القادم إلى البلد مقابل مبلغ من المال. يقول السنوسي عندما زار ميناء جدة : «وقد خرجنا صبيحة يوم السبت (من ذي القعدة) عام ١٢٩٩هـ لمزاراتنا. فزرنا داخل

---

(١) وكثيراً ما كانت تحوى تلك المدارس أعداداً لا بأس بها من الأضرحة.

(٢) نفحة البشام ص١٠٢.

(٣) المصدر السابق ص١٣١.

(٤) المصدر السابق ص٩٦.

(٥) المصدر السابق ص٦٤.

البلد مدفناً لبعض آل البيت ، وخرج بنا المزورون إلى المقبرة خارج البلد. وفي مبداها قبة منسوبة لأمنا حواء ، يقولون إنه على مدفن رأسها. وهناك بيت أبيض يبعد عنها خمسين خطوة يزعمون أنها محل سرتها. ثم تحدث عن ابتزاز هؤلاء المزورين للحجاج وإيذائهم لهم واستجدائهم غير المؤدب.(١)

وكان السنوسي لدى وصوله لكل مدينة يبادر إلى الذهاب إلى مزاراتها شأنه شأن كل غريب في ذلك الزمن. يقول لدى وصوله دمشق : «وأقمت يوم الخميس غرة ربيع الأول في بيت الأمير الجليل أبي محمد عبد القادر بن محيي الدين الحسيني(٢). وخرجت صبيحة الجمعة للزيارة فتبركت بالمزارات».(٣)

وهذا هو الهدف عندهم من زيارة المزارات. التبرك الذي يضم كل أنواع الشرك الأكبر ومظاهره. أما أن تكون زياراتهم شرعية للعظة والاعتبار والدعاء للأموات فذلك أمر طمسته الزيارة البدعية بما حوته من شرك وبدع.(٤)

ويقول السملالي ناقلاً من أحد المؤرخين المغاربة حول زيارة الناس للقبور السبعة المنسوبة إلى الصحابة : «وهؤلاء السادات السبعة لهم فضل مشهور من قديم الزمان يقصدهم الناس بالزيارة من كل فج عميق في كل فصل من فصول السنة ، ولا سيما في فصل الربيع ، يكون الزوار في غاية الكثرة ويتلقاهم أهل كل زاوية من زوايا ركراكة بالضيافة والإكرام.(٥)

وهذا أبو الثناء الألوسي حين قام برحلته من بغداد إلى استامبول يزور الأضرحة في كل بلدة يمر عليها. يقول الألوسي حين مر على سيواس : «وتشرفت فيها بزيارة مرقد حضرة الشيخ شمس السيواسي قدس عزيز سره ، فظهر لي ظهور الشمس في رابعة النهار امتلاء قدره وعلو قدره.(٦)

وكان يصف بعض ما يختلج في نفسه ويضطرم في جوانحه تجاه بعض القبور. يقول : «حتى أتينا قرية يقال لها (قارحين) وهناك قبر عليه قبة ثلجية قد زرناه فلم نحس منه بروحانية».(٧) . ثم طفق يطنب في ذكر الأضرحة والمشاهد التي قام بزيارتها في أثناء رحلته ذهاباً وإياباً. وكان أهل طرابلس الغرب يسافرون إلى بلدة حنزور لزيارة ضريح مشهور هناك يدعى «سيدي عبد الجليل » في غالب شهور السنة (٨) .

وكان الناس إذا عادوا من سفر ، أو قدموا إلى بلد فإن أول عمل يقومون به هو زيارة تلك الأضرحة ، والتقلب في عرصاتها طلباً لقضاء الحاجات واستنزال البركات.

---

(١) الرحلة الحجازية ١٦١/٢. (٢) يأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالى في الفصل التالي .

(٣) المصدر السابق ٣٠٨/٢. (٤) انظر حول الزيارة الشرعية والزيارة البدعية مجموع الفتاوى ٢٧/٣٠ ـ ٣١.

(٥) الإعلام لمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٢٧١/٣.

(٦) نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول ص٣٢ مطبعة ولاية بغداد ١٢٩١هـ. (٧) المصدر السابق ص٣٣.

(٨) اليوميات الليبية ٢٦٠/١ ، ٤٧٥ حسن الفقيه حسن ، من منشورات جامعة الفاتح ، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي تحقيق : محمد الأسطى. عمار جحيدر . الجماهيرية العربية الليبية ١٩٨٤م .

فهذا السيد عمر مكرم نقيب الأشراف في مصر (المتوفى سنة ١٢٣٧هـ)(١) الذي كان له دور كبير في تربع محمد على باشا على عرش مصر ، ثم كافأه على ذلك بأن نفاه إلى دمياط ثم إلى طنطا، واستمر في النفي قرابة الأربعة عشر عاماً ، كان أول ما بدأ به لدى عودته إلى القاهرة أن توجه إلى ضريح الشافعي لزيارته.(٢)

وقبل خروج الفرنسيين من القاهرة بعد وقوع الصلح مع الجيش العثماني الذي كان رابضاً خارج المدينة ، كان كبار القواد العثمانيين يدخلون القاهرة ، ويزرون ضريح الشافعي والمشهد الحسيني وضريح الشعراوي وغيرها من الأضرحة.(٣)

بل لقد بلغ من هوس بعض العثمانيين وولعهم بهذه الأضرحة أن قام جماعة منهم باصطحاب ستة من كبار الإنجليز لتفريجهم على مواطن مزارات المسلمين في القاهرة.(٤) ولقد بالغ هؤلاء القبوريون في تعظيم شأن زيارة تلك الأضرحة حتى قال قائلهم :

زيارة أهل الله من أعظم الذخر   وكنز الفلاح في القيامة والحشر(٥)

وكثيراً ما ترد في تراجم العلماء والأمراء عبارة «وكان يزاور الصالحين أحياء أمواتا».(٦) وبالطبع لا تكون إلا زيارات بدعية.

وكان شد الرحال إلى تلك المشاهد الشركية أعظم قربة عند أولئك الجهال ، ويستعذبون لأجلها مشقة الأسفار ، ويقتحمون الأهوال والأخطار وكان العلماء في غالب الأحيان هم أول من يشدون الرحال ويتكلفون عناء السفر ومشقته. وذلك داء قديم في الأمة، وأوذي من أجله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مع مطلع القرن الثامن الهجري. وظل علماء السوء وأنصار البدعة يتوارثون الحفاظ عليه والمنافحة عنه ، ويزيد في طغيانه تكالب القبوريين ونهمهم بعبادة الأموات والغلو فيهم ، حتى غدا داء مزمنا ميؤساً من الخلاص منه ، بل لقد وصل الغلو بهم إلى قول بعضهم بإسقاط فريضة الحج عمن يشد الرحال إلى بعض الأضرحة التي يعظمونها ويعبدونها من دون الله عز وجل فكثير من أهل الشام يتوافدون لزيارة مقام إبراهيم بن أدهم. «وكان لبعض العامة اعتناء عظيم في هذه الزيارة ، إذ يعتقد أنه إذا زار سبع مرات يسقط عنه فرض الحج..»(٧)

---

(١) الأعلام ٥/٦٧.

(٢) عجائب الآثار ٣/٥٩٩.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٧٤.

(٤) المصدر السابق ٢/٤٩٤.

(٥) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/٢٧٠.

(٦) المصدر السابق ٣/٢٦٩.

(٧) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٧٤.

وفي مصر يذكر البتنوني أن بعض العوام هناك لديهم اعتقاد سائد «من أنه يجيء يوم ينقطع فيه طريق الحج إلى مكة، وعندها يحج الناس إلى مقام السيد البدوي في طنطا».(١) بل إن العامة في مصر لتعتقد فعلاً أن زيارة ضريح البدوي يعدل حجة كاملة.(٢)

وفي الهند يعتقد أتباع الشيخ معين الأجميري الذين يعدون بالآلاف أن زيارة ضريح شيخهم سبع مرات يكفي عن زيارة مكة للحج.(٣)

وإلى جانب غلو هؤلاء القبوريين في زيارة الأضرحة ، كان كثير منهم يحرص على ملازمة تلك الأضرحة والمجاورة والصلاة فيها . ويعدون ذلك نسكاً وقربة. كما ذكر ذلك عن إدريس بن محمد العمراوي أنه كان ملازماً للصلاة في ضريح سيدي فاتح.(٤)

ويذكر عن الحسن المراكشي الشريف (المتوفى ١٢٩٦هـ) أنه «أقام بضريح عبد السلام ابن مشيش نحو الثمانية عشر عاماً يؤدب أولاد الشرفاء ، ويؤذن بالضريح الشريف».(٥) وربما أفنى بعضهم عمره في الانتقال بين الأضرحة للمجاورة فيها .

جاء في ترجمة عبد الرحمن اللكهنوي السندي (المتوفى ١٢٤٥هـ) : «ثم سار إلى (اجودهن) وجاور قبر الشيخ فريد الدين مسعود الأجودهني مدة من الزمان. ثم قدم «اجمير» وعكف على ضريح الشيخ معين الدين حسن السجزي برهة من الدهر ... ثم ساح في البلاد ودخل لكهنؤ سنة أربع عشرة ومائتين ، وعكف على قبر الشيخ محمد مينا رحمه الله سبع سنين..».(٦)

* البيعة في الأضرحة وتسيير الجيوش من رحابها :

اعتادت الدولة العثمانية أن تقيم في جامع أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه حفلة تقليد السيف ، «وهي حفلة تقام كلما ارتقى أمير من آل عثمان إلى عرش أجداده ونودي به سلطاناً ، فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ، ويقلد سيف عمر بن الخطاب في حفلة عظيمة تقوم مقام التتويج عند ملوك أوربا. وعند تقليد السيف يصلي ركعتين عند ضريح أبي أيوب الأنصاري».(٧)

---

(١) الرحلة الحجازية ص١٣٢.

(٢) الحكومة الباطنية ص١٧٨ الدكتور حسن الشرقاوي. وقد علل المؤلف ذلك بتعليل باطل ، بأنه يجوز أن ذلك لعدم الاستطاعة للحج .....الخ.

(٣) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص١٣٥.

(٤) الإعلام لمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣٦/٣.

(٥) المصدر السابق ١٧١/٣.

(٦) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٥٢/٧.

(٧) دليل الاستانة ص٤٩٠. استمبول وحضارة الخلافة الإسلامية ص١٦٣ برنارد لويس. تعريب وتعليق د. سيد رضوان علي . الدار السعودية للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م جدة. الرياض. الدمام.

وقد كان الناس في تلك الفترة حكاماً ومحكومين يحرصون على القيام بالبيعة في رحاب تلك الأضرحة كما بويع المولى سليمان سنة ١٢٠٦هـ داخل ضريح المولى إدريس.(١)

واعتادت بعض الجيوش أيضاً قبل أن تبارح قواعدها لملاقاة الأعداء أن يكون آخر عهدها بالبلاد تلك الأضرحة لتنطلق من رحابها لخوض المعارك بعد أن طلبت النصر منها.

كما ذكر ابن أبي الضياف أن الباي أحمد ملك تونس حين كان يخرج للقضاء على بعض الثورات يزور ضريح الشاذلي.(٢)

وأنه حينما أراد أن يرسل جيشاً مكوناً من سبعة عشر ألف مقاتل لمساعدة العثمانيين في حربهم مع الروس أمر قائده بالتوجه إلى أحد الأضرحة هناك ليأخذوا من مشهده صنجقاً.(٣) وأن يزوروا بعض الأضرحة الأخرى قبل السفر.(٤)

وهذا طاهر باشا الأرنؤدي (المتوفى سنة ١٢١٨هـ) الذي قام بانقلاب ضد الوالي التركي في القاهرة كان يطوف على الأضرحة لزيارتها ويطلب من سدنتها الدعاء له بنجاح الانقلاب الذي قام به.(٥)

* شئون أخرى :

ولما وقع صراع بين الأحناف والشوافع حول مشيخة الأزهر بسبب تعيين أحد مشايخ الأحناف شيخاً للأزهر ، هرع الشوافع بقيادة الشيخ محمد بن الجوهري الشافعي إلى ضريح الإمام الشافعي ، ولم يزالوا فيه حتى نقضوا ما أبرمه العلماء والأمراء وردوا المشيخة إلى الشافعية.(٦)

* إعفاء اللحى عند سدنة الأضرحة :

يقول الجبرتي : «وفي يوم الجمعة (من شهر ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ) ذهب المذكور(٧) إلى مقام الشافعي وأرخى لحيته على عادتهم! التي سنها السدنة ليعفيها بعد ذلك من الحلق!!».(٨)

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٢٩/٤.

(٢) إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ص٧٣.

(٣) الصنجق هو : العلم والراية.

(٤) المصدر السابق ص١٩٩.

(٥) عجائب الآثار ٥٦٥/٢. والجدير بالذكر أن هذا الانقلاب فشل بعد مضي أقل من شهر على وقوعه ودفع طاهر باشا حياته ثمناً لذلك. وخلفه محمد علي باشا الذي تولى مصر في ظروف غامضة ما تزال تحتاج إلى توضيح.

(٦) المصدر السابق ٤٤٢/٢.

(٧) المذكور هو أحد الضباط الكبار التابعين لعثمان بك البرديسي من زعماء المماليك المرموقين.

(٨) المصدر السابق ٥٩٤/٢ لأنهم كانوا يعزرون المخالفين. بحلق اللحى ، فإذا أعفاها عند الضريح سلم من ذلك.

* جعل الأولاد في ذمة الأضرحة والموتى :

يقول السنوسي :«وزرنا مقام الشيخ عبد الغني النابلسي العالم الشافعي وعنده ألهمت[١] أن أجعل ولدي في ذمة الشيخ محيي الدين[٢] رجاء أن يكون من العلماء[٣] فاسترجعت رفقائي إلى مقام الشيخ محيي الدين، وأشهدتهم بذلك، ولقبت ولدي بمحيي الدين».[٤]

وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة الناس ، وأصبحت مهيمنة على شئونهم ، وشغلت تفكيرهم ، وتبوأت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة ، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات ، والتعلق بهم من دون الله عز وجل فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة ، ودعاء أصحابها واستشارتهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، فكيف لغيرهم. وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ، ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها ، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به .

وبالرغم مما تسببت فيه تلك الأضرحة من وقوع الشرك في الأمة وانتشار مظاهره بين أفرادها فإن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل زاد البلاء ، وعظم الغلو والشرك كما سنرى في الفقرات التالية.

سادساً : الشرك الأكبر من خلال ما يسمى بالمدائح النبوية :

انتشر في هذين القرنين بشكل كبير ما يسمى بالمدائح النبوية، وتسابق الشعراء والعلماء في ذلك المضمار، واعتقد الكثير منهم أن هذه المدائح سبب لزوال الأهوال وكشف الكروب، وأنها تكفي وحدها في نجاة قائلها يوم القيامة ، وفي نيل صاحبها لشفاعة المصطفى ﷺ، وأنها شفاء للأسقام ، وفارجات للهموم إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التي تكشف لنا سر ذلك التهافت الغريب على هذه المدائح التي لم تتفق على شيء كاتفاقها على الإمعان في الغلو والشرك، حتى إن الباحث ليخرج بنتيجة مؤكدة أن تلك المدائح النبوية في العصور المتأخرة قد انحرفت عن صورتها الصحيحة وهي مدح المصطفى ﷺ والثناء عليه دون إطراء أو غلو[٥] واستحالت إلى شرك صريح هو عين ما حذر منه ﷺ حين قال : «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».[٦]

---

(١) لا شك أنه كان إلهاماً من الشيطان.

(٢) هو ابن عربي الحاتمي .

(٣) وهل ضاع العلم إلا بمثل هذا الهراء!.

(٤) الرحلة الحجازية ٣١٤/٢.

(٥) كمدح الشعراء له ﷺ في صدر الإسلام ، مثل مدح حسان بن ثابت ، ومدح عبد الله بن رواحة ومدح كعب بن زهير ، ومدح كعب بن مالك ، ومدح العباس بن مرداس السلمي رضي الله عن الصحابة أجمعين ، وكمدح غالب الشعراء والعلماء في العصور المتقدمة.

(٦) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله { واذكر في الكتاب مريم ... }، برقم ٣٤٤٥ (الفتح ٤٧٨/٦).

ولا نكاد نعثر على قصيدة من تلك القصائد التي يرى ناظموها أنهم يمدحون بها المصطفى ﷺ إلا وجدناها تطفح بالتوسلات الشركية ، والاستغاثات الكفرية ، والويل لمن رام الإنكار عليهم ، أو حاول أن يوضح الحق لهم.

ولنستمع إلى الشيخ عبد الصمد الأرمنازي حيث يمدح المصطفى ﷺ :

لست أخشى ولي إليك التجاء! يا نبياً سمت به الأنبياء
كنت نوراً وكان آدم طيناً فأضاءت بنوره الأرجاء
أيها المادحون طيبوا نفوساً إن مدح النبي فيه الشفاء
ما رماني الزمان منه بسهم أو دهتني الخطوب والضراء
وتوسلت بالمشفع إلا داركتني الألطاف والسراء
يا رفيع الجناب أنت المرجى في المهمات إذ يعم البلاء
كن مجيري يا خير هاد لأني ليس لي في الأمور عنك عناء(١)

ويقول المدعو بالسيد محمد أمين الدمشقي في قصيدته التي يمدح بها النبي ﷺ :

مالي من الأهوال حسن تخلص إلا بمدحي المصطفى العدناني
لا تدرك المداح وصف من الذي أثنى عليه الله في القرآن
كن لي مغيثاً يا شفيعاً بالورى يوم الزحام وخفة الميزان
أنت الملاذ لنا وأنت عياذنا أنت المشفع بالمسيء الجاني
أرجوك تلحظني ختام الأنبيا ء بلحظة أغدو بها بأمان(٢)

ويقول أيضاً من قصيدة أخرى :

يا خاتم الأنبياء الغر يا سندي يوم الزحام إذا ما الخلق في غمم
يا من إذا لاذ مأسور الذنوب به غداً ، غدا آمناً كالصيد في الحرم
قرعت بابك أرجو الله يرحمني فأنت غوث الندى حصن لمعتصم
وقد رجوتك في التفريج من كرب فأنت بر رؤوف طاهر الشيم
بلغت جهدي بمدح فيك أنظمه أرجو شفاعتك العظمى بمزدحم(٣)

---

(١) حلية البشر ٢/٨٥١.
(٢) المصدر السابق ٣/١٢٣١ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق ٣/١٢٣٥.

فالشاعر استفرغ وسعه وبذل جهده كما يقول في مدح النبي ﷺ معتقداً أن ذلك سبب لنيل شفاعته ﷺ. ويقول أحمد بن العربي البلغيثي :

وانذر الدموع وقل بصوت خافت ... يا من هو المقصود في الأزمات
أبغي التعلق بالنبي محمد ... فهو الشفيع لمذنب وجناة
يا خير من يرجى لكل ملمة ... يا من به المنجى من الهلكات
إن لم تغثني يا منائي عاجلا ... بشفاعة أضحى بها في ثبات
أنت الذي قد كنت نوراً أولاً ... أصلاً لكل الكون في النشأت
العرش والكرسي وكل مصور ... من نورك المكنون في المشكاة[(١)]

ويقول محمد بن إبراهيم العاري :

أحاول مدح من جا بالمثاني ... ومن هو عمدتي فيما دهاني
فطه للنوائب أرتجيه ... ومن ألم وشر أختشيه
أجل المتقين ومصطفاهم ... ملاذ العاجزين وملتجاهم
رسول الواحد الملك المهيمن ... غياث الخائفين بكل موطن
من الأهوال ينقذ كل مؤمن ... نمته دوحة قرشية من
مدائحها ثمار الخير تجنى[(٢)]

ويقول عبد السلام الشطي :

إليك رسول الله أشكو نوائباً ... لقد أنحلت جسمي وأعمت بصيرتي
وقد زاد بي سقمي وطال تمرضي ... وقد ضاق بي صدري وصرت بحيرة
وحالي لا يخفاك تفصيل شرحه ... فجد لي بكشف الشر واقبل عريضتي
فيا خير خلق الله يا أشرف الورى ... على بابك العالي أنخت مطيتي
وفيك لقد أملت نيل مقاصدي ... وأرجوك يا مختار إبراء علتي[(٣)]

وقد احتفل العلماء والشعراء في هذين القرنين بقصيدة البردة للبوصيري ، ونسجوا على منوالها المنحرف مئات من القصائد ، وتباروا في تشطيرها[(٤)]، وفاقت كثير من تلك القصائد البردة في الغلو والإطراء، حتى لقد ارتبط المدح عندهم بالغلو فكلما ازداد الواحد منهم غلواً وشركاً كان مدحه أعظم.

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٤٢٢/٢. (٢) حلية البشر ١٣١٨/٣.

(٣) النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل ص٣٧٨ ، محمد كمال الدين بن محمد الغزي ، تحقيق وجمع : محمد مطيع حافظ ، نزار أباظة ، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

(٤) التشطير هو : أخذ الشاعر بيتاً لغيره فيجعل لصدره عجزاً ولعجزه صدراً مراعياً تناسب اللفظ والمعنى بين الأصل والفرع. انظر : المعجم الأدبي ص٦٨ جبور عبد النور. بيروت ، دار العلم للملايين. الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

وممن اعتنى بتشطير البردة: عبد القادر بن عبد اللطيف الرافعي (المتوفى سنة ١٢٣٠هـ)[١] من علماء طرابلس الشام ، وجميل بن مصطفى العظم (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ) من أدباء دمشق له مؤلف سماه «تفريج الشدة في تشطير البردة»[٢] ، والشيخ أحمد بن شرقاوي الخليفي المالكي (المتوفى سنة ١٣١٦هـ) من فقهاء الصعيد بمصر[٣]. وغيرهم كثير .

أما الذين تصدوا لشرحها فكثيرون نذكر منهم : الشيخ حسن العدوي (المتوفى ١٣٠٣هـ) من علماء الأزهر.[٤] ومحمد بن الشيخ حمودة (المتوفى سنة ١٣٣١هـ).

ويذكر الشيخ محمود شكري الألوسي أن الشيخ أبا السعود السويدي سقط يوماً من سطح داره فتألم ألماً شديداً فشطر قصيدة البردة فما تم تشطيرها إلا وزال السقم عنه[٥]. وكان الأطفال الصغار يحفظون البردة ويرددونها عند احتفالاتهم بحفظ القرآن الكريم.[٦] وكثيراً ما تنشد البردة عند السير بالجنازة إلى القبر.[٧]

سابعاً : الغلو في أهل البيت والأشخاص :

ونعني بالغلو هنا ما وقع عند أهل السنة وليس الغلو الذي يعتقده الشيعة على سائر طوائفهم وفرقهم .

لقد نشأ انحراف عظيم في محبة أهل البيت عند المسلمين في القرون المتأخرة ، وأحدث ذلك الانحراف غلواً مفرطاً في النظر إليهم. ويمكن أن نلمس عاملين أديا إلى ذلك الغلو ، وهما الفكر الصوفي والفكر الشيعي وقد تبلور ذلك الغلو بهذين الفكرين ، وامتزج بهما تماماً [٨] ، وضاهى ذلك غلو الشيعة وانحرافهم في محبة أهل البيت [٩] .

وقد كان هؤلاء الغالون يعتقدون أن محبة أهل البيت على الصفة التي اعتقدوها تكفيهم للنجاة عند الله عز وجل ، واعتقدوا فيها نظير اعتقادهم في المدائح النبوية التي قدمنا الحديث عنها قبل ذلك.

---

(١) الأعلام ٤/٤٠.　　(٢) المصدر السابق ٢/١٣٩.

(٣) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص٤٠٩ محمد بن محمد مخلوف . دار الكتاب العربي . بيروت .

(٤) المصدر السابق ص٤٠٧.

(٥) المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشروالثالث عشر ص١٢٨ محمود شكري الألوسي. تحقيق د. عبد الله الجبوري. دار العلوم للطباعة والنشر. ط ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٤٧.　　(٧) المصدر السابق ١/٢٥٦.

(٨) وإن كان الفكر الشيعي يعد من روافد الفكر الصوفي. انظر الصلة بين التصوف والتشيع د. مصطفى الشيبي.

(٩) انظر : غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام. د. فتحي محمد الزغبي. ص٤٩ حيث تحدث عن إفراط الشيعة في الحب وص٦٢٢ حيث تحدث عن اتجاه الموالي من الفرس الذين دخلوا في الإسلام إلى الغلو ، وأن الغلو الذي منحه الموالي لملوكهم ، نقلوه بعد ظهور الإسلام إلى أهل البيت. الطبعة الأولى ١٤٠٩ ـ ١٩٨٨م. مطابع غباشي ـ طنطا ـ مصر.

وأوضح ما يكون هذا التيار الغالي في القصائد الشعرية التي دبجها الشعراء والعلماء في مدح أهل البيت ، وفي التغني بفضائلهم ، والإشادة بمحبتهم.

يقول المدعو بالسيد محمد بن إسماعيل الحسيني الحنفي الموصلي يمدح الإمام علياً رضي الله عنه :

أرى صفو عيشي بالخطوب تكدرا　　وأيسر أمري بالزمان تعسرا
ولكن أنادي إن فؤادي تحيرا　　أيا سيدي أنجد عبيدك في الورى
بهمتك العظمى جعلت فداكا
يقينك لا يزداد إن كشف الغطا　　ورأيك حاشا منه أن يصدر الخطا
أنادي إذا جار الزمان وإن سطا　　أبا حيدر الكرار يا وافر العطا
فقير أتى يبغي جزيل عطاكا
سموت علوماً في الملا ومناقباً　　وشيدت للدين القويم مراتبا
وأصبحت صهراً للنبي وصاحبا　　فجد وأجرني كي أقول مخاطباً
لقلبي لك البشرى بلغت مناكا (١)

ويبدو في هذه الأبيات الأثر الشيعي واضحاً كقوله : ورأيك حاشا منه أن يصدر الخطأ وهو ما يوافق عقيدة العصمة عند الشيعة الإمامية حيث يعتقدون بعصمة أئمتهم (٢) . وقوله : سموت علوماً. حيث يعتقد الشيعة بأن علياً كان أعلم الصحابة بعد رسول الله ﷺ على الإطلاق ، ويحتجون بالحديث الموضوع (أنا مدينة العلم وعلي بابها) (٣) .

ويقول الآخر في الحسين بن علي رضي الله عنهما :

الغياث الغياث يا ابن النبي　　من عدو وحاسد وغبي
ملجأ اللائذين غوث البرايا　　مأمن الخائفين من كل شيء
أنت حقاً باب المدينة للعلم　　بحكم الوراثة الشرعي (٤)

(١) حلية البشر ١٢٠٨/٣ .

(٢) انظر : عصمة الأئمة في كتاب : دراسة عن الفرق ص٢٠٣ الدكتور أحمد محمد جلي.

(٣) ومن الذين حكموا بوضعه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقال : والكذب يعرف من نفس متنه. ٥١٥/٧ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. تحقيق د. محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦هـ وأسهب رحمه الله في رد تلك الفرية وغيرها من مفتريات الشيعة في ذلك السفر العظيم.

(٤) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص١٥٨ محمد سيد كيلاني. دار الفرجاني. القاهرة. ط ١٩٦٥م.

ويقول أحدهم مادحاً أبا الأنوار شيخ السادات في مصر (المتوفى ١٢٢٨هـ)[(١)]:

وعش زينة للدهـر إنك روحـه فما دمت لا يفنى الزمان ولا يمحى
وإنك للدين القويـم ابتهاجه وإنك منهاج الحنفية السمـحا[(٢)]
وإنك كهف المسلمين وركنهم وملجاهـم في كل نائبة قبحا
جعلت بهذا العصر للخلق رحمة أزلت لهم عن كل مشكلة جنحا [(٣)]

ويقول الآخر فيه :

وعلى بني العصر اصطفاك لرتبة تركت قلوب عداك فيها النار
الجوهر الفرد الذي لم تشتمل أبداً على أمثاله الأعصار
العروة الوثقى لمعتصم به الآية الكبرى لمن يحتار
كناه مـولاه أبا الأنوار إذ من نوره تتـولد الأنوار
بعلاه آمنا فمن يؤمن ينل عدناً ونار لظى لها الكفار [(٤)]

والأبيات واضحة الغلو في أن أبا الأنوار روح الدهر ، وما دام باقياً فإن الزمان محفوظ به ، والدين والمسلمون كذلك. فهو رحمة للخلق ، كاشف للنوائب والمشاكل ، وملجأ للمسلمين فيها. وأن من آمن باصطفاء أبي الأنوار وصفاته ، فله جنات عدن. ومن يكفر به فالنار هي مصيره ومآله.

أما اعتقادهم الخاطىء في محبة أهل البيت فمنها قول أحدهم :

من الذين إله العرش طهرهم ومن أحبهم لن يدخل النارا[(٥)]

وقول الآخر :

آل طـه ذخيرتي المدح فيكم وأرى حبكم هو الإسلام [(٦)]

ويقول إدريس بن محمد العمراوي (المتوفى ١٢٩٦هـ) :

---

(١) انظر ترجمته في عجائب الآثار ٣/٤١٩.

(٢) ولا ندري أي دين يقصد هذا القائل إلا إن كان دين المبتدعة والمارقين. وإن نعجب من هذا فعجب من شطر البيت الثاني ، فمتى كان الطرقية يمثلون الحنيفية السمحة وهم الذين خرقوا حجابها ومزقوا أثوابها.

(٣) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص١٥٦.

(٤) المصدر السابق ص١٥٧.

(٥) المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٦) المصدر السابق ص١٦٧.

حب آل النبي خير وسيلة ومو الاتهم هدى وفضيلة[١]

وللشيخ محمد السنوسي قصيدة لامية بها ما يزيد على المائتين وسبعين بيتاً سماها «الأجنة الدنية القطاف بمفاخر سلسلة السادات الأشراف» أولها :

إن المـودة في القربى هي الأمـل يجري بها ويفوق الأجر والعمل[٢]

ويقول أحدهم وقد أراد تخميس إحدى القصائد في مدح أهل البيت :

«لما كانت مدائح آل المصطفى هي من أعظم الوسائل للنجاة يوم العرض والمسائل إلى أن قال : ولهذا شمرت ساعد الجد لتسميطها [٣] طلباً للثواب ومحبة لآل النبي الأواب» [٤] .

وهكذا تمادى الغلو بهؤلاء الجاهلين ، في أهل البيت حين رفعوهم فوق منزلتهم واعتقدوا فيهم اعتقادات باطلة وذلك مثل : أن من أحب أهل البيت حبًّا منحرفاً كالذي وقعوا فيه ، فقد حرم الله النار عليه ، ولا غرابة في ذلك ، فإن الإسلام عندهم هو الغلو في محبة أهل البيت والاستغاثة بهم ودعاؤهم من دون الله عز وجل ، حتى ولو جاءوا بمثل الجبال ذنوباً وأوزارا .

ثامناً : الشرك بالأحياء والغلو فيهم :

لم يكتف أهل البدع والضلالة بالعكوف على قبور الموتى وأضرحتهم ، يستشفعون بهم، ويستغيثون بهم ، ويتوسلون بهم ، وإنما عمدوا إلى كثير من الأشخاص الأحياء ممن نظروا إليهم بمنظور الولاية المنحرف ، فأحاطوهم بهالات من التقديس ورفعوهم فوق مرتبتهم البشرية ـ وصرفوا لهم كثيراً من العبادات ، وأشركوا بهم من دون الله عز وجل.

يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار صاحب كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» أن الشيخ طه بن جمعة الدسوقي قد استقر في قرية كفر كرمين بناحية جبل سمعان من أعمال حلب ، واختارها وأقام بها في غار هناك ، تزوره الناس ويأتونه بالنذور والذبائح على عادتهم ، ويعتقدونه ويتبركون بأنفاسه ودعواته ، وحصل الشفا لكثير من المرضى والزمنى [٥] على يده بإذن الله تعالى[٦]

ونستطيع أن نقول إن كثيراً ممن عكف على قبورهم بعد موتهم ، كان الناس خلال حياتهم يلجأون إليهم ، ويتبركون بهم ، ويشركون في كثير من الأحيان بهم.

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣/٢٤.

(٢) شجرة النور الزكية ص٤١٤.

(٣) يعني نظمها انظر مختار الصحاح ص١٣٢.

(٤) حلية البشر ٢/١٠٥٧.

(٥) جاء في مختار الصحاح : الزمانة آفة في الحيوانات ، ورجل زمن أي مبتلى بين الزمانة ص١١٦.

(٦) حلية البشر ٢/٧٥٣.

وقد كان بعض الموالين لمحمد بن علي الإدريسي (المتوفى ١٣٤١هـ) [(١)] أثناء حروبهم مع الأتراك يستغيثون به ويقولون «المدد يا مهدي الله ، يا إدريسي»[(٢)]

وكان بعض المتصوفة يأمرون الناس أن يستغيثوا بهم ، كما كان يفعل المدعو أحمد بن زيني دحلان (المتوفى ١٣٠٤هـ) الذي أفنى حياته كما مر معنا من قبل في محاربة الدعوة السلفية ، فقد كان يأمر الأعراب بذلك. ويقول لهم : لا تخافوا من شيء أبداً وإذا حصل لكم ضيق في أمر كان فنادوني ، واستغيثوا بي فإني أغيث اللهفان.

ومن ذلك يقولون : إنه حصل لبعضهم ظمأ شديد حتى أشرف على الهلاك في إحدى البراري ، فتذكر ما قاله الدحلان ، فنادى بأعلى صوته : يا مولانا وشيخنا السيد أحمد دحلان أغثني فإني أشرفت على الهلاك . فما شعر الرجل المذكور إلا وكأنه صب في جوفه ماء فروي ، وأزال الله ما به من ظمأ.

وسافر بعضهم أيضاً فضل الطريق ، وكان ذلك في ليلة مظلمة فحصل له كرب عظيم وضيق فتذكر مقالة الأستاذ المذكور، ونادى بأعلى صوته : يا سيدي أحمد أنقذني من هذه الحيرة ، فما تم مقالته إلا وضوء أضاء له أبصر به الطريق، وفرج الله عنه ما به ببركة هذا الأستاذ من الهم والضيق[(٣)].

وقد تمادى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة التوحيد فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء ، بل أشركوا بالأشجار والأحجار . ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس ، لاخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم وهو يعرف عندهم «طوب أبي خزامة» مما حدا بالعلامة محمود شكري الألوسي إلى التصدي لهذه الخرافة

---

(١) الأعلام ٦/٣٠٣.

(٢) الرحلة اليمانية ص١٠ ، ص٤٧ شرف بن عبد المحسن البركاتي المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٤هـ وقد كان مرافقاً للشريف حسين في حملته عام ١٣٢٩ التي قادها لمحاربة الإدريسي. ومما يجدر ذكره أن الإدريسي كان عميلاً لايطاليا التي أعلنت الحرب ضد الدولة العثمانية في ليبيا ، فأرادت شغل الدولة بفتح جبهة لها على البحر الأحمر في ساحله الشرقي فوقع اختيارها على الإدريسي ابان وجوده في مصر ، ونفذ مهمته بنجاح ، وأمدته ايطاليا بالمال والسلاح وحالف في آخر أيامه بريطانيا كل ذلك ضد الدولة العثمانية ، ولم يمهله الله طويلاً حيث مات دون الخمسين عاماً.

(٣) نفحة الرحمان في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم الشيخ أحمد بن المرحوم السيد زيني دحلان - ص٣٣ أبو بكر بن محمد شطا. القاهرة. دار فينوس. ١٣٠٥هـ .

والمطالع لهذه الرسالة يرى أنها نفحة شيطانية وليست رحمانية ، فقد جاء فيها من البدع والخرافات ما يعجز مجلد كبير عن رده وابطاله.

الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماهاب (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع)[(١)]

يقول الشيخ محمد بهجت الأثري : «وكانت العامة تعتقد بهذا المدفع اعتقاد الجاهلية باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، إذ تنذر له النذور ، وتعلق عليه التمائم ، وتقبله وتتبرك به إلى غير ذلك من المنكرات» [(٢)] .

ويقول النبهاني : «إنه رأى هذا المدفع عام ١٣٣٢هـ وعام ١٣٤٣هـ ، وقال عنه : وهو معظم عند أهل بغداد حتى أنهم يدخلون رأس كل مولود يولد لهم في ملفظ المدفع تبركاً به إلى حال التاريخ ، وهو موضوع في محل مخصوص يزار ويتبرك به ، ويعتقدون فيه اعتقاداً تاماً [(٣)] .

وكان إتيان الكهان والسحرة والمشعوذين سمة من سمات تلك الفترة. وامتاز العصر العثماني بظهور مؤلفات في الروحانيات من سحر وطلاسم وضرب للرمل وتنجيم [(٤)] وقد تحدث العلامة القاسمي عن انتشار هذه المنكرات ، وأبدى أسفه وحزنه على إقبال الناس عليها [(٥)] .

وحين أيس القواد المغاربة من القضاء على ثورة أبي حمارة - الذي سبق ذكره - رأى بعضهم أن يستخدم السحر والشعوذة في سبيل القضاء عليها [(٦)] .

وقد ذكر الشوكاني ساحراً مغربياً قدم اليمن ، وأخذ يعرض أسحاره ، وقد أكرمه إمام اليمن إكراماً زائداً [(٧)] . وذكر صاحب «نيل الوطر» قريباً من ذلك عن المدعو بالسيد أحمد بن عبد الله لقمان حيث يقول : «وكان للمترجم ملكة عظيمة في علم الأسماء والحروف [(٨)] . ويد قوية على شياطين الجن[(٩)] وما هو إلا ساحر كذاب. ولكن السحر في تلك الفترة كان عند الكثيرين علماً ومهارة.

وذكر الواسعي : أن رجلاً ظهر في المشرق يخبر الناس بالدفائن (الكنوز) والأسرار وأن الناس فتنوا به ، وقصدوه من كل مكان [(١٠)] . وذكر خبراً آخر عن ساحر ظهر في زبيد وادعى النبوة ، وتبعه

---

(١) المسك الأذفر ص٣٣. (٢) أعلام العراق ص١٤٥.

(٣) التحفة النبهانية ص٢٦٣.

(٤) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص٥٤.

(٥) إصلاح المساجد من البدع والعوائد ص٢٢١ المكتب الإسلامي. الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ - بيروت.

(٦) أعلام المغرب العربي ١/٢٧٣.

(٧) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ١/٣١٤ مطبعة السعادة. الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.

(٨) علم الحروف والأسماء كما ذكره صاحب (كشف الظنون) : علم باحث عن خواص الحروف افراداً وتركيباً. ١/٦٥٠ ويعتمد على الطلسمة والعزائم ومعاملة الجن ، وهو علم السحرة والمشعوذين والدجالين وليس له في الإسلام من نصيب.

(٩) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر ص٢٠ محمد بن زبارة. المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٤٨هـ.

(١٠) تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص٣٢٦ عبد الواسع بن يحي الواسعي. مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

جماعة من العوام [١] . وذكر خبراً ثالثاً عن رجل ظهر في تهامة له علاقة بالأسحار والتمويه ، فتبعه جماعة عظيمة من الناس [٢] .

ويمكننا أن نقول إن السحر والكهانة والشعوذة في تلك الفترة كانت تلقى رعاية في رحاب المتصوفة. وما أكثر السحرة والكهان الذين اعتقدهم العوام أولياء وما أكثر المتصوفة الذين عالجوا ضروب السحر والكهانة والشعوذة.

وفي الموالد الخاصة يتوافد السحرة لاستعراض سحرهم وشعوذتهم. واختصت بعض الطرق الصوفية كالأحمدية والرفاعية والسعدية بذلك الدجل والإفك [٣] .

تاسعاً : الحلف بغير الله عز وجل :

يقول ﷺ : «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» [٤] .

وفي تلك الفترة السوداء اعتاد الناس أن يحلفوا بغير الله عز وجل من المخلوقين. وكان حلفهم ينبعث في الغالب من تعظيم المحلوف به ، وخوفهم ورهبتهم منه واعتقادهم في نفعه وضره.

وما أسهل أن يحلف الإنسان منهم بالله كاذباً ، عامداً متعمداً ، ولكنه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين كاذباً.

فالحلف بصحيح البخاري عند كثير منهم ، يفوق الحلف بالقرآن العظيم. ويحلف الواحد منهم بالله وبالقرآن كاذباً ، ولا يجترىء أن يحلف بالبخاري كاذباً ، لأن البخاري بزعمه (وهو من الأولياء عندهم) يستشيط غضباً فينتقم لنفسه ممن حلف بصحيحه كاذباً [٥] .

وفي حلب زاوية تعرف بمزار الشيخ جاكير لها شيء من الأوقاف ، وأهل تلك المحلات يعتقدون به اعتقاداً زائداً ، ويحلفون به عند ضريحه المظنونين والمتهمين ، فلا يجسر أحد على الحلف به باطلاً ، لاعتقاده حينئذ أنه لابد وأن ينكب بجسمه أو ماله أو ولده ، ويحكون في هذا المعنى حكايات كثيرة [٦]

«ويقسم كثير من الناس بالأضرحة ، ويخافونها إذا حنثوا في أيمانهم أكثر مما يخاف من الله ، فقد يطلب المشتكي من خصمه أن يقسم على ضريح مقدس خيراً من أن يقسم بالله أو بالقرآن ، ويعتقدون أن لتلك الأضرحة قوة الانتقام إذا كان المقسم حانثاً» [٧] .

---

(١) المصدر السابق ص٢٢٦. (٢) المصدر السابق ص٢٥٧.

(٣) انظر : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١/١٩.

(٤) رواه الترمذي برقم ١٥٣٥ كتاب النذور والأيمان. وقال : حديث حسن.

(٥) وسنذكر إن شاء الله تعالى بعض التعليلات لاهتمام الناس بالبخاري على طريقتهم المنحرفة.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٥٠٧.

(٧) تاريخ حضرموت السياسي ص١٢٠ وقد ذكر صلاح البكري عشرة من الأضرحة المشهورة في حضرموت التي يحلف بها الناس ، ولا يجرؤون أن يحنثوا بها.

ويقول الإمام الشوكاني عند حديثه على القبوريين وتعظيمهم للأموات : «وأفضى ذلك إلى أن أحدهم يحلف بالله تعالى فاجراً ، ولا يحلف بمن يعتقده من الأموات ، ويقدم على المعصية في المساجد التي هي بيوت الله ، ولا يقدم عليها عند قبر من يعتقده» (١) .

لقد كان أمراً طبيعياً مع انتشار عبادة الأضرحة والقبور أن ينتشر الحلف بغير الله ، حتى غدا بين الناس أمراً معتاداً لا غبار عليه ، وضمنه الشعراء والأدباء قصائدهم ومنثوراتهم.

يقول أحدهم حالفاً بالشيخ محيي الدين ابن الأمير عبد القادر الجزائري :

يميناً بمحيي الدين باشا أبو الهدى ... سليل الذي من فاق شرقاً ومغربا
لقد ورث المجد المؤثل والعلا ... عن الغوث فرد الكون من قد تقطبا (٢)

ويقول الآخر : أقسم بالشمس والقمر ، ونسيم الصبا إذا سرى في السحر ، لهو البليغ الذي فاق نظمه ونثره (٣) .

أما الحلف بالنبي (٤) فهو أمر لا يكاد يفارق الألسن إلا نادراً ، بل لقد كانوا يحلفون بشباك المقصورة المعمولة على قبره ﷺ. فيقول أحدهم إذا أراد أن يحلف : لا وحياة النبي الذي وضعت يدي على شباكه . وما دام أنه قد وضع يديه على شباك المقصورة فكيف له أن يحلف كاذباً ، أما إن لم يكن قد وضع يديه على هذا الشباك ، فالأمر عندهم فيه متسع . وقد كانوا يحلفون بزمزم والبيت والمقام خصوصاً الأعراب، فيقولون إذا حلفوا وأقسموا : والبيت الحرام ، وزمزم ، والمقام ما فعلنا كذا مثلاً(٥) .

وهكذا زين لهم الحلف بغير الله عز وجل ، وأصبح الله عز وجل أهون الناظرين إليهم ، وتواطأت قلوبهم على خشية ما اعتادوا الحلف به ، أما الخوف من الله عز وجل ، والحذر من عقابه وانتقامه ، أما توحيده فهو أمر طمسته البدع والشركيات والخرافات.

---

(١) أدب الطلب ص١٦٨.

(٢) حلية البشر ١٤٤٧/٣. ومعنى تقطبا : أصبح قطباً أعظم وهو من معتقدات الصوفية الخرافية.

(٣) المصدر السابق ٦٨٥/٢ ومن المعلوم أن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله عز وجل.

(٤) أجاز بعض العلماء الحلف بالنبي وهو قول عند الإمام أحمد لأنه يجب الإيمان به خصوصاً ويجب ذكره في الشهادتين والأذان. والجمهور على عدم جوازه وهو الصواب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. مجموع الفتاوى ٣٤٩/٢٧.

(٥) الرحلة الحجازية ص٢٤٦ محمد لبيب البتنوني.

ثانيا : انتشار البدع والخرافات :

انتشرت البدع في هذين القرنين انتشاراً ذريعاً ، وأصبحت حياة أكثر المسلمين ممزوجة بالبدع ، فقلما تخلو منها عبادة أو عمل أو شأن من شؤون الحياة. فبدءاً بالعبادات التي داخلتها ألوان البدع والمحدثات ، مع إماتة كثير من السنن والمندوبات إلى ما وقع من البدع في الجنائز والمآتم والأعراس والضيافات والولائم ، وفي كل شؤون الحياة. أضف إلى ذلك بدع الموالد وما يحدث فيها ، وبدع أرباب الطريق من المتصوفة الذين هم أصل كل شر في انتشار البدع بين صفوف المسلمين.

والداهية أن تهيمن هذه البدع لا على حياة العوام فحسب ، ولكن على حياة كثير من العلماء الذين شايعوها ونصروها، « وهكذا أصبحنا نرى البدع في كل مكان تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس [(١)] ، يعمل بها الجاهلون ، ولا يستنكف عن تأييدها العالمون ، حتى لقد انتهينا إلى اليوم الذي ورد ذكره في حديث ابن مسعود إذ قال : يأتي على الناس زمان تكون السنة فيه بدعة، والبدعة سنة» [(٢)]

وقد كان الناس عند حلول الأزمات والشدائد يفرون إلى هذه البدع كي تزول أزمتهم ، وتنكشف شدتهم ، ومن ذلك قراءة صحيح البخاري عند وقوع الأحداث ، وكذلك ما كان يقوم به أرباب الطريق والعوام من أذكار مبتدعة ، ومجالس مخترعة.

وقد كان سلاطين المسلمين وملوكهم يرسلون إلى العلماء في زمن الحروب ليقرأوا لهم صحيح البخاري. ويذكر الجبرتي أن السلطان العثماني في سنة ١٢٠٢هـ أرسل أموالاً لتفرق على طلبة العلم في الأزهر ليقرأوا له صحيح البخاري ويدعو له بالنصر [(٣)] .

ويذكر أنه حين قدوم الفرنسيين إلى مصر ، وقبل دخولهم القاهرة ، كان العلماء يجتمعون بالأزهر كل يوم ، ويقرأون البخاري وغيره من الدعوات ، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ، ويعملون لهم مجالس بالأزهر ، وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء [(٤)] .

وخرجت أرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات ، وهم يضجون ويصيحون ، ويذكرون بأذكار مختلفة ، ويذكر أيضاً أن العامة لما التحم القتال ضجوا بالصياح ، ورفع الأصوات

(١) بل لقد احتلتها فعلاً كما سنرى.

(٢) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص٣٤.

(٣) عجائب الآثار ٢/٥٣.

(٤) المصدر السابق ٢/١٨٥.

قائلين يا رب يا لطيف يا رجال الله حتى حلت الهزيمة في خلال ثلاثة أرباع الساعة [١]. واحتل الفرنسيون القاهرة ، فلم يكن لمثل هذه الجموع الفوضوية التي كانت غارقة في البدع والخرافات أن تقاوم الجيش الفرنسي في قوته وتدريبه ونظامه. وكان الأولى بهؤلاء الطرقية وغيرهم أن يلقوا بطبولهم وأشايرهم ومزاميرهم .ويحملوا السلاح ليقاتلوا به الفرنسيين بدلاً من صخبهم وضجيجهم وصياحهم بأذكارهم المبتدعة.

كما كان الأولى بعلماء الأزهر الذين كانوا يعكفون على قراءة صحيح البخاري لحصول النصر أن ينظروا ما بين دفتي صحيح البخاري من أحاديث وسنن وسير ومغاز فيقتدوا بما فيها ، ويقوموا بواجبهم في نصح الأمة وقيادتها وتوعيتها ، وحثها على الجهاد والإعداد وبذل جميع الأسباب. ولكن ذلك لم يحدث على الإطلاق.

وقد ظل علماء الأزهر وشيوخه يحافظون على هذه البدعة كلما ألمت بالبلاد مصيبة ، أو داهمتها كارثة. فبعد مرور ما يقارب من تسعين عاماً على مجيء الفرنسيين إلى مصر ، قام الأسطول الانجليزي بقصف مدينة الاسكندرية وتمكن من احتلالها . يقول القاياتي وهو من شيوخ الأزهر :

«وعندما انتشبت الحرب بين الانكليز وأهل الوطن العزيز ، اجتهدوا غاية الاجتهاد ، في سبيل المدافعة والجهاد ، بأخذ الأهبة الاستعداد ..... وكانت السادة العلماء الأعلام ، ولا سيما أستاذنا شيخ الإسلام [٢] ، يقرأون كتاب البخاري الشريف ، في الجامع الأزهر الأنور المنيف» [٣] .

فهل كان يقف دور علماء الأزهر عند هذا الحد ، مكتفين بقراءة البخاري ، معتقدين أن فعلهم ذلك من أعظم أسباب النصر على الأعداء؟ [٤] .

كتب أحد الفضلاء الأزهريين في جمادى الثانية سنة ١٣٢٠هـ في إحدى المجلات مقالة بعنوان: «بماذا دفع العلماء نازلة الوباء» فقال :

« دفعوها يوم الأحد الماضي في الجامع الأزهر بقراءة متن البخاري موزعاً كراريس على العلماء وكبار المترشحين للتدريس في نحو ساعة جرياً على عادتهم من إعداد هذا المتن أو السلاح الحبري لكشف الخطوب ، وتفريج الكروب ، فهو يقوم عندهم في الحرب مقام المدفع والصارم والأسل [٥] ، وفي

---

(١) عجائب الآثار ١٨٦/٢.

(٢) يعني شيخ الأزهر.

(٣) نفحة البشام ص٧.

(٤) ومن الإنصاف أن نذكر أن عدداً من علماء الأزهر كان لهم دور فيما سمي بالثورة العرابية وفي جهاد الإنجليز ، غير أن الدور المطلوب منهم كان أعظم بكثير مما قاموا به.

(٥) الأسل : هي الرماح . انظر : مختار الصحاح ص٧ .

الحريق مقام المضخة والماء، وفي الهيضة [١] مقام الحيطة الصحية وعقاقير الأطباء، وفي البيوت مقام الخفراء والشرطة، وعلى كل حال فهو مستنزل الرحمات ومستقر البركات ..... (إلى أن قال) فإنا نعلم أنه قرئ للعرابيين في واقعة التل الكبير «أي في مصر» فلم يلبثوا أن فشلوا، ومزقوا شر ممزق، ونعلم أنه يقرأ في البيوت لتأمن من الحريق .....» [٢]

ويذكر الشيخ محمد سليمان أنه لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة - وقد سبق أن تحدثنا عنها - وتوالت الهزائم على مصر ضاق صدر الخديوي إسماعيل فركب يوماً مع شريف باشا وهو محرج فأراد أن يفرج عن نفسه فقال لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلم بك ملمة تريد أن تدفعها ؟ فقال: يا أفندينا إن الله عودني إذا حاق بي شيء من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري يقرؤه لي علماء أطهار الأنفاس فيفرج الله عني. فكلم شيخ الجامع الأزهر وكان الشيخ العروسي فجمع له من صلحاء العلماء جمعاً وأخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ومع ذلك ظلت أخبار الهزائم تتوالى فذهب الخديوي إسماعيل ومعه شريف باشا إلى العلماء وقال لهم محنقاً: إما أن هذا الذي تقرءونه ليس صحيح البخاري أو أنكم لستم العلماء الذين نعدهم من رجال السلف الصالح فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئاً. فوجم العلماء لذلك وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أن قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم». [٣]

ويذكر أن الخديوي دعاه بعد ذلك وأجلسه على كرسي أمامه وطلب منه أن يعيد ما قال فقال الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال: يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليس الزنا برخصة ؟ أليس الخمر مباحاً ؟ أليس وعدد له منكرات تجري بلا إنكار. فقال: وكيف تنتظر النصر من السماء. فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشر الأجانب، وهذه مدنيتهم ! قال: إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء. ثم ذكر أن الخديوي قرر له راتباً خاصاً. وهكذا رضي العلماء من قيادة الأمة بهروع الظالمين إليهم ليقرأوا لهم صحيح البخاري ومع إحساس علماء الأزهر بخطورة التحولات التي كانت تجري على أرض مصر إلا أن بعدهم عن عقيدة السلف حال دون إدراكها في كثير من الأحيان [٤].

ولكي ندرك سر العكوف على قراءة ذلك الجامع العظيم من قبل كثير من علماء الإسلام في أوقات الشدائد والحروب نورد أبياتاً من قصيدة ألقيت بدار الحديث الأشرفية [٥] وقد آل بها الزمن

---

(١) جاء في مختار الصحاح: يقال: بالرجل هيضة: أي به قياء، ص ٢٩٢. وهو هنا الوباء الذي يكون القيء من أعراضه وعلاماته.

(٢) إصلاح المساجد من البدع والعوائد ص٢٥٦.

(٣) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٩١).

(٤) من أخلاق العلماء ص٦١ الشيخ محمد سليمان.

(٥) دار الحديث الأشرفية بناها الملك الأشرف موسى بن العادل (المتوفى سنة ٦٣٥هـ) - وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي - سنة ٦٣٠هـ ووقف عليها أوقافاً كثيرة، ودرس فيها الحديث وغيره من العلوم جمع من أئمة الحديث وعلماء الإسلام، منهم الحافظ تقي الدين ابن الصلاح (المتوفى سنة ٦٤٣هـ) والإمام النووي (المتوفى سنة ٦٧٦هـ) والحافظ أبو الحجاج المزي (المتوفى سنة ٧٤٢هـ) وغيرهم. انظر البداية والنهاية ١٣/١٤٦.

حتى وقعت تحت يد رجل نصراني ، فاستنقذها منه الأمير عبد القادر الجزائري واشتراها منه ، وقرىء فيها صحيح البخاري. واحتفل بعودتها ، والقصيدة للشيخ يوسف بن بدر الدين المغربي (المتوفى سنة ١٢٧٩هـ) (١) حيث يقول :

إن البخاري معلوم الإجابة في ... ما أمه المرء في أقرانه ونحا
فما توسل محزون به ورجا ... إلا وأبدل من أحزانه فرحا
ولا تلاه لكشف الضر ذو هرج ... إلا تباعد عنه الضر وانفسحا
فالهج به ورواة فيه قد وصلوا ... به حديث رسول الله متضحا

إلى أن قال :

وللبخاري رجال يستغاث بهم ... في المحل(٢) إن حل أو في الخطب إن فدحا
بجاههم أسأل الرحمن مغفرة ... ورحمة تذهب الأحزان والترحا
ونكبة لعدو الدين عاجلة ... تدير بالهلك والتدبير كل رحا

ثم يقول :

ما خاب من جعل المختار واسطة ... ووصلة للذي يرجوه واقترحا
فإنه باب فضل الله ما برحت ... سحائب الجود منه تمطر المنحا
ما نال ذو مطلب دنيا وآخرة ... إلا استعار من المختار ما منحا(٣)

وهكذا صار مفهوم الدين والعلم عندهم ، حيث تحول من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها ، ويحسبون أنهم مهتدون. وتحول صحيح البخاري

= ودرس فيها بعد المزي القاضي السبكي. جاء في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي عن والده : «لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة كان يخرج في الليل إلى إيوانها فيتهجد تجاه الأثر الشريف ، ويمرغ وجهه على البساط ، وهذا البساط من زمان الأشرف الواقف وعليه اسمه ، وكان يجلس عليه وقت الدرس فأنشدني الوالد لنفسه : وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط لها أصبو وآوي

عسى أني أمس بحر وجهي ... مكاناً مسه قدم النواوي

طبقات الشافعية الكبرى ٣٩٦/٨ عبد الوهاب بن علي السبكي تحقيق عبد الفتاح الحلو ، محمود الطناحي الطبعة الأولى. عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ومع انحراف الأمة عن منهج سلفها الصالح ، ومع هيمنة القبوريين ، وانتشار عبادة الأضرحة ، وفشو الجهل آلت هذا الدار العظيمة والمعهد العريق إلى ملكية رجل نصراني. فأي هوان أعظم من هذا. حتى جاء الأمير عبد القادر الجزائري فاستخلصها منه. ولكنها عادت رسماً وشكلاً وليس معنى ومضموناً. ولم يعد يدرس فيها الحديث إلا بعض المتصوفة على سبيل البركة. فمتى تعود الأمة إلى دور الحديث. إلى دورها ومهمتها ، وليس إلى رسومها وأطلالها!.

(١) الأعلام ٢٣٧/٨ يقول الزركلي : وله قصيدة سماها «التحديث عن نازلة دار الحديث» في نحو ٤٠٠ بيت ، أولها «الله أكبر هذا علم تمويه» وهي غير القصيدة التي سنورد أبياتاً منها.

(٢) المحل هو الجدب وانقطاع المطر. مختار الصحاح ص٢٥٧.

(٣) حلية البشر ١٦٠٤/٣ ـ ١٦٠٧.

بما حواه من منهج للنبي ﷺ إلى تقليد بال رتيب ، يتلى في الأزمات ، ويقرأ في الحروب ، طلباً للنصر ودحر الأعداء. ومن خلال الأبيات السابقة يتبين مدى اعتقاد هؤلاء الجهال في صحيح البخاري ومدى اعتمادهم عليه في رد كيد الكائدين ، وفي نكبة الأعداء والمعتدين ، نرى ذلك في قول الشاعر :

ونكبة لعدو الدين عاجلة

فلا جرم بعد هذا أن عكف على قراءته العلماء عند وقوع الحروب ، ومنازلة الغزاة. أما أن يحاولوا إعداد العدة والقوة ، ويتلمسوا سيرة النبي ﷺ وغزواته وجهاده ، وكيف كان يأخذ بالأسباب ويجتهد غاية الاجتهاد في تحصيلها ، فإن هذا لم يكد يخطر لهم على بال.

وقد ذكرنا أن الناس كانوا يفرون عند وقوع النوازل إلى البدع ظناً منهم أنها تقيهم بأسها ، وتحميهم من آثارها. كما رأينا ذلك عند قدوم الفرنسيين إلى مصر.

ويذكر الجبرتي أن الناس انكمشوا عن بدعهم خوفاً من الفرنسيين ، ولكن ما إن سمح لهم الفرنسيون بها ، بل شجعوها ، حتى تسارع الناس إليها ملهوفين عليها. وذكر أن نابليون بنابرت سأل الشيخ البكري عن عدم إقامة المولد النبوي ، بعد احتلال القاهرة ، فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور ، وتوقف الأحوال ، فلم يقبل نابليون ذلك ، وقال : لابد من ذلك ، وأعطاه ثلاثمائة ريال فرنسي معاونة منه في إقامة هذا المولد ، وأمر بتتزيين البلد كالعادة ، واجتمع الفرنسيون يوم المولد ، ولعبوا ميدانيهم ، وضربوا طبولهم ودبادبهم.[١] وقد كان نابليون يواظب على حضور المولد النبوي بنفسه .

وكما أمر الفرنسيون بإقامة المولد النبوي ، وإعادة الشعائر المعطلة ، فكذلك أعيد المولد الحسيني خوفاً منهم ، حيث قام الشيخ السادات بعمله ، وقد حضر نابليون هذا المولد أيضاً. بل كانوا يجبرون الناس ويقهرونهم على الاحتفال بهذه الموالد ، ويغرمون من يأبى أن يحتفل بها ، ويسمرون دكانه [٢]. وإن المرء ليتسائل عن اهتمام الفرنسيين بإعادة هذه الموالد المبتدعة ، وقهر الناس على الاحتفال بها ، ودعمها بالمال. ويجيبنا الجبرتي على هذا التساؤل بما رآه الفرنسيون في هذه الموالد «من الخروج عن الشرائع، واجتماع النساء ، واتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات»[٣] .

لقد أدرك الفرنسيون ما يقع بسبب هذه الموالد من سلبيات ، وما تستنفده من جهود وأموال ، وتشغله من أوقات وتفكير. وما في ذلك من صرف للناس عن جهاد المحتلين ومقاومتهم. وهو ما لم يدركه الكثير من العلماء ممن شجعوا تلك الموالد ، أو حتى غضوا الطرف عنها.

ولا شك أن الفرنسيين أدركوا ما لتلك الموالد من مكانة عظيمة في حياة الناس. لذا سارعوا بإعادتها ، حتى يلّهوا الناس بها ، وتعود الأمور إلى مجاريها ، وكأن شيئاً لم يحدث ، ويغلقوا على أنفسهم باب واسعاً من أبواب الثورة.

«وأخذ الفرنسيون يفكرون فيما يغطون به سخط الشعب المصري ، ويقرب قلوب الناس إليهم ،

---

(١) عجائب الآثار ٢/٢٠١. (٢) المصدر السابق ٢/٢٤٢ ومعنى يسمرون دكانه يغلقونه قهراً بدق المسامير فيه.

(٣) المصدر السابق ٢/٢٠٦.

فرأوا أن من أجدى الوسائل التي قد تؤدي إلى ذلك إحياء الموالد ، كما كانت في سالف الأيام» (١) أما المسلمون فقد كانت هذه الموالد في حسهم من أعظم شعائر الدين التي يتقربون بها إلى الله عز وجل وإلى أصحاب الموالد أنفسهم ، ويعتقدون وجوب إقامتها والمداومة عليها وبذل الغالي والنفيس لأجلها

ولكم كانت سعادة الناس بعودة الموالد ، ويسجل ذلك الجبرتي عند سوقه لأحداث عام ١٢١٣هـ وهو عام دخول الفرنسيين : «ومنها أن أهل مصر جروا على عادتهم في بدعهم التي كانوا عليها ، وانكمشوا عن بعضها ، واحتشموها (٢) خوفاً من الفرنسيين ، فلما تدرجوا فيها ، وأطلق لهم الفرنساوية القيد ، ورخصوا لهم ، وسايروهم ، رجعوا إليها ، وانهمكوا في عمل موالد الأضرحة (٣) التي يرون فرضيتها ، وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك (٤) ، وتقربهم إلى الله زلفى في المسالك ، فرمحوا (٥) في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها ، وانقطاع الأخبار ، ومنع الجالب ، ووقوف الانكليز في البحر ، وشدة حجزهم على الصادر والوارد ، حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة» (٦) .

ويجدر بنا أن نقف بعض الشيء مع هذه الموالد التي كان يحتفل بها لنلقي بعض الضوء عليها:

أولاً : المولد النبوي :

يعتبر العبيديون والذين يطلق عليهم زوراً وبهتاناً الفاطميين ، هم أول من ابتدع فكرة الاحتفال بالمولد النبوي ، وجعلوه من الأعياد العامة. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «ومع اختلاف الناس في مولده ﷺ (٧) فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضى له (وهو محبته ﷺ)(٨) وعدم المانع منه ، ولو كان هذا خيراً محضاً ، أو راجحاً ، لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا ، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا ، وهم على الخير أحرص ، وإنما كمال محبته وتعظيمه في متابعته وطاعته واتباع أمره ، وإحياء سنته باطناً وظاهراً ، ونشر ما بعث به ، والجهاد على ذلك بالقلب واليد واللسان ، فإن هذه طريقة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان» (٩) .

وقد قال أحد الذين كتبوا في تاريخ المولد : إن الخلفاء الراشدين لم يفكر أحد منهم في الاحتفال بالمولد النبوي ، لانصرافهم إلى تثبيت دعائم الدين. أما الأمويون فشغلوا بمنازعة خصومهم من العلويين تارة ، وبالزبيريين والخوارج تارة أخرى، وبالاستمرار في الفتوحات ، وكذلك كان حال

---

(١) تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول ص١٦١ حسن السندوبي، مطبعة الاستقامة، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

(٢) الحشمة هي الاستحياء. انظر مختار الصحاح ص٥٨. (٣) في الأصل : مواليد.

(٤) ليت شعري ماذا أغنت عنهم موالدهم تلك ، يوم حل الفرنسيون بساحتهم ، واحتلوا بلادهم ، وساموهم سوء العذاب.

(٥) رمحوا : ضربوا. من باب رمحه الفرس والحمار والبغل أي ضربه برجله - انظر مختار الصحاح ص١٠٧.

(٦) عجائب الآثار ٢/٢٤٩. (٧،٨) مابين الأقواس زيادات من الباحث.

(٩) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص٢٩٥ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي دار المعرفة. لبنان.

العباسيين بانشغالهم بعداوة الأمويين في بادىء الأمر ثم منازعة أبناء عمومتهم من العلويين ، وكذلك استمرارهم في الفتوحات ، وإزجاء[١] الصوافي والشواتي [٢] إلى الأطراف. ثم قال بعد هذا : ولهذه الأسباب كلها مجتمعة أو متفرقة ، لم تجر فكرة اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً إسلامياً ، أو موسماً قومياً ، يحسن الاحتفال به ، على قلب أحد من هؤلاء جميعاً [٣] .

وفي الحقيقة أن هذا الكلام باطل من أصله خصوصاً كلامه على الخلفاء الراشدين، وقد سبق من كلام شيخ الإسلام ما يرد ذلك. وكذلك كان أهل القرون المفضلة الذين لم يعملوا هذه البدعة، وهكذا من جاء بعدهم من المسلمين والدول، حتى نبتت دولة العبيديين الذين استهانوا بالشرائع والسنن ، واستباحوا الحرمات والأعراض، وتولوا الكافرين ، وأحيوا من البدع، وأحدثوا منها الشيء الكثير. فكان من جملة ما ابتدعوه الاحتفال بالمولد النبوي المختلف في تاريخ وقوعه كما بين شيخ الإسلام.

ومع إقرار الكاتب أن المواسم والأعياد والموالد وما شاكلها من البدع التي لم يأذن الله بها ، ولا ورد فيها ما يشير إلى أن النبي ﷺ أمر بها ، أو أشار إليها ، أو باشرها في قول أو فعل - حاشا عيد الأضحى والفطر - ولم يعرفها أحد من الصحابة ، ولم يشهدها أحد من التابعين ، ولم ينوه بها أحد من الأئمة المجتهدين الذين ضبطوا أصول الشريعة ، وحرروا فروعها ، وبينوا مدلولاتها - فإنه أتى بعد ذلك بأمر عجيب. وقال كلاماً مؤداه : إن هذه البدعة أصبحت حقيقة واقعة ، وأمراً جماعياً! ، وما دامت كذلك فإنه يحسن النظر إلى نتائجها ، فإن كانت نافعة عمل بها ، وإن كانت غير ذلك أهمل أمرها حتى تزول من تلقاء نفسها مع مرور الزمن. وبعد أن أسس هذه القاعدة الفاسدة ، أراد أن يقيم بناءه عليها ، وشرع يعدد ما لهذه الموالد من فوائد ومنافع ، من إقامة الأسواق ، وتبادل السلع والبضائع ، وتعارف الناس. ثم أخذ يستدل بأن لكل زمن أقضيته ، ولكل دهر شرعته ، ولكل عصر تطوراته، ولكل جيل شؤونه ومبتدعاته ، وأنه ليس في هذه الحياة خير لا يتمخض عن شر ، وليس فيها شر لا يتولد منه خير ، وأن العمدة على صدق النية والاتجاه نحو الفضيلة ، والعبرة بقيمة الفوائد العامة الحاصلة من البدعة! ، وتغلب المصلحة المرسلة على المفسدة العارضة [٤] ، وإجماع الأمة على الأمر له خطره ، والرضاء العام له اعتباره وقدره [٥] ، إلى غير ما ألقى به من العبارات دون تثبت أو نظر ، وابتداعه لقواعد ما أنزل الله بها من سلطان ، منها تطويع الحكم الشرعي للواقع القائم ، ومحاولة تبرير البدع والمحدثات التي غدت واقعاً يعيشه الناس ، والتي لو عممت هذه القاعدة لبطل بها كثير من شرائع الإسلام.

---

(١) يعني:سوق مختار الصحاح ص١٢ كقوله تعالى {ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله}[٦٦١الإسراء].

(٢) الصوافي والشواتي هي الحملات التى كانت ترسل للجهاد وحماية الثغور في الصيف والشتاء.

(٣) تاريخ المولد ص١٧- ص٢٠.

(٤) انظر : الفرق بين البدع والمصالح المرسلة والاستحسان في كتاب الاعتصام للشاطبي ١١١/٢ تقديم الشيخ محمد رشيد رضا . دار المعرفة. بيروت. لبنان وهو مبحث ضاف مثل فيه المؤلف للمصالح المرسلة بعشرة أمثلة ، وأظهر الفرق بينها وبين البدع ، وأخرس ألسن المبتدعين. فرحمه الله رحمة واسعة.

(٥) تاريخ المولد ص٢٢.

أما ما ذكره من منافع وفوائد لهذه المحدثات فلا يلتفت إليه ، فالعبرة بما شرعه الله ورسوله ، لا بما يعتقد الناس منفعته ، فإذا حرم الله شيئاً أو رسوله لم يلتفت بعد ذلك إلى ما يزخرفه أرباب الابتداع والضلال ، ويزينونه عن هذه الموالد. والله عز وجل قد أخبر أن الخمر والميسر فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، فكون الأمر الحرام فيه بعض فوائد لا يزيل عنه صفة الحرمة. وحكم الله عز وجل ثابت لا يتغير بزمان ولا مكان إلا ما يسوغ الاجتهاد فيه لأهله المعروفين ، لا لكل أحد. وكشأن المنافحين عن البدع دائماً في إغفال الحقائق ، وذكر ما يروق لهم أغفل الكاتب عمداً ما لهذه الموالد من مساوىء وأضرار ، وما فيها من تبديد للطاقات ، وقتل للجهود والأوقات. ولكن كم قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

والنية وحدها لا تكفي في مشروعية العمل ، بل لابد من المتابعة ليكون العمل مشروعاً. أما إجماع الأمة على المولد فأمره عجيب. فإن كان الأمر كما يقول فلم أطال الاستدلال عليه ؟ وأجلب بخيله ورجله لإثباته. وحاول لي أعناق النصوص للوصول إلى ما يهدف إليه!! وأي أمة أجمعت على إباحة الموالد والأعياد المحدثة اللهم إلا أن كانت أمة التصوف والبدع ، ومن تابعهم من دهماء المسلمين. أما رضى العامة ، فصدق الله العظيم حين يقول : ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ [١١٦ الأنعام].

وفي الحقيقة إننا لم نسترسل مع هذا الكاتب المعتدل في نظرنا[(١)] الذي تحدث عن المولد وناقش مشروعيته إلا لأن الخطب عظم بتسلط المبتدعة ومداهنة العلماء والحكام لهم إلا من رحم الله. فنجد كثيراً منهم كتب على نفسه طول عمره الانتصار للمولد ، والمنافحة عنه ، واقامته مهما شق الأمر ، وكلف الثمن ، والغضب ممن لا يحتفل به أو لا يحضره ، فضلاً عمن لا يجوزه ، والنيل من أهل السنة الذين يبرأون إلى الله من هذا الاحتفال وتشوية سمعتهم ، وأنهم من أعداء المصطفى ﷺ الذين ينتقصون منه ، ولا يراعون جنابه ، وأمعن بعضهم في الضلال حتى إن الناظر إلى أقوالهم وأفعالهم ، ليرى كانما أصبح الإسلام في حسهم هو المولد ، فمن أجله يوالون ويعادون ، ويحبون ويبغضون. وكم تنتهك للمسلمين من حرمات ، وتعطل كثير من شعائر الإسلام وشرائعه ، ولكنهم لا يلقون إلى ذلك بالاً ، وكأن الأمر لا يعنيهم . وحسبهم أنهم نصبوا أنفسهم أوصياء على البدعة ، وجاهدوا طول حياتهم للانتصار لها ، وشق صفوف المسلمين وتفريقهم من أجلها .

---

(١) وصفنا له بالاعتدال ليس عفواً. إذا قارنا كلامه مع كلام كثير ممن انتصروا للمولد ، وجعلوه فريضة واجبة، وسنة لازمة لا يجوز التفريط فيها كما قال الجبرتي ، وغلوا فيه غلواً مبيناً. ويكفي في اعتدال هذا الكاتب إقراره في بادئ أمره أن المولد أمر مبتدع.

«على أن فكرة الاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، كانت قد صارت من الأمور التي ألفتها الأمة ، ودخلت في تقاليدها الهامة ، وجرت منها مجرى العقائد الواجبة الرعاية والأداء ، وأصبحت عندها من الشعائر التي يعز عليها إغفالها أو ترك القيام بها في أوقاتها التي أضحت مقدسة» (١) .

ولئن كان بعض حكام المسلمين في العصور المتقدمة يحتفلون بإحياء ذكرى المولد ، فلقد كان لكثير منهم قدم صدق في جهاد التتار والصليبيين ، وأبلوا بلاء حسناً في خدمة الدين وإعلائه. أما في القرنين الماضيين فقد كان يحتفل بالمولد حكام من المسلمين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه (٢) ، لأن الاحتفال بالمولد صار عند الجماهير المسلمة من أعظم الواجبات التي لا يجوز التهاون فيها.

يذكر الجبرتي أنه نودي يوم الثلاثاء ١١ ربيع الأول سنة ١٢٣٠هـ بزينة البلد ووقود القناديل ، والسهر ثلاثة أيام بلياليها .... (٣) . وكذلك كان ينادى للاحتفال به كل سنة. وكان ذلك في عهد محمد علي الذين استمر أولاده وأحفاده من بعده على رعاية شؤون المولد ، وإحياء الاحتفال به طوال سني حكمهم. مع أن غالبهم كان حرباً على الإسلام. وكان الواجب عليهم وعلى من حام حولهم من العلماء أن يعملوا على رفع راية الدين وأن يحكموا بما أنزل الله عز وجل ، وأن يعلنوا الجهاد والاستنفار ضد الاحتلال الانجليزي ، لتحرير البلاد والعباد.

ويذكر صاحب «الخطط التوفيقية» اهتمام الدولة المصرية في عهد خديويها توفيق بالمولد النبوي ، وبالأسرة البكرية المعنية بشؤون المولد ، والمختصة بإقامته فيقول : «وللسادة البكرية في ظل الدولة المحمدية العلوية من العناية به في كل عام ما تتحدث بزائد شرفه الركبان ، ويفتخر به أهل الزمان على غيره من سائر الأزمان ، لا سيما في عهد الحضرة الفخيمة الخديوية ، وعصر الطلعة المهيبة التوفيقية ، فإنه وصل فيها الاحتفال بأمر المولد النبوي الشريف إلى حده الأعلى. وبلغ الاعتناء بعلو شأنه المبلغ الأعلى ، وذلك أنه في أوائل العشرة الأخيرة من شهر صفر الخير من كل عام تصنع بمنزلهم مأدبة فاخرة ، يدعى إليها كافة مشايخ الطرق والأضرحة والتكايا ، والوجوه والأعيان والذوات ..» (٤)

ومع كل هذا الإطراء الزائد ، والإشادة العالية ، فقد كان المخصص المالي للمولد من الحكومة خمسة وثلاثين جنيهاً ، وهو مبلغ وإن كان له قيمة في ذلك الزمن إلا أن عبء التكلفة المادية للمولد يقع على الطائفة البكرية التي كانت تنفق عليه نحو ثلاثمائة جنيه. وهو ما يزيد على ما تنفقه الحكومة

---

(١) المصدر السابق ص٧٩ وقد كان ذلك انحرافاً وقع فيه السواد الأعظم من الأمة. لكن مازال العلماء في كل عصر ينكرونه، ويقيمون الحجة فيه على المبتدعين.

(٢) ولا زال بعض العلمانيين إلى اليوم يسيرون على هدى نابليون الصليبي الذي احتفل بالمولد ـ فيحتفلون به كل عام.

(٣) عجائب الآثار ٣/

(٤) الخطط التوفيقية ٣/٤٤٥.

بثمانية أضعاف [١] . ويقول صاحب «تاريخ المولد» وقد اطرد الأمر على ذلك مدة الخديوي عباس حلمي الثاني ، وأيام السلطان حسين كامل» [٢] .

ثم يذكر أيضاً عناية الملك فؤاد الأول وابنه فاروق الأول بالاحتفال بالمولد ، وتشريفهما لحضوره، وأمر كل وزارة في دائرتها أن تحتفل بالمولد ، وتعطيل الأعمال ذلك اليوم وجعله إجازة رسمية. وقد مزجت موالد ذلك العصر بالإضافة إلى عوائدها القديمة بعوائد مستحسنة بزعمهم ومناسبة لروح العصر. حيث تمر من أمام سرادق الملك فرقة الفرسان ، ثم فرقة الموسيقى الراكبة ، ففرق السيارات الثقيلة والخفيفة برجالها ، ففرقة المدافع المضادة للطائرات ، ثم كتائب من المشاة ، فرجال سلاح الإشارة ، ففرقة القسم الطبي. وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تحيي جلالة الملك عند مرورها بين يديه. وبعد الانتهاء من عرض الجيش، تتقدم بين يدي الملك مشايخ الطرق الصوفية برجالها ومريديها، حاملين لأعلامهم وشاراتهم [٣] ، وكل شيخ يمر بين يديه يقف هنيهة لقراءة الفاتحة ، وتلاوة بعض الأدعية المأثورة! ، بطريقتهم المعروفة في القراءة والدعاء ، ثم يهتفون جميعاً بحياة الملك ثلاثاً!» [٤]

ويذكر أيضاً أن السلاطين العثمانيين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي في أحد الجوامع الكبيرة بالأستانة حسب اختيار السلطان. فلما تولى السلطان عبد الحميد في سنة ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م، قصر حفلاته التقليدية على الجامع الحميدي. فعندما تحين الليلة الثانية عشر من ربيع الأول ، يحضر إلى الجامع عظماء الدولة وكبراؤها من الأمراء والعلماء والوزراء ، وجميعهم بالملابس الرسمية ، وكساوى التشريفة ، وعلى صدورهم النياشين بأنواعها. ثم يقفون في صفوف متراصة ، ونظام تام ، انتظاراً لتشريف السلطان وفي هذه الليلة يخرج السلطان من قصر يلديز ممتطياً جواداً مطهماً [٥] بسرج من الذهب الخالص وقد حف الموكب به ، ورفعت على رأسه الأعلام ، ويسير وسط الجماهير المحتشدة ، حتى يصل إلى الجامع ، فيبدأ في رسوم المولد وفقراته ، حتى تنتهي ، فيعود إلى قصره.

ولم يكن أمر الاحتفال بالمولد يقتصر على الأستانة فقط ، بل هو أمر منتشر في جميع أنحاء بلاد السلطنة [٦] .

ويتحدث علي باشا مبارك في خططه عن المولد فيقول : «هو اليوم الذي استنار بطلعته الوجود ، وأضاءت منه عوالم الغيب والشهود ، قد جرت عادة الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، بالاحتفال به ،

---

(١) ولا يحسبن أحد أن قلة المخصص المالي للمولد من قبل الحكومة ناتج عن نظرة صحيحة، ولكنه في اعتقادي كان لبغض القائمين على هذه الدولة لكل مايمت إلى الإسلام بصلة ، حتى لو كان غريباً عنه وألصق به.

(٢) تاريخ المولد ص١٩٣.

(٣) الشارة هي اللباس والهيئة. مختار الصحاح ص١٤٧.

(٤) تاريخ المولد ص١٩٤- ص١٩٩.

(٥) المطهم هو : المجتمع المنور- أنظر مختار الصحاح ص١٦٧.

(٦) تاريخ المولد ص٢٢٥ - ص٢٢٦.

وتعظيمه وإجلاله» [١] . ثم شرع في وصفه حيث تبدأ مراسم الاحتفال به في العشر الأواخر من صفر، ويعين لكل واحد من مشايخ الصوفية ما يخصه من ليالي المولد لإحيائه. ثم تفتح المقارىء بمنزل البكرية ، حيث يقوم نحو مائتي قارىء بقراءة القرآن ، ثم يتلى المولد الشريف بعد حزب البكري ، وتوقد الشموع ، وتعمل للصوفية حلقات ذكر ، وتمد الموائد المزينة بألوان الأطعمة والمأكولات ، ويكسى السيد البكري وبقية مشايخ الطرق ، ويستمر الاحتفال به أكثر من عشرين يوماً [٢] .

وقد ذكر أحد الرحالة الانجليز وهو (ادوارد وليم لين) الذي زار مصر عام ١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٤م وصفاً عجيباً لمولد ذلك العام ، حيث ذكر أن الناس في أثناء النهار يتسلون في الساحة الكبرى بالأزبكية ، بالاستماع إلى الشعراء ، وهم رواة «قصة أبو زيد» وبالتفرج على «الحواة» [٣] وغيرهم. أما الغواني فقد منعتهن الحكومة من عهد قريب كما يقول ، وقد كن في الموالد السابقة من أكثر العاملين في الاحتفال اجتذاباً للمتفرجين ، وقد أقيمت بعض المراجيح في الشوارع المجاورة للساحة و«نصبات» لبيع الحلوى ، ووصف مواكب الدراويش والطرقية وهم يجوبون الشوارع بذكرهم ولغطهم السريع حتى يسقط بعضهم من أثر الإجهاد الذي يرونه من أعظم الجهاد ، ويستمر الحال هكذا ، مع تناول القهوة والدخان في فترات الراحة القصيرة . ثم تحدث عن الدوسة التي تكون سبباً في احتشاد الجماهير الغفيرة. حيث ينبطح قرابة ستين درويشاً على بطونهم متجاورين ، فيقوم نحو من اثني عشر أو أكثر من الدراويش الآخرين بالجري حفاة على ظهورهم ، ثم يتقدم شيخهم راكباً على حصانه، فينطلق به يقوده رجلان على ظهور المنبطحين ، فيصيح الدراويش طويلاً : الله . لا . لا . لا . لاه . لاه». وذكر أن الذين ديسوا على هذا النحو لم يصب منهم أحد بأذى ، بل كان كل منهم يثب بمجرد مرور الحصان عليه ، والسبب في ذلك أنهم جميعاً يتلون في اليوم السابق للدوسة أوراداً ودعوات تعينهم على احتمال دوسة الحصان ولا يلحقهم منه ضرر ، وأن غيرهم ممن لم يعتدوا بتلك الأوراد ، لما عرضوا أنفسهم للدوسة قتلوا ، أو أصيبوا إصابات خطيرة. وحدث ذلك غير مرة بزعمهم. فهم لهذا يعدون عملية الدوسة كرامة لشيخ السعدية! ثم تحدث عن أكل طائفة السعدية للثعابين والعقارب على مرأى من الناس [٤] .

لقد كانت الموالد كما ذكرنا من قبل مهرجانات عظيمة لاستعراض السحر والشعوذة والدجل ، واختصاص بعض طوائف الصوفية بذلك، وشموخهم على غيرهم من الطوائف الأخرى باعتبار أن ذلك كرامات لهم ، وقد رأينا في تلك النصوص كثيراً من المفاسد والسلبيات ، وهو ما لم يذكره صاحب «تاريخ المولد».

---

(١) الخطط التوفيقية ٣/٤٤٥.
(٢) المصدر السابق ٣/٤٤٦.
(٣) الحواة هم : جمع حاوٍ وهم نوع من السحرة يقومون بألعاب تعتمد على خفة اليد.
(٤) تاريخ المولد ص١٧٤ ـ ص١٨٧.

ويذكر ابن أبي الضياف أن الباي أحمد احتفل بالمولد عام ١٢٥٦هـ ويقول : وكان يوم المولد بحاضرتنا كمواسم السنة غير العيدين ، ويزيد باجتماع الصبيان في الكتاتيب مفروشة يصلون على النبي ﷺ. ثم يذكر أن الباي أمر بتنوير المآذن الحاضرة ليلة المولد وليلتين بعده ، والزيت من عنده لا من أحباس الجوامع. وفي ضحى المولد تجتمع العلماء والأعيان بالجامع الأعظم ، ويأتي الباي إليه من قصره راجلاً ، وأمامه سماطان من أمراء العسكر بلباس المواكب ، يشق بهم سماطين من العسكر واقفين على أهبة نظامية. ثم يبدأ في قراءة المولد والأبيات ، فإذا جاء ذكر قول الشاعر :

فقم أيها الراجي لنيل سعادة

يقوم الباي وكل من كان في الجامع ، ثم تنطلق المدافع من الأبراج والضواحي ، ثم يكمل المولد، ثم يجلسون للدعاء ، ويختم بالفاتحة ، ثم يؤتى بماء السكر لسائر من في الجامع ، ثم مياه الطيب ، وينفض الموكب ، وتستمر المدافع مترنمة صباح ومساء أيام المولد الثلاثة ويكثر فيها العطاء والصدقات للفقراء الذين يحيون تلك الليلة بالقرآن العظيم ، والأمداح النبوية. وذكر ابن أبي الضياف أنه قال للباي : المناسب أن تخرج من باردو(١) راكباً وعندنا بحمد الله من العسكر ما يكفي للوقوف بين باردو والجامع. فقال لي : ذلك يفعله السلطان العثماني ، وليس لنا أن نفعل مثله ، فالمناسب الأدب معه.

ثم قال له : هل ترى أن تحبس شيئاً على هذه المأثرة (٢) فقال لي : نحبس عليها ملك تونس ، ويستحيل أن من يقوم مقامي يتركها ، ويرضى لنفسه نسبة الاستخفاف بالمولد النبوي. ثم قال : وكاتب رئيس مجلس الشريعة بالقيروان ، أبا عبد الله محمد صدام أن يفعل بالجامع الأكبر بها. مثل عمل جامع الزيتونة ، وكاتب العامل يعطيه الزيت وما يلزم لذلك (٣) .

ولنا مع هذا النص ثلاث وقفات سريعة :

الأولى : إشارة ابن أبي الضياف للباي بأن يصف العسكر من قصره إلى الجامع ، ويحمد الله تعالى أن عندهم من العسكر ما يغطي المسافة بين الموقعين. فكأن هذا الجيش أنشيء فقط لمثل هذه الاحتفالات المحدثة. أما أن يكون درعاً واقياً للبلاد من عدوان الصليبيين الفرنسيين الذين كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على تونس ، فهو أمر لم يحتفلوا به كثيراً.

الثانية : تورع الباي عن مشابهة السلطان العثماني دليل على احتفال السلطان بالمولد. وأنه كان يصف العساكر الكثيرة استقبالاً له عند حضوره المولد.

---

(١) اسم قصر الباي.

(٢) بمعنى أن توقف الأوقاف عليها.

(٣) اتحاف أهل الزمان ص٨٨ - ص٩٠.

الثالثة : قلق ابن أبي الضياف على مستقبل المولد في تونس ، وإشارته لملكه بحبس بعض الأوقاف عليه ، حتى تستمر هذه البدعة مدفوعة ذاتياً بما أوقف عليها. وإجابة الباي بأن ملك تونس كله ، هو حبس على المولد. وتطمين كاتبه بأنه من المحال لمن يتبوأ منصبه من بعده أن يفرط في هذه المأثرة ، فيوصم بالاستخفاف بالمولد ، وينسب إليه ولابد الاستخفاف بصاحب المولد ﷺ.

ويذكر السلاوي أن حكام المغرب الأقصى كانوا يحتفلون بالمولد النبوي ، ويسمونه عيداً[1].

يقول عن السلطان المولى الحسن بن محمد : «وعيد بفاس عيد المولد الكريم» [2] . وكان ذلك عام ١٢٩٠هـ.

وفي عام ١٢٩٢هـ يقول السلاوي : «ولما حضر عيد المولد الكريم احتفل السلطان أيده الله غاية الاحتفال ، على عادة أسلافه الكرام قدس الله أرواحهم ، وجعل في عليين غدوهم ورواحهم ، وتشنفت الأسماع بالأمداح النبوية في الليلة المباركة بالمسجد المعد لذلك ، وأنشدت قصائد لأدباء العصر ، وبعد العيد (!) كسا السلطان نصره الله جميع الجيش والعسكر والكتاب ، حتى الأمناء والطلبة» [3] .

وفي يوم المولد تعطل الأعمال رسمياً. يقول الغزي : «وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول تعطل الحكومة ، ويقبل الناس إلى الجامع الكبير لسماع قصة المولد النبوي ، فيسقون الشراب الطهور ، وينشر عليهم اللوز الملبس ، وتستمر هذه القصة تتلى في المساجد والجوامع نهاراً ، وفي البيوت ليلاً إلى آخر هذا الشهر [4] ، وكثيراً ما تتلى في الأماكن المذكورة في غير الشهر المذكور أيضاً ، وتصنع لأجلها الولائم الحافلة» [5] .

وفي بيروت كان يحتفل بالمولد النبوي في الجامع المنسوب إلى يحيي عليه السلام.

يقول السنوسي لدى زيارته بيروت : «وقد حضرت يوم المولد بجامع سيدنا يحيي فجلس إمامه على منصة الختمة ، وأخذ يترنم بقراءة المولد النبوي ، وهو مولد رجز من نظم الأديب الإسحاقي ، والحاضرون يترنمون بالصلاة على النبي ﷺ في كل موقف وعند انتهائه وزع القيمون قراطيس من الحلويات الشامية على جميع الحاضرين» [6] .

---

(١) أجمع المسلمون على أنه لم يشرع لهم إلا ثلاثة أعياد. عيدان في السنة هما الفطر والأضحى ، وعيد في الأسبوع هو الجمعة، وما سوى ذلك فهي من الأمور المحدثة التي لم يأذن الله بها .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٣٩/٤.

(٣) المصدر السابق ٢٤٦/٤.

(٤) أي حوالي عشرين يوماً.

(٥) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٦٨/١.

(٦) الرحلة الحجازية ٣٢٤/٢.

«وفي يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٦٣هـ : عطلت الحكومة (السورية) [١] بمناسبة المولد النبوي، وجرى احتفال ضخم بقراءة قصة المولد بعد الظهر بالجامع الأموي، حضره رئيس الجمهورية. وأقيمت معالم الزينة من مدخل سوق الحميدية حتى باب الجامع ، فرفعت من الأغصان بعض القباب والأقواس ، ونشرت الأعلام على أبواب الحوانيت ، ومدت من أول السوق إلى آخره أسلاك ، علق بها كثير من المصابيح الكهربائية ، ومشت أمام رئيس الجمهورية في مجيئه إلى الجامع ، وفي عودته مظاهرات شعبية ، وعلت أصوات المتظاهرين بالأناشيد البلدية ، وكان بعضهم يطلق الرصاص في الهواء. وكان منظر السوق في الليل بهيجاً بما اتقد فيه من المصابيح ، ومزدحماً بالمظاهرات التي مشت فيه ، وقد زينت دوائر الحكومة.

وفي مساء اليوم التالي أقام نادي فيصل الثقافي في المجمع العلمي حفلة لذكرى المولد ، ألقيت فيها الكلمات والقصائد[٢] .

ولا يخطر على بال أحد ، أن تلك الاحتفالات بالمولد كانت للحكومات خاصة ، بل كانت الاحتفالات تقام في غالب المدن والقرى والأرياف ، بل إن احتفالات الحكومات والدول ما هي إلا أصداء لما كان يجري في الأوساط الشعبية من احتفالات.

ففي المعرة يحتفل الناس بالمولد في الجامع المنسوب إلى يوشع بن نون عليه السلام. وفي الجامع العمري الكبير لاستماع قصة المولد. ثم توزع على الحاضرين صرر فيها ملبس ، ويرفعون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، ويزورون المقام المنسوب إلى أويس القرني [٣] .

وفي ألغ [٤] يحتفل الناس بالمولد هنا في زاوية للصوفية ومدرسة للعلماء، وتصبحان عامرتين في ليلة المولد. فالزاوية بالأذكار ، ورب المدرسة يملأ مجلسه بالأمداح النبوية ، وقد اعتاد العلماء والطلبة الذين يجاورون الغ أن يحضروا في تلك الليلة التي يتلى فيها بالتغني على ألسنة المنشدين قصائد البوصيري من الهمزية والبردة ، وبانت سعاد. ثم تقال قصائد نبوية على ألسنة أصحاب القريض من الحاضرين [٥] .

ويشارك في تلك الاحتفالات جميع الطبقات في المجتمعات ، علماء وعامة ، حكاماً ومحكومين ، ذكوراً وإناثاً ، صغاراً وكباراً . بل إن هناك عادات غريبة يقوم بها بعض العجائز كتلك التي ذكرها صاحب « المعسول » حيث قال : « ومن العادات المولدية أن بعض العجائز من المتحجبات اللائي لا

(١) لفظة مضافة من الباحث.

(٢) يوميات الخليل ص ١٤٤ - ص١٤٦ خليل مردم بك. مؤسسة الرسالة. الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

(٣) تاريخ معرة النعمان ٢٥٧/١.

(٤) بلدة صغيرة من بلدان المغرب الأقصى.

(٥) المعسول ٣١/١.

يحضرن في ملعب أحواش تنتحي وحدها إلى زاوية من زوايا حجرتها ، حيث تعلق ثيابها على عود معروض - ويسمى عندهم احمال - فتقف إزاءه فترقص رقصاً متواصلاً ، وهي تغني بأمداح الرسول فرحاً بليلة مولده ، تفعل ذلك احتساباً وتيمناً بالرسول» (١) .

ومن العادات أيضاً أنه : «إذا طلعت الشمس في عيد المولد! ترى بعض الناس يرقصون لها ، ويقولون ما يدل على أن الشمس إنما استمدت أنوارها من نوره ﷺ» (٢) .

وقد مر معنا ما للمولد النبوي من مكانة وأهمية ، وكيف أنه أضحى عيداً يحتفل به الحكام والرعايا، ويعظمونه أيما تعظيم ، وليس أدل على ذلك من أن المولى عبد الرحمن سلطان المغرب أعفى الناس من القتال فيه ضد إحدى القبائل الثائرة عام ١٢٤٤هـ.(٣)

وقد وصل الاحتفاء بيوم المولد ، أن تفتتح المشاريع العامة فيه. ففي عام ١٢٨٤هـ «كان الشروع بتعبيد طريق اسكندرونة .... وكان ابتداء العمل به في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول تبركاً وتيمناً...» (٤) .

وفي المولد يتبارى الشعراء والأدباء في نسج القريض ، وإنشاد القصائد ، وتفيض القرائح بالمدائح النبوية التي لا تكاد تخلو من الشرك الأكبر ، والغلو العظيم كما مر معنا من قبل.

وكان بعض الشعراء يوالون قصائدهم في المولد سنوياً . فينشيء لكل سنة قصيدة طويلة يقوم بإلقائها في ليلة المولد ومن هؤلاء أحمد بن محمد ابن الحاج السلمي الذي كان يوالي قصائده المولدية كل سنة. «فمن قصيدته في المولد الشريف سنة ١٢٩٤هـ :

نور الهدى قد بدا في العرب والعجم ... سعد السعود علا في الحل والحرم
بمولد المصطفى أصل الوجود ومن ... لولاه لم تخرج الأكوان من عدم

وله في المولد الشريف قصائد كثيرة - منها قصيدة همزية ، قالها عام ١٢٩٥هـ مطلعها :

معشر المسلمين حق الهناء ... وتوالى السرور والعلياء

ومنها أخرى على وزن التي قبلها ورويها ، قد قالها عام ١٢٩٧هـ مطلعها :

بشرى بمولد خير العرب والعجم ... بشرى بأحمد طه المفرد العلم

ومنها قصيدة تائية قالها عام ١٢٩٨هـ مطلعها :

---

(١) المصدر السابق ٣٢/١.
(٢) المصدر السابق ٣٢/١.
(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٨٠/٤.
(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٩٦/٣.

هنيئاً لك البشرى بنجم الهداية وبالعز والإقبال في كل لحظة[(١)]

وهكذا يصل الاهتمام بأمر لم يشرعه الله إلى هذا الحد ، وتحتفل به ممالك الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وتهدر فيه الأموال والأوقات ، ويتلهى الناس به أياماً وليالي غافلين عن مخططات الأعداء في ذلك الزمن ، بل وعما يقع من بعض حكامهم الطغاة الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، واستبدلوا الكفار بالمسلمين الذين ظلموهم واضطهدوهم ، لأن هؤلاء الحكام الأشقياء ما داموا يحضرون هذه الموالد ، ويساعدون على إقامتها ، ويلقون فيها بفتات موائدهم لرعاياهم الجوعى ، فإنهم بالتالي محبون للإسلام وللرسول ﷺ. لذا لا ينكر أحد عليهم ، بل يلتف حولهم ، ويسار وراءهم، ويهتف لهم بالبقاء ، لإحياء هذه الموالد التي هي عند هؤلاء الغوغاء والدهماء من المسلمين رأس المجد التالد ، الذي لا يجوز أن يفرط فيه. وأعظم من ذلك أن ينصبه المبتدعة والطرقية علامة وبرهاناً لمحبة الرسول ﷺ ، فمن احتفل به فهو المحب الصادق ، حتى ولو كان من أفجر الفاجرين. ومن أبى الاحتفال ، ونأى عن البدعة ، فهو العدو المبغض وإن كان من المؤمنين المهتدين. وتنشأ الفرقة في الأمة ، ويفشو الخصام ، وتطغى الشحناء.

* * *

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٢/٤٣٩.

ثانيا : الاحتفالات بالموالد الأخرى :

كل ما سبق إيضاحه إنما هو عن المولد النبوي ، وليت المسلمين اكتفوا به ، ولكن من شأن البدعة أن تجر إلى مثلها ، ومن عادة أرباب البدع أن لا يحدثوا بدعة ، حتى يسارعوا إلى إحداث غيرها . ومن ذلك إحداث الموالد الأخرى التي تعيين زمنها ضرب من الخرص والتخمين. والتثبت منزلة لا يرقى إليها المبتدعة أبداً ، ولا يكترثون بها غالباً. ففي بداية الأمر كان يقتصر على الاحتفال بالمولد النبوي. ثم تعدى ذلك إلى الاحتفال بموالد بعض الأنبياء ، ثم تعدى إلى موالد كثير من الأولياء والصالحين ، ووصل الأمر إلى الاحتفال بموالد بعض المعتوهين والمجذوبين ، بل والمحسوبين على الإسلام.

فمن هذه الموالد مولد موسى عليه الصلاة والسلام. الذي كان يحتفل به احتفالاً عظيماً في القدس . يذكر القاياتي أنه حضر الاحتفال في الحرم القدسي [١] بطلوع الصنجق (البيرق) في مولد الكليم، حيث اجتمع الناس من الأمراء والذوات والعلماء والباشوات، واصطفت العساكر على الجانبين من باب الأقصى إلى باب قبة الصخرة ، ومعهم متصرف القدس وخرجوا به [٢] من الباب الشمالي ، وركب معه المفتي ، فصار الحرم مزدحماً بالزوار ، وأرباب الإشارات ، ويقال لهم السيارات[٣]، وكذلك الطرقات في حوالي الحرم. وكان طلوعه بعد صلاة الجمعة في أول الموسم، وما رجعوا إلا في الجمعة الثانية. وبعد صلاتها عمل له احتفال كالأول ، واصطفت العساكر ..[٤]

ثم ذكر زيارتهم للمقام المنسوب إلى موسى ﷺ أثناء احتفالهم بمولده ، وما كابده الزوار من عناء ومشقة ، وبيات تحت المطر في الصحراء ، وبرد قارس ، ووعورة للطريق ، حتى هلك جملة منهم في تلك الرحلة القاسية [٥] .

وإن الناظر إلى تلك الفترة ليهوله الأمر ، فكأن مهمة العساكر عند المسلمين هي الاحتفالات بهذه الموالد ، والاصطفاف على الطرق لمرور أعلام الموالد ، وبيارق البدعة. وكل ذلك يجري في وقت كان اليهود فيه يحيكون المؤامرات والدسائس للاستيلاء على فلسطين التي انشغل المسلمون فيها بهذه الاحتفالات المبتدعة .

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : «وليس ببيت المقدس مكان يسمى «حرماً» ... مجموع الفتاوى ١٤/٢٧.

(٢) يعني الصنجق.

(٣) وهم من الصوفية.

(٤) نفحة البشام ص٩٥.

(٥) المصدر السابق ص٩٦ وقد ذكر البتنوني أن الناس في فلسطين يحتفلون بهذا المولد احتفالاً عظيماً ، ووصف كثيراً من مظاهر ذلك الاحتفال. الرحلة الحجازية ص١٦٢.

ويصل الأمر إلى أن يعرض كثير منهم أنفسهم للتهلكة في سبيل أمور محدثة ، ما أنزل الله بها من سلطان. ويغامر بعضهم ويستميت للوصول إلى مقام مزعوم نصب في شواهق الجبال ويقطع من أجله الفيافي والقفار ، ويعرض نفسه للأخطار ، ويسقط بعضهم موتى في الطريق ، وقد يحسبهم الآخرون شهداء.

وكان جديراً بمثل هذه الطاقات المهدرة في الباطل ، أن تستغل فيما يعود على الأمة بالخير والنفع ، وفي الإعداد لجهاد أعداء الإسلام الذين كانت جيوشهم تحاصر العالم الإسلامي ، وتخطط لاحتلاله وإذلاله.

وقد ذكر القاياتي يوم طلعوا إلى الصالحية أن ذلك قد وافق يوم الزيارة السنوية لمولد الخليل في قرية (برزة) الكائنة بسفح جبل قاسيون ، فصارت الزوار ترد قافلة من برزة زمرة بعد زمرة ، ومعهم النساء والأطفال ، ومشايخ الطرق والسيارات.

وفي حضرموت يقوم الناس بالاحتفال بمولد هود عليه السلام ، ويزورون الضريح المنسوب إليه، ويقيمون عنده ثلاثة أيام كل سنة ، ثم يعودون ، وتبقى تلك القرية خالية عن السكّان إلا من الحراس الذين يحرسونها [١] .

هذه بعض موالد الأنبياء التي كان يحتفل بها في مواعيد معينة وفي ظني أن كثيراً من الأنبياء كان يحتفل بموالدهم ، رغم أن تواريخها بالتأكيد مجهولة ، كما أن أكثر القبور والمشاهد المنسوبة إليهم مكذوبة كما رأينا فيما مضى.

وندع ما كان يعمل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من موالد ، لنقف مع ما كان يعمل لغيرهم ، حتى الدجالين والمعتوهين ـ فإن موالد الأنبياء كانت بالنسبة إلى هذه الموالد كشعرة سوداء في جلد ثور أبيض ، أو العكس.

يذكر صاحب «الخطط التوفيقية» أن الموالد التي كانت تعمل في السنة في مدينة القاهرة وضواحيها ثمانون مولداً ، يحسن بنا أن نوردها هنا لنرى كم كان تهدر في هذه الموالد من الأوقات والجهود والأموال ، حتى غدت شغل المسلمين الشاغل ، حتى لم يبق معها وقت يكاد يذكر لجهاد أو أمر بمعروف ونهي عن منكر ، إلا نزر قليل تشغله بدع أخرى وكيف ملأت هذه الموالد على الناس حياتهم ، وسيطرت على عقولهم ، واستولت على اهتماماتهم وجهودهم. ونحن نذكر هذه الموالد حسب الشهور التي تعمل فيها. وحسب الترتيب الذي رتب به صاحب الخطط وهي كالتالي[٢] :ـ

---

(١) تاريخ حضر موت السياسي ص٥٢.

(٢) حذفنا الفترات الزمنية التي يشغلها كل مولد رغبة في الاختصار.

سبعة موالد في شهر شوال ، وهي : مولد سيدي عبد الوهاب العفيفي ، ومعه مولد سيدي عبد الله المنوفي بقرافة المجاورين ، ولكل منهما حضرة في كل ليلة جمعة.

مولد سيدي أبي سليمان الحجاجي في بولاق ، بخط الواجهة ، مولد سيدي عمر البلقيني بحارة السيارج ، مولد سيدي عمر الأشقر بخط الواجهة من بولاق ، مولد الشيخ علي الجمل ، مولد الشيخ داود أبي سيف بوكالة المقشات من بولاق ، مولد سيدي نصر ببولاق.

وخمسة موالد في شهر ذي القعدة وهي : مولد سيدي علي البيومي بخط الحسينية ، وله حضرة في كل يوم جمعة ، ومقرأة في ليلة الأربعاء ، مولد الشيخ محمد العراقي بخط الواجهة من بولاق ، مولد الشيخ القاسمي بقنطرة الدكة بالأزبكية ، مولد الشيخ محمد الأخرس ، مولد الشيخ أبي الفضل بخط الواجهة من بولاق.

وعشرة موالد في شهر ربيع الأول وهي : مولد النبي ﷺ بجهة العباسية ، مولد السيدة فاطمة النبوية بشارع زرع النوى بالدرب الأحمر ولها حضرة في كل ليلة ثلاثاء ، مولد السلطان أبي العلاء الحسيني ببولاق بشارع السكة الحديد وله حضرتان في ليلة السبت وليلة الأربعاء ، مولد سيدي سعد الله الحسيني بالدرب الأحمر ، مولد سيدي عبد العزيز الدريني بجزيرة النيل ، مولد الشيخ سلامة أبي سرحان بكوم الشيخ سلامة بخط الموسكي وله حضرة في ليلة السبت. مولد الشيخ محمد أبي الدلائل بحارة المذبح من بولاق ، مولد الشيخ هلال بحارة زعترة بجوار السلطان أبي العلاء. مولد الشيخ سليمان الغنام ببولاق ، مولد الشيخ درويش العشماوي بخط العشماوي.

ومولد واحد في شهر ربيع الثاني ، وهو مولد سيدنا ومولانا الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ ، وله حضرة في ليلة الثلاثاء ، وأخرى في يوم السبت.

وأحد عشر مولداً في شهر جمادى الأولى وهي : مولد السيدة سكينة ، ومولد الشيخ إبراهيم الفار [1] ، بخط الخليفة ، وحضرتها ليلة الخميس ، مولد السيدة رقية بثمن الخليفة وحضرتها في كل ليلة سبت ، مولد سيدي محمد الأنور بخط الخليفة ، مولد سيدي إبراهيم المناوي بخط الخليفة بدرب الحصر ، وحضرته في كل ليلة أربعاء. مولد سيدي إبراهيم المتبولي بجوار كبري بوابة الحديد ، وحضرته في يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء. مولد سيدي علي الخواص بخط الحسينية وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد الشيخ يونس السعدي بباب النصر وحضرته في كل ليلة جمعة ، مولد سيدي علي الكعكي شارع وكالة الفسيخ من بولاق ، مولد سيدي علي زين العابدين خارج بوابة السيدة زينب وحضرته يوم السبت مع ليلة الأحد ، مولد سيدي حسن الأنور بفم الخليج. مولد سيدي محمد شمس الدين الرملي بميدان القطن وحضرته في كل ليلة جمعة.

---

(١) وهذا المولد خصص عندهم لمن رزقه الله بولد ، وأراد أن يعيش ، فما عليه إلا أن يأتي به إلى هذا المولد : الخطط التوفيقية ٣٠٦/١.

وسبعة موالد في جمادى الثانية وهي : مولد سيدي علي الرفاعي بجهة العباسية وحضرته تعمل في كل ليلة جمعة ، مولد سيدي إسماعيل الانبابي بقرية انبابة وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد سيدي محمد الطيبي بفم الخليج ، مولد السيدة نفيسة رضي الله عنها ببوابة الخلاء وحضرتها في يوم الأحد مع ليلة الإثنين ، مولد الشيخ المظفر بشارع الحلمية ، مولد السيدة زينب رضي الله عنها ولها حضرتان الأولى في يوم الأحد والثانية ليلة الأربعاء ، مولد الأحمدين بخط الشبراوي من بولاق.

وعشرة موالد في رجب وهي : مولد الشيخ الدشطوطي بخط العدوي وحضرته في كل ليلة جمعة، مولد سيدي عبد الوهاب الشعراوي بشارع الشعراوي وحضرته في كل يوم سبت ، مولد سيدي عيسى العدوي بخط العدوي ، مولد الشيخ عبد الله بالإسماعيلية [1] بشارع الشيخ ريحان ، مولد أولاد عنان ببوابة الحديد وحضرتهم في كل يوم سبت ، مولد القللي ببوابة الحديد ، مولد الشيخ سعيد بن مالك بالسبتية من بولاق ، مولد سيدي محمد شمس الدين الواسطي بسوق العصر من بولاق ، مولد سيدي علي المحجوب بدرب محجوب بخط الجلادين ، مولد سيدي محمد العليمي ، والشيخ سالم ببولاق بقرب السلطان أبي العلاء.

وثمانية وعشرون مولداً في شهر شعبان وهي :

مولد الإمام الشافعي رضي الله عنه بالقرافة الصغرى وحضرته في كل يوم جمعة من ليلة السبت ، مولد الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه بالقرافة الصغرى وحضرته في كل يوم سبت ، مولد السيدة عائشة النبوية ببوابة حجاج ، وحضرتها في كل يوم أربعاء مع الشيخ محمد السمان بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ إسماعيل ضيف بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ علي القادري بالقرافة الصغرى ، مولد الشيخ أحمد الدنف بالقرافة الصغرى، مولد السادات البكرية بالقرافة الصغرى، مولد سيدي عقبة بالقرافة الصغرى ، مولد السادات الوفائية بزاوية الوفائية بسفح الجبل من القرافة الصغرى ، مولد سيدي عمر بن الفارض بسفح الجبل من القرافة الصغرى ، مولد سيدي محمد الجيوشي بالجبل ، مولد سيدي يحيي بن عقب بالكعكيين وحضرته في كل ليلة خميس ، مولد سيدي محمد البحر بباب البحر وحضرته في كل ليلة خميس ، مولد سيدي أبي عبد الرحيم الدمرداش بالعباسية وحضرته كل ليلة جمعة. مولد سيدي محمد الصوابي وحضرته في كل يوم جمعة ويحضرها النساء المريضات [2] !! ، مولد الشيخ علي النبهاوي بدرب عجور من خط الحسينية ، مولد الشيخ معان بالدراسة بخط الأزهر وحضرته في كل ليلة سبت ، مولد الشيخ الخضري بمدرة الحناء من شارع الصليبة وحضرته في كل ليلة إثنين ، مولد الأستاذ العدوي بباب الشعرية وحضرته في كل

---

(١) هو ميدان التحرير حالياً.

(٢) في الأصل : المرضى.

ليلة سبت ، مولد الشيخ عبد الله الزهار بقنطرة الليمون بالأزبكية ، مولد الشيخ خليل الكردي بخط الجلادين ، مولد الشيخ علي الفصيح بالحطابة من بولاق ، مولد الشيخ الغمري بطولون ، مولد الشيخ عبد الكريم بالجمالية ، مولد السلطان الحنفي والشيخ صالح أبي حديد [(١)] بخط الحنفي وحضرة السلطان الحنفي في كل يوم سبت وليلة خميس، مولد الشيخ محمد العتريس بجوار السيدة زينب[(٢)]

فبعض هذه الموالد يستغرق أسبوعاً ، وبعضها أكثر ، وبعضها يستمر شهراً ، وعلى هذا النحو فهي تغطي جميع شهور السنة تقريباً. ولا يمر يوم من أيام السنة إلا كان مجدولاً عند أرباب البدع لمولد من هذه الموالد المحدثة [(٣)] . هذا غير الحضرات التي كانت تقام بصفة دورية كل أسبوع. وهي عبارة عن جلسات للذكر على الطريقة الصوفية ولم يكن هذا هو حال القاهرة فقط التي كانت تغرقها احتفالات الموالد على طوال العام ، بل لقد كان هذا هو حال غالب المدن الكبرى في العالم الإسلامي. ففي مدينة بغداد كانت لا تمر ليلة إلا ويحتفل فيها بمولد أو أكثر [(٤)] .

ويعتبر مولد البدوي أعظم مولد خارج مدينة القاهرة ، «وقد كان يحضره الجم الغفير ويهرع إليه غالب أهل القاهرة ، ويكترون الجمال والحمير بأغلى الأجرة ، لأن ذلك صار عندهم موسماً وعيداً لا يتخلفون عنه ، إما للزيارة أو للتجارة أو للنزاهة أو للفسوق ، ويجتمع به جمهور عظيم» [(٥)] . وكان الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر يسافر كل سنة للاحتفال بمولد البدوي ، ويقتدى به الكثير من العوام والسفهاء ، كما ذكر الجبرتي [(٦)] . بل لقد وصل الأمر إلى تعطيل الدروس في الأزهر ليتمكن شيوخه وتلاميذه من السفر لحضور مولد البدوي. وقد ذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار أنه زار مصر عام ١٢٨٨هـ فوجد الأزهر «فارغاً من الناس! لأن الطلبة وأكثر العلماء كانوا في مولد السيد البدوي ، والدروس في الأزهر مرفوعة..» [(٧)] فياضيعة العلم ، ويا لذهاب العلماء الربانيين!!.

ويقيم أهل المدينة مولداً لحمزة رضي الله عنه في كل سنة من أول رجب إلى منتصفه «يحضره الرجال والنساء ، وأهل مكة والطائف وجدة ورابغ وسكان البوادي الذين يزورون المدينة كل عام في

---

(١) وقد مر معنا أنه كان قاطع طريق.

(٢) الخطط التوفيقية ٢٢٦/١ وما بعدها. وذكر صاحب الخطط أن بعض هذه الموالد ثابتة أوقاتها ، والبعض الآخر يتحول من شهر إلى شهر تبعاً لتغير الأشهر القبطية.

(٣) وإذا كان صاحب الخطط لم يذكر لبعض شهور السنة موالد تقام فيها ، كشهري رمضان وذي الحجة ، فقد شغلا ببدع أخرى يأتي الحديث عليها.

(٤) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ٧٧/١.

(٥) عجائب الآثار ١١٢/٣.

(٦) المصدر السابق ٦٥١/٢.

(٧) حلية البشر ٣١/١.

رجب ، ويحضر أرباب الطرق ، وتذبح هناك الذبائح ، ويطعم الطعام .... وكذلك يعملون مولداً لسيدنا علي العريض عند قبره ، والمولد في الأكثر يكون في صفر ، وهذا المولد يستمر أربعة أيام ، والعريض هذا شقيق ذي النفس الزكية ابن جعفر الصادق» (١) .

والسؤال بعد هذا كله ـ بعد أن عرفنا ما تستنفده هذه الموالد من الناس ، من أوقات وجهود ، وطاقات روحية وفكرية ومادية ـ هو هل يبقى بعد ذلك وقت وطاقة للجهاد في سبيل الله ، أو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لعمارة الأرض على منهج الله ، أو تقوية المسلمين والعمل على مجاراة العصر في التقدم العلمي والصناعي والاقتصادي؟.

وهل بقي عند الناس مجال للتفكير في الواقع السيء والانحطاط الذي يعيشونه ، وقد شغل تفكيرهم ، وملىء وقتهم بهذه السخافات والجهالات؟.

وهل بقيت عندهم طاقات روحية تقوم بتغيير ذلك الواقع ، والنهوض بالأمة ، بعد أن نضبت تلك الطاقات في الموالد والحضرات؟.

فمن هنا كانت هذه الموالد من أشد البدع ضرراً على الدين ، وأعظمها تأثيراً في حياة المسلمين.

وليت الحال وقف بالمسلمين عند الاحتفالات بهذه الموالد على ما بها من مساوىء عظيمة ، بل أصبحت البدع تسيطر على حياة الغالبية من المسلمين ، ولئن كان للموالد عندهم من الاهتمام والتقدير ما رأينا ، فلقد كان لبدعة المحمل مكانتها الكبيرة في نفوس الناس ، واهتمامها الخاص عند الحكام والأمراء ، ولئن امتدت الموالد فشملت غالب السنة تقريباً ، فلقد شغلت بدعة المحمل البقية الباقية منها. وهذه نبذة عن هذه البدعة لنرى كيف استأثرت باهتمامات الحكام والناس في تلك الفترة.

بدعة المحمل (٢) :

يذكر البتنوني أن الاحتفال بالمحمل ، ويوم خروجه يرجع إلى أيام الدولة الأيوبية (٣) . ثم يصف المحمل في زمانه (٤) حيث يقول : «وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشي فيه الجنود

---

(١) مرآة الحرمين ١/٤٤٣ ولازال كثير من الصحف المصرية إلى يومنا هذا تنشر إعلانات الموالد واحتفالاتها على نفس الصفحات التى تنشر الدعايات فيها لحفلات المراقص والمسارح ودور السينما.

(٢) المحمل اسم لشبه هودج من خشب تحيط به ستائر محمول على جمل. الرحلة الحجازية ٢/٢٢٤ محمد السنوسي.

(٣) يقال إن أول من أحدثه هي شجرة الدر زوجة الملك الصالح أيوب أحد ملوك الأيوبيين. انظر : الابداع في مضار الابتداع ص٢٣٢. الشيخ على محفوظ ـ الطبعة السابعة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ـ دار الاعتصام. القاهرة.

(٤) في أوائل القرن الرابع عشر الهجري.

الراكبة [١] والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته .... يتقدمهم أمير الحج الذي يعينهم الجناب العالي الخديوي سنوياً ، وهو من الباشوات العسكريين في الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة في ميدان القلعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد لجلوس الجناب العالي الخديوي يوم هذا الاحتفال ، ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام ، والعلماء الأعلام ، وكبار ذوات العاصمة. وهناك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل ، فيتسلمه الجناب العالي منه ، ويسلمه إلى أمير الحج ، وعندها تضرب المدافع ، ويسير الركب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ، ثم الجنود ، ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحج ، ويتلوه المحاملي والجمالة ، ثم الفراجية (الطبالون) على جمالهم ويستمر هذا الموكب سائراً إلى المحجر ، فالدرب الأحمر ، ويمر من بوابة المؤيد ، فالغورية ، فالنحاسين ، فباب النصر ، فالعباسية. وهناك يتفرق الموكب ، وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية ، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به ..» [٢]
ثم يقول : «وكان الاحتفال بطلوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن إسماعيل من الفخامة بمكان عظيم ، وكانوا عند عودته يبلون السكر فرحاً به في أحواض كبيرة ، يشرب منها الغادون والرائحون مدة ثلاثة أيام ، وهي عادة قديمة جداً ، وكان يسافر في خدمته غير مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف ، كثير من الخدم والحشم ، والعكامة ، والجمالة ، والفرايجية ، والنجارين ، والفراشين ، والخيمية ، والسقائين. وكان ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوي والحلويات ... ... وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل ، وآخر اسمه أبو القطط! .. .. .. وكانت وظيفة الأول أن يشتري الجمال اللازمة للعمل ، ويركب وراء جمل المحمل في موكبه لملاحظته في سيره من الخلف ، كما يلاحظه المحاملي في سيره من الإمام. أما الثاني فيقولون إنه كان يقوم بغذاء القطط التي كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره في البر! ... وجميع هؤلاء كان تعيينهم بفرمانات خاصة بعضها من السلطنة ، وبعضها من ولاة مصر ، ولهم مرتبات بالروزنامجة [٣] من عهد بعيد [٤] .

وقد ذكر أن الحكومة كانت تشتري جملاً لتجعله فداء لجمال المحمل ، ثم تقوم بذبحه ويتقاتل الناس عليه بمجرد وقوعه على الأرض ، ويقطعونه إرباً إرباً بمداهم قبل ذبحه طلباً للبركة! وكان لحمه يباع بثمن باهظ ، ويزعمون أن لحمه ينفع من الصداع! وشحمه للبواسير [٥] !. ثم ذكر بعد ذلك كشفاً

---

(١) هذه كانت أهم وظائف الجند ، الاحتفالات بشأن هذه البدع وحراستها.
(٢) الرحلة الحجازية ص١٤١.
(٣) وهي الخراج أو ضرائب الأطيان كما ذكرنا من قبل.
(٤) المصدر السابق ص١٤٤.
(٥) المصدر السابق ص١٤٥.

ببيان المصروف السنوي في تسفير المحمل والمرتبات الجاري صرفها في مكة والمدينة ، حسب الوارد في الميزانية الأخيرة (١) . وجاء فيه :

١٢٨٢ جنيه. مرتبات وتعيينات لأمير الحج ومستخدمي المحمل.

٢٥١١ جنيه. مرتبات للعربان (٢) .

١٤٩٣ جنيه. مرتبات الأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة (٣) .

ومن قرأ كلام البتنوني يرى بكل وضوح كيف كانت تسخر كثير من الإمكانيات لبدعة المحمل ، وإن المرء ليعجب من كثرة الوظائف التي كانت تقوم عليها هذه البدعة ، من أمير للمحمل إلى صاحب للقطط يقوم بإطعامها على طول الطريق.

وكانت بدعة المحمل راسخة في نفوس الناس هناك ، ومرتبطة أشد الارتباط بفريضة الحج ، ولم يكونوا ليفرطوا فيها حتى بعد مجيء الفرنسيين. ويصف الجبرتي الاحتفال بموكب المحمل قبل سفره عام ١٢١٣هـ واشتراك كثير من النصارى المسلحين في ذلك الموكب (٤) . بل لقد كانت هذه البدعة عند المسلمين تفوق مناسك الحج ومشاعره ، وليس أدل على ذلك من امتناع الركب الشامي والمصري عن الحج ، حين أمر أهل الدعوة بعد استيلائهم على مكة بإبطال كثير من البدع ، وعلى رأسها بدعة المحمل (٥) .

وقد عم الاحتفال بالمحمل الأقطار الإسلامية شرقها وغربها ، فقد رأينا احتفال الناس به في المشرق وامتناعهم عن الحج لما منعهم أهل الدعوة من الإتيان به ، أما في بلاد المغرب فيذكر صاحب «الاستقصا» أن السلطان سليمان وجه ابنه المولى إبراهيم في سنة ١٢٢٦هـ لأداء فريضة الحج «مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة ، وكانت الملوك تعتني بذلك ، وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرها ...» (٦) .

وقد كان سلاطين بني عثمان يحتفلون بخروج المحمل ، ويحضرون بأنفسهم ، وكان السلطان

(١) وهي ميزانية ١٣٢٧هـ.

(٢) لضمان عدم اعتدائهم على المحمل. وكان الأمن مفقوداً ، وللأعراب على المحمل كرات مشهورة منها ما ذكره الجبرتي زمن هجومهم على ركبه عام ١٢٠٨هـ حيث قاموا بكسر المحمل وحرقه ، وقتل كثير من الحجاج ونهبهم، عجائب الآثار ١٥٩/٢.

(٣) الرحلة الحجازية ص١٤٣.

(٤) عجائب الآثار ٢٥٨/٢.

(٥) المصدر السابق ٢٤٧/٣.

(٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٤٥/٤.

يأخذ قياد المحمل بيده فيسلمه ليد أمين الصرة ، حتى إذا حصل العود يسلم أمين الصرة ذلك القياد للسلطان. وفي كل مرحلة يتوقف ركب المحمل تعزف الموسيقى العسكرية «تعظيماً له لشرف الانتساب إلى الحج الأكبر ، فهو، بمنزلة راية الدولة التي تعتبرها الجنود والأهالي ، ويعظمونها تعظيمهم للدولة نفسها ، ولذلك جميع المسلمين يقبلون على تعظيم هذا المحمل تعظيمهم للموسم الأكبر ، وعند وصوله للحرم الشريف يتولى قيادة زمام ناقته أكبر الباشوات والعلماء إلى أن يدخلوا به إلى مقره من الحرم النبوي» (١) .

وكان ركب المحمل الشامي يتكون من حراسة مؤلفة من ٥٥٠ عسكري ، معهم مدفعان وأكثر من ٢٠٠٠ جمل ، وعدد النفوس يناهز ٥٠٠٠ شخص (٢) .

وعندما يصل إلى المدينة يقوم باستقباله شيخ الحرم (٣) والقاضي ، والمفتي ، وكبار العلماء والموظفين والأعيان. وقد ذكر الشيخ القاسمي أثناء رحلته إلى مصر عام ١٣٢١هـ أنه رأى الجماهير الكثيرة تحتفل بالمحمل وبالكسوة الشريفة (٤) ، يتقدمها الجنود والموسيقى العسكرية ومشايخ الطرق بطبولهم ومزاميرهم ، وذكر رحمه الله أن احتفال المصريين بالمحمل يفوق احتفال المسلمين به في دمشق (٥) . وكان تعلق المسلمين ببدعة المحمل تعلقاً عظيماً. يقول اللواء إبراهيم رفعت باشا (المتوفى سنة ١٣٥٣هـ) (٦) أمير الحج المصري : «ومما رأيناه من عادات الأهالي احضارهم أولادهم الرضع ليروا المحمل ، ويلمسوه فيبارك لهم في ذريتهم ، وكانوا إذا لم يستطيعوا لمسه ، قذفوا بمناديلهم إلى خدم المحمل بعد أن يضعوا فيها شيئاً من النقود أو يملؤوها باللحوم البيضاء أو الفطير ، فيأخذ الخدم ذلك منها ، ويردونها إلى أربابها بعد إمرارها على المحمل» (٧) .

وذكر الشيخ محمد المجذوب أن الناس يزدحمون على المحمل طلباً لقضاء الحاجات ، وخاصة طالبات الحبل ، ليظفروا بلمسة من الجمل ، وحين قامت الحرب الكبرى عام ١٩١٤م لم يكن في المدينة شاب يقود الجمل في الشوارع الرئيسية ، وكان يوم المولد النبوي هو موعد خروجه السنوي ، فتتعطل

---

(١) الرحلة الحجازية ٢/٢٢٤ محمد السنوسي.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٢٤.

(٣) هو الحاكم من قبل الدولة العثمانية ، وكان يسمى بذلك في مكة والمدينة. لأن الحكام الفعليين هم أمراء الأشراف ، وكان الخلاف كثيراً ما ينشب بين أمير مكة الشريف ، وبين شيخ الحرم التركي ، ونظراً لنفوذ الأمراء في ذلك الوقت ، فإن الدولة غالباً ما تقوم بعزل شيخ الحرم ، وتعيين آخر مكانه.

(٤) هي كسوة الكعبة شرفها الله.

(٥) جمال الدين القاسمي وعصره ص١٥٠.

(٦) الأعلام ١/٣٩.

(٧) مرآة الحرمين ١/١٣.

خروج المحمل ذلك اليوم ، فأقبل الشيوخ والعجائز على ساحة المسجد يحتجون على ذلك صائحين صاخبين : هذا تعطيل لشعائر الدين [١] .

لا ريب أن المحمل كان في حس الغالبية من المسلمين من أعظم شعائر الدين ، فإذا منع المحمل فقد منع الحج ، وكانوا ينفقون عليه أموالاً ضخمة ، ومصروفات عظيمة ، وشغل من الطاقات والجهود ما لو سخر في أمر يخدم الحجاج المسلمين لكان ذا نفع كبير. وتنافس المبتدعة على تلك البدعة وأغرقوا في الإسراف فيها ، ورأوا أنهم أسدوا إلى الدين خدمات جليلة.

احتفالات أخرى :

بالإضافة إلى احتفالات الموالد والمحامل كانت هناك احتفالات كثيرة ، استحوذت على اهتمامات الناس أيضاً. ومنها :

الاحتفال بالاسراء والمعراج ليلة السابع والعشرين من رجب[٢]. وقد كان يحتفل به في الأزهر[٣]. وذكر الغزي أن الناس يجتمعون في يوم السابع والعشرين من رجب في الجامع الكبير في حلب ، ومعهم الوالي ، وتعطل الحكومة ! ، ويسمعون قصة الاسراء والمعراج ، ويستقون الشراب ، ويطعمون الحلوى [٤] .

أما الجندي فيذكر أن الناس يتصدقون ويطعمون في اليوم السادس والعشرين من رجب ، ويقرؤون في الليل بعد صلاة العشاء المعراج ، ويصومون اليوم التالي [٥] . ولم يكن السفر للحروب يحول دون الاحتفال بالإسراء والمعراج . كما احتفل به الشريف حسين بن علي أمير مكة (المتوفى سنة ١٣٥٠هـ) [٦] أثناء حملته العسكرية التي سار على رأسها لتأديب محمد بن علي الإدريسي عام ١٣٢٩هـ . حيث نصب السرادقات العظيمة ، واحتشدت الجموع ، وأطلقت المدافع إجلالاً لذلك اليوم[٧] .

---

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص١٣٦ وحول ازدحام الرجال والنساء والأطفال لمشاهدة المحمل وما ينتج عن ذلك من أضرار سيئة. انظر : اصلاح المساجد من البدع والعوائد ص٢٤٢.

(٢) وقد اختلف في وقوع الإسراء والمعراج هل كان في ذي القعدة أو في ربيع الأول كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية ، وذكر أن الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي أورد في سيرته حديثاً لا يصح سنده ، أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب. البداية والنهاية ١١٧/٣.

(٣) عجائب الآثار ٤٢٨/٢.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٦٩/١.

(٥) تاريخ معرة النعمان ٢٠/٢.

(٦) الأعلام ٢٤٩/٢.

(٧) الرحلة اليمانية ص٧٦.

ومن الاحتفالات أيضاً الاحتفال في المساجد بإحياء ليلة النصف من شعبان بالصلاة والدعاء عقب صلاة المغرب يقرأونه بأصوات مرتفعة بتلقين الإمام [(١)] .

وفي بعض البلدان يجتمع الناس في المساجد ويقرأون سورة يس ثلاث مرات ، عقب كل مرة يتلى دعاء ، يزعمون أنه دعاء مأثور لتلك الليلة [(٢)] . «وأكثر الناس مواظبون على قراءة هذا الدعاء في تلك الليلة ، حتى كأنه من الفروض الدينية ، مع أنه لم يثبت به أثر نبوي» [(٣)] . وكثير من يحيي هذه الليلة بالذكر والعبادة في المسجد أو في بيته ، ويصوم يومه» [(٤)] .

ومنها الاحتفال بيوم عاشوراء ، حيث يوسع الناس على عيالهم في المآكل ، ويخرجون إلى المشهد [(٥)] ، وتصنع وليمة حافلة يحضرها الوالي ومن دونه ، ويتلى شيء من القرآن العظيم ، وصحيح البخاري ، وقصة المولد ، وتنشد مرثية ابن معتوق في الحسين رضي الله عنه [(٦)] .

ومن ذلك آخر أربعاء من شهر صفر الخير ، حيث يشتغل الناس بالذكر والتسبيح وتعطل فيه الحكومة [(٧)] .

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن حياة الناس أصبحت ممزوجة بالبدع ، وأنها قد سيطرت على شؤون الناس الدينية والدنيوية. فقلما خلا شأن منها.

ومن ذلك العبادات ، فقد طغت عليها البدع حتى كادت أن تختفي معالمها الشرعية ، وألصق المبتدعون بها من البدع ما ظنه الناس مع مرور الزمن جزءاً لا يتجزأ منها ، حتى «غدت العبادة في أصلها المشروع وزياداتها المبتدعة الشغل الشاغل الذي لا يبقى مكاناً لجهاد أو لعمل اجتماعي نافع، أو للتفكير في قضايا عامة تهم المسلمين» [(٨)] . فالصلاة مثلاً ، دخلت عليها كثير من البدع بدءاً بالتلفظ بالنية إلى التسليمتين. وأضحت المساجد أسيرة للمبتدعة الذين أغرقوها بالبدع والمحدثات ، ومن تلك البدع : بدعة الترقية ، وهي ما تقع عقب الآذان عند المنبر وهي تلاوة ﴿إن الله وملائكته

---

(١) الابداع في مضار الابتداع ص٢٨٦.

(٢) تاريخ معرة النعمان ٢/٢٢.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٧٠.

(٤) المصدر السابق ١/٢٧٠.

(٥) المكان الذي يصلى فيه العيد.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٦٨ ، وهذا ربما فعله بعض أهل السنة نكاية بالشيعة الذين يجعلون هذا اليوم مأتماً وعويلاً. وهو جهل ظاهر . ومما امتاز به هذا اليوم طبخ عدة أنواع من الحبوب بالسكر والحليب وتهادي الناس لها . تاريخ معرة النعمان ٢/٢٠.

(٧) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٦٨.

(٨) المجتمع الإسلامي المعاصر ص٦٨.

يصلون على النبي. يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [الأحزاب ٥٦] ثم حديث : «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أنصت فقد لغوت» [١] .

وكذلك ما يقع من المناداة يوم الجمعة قبل الزوال إليها بالذكر والصلاة والسلام على رسول الله[٢] . وهناك ما يسمى بالأذان السلطاني ، وهو قيام أربعة أو أكثر بالأذان جماعة [٣] .

وهناك ما يسمى بتسبيحات الفجر وما تسببه من ازعاج للنائمين ، وكذلك الابتهالات والأغاني الدينية كما يسمونها [٤] . ولم تسلم أي عبادة من تلك البدع. ومن أراد الاستزادة فعليه بقراءة كتاب «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» لعلامة الشام جمال الدين القاسمي.

أما بدع الجنائز [٥] فقد امتازت عن غيرها بغزارتها ، واختلافها من بلد إلى آخر ويتبعها بدع العزاء والمآتم من اجتماع الناس للعزاء وجلوسهم له ، وإطعام الطعام لهم ، والإتيان بالمقرئين ، ولبس النساء السواد ، وتلطيخ الأبواب بالوحل ، وما في ذلك من كلفة ومؤونة ، وتعنت الفقراء في عملها ، واستمرار ذلك أربعين يوماً [٦] وقد ذكر الغزي جملة عظيمة منها ـ كالاجتماع وجلب المقرئين والإطعام عند إكمال أسبوع من وفاة الميت ، وعند إكمال أربعين يوماً على وفاته ، ويسمونها بالأربعينية. وعند إكمال سنة ، ويسمونها بالسنوية [٧] . وهكذا تتجدد الأحزان ، وتنبعث الأتراح بارتكاب البدع ، ومخالفة السنة.

ومن ذلك أيضاً قراءة الفواتح والقصائد على الميت [٨] .

ومن ذلك زيارة المقابر يوم العيد ، حيث يخرج الرجال والنساء والأطفال في أبهى حللهم وزينتهم لزيارة الأموات [٩] .

وهناك بدع الختان وما كان يفعله السلاطين العثمانيون من دعوة للعلماء لحضور ختان أبنائهم، وضرب للمدافع ، وغير ذلك [١٠] .

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع ص١٦٨ والحديث رواه البخاري.
(٢) المصدر السابق ص١٦٩.
(٣) المصدر السابق ص ١٧٦ وانظر بعض بدع الجمعة في : رحلات عبد الوهاب عزام ص ٢٧١.
(٤) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص١٣٧.
(٥) ومع اختفاء كثير من البدع من حياة الناس ، إلا أن كثيراً من بدع الجنائز ما زالت موجودة.
(٦) انظر : عجائب الآثار ١٠٩/٢ ، ٥٠٠/٣ ـ ٥٤١. حلية البشر ١٢٤٧/٣.
(٧) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٥٦/١.
(٨) أعلام العراق ص١٠٩.
(٩) عجائب الآثار ٢٥٧/٢. نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٧٢/١.
(١٠) عجائب الآثار ٢٦٠/٣. حلية البشر ٨٤١/٢.

أما سورة الفاتحة التي هي أعظم سورة في القرآن ـ لاشتمالها على أنواع التوحيد الثلاثة، وذكر المعاد وطلب الهداية بسلوك صراط المنعم عليهم، واجتناب صراط المغضوب عليهم والضالين وغير ذلك من المطالب العالية والمسائل النافعة [١] ـ فقد أصبحت عند المسلمين تقليداً يقرأ في الموالد والمآتم، وعند الوداع، وفي الأفراح.

فعندما زار الصدر الأعظم القاهرة، وأراد مغادرتها، قام المشايخ بتوديعه، وقرأوا له الفاتحة[٢]. وفي إحدى المرات، حين كان نابليون بونابرت يشق بموكبه بعض شوارع القاهرة، صاح أناس متجمعون بصوت عال: الفاتحة. فغضب من ذلك، وكادت تقع فتنة، لولا أن تلطف بعضهم معه، وأفهموه أنهم كانوا يدعون له [٣]. فهل كان يظن هؤلاء الجهال أنهم بقراءتهم سورة الفاتحة يغيظون نابليون وجيشه، أو يطردونهم بذلك.

بل لقد كانت قراءة الفاتحة على سبيل البدعة تدخل في غالب شؤونهم واجتماعاتهم فعندما كان ينتخب شيخ الأزهر، يقوم العلماء بمصافحته، وقراءة الفاتحة لذلك [٤]. وحتى المواكب كانت لا تحرم من قراءة الفاتحة، فعندما كان الباي يستعرض الجيش ويوزع الصناجق للأمراء، كان يختم ذلك الموكب والجفل بقراءة الفاتحة [٥].

وأما القرآن العظيم كتاب الهداية والنور، فقد ضاعت قيمته الحقيقية في خضم البدع والأباطيل، وأصبح إلى حد كبير معزولاً في زاوية المآتم والأحزان وحبيساً في تكايا الصوفية وزواياهم. ولم يعد ذا أثر بين في حياة الناس وواقعهم، وأضحى شعاراً للأموات، ونعياً غير مباشر عند الناس، فلا يعرفون موت بعضهم في كثير من الأحيان إلا بقراءة القرآن [٦].

ومن البدع التي زاحمت كتاب الله عز وجل، وكان لها دور كبير في صرف الناس عنه، كتاب «دلائل الخيرات»[٧] لمحمد بن سليمان الجزولي (المتوفى سنة ٨٧٠هـ)، وهو عبارة عن صلوات مبتدعة على النبي ﷺ، فقد لقي ذلك المؤلف رواجاً عظيماً عند المسلمين في ذلك العصر، حتى لقد فاق القرآن العظيم عند بعضهم [٨]. فقد كان يوضع جنباً إلى جنب مع المصاحف الشريفة في المساجد

---

(١) انظر: مدارج السالكين ١٢/١ وما بعدها.

(٢) عجائب الآثار ٥١٢/٢.

(٣) المصدر السابق ٢٠٦/٢.

(٤) المصدر السابق ٢٨٣/٣.

(٥) اتحاف أهل الزمان ص١٠٠.

(٦) وفي بعض الدول الإسلامية لا يعرف موت الزعيم أو الرئيس إلا بقطع البرامج المعتادة من وسائل إعلامها وبث القرآن الكريم فترات طويلة. فالله المستعان.

(٧) وإن كان دلائل الخيرات ذكراً صوفياً إلا أنا ذكرناه هنا لانتشاره بين جميع الناس إلا من رحم الله.

(٨) وذلك بسبب البيئة الصوفية الطاغية في ذلك الزمن.

والجوامع [١] . وقد ادعى المتصوفة أن النبي ﷺ قد أقرأه للجزولي الذي نفث ذلك الادعاء الكاذب ، وتلقفه الأتباع كحقيقة لا جدال فيها[٢] فمن أجل ذلك حرص الناس على أخذه بالإسناد واستجازته[٣] والبحث على علو السند في أخذه . وعندما أجاز أحد الشيوخ السنوسي بدلائل الخيرات قال : وهذا السند لا يوجد أعلى منه في الدنيا!! [٤] وكان أبو القاسم السجلماسي أستاذاً لأهل دلائل الخيرات يجتمعون عليه ويقرأونه بين يديه ، وكانوا يتنافسون في أخذه عنه [٥] . وانتشرت استجازته حتى وصلت إلى الهند [٦] .

وقد كان بعض الناس يختم دلائل الخيرات بين العشائين كل يوم ، ومن هؤلاء الشيخ العربي الشرقي (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ) [٧] . أما الوزير أحمد بن مبارك وزير المولى سليمان فقد كان من المحافظين على قراءته حضراً وسفراً ، ولا يفارقه أبداً في جيبه ، فكلما وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأ ما تيسر منه [٨] .

وقد كان الأثرياء والموسرون وذوو المناصب يبادرون إلى نشر دلائل الخيرات ، ويبذلون لأجله الأموال ، ويحبسون له الحبوس والأوقاف ، ويعطون الجوائز على من يحفظه ويقرأه ، ويقومون على توزيعه في الأقاليم ، كما كان يصنع أحمد بن القائد عمر بن أبي سنة المراكشي (المتوفي سنة ١٢٩٢هـ)[٩].

يقول عنه صاحب «كشف الظنون» [١٠] : «وهذا الكتاب آية من آيات الله في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، يواظب بقراءته في المشارق والمغارب ، لا سيما في بلاد الروم» [١١] .

وقال في الروضة المقصودة : «ومن ذلك كتاب (دلائل الخيرات للشيخ محمد الجزولي ، وهو

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٠٤/٤.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣٩٢/١ وذكر بعضهم أنه نام عند ضريح الجزولي فرأى الشيخ وأمره بقراءة الدلائل ، فأخطأ في ضبط بعض الكلمات ، فرده الشيخ إلى الصواب ، وقال : هكذا قرأه علي حبيبي ﷺ!! فانظر إلى هذا الكذب المبين.

(٣) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٤١٤/٢.

(٤) الرحلة الحجازية ١٥٥/٣.

(٥) المصدر السابق ٣٩٢/١.

(٦) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٤١/٧.

(٧) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ١٤٨/١.

(٨) المصدر السابق ٤٠٣/٢.

(٩) المصدر السابق ٤١٩/٢.

(١٠) هو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة. توفى سنة ١٠٦٧هـ الأعلام ٢٣٦/٧.

(١١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٧٥٩/١ دار الفكر ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

كتاب كاسمه (دلائل الخيرات) عم الوجود بأنوار البركات ، واتصل عموم النفع به في أقاليم الإسلام ، وأكب الناس على قراءته من الخاص والعام ، ومن بركاته .. .. مما جرب لقضاء الحوائج ، وتفريج الكرب قراءة (دلائل الخيرات) أربعين مرة ، ويعتمد القارىء أن يكمل هذا العدد قبل تمام أربعين يوماً، فإن الحاجة تقضى كائنة ما كانت ، ببركة الصلاة على النبي ﷺ» (١) .

يقول أحدهم :

بدلائل الخيرات كن متمسكا والزم قراءتها تنل ما تبتغي
فشوارق الأنوار لائحة به والترك منك لها أخي لا ينبغي (٢)

ويقول العياشي في الدلائل :

عليك بما يحويه هذا المؤلف ففيه غنى الدارين إن كنت تعرف
فلازمه واستمسك به إن تكن فتى لديك إلى حب الرسول تشوف
(دلائل خيرات) فوائد نعمة شوارق أنوار بها تتشوف
ينابيع رحمات موارد حكمة حدائق جنات من الله تزلف
فلا تعدون عيناك عنه فإنه كتاب بأنوار الفضائل يعرف
لقارئه الحسنى غدا وزيادة وقرب مكين بالمواهب ينطف(٣)

وقد بلغ من اهتمامهم بهذا الكتاب المختلق أن غدوا يعدون صلواته المبتدعة ، ويجعلونه أحزاباً وأرباعاً وأجزاءاً أسوة بكتاب الله عز وجل. يقول السملالي : «وجملة ما فيه من الصلوات من قوله في كيفية الصلاة على النبي الخ ٥٤١ صلاة على عد نحو اللهم الفضل والفضيلة ، والشرف والوسيلة ، والدرجة الرفيعة والمنزلة الشامخة صلاة أيضاً واحدة ، وإن تكررت المعاطيف ، ففي الربع الأول ١٨٢، وفي الثاني ٦٩ ، وفي الثالث ١٠٩ ، وفي الرابع ٨١ (٤) .

ونظراً لأهميته عندهم ، فقد كان بعض الأميين يحفظونه عن ظهر قلب (٥) .

بل لقد بلغ عندهم هذا الكتاب مبلغاً عجيباً ، وملك شغاف قلوبهم. ووصل الأمر أن بعض من حكم عليهم بالإعدام يكون آخر عهده من الدنيا قراءة دلائل الخيرات. فلما قدم والي الشام المعزول

---

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٩٨/٥.
(٢) المصدر السابق ٨٨/٥.
(٣) المصدر السابق ٩٨/٥ ومعنى ينطف يسيل ـ انظر مختار الصحاح ص٢٧٧.
(٤) المصدر السابق ١٠١/٥.
(٥) المصدر السابق ١٠٢/٥. وزعم بعضهم أن النبي ﷺ يحفظهم في المنام! وهو زعم واضح البطلان.

أحمد باشا إلى الاعدام بسبب حادثة النصارى [١] كان صائماً وفي يده دلائل الخيرات ، وصلى ركعتين ، ثم سلم نفسه للممات [٢] .

وكانوا يعتقدون فيه اعتقادات كثيرة ، ومنها ما ذكره كاتب الشونة من أن بعضهم كان يتلو دائماً دلائل الخيرات ، فلما قتل مكثت جثته في الشمس إلى نصف النهار ، لم يتغير ، ولم تشم له رائحة كريهة ، على أن الشمس تسرع في تغيير الميت ، وذلك كما يقولون ببركة تلاوة دلائل الخيرات[٣]. وقد اهتم العلماء بشرحه وتفسير كلماته ، وله شروح كثيرة [٤]. وهكذا حظي هذا الكتاب المبتدع بفائض من التقدير والاحترام والاجلال ، وهي منزلة لم يحظ بها القرآن عندهم في كثير من الأحيان.

لقد أضحت السنة في تلك الفترة غريبة جداً ، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم. وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، ويأبون التفريط فيها مطلقاً ، في الوقت الذي كانوا يفرطون فيه في كثير من أحكام الإسلام ، ويكافحون من أجلها ، ويتعاهدون الحفاظ عليها ، ويرون أنهم قد خدموا الدين ، ونفعوا المسلمين.

ومن ذلك كثرة الأوقاف على اقامة كثير من البدع. فقد زاد الانحراف عمقاً بسبب الرافد المادي العظيم الذي كان يكفل للبدع أن تستمر ، وللضلال أن يستفحل وكان الناس يتسابقون إلى إيقاف بعض أملاكهم على تلك البدع ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، وحرص الكثيرون على تغذية أكثر من بدعة بما وقفوه من أموالهم.

جاء ضمن شروط أوقاف (جامع البهرامية) في حلب ما يلي : «٩ قروش لستة قراء يقرأون ستة أعشار من القرآن في السدة قبل صلاة الجمعة ، و٢ لحافظ يكون رئيساً عليهم ، وواحد ونصف لصيت [٥] يقرأ بعدهم نعتاً نبوية قبل الشروع في الخطبة ، وواحد ونصف لآخر مادحاً وواصفاً في المحفل نهار الجمعة على عادة أمثاله، و ٣٠ لثلاثين حافظاً يختمون مجتمعين ختماً بجامعه بعد صلاة الصبح ، و٢ لحافظ يقرأ سورة ياسين بعد صلاة الفجر ، وسورة الملك بعد الظهر ، وسورة عم بعد العصر .. ..ويصرف في كل سنة ٢١٣٤ عثمانياً لقراءة المولد النبوي في الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول بالجامع المذكور» [٦] .

---

(١) وتسمى بحادثة الستين لأنها وقعت سنة ١٨٦٠م وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله في الباب الثاني ص٤٥٠ من هذا البحث .

(٢) حلية البشر ٢٦٩/١.

(٣) تاريخ السلطة السنارية ص٨٢.

(٤) انظر : إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ٤٧٦/٣ إسماعيل بن محمد الباباني دار الفكر ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٥) صيت يعني شديد الصوت. انظر مختار الصحاح ص١٥٦.

(٦) نهر الذهب في تاريخ حلب ٥٠/٢.

وجاء في وقف آخر : «وأن يدفع كل يوم ٤ عثمانيات لرجل يتلو دلائل الخيرات يوم الجمعة ..... وأن يصرف كل سنة مائة قرش ليلة عاشوراء ، والمولد ، والمعراج ، والنصف من شعبان ....» (١) .

فكيف كان يمكن لسيل البدع أن يتوقف ، وهذا الرافد المادي لا ينقطع عنه البتة. ولم يكن يجرؤ في ذلك الزمن أحد ، فيعلن بالإنكار على هذه البدع ، لأنه سيتهم لا محالة بانتقاص الدين ومحاولة تعطيل شعائره (٢) .

انتشار الخرافات :-

فشت الخارافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير ، وأضحت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً ، وليس ذلك فحسب ، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها ، فضلاً عن التشكيك في صحتها.

وكان من السهل أن ينتبذ دجال من الدجالين ، أو يقوم كذاب فيبتكر من عند نفسه خرافة ، أو ينسج أسطورة ، وما إن يعلنها بين الناس ، حتى يهرع إليه الكثيرون مصدقين ومتعجبين ، ولا يفكرون في التثبت أبداً ، ثم يكسب هو من وراء ذلك مكاسب مادية ومعنوية ، نتيجة لغفلة الناس ، وسذاجتهم وجهلهم.

فمن ذلك قيام أحد خدمة الأضرحة في مصر ، حيث ادعى تغريراً بالجهلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هي الحال في شهرة العين التي بمسجد الحنفي بالقاهرة) ، ويثبتون هذه الأكذوبة بفرية أشنع منها !! فيقولون : إن رجلاً من مصر كان حاجاً ، فسقطت طاسة من يده في بئر زمزم ، فلما حضر إلى القاهرة ، عثر عليها في تلك العين، ولهذا ترى كثيراً من الناس يتبركون بها ، ويستشفون بمائها (٣) .

وفي المغرب كانت هناك خرافة أعظم من تلك. وذلك حين يعمد بعض المغاربة في سحر عاشوراء إلى استقاء الماء من الآبار ، ظناً من الساقين أن الآبار تستمد من بئر زمزم في ذلك الوقت من ذلك اليوم ، فيرش بذلك الماء جميع زوايا الديار تبركاً ، خصوصاً الزروع وحظائر المواشي (٤) . وبلغت

---

(١) المصدر السابق ٢/٦١.

(٢) ومن أراد معرفة حال البدع في تلك الفترة ، فلينظر : الابداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ وإصلاح المساجد للقاسمي ، وكتب التراجم والرحلات والتواريخ في تلك الحقبة وكثيراً ما يذكرها المؤرخون تحت باب العادات ، لأنها مع مضي الزمن صارت عادات ألفها الناس ولا يمكن أن يتخلوا عنها بسهولة.

(٣) الرحلة الحجازية ص١٢٧. محمد لبيب البتنوني.

(٤) المعسول ١/٣٠.

الخرافة حول بئر زمزم أن بعض الجهلاء كانوا يلقون بأنفسهم فيها وهم أحياء لاعتقادات فاسدة اعتقدوها ، وأن من فعل ذلك فلا حساب عليه ولا عذاب [١] .

ومن الخرافات أيضاً ما يتحدثون به ليلة العاشر من المحرم ، من أنه تهبط بغلة من السماء حاملة لكثيرة من الجنيهات لصاحب النصيب !! فيأمر الأب ابنه ، والأم ابنتها بالدعاء إلى الله تعالى لتكون من نصيبهم ، فيحلم هؤلاء أحلاماً ، يقصها بعضهم على بعض في الصباح ، لاشتغال أرواحهم بهذا الهذيان [٢] .

ومنها ما يفعله كثير من النسوة في يوم عرفات إذ يجئن بصبيانهن إلى الجامع الكبير في حلب ويحنينهم ، زاعمات أن هذا طلسم به يجد الولد كثيراً من اللقطات [٣] . وفي محلة العقبة بحلب حجر منقوش بخط هروكليفي ، يزعم الناس أن النظر فيه يزيل اليرقان [٤] .

ومن الخرافات أن مرآة توجد في كوة في جامع الأطروش في حلب ، ينظر فيها من له غائب عن وطنه ، فيراه على الصورة التي هو عليها ، وفي يوم جاء أرنؤدي له غائب فنظر إلى المرآة ، فرآة ميتاً قد حمل على النعش ليقبر ، فثار غضبه ، وفي الحال أطلق عياره الناري على المرآة فحطمها ، وبطل هذا الطلسم [٥] .

ومن الخرافات في الأستانة أن جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير مربوط طرفه بشجرة سرو قديمة ، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً ، وجلس تحت هذا الزنجير ، فهو يسقط على رأسه ، وإذا كان صادقاً في إنكاره ، فالزنجير لا يتحرك [٦] .

ومن الخرافات التي تدل على الإفلاس العلمي ما كان يفعله بعض الناس من إطلاق البنادق ، وضرب النحاس ، ودق الهاونات [٧] جريا على عاداتهم حين خسوف القمر من قديم الزمان ، زاعمين أن خسوف القمر سببه حوت يبتلعه ، وأنه إذا سمع أصوات البنادق ، وتلك الأصوات المزعجة يخاف فيمج القمر [٨] .

---

(١) الرحلة الحجازية ص١٢٧. وذكر البتنوني أن بعض الهنود عام ١٣٢٦هـ ألقى بنفسه حياً في بئر زمزم على غرة من خدمتها ، ولم يستطيعوا إخراج جثته إلا بعد أن استدعوا الغواصين من جدة ، ولم يعثروا عليها إلا بعد عناء شديد ، وبعد أن نزحوا من البئر كمية كبيرة صلح معها ماؤها.

(٢) الإبداع في مضار الابتداع ص٤٣٠ ومعلوم أن السماء لا تمطر ذهباً ولافضة ولا بغالاً.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢٨٢/١. وليس ذلك بغريب على بيئات للكسل والخمول والخرافة.

(٤) المصدر السابق ٩١/٢ واليرقان داء يصيب الإنسان . انظر مختار الصحاح ص ٣١٠ .

(٥) المصدر السابق ٣٦٣/٢.

(٦) دليل الاستانة ص٥٥.

(٧) الهاونات جمع هاون وهو وعاء من نحاس يدق فيه. انظر مختار الصحاح ص٢٩٢.

(٨) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٤٧/٣ وأين هذا الحال الصاخب من حال رسول الله ﷺ وخوفه حال الكسوف والخسوف ، وخروجه مسرعاً للصلاة في المسجد. انظر زاد المعاد ٤٥٠/١.

ومن الخرافات التي لها تأثيرات سلبية عظيمة على الأطفال والناشئة ، ما يكون من تخويف الأمهات خصوصاً لأبنائهن بالسعالي والأغوال وغيرها من المختلقات.

ومن ذلك «حديثهن عن المارد الذي يظهر ليلاً للإنسان ، ويسد عليه الطريق من الجهات الأربع بحائط. وعن المزيرة التي هي جنية ، وكل جسمها إبر ومسامير تظهر بزي امرأة جميلة مزينة ، ومرتدية إزاراً أبيض كالثلج ، إذا قرب منها الإنسان تضمه إليها ، وتختفي به فلا يعود أبداً.

و«بمثل هذه الخرافات التي يخوف بها الأطفال ، ينمو في أذهانهم الجبن والرعب ، فلا يمكنهم الانتقال ليلاً أو نهاراً خطوة واحدة ، إلا مع أحد خوفاً من حادث يفزعهم ، ولو كان شخصاً مقبلاً عليهم من بعيد [(١)] .

ومن الخرافات أيضاً : «أنه إذا ماتت الزوجة ، ثم تزوج بعدها زوجها بامرأة أخرى أنهم يرشون الماء على قبرها ، زاعمين أن ذلك يطفيء حرارة الغيرة!![(٢)]

ومنها : «أن المرأة النفساء إذا لقيت مثلها قبل شهر الوضع ، وحملت إحداهما قبل الأخرى ، تعتقد التي تأخر حبلها أن التي سبقتها بالحبل هي التي كبستها [(٣)] فتأخر حملها. ولكي تحمل تطلب منها أن تجرح لها اصبعاً من أصابع يديها ، لتلحس دمها ، وبذلك تزول الكبسة وتحمل!!» .

ومنها : «أن الوالدة لا يصح أن تفارق موضع الولادة مدة أسبوع ، ولا أن تترك المولود وحده فيه ، يزعمن أنها إن تركته وحده (ينبدل) أي أن الجن تأخذه وتأتي بغيره ، وإذا أصيب المولود بنحول في السنة الأولى تقول النساء : إنه مبدول أو موحود ، أي أن ذلك النحول من أجل أن أمه كانت تركته وحده قبل السبوع» [(٤)] .

ومن خرافاتهم أيضاً : «صعود المرأة العقيم أو التي تأخر حملها على المنارة ، زاعمين أن ذلك يورث الحمل» [(٥)] .

ومن خرافاتهم : «أنهم يضعون شيئاً من الخبز والملح والماء مع الميت في القبر عند دفنه ، زاعمين أنه يتناول منه مع الملائكة ، فتكرمه عند السؤال» [(٦)] . نعوذ بالله من الخذلان

---

(١) الإبداع في مضار الابتداع ص٤٢٩.
(٢) المصدر السابق ص٤٣٥.
(٣) المصدر السابق ص٤٣٦. والكبسة كما عرفها صاحب الابداع هي : امتناع اللبن من النزول للرضيع.
(٤) المصدر السابق ص٤٣٦.
(٥) المصدر السابق ص٤٣٧.
(٦) المصدر السابق ص٤٣٩.حتى يصبح بينه وبين الملائكة كما تقول العامة عيش وملح.

وحتى الحيوانات لم تسلم من خرافاتهم. ومن ذلك اعتقادهم أن السلحفاة أصلها امرأة أنكرت الرحا من جارتها ، فمسخها الله إلى هذه الصورة [١] .

لقد كانت حياة كثير من المسلمين أسيرة لهذه الخرافات والأساطير ، تسيح أرواحهم وعقولهم في نطاقها الواسع ، ويعيشون معها كما لو كانت حقائق قائمة.

وخلاصة القول في هذا الفصل أن الأمة في تلك الفترة كانت غارقة في عبادة الأضرحة ، والتعلق بها من دون الله عز وجل ، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات، التي ملأت عليها حياتها، وشغلت أوقاتها ، وقتلت طاقاتها ، وصرفت جهودها عن طريقها الصحيح،. فكيف يمكن لأمة ـ حالها بعض ما ذكرنا ـ أن تحاول النهوض من كبوتها ، وتعالج أسباب انحطاطها . وكيف يمكن لها أن تصمد أمام جيوش الأعداء ، أو أن تقف أمام مخططاتهم ومؤامراتهم؟!.

* * *

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٨.

الفصل السابع : الصوفية في هذين القرنين

لعل أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية بلا مبالغة هو الصوفية ، التي كان لها من الآثار الخطيرة المدمرة ما جعل الأمة تتردى في وهدات سحيقة ، وكانت تلك الآثار وحدها كفيلة بالقضاء عليها ، فكيف إذا اجتمع عليها ما ذكرناه وما سنذكره من انحرافات أخرى ، ولكن الله عز وجل قد قضى بالبقاء لهذه الأمة ، بحفظ دينها وكتابها ، وهذا هو السر في بقائها رغم الضربات العنيفة التي كانت تتلقاها ، والاختلالات الحادة التي كانت تعاني منها. وسيكون حديثنا عن الصوفية من عدة أمور :

أولاً : نشأة الصوفية :

ليس من مجال بحثنا أن نتوسع في كيفية نشأة الصوفية والعوامل التي ساعدت في تلك النشأة، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نقدم بين يدي حديثنا عن الصوفية بمقدمة سريعة ، نلقي بها بعض الضوء على تلك القضية.

يذكر ابن خلدون أن نشأة التصوف كانت في القرن الثاني الهجري عندما أقبل الناس على الدنيا ، وانصرف أناس للزهد والعبادة فسموا بالصوفية.(١)

ويرى الشيخ محمد قطب أن الصوفية نشأت كرد فعل للترف الذي غشي المجتمع العباسي ، وذلك أن بعض الصالحين قد هالهم الفساد الذي كان يسري في المجتمع من الترف والمجون والانصراف عن ذكر الله وعن الآخرة ، فأرادوا أن ينجوا بأنفسهم ، فابتعدوا عن الناس وانعزلوا عن هذا المجتمع الفاسد ، ليعيشوا حياة نقية طاهرة مع الله».(٢)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن الصوفية نسبة إلى لبس الصوف ، وإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة لصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي ، وعبادة بصرية.(٣)

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٦٧. دار إحياء التراث العربي . بيروت. الطبعة الرابعة.

(٢) واقعنا المعاصر ص١٣٩.

(٣) مجموع الفتاوى ١١/٦ـ١٦.

هؤلاء المنعزلون كانوا يسمون بالعباد والزهاد. «ويبدو أن من أسباب ظهورهم هو إقبال الناس على الدنيا يجمعون منها ، ويتفاخرون ، فكانت ردة الفعل عند البعض هي الابتعاد الكلي عنها».(١)

«ثم حدثت مرحلة انتقالية بين هذا الزهد المشروع وبين التصوف حين أصبح له تآليف خاصة ، ويمثل هذه النقلة مالك بن دينار فنراه يدعو إلى أمور ليست عند الزهاد السابقين ، منها التجرد ، أي ترك الزواج ، وهو نفسه امتنع وكان يقول : لا يبلغ الرجل منزلة الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة ويأوي مزابل الكلاب».(٢)

«وفي هذه المرحلة الانتقالية استحدثت كلمة العشق للتعبير عن المحبة بين العبد والرب ، وبدأ الكلام حول العبادة لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار ، وإنما قصد الحب الإلهي. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ملاحظا هذا التطور : في أواخر عهد التابعين حدث ثلاثة أشياء : الرأي والكلام والتصوف .... وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة .... وظهر أحمد بن علي الهجيمي وبنى دويرة للصوفية وهي أول ما بني في الإسلام ، وصار لهم من التعبد المحدث طريق يتمسكون به ، مع تمسكهم بغالب التعبد المشروع ، وصار لهم حال من السماع والصوت.

كما لخص هذا التطور الإمام ابن الجوزي فقال : في عصر الرسول ﷺ كانت كلمة مؤمن ومسلم ، ثم نشأت كلمة زاهد وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، هكذا كان أوائل القوم ، ولبس عليهم إبليس أشياء ، ثم على من بعدهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن.(٣)

ويتحدث الإمام الشوكاني عن لقب «المتصوفة» فيقول : «قد كان أول الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ ، ومشى على هدى الشريعة المطهرة ، وأعرض عن الدنيا ، وصد عن زينتها ، ولم يغتر ببهجتها ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقاً إلى الدنيا ، ومدرجاً إلى التلاعب بأحكام الشرع ، ومسلكاً إلى أبواب اللهو والخلاعة ، ثم جعلوا لهم شيخاً يعلمهم كيفية السلوك».(٤) وإن كان ماذكره الشوكاني يربط بين بداية التصوف وما آل إليه بعد ذلك .

وهذه قاعدة تكاد تكون مطردة في غالب البدع ، إذ أنها تبدأ صغيرة ، وتبدو لأول وهلة أنها من صميم الدين ، وما تزال مع مرور الزمن تكبر شيئاً فشيئاً ، ويشتد انحرافها ، وتتسع دائرة الانحراف ، إلى أن يأذن الله في انحسارها وذهابها.

---

(١) دراسات في الفرقة : الصوفية ص١٧ محمد العبدة. طارق عبد الحليم. مكتبة الكوثر الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م.

(٢) المصدر السابق ص١٧ .

(٣) المصدر السابق ص١٨.

(٤) أدب الطلب ص١٧٢.

«ويمكن تقسيم هذا التطور إلى ثلاث مراحل : أوائل الصوفية ومن مشى على طريقتهم ، ثم تقيد الصوفية بمصطلحات خاصة ، ثم دخول الفلسفة الغنوصية وظهور نظريات الاتحاد ووحدة الوجود. هذه المراحل . . . ليست منفصلة عن بعضها وغير محددة بزمن معين . . . فكان الغالب على بدايات التصوف الاعتدال وعدم الغلو ثم إن التصوف بلغ قمة الانحراف في القرن السابع على يد ابن عربي وابن الفارض وأمثالهما».(١) على أن الذي يهمنا من ذلك كله أن الصوفية قد مرت بمراحل متداخلة ، ومع هذا الانتقال كانت انحرافاتها تزداد شدة ، وبعداً عن الدين.(٢)

أما الصوفية التي سوف نتحدث عنها إن شاء الله تعالى في الفترة المدروسة ، فقد كانت خليطاً متبايناً من جميع تلك المراحل التي مرت بها. وكانت الصوفية في تلك الفترة تمثل قمة الانحراف والضلال والفساد كما سنرى.

ثانياً : أسباب انتشار الصوفية :

هذه الأسباب ليست محصورة فقط في الفترة التي ندرسها ، ولكنها قد ازدادت قوتها وآتت ثمارها كاملة في تلك الفترة. ونحن نذكر بعض هذه الأسباب :-

١ - الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية ، والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة ، من انتشار التخلف والظلم والطغيان والفقر والمرض والجهل كل ذلك جعل الناس يرتمون في أحضان الصوفية ، التي لا تقوم بأكثر من التربيت عليهم ، والتخدير لهم ، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

---

(١) دراسات في الفرق : الصوفية ص١٨.

(٢) والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ذلك : لماذا سميت الصوفية. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عدة أقوال في ذلك ، ومال إلى أنها نسبة إلى لبس الصوف كما تقدم. وضعف الأقوال الأخرى كالقول بأنها نسبة إلى أهل الصفة ، أو الصف ، أو الصفوة من خلق الله ، أو نسبة إلى صوفة بن بشر بن أود بن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم . مجموع الفتاوى ٦/١١.

وقد ذهب البيروني إلى أنها نسبة إلى «السوفية وهم الحكماء القائلون بوحدة الوجود وأن الصوفية هم أول من أدخل ذلك في الإسلام فسموا باسمهم.

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص٢٤.

وبناء على هذا القول تكون الصوفية قد نشأت منحرفة منذ بدايتها ، ومما يقوي هذا ظهور الانحراف العظيم فيها مبكراً. فالحلاج صاحب القول بالحلول كان ظهور دعوته في أواخر القرن الثالث الهجري ، فقد صلب على الزندقة عام ٣٠٩هـ. وكان جده مجوسياً. انظر ترجمته في تاريخ بغداد ١١٢/٨ وفي سير أعلام النبلاء ٣١٣/١٤. ويقويه كذلك أن غالب عقائد الصوفية مستوحاة من النصرانية والمجوسية واليهودية والهندوكية. وهو قول له نصيب كبير من الوجاهة والقوة ، والقضية ما زالت بحاجة إلى بحث وتحقيق.

«لقد ضاق العالم الإسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوي عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانتهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند نفر من أهله ، بتصور مملكة باطنية وراء الدنيا التي تعيش في رحابها وتكرع من آثامها وشرورها. وكان طبيعياً بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام، فصنفهم بطريقة تعسفية في طبقات تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار والنقباء والنجباء والأبدال ... وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر الحياة في هذه المملكة الباطنية ، ويسيرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون الناس خيراً عما يلقونه من شر دنياهم..».(١)

فالأحوال السيئة التي عاشها المسلمون في الماضي ، جعلتهم يقبلون على التصوف ، ويلتفون حول رجاله، علهم يجدون عندهم خلاصاً مما نزل بهم من ظلم فادح، أو يجدون عندهم حلولاً لمشكلاتهم المستعصية من فقر مدقع ، أو مرض مستفحل ، وعاهة مزمنة.

وهنا يبرز سؤال مهم وهو : لماذا كان الإقبال شديداً على المتصوفة دون غيرهم ؟ أو بعبارة أخرى . لماذا كان اللجوء إلى المتصوفة دون الفقهاء والمتكلمين؟ وليس من داع للإطالة في الجواب ، فإن الجفاف الذي أصاب مناهج الفقه والعقيدة ، وبالتالي انعكاس ذلك على علمائهما كان حائلاً بينهم وبين الجماهير المحرومة المضطهدة ، التي كانت تتطلع إلى من يقف بجانبها ، ويساندها في المحن التي تعصف بها ، ولكن الفقهاء والمتكلمين كانوا منهمكين في مسائل جافة ، وأطروحات عقيمة ، على الأقل بالنسبة لهذه الجماهير المحرومة ولا يلتفت أحد منهم إليهم. أو يحاول الوقوف معهم في ما يتعرضون له من أزمات. بينما كان المتصوفة ينشرون عقائدهم ودعاياتهم التي لم يكن فيها من الجفاف ما كان عند الفقهاء والمتكلمين ، بل هي على العكس تماماً ، حيث تتوافق مع رغبات العامة وما يحلمون به من حياة هنيئة ، وعيش رغيد . ومن ذلك ادعاء الصوفية : «بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص١٢٤ . د. توفيق الطويل. مطبعة الاعتماد. الناشر مكتبة الآداب بالجماميز. ط ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.

وانظر حول ذلك : الحكومة الباطنية ص ٣٦ - ٤٩ موضوع (رئيس الحكومة الباطنية . القطب الغوث) وموضوع (أعضاء الحكومة الباطنية) ص ٥٠ - ٦٢ للصوفي الدكتور حسن محمد الشرقاوي.

وقد ذكر أن مؤلفه هذا حاز إعجاب شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود ، وليس ذلك بغريب على شيخ الأزهر الراحل الذي يعد من كبار زعماء الصوفية في العصر الحاضر. وفي الكتاب حشد من المغالطات والأباطيل - كما سبق أن ذكرنا - ، ويخرج القارئ له بأن الصوفية بخرافاتها وانحرافاتها هي الإسلام. وذلك بعد أن سلك صاحبه سبل التأويل ، وأغضى عن كل عيوب الصوفية التي نفاها في كثير من المواضع.

والعمل بما يرضي الله ، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأساً من غير واسطة واستمد منه ـ تعالى ـ القوة التي ترفعه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات..»[١] وتهافت الناس إلى زوايا الصوفية وشيوخها ، هاربين من الجحيم الذي يعيشون فيه ، ليجدوا عندهم خلاصاً وفكاكاً مما كان يقع عليهم كما يتوهمون. وكان كلما ازداد الواقع مرارة ، تسارع الناس إلى الصوفية ، وأمعنوا في تصديق تلفيقاتها وأكاذيبها . هذا بالإضافة إلى تبني كثير من علماء الكلام والفقه للتصوف واقتداء العوام بهم ، واستخدام هؤلاء المتصوفة أساليب شيطانية تقوم على خداع الناس وإخضاعهم بالترغيب لمن ينساق خلفهم والترهيب من مخالفتهم .

وباختصار فإن غياب العلماء الربانيين عن الساحة الإسلامية ، جعل الجماهير المسلمة تتدفق إلى رحاب الصوفية ، وتنزلق في دركاتها ، لأنه لم يكن في الساحة غيرها .

٢ ـ أمن أهل الطريق وطمأنينتهم في أزمنة الشدة : في القرون المتأخرة وخاصة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ، كانت حياة المسلمين مضطرمة بالفتن والأزمات ، وعرضة لكثير من ضروب الطغيان وصور الظلم ، وكان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات تلك العصور ، حيث تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون أسباب في بعض الأحيان ، وفي هذه الأجواء الحالكة ، والظروف العصيبة ، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان ، بعيدة عن غوائل الفتن التي كانت تغتال الأفراد ، وتصيب المجتمعات.

فكثيراً ما كان يقوم الناس في الأزمات بارتداء ملابس المجاورين لينجوا بأنفسهم من الأخطار التي كانت ستنالهم خلال تلك الأزمات لو كانوا من عامة الناس.[٢] و«قد كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم والتجار في متاجرهم والصناع في مصانعهم ، فقد كانوا .. في أمان من تطبيق القوانين ...... وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود[٣] كانوا يخافون بأسهم ، ويخشون سلطانهم الروحي ويؤمنون باتصالهم بالله فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال».[٤]

٣ ـ الترف في معيشة أرباب الطريق : بالإضافة إلى الأمن والطمأنينية التي كان يتمتع بهما المتصوفة في رحاب زواياهم ، وفي الوقت الذي كان ينحسر الرخاء فيه عن البلاد وتحل الأزمات

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص٥٥.

(٢) عجائب الآثار ١٢/٢.

(٣) كان الجنود العسكريون هم مصدر أغلب الثورات والفتن والأزمات في تلك الفترة.

(٤) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٥٢ ـ ١٥٤.

الاقتصادية ، والنكبات السياسية ، وينتشر الجوع والفقر في أوساط الناس ، «كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه . بل كانوا يعيشون في الزوايا ، طاعمين كاسين ، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله، ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف..»[١] وبسبب المعيشة التي كان يتمتع بها أرباب الطرق في زمن الشدة والجوع اتكالاً على الأوقاف والهبات التي كانت تنهال عليهم ، رغب الناس في طرقهم ، والعيش في زواياهم ، ليظفروا بذلك المستوى من المعيشة الذي لم يكن متوفراً لغيرهم من قطاعات المجتمع الأخرى.

٤ ـ حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف : «كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم».[٢]

ويذكر الجبرتي أن الأتراك يميلون إلى الدراويش وذلك حين تحدث عن تجديد التكية البكتاشية التي قام بتجديدها رجل من الدراويش ، بعد أن طلب مساعدة الوالي التركي في مصر حسن باشا ، الذي لبى طلبه على الفور ، وسارع بتقديم الأموال اللازمة لذلك. وصار ذلك الدرويش كما يقول الجبرتي : «من أخصائه لكونه من أهل عقيدته».[٣]

وفي حلب قام واليها التركي بإجراء قناة للماء إلى الزاوية الهلالية ، التي كان يقيم بها الصوفي محمد بن هلال ، لأنه كان عند الوالي المذكور محبوباً ومعتقداً.[٤]

ومن ذلك إعفاء العثمانيين لأتباع بعض الطرق الصوفية من الخدمة العسكرية[٥] ، وجعل الناس يبادرون بالانضواء إلى تلك الطرق ، فراراً من مشاق الخدمة العسكرية.

«لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي ، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع ، أما في ظل الدولة العثمانية ، وفي تركيا بالذات ، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين ، وانتشرت ـ في القرنين الأخيرين بصفة خاصة ـ تلك القولة العجيبة : من لا شيخ له فشيخه الشيطان! وأصبحت ـ بالنسبة للعامة بصورة خاصة ـ هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين!!...».[٦]

---

(١) المصدر السابق ص١٥٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٥٤.
(٣) عجائب الآثار ٢/٢٨.
(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٦٩.
(٥) تاريخ معرة النعمان ١/٢٦٠.
(٦) واقعنا المعاصر ص ١٥٥.

إن التصوف في العصر العثماني كان في اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل أمره ، واستشرى داؤه ، واستبد بعواطف الناس ، وكان أكبر العوامل في توجيه حياتهم في هذا العهد وما بعده.[١]

وقد كان كثير من سلاطين بني عثمان يقومون برعاية الصوفية ، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم ، حتى جاء السلطان عبد الحميد الثاني إلى عرش السلطنة في ظروف عصيبة ، والمؤامرات تحاك للأمة ، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان ، ودعاة القومية والتفرقة يبثون في سائر البلاد، فدعا كما هو معروف إلى الجامعة الأسلامية ، والرابطة الدينية ، وكانت الصوفية هي محور الجامعة التي نادى بها عبد الحميد الذي نشأ صوفياً. «وقد أفاد عبد الحميد من نزعته الصوفية - بدون شك - فاستقطب الدراويش ، وتقرب إلى العامة والبسطاء ، كما أكرم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية ، وقرب النابغين من رجالات هذه الفرق».[٢]

ويمكن القول بأن السلطان عبد الحميد اعتمد على الصوفية في دعوته إلى الجامعة الإسلامية لما رآه من انتشارها ونفوذها بين الناس ، كما أن ذلك الاعتماد والتبني قد زاد من انتشار الصوفية وتغلغلها في أوساط المسلمين.

وعلى العموم يمكننا مطمئنين أن نطلق على ذلك العصر الذي نحن بصدد دراسته أنه عصر الصوفية، فقد أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ولم تبق مدينة ولا قرية إلا دخلتها[٣]

يقول أحد مفكري الهند : «لم تكن في الهند إلا فكرة التصوف الباطل ، ولم تخل قرية أو مدينة من الزوايا». ويقول أيضاً : «ومن أكبر البليات في الهند أن العامة والخاصة كلهم كانوا مصطبغين بصبغة التصوف حتى بلغ بهم الأمر إلى أنهم ما كانوا يقبلون شيئاً إلا إذا كان مسكوباً في قالبه».[٤]

ومثل هذا يقال في أغلب البلدان الإسلامية إلى حد كبير. وحسبنا أن نعلم ، أن عدد أتباع الطريقة الشاذلية وحدها قد بلغ عام ١٩٨٢م أكثر من أربعين مليونا،[٥] وقد بلغ أتباع الطريقة التجانية في نيجيريا وحدها أكثر من عشرة ملايين شخص. وذلك عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.[٦]

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص١١.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص١٢١. موفق المرجة ، الناشر مؤسسة صقر الخليج للطباعة. الكويت ١٩٨٤م. مطابع دار الكويت للصحافة «الأنباء» الكويت.

(٣) إلا إذا استثنينا نجداً وملحقاتها.

(٤) الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية ص١١٤.

(٥) ذكر هذه الإحصائية الدكتور زكي بدوي مستشار المركز الإسلامي بلندن والأمين العام للمجلس الأعلى للشاذلية. انظر : السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية ص ١٢٢.

(٦) التجانية ص   علي بن محمد الدخيل الله ، دار طيبة ، الرياض.

ثالثاً : نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي :

استطاعت الصوفية أن تسيطر على العالم الإسلامي في تلك الفترة ، ووقع جمهور المسلمين في أسرها. وعظم سلطان المتصوفة في ذينك القرنين ، وبلغ مبلغاً عظيماً ، ولو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى ، فكيف إذا تبنته الدول ، وناصره الحكام. وهيىء لأرباب التصوف من النفوذ والسلطان ما جعل بعض الباحثين وهو الدكتور توفيق الطويل يقيم دراسته للتصوف في مصر إبان العصر العثماني على أساس أنه دولة متكاملة بكل ما تتطلبه الدول من عناصر ومظاهر ، وما يصاحبها من أبهة ونفوذ.[1] وقد أطلق على هذه الدولة اسم : «دولة الفقراء» التي وصف نفوذها بقوله : «ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدماً وأعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بني عثمان ـ تلك الدولة التي كانت مطامع المماليك ـ ولا سيما في النصف الأخير من العصر العثماني ـ تثير فيها القلق والاضطراب ، بل لقد كانت فرق الجيش التي جاءت في ركابها لحمايتها من كل عدوان في نزاع يكاد يكون دائماً ، وحرب يوشك[2] أن يكون متصلاً ، وكان «الأعراب» في غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب في رأسها ، ويشيعون الفزع في نفسها. وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقة الخاطر نابية المضجع تنفق وقتها في تدمير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد ، أما دولة الفقراء فقد عاشت في جو عامر بالاطمئنان ، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها ، لا تهتز لانكار المنكرين ـ وما كان أضعف نفوذهم ـ فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول ، ورفرف علمها في كل مكان دون جهد ملموس ، وذلك لأن «روح العصر» بما كان يسود ، من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الأمن وظلم الحكام ، عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس».[3]

وليس فيما ذهب إليه الدكتور الطويل مبالغة ، خصوصاً إذا عرفنا أن هؤلاء المتصوفة قد سيطروا على الدولة العثمانية نفسها ، واتخذوها مطية لنشر مذهبهم.

ويذكر محمد بن علي السنوسي أن السلطان عبد الحميد كان قد قرب إليه ثلاثة من كبار

---

(١) سبق أن ذكرنا كتاب «الحكومة الباطنية» للدكتور الشرقاوي. وتسمية الكتاب جاءت تعبيراً صادقاً عما تتمتع به الصوفية من نفوذ . وقد سبقه الدكتور الطويل إلى تلك الفكرة التي لا أدري أكانت من ابتكاره ، أو أن يكون قد سبق إليها . مع الفارق بين كتابيهما ، إذ يمتاز كتاب الدكتور الطويل بالنقد المفيد الهادىء ، بينما كان الاطراء والمدح على النقيض عند الدكتور الشرقاوي.

(٢) جاء في مختار الصحاح : الحرب مؤنثة وقد تذكر ص٥٤.

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص١٠٩.

المتصوفة في ذلك العصر وهم : الشيخ محمد ظافر المدني الشاذلي (المتوفى سنة ١٣٢١هـ)(١)، والشيخ أحمد أسعد المدني (المتوفى سنة ١٣١٤هـ)(٢) ، والشيخ أبو الهدى الصيادي (المتوفى سنة ١٣٢٨هـ)(٣) ويقول : «ولهؤلاء الثلاثة مقام سام في السلطنة العثمانية يومئذ ، مع نفوذ في جميع الدوائر»(٤) فأبو الهدى الصيادي كانت له عند السلطان الكلمة النافذة في نصب القضاة والمفتين.(٥) واستطاع بما حازه من نفوذ أن ينشر الطريقة الرفاعية وأن يبني من مال الدولة كثيراً من التكايا والزوايا والأضرحة في حماة والمعرة وغيرها(٦) . والشيخ محمد ظافر استطاع أن ينشر الطريقة الشاذلية في كثير من الأمصار ، وكان لنفوذه في الدولة ولا شك دور كبير في ذلك.

لقد أدرك المتصوفة من النفوذ والسلطان ما جعل التعدي عليهم سبباً في اندلاع الثورات وتنازع الدول . فعندما قام باي وهران بقتل بعض الطائفة الدرقاوية والقبض على بعضهم ، قامت القبائل بثورة عارمة ضد الترك الحاكمين ، وقتل فيها الكثير ، وكادت أن تقع الحرب بين سلطان المغرب وصاحب الجزائر من أجل ذلك .(٧)

وكان كثير من الثائرين السياسيين يتخذون من التصوف شعاراً لثوراتهم. وهو شعار كان يستهوي الجماهير في تلك الفترة ، ويسرق ألبابهم ، فتنساق وراء من يحمل ذلك الشعار فهذا علي بن غذاهم الذي ادعى أنه ولي صالح للطريقة التجانية ، وتبعته الجموع ، وقام بثورته عام ١٢٨٠هـ-١٨٦٤م كاد أن يطيح بحكم الباي في تونس ، وينفرد بحكم البلاد وذلك بسبب نفوذه الروحي.(٨)

وهذا الثائر محمد بن علي الإدريسي الذي أقام دولة في المخلاف السليماني في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، كان في بداية أمره متصوفاً. يقول عن نفسه : (والناس يسعون إلى بابي أفواجاً أفواجاً ، لتلقين الذكر والتزام الطاعة الواجبة ، والتوبة مما هم عليه والامتثال لما يقربهم من الله).(٩) وقد استغل مكانة جده الصوفي الشهير أحمد بن إدريس الذي يأتي الحديث عليه ، المتوفى في صبيا ، واستغل سذاجة القبائل هناك.

---

(١) شجرة النور الزكية ص٤١١. الأعلام ٧/٧٦ وهو مغربي الأصل والنشأة ، ولكنه سكن المدينة فسمي بالمدني.
(٢) حلية البشر ٢١٢/١.
(٣) الأعلام ٩٤/٦.
(٤) الرحلة الحجازية ١٠٣/٢.
(٥) الأعلام ٩٤/٦.
(٦) تاريخ معرة النعمان ٢٢٥/٢.
(٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٤٠/٤.
(٨) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص٢١.
(٩) المخلاف السليماني تحت حكم الأدراسة ص ١٠١ رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم التاريخ الإسلامي ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى لعام ١٤٠٦هـ للدكتورة أميرة مداح.

وقد أشرنا سابقاً إلى ما قام به المدعو أبو حمارة من ثورة عنيفة في المغرب ، وكان لتوجه الصوفي أكبر الأثر في استفحال ثورته ، وانتصاره على الجيش المغربي في مواطن كثيرة.(١)

ويعتبر الدكتور الطويل من مظاهر نفوذهم تحررهم من عرف البلاد ودينها ، حيث بلغ من سلطان المتصوفة في ذلك الزمن أنهم تمردوا على أوامر الدين ونواهيه ، وخالفوا العادات والتقاليد.

فقد كان الناس ينظرون إلى من يسمى من الصوفية بالأولياء نظرة إجلال وإكبار ، بل كانوا يرونهم فوق أحكام الدين ، وفوق مستوى البشر ، فلا غرابة بعد ذلك من سكوتهم على ما كان يرتكبه هؤلاء الأولياء من فظائع ومجون ، كارتكابهم الفواحش مع النساء على قارعة الطريق ، وتعريهم في الشوارع والأماكن العامة. في الوقت الذي كان الناس فيه محافظين على العرف والتقاليد بشكل يقوم على التعصب الشديد. وأخذ الخارجين على الشعائر بالحساب العسير. «إذ بينما نرى هذا التهاون المفزع في حساب من يعتبرون أولياء ، نرى الطالب الذي لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي مماليك السلطان حتى يمضي إلى تحطيمها ، ويعرض نفسه للهلاك دفاعاً عن دينه . ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات في رمضان : من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح . .. .. . ونرى كيف يرضون على قتل المرأة العاهر جزاءاً وفاقاً ...... وأمثال هذه «الحوادث».(٢)

أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف - وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف - وقد كان الناس يقابلون هذا الاستهتار بالرضا والاغتباط ، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنه التكاليف الدينية فجاز لهم ما حرم على غيرهم ، يهملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشيء من فروض الدين وشعائره ، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشيء من نواهيه ، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته ...... فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين(٣) قد أحلت لهم ، فاستباحوا المحرمات على مرأى من الناس ، ولم يجدوا من شدة الانكار ما يخيفهم أو يردهم عن غيهم ويوجههم إلى أقوم سبيل».(٤)

وفي الوقت الذي كان فيه ظلم الحكام يتفاقم ، بمضاعفة الضرائب والمغارم على المسلمين ، كان هؤلاء المتصوفة بمنأى عن كل هذا ، فلا ظلم الحكام يمكن أن يطولهم ، ولا الضرائب والمغارم يمكن

---

(١) وسوف يأتي الحديث عنه بشكل أوسع عند حديثنا عن الصوفية وموقفهم من الاستعمار والجهاد. انظر : ص٣٢٦ من هذه الرسالة .

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١٤.

(٣) لعله يقصد الرذائل التي ينهى عنها الدين.

(٤) المصدر السابق ص١١٥.

أن تلحق بهم ، فقد كان الحكام يعفون الأولياء والمتصوفة من الضرائب في كثير من الأحيان. ويرون أن أخذها منهم من الكبائر ، كما هو حالهم مع شيخ السادات أبي الأنوار.[١]

ولم تقف الدولة من الأولياء عند حد الإعفاء من الضرائب ، بل إنها كثيراً ما كانت تمد لهم يد العون والمساعدة ، وتغدق عليهم الأموال لأجل تعمير زواياهم ، كما حدث للشيخ السادات حين أراد تعمير زاوية أسلافه ، وكلم الوالي في ذلك ، فكتب إلى الدولة وسرعان ما جاء الرد بإعطائه خمسين كيساً من خزينة مصر ، ثم أعطى خمسين أخرى ، وليس ذلك فقط ، بل تم رفع ما على القرى التابعة للشيخ السادات من ضرائب.[٢]

«والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني - أي في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغي الجنود ، وأرهقت الضرائب الجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة ، وكثرت الأتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس ، وبينما كان الضنك يتمشى في البلاد طولاً وعرضاً ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي في حوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاوريها».[٣]

وبلغ من نفوذ المتصوفة أن أحد مدعى الولاية يدعى الشيخ سليمان كان يرسل أوامره إلى أهالي القرى في أوراق كتب عليها : «الذي نعلم به أهل القرية الفلانية حال وصول الورقة إليكم تدفعون لحاملها خمسة أرادب قمح أو أقل أو أكثر برسم طعام الفقراء ...» فلا يتأخرون عن إرسال المطلوب في الحال. واجتمع لديه من المردان حوالي المائة وستين أمرد ، وغالبهم أولاد مشايخ البلاد ، وكان إذا بلغه أن بالبلد الفلانية غلاماً وسيم الصورة أرسل بطلبه فيحضرونه إليه في الحال ، ولو كان ابن عظيم البلدة ، وعمل للمردان عقوداً من الخرز الملون في أعناقهم ، ولبعضهم أقراطاً في أذانهم.[٤]

«وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم ، وتخشى بأسهم ، وتهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانوناً بنفي كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيبون لشفاعتهم - بالغاً ما بلغ خروجها على أبسط مبادىء العدالة - وقلما يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاعة عند الحكام والأمراء...».[٥]

---

(١) عجائب الآثار ٤١٩/٣.

(٢) المصدر السابق ٤١٩/٣.

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١١٨.

(٤) عجائب الآثار ٢١١/٣.

(٥) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص١٢١.

وكان الفقراء ومن يلوذ بهم في مأمن من سطوة الحكام وبأسهم مهما خالفوا أنظمة البلاد ، واستخفوا بدينها وأعرافها.

بل لقد كانت لهم قوانين خاصة يحتكمون إليها ، وتفصل المنازعات على ضوئها والمرجع الأعلى في ذلك هو شيخ مشايخ الطرق الصوفية. وقد ذكر الجبرتي أن الشيخ محمد أبا السعود البكري (المتوفى سنة ١٢٢٧هـ) كان يتحاكم لديه خلفاء الطرق الصوفية على مقتضى قوانينهم المعتادة.(١)

وفي دفترخان السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجوري شيخاً للجامع الأزهر (سنة ١٢٦٣هـ) وفيه تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم وقد جاء في هذ الصك ما نصه «وإذا رفع إليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكري كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى الحاكم المذكور حكم الأصول السالفة ...... لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعاً لعدم تعدي أحد على أحد». وكأن البلد خلو من القوانين التي تصون الحقوق وترعى العهود وتحفظ الحريات وتذود عن الحرمات.(٢)

وفي مصر انتشر الأولياء في أرضها وفشا أمرهم بين أهلها ، واقتسموا مناطقها ، وأصبح كل قسم منطقة نفوذ لولي منهم يتصرف في أهلها ويستغل غلاتها ، ويقيم الولائم في بيوت ملاكها ، ويطالبهم بالإتاوات وينظم منها موالد الأولياء. وكان الناس يخفون إليهم سراعاً ، ويستجيبون لمطالبهم راضين مغتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل في اكتساب البركة ، والظفر بالزلفى إلى الله. والمنطقة التي تخضع لنفوذ الولي تتناسب في سعة مساحتها طردياً مع قدرة هذا الولي على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه ، وقد حرص كل ولي على إقرار نفوذه في منطقته والعمل على توسيع دائراتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.(٣)

ويذكر الدكتور الطويل بعض آفاق نفوذ هؤلاء المتصوفة في مناطقهم فيقول : «كان المتصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه الناس وتكاثر حوله عددهم وسدوا طريقه وانهالوا على يديه وقدميه تقبيلاً ولثماً ..... بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب الناس إليه . اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولداً قد اشتد به الظمأ حتى قتله، فهاله ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه ، وحفر في الأرض بئراً ، وأقام زاوية له ، فسرعان ما تهافت عليه الفقراء وعمروا لهم بيوتاً على كثب من زاويته ، فأضحى المكان القفر قرية عامرة بالفقراء والناس والنزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غزة أو يعودون إليها من هذه البلاد».(٤)

---

(١) عجائب الآثار ٣/٢٨٥.

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٥.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٠.

وفي عام ١٩٣٦م كتب وزير الأوقاف المصري عبد العزيز باشا محمد كتاباً إلى شيخ الأزهر الأستاذ المراغي في شأن البدع الشائعة ، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر ، وتكون مهمتها تمحيص هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا في مصر ، ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين ، وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيخة الأزهر ، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم ، وصدر قرار لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام ، وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت ثائرة الصوفية ، وأرسلت مشيختهم بياناً إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه ؛ لأنه تخطى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشؤون الصوفية دون غيرها من السلطات ثم ختمت بيانها بتوجيه كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر[1]. هذه بعض مظاهر من نفوذ المتصوفة في القرنين الماضيين ، أما نفوذهم عند أتباعهم وبين مريديهم ، فقد آثرنا أن يكون في موضع خاص بذلك الشأن.

رابعاً : نظرة المتصوفة إلى الحياة ومجالاتها :

سبق أن أشرنا إلى أن النظرة الإجمالية التي كان ينظرها المتصوفة إلى الحياة ، من أجل الوصول - كما يقولون - إلى الحضرة الإلهية. وذلك أن الإنسان إذا زهد في الدنيا وأعرض عن ملذاتها ، وانقطع للعبادة والذكر على طريقتهم ، فإن الله عز وجل يوصله إلى حضرته وبالتالي فإنه يصبح في إمكانه خرق العادات ، وإظهار الكرامات. فقد كان الهدف الأسمى ، والغاية القصوى التي يتسابق المتصوفة إلى تحقيقيها هي الوصول إلى الحضرة الإلهية ، وكان الطريق إلى ذلك ، هو ما تمثل في نظرتهم إلى الحياة من استهانة بها وإعراض عن ملذاتها ، واحتقار للسعي فيها. ومن هنا حببوا الخلوة والانقطاع عن الناس والسياحة في البراري والقفار ، وتعذيب النفس بحرمانها مما أحل الله ، وليس ذلك فقط ، بل بالرياضات الشاقة، والمجاهدات المؤلمة.

على أن هناك من الصوفية كما ذكرنا من قبل من استهان بالزهد في الدنيا وأقبل على ملذاتها وشهواتها ، وقد ارتدى كثير منهم جلباب التصوف حتى يجنوا من وراء لبسه مكاسب مادية. ولكن كثيرين منهم كانوا ينظرون إلى الدنيا بمثل تلك النظرة المنحرفة ويزهدون في طلبها والسعي فيها ، لأنهم يصلون إلى كل ما يريدون عن طريق مجاهداتهم ورياضاتهم. وليس عن طريق الكدح في الأرض وبذل الأسباب ، فلم يكن زهدهم كزهد الصوفية الأولين الذين أعرضوا عن الدنيا بالكلية وأقبلوا على الآخرة ، ولكنهم أعرضوا عن العمل الذي يستلزم طاقة وجهداً ، ولجأوا إلى الزهد والذكر والخلوة ، ليصلوا إلى الحضرة الإلهية ، ثم ليتنعموا بعد ذلك كيف يشاؤون.

---

(١) المصدر السابق ص١٨٥ .

وكانت العزلة والخلوة والانقطاع هي الوسيلة المشتركة ، التي حفل بها غالب المتصوفة ، يذكر صاحب «حلية البشر»أن الشاه عبد اللطيف الدهلوي قد اشتغل بالرياضات الشاقة والمجاهدات التامة! وأنه كان كثيراً ما يخرج إلى الصحراء ، فيذكر الله تعالى ويتغذى بالنبات ، وأنه قد بقي مرة أربعين يوماً لم يكتحل طرفه بنوم ، ولم يذق الطعام إلا قليلاً.(١)

وهذا الشيخ عبد الله بن صبغة الله الحيدري مفتي الحنفية في بغداد يترك بلده العراق لأجل شيخه الذي «ترقى على يديه حتى ترك الأهل والوطن ، وذهب مع حضرة الشيخ الإمام إلى السليمانية وإلى دمشق الشام ، وسلك السلوك التام ، وهجر المآكل والملابس والراحة والمنام..».(٢)

وإذا كان الوصول إلى الحضرة هي الغاية السامية التى يطمح لها المتصوفة ، فإنما يتم ذلك غالباً بما يسمونه «الجذبة» وهي : أن يجذب الله الصوفي إلى حضرته ، ويكشف له الحجاب ، ولا تتم إلا بعد رياضات طويلة أو قصيرة (٣)

فالشيخ محمد بن عبد الله الخاني الشافعي النقشبندي دخل الرياضة في جامع العداس بدمشق على يدي شيخه ، «فأدركته جذبة من جذبات الحق التى توازي عمل الثقلين!! ، فحصل له بعد ثلاثة أيام النسبة المعبر عنها بالوصول والفناء و هو دوام مقام الإحسان! ، ولم يزل في ذكر وفكر يترقى إلى أعلى المقامات حتى أتم الأربعينية(٤) ، فأستأذن بالذهاب إلى أهله في حماة فأذن له ، ثم لم يبرح أن عاد فأدخله الرياضة ثانياً ، فلما تمت عاد إلى أهله أيضاً ثم رجع فدخل الرياضة ثالثاً ونفسه متشوقة إلى ختم المقامات والترقي في مقام الأولياء...»(٥)

وما دام أن الجذبة الواحدة توازي عمل الثقلين عند هؤلاء المتصوفة ، فلم العمل النافع والجهاد في سبيل الله ، ولم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلام البذل والبر والعطاء . وتشير هذه النصوص إلى أن الرياضات الشاقة هي السبيل إلى الجذب والوصول ، ومن هنا نستطيع أن نفسر إلى حد كبير تلك النظرة المنحرفة التى كان ينظر بها المتصوفة إلى الحياة ؛ إذ الغاية عندهم هي الوصول والفناء اللذان لا يتمان غالباً إلا بالعزوف عن الحياة وملذاتها ، والإقبال على كل ما يؤذي النفوس ويؤلمها من رياضات شاقة و غيرها . وقد كان كثير من المتصوفة يقيم بمكان واحد ، لا يغادره إلا إلى المقبرة.

---

(١) حلية البشر ٢/٩٢٩.

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٢٥.

(٣) انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية . ص٦٦٥ محمود عبد الرؤوف القاسم . دار الصحابة. لبنان. ط١ سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م. وسيأتي الحديث إن شاء الله عن المجذوبين.

(٤) وهي أربعون يوماً ينقطع الصوفي فيها للذكر.

(٥) حلية البشر ٣/١٢١٢.

ومن هؤلاء الشيخ محمد المصري المجذوب الذي كان يقيم في حجرة من مدرسة قديمة في دمشق ، ولا يخرج منها في ليل ولا في نهار ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً سوى الطعام في بعض الأوقات ، مع أنه كان محبوباً عند الناس».(١)

وكان بعضهم يخرج إلى الغابات كما كان يفعل الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري إذ «كان في بداية أمره يأوي إلى غابة كثيرة الوحوش والسباع ، يعبد الله فيها أياماً ، ثم يرجع إلى أهله يتزود لمثلها ويرجع مكانه ، حتى نادته هواتف العنايات بلطائف الاشارات ، وطابت سريرته واستنارت بصيرته ، وتخلى من أوحاله ، وتحلى بجميع أحواله .... وبعد رجوعه لداره اتخذ لنفسه خلوة في منزله لا يخرج منها إلا لقضاء أوطاره إلا يوم الخميس فإنه جعله لزيارة القاصدين ومذاكرة الواردين .... ثم يعود لخلوته ليلة السبت..»(٢)

وكان بعضهم يختار المغارات ليختلي فيها بنفسه ، كما فعل الشيخ طه بن جمعة الدسوقي (٣).

وكان بعضهم ينقطع في الأدوية والجبال ، كما فعل الشيخ وهبة المشهور بأبي العظام ، نقل أن السبب في تكنيته بأبي العظام ، أنه انقطع في الأودية والجبال نحو سبعة أعوام ، وهو حامل العظام على الدوام..»(٤)

وهذا الأمير عبد القادر الجزائري (المتوفى سنة ١٣٠٠هـ)،(٥) اختلى في غار حراء عام ١٢٧٠هـ، «فبلغ مطلوبه ونال مرغوبه ، وفتحت له كنوز الأسرار ، وكشف له عن رموز الأستار... ثم بعد مدة طلب من حضرة الهمام الشريف صاحب المقام المنيف أحمد أسعد أن يهيىء له محلاً يختلي فيه للعبادة مدة ، فهيأ له المحل الذي كان لسيدنا الصديق قدس الله سره وبابه من المسجد الشريف(٦)، فاختلى فيه شهرين ، وحصل له ما حصل ووصل إلى ما إليه وصل »(٧) ، وقد كان لهذه الخلوات «التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المريد نفسه قبل دخولها ندرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته.... ومن الأدب تيقظ القلب في حضرة الله ، ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب. يقول عمر بن الفارض(٨) :

---

(١) المصدر السابق ٣/١٣٥١.

(٢) المصدر السابق ٣/١٣٧٣.

(٣) المصدر السابق ٢/٧٥٣.

(٤) المصدر السابق ٣/١٥٨٠.

(٥) الأعلام ٤/٤٥.

(٦) وكان ذلك في المدينة المنورة. ولا يلتفت إلى كلامه عن الصديق ، فإنه من تلفيقات الصوفية.

(٧) حلية البشر ٢/٨٩٨.

(٨) من كبار زنادقة المتصوفة القائلين بالاتحاد والحلول توفي سنة ٦٣٢هـ . انظر : سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٦٨ ، والبداية والنهاية ١٣/١٥٤ ، والأعلام ٥/٥٥.

إذا مـابدت ليلى فكـلي أعـين ... وإن هي ناجتني فكلي مسامع

ومن آدابها صفاء النية والرغبة في الكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره وانقطاع المريد عن زوجه وولده وعشيرته وسائر الناس وإدامة تفكيره في شيخه مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين ..... هذا بالإضافة إلى آداب المريد نحو الصور والأشباح التي تتراءى له ، وعلى المريد ألا يكتم عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته مما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه .... وإذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأتت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل ، منها أن يكشف المريد عالم الغيب المحجب ، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ، ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة فيمشي على الماء ويطير في الهواء ويقتحم النيران ويفعل كل ما لا يقوى عليه سائر البشر!

أقام المنزلاوي في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختماً وفي النهار ختماً ثم خرج ينفق من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عداً ، ويتعهد بالإنفاق وجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المارستانات ومد الآسمطة وغير ذلك. وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدرة على الضرب في زحمة الحياة والظفر من الدنيا بأوفى نصيب فالتمسوا في الخيال تحقيق ما يشتهون».(١)

أما التواكل الذي كان يدين به الجمهور الأعظم من المتصوفة فلا نجد مثالاً يدل على مبلغ تأثيره عليهم أبلغ مما فعله أحدهم وهو الشيخ عبد الله الدهلوي حيث يتحدث عن نفسه قائلاً : «وكان لي جهة تعيش فتركتها ، فاشتدت عرى الفاقة علي فاعتصمت بالتوكل! واتخذته سجية ، ولم يكن يومئذ عندي غير خلق حصير أفترشها ، ولبنة أتوسدها ، فبلغ بي الضعف أقصاه ، فلفرط ما نالني أغلقت باب حجرتي ، وقلت : هذا قبري حتى يأذن الله بالفتح أو بأمر من عنده فما لبثت أن فتح الله تعالى على يد من لا أعرفه ، فمكثت في زاوية القناعة خمسين سنة».(٢) فقد ترك هذا الصوفي مصدر الرزق الوحيد الذي كان يتعيش منه ، واعتكف في حجرة ، فاشتدت فاقته وعظمت حاجته، فاعتصم بالتواكل فلم يسعفه ، حتى أيقن بالهلكة من الجوع ومع ذلك لم يفكر في الخروج مما هو فيه من ضنك ومشقة وإشراف على الهلاك ، اعتقاداً أن ذلك منه طعن في التوكل على الله ، ومع ذلك فقد أصر على البقاء على حاله تلك حتى يفتح الله عليه أو يموت معتصماً بالتواكل ، وربما شهيداً لم يعترض على القدر المحتوم. وقد كاد يهلك لولا أن من الله عليه بالفتح ، وقد كان ذلك الفتح عبارة عن أحد المتصدقين. وذلك أنه «لما أغلق باب الحجرة ، وقال ما قال أدركته العناية الإلهية ، فجاءه شخص وقال له : أفتح

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٨.

(٢) حلية البشر ٩٣٠/٢.

الباب ، فقال : لا أفتح ، فقال له : إن لي معك شغلاً فافتح لي ، فلم يفعل ، فألقى له من خصاص الباب جملة من الدراهم الهندية المعروفة بالروبية ، وذهب، فمن ذلك اليوم لم تنقطع الفتوحات عنه»[١].
فأكثر هذه الفتوحات ، بل كلها كانت عبارة عن صدقات الناس وأعطياتهم لمثل هؤلاء المتواكلين الذين كانوا يعتقدون أنهم ينفقون من الغيب ومما يفتح الله به عليهم في خلواتهم وعزلتهم من الرزق ، دونما أي أخذ بالأسباب.

وكان المدعو أحمد دحلان هو الآخر ينفق من الغيب ، حدث ذلك له غير مرة ، حيث كان يخرج من كيس الأوراد الذي معه دراهم سكة جديدة على خلاف المعتاد ، كلما احتاج إلى المال.[٢]

هذه صور مزرية من آلاف الصور التي كان يموج بها ذلك العصر ، وهي تعبر عن التواكل المريع الذي كان يتهالك عليه هؤلاء المتصوفة ، الذين كانوا يعدون ترك الأخذ بالأسباب ، وعدم الضرب في الأرض ، قربة وتوكلاً وديناً ، ومادام أن الإنسان بتلك الرياضات الروحية الشاقة يصل إلى الحضرة ، وينفق من الغيب كيف يشاء فلم الضرب في الأرض ، والكدح في الأعمال ، والسعي على العيال.

لقد أدت تلك النظرة المنحرفة إلى الدنيا إلى «احترام البطالة وإباحة التسول وتحقير ما تنطوي عليه الحياة من لذات وإغراء الناس بتكلف الحزن واصطناع الضيق والسعي إلى مواطن الذل والاغتباط بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شؤون العيش ، والاستهانة بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء. ولقد هان في نظرهم السعي في الدنيا لاكتساب المال والكد في ميادين العمل من أجل العيش وأباحوا التسول قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه».[٣]فهذا الشيخ عمر بن مصطفى الحلبي كان يدور في شوارع حلب ، ويطلب من الناس الدراهم ويعطيها لأمهات الأولاد اللاتي مات عنهن أزواجهن..[٤]

وهذا الشيخ محمد بن محفوظ بن منفاخ الدمشقي الصالحي المعروف بأبي تفالة الذي يقول عنه صاحب «الحلية» إنه قطب الشام وبركة الأنام صاحب الكرامات الكثيرة والكشوفات الشهيرة ، والإخبارات العجيبة الواقعة المصيبة كان عبارة عن رجل متسول «كان كثير القعود أمام المحل الذي دفن فيه ، ويطلب من المارين الدراهم فمن لم يعطه شتمه بملء فيه ، ولكن من الغريب وأعجب العجيب أن من مر عليه ولم يكن معه شيء من الدراهم لم يتعرض له بل يمر وهو باسم.[٥]

---

(١) المصدر السابق ٢/٩٣٠.
(٢) نفحة الرحمن في بعض مناقب دحلان ص٤١.
(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١.
(٤) حلية البشر ٢/١١٤١.
(٥) المصدر السابق ٣/١٣٢٤ أما ما ذكره من غريب وعجيب فلا يعدو عن كونه شيئاً من تلفيقاتهم.

وهذا هو حال كثير من شيوخهم ، أما المريدون والفقراء فقد كانوا عالة على المجتمع يحترفون مهنة التسول ، ويعيشون من ورائها.

لقد كانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً. «فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال ، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، ويسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير في القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذي يحتاجون ، والإخلاص بالعبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلاً فقيراً ضعيفاً ويخرج منها واسع العلم ، ثرياً طائل الثراء ، قوياً موفور القوة ! ! فحسب الإنسان من حياته العبادة».(١)

وفي الحقيقة أن تلك النظرة المنحرفة جاءت من نظرة أخرى أشد انحرافاً وهي النظر إلى العبادة بمفهومها الضيق ، وهو ما أسهبنا الحديث عنه في الفصل الأول وهذا هو «التواكل الذي تمارسه الصوفية وتقول عنه إنه توكل ، فهو ككل شيء في الصوفية صورة سلبية معطلة ، تتقاعس عن اتخاذ الأسباب متذرعة بالتوكل على الله.

لقد أفسد التواكل كثيراً من عقيدة القضاء والقدر ، وحولها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة ، وإلى الرضا السلبي بالواقع وعدم محاولة التغيير».(٢)

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر ، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من الله ، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر.(٣)

وفي ظل الصوفية ينشأ «الإسراف في التواضع حتى لتهون على الإنسان كرامته ، وتسقط في عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التمرغ تحت أقدام الناس ، والرضا بظلم الظالمين وبغي المعتدين ، والاغتباط بالذل والهوان فإن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله وعقابه للمظلوم على سوء ما قدمت يداه، ولماذا يثور المظلوم في وجه الظالم؟ لماذا الخصومة والإنسان لا يملك في دنياه كثيراً ولا قليلاً..»(٤) وإذا كان الجهاد في سبيل الله ، وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإذا كان السعي في

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١.

(٢) واقعنا المعاصر ص١٤٤.

(٣) انظر عجائب الآثار ٢/٢٣٩ ـ ٢٩٤.

(٤) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١٢.

الأرض وتعميرها ، إنما يقوم ذلك كله على وجود الإنسان واستمراره في هذه الحياة ، ولا يتم هذا إلا بالزواج وتكثير النسل ، إلا أن المتصوفة أعرضوا عن ذلك تماماً ، ولم يلتفتوا إلى النصوص الشرعية المتوافرة التي تأمر بالزواج وتكثير الأمة.(١)

فكان الإعراض عن الدنيا وعمارتها عامة، وعن الزواج خاصة، مقاماً عالياً يحوم عليه المتصوفة، ويتسابقون إلى الظفر به . وما أكثر ما يرد في تراجم كثير منهم أنهم لم يتزوجوا أبداً ، ولم يعمروا منزلاً ، ولم يكونوا يملكون شيئاً.

فالشاه عبد الله الدهلوي والشيخ عبد الله الهراتي النقشبندي «لم يتزوجا وقد اختارا مقام التجريد ، لأنهما كان على قدم عيسى عليه الصلاة والسلام الذي لم يتزوج».(٢)

وهذا الشيخ عبد الحي بن حفيظ الله الدهلوي (المتوفى سنة ١٢٥١هـ) كان كما يقول بعض من ترجمه : «صاحب ترك وتجريد ، لم يتزوج ولم يبن داراً».(٣)

والشيخ محمد بن أكبر الشاهجهابنوري (المتوفى سنة ١٢٩٢هـ) لم يتزوج مطلقاً.(٤)

وهذا أحمد بن العربي التنغراسي المغربي (المتوفى سنة ١٣١٩هـ) : «كان منقطعاً متجرداً عن الدنيا لا يملك منها شيئاً ولم يتزوج قط! عارفاً بطريقة التصوف».(٥)

وبعضهم كان يمتنع عن الزواج وتربية الأسرة والقيام عليها ، ليعيش وحده مع الحيوانات معتنياً بتربيتها. فالشيخ محمد بن عبد الحفيظ الخلوتي المصري «لم يتزوج قط وانقطع في بيته إحدى وعشرين سنة بمفرده ، وليس عنده قريب ولا غريب ولا جارية ولا عبد ، ولا من يخدمه في شيء مطلقاً، وبيته متسع من جهة التبانة ، وبابه مفتوح دائماً ، وعنده الأغنام والدجاج والأوز والبط ، والجميع مطلوقون في الحوش ، وهو يباشر علفهم وإطعامهم وسقيهم الماء بنفسه ، ويطبخ طعامه بنفسه وكذلك يغسل ثيابه ، واشتهر في الناس بأن الجن تخدمه ، وليس ببعيد لأنه كان من أهل المعارف والأسرار!... وعنده عدة كثيرة من السنانير ويعرفها بالواحدة ، بأسمائها وأنسابها وألوانها ويقول هذه تحفة بنت بستانة ، وهذه كمونة بنت ياسمين ، وهذه فلانة أخت فلانة إلى غير ذلك».(٦)

---

(١) ومنها قوله ﷺ : «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم» وهو حديث صحيح. انظر صحيح النسائي للألباني برقم ٣٠٢٦، وصحيح أبي داود للألباني برقم ١٧٨٩.

(٢) حلية البشر ١٠١٧/٢.

(٣) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٥٠/٧.

(٤) المصدر السابق ٤١٤/٧.

(٥) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٤٥١/٢.

(٦) حلية البشر ١٤١٢/٣ ولا غرابة في هذه الحكاية ، فالحاجة إلى الأسرة مطلب فطري في النفوس ، فحين تركت الأسرة الحقيقية لجأ هذا وأمثاله إلى اتخاذ أسر من الحيوانات والطيور.

إن تلك النظرة المنحرفة التي ينظر بها المتصوفة إلى الزواج كفيلة لو عممت بالقضاء على الجنس البشري ، وآيلة بالوجود الآدمي إلى الانقراض والتلاشي ، وذلك بعدم الزواج وقطع النسل. أضف إلى ذلك خنوعهم ورضوخهم ورضاهم بوقوع الأمراض الخطيرة ، وانتشار الأوبئة الفتاكة ، وعدم التفكير في علاجها والتخلص منها. بحجة الرضى بالقضاء والقدر.

بهذه العين الكليلة نظر المتصوفة إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم الملايين من المخلوقات ، ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطي الهمة.

وعلى أساس هذه التعاليم قامت الدنيا في الفترة التي ندرسها ، حيث خف ألوف من الدراويش إلى الزوايا طاعمين عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويقتاتون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف من الدراويش الذين كانوا يتجولون في الشوارع والطرقات ، ويفهمون الحياة هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصباً ، وألوف غيرهم يحترفون العمل - ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في تفاهته والاحتقار لثمرته وإيمان بأن القناعة بالتافة من شؤون الحياة ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد أسهم بأوفر نصيب في ركود الحياة إبان العصر العثماني ، فقد كان من يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، وقد تغلغلت هذه النظرة في هذه البيئات ، وأثرت في الجاهل منها والمتعلم.(١)

«والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير في رد ظلم أو دفع بغي أو ثورة من أجل كرامة..».(٢)

وفي الوقت الذي كانت تلك النظرة المشوهة تكاد تسيطر على المسلمين ، كان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي ، ومدبراً للمؤامرات والدسائس للسيطرة على العالم الإسلامي الذي كان الجمهور فيه يحاربون الأخذ بالأسباب ، ويعولون على البطالة والخمول والاتكالية.

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١٢. بقليل من التصرف.

ويذكر الدكتور توفيق الطويل أثراً من آثار هذه النظرة ما رآه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلبة «الجغرافيا الاقتصادية» حيث يقول لهم في مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم (المصريون) لعبادة الله!! ...... ثم يعلق الدكتور الطويل قائلاً : ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب إذا كانت سيطرة الأجنبي على مرافق الحياة الاقتصادية في عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمد الإنسان ربه من أجلها. إلا إذا كان المراد أن يحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٥.

خامساً : نظرتهم إلى العلم :

« تساوت في نظرهم شتى العلوم المعروفة في عهدهم - من دينية ولسانية وعقلية وغريبة - فاعتبروا الاشتغال بها انصرافاً عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة[١] والذكر والتهجد ، فهاجموها علماً علماً».[٢]

وقد انقسم المتصوفة في العصر العثماني إزاء العلم بالدين إلى معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ، ويدعو ثانيهما إلى الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد اتفقا على أن استقاء الدين من ظاهر الشرع عجز ونقص! ، وأن المعين الذي ينبغي أن ينهل منه الإنسان معرفته بالدين وغير الدين هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في عبادة الله والتفاني في طاعته حتى يصل إلى حضرته ، ويأخذ عنه العلم رأساً من غير وساطة ، وشتان بين من يستقي العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه عن الحي الذي لا يموت».[٣]

ومن هنا احتقر المتصوفة الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة.[٤] وكان الانصراف عن العلم والتعليم ، والعكوف على التصوف سمة من سمات تلك الفترة السوداء . فهذا الشيخ محمد الاديماوي الحلبي الشافعي الذي كان يتصدر للإقراء والتدريس ، «ثم ضرب عن ذلك صفحاً ورام ما هو أعظم ربحاً ، واعتزل الناس واشتغل بالعبادة والسكون ، وانزوى في داره مع الورع والزهد التام ، واعتقده الناس ، وأقبلوا عليه».[٥]

وهذا الشيخ عبد الحميد الألوسي (المتوفى سنة ١٣٢٤هـ) كان من الوعاظ الذين أقبل الناس علي مجالس وعظهم ، ثم غلب عليه التصوف ، وصار له أتباع ومريدون ، وأقام على العزلة في داره أربعين سنة لا يخرج إلا لصلاة الجمعة والعيدين ، والناس يفدون إليه.[٦] وفي مكة المكرمة كان المدعو بالسيد عمر بن عبد الله السقاف (المتوفى سنة ١٣٠٥هـ) «قد تلقى العلوم عن عدة مشايخ ...... ثم إنه أخذ الطريقة النقشبندية على الشيخ محمد مطهر ، فعقب ذلك ترك الاشتغال بالتدريس بتاتاً ، وتوجه لها[٧] واشتغل بها ، وتقشف وانفرد عن الناس بالكلية».[٨]

---

(١) وهذا الانحراف ناشيء كما قلنا عن جهلهم بمفهوم العبادة.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق ص ١٩٢.
(٤) المصدر السابق ص ١٩٣.
(٥) حلية البشر ١٢٧٩/٣.
(٦) الأعلام ٢٢٨/٣ وأعلام العراق ص ١٥.
(٧) يعني الطريقة.
(٨) مختصر نشر النور والزهر ٣٢٨/٢.

وقد كان بعض المفتين يتركون الإفتاء لسلوك طريق الأولياء ، كما ذكر ذلك الألوسي.[١] وهذا الحاج علي الدرقاوي المغربي كان يدرس بإحدى المدارس في الغ بجبال سوس جنوبي المغرب ، ثم ترك التدريس وانقطع إلى إحدى زوايا الصوفية «وأعطى للتصوف نفسه ، وسلبته الطريقة الدرقاوية جملة بعد أن كانت تسلبه شيئاً فشيئاً..»[٢] وهذا الشيخ خالد أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي (المتوفى سنة ١٢٤٢هـ) ترك منصب التدريس والوظائف ورحل إلى الهند طلباً للفتوحات الصوفية.[٣] وبذلك كانت الصوفية معولاً هداماً لأهم مجالات الحياة ، وهو مجال العلم ، وذلك بانصراف العلماء عنه إلى العزلة والانزواء ، وإلى الطريق الرابح الذي يهدف إلى الوصول كما يظنون.

لقد قسم المتصوفة العلم إلى قسمين : علم الظاهر أو علم الشريعة . وعلم الباطن أو علم الحقيقة.[٤] فأهملوا علوم الشريعة ، ولم يهتموا بها ، لأنها عندهم من علوم الظاهر ، التي لا تؤدي بزعمهم إلى الوصول إلى الحضرة ، كما هو شأن علم الباطن. ويسمون العلماء بحملة الشريعة ، ويسمون أنفسهم بحملة الحقيقة.

وكثيراً ما يرد في ترجمة الواحد منهم ، أنه أخذ علوم الظاهر عن عدة علماء ، وأخذ علوم الباطن عن طائفة من الأولياء.

وحتى نعرف مقدار استهانة هؤلاء المتصوفة بعلوم الشريعة ، وبالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، واستخفافهم بما سوى العلم الباطن الذي اختصوا به دون الأمة نسوق هذه الحكاية الغريبة ، التي أوردها صاحب «المعسول» :[٥] «دخل سيدي سعيد بن همو الشيخ المعدري إلى داره فقال لمريدته الفقيرة عائشة الهشتوكية : اخرجي واستديري الحائط فإنك ستجدين عالمين دخلا في طريقتنا حديثاً فذاكريهما ، فخرجت فوجدت صاحب الترجمة [٦] والفقيه سيدي الحاج الحسن التاموديزتي، فجلست إليهما بعد ما سلمت.... ففاتحتهما الحديث فانجر بهما إلى أن وصل إلى معرفة الله تعالى ، فحلقت بهما الفقيرة الأمية إلى سماوات عجزا عن مطايرتها إليها ، فسكتا ، ثم قالت لهما : إنما أردت بهذا العلو في المذاكرة أن تعرفوا أنتم معاشر العلماء الجامدين ! الذي لا يحسبون أن لله علماً إلا في تلك النقطة الضئيلة ، التي تظلون أعماركم تجولون حولها في مدارسكم ، أن من الناس من تعجزون عن مجاراته مع أنه لم يلم بنقطتكم هذه.

---

(١) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ٢٥.

(٢) المعسول ١/٢٠٠.

(٣) حلية البشر ١/٥٧٥.

(٤) انظر : إحياء علوم الدين ١/٣١ ويسمى أيضاً بعلم المكاشفة.

(٥) هو محمد المختار السوسي. توفي سنة ١٣٨٣هـ. الأعلام ٧/٩٢.

(٦) هو الحاج علي الدرقاوي الذي مر معنا آنفاً.

وأردت أيضاً أن تدركوا حق الادراك أنكم معروفون عندنا لا تخفى عنا منكم خافية!! فالمتصوفون منكم يدركــون أنهم خــالون من أنوار القلوب، ومن ذوق حــلاوة الإيمان، وأن هذه العلوم التى يخوضونها ويقصرون عليها أعمارهم ويحسبونها غاية، على حين أنها وسيلة للمقصود من معرفة الله ما أتتهم بالمراد من أنوار القلوب وحلاوة الإيمان، ولكن مع انصافهم هذا، وادراكهم لكل ذلك حق الادراك، يحسبون أن غيرهم لا يدركون منهم ما أدركوه من أنفسهم من عدم معرفتهم بالله وعدم استنارة القلوب وإنشراح الصدور فقال لها سيدي الحاج الحسن :وكيف معرفة الله أيتها الفقيرة؟ فقالت : إنكم أنتم العلماء، وإنكم أحق من يسأل عن مثل هذا، لا أنا العامية الأمية التى قل حياؤها فثرت بهذيانها حتى جاوزت الحد، فقال لها سيدي الحاج الحسن : لابد أن تتكلمي، فقالت :

لا أدري ما أقول؟ إلا أن ولداً عندي يوماً أيقظته من نومه فقال لي ياأماه : إنك أيقظتني من نومة عذبة حلوة لذيذة جداً جداً، فقالت له : كيف عذوبتها يابني؟ فسكت مليا ثم قال : نامي يا أمي هنا مثلي تذوقيها، فكذلك أنا أقول لكم : من أراد أن يذوق معرفة الله فليرحل إلى الله بالكلية، فإن العجب كل العجب فيمن إدعى أنه عالم مع أنه أجهل الناس بمعرفة نفسه وبمعرفة ربه، وقديماً قيل : من عرف نفسه عرف ربه»(١)

هكذا كان يحتقر المتصوفة علوم الشريعة، ويستهينون بها، ويستخفون بالعلماء فكل علوم الإسلام التي يدرسها العلماء في المدارس والجوامع والمعاهد ليست إلا نقطة ضئيلة بجانب علوم المتصوفة.

وإذا كانت مثل هذه الفقيرة الجاهلة تناظر العلماء، وتفحمهم وتتحداهم، وتعجزهم وتبكتهم، وتتهمهم بالجهل والقصور.

وهي الأمية العامية، التى لا تقرأ ولا تكتب، ولم تطلب العلم أبداً. فلماذا التعب و النصب في تحصيل العلم؟ وعلام مزاحمة طلاب العلم بالركب في حلقات الدروس؟ ولماذا السهر في الليالي لاستذكار العلوم؟ وعلام ملازمة العلماء لأخذ العلم عنهم؟

مادام أن الإنسان قد يحصل على كل تلك العلوم التى تفنى الأعمار في تحصيلها بين عشية وضحاها، بل ربما في طرفة عين، ولماذا هذه العلوم أصلاً، وما هي الغاية منها؟ إن كانت هي الوصول، فإنه يحصل من أول الطريق الذي يسلكه المتصوفة، وبدون عناء تعلم هذه العلوم، التى ما هي إلا قطرة في بحر علمهم، فلتندرس هذه العلوم، ولتهجر هذه المدارس، ولينضم الجميع علماء وعوام إلى طريق أهل العلم الباطن، وليقطعوا صلتهم بالحياة حتى يصلوا إلى الحضرة الإلهية، فتفيض عليهم العلوم بأنواعها، وتنهمر عليهم الهبات بأشكالها.

---

(١) المعسول ١/٢٠١.

فإن الشخص الأمي من أهل الطريق ليرجح علمه وكشفه بعلوم الجم الغفير من علماء الشريعة، لأنهم يأخذون علومهم عن الأموات والمؤلفات ، وهؤلاء يأخذون علمهم مباشرة من الله الحي الذي لا يموت ، وشتان بين الفريقين.

وإذا كان هذا هو موقف المتصوفة من علوم الشريعة ، فمن باب أولى ألا يلتفتوا أبداً إلى ما سواها من العلوم. فحين أهملوا عمارة الأرض كلية ، أهملوا بالتالي كل العلوم المتعلقة بها ، فنظروا بعين الازدراء والتحقير إلى العلوم التجريبية من طب وهندسة وفلك وطبيعة وكيمياء وغيرها، وكان لهم دور عظيم في اخراجها من صلب المناهج التعليمية، كما سنرى ذلك في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

لقد أسهمت الصوفية بموقفها المخزي من العلم ، بنصيب وافر في هوة التخلف العلمي الذي وقعت فيه الأمة ، وفي الركود الطويل الذي أصاب كثيراً من مجالات الحياة المهمة ، في وقت كانت فيه هذه العلوم تحتضر وتقترب من نهايتها بما أصابها من جمود وضعف ، فجاءت الصوفية فأجهزت على البقية الباقية منها. فانحدر العالم الإسلامي في دركات الجهل والظلام.

سادسا : الطرق والزوايا عند الصوفية :

انتشرت في هذين القرنين الطرق الصوفية[١] ، وتعددت وكثرت الزوايا التي كان يقطنها الشيوخ والمريدون ، ويتردد إليها الكثير من الناس.

وإن من يطالع أحوال تلك الفترة التي نعني بدراستها ليدرك من أول وهلة أن تلك الطرق المبتدعة قد طغت على حياة الناس ، وأن السواد الأعظم من المسلمين كانوا في قبضة تلك الطرق وتحت هيمنتها ، وقلما تجد في كتب التراجم والرجال ترجمة لرجل إلا وفيها ذكر الطريقة التي ينتمي إليها وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم هذه الطريقة ، وهذه ظاهرة مميزة في تلك الفترة ، وكأنما أضحت هذه الطرق الدرجة الرفيعة من الدين التي يتسابق إليها العلماء قبل غيرهم بل لقد كانت عندهم كذلك. ونحن نذكر بعض الأمثلة على سبيل الإيجاز ، وإلا فكتب تلك الحقبة طافحة بمثل ذلك.

جاء في ترجمة الشيخ ظافر بن محمد المدني الشاذلي التي كتبها إلى صاحب «حلية البشر» حين طلب منه ترجمته ما يلي : فعلمني[٢] القرآن إلى أن أتقنته ، ثم علمني من أنواع العلوم إلى أن ظننت أن ما تعلمته أحسنته ، ثم أخذ يؤدبني بآداب السنة إلى أن وجد نفسه الشريفة لإعطائي

---

(١) الطرق جمع طريق. «ونريد بالطريق ما يضعه شيخ من مشايخ الصوفية لمجموعة من المريدين من أوضاع يلتزمونها ويختصون بها دون غيرهم..» التجانية ص ٢٨.

(٢) الضمير يعود على والده.

الطريق مطمئنة! فاستخار الله واستهداه ، وعقب أن حصل له الإذن بما يهواه ، أخذ يدي بطريق المصافحة ، وتلا قوله تعالى ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ ، إلى آخر الآية ، ثم تلا : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ الآية ، ثم لقنني لا إله إلا الله وقال لي : اذكرها من غير قيد ولا عدة تتكاثر عليك الفيوضات ، ويتقوى لك بفضل الله المدد ... ثم ألبسني الخرقة المباركة وهي جبة صوف من لباس المغرب ، وقد ثقل علي لبسها حتى صرت أختفي من الناس مدة ، إلى أن حصل لي بهمته تمام الأنس بها ، ولا زالت على ظهري ثلاث سنين ، ثم أمرني أن أتلون في اللباس ، ثم أتيته وطلبت منه أن يلقنني الاسم الخاص! ، فأمهلني أياماً إلى أن تحقق مني صدق طلبي له ، فأخذ بيدي ولقنني إياه وقال لي : اذكره يفتح الله عليك عن قريب إن شاء الله ، وكنت أذكره دائماً مستغرق الوقت فيه .....».[1] ومما يجدر ذكره أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني قد أخذ الطريقة الشاذلية على يدي الشيخ ظافر سنة ١٢٨٨هـ ، وذلك قبل أن يتولى مقاليد السلطنة.[2]

والشيخ عبد الفتاح العقري النقشبندي الخالدي : أخذ الطريقة النقشبندية الخالدية فأحسن بها الاشتغال ، وقام على ساق الخدمة بها في الأيام والليالي ، ثم لما رآه حضرة الأستاذ مولانا خالد[3] قد استعد للارشاد، وصار عنده أهلية الدعوة إلى المراد خلفه خلافة مطلقة يعطي الطريق لمن أراد..».[4]

أما المدعو بالسيد جعفر بن محمد عثمان ميرغني (المتوفى سنة ١٢٧٧هـ) فقد أخذ الطريقة عن والده ، وتخلف بعد موت أبيه سنة ١٢٦٨هـ فتبعه المريدون من كل جانب ، وطريقتهم تسمى الطريقة الميرغنية.[5]

وكان الكثير من المتصوفة في ذلك العصر لا يكتفون بطريقة واحدة ، بل يسعون لأخذ أكثر من طريقة ، ويرون أن ذلك زيادة في الدين والخير.

فالشيخ عبد الغني الحلبي الحنفي الحسيني «أخذ الطريقة القادرية عن أبي عبد القادر محمد ابن صالح بن رجب المواهبي ، والطريقة الرفاعية عن أبي الحسن علي الصعيدي المصري ، والطريقة الشاذلية عن أبي محمد بن عبد الوهاب بن أحمد الأزهري البشاري المصري ، والطريقة السعدية عن العماد إسماعيل السعدي ، وفي آخر أمره انقطع إلى الذكر والإرشاد ، وأقبل عليه المريدون من كثير من البلاد ، فانتفع به كثير من الناس».[6]

---

(١) حلية البشر ٢/٧٦٣. (٢) المصدر السابق ٢/٧٦٣.

(٣) سيأتي الحديث عنه بعد قليل إن شاء الله في ص٢٩٨.

(٤) المصدر السابق ٢/٨٨٢.

(٥) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/١٢١.

(٦) حلية البشر ٢/٨٧٣.

وهذا الشيخ حسين بن سليم الدجاني : «أخذ الطريقة الخلوتية البكرية من السيد مصطفى البكري ، وأخذ الطريقة الدسوقية الإبراهيمية عن السيد أحمد الصاوي إبي الإرشاد ، وأخذ الطريقة القادرية عن الشيخ العمادي الفالوجي ، والأحمدية البدوية عن الشيخ صالح العلاري ، والرفاعية عن الشيخ حسن الغزالي الرفاعي القدسي ، والشاذلية عن والده سليم الدجاني.[(١)]

وهذه الصوفية فاطمة الزبيرية (المتوفاة سنة ١٢٤٧هـ) أخذت الطريقة النقشبندية والقادرية ، وكان لها أوراد وأحزاب ومشرب روي في التصوف ، وأرشدت خلقاً من الناس لا سيما النساء ، فقد لازمنها ملازمة كلية وانتفعن بها انتفاعاً ظاهراً....[(٢)]

وربما احتاج بعضهم إلى تجديد الطريقة التي أخذها من قبل ، كما فعل الشيخ عبد القادر بن أحمد الحلبي الحنفي المقري ، فقد أخذ الطريقة القادرية عن أبي عبد الله محمد بن صالح بن رجب المواهبي القادري ولازمه مدة ، وبعد وفاته لازم ولده أبا المواهب إسماعيل المواهبي ، وجدد عليه الأخذ في الطريقة وغيرها ، وسمع عليه الكثير من الأحاديث الشريفة ، ولازمه السنين العديدة ، وانتفع بمجالسته..[(٣)]

وقد كان بعض هؤلاء المتصوفة يخشى الانتقال من طريقة لأخرى دون موافقة الأولياء ، ويتردد كثيراً ، ولكن شيوخ الطرق أو الأولياء فيها ما كانوا يذرونه على تردده ذلك ، كما حدث للشيخ عبد الله الدهلوي حيث يقول عن نفسه : «فبايعني[(٤)] علي الطريقة العلية القادرية بيده المباركة ، ولقنني الطريقة العلية النقشبندية فتشرفت بالحضور في حلق الذكر ، والمراقبة عنده خمس عشرة سنة!! حتى تفضل على هذا الحقير بالإجازة المطلقة في الإرشاد العام ، وقد ترددت أول الأمر في أنه هل يرضى الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أن أشتغل في الطريقة النقشبندية أولاً ، فرأيته في واقعة جالساً في مكان ، وحضرة شاه نقشبند ، فقال الغوث الجيلاني في الحال : المقصود هو الله تعالى ، فاذهب فلا مضايقة..».[(٥)]

وفي اعتقادي أن الذي رآه ليس الشيخ عبد القادر ، ولكنه شيطان تمثل له في صورة إنسان ، ليضله عن الصراط المستقيم ، فالمقصود عند إبليس لعنه الله هو غواية أولئك الضالين بأية طريقة من الطرق التي كانوا يسلكونها.

---

(١) المصدر السابق ١/٥٤٠.

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ٢/٣٣٨.

(٣) حلية البشر ٢/٩١٦.

(٤) أحد شيوخه.

(٥) المصدر السابق ٢/٩٣٠.

وقد كان لخشية الانتقال من طريقة لأخرى ما يبررها عند المتصوفة. وذلك خوفاً من غضب الشيوخ ، كما وقع للشيخ محمد عبده (المتوفى ١٣٢٣هـ)(١) مفتي مصر حيث غضب عليه شيخه درويش خضر الذي أخذ على يديه الطريقة النقشبندية عام ١٢٨٢هـ لما أخذ الطريقة الخلوتية على يدي الشيخ حسن رضوان عام ١٢٨٧هـ ، فعنفه ولامه كثيراً ومنعه من الاجتماع بالناس.(٢)

وكان بعضهم يشترط على مريده ألا يزور غيره من الشيوخ أو يحاول الالتقاء بأحد منهم ، كما اشترط الشيخ أحمد التجاني(٣) على الشيخ حسن بن حمزة بن ظافر المدني ، وحذره أن ذلك يقطع المدد والفتح الإلهي.(٤)

وربما زعم بعضهم أن انتقاله من طريقة لأخرى كان بإذن المصطفىﷺ كما وقع للشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين الذي جاور في المدينة مدة ، وانتقل من الطريقة الختمية إلى الطريقة الشاذلية وهي طريقة أجداده. ويقول أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة : «وأخبرني من سمع منه أن انتقاله بإذن من المصطفى عليه السلام».(٥)

وهذا الشيخ على الدرقاوي يقول عن نفسه : «وقد كنا قبل وصولنا نجهد ونظن أننا في غير الحضرة ، فلما فتح علينا وجدنا أنفسنا غرقى في الحضرة الربانية ، وإنما السحاب على بصائرنا ، فلما انجلى وجدناه كما قال جاء الحق وزهق الباطل ، فصرنا والحمد لله في الحضرة الربانية والنبوية جامعاً لهما في الهمة ، قوياً فيهما القوة الكبيرة ، إلى أن تجلى لنا رسول الله ﷺ يقظة ! قبل فجر اليوم الثاني لعيد الأضحى عام ١٣٠١هـ وأنا على الضوء انتظر طلوع الفجر مستغرقاً في ذكر الله ، فقال لي : أعطيناك الإذن العام والخاص ، فمن ذلك اليوم نهضت همتي لإصلاح العباد..».(٦)

أما الشيخ محمد عبده مفتي مصر حين أخذ الطريقة النقشبندية على يدي شيخه درويش خضر «فلقنه الذكر وارتاض بين يديه ، واختلى وتقلب في فنون من الرياضة الصوفية ، وتوالت عليه الأحوال، ورأى منها آثاراً عجيبة ، ومن أهمها أنه كان في صلاة الوتر فرأى رسول اللهﷺ مقبلاً عليه جاعلاً اللثام على دون فمه الشريف وسمع قائلاً يقول : وأخذت الشريعة من بين حاجبيه . إلى غير ذلك من

---

(١) يأتي الحديث عنه إن شاء الله .

(٢) الرحلة الحجازية ٣/٢٦٦ محمد السنوسي.

(٣) هو مؤسس الطريقة التجانية التي حوت كثيراً من الكفر والأباطيل. ولمزيد من الاطلاع. انظر : التجانية. لـ علي بن محمد الدخيل الله. وهو مرجع سبق ذكره.

(٤) الرحلة الحجازية ٣/٣٣.

(٥) تاريخ السلطنة السنارية ص ١١١.

(٦) المعسول ١/٢٢٥.

المكاشفات التي تجلت عليه بمصر القاهرة بعد تنقله إليها».(١) وكان جمهور المتصوفة يحرصون على أخذ الطرق بالإسناد المتصل إلى مؤسس الطريقة ومبتدعها.

فالشيخ محمد العربي بن أحمد الدرقاوي أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ أبي الحسن الجمل عن الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله الفاسي عن أبيه أحمد عن الشيخ الخصاصي عن الشيخ علي الصنهاجي عن الشيخ إبراهيم امجام عن الشيخ أحمد زروق بسنده للإمام الشاذلي.(٢) وأما الشيخ جان السليماني الحنفي النقشبندي (المتوفى سنة ١٢٦٧هـ) فقد «قدم مكة وتوطنها وكثر مريدوه ، وكان على قدم ثابت من الصلاح ، ملازماً على العبادة والطاعة ، وإرشاد المريدين ، وبيان إسناد سلسلته في الطريقة النقشبندية».(٣)

ولا يشترط في أخذ تلك الطرق بأسانيدها عدالة أو ضبط ، فالمتصوفة كلهم عدول ، بل إنهم لا ينظرون إلى مثل تلك الشروط التي اعتنى بها المحدثون من علماء الظاهر ، أما علم الباطن فالكشف والتجلي والوصول تغنى فيه عن أي تعديل ، وتستر كل جرح ونقص.

أما كيفية أخذ الطريقة ، فقد مر معنا ما ذكره الشيخ ظافر المدني من كيفية أخذ الطريق على يدي أبيه ومصافحته له ، وتلاوة بعض الآيات ، وتلقينه كلمة التوحيد. وإلباسه جبة صوف. وهناك أشكال أخرى لأخذ الطريقة.

فأتباع الطريقة الرفاعية ، يأتي طالب الطريقة عندهم بقدح ماء يقدمه للشيخ ، فيأخذه بيده ، ويقرأ على الماء وينفخ فيه ويعيدها إلى الطالب فيشرب الماء كله ، فيكون مريداً لذلك الشيخ في الطريقة المذكورة.(٤)

أما الظاهرة الخطيرة فيما يتعلق بتلك الطرق البدعية ، فقد تمثلت في المنافسات الشديدة بين شيوخ هذه الطرق ومريديها من أجل نشر كل فريق لطريقته بين الناس. وكانت الوسيلة العظمى لحيازة قصب السبق والظفر في تلك المنافسات هو كثرة التنقلات والأسفار بين الأقطار الإسلامية لنشر هذه الطرق.

---

(١) الرحلة الحجازية ٣/٢٦٥ محمد السنوسي.

والغريب حقاً أن ينقلب الشيخ بعد تلك المكاشفات والمخادعات والمجاهدات الصوفية إلى داعية للإصلاح ومنابذ لتلك الطرق. بل إلى عقلاني مفرط في العقلانية. ولم تكن إصلاحاته وعقلانيته إلا تعبيراً عما انطوت عليه نفسه من هزيمة عنيفة أمام الغرب الظافر المتغلب ، فتذبذب فكره ، فخلط بين الحق والباطل في كثير من توجيهاته وكتاباته.

(٢) شجرة النور الزكية ص ٣٨١.

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/١١٥.

(٤) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١/١٩.

فقد كان كثير من هؤلاء المتصوفة لا سيما الشيوخ يتنقلون بين البلدان والأقاليم ، ويطوفون المدن والقرى ، ينشرون ضلالاتهم وخرافاتهم ، ويتحملون ما يصيبهم من عنت ومشقة وعذاب في سبيل تبليغ طرقهم ونشرها بين الناس.

وإننا لا نكاد نعثر على متصوف بارز في التصوف، إلا ونجده قد أفنى حياته وعمره في الأسفار والترحال ، ولم يلق بعصا التسيار إلا بعد أن طوف الأقطار ، وأثقلته السنون الطوال عن مواصلة الرحلة والسفر.

وكان كثيراً ما يذكر مترجمو متصوفة ذلك العصر تلك العبارة «وأكثر من السياحة في خدمة الطريق» [(١)] ، وذلك في ثنايا تراجمهم لهؤلاء المتصوفة. يقول كاتب الشونة : «وفي سنة ١٢٣٢هـ دخل بجزيرة سنار العالم الرباني أعجوبة أهل الزمان ، وختم أهل العرفان السيد محمد عثمان تلميذ السيد أحمد أدريس[(٢)] .. فلما جاء رضي الله عنه من دنقله نزل إلى كردفان وأقام بها ما شاء الله ، ودعا أهلها إلى طرقه [طريقته] فتبعه كثير من الناس لما رأوا من بركته وصلاح حاله ، فداخل حينئذ بعض الناس الحسد ، ورموه عند مسلم الحاكم فقابلوه بكل قبيح ، وآنوه حق الإيذاء ، فصبر هو ومن تبعه ... ثم إنه توجه إلى سنار، فكان أول دخول الجزيرة نزل بحلة شاذلي، ودعا الناس إلى طرقه [طريقته] وكانت سنة الله في الخلق ما بين المصدق والمكذب ولا سيما في أمر إصلاحهم إلى الله تعالى ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من توقف ، ثم ارتحل عنهم ودخل سنار ، وقابل حكامها، ودعا أيضاً إلى الطرق، فأهل التسليم أخذوا منه بلا تردد، وكان عمره رضي الله عنه حين دخل سنار فيما حدثني به من سمع منه أنه ابن ست وعشرين سنة...»[(٣)].

وهذا الشيخ محمد ظافر المدني الذي ذكرنا نفوذه عند السلطان عبد الحميد ، لم يكن ليصل إلى ذلك النفوذ ، لولا رحلاته الكثيرة ، وأسفاره المتلاحقة بين البلدان لنشر طريقته الشاذلية. يقول عنه صاحب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»[(٤)] : من أكابر العلماء المحققين! الذين أفرغوا جهدهم في النصح لكافة المسلمين. أخذ عن والده ، وورث سره! وكان الخليفة بعده ، وفي أيامه ازدادت الطريقة في الانتشار في كثير من الأمصار ، وتجول في أفريقيا وغيرها ، ودخل صفاقس وسوسة والمنستير ...... واستوطن طرابلس ، وله هناك أتباع كثيرون .... ثم سافر للأستانة ، وحصلت له هناك حظوة وبعد صيت ، مع إقبال خاص من سلطان آل عثمان عبد الحميد ، وعيّن جراية ، وخص له تكية باسمه ، وجعل له جاه لم يشاركه فيه أحد إلى أن توفي وهو على تلك الحال.[(٥)]

---

(١) حلية البشر ٢/٧٥٧.

(٢) وكان قد أخذ الطريقة على شيخه المذكور في مكة المكرمة.

(٣) تاريخ السلطنة السنارية ص ٧٣.

(٤) هو محمد محمد مخلوف ، من علماء المغرب ، تقلد القضاء والإفتاء في بعض مدنها. توفي سنة ١٣٦٠هـ.

(٥) شجرة النور الزكية ص ٤١١.

أما الشيخ بهاء الدين مهدي الرواس الصيادي الرفاعي (المتوفى سنة ١٢٨٧هـ) فقد كان من أكثر شيوخ المتصوفة سفراً ورحلة ، لا يكاد يقر له قرار. يقول عنه صاحب الحلية : «ففي خمس وثلاثين ومائتين وألف جذبه القدر إلى السياحة ، فخرج طالباً بيت الله الحرام ، وجاور بمكة سنة ، ثم تشرف بزيارة جده عليه الصلاة والسلام ، وجاور بالمدينة المنورة سنتين ... ثم ذهب إلى مصر، ونزل في الجامع الأزهر، وبقي ثلاث عشرة سنة ، يتلقى العلوم الشرعية من مشايخ الأزهر .... ثم عاد سائحاً إلى العراق ، فاجتمع بالشيخ العارف بالله ولي الله السيد عبد الله الراوي الرفاعي، فأخذ عنه الطريقة، ولزم خدمته والسلوك بين يديه مدة، وأجازه قدس الله سره ، ثم أقامه خليفة عنه ، ثم طاف البلاد وذهب إلى الهند وخرسان والعجم والتركستان ، وجاب العراق والشام والقسطنطينية والأناضول والروملي ، وعاد إلى الحجاز وذهب إلى اليمن ونجد والبحرين ، وطاف البادية والحاضرة .... وكان لا يمكث في بلدة سبعة أشهر قط ، وأكثر اقامته في البلاد تحت الثلاثة أشهر».(١)

وهذا الشيخ أحمد بن إدريس الادريسي الحسني (المتوفى سنة ١٢٥٣هـ) أخذ الطريقة الشاذلية في المغرب ، «وارتحل من فاس سنة ١٢١٣هـ إلى الأقطار المصرية وأخذ بالصعيد عن الشيخ محمود الكردي وغيره ، ثم ارتحل للأقطار الحجازية ، ومكث بمكة أربع عشرة سنة ، ثم رجع للأقطار المصرية ، ومكث بالصعيد خمس سنين ، ثم رجع لمكة وأقام بها اثنتي عشرة سنة ، ثم انتقل للأقطار اليمنية(٢) ، وأقام بها تسع سنين إلى أن توفي هناك سنة ١٢٥٣هـ ...... أذعن له علماء اليمن واعترفوا له بالولاية وأخذوا عنه جميعاً طريق القوم ، وأخذ عنه أيضاً أجلاء وقته من فضلاء العلماء والسادة في سائر الأقطار كالأستاذ الشهير العلامة الفاضل محمد بن علي السنوسي صاحب الجبل الأخضر ، والأستاذ القطب العارف الأكبر الشيخ محمد حسن ظافر المدني ، والشيخ عثمان المرغني ، والشيخ المجذوب السواكني ، والشيخ إبراهيم الرشيدي ، والشيخ عبد الرحمن الأهدل مفتي زبيد ، والشيخ محمد عابد السندي صاحب الثبت في الأسانيد .... كان جامعاً بين الشريعة والحقيقة!!».(٣)

ولقد كان لهؤلاء الذين أخذوا عن الادريسي دور كبير في نشر الطرق الصوفية. وكان بعضهم مؤسسين لطرق جديدة ، كالسنوسي صاحب الطريقة السنوسية ، والمرغني صاحب الطريقة المرغنية. ويذكر الغزي أن الطرق الصوفية في حلب كثيرة جداً كالطريقة القادرية والرفاعية والدسوقية والنقشبندية والبدوية والاردبيلية وغير ذلك.

---

(١) حلية البشر ٣٧٥/١.

(٢) انتقل إلى صبيا وبها توفي وهو مؤسس الطريقة الادريسية الأحمدية. . وخفت أمر أتباعه في تلك الجهات ، حتى قام حفيده الثائر محمد بن علي الإدريسي بتأسيس أمارة للأدارسة هناك ، واستغل مكانة جده الصوفية عند الناس.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٣٩٦.

أما الطريقة الشاذلية فلم يكن لها في حلب ذكر ، حتى عام ١٢٨٥هـ حيث قدم إليها رجل يدعو إلى أتباع شيخ مشهور بالصلاح مقيم في ترشيحة مما يلي عكا ، ويرغب في طريقته الشاذلية ، فتبعه خلق كثير ، وصار لهم في حلب ظهور وشأن..».(١)

وكان كثير من المتصوفة يزعمون أن أسفارهم تلك كانت بأمر النبي ﷺ لهم إما يقظة وإما مناماً.(٢)

لقد كان لتلك الأسفار والرحلات دور عظيم في انتشار تلك الطرق في مختلف الأقاليم والبلدان. ومن خلال ما سبق من نصوص من تلك الطرق نخرج بعدة ملاحظات ، تؤيد ما تميزت به تلك الفترة ، وهو أن التصوف كان يمثل عند الناس زبدة الدين وخلاصته. فالدعوة إلى الله كانت عندهم هي الدعوة إلى الطرق الصوفية . والنصح والإرشاد كان بتوجيه الناس إلى الصوفية ، والعلماء الربانيون هم المتصوفة الذين يثابرون في خدمة الصوفية ، ويعملون على نشرها ، والدين والصلاح هما الصوفية ، وبمقدار ما يتصوف المرء يكون دينه وصلاحه. ولهذا يحرص الآباء على تنشئة أبنائهم تنشئة صوفية ، وحتى يزداد الأمر وضوحاً في اعتبار الناس أن الصوفية كانت هي الدين في تلك الفترة نضرب على ذلك مثالين :

الأول : ما ذكره بعض المؤرخين عن الشيخ خالد بن أحمد أبي البهاء ضياء الدين الشهرزوري العثماني نسباً.(٣) أنه مجدد القرن الثالث عشر الهجري، ونعت من أجل ذلك بالمجددي. نظراً لما قام به من جهود عظيمة في إحياء الطرق الصوفية ونشرها بين المسلمين. يقول الحصني : «قد أحيا كثيراً من مساجد دمشق في الأذكار وأخذ عنه أكثر علمائها الأخيار وفحول رجالها الأبرار ، لم يسع المقام ذكر أسمائهم ، وله في كل بلدة خلفاء ومريدون علماء ، خصوصاً في الأستانة له فيها تكايا وزوايا مشهورة..»(٤) وقد ذكر بعض الرحالة الأوربيين الذي زار العراق عام ١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م، ورأى الشيخ خالد في السليمانية ، أن له من المريدين أكثر من اثني عشر ألف مريد في مختلف أنحاء تركيا والبلاد العربية.(٥)

وحتى نتصور مكانة هذا الصوفي الكبير الذي اعتبر مجدداً للدين في القرن الثالث عشر الهجري ، نذكر بعض أبيات من مرثية لأحد الشعراء رثاه بها بعد موته ، تصور فجيعته ، وفجيعة الناس بكارثة موته ، وجاء فيها :

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/١٩١.
(٢) حلية البشر ٢/٩٣٠.
(٣) قيل إنه ينتسب إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والله أعلم بحقيقة الحال. وقد توفي عام ١٢٤٢هـ.
(٤) منتخبات تواريخ دمشق ص ٦٥٣.
(٥) من هامش ترجمته في الأعلام ٢/٢٩٤.

ما للجبال الراسيات تميل ... ما للبدور يرى بهن أفول
ما للظلام يجر ذيل ردائه ... فوق الضياء فلم يقله مقيل
والأرض ترجف والنوائب أدهمت ... والبين يهجم والخطوب تجول
هذا مصاب ليس يحدث مثله ... تا الله كم دهشت لديه عقول
هل كان يوم الصعقة الأولى وهل ... دهم الورى بالصور إسرافيل
أم زلزلت تلك القيامة وانطوت ... حجب الحياة وعاجل التهويل
قف وانتبه ما قد بدا فيما استوت ... فيه الخلائق عالم وجهول(١)

الثاني : ما ذكره صاحب الحلية عن الشيخ عبد الله الدهلوي. وهو قوله : «شيخ مشايخ السادة النقشبندية ...... قام بتأييد الشريعة المحمدية! ، وتجديد معالم السنة السنية! ، وأداء حقوق الحقائق ، وإحياء جميع الطرائق ، القادرية والسهروردية والكبرية والجشتية والنقشبندية ، رافعاً لواءها بين الخلائق..».(٢)

وهل ضيعت الشريعة وكادت تنطمس معالم السنة الشريفة، إلا حين انشغل الناس بهذه الطرق، ورأوا أنها من الدين بمنزلة الرأس من الجسد.

وقد كان لهذه الطرق اعتبارها ومكانتها عندهم. فحين ثار محمد بن علي الادريسي في بلدة صبيا بتهامة على الدولة العثمانية ، أرادت الدولة معرفة مقاصده ، ومن ثم عقد الصلح معه ، فأرسلت إليه وفداً برئاسة الشيخ توفيق الأرناؤودي أحد رجال الطريقة الادريسية التي قام بتأسيسها جده أحمد بن ادريس ، والتي ينتمي إليها هو أيضاً.(٣) ولهذا الخبر دلالته المهمة ، في أن تلك الطرق قد سيطرت على عقول الناس وأفهامهم ، وأنها كانت من أكبر المؤثرات في شؤون حياتهم.

وقبل أن نختم حديثنا عن الطرق الصوفية ، نود أن نشير إلى بعض الاحصائيات التي ذكرت عددها. وهي احصائيات تقريبية ، والأمر الملفت للنظر هو كثرة عددها ، وانشقاق بعضها عن بعض ، فكثيراً ما يقوم أحد شيوخ إحدى الطرق بابتداع طريقة جديدة ، لا تلبث أن تشتهر ، ويكثر أتباعها.

وقد ذكر الدكتور توفيق الطويل أن الطرق الصوفية في العهد العثماني قد بلغت حوالي ثمانين طريقة. أما في زمنه(٤) ، فقد بلغت خمساً وأربعين طريقة ، لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى ، لكل منهم مريدون

---

(١) حلية البشر ٥٨٦/١. (٢) المصدر السابق ٩٢٨/٢.

(٣) الرحلة اليمانية ص ٦ ومما يجدر ذكره أن مهمة الوفد قد باءت بالفشل.

(٤) قبل حوالي أكثر من نصف قرن من الآن.

يسلكون طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ، ويعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم ... وقد وضع المدعو بالسيد توفيق البكري شيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر[١] كتاباً يدعى «التعليم والإرشاد» ليستعين به مشايخ الطرق وخلفائهم على إرشاد المريدين.[٢] أما علي باشا مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» فقد ذكر أكثر من أربعين طريقة كانت موجودة في زمنه.[٣] وقد عد بعض الباحثين الطرق الصوفية في عهد السلطان عبد الحميد فأوصلها إلى سبعين طريقة صوفية.[٤] ويرجع الاختلاف في إحصائية هذه الطرق إلى اختلاف الزمان والمكان، وإلى ما ذكرناه سابقاً من استحداث طرق جديدة مع مرور الزمن

أما الزاويا التي كانت تعتبر أهم محاضن الصوفية ، ونقاط تجمعها ، فقد كان الأمراء والحكام والأثرياء يتسابقون في إنشائها وتعميرها ، ويستجيبون لمطالب شيوخ الطرق ، كما ذكرنا ما فعله الوالي التركي في مصر، حين أرسل إلى السلطان العثماني في اطلاق الأموال لعمارة زاوية السادات الذي طلب منه ذلك.[٥]

ويذكر علي باشا مبارك أن عباس باشا أنشأ سنة ١٢٦٨هـ زاوية تدعى تكية النقشبندية ، «وجعل بها مصلى ومراحيض للصوفية ، وبنى بها سبيلاً وبيتاً لسكن شيخها محمد عاشق أفندي ، وعمل بها حديقة لأجل أن تشرف عليها مساكن الصوفية وبقي بها محمد أفندي عاشق إلى أن مات في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ» وقد ذكر أن سبب بناء التكية أن عباس باشا كان يعتقد في الشيخ المذكور ، ويجله ويعظمه ، فطلب منه أن يبني له تكية ليسكن فيها مع دراويشه ، فاشترى عدة منازل كانت في محل هذه التكية ، وأنشأها في نفس المكان ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة ، ورتب لها مرتبات جليلة.[٦]

أما الشيخ محمد بن عبد السلام بن عبود المكناسي السلاوي (المتوفى سنة ١٣٣٤هـ) أحد شيوخ الطريقة الدرقاوية في المغرب ، فقد رحل إلى فاس وأخذ ينشر طريقته فيها ، فانكر عليه بعضهم ، فقصد سلا ، فاعتنى بها عاملها الحاج الطيب الصبيحي مع بعض المحبين له ، واشتروا له داراً قرب المسجد ، اتخذها زاوية له ، وقد كانت تلك الزاوية مزاراً للوافدين على سلا والمنتسبين لطريق القوم.[٧]

---

(١) وقد تولى هذه المشيخة عام ١٣٠٩هـ وتوفي عام ١٣٥١هـ. الأعلام ٦/٦٦.

(٢) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٧٤.

(٣) الخطط التوفيقية ٣/٤٣٦. وقد توفي علي باشا مبارك سنة ١٣١١هـ.

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢٢.

(٥) عجائب الآثار ٢/٤١٩. (٦) الخطط التوفيقية ٣/٨٩ .

(٧) من أعلام الفكر المعاصر ٢/١٥٣.

ومع ما كان يلقاه المتصوفة من دعم سخي من أمراء الناس وأثريائهم خصوصاً فيما يتعلق ببناء الزوايا ، فإنهم في كثير من الأحيان هم الذين كانوا يبادرون إلى بناء زواياهم دون انتظار لمساعدة أحد من الناس . فإن الزوايا بالنسبة لهم تمثل شرايين الحياة التي تجري فيها طرقهم وطقوسهم وبدعهم.

فهذا الشيخ أبو عبد الله بن عبد الرحمن الونيسي (المتوفى سنه ١٢٤٢هـ) قد أقام زوايا عديدة في تونس هي محط رحال كثير من القبائل هناك.(١)

والشيخ صديق السندي (المتوفى ١٣٢٢هـ) قام ببناء زاوية في محلة المسفلة بمكة المكرمة، وكان يأتيه فيها المريدون.(٢) ومثل ذلك يقال عن كثير من المتصوفة الذين يهبون لبناء زواياهم في أي بلد ينزلون فيه.

وفي تلك الفترة انتشرت الزوايا الصوفية ، وتضاعفت أعدادها . ففي القاهرة وحدها كان يوجد مائتان وخمس وعشرون زاوية.(٣)

وفي منطقة زواوة وبجاية في الجزائر كان يوجد أكثر من خمسين زاوية (٤) ، ويبلغ عددها في الجزائر كلها ثلاثمائة وتسعة وأربعين زاوية.(٥)

ومما يؤسف له أن عدد الزوايا الصوفية كان يفوق بكثير عدد المساجد والمدارس.(٦) ويرجع ذلك بشكل رئيسي إلى كثرة الأوقاف على الزوايا. فقد كان الناس يوقفون على الزوايا أضعاف ما كانوا يوقفونه على المساجد والمدارس ، لأجل أن يرضى عنهم شيوخ الزوايا ، ويمنحوهم من بركاتهم.(٧)

وكما كانت الأضرحة ملجأً للفارين . ومأمناً للمجرمين ، فكذلك كانت كثير من الزوايا حمى للعائذين بها ، والهاربين إليها. فزاوية معمرة في إحدى نواحي قسطنطينة كانت أماناً للخائفين ، لا يمس من لاذ بها بسوء.

وكان محي الدين مقدم الطريقة القادرية ، يصف زاويته (زاوية القيطنة) بأنها كمقام إبراهيم

---

(١) شجرة النور الزكية ص ٣٦٩.

(٢) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/١٧٦.

(٣) الخطط التوفيقية ٣/٨٩ وقد انخفض هذا العدد والحمد لله ، حيث ذكر الدكتور الطويل أن عدد الزوايا في زمنه كان حوالي سبعين زاوية.

(٤) تاريخ الجزائر الثقافي ١/٢٦٤.

(٥) ابن باديس. حياته وآثاره ١/١٨ جمع ودراسة د. عمار الطالبي دار الغرب الإسلامي. بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٦) تاريخ الجزائر الثقافي ١/٢٦٩.

(٧) المصدر السابق ١/٢٦٩.

من دخلها كان آمنا.[(١)] وهكذا انتشرت هذه الطرق المبتدعة بزواياها وتشعبت. يقول الشيخ محمد الحجوي (المتوفى سنة ١٣٧٦هـ)[(٢)] : «حتى أنك إذا بحثت في أي مدينة أو قرية في غالب الممالك الإسلامية تجد زواياها أكثر من مساجدها ومن المدارس ، ولا تكاد تجد عائلة إلا وهي آخذة طريقة من الطرق تتعصب لها برجالها ونسائها وصبيانها ، على أنه ربما تجد في العائلة طالباً واحداً للعلم، ولا تجد فيها من يحسن الكتابة، حتى التجأت الدول الإسلامية أن تعتبر رؤساء الطرق بمنزلة الموظفين وتسميهم كما تسمى موظفيها، لتختار من لا يكون ضدها. وفي بعض الأقاليم تجعل رئيساً عاماً على جميع المشايخ تسميه شيخ المشايخ....

والطامة الكبرى هي أن جل من ينتسب للعلم من أهل زماننا يتسابقون للأخذ عن تلك الطرق البدعية ، ويتحزبون لها ، ويعضدونها .... ومن لم يأخذ عنهم نظروا له شزراً وعدوه بدعياً ظاهراً ، حتى فرقوا علماء الأمة إلى فرقتين : الفقهاء وهم أهل الظاهر وأهل الرسوم ، وهو أحق بذلك ، لم يبق إلا رسم الفقه ، ومتصوفة وهم أهل الباطن..».[(٣)]

وهكذا كانت تضيع الأوقات ، وتنفق الأعمار في أخذ طريقة ، وتجديد أخرى ، وتبدد الجهود والطاقات في كثرة الأسفار والرحلات لنشر هذه الطرق التي ما أنزل الله بها من سلطان، واستحوذت على جل اهتماماتهم وتطلعاتهم ، وشغلتهم عن ادراك مؤامرات الأعداء المترقبين ، وعن أعداد القوة اللازمة لرد الكيد والاعتداء. فضلاً عن تفكيرهم في معالجة الواقع الأليم واصلاحه.

سابعاً : الذكر عند الصوفية (الانشاد . الغناء . الرقص) :

«كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعاً إبان هذا العصر ، وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إليه تعالى ، فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز ، فقال قائلهم إن الذكر آثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكامل الذي عرف عظمة ربه، ولا عبرة عند البعض من إيثار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعاً واتفقوا جميعاً على أن ذكر الله والاشتغال برياضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم «بالدين».

على أن عمدة الطريق الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون للمريد شغل إلا بربه. وقالوا : إن الذكر منشور الولاية ، أي أنه مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك الدنيا «مرسومات» بالحاق

---

(١) المصدر السابق ١/٢٧١.

(٢) الأعلام ٦/٩٦.

(٣) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢/٦١ تحقيق الدكتور عبد العزيز القارئ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

كبار الموظفين في الوظائف الشاغرة ، ومصادر التصوف في هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللجاجة في تقديره وتقديسه ، ولم تكن هذه اللجاجة غريبة على من يرون أن الذاكر جليس الله ، وليس يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وحدهم ، وإذا كانوا ملوك الدنيا لا يأذنون لكل إنسان بالمثول بين أيديهم ، وإن اشتهى ذلك، فأحر بالخالق أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله. ومن هنا اشتدوا في حساب من يتغيب عن مجالس الذكر ، ولو اعتذر بالانصراف إلى دراسة الدين...».(١)

وقد اشتد المتصوفة في الغلو والاعتقاد في الذكر ، وقالوا إن الذكر «يسلم الذاكر إلى حضرة الله ، فيضحي الحق سمعه وبصره وكل قواه ، فينبثق العلم في نفسه ، ويزايله الشك في أمره ، ويصبح بإتصاله بالله قوياً بعد ضعف ، آمنا بعد خوف ، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ! هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة الذي أعوزهم العيش على ما يحبون ، وجهلوا «الاتصال العلمي» الذي يربط بين المعلولات وعللها ، فتصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون».(٢)

وقد كانت تعقد مجالس الذكر في الخلوات والزوايا في أغلب الأحيان ، وربما عقدت في المساجد. ونترك الحديث لشيخ المتصوفة في عصره ، ولمن كانت له الكلمة النافذة عند السلطان عبد الحميد. ذلك هو الشيخ محمد أبو الهدى أفندي الصيادي الرفاعي في كتابه «رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع» حيث يقول : «قد علم المسلمون في المشارق والمغارب أن القوم أهل الطريقة الذين اتحفهم الله بلباب الحقيقة (٣) هم قوم اشتغلوا بتصفية البواطن ، وبنوا أعمالهم على النيات ، وعاملوا بها خالق البريات ...... ولما كان مبنى طريق السادة الصوفية هو النية ، وقد ظهرت عليهم آثارها ، ولمعت فيهم أنوارها ، واحكموا طريقهم بها ، ودخلوا على الله من بابها ، فالمسيء بهم الظن ممكور ، والمنتقد عليهم محقور».(٤)

ثم يقول: «تنبيه» «إن القوم ما هم عليه من طهارة الطوية ونزاهة النية فمجالسهم المباركة مؤيدة بالنصوص والأخبار ، مسددة بالنقول والآثار ، وحفل أذكارهم وسماعاتهم مآخذها الشرعية عالية ، وغاياتها الروحانية سامية ، وستأتيك شرائف أخبارهم ، فكن أيها المحب من حزبهم وأنصارهم ،

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٧.

(٣) أي حقيقة يعني ..؟ في الغالب لا تكون إلا عقيدة وحدة الوجود الكفرية تلك العقيدة التي يدور حولها كلام المتصوفة قديماً وحديثاً. انظر : الكشف عن حقيقة الصوفية للدكتور محمود عبد الرؤوف القاسم.

(٤) رياضة الأسماع ص ٦ مطبعة التمدن بمصر سنة ١٩٠٢م . وهكذا يعتمد هؤلاء المتصوفة أنهم الواصلون إلى أصل الحقيقة ، فمن أساء الظن بهم أو انتقدهم فهو ممكور أو محقور.

وتمسك بآثارهم ﴿ أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[(١)] ثم يصف مجلس الذكر وكيف أنه يكون بعد أداء الصلاة المفروضة واجتماع الإخوان ، ويفتتح بتلاوة فاتحة الكتاب وكثير من الآيات والسور القرآنية والصلوات النبوية ثم الجهر بقول لا إله إلا الله وهم قعود ، « ثم تنقل طبقة الذكر إلى قول الله بلفظ صريح ونطق صحيح ، ثم يخفون اللفظ فيضربون به بلهجة قلبية ، وهوية باطنية ، ثم تنقل الطبقة إلى قول يا الله لفظاً، ثم يرجعون إلى اللهجة الباطنية، ويكثرون من تكرار اسم الذات ويأخذون بالهوية ، ويختمون الذكر بالصلاة والسلام على سيد الأنام ﷺ ، وبقراءة شيء من القرآن العظيم ، ويكثرون من الفواتح لأرواح حضرات الأنبياء العظام ، والآل الكرام، والصحابة الأعلام. وشيخهم الغوث الرفاعي الهمام ، وجميع الأولياء والعلماء الصالحين أولى الاحترام ، ثم يدعون لإمام المسلمين خليفة العصر أمير المؤمنين ، أيده الله ونصره الله بالتوفيق والتمسك بحبل الشرع الوثيق ، ونصرة الدين ، وتأييد عساكر المسلمين ، وحفظ ثغور بلاد المؤمنين واعزاز كلمة الله في العالمين . ويدعون بالخير لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات وفي أثناء ذكرهم يهتزون يميناً وشمالاً يميلون ، ويبكون ويتواجدون ، ويئنون ويتأوهون ، وتخشع منهم الجلود ، وتذرف العيون ، وينشد لهم الحادي من كلمات الصالحين ، ومنظومات العارفين ، وأقوال العاشقين الصادقين شيئاً كثيراً من المدائح بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وإمام طريقتهم وأخلافه والصالحين المتقدمين».[(٢)]

ويذكر محمد رؤوف الشيخلي وصفاً لمجلس من مجالس الذكر عند أتباع الطريقة الرفاعية في بغداد، وأن الذاكرين في المجلس يصاب بعضهم بغيبوبة، فيتكلمون بكلام غير مفهوم يقول عنه البعض إنه كلام بالسريانية أو الهندية ، ويخرج من أفواههم زبد أبيض كالحليب ، وهم قاعدون أو قائمون ، وفي كلتا الحالتين يأتون بحركات غير اختيارية ، كأن يترنحوا واقفين، أو يتمرغوا على الأرض، فيقول بعض الحاضرين : شهدوهم ، يعنى قولوا كلمة الشهادة في أذانهم مراراً إلى أن يقولوها ، وعند أدائها تذهب عنهم الغيبوبة رويداً رويداً ، ويجلسون كأن لم يحدث بهم شئ ، والبعض منهم لا يمكنون أحداً من تلقينهم الشهادة ، بل يبقون إلى أن يتوجهون إلى أحد الجدران ، كأنهم يبارزونه ، ثم يأتونه راكضين ، فيضرب الواحد منهم رأسه بالجدار، فالضربة الأولى تكون خفيفة، ثم تشتد بدرجة أن يكون لها صوت مسموع ، فيبادر إليه أكثر من شخص ، ولا يتمكنون من تلقينه الشهادة إلا بشق الأنفس!!!»[(٣)] وقد ذكر الغزي قريباً من ذلك [(٤)] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٤.

(٣) مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ١/١٩.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ١/٢٨١.

أما محمد بن سليم الجندي فيصف الذكر عند الرفاعية في بلاد الشام بوصف مغاير لما سبق ، وتعتمد طريقة الذكر هذه على شيخ الحلقة في إدارتها وتنظيمها ، فالشيخ هو الذي ينتقل بهم من رفع الأصوات إلى خفضها أو العكس ، وهو الذي ينقلهم من فصل إلى فصل ومن نغمة إلى نعمة ، «فيبدأ ذلك ، ثم يتابعونه ، ويشير إليهم بيده أو يديه ، أو يضرب بإحداهما على الأخرى لينتبهوا عند الانتقال من فصل إلى آخر ، أو من حالة إلى ما هو أسرع منها ، أو أخف أو للمحافظة على النغم والوحدة»(١).

وهناك محترفون للذكر يتبارون في إظهار المقدرة على الاتقان والإبداع في طريقته.

يقول الجندي : «وقد ينبغ بعض الذاكرين ، فيتقن الألفاظ والأفعال ، والحركات و السكنات ، ويحسن التحول والانتقال ، على وفق النظم والآداب المتبعة عندهم ، و من كان كذلك يسمى ذكيراً ، وهذا الذكير يظهر مهارته وبراعته في أثناء الذكر ، فيخالف القوم في تحركهم من اليمين إلى الشمال، أو من الامام إلى الوراء ، ثم يعود بسرعة ، وإذا كانوا يميلون من الأمام إلى الوراء ، مال من اليمين إلى الشمال ، وأظهر كأنه يخالفهم ، ثم عاد بسرعة إلى موافقتهم ، وقد يبطئ إذا أسرعوا ، ويسرع إذا أبطأوا ، ويأتي بمثل هذه الأعمال للدلالة على قدرته ، ويدقق أحوال الذاكرين و المنشدين ، فيحسبون له حساباً. وإذا أخذ الشيخ مالاً على الذكر ، أعطى منه جماعته ، وأجزل حصة الذكيرين ، وشيخ الطريق يقرب الذكيرين ويباهي بهم و يكرمهم ويخاف سخطهم ، فهم عنده بمثابة الأبطال عند قائد الجيش»(٢).

وقد كانت بعض طوائف الصوفية يرفعون الصوت بالهيللة في الطريق مع وضع السبح المتنوعة في العنق ، كما هو الشأن عند طائفة الدرقاوية(٣).

لقد كان المتصوفة يعكفون على هذه المجالس المبتدعة ، ويضيعون أوقاتهم ، ويصرفون جهودهم فيها ، مع اعتقادهم أن هذه المجالس وأمثالها تجلب النصر للدين ، والظفر لجيوش المسلمين ، والحفظ لثغور البلاد(٤).

---

(١) تاريخ معرة النعمان ٢٦١/١.

(٢) المصدر السابق ٢٦٣/١.

(٣) من أعلام الفكر المعاصر ١٥٣/٢.

(٤) وقد ذكرنا أنه عندما بدأت جيوش نابليون تزحف إلى القاهرة مدمرة لكل ما يقف في طريقها خرج المتصوفة صارخين بأذكارهم ، ومولولين بمبتدعاتهم في الطرقات ، ظناً منهم أنها قد تصد عنهم هجمات المعتدين ، أو تنصرهم على هؤلاء الزاحفين. وفي ليلة معركة «التل الكبير» التي هزم فيها الإنجليز الجيش العرابي هزيمة ساحقة ، كان كثير من أفراد هذا الجيش يحيون ليلة ذكر على طريقة المتصوفة إلى وقت متأخر من الليل ، فما أن لاح الصباح حتى باغت الإنجليز مواقع الجيش الذي كان كثير من أفراده يغطون في سبات عميق نتيجة للسهر المتواصل ، ومن كان منهم مستيقظاً فقد كبله الإعياء وأضناه السهر عن أن يقاوم كما هو المنتظر منه.

وكان طبيعياً بعد أن تحول الذكر إلى مهنة وحرفة وإلى حلبات أشبه بحلبات المصارعة ، وميدان للاستعراض والمنافسة ، أن يستأثر بأوقات هؤلاء و يمتص طاقاتهم ويشغل تفكيرهم ، ويحوي اهتماماتهم ، هذا غير الناس الذين يقيمون هذه الحفلات الصاخبة على حسابهم ، ويغدقون الأموال عليها ، ويواظبون على حضورها والاحتفاء بها ويدعو أبو الهدى الصيادي إلى رفع الصوت بالذكر والحركة الشديدة أثناء الذكر و ويدافع عما يقع من المتصوفة من حركات هوجاء أثناء ذكرهم، وينتصر لهم مفتاتاً على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأنهم كانوا يفعلون شيئاً من ذلك . وأخذ يعدد فوائد الحركات الشديدة التي يقوم بها البدن ، وأنها تميز الصفات النفسية الذميمة ، من الصفات القلبية الحميدة ، كالزبد لا يتميز عن اللبن إلا بالتحريك الشديد في جرة أو قربة في زمن طويل(١).

وقد كان من أهم وظائف شيوخ المتصوفة تلقين الذكر لمريديهم. وكان غالب الذكر عندهم في صورة منحرفة ، بل قد يصل إلى حد الكفر في بعض الأحيان ، كالأذكار التي تبنى على عقيدة وحدة الوجود. يقول أحدهم عن شيخه : «ولما كان ليلة الثلاثاء لست وعشرين خلت من شعبان سنة ١٢٥٧هـ لقنني الذكر بهذه الصيغة : لا إله إلا الله ، لا معبود إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا مقصود إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا موجود إلا الله !! لا إله إلا الله ، لا مشهود إلا الله!...»(٢) فإن العبارتين الآخيرتين من هذا الذكر الملقن هما عين ما يقرره أهل وحدة الوجود، من أن كل الموجودات والمشهودات في العالم ما هي إلا الله عز وجل ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً(٣).

«ولا بد للمريد السالك من الاشتغال بالذكر دائماً ، بأي نوع كان من الأذكار : وأعلاها الإسم الأعظم وهو قولك الله الله لا يزيد عليه شيئاً.... لأنه ذكر الخاصة من عباده الذين يحفظ الله بهم عالم الدنيا ، وكل دار يكونون فيها ، فإذا لم يبق في الدنيا منهم أحد ، لم يبق للدنيا سبب حافظ يحفظها الله من أجله فتنزول وتخرب...»(٤)

وقد غرق المتصوفة في لجة ما اخترعوه من أذكار ، وأخذوا يتمحلون فيما يوردونه من مسائل حول الذكر الذي أصبح كل شيء في حياتهم.

يذكر الشيخ عبد الرزاق البيطار أن شقيقه الشيخ عبد الغني البيطار سأله عن قول الصوفي أحمد بن إدريس : لو أطال الله عمر رجل من زمن أبينا آدم إلى قيام الساعة وهو يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ورجل قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، في كل لمحة ونفس ، عدد ما وسعه علم الله مرة واحدة ، في القيمة يسبق ذلك.

---

(١) رياضة الأسماع ص ٣١.

(٢) نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر ٣٢٩/١.

(٣) انظر : دراسات في الفرق : الصوفية ص ٤٢.

(٤) حلية البشر ٨٧٩/٢.

ما المقصود من هذه العبادة ، وهل هي على ظاهرها ، أم سلك فيها مسلك الحقيقة والإشارة ، ويذكر أن الكلام قد طال بينهما في هذا المقام[١].

وكان من علماء الصوفية من يسافر بين الأقطار ليحيي مجالس الذكر ، كما كان يفعل الشيخ علي بن محمد القناوي المصري الشافعي الخلوتي ، فقد كان «يكرر التردد إلى زبيد وصنعاء اليمن... ويجتمع عليه في كل ليلة من الخاص والعام ، جمعية كبرى مع معاملتهم بالأدب التام ، ويدخلون معه في حلقة الذكر .... وكان عنده من يقف في الحلقة وينشد من كلام القوم بالنغمات الرائعة ، والحركات في الصوت الفائقة»[٢]

وقد كان بعضهم يستجيز الأذكار الصوفية ، كما فعل محمد السنوسي حين استجاز الشيخ محمد ظافر المدني في عموم الأحزاب الشاذلية بسنده فيها ، فأجازه بذلك[٣].

وهناك بعض الخرافات التي كان يتناقلها المتصوفة حول الذكر ، كقول أحدهم أن من أصابه صداع ، فقال ويده على رأسه : لا إله إلا الله مائة وخمساً وستين مرة زال عنه الصداع[٤].

وكالذي ذكره الشيخ محمد رشيد رضا عن والدته التي كانت تسمع من صدر عمها عندما تضع أذنها عليه ترداد اسم الجلالة ، الله ، الله ، الله[٥].

«وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون ينشدون الأشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين ، وكان يملأ الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات»[٦].

وقد أباح المتصوفة الغناء والسماع والرقص ، وكان كثير منهم يقبلون على استماع الملاهي والمعازف ، ويتعلمون الموسيقى.

ويقول أبو الهدى الصيادي من قصيدة له في الدف الذي كانت لا تخلو منه حلقة ذكر إلا قليلاً :

اضرب الدف وجانب جاهلاً ... حكمة الشرع لمعنى ما درى
كل ما حرك قلباً ساكناً ... ودعا العقل به معتبرا
وأجال الروح في برزخها ... تذكر الله وتبغي مظهراً

(١) المصدر السابق ٢/٨٧٥.

(٢) المصدر السابق ٢/١٠٦٨.

(٣) الرحلة الحجازية ٣/٤٣.

(٤) حلية البشر ١/٣٢ وكم تكون للعقيدة من تأثير على نفس المعتقد كما يقول محقق الكتاب محمد بهجت البيطار.

(٥) السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة ص٥٢ الأمير شكيب أرسلان. مطبعة ابن زيدون دمشق. الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م.

(٦) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص٦٦.

فــهــو بر والذي يفــعله ... فــعل البــر والله يرى
إن فــي الــدف وفــي رنتــه ... نغــمــة يعــرفــهــا من ذكــرا
صــوته ذكــر وفي بحــتــه ... أنّة تذكــر أوقــات الســرى
نضــرب الدف ومنــه عــندنا ... ذاكــراً نســمــعــه لن يفــتــرا[1]

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة. يقول أبو الهدى الصيادي : «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال! بعيد عن نور الروحانية! ، زائد في غلظة الطبع وكثافته! و بل هو أبلد من الجمال والطيور وسائر البهايم!! ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة .... وبالجملة فالسماع يثمر حالة في القلب وتسمى وجداً ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص».[2]

فلا عجب بعد هذا أن تزدحم تراجم المتصوفة في تلك الفترة بذكر الغناء والرقص واستماع الملاهي والمعازف. وربما زعم بعضهم أن استماعهم للغناء يكون لغلبة الحالة كما يقولون. (ومن هؤلاء المتصوف وحيد الحق البهلواروي) .[3] وهذا أبو البركات المجذوب ابن عبد الحفيظ (المتوفى سنة ١٢٦٠هـ) كان يحب السماع ويميل إلى اباحته وجوازه.[4]

ويعضهم كان يقوم بتعلم الموسيقى، كما فعل الحاج عثمان بن الحاج عبد الله الطحان.[5] وياليت أن هؤلاء المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء ، ولكنهم جعلوه إلى الله قربة ، وعدوه طاعة تلين بها القلوب ، وتشف بها الأرواح. وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول : «فلو رأيتهم عند ذياك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟ ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس ، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميا الكؤوس ، فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوب هناك تمزق ، وأثواب تشقق ، وأموال في غير طاعة تنفق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله ، واستفزهم بصوته وحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالدباب

(١) رياضة الأسماع ص٤٥.
(٢) المصدر السابق ص٧٨.
(٣) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٤٥٤.
(٤) شجرة النور الزكية ص٣٩٨.
(٥) حلية البشر ٢/١٠٥٥.

ترقص وسيط الديار ، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام ، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطرباً ، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطناً ، ولا أثار فيه وجداً ، ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زنداً ، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت .... ولقد أحسن القائل :

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لا هي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن ... فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى ... زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

إلى قال رحمه الله ، وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد أفعالهم :

ألا قل لهم قول عبد نصوح ... وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس في ديننا ... بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل الحما ... ر ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك البهائم إن أشبعت ... يرقصها ريها والشبع
ويسكره الناي ثم الغنا ... ويس لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهى ... ألا منكر منكم للبدع
تهان مساجدنا بالسما ... ع وتكرم عن مثل ذاك البيع(١)

وهكذا استحالت حياة هؤلاء المتصوفة إلى حياة اللهو والسخافة ، بما أضاعوه من أوقاتهم

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/٢٢٤ - ٢٣١ تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي دار المعرفة. بيروت.

وأعمارهم في مجالس الأذكار والسماع والملاهي. وأصبحت حياتهم من أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المحرفة، والمسلم الكامل في اعتقادهم هو الذي وقف حياته على الذكر فقط، أما السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر وحده.

ثامنًا: الكرامات والخوارق عند الصوفية في هذه الفترة:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك. وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ»(١).

ويقول في موضع آخر: «ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيًا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة»(٢). ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء(٣).

وإذا كانت هذه نظرة السلف إلى الكرامات، فإن المتصوفة قد غلوا في ذلك غلوًا عظيمًا.

يقول الشيخ «محمد المبارك» رحمه الله عند حديثه عن بعض انحرافات الصوفية: ومنها المغالاة في ذكر الخوارق والكرامات، وجعلها مقياسًا للتقوى والصلاح»(٤). لقد غلا المتصوفة في ذكر الخوارق والكرامات وفي تضخيمها والاعتماد عليها، وجعلها المقياس للولاية والصلاح والتقوى، فإنه بمقدار ما يظهر على يدي الشخص من خوارق تكون ولايته وصلاحه وتقواه، لا بالتزامه بأوامر الشرع وأحكامه.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧٤/١١. (٢) المصدر السابق ٢٨٣/١١.

(٣) جاء في العقيدة الطحاوية للإمام «الطحاوي»: ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم. انظر شرح العقيدة الطحاوية ٧٤٦/٢ لابن «أبي العز الدمشقي الحنفي». تحقيق الدكتور «عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط». مؤسسة الرسالة. الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م «بيروت».

(٤) المجتمع الإسلامي المعاصر ص٨٢.

هذه الفكرة الخطيرة لاقت رواجًا عظيمًا في الفترة التي ندرسها ، حيث استطاع كثير من الدجالين والمشعوذين والمخرقين أن يظهروا للناس في أثواب الولاية والصلاح ، مع أن بينهم وبين ما ادعوه بعد المشرقين ، ولكن لظهور بعض الخوارق الشيطانية على أيديهم ، استطاعوا التغرير بالعامة، بل وبكثير من المنتسبين إلى العلم ، فأضحوا في نظر كثير من الناس من أئمة الدين وأولياء الله الصالحين.

«وصار التدين هو الإيمان بالشيخ وكراماته ، وبأحواله وقدرته على استشفاف الغيب وقدرته على شفاء المرضى بغير دواء ...»[1].

وسنرى من خلال هذه الصفحات كيف غلا المتصوفة في هذه الخوارق، وجعلوها مقياسًا للولاية والصلاح ، وأخطر من ذلك ، كيف عطلوا الأخذ بالأسباب اعتمادًا عليها ، حيث أصبحت حياتهم في كل شؤونها تدور حول هذه الخوارق والكرامات التي داخلها من الخرافات والأساطير والكذب شيء عظيم.

لقد ذكرنا من قبل كيف أن هؤلاء المتصوفة كانوا يرون أن الإعراض عن الدنيا والاستهانة بمتعها وملاذها ، والبعد عن الناس ، يوصل الإنسان إلى حضرته تعالى ، ومتى وصل الإنسان إلى هذه المنزلة ، فإنه يكون بإمكانه حينئذ خرق العادة ، والإتيان بأمور فوق قدرة البشر وطاقتهم.

وما من شك أن عجز هؤلاء المتصوفة عن تغيير الواقع السيء ، جعلهم يعيشون في دنيا الخوارق والكرامات ، وينسجون من ذلك حكايات وقصصًا لا أثر لها في الواقع ، وكان الواقع القائم بالفعل ، الذي غدا مسرحًا لضروب الظلم والطغيان وميدانًا رحبًا لأشكال الضعف والفقر والمرض ، تربة خصبة لانتشار مثل هذه الحكايات والقصص.

فإن الناس حين عجزوا عن القيام بإتخاذ الأسباب التي تؤدي إلى تغيير واقعهم وفشلوا في إحداث التغيير كان من السهل عليهم أن يجنحوا إلى عالم الخوارق والكرامات ويسرحوا بعقولهم وقلوبهم في رحابه الفسيحة ، منتظرين في كل نازلة تنزل بهم أو كارثة تقع عليهم ، أو عدو يدهمهم ، أو مرض يضعفهم، أن تظهر لهم خارقة ، أو تلوح لهم كرامة ، تكشف عنهم ما وقع عليهم ونزل بهم.

وبدلاً من أن يهب الناس جميعًا ، كل بحسبه ، إلى محاولة تغيير الواقع السيء ، وذلك بالأخذ بالأسباب ، والعمل الجاد المتواصل دون يأس أو ملل ، بدلاً من كل هذا ، أصيب الناس بالإحباط والعجز ، وتملكهم اليأس والقنوط، وهربوا إلى دنيا الأساطير والخرافات وانتظار الخوارق والكرامات.

---

(١) واقعنا المعاصر ص١٥٥ وفي تلك الفترة لم يعد يفرق بين كرامات الصالحين وبين استدراج الزائغين ، وأحوال الدجالين وأولياء الشياطين. فمن ظهر له خرق العادة ، فهو من كبار الأولياء والصالحين ، ولو كان من أعتى الفاجرين.

وإننا لا نكاد نمر بترجمة من التراجم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في غالب كتب التواريخ والتراجم لتلك الفترة ، دون أن نجد الإشارة إلى هذه الخوارق والكرامات ، وكأن الترجمة لا تكمل إلا بها ، وكأن صلاح المترجم وولايته وتقواه لا تكتمل إلا بذكر هذه الأمور.

على أن هناك ملاحظة يخرج بها الباحث في تلك الفترة ، وهي ما درج عليه مؤرخو تلك الفترة ، ومترجمو علمائها ، من ذكر الخوارق والكرامات في غالب مؤلفاتهم ، بصورة مجملة ، دون الخوض في تفصيلاتها ، وأعتقد أنه لا تفاصيل فيما ذكر البتة ، وإنما جاء ذلك من الغلو الزائد في الخوارق والكرامات ، واعتقاد هؤلاء المترجمين أن ذلك من أهم الجوانب التي تقوم عليه التراجم ، وليس أدل على ذلك من كثرة إطلاق مثل هذه العبارات المجملة ، ثم إذا مرت واقعة واحدة مما عدوه كرامة ، أطالوا في إيرادها ، وأطنبوا في شرحها ، وحاولوا تضخيمها ، وكأنهم قد ظفروا بصيد ثمين ، بل وحتى تفسير أبسط الحوادث العادية على أنها من الخوارق العظيمة والكرامات الجسيمة ، فلا غرو بعد هذا أن تزدحم كتب التواريخ والتراجم والرحلات بأخبار هذه الوقائع التي كانت حديث الناس ومنتهى اهتماماتهم.

ومن الأمثلة على ذكر هذه الخوارق والكرامات مجملة ما ذكره الشيخ «البيطار» في تاريخه «حلية البشر» عن جل من ترجم لهم من أعلام. فيقول مثلاً عن الشيخ «علي الخضري الدمشقي» : «كان من الأولياء الصالحين وأهل الكرامات الناجحين»[1]. ويقول عن الشيخ «محمد المجذوب العمادي» : «وله كرامات جلية! وخوارق كثيرة سنية!»[2] ويقول عن الشيخ «محمد المصري المجذوب» : «وكان له إخبارات غيبية ، وكشوفات علية ، وظهرت له كرامات تثبت أنه عند الله من ذوي الرتب والعنايات»[3]. ويقول عن المدعو بالسيد «رجب بن محمد آل خزام الرفاعي الصيادي» : «ورؤي له من الكرامات ما يحير العقول ..... كإبراء المقعد والمجنون والملووق ، والإخبار ببعض المغيبات ، والإنفاق مما لا يعلم له أصل ولا سبب ، بل من كنز الغيب!. .... ولو أردنا تعداد كراماته الثابته المتواترة ، لاحتجنا إلى مجلد كبير»[4]. فكيف بغير المتواترة!!.

ويقول عن الشيخ «عبد الجواد القاياتي» : «وكراماته أشهر من أن تذكر ، ومناقبه لا تعد ولا تحصر»[5]. ويقول عن الشيخ «وهبة أبي العظام» : «وله كرامات شهيرة تدل على أنه من أكمل الرجال، وهو مقصود للزيارة من كل مكان ، ومعدود من أهل الكرامة والولاية والشأن ...... ولو أردنا أن

---

(١) حلية البشر ١٠٩٢/٢.

(٢) المصدر السابق ١٣٠٢/٣.

(٣) المصدر السابق ١٣٥١/٣.

(٤) المصدر نفسه ٦٢٧/٢.

(٥) المصدر نفسه ٧٨٨/٢.

نحصي ما له من الكرامات الكبار ، لخرجنا من منهج المقصود من الإيجاز والاختصار..»[(١)] فكيف بالكرامات الصغار!! لقد كانت هذه الخوارق والكرامات حديث الناس عامة وشيوخ المتصوفة خاصة كما كان يفعل الفقيه الصوفي «ابن مسعود المغربي» (المتوفى سنة ١٣٣٥هـ) حيث جاء في ترجمته : «له عناية بمطالعة كتب التصوف .... مع العناية بزيارة الأولياء والصالحين سواء الأحياء والأموات ، لا يفتر عن التحديث بحكاياتهم ، وإيراد مناقبهم وكراماتهم»[(٢)]. وقد كان والد الشيخ «محمد بن أحمد الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهري» يأمر كل من يحضر عنده بزيارة ابنه المذكور ، والتلقي عنه، وطلب الدعاء منه ، ويحكي لهم عنه مزايا وكرامات ومكاشفات ومجاهدات وزهديات ، فازداد اعتقاد الناس فيه..»[(٣)].

ونأتي الآن إلى تفصيل بعض ما أسموه بالكرامات وخوارق العادات ، التي أغلبها من الأحوال الشيطانية ، والكذب المفترى ، والخرافة المتوهمة . لنرى تعلق الناس بها واعتمادهم عليها.

ففي «السودان» كان «الحاج محمود» ذا كرامات ظاهرة جلية ، ومقامات غير خفية. ومن ذلك أن امرأة تسمى «زهرا» طلبت منه أن يريها الشيخ «حسن ولد حسونة» ، فقال لها : الشيخ ميت ، أيقوم الميت! ، فقالت له : الشيخ قالوا يحيي الميت!! أرنا أنت شيئًا ، فعمد إلى حوتة ميتة منذ يومين ، وقال لهم : إيتوني بماء ، فأتوه به في قدح ، فوضع فيه تلك الحوتة ، فصارت تتحرك فيه ، فقال لها : هكذا[(٤)].

ولا نريد أن نقف عند هذه الواقعة ، لنفند ما جاء فيها من كفر صريح ، وكذب واضح ، ولكن كم يمكن أن تكون الآثار وخيمة على أناس تنتشر فيهم مثل هذه المعتقدات الفاسدة. فما دام أن هؤلاء الأولياء من المتصوفة موجودون بين ظهرانيهم ، يحيون الموتى ، ويأتون بالخوارق ، فلا عليهم بعد هذا أن يركنوا إليهم ، ويعتمدوا عليهم في كل صغيرة وكبيرة من أمورهم.

ومن كرامات الولي «محمود» أيضًا أنه حين عزم على الحج نزل عند أحد الفقهاء فقال لهم : «من يأتيني بقرعة مريسة [(٥)] ، أدعو له عند الرسول عليه السلام ، فقام رجل من المجلس فجاءه بقرعة فشربها ، ووعده بالدعاء ، ثم قال للفقيه : عشوني بحجارة ، فأرسل الفقيه الفقرا فأتوه بحجارة ، وفيهم منقار متفاحش المقدار ، فأخذ الكل ، وصار يبتلع فيهم فمسك الفقيه منهم الحجر الكبير ، وقال

---

(١) المصدر السابق ١٥٨٠/٣.

(٢) من أعلام الفكر المعاصر ٢٧٧/٢.

(٣) عجائب الآثار ٤٤١/٢.

(٤) تاريخ السلطة السنارية ص٣٣.

(٥) خمر شديد الإسكار.

له : اترك هذا ، فقال : هذا تمام عشاي فألح عليه في تركه ، فأبى ، فأخذه وابتلعه فخنقه في زوره قليلاً ، ثم نزل. فقال : سمعنا وقعته بأذننا ، أي الحاضرون حين وقع على قبله ، فقال : كع ثم أخرجه بعد ذلك» [١].

هكذا أصبح جلب الخمر لهذا الولي الفاجر ليشربها قربة يتسابق إليها. ولماذا..؟ لأجل أن يدعو ذلك الولي لهم عند قبر الرسول ﷺ ، ثم يأتي بعد ذلك هذا الولي ليستعرض بإظهار كراماته عن طريق التهام الحجارة حجراً بعد حجر ، ثم التجشؤ وإلقائها إلى الخارج . وليس من تعليق عندي أكثر من أن تلك الواقعة كانت صورة مزرية من مئات الألوف من الصور التي كان يعج بها العالم الإسلامي.

أما الولي «عبد الرحمن ولد أبو زيد» ، فقد ظهرت كراماته عند وفاته ، ومن ذلك أنه بعد ما غسل بعد موته ، لم تشرب الأرض من ماء الغسيل ولا قطرة واحدة ، ولم يترك الناس منه شيئًا ، بل أخذوه تبركًا به [٢].

فانظر إلى هذا السخف. وكيف يمكن أن يقع منه شيء على الأرض ، أو على فرض أنه قد وقع شيء عليها ، وقد تسارع الناس إلى أخذه كله للتبرك به فلم يبق منه شيء.

أما الشيخ «محمد المجذوب بن قمر الدين» فقد كان يقف على القبر ، ويطعم الناس منه السكر[٣]. ومن كراماته العظيمة وخوارقه الجسيمة «أنه ذات يوم في حالة المديح ، وحصلت له حالة ، وفي يده فنجان قهوة ، فرمى به في الهواء ، وهو ملآن ، فوقع على حاله لم تقطر منه قطرة على الأرض حتى أفاق وشربه» [٤]. «وله حكاية مشهورة في يوم صيف شديد الحر ، واجتمعت عليه الناس لصلاة الظهر ، ولم يطيقوا الوقوف فما خرج إلا وغيم النهار ، حتى صار عليهم بردًا وصلوا وراءه» [٥] ولا داعي لأن نقف مع هذا الهراء ، الذي عدوه من أعظم الكرامات وأجل الأحوال.

وفي «الهند» كان الشيخ «عبد الله الدهلوي» يقول : «إني أحب الشهادة في سبيل الله تعالى ، ولكن أذكر ما حصل للناس في شهادة شيخنا «مرزا جانان» رضي الله عنه من البلاء ، إذ قحطوا ثلاث سنين ، ومات بذلك خلق كثير ، ووقع قتل وحروب لا تعد ، فأترك سؤالها!»[٦].

---

(١) المصدر السابق ص٣٤ . ويقول عنه كاتب الشونة : إنه من طائفة الملامتية ، وهم نوع من الصوفية يفعلون القبيح لأجل ما يلامون به ، ويوهمون على الناس. وآثرنا أن ننقل الحكاية كما هي على ركاكة عباراتها .

(٢) المصدر السابق ص٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص١١١.

(٤) المصدر السابق ص١١٢.

(٥) المصدر السابق ص١١٢.

(٦) حلية البشر ٢/٩٣٦.

إلى هذا الحد كان المتصوفة ينظرون إلى مشايخهم وأنفسهم ، وقد كانت هذه النظرة مهيمنة على أوساط الأمة الإسلامية ، حين كان ينظر الناس إلى هؤلاء المتصوفة نظرة غالية ، معتقدين أنهم سبب لحفظ العالم ، واستقرار الأوضاع ، وعموم الرخاء ، فإذا هلكوا ، حل بالعالم الخراب ، وانعدم الأمن ، وقحط الناس ، فما يصيب الناس من قتل وتشريد، ومن تسلط للعدو عليهم ، ليس لبعد الناس عن دينهم ، وتهاونهم في الأخذ بالأسباب ، بل كل ذلك يقع لموت الأولياء الذين يحفظ العالم بهم. هذه النظرة المنحرفة التي كان ينظرها الشيخ «عبد الله الدهلوي» وغيره كثير ، كانت في وقت التغلغل الانجليزي في شبه القارة الهندية ، حين كانت مدن المسلمين تسقط مدينة تلو أخرى تحت أيدي الانجليز ، والمسلمون حالهم كما ذكرنا من قبل.

وفي «الشام» كان المدعو بالسيد «علي خزام الصيادي الرفاعي» يظهر من كراماته ، ما جعل أحد مترجميه يقول عنه : «وقد اشتهر في قبيلتنا، وثبت عند فصيلتنا، أن من ضاع له شيء، وأكل من زاد المترجم بالنية! ، يرد الله عليه ضائعه ، والسارق إذا أكل طعامه، وذهب لشغله ، لا يتيسر له سرقة شيء بإذن الله (١).

فأما الشق الأول من هذه الكرامة المزعومة ، فنكاد نجزم بكذبه ، إلا إذا كان ذلك الولي يستعين ببعض أوليائه من الشياطين ، وأما الشق الثاني ، فقد كان كثير من المجرمين واللصوص يهرعون إلى شيوخ الطريق خوفًا من سطوتهم ونفوذهم ، فيقيدونهم وهم في غاية الغبطة والسرور (٢). فلا غرابة بعد هذا أن يرتدع سارق عن السرقة ، بعد أن أكل من زاد هذا الولي وآمن بهذه الخرافة.

وفي بلاد «المغرب» كان الشيخ «محمد المبارك المغربي الجزائري» يستنطق الأشجار ، ويعلم ما في القبور! يخبر أحدهم : «أنه توجه يومًا مع المترجم وشيخه الشيخ «محمد المهدي» في بلاد «المغرب» من قرية إلى أخرى ، وهو ساع في خدمتهما لينال ثوابًا وأجرًا ، فوقفت بغلة الشيخ قرب قبر في الطريق ، فقال الشيخ : ما أصابها من البلاء؟ فقال المترجم : إن الله كشف لي عن صاحب هذا الضريح ، وهو الذي استوقف الدابة يلتمس منه الدعاء فدعا له، فانطلقت ، وإلى نحو المطلوب توجهت، ثم مرا في طريقهما على شجرة عظيمة ، فقال الشيخ للمترجم : ليت شعري في أي زمان غرست هذه الشجرة الجسيمة ، ومن غرسها في هذا المكان ، فهل من يعرف ذلك الآن؟ فأطرق المترجم غير طويل ، ثم قال : أيها الأستاذ الجليل : إن الله أنطقها لي فأخبرتني أنها غرست في التاريخ الفلاني ، وإن غارسها فلان بن فلان الفلاني» (٣).

---

(١) المصدر السابق ١٠٩٦/٢.

(٢) عجائب الآثار ٣٤٠/١.

(٣) حلية البشر ١٣٧٤/٣.

فأي فائدة يا ترى تجنى من معرفة غارس الشجرة ، ومن زمن غرسها. ثم ألا يمكن أن يكون ذلك الولي الذي نطقت له الشجرة كما زعم كاذباً ، وما البرهان على صحة كلامه؟.

ومن كراماته أيضاً أنه جاء مرة إلى شيخه يخبره بوفاة أخ له في الله في مكة من رجال الغيب الكرام، ويستأذنه في التوجه إلى بيت الله الحرام ، للصلاة عليه وتشييع جنازته وحضور دفنه في تربته، فأذن فغاب ، وبعد برهة رجع وآب [١]. وهذه من صلاة الخطوة عند المتصوفة.

ولشدة تعلق الناس بالكرامات والخوارق ، وتشبثهم بها ، صاروا يعدون كثيراً من الأمور البسيطة ، والشؤون العادية كرامات عظيمة ، كما ذكرنا من قبل.

فمن ذلك حين عزم المدعو بالسيد «أحمد دحلان» على السفر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة ، يقول مترجمه عنه : «وشوهد له في هذا السفر عجائب وغرائب تدل على انتقاله وحسن الحال ، وحصل له ومن معه فيه من الألطاف ما لا يخطر بالبال [٢] .... وألف رضي الله عنه قبل ذلك أيضاً بيومين (أي قبل وفاته) رسالة صغيرة في معرفة الأوقات لأداء العبادات ، وفي ذلك إشارة منه رضي الله عنه ، إلى أن الوقت قد دنا ، وقرب الانتقال إلى نعيم الجنات ، فيا لها من إشارة ما أوضحها وكرامة ما أعظمها [٣]....» «ورؤي له في هذا المرض غرائب وعجائب أيضاً تبهر العقول ، وتضيق عن حصرها النقول..» [٤].

وقد استغل بعض المحسوبين على الإسلام ما هيمن على عقول الناس وقلوبهم ، من تعلق بالكرامات والخوارق ، كما فعل والي مصر «محمد علي باشا» ، حين قام باختلاق رواية هو وأتباعه ، وذلك حين ادعوا أنه سمع في عرض نهر النيل في وقت السحر من يتوعد أعداء «محمد علي» من المماليك ، ويخبر أن الباشا منصور عليهم ، فأظهروا أن ذلك وقع من بعض أولياء الله الصالحين ، وما دام أن الأولياء كذلك ، فالناس تبع لهم ولا بد، وسرعان ما شاع ذلك الاختلاق بين الناس [٥]. واعتبرت كرامة «لمحمد علي باشا!».

ومن أغرب الأمور التي اعتبرت كرامة ، ما قاله الشيخ «البيطار» من أن بقاء الدولة العثمانية كل هذه المدة الطويلة كرامة ، وأن ذلك من بركة النبي ﷺ.

---

(١) المصدر السابق ٣/١٣٧٥.

(٢) نفحة الرحمن ص٦٩.

(٣) المصدر السابق ص٧٢.

(٤) المصدر السابق ص٧٥.

(٥) عجائب الآثار ٣/٣٠١.

وكذلك ماعتبره «القاياتي» من أن عيش المسلمين في «بيروت» بين عدد كثير من النصارى من الكرامات العظيمة. «فإن البلد تشتمل على نحو ثمانين ألفًا من النصارى ، ونحو عشرين ألفًا من المسلمين. وفضلاً عن ذلك فإن نصارى لبنان محيطون بهم من كل جانب ، بل ولغيرهم من البلاد، من حدود «طرابلس» إلى حدود «صيدا»، وهم يبلغون في العدد نحو مائتي ألف ، فمعيشة هذه الشرذمة القليلة مع هذا العدد الكثير .... وتأييد إخوانهم وأهل أديانهم الأوروباويين لهم ، من تأييد الله لهذا الدين المحمدي ، والشعب الإسلامي ، كرامة لحضرة هذا النبي ﷺ» [١].

وليت القاياتي عاش في زمننا هذا حتى يرى ما فعله هؤلاء النصارى بالمسلمين في لبنان وفي غير لبنان.

ومن أخطر الآثار التي نتجت عن الإغراق في التعلق بالخوارق والكرامات ما تمثل في اعتماد الناس عليها في جهاد الكافرين ، ومقاومة المعتدين.

فلما احتل الإنجليز ميناء «عدن» عام ١٢٥٣هـ بعد هزيمة المتولي عليها ، وإبرامه معاهدة مخزية معهم ، قام أحد الأشراف بمكة عام ١٢٦٢هـ ويدعى الشريف «إسماعيل بن حسن» بجمع الناس لجهاد الإنجليز وطردهم من «عدن». ولكن كانت عدته الأولى في جهاد المعتدين هو الاعتماد على الكرامات وخوارق العادات!!.

يقول المؤرخ الأمير «أحمد فضل بن علي محسن العبدلي» (المتوفى سنة ١٣٦٢هـ)[٢] في تاريخه : «وكان الشريف يغري المسلمين بجهاد النصارى في «عدن» ، ويعدهم بالفتح المبين ، والنصر المكين ، ويمنيهم بأن الله قد أخجل النصارى ، وعزز الموحدين ، وأن مدافع الانكليز قد أطفأ الله شرارها!! ، ودفعت عن المجاهدين أشرارها ، فقصد في جمع من أصحابه «عدن» ، فردهم عنها الانكليز بالمدافع!، وقتل منهم جملة قتلى، فعادوا بقلب مكسور ... وهذه عاقبة الأوهام، لمن يقصرون جهدهم على التنجيم والأحلام» [٣].

ومن اليمن إلى المغرب الأقصى. فحين احتل الفرنسيون مدينة «فاس» عام ١٣٣٠هـ عمد «أحمد

---

(١) نفحة البشام ص٣١.

(٢) الأعلام ١/١٩٥.

(٣) هدية الزمن في أخبار ملوك «لحج وعدن» ص١٤٩ المطبعة السلفية. القاهرة. ١٣٥١هـ ، وجاء أيضًا أن الشريف كان يخط الحرف ، ويعتمد على التنجيم في وعده أتباعه بالنصر. وصدق «أبو تمام» في بائيته المشهورة. حيث يقول :

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

وكذب المنجمون ولو صدقوا.

الهبة بن الشيخ مصطفى ماء العينين» (المتوفى سنة ١٣٣٧هـ) [1] إلى دعوة أهل «سوس» لبيعته باسم الإمام المجاهد ..... وصار يعدهم بانكسار العدو أمامهم في أول وهلة! دون احتياج إلى كبير تعب ومشقة ، وأن مدافع العدو لا تخرج إلا ماء!! ، ولا يصلهم منها شيء ، وأن العفاريت تخدمه وتنصره! ، وترد عنه كيد الخائنين ، وأن الناس يتبعون جنابه دون حرب ولا ممانعة ، وأن من خالفه يقع له ما يحمله على متابعته ، واختلق لهم أصحابه كثيراً من الكرامات، وصار يشيع ذلك في القبائل، وتتوارد عليه الوفود [2]. ثم دخل «مراكش» ، وبايعه الناس ، ثم أحاط به الفرنسيون ، وفر هارباً بعد أن تكبدت جموعه خسائر فادحة في العتاد والأرواح [3].

وإننا لندرك بعد هاتين الواقعتين المؤسفتين سراً من أسرار تقهقر المسلمين السريع وانهزاماتهم المتلاحقة أمام الاستعمار الغربي ، وسقوط بلادهم في قبضته.

فحين لم يستطع المسلمون الصمود أمام الغرب القوي المتقدم، للفارق الهائل بينهما في المجالات المادية ، حيث كان المسلمون عكس الغرب تماماً، متخلفين ضعفاء يعيشون على ما عاش عليه أسلافهم من عدة قرون. بينما كان الغرب ينطلق في ميادين الابتكارات والعلوم والتسلح. صدم المسلمون صدمة شديدة في أول لقاء بينهم ، فرأوا الفارق العظيم والتقدم الكبير الذي يتصف به خصمهم ، ولم يمكنهم أن يغطوا ذلك الفارق المادي الذي كان ثمرة لجهود استمرت قروناً. فلما كان الأمر كذلك ، لم يكن لهم بد ـ أمام تلك الجيوش القوية المسلحة تسليحاً فتاكاً ، وهم الضعاف الذين لا يكادون يملكون شيئاً يقفون به في وجه تلك الجيوش المتدفقة عليهم من كل مكان ـ من أن يلجأوا إلى عقائدهم الفاسدة ، ويلجوا في عالم الخوارق والكرامات ، المنسوج في خيالهم فكأن لسان حالهم ومقالهم يقول : إنه وإن كان الغرب يملك أسلحة فتاكة ، وجيوشاً مدربة جرارة ، فإن خارقة واحدة تكفي لقصمهم ، وكرامة أخرى تخرس مدافعهم ، وتكبت أسلحتهم ، فلا تطلق شيئاً ، وإن أطلقت ، لم تطلق إلا ماءً !! ، وإننا لنلحظ في هاتين الواقعتين مدى الرعب الشديد الذي أصيب به المسلمون ، خصوصاً من المدافع التي كانت تحرق بحممها المقذوفة الأخضر واليابس. مما جعل القائدين يطمئنان أتباعهما، بأن تلك المدافع الفتاكة التي كانوا يفرقون منها فرقاً شديداً ، لا تصيبهم بأذى وأن الله عز وجل أوقفها عن العمل ، كرامة لهما. فكانت النتيجتان قاسيتين للغاية . ومن هذا النمط الذي تولد في عصر الهزيمة والاستعمار والاستضعاف والخنوع انتظار كثير من المسلمين لخروج المهدي المنتظر الذي يملأ الله

---

(١) الأعلام ٢٦٥/١ وقد بايعه أهل «سوس» ثم بقية بلاد المغرب ، بعد أن خلعوا طاعة السلطان «عبد الحفيظ» بعد أن رضخ لإعلان الحماية الفرنسية على البلاد.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٤٤٧/٢.

(٣) المصدر السابق ٤٨٢/٢ وما زال يفر من مكان إلى آخر حتى توفي طريداً شريداً وتفرق أتباعه بعد أن قتل الكثير من زعمائهم.

الأرض به عدلاً كما ملئت جوراً [١]. وتقاعسهم عن العمل والإصلاح، وعن الأخذ بالأسباب، وإصابتهم باليأس والقنوط، وقطع الرجاء في التغيير، وأنه لا أمل أبداً في تدارك الأحوال، إلا بخروج المهدي، الذي علقت عليه الآمال، وفترت لأجله همم الكثيرين.

وما أكثر من ادعى المهدية في التاريخ الإسلامي وما أكثر الثورات والحركات التي اتخذت من المهدوية ستاراً لها، وفي القرون المتأخرة بصفة خاصة وهي ظاهرة تحتاج إلى دراسة مستقصية، تبحث في الظروف المحيطة بهذه الحركات، وفي الدوافع التي دفعتها إلى ذلك، وفي الضعف العقدي والعلمي الذي أصاب الأمة.

وفي تلك الفترة التي ندرسها، وحين جثم الاستعمار الصليبي على كثير من بلدان المسلمين وانبعثت كثير من الثورات، تقاومه وتؤرق مضجعه، كان كثير منها كما رأينا منحرفاً عن الطريق الصحيح للجهاد، بالركون إلى الأولياء والأضرحة وارتقاب الخوارق والكرامات. ومن ذلك ادعاء عدد لا بأس به من زعماء هذه الحركات الجهادية للمهدوية، وفي اعتقادي أن ذلك منسجم مع الحالة السيئة التي كان يعيشها المسلمون، وتعبير صادق عن انبهارهم وخوفهم من تفوق الأعداء وقوتهم. فادعاء المهدوية في عصر ساد فيه الجهل والفقر، وطغت فيه البدعة والخرافة، وخبت فيه أنوار السنة والعلم، كان جديراً بالتفاف الأتباع، وازدحام الرعاع حول من ادعاها. ولولا ادعاء المهدوية ما تبعه أحد، ولانفض عنه الجميع. إذ المهدي عندهم منصور قاهر، لا يغلب من أحد، مؤيد من عند الله بالخوارق والكرامات. فلا يستطيع أحد أن يقف أمام جيوش الاستعمار وجحافله إلا إذا كان المهدي المنتظر، أما غيره، فكم من مهزوم مدحور، دكته جيوش الأعداء.

---

(١) لمعرفة صفة المهدي، والأحاديث الواردة حوله، والفتن المتعلقة به. انظر: عقد الدرر في أخبار المنتظر لـ «يوسف بن يحي المقدسي الشافعي السلمي» من علماء القرن السابع. دار الكتب العلمية. «بيروت». الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م. ومن أعجب الأمور أنني وجدت أن المؤلف رحمه الله في مقدمة كتابه، ذكر فساد الزمان، وتقلب الأحوال. فقال من كلام طويل: «فقد جرت مذاكرة بحضرة بعض الإخوان في أنه قد قل الموالي من الناس وكثر الخوان، وارتفعت الأسعار، وقلت البركات، وتوالت الأكدار، وكثرت الآفات ..... وتظاهر بالمنكرات الفاجر والبر، وظهر الفساد في البر والبحر.... وعم عدوان المارقين وانتشر شرهم، وعيل صبر المتقين وعال ضرهم، وتقطعت السبل، وانسدت المسالك، وترادفت الفتن وكثرت المهالك، فجمحت النفوس إلى كشف هذه الغمة عن الأمة، وجنحت القلوب إلى شعب صدع هذه الصدمة، وقلنا: كيف السبيل إلى الخلاص، ولات حين مناص، فزعم بعضهم أن نار الحرب لا تزداد إلا تضرماً واستعاراً، ولا يزداد الأمر إلا شدة ولا الدنيا إلا إدباراً، وأصر على مفارقة هذا المعنى، وتشبث بأذيال الأحاديث الواردة في هذا المعنى، فقلت له: نحن نسلم صحة هذه الأحاديث، ونتلقاها بالسمع والطاعة، ولكن ليس فيها ما يدل على استمرار هذا الأمر إلى أن تقوم الساعة، ولعل زواله يكون عند خروج الإمام المهدي، واضمحلاله منوط بظهور سره المخفي، فقد بشرت بظهوره أحاديث جمة ...... ولعل ظهوره في هذه السنين قد يقع، فكل أمر إذا ضاق اتسع. عقد الدرر ص٤ وما بعدها. فإذا كان هذا في القرن السابع، فكيف الحال بعد ذلك في القرون المتأخرة المظلمة. وهذا من عالم كبير، فكيف بغيره!. ومن المعلوم أن الأحاديث الواردة في المهدي كما ذكر شيخ الإسلام فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع، وقد حوى الكتاب الأنواع الأربعة . وانظر كذلك في «الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي» و «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر» وكلاهما للشيخ د / عبد المحسن العباد .

ومن هؤلاء «محمد بن الأمجد بن عبد الملك المكنى بأبي بغلة». فحين استسلم للفرنسيين الحاج «عبد القادر بن محيي الدين الجزائري» ، قام «أبو بغلة» بدعوة الناس إلى الجهاد ضد النصارى ، وخاض عدداً من المعارك ، انتصر في بعضها ، وانكسر في بعضها الآخر ، وبعد انتصاره في إحدى معاركه على الفرنسيين ، يوم السبت ٢٧ ربيع الثاني من عام ١٢٦٧هـ ، ادعى أنه المهدي المنتظر ، بعثه الله ليطهر أرض المغرب الأوسط (١) من رجس النصاري ، فصدقته قبائل كثيرة ، وقبلوا الولاة الذين عينهم لحكمهم ، وزاد نفوذه ، ولكن أمره ما لبث أن صار إلى ضعف ، بعدما ضيق الفرنسيون الخناق عليه وعلى أتباعه ، وما زال كذلك حتى تمكن قائد أهلي متعاون مع السلطة الفرنسية ، من قتله يوم الثلاثاء ١ ربيع الثاني عام ١٢٧١هـ(٢).

وكذلك ما ذكره الجبرتي من ظهور رجل مغربي ادعى المهدوية ، بعد دخول الفرنسيين إلى مصر، وتبعه جماعة من الناس ، وقاتل الفرنسيين ، لكن دون طائل (٣).

وأما أمر المهدي السوداني الذي حارب الانجليز ، فأشهر من أن نقف معه.

وهكذا تقاعس الناس عن الأخذ بالأسباب ، اعتماداً على الكرامات ، وخوارق العادات. وعاشوا في أفلاكها الموهومة ، وعوالمها المنسوجة في الخيال. وفروا إليها حين ألمهم الواقع ، وعضهم الفقر ، وعدا عليهم الدهر ، وأعياهم الدواء ، وصعب عليهم الإصلاح ، فخانتهم أحوج ما يكونون إليها ، وزادتهم عجزاً إلى عجزهم ، ووهناً إلى وهنهم ، فزادت دركات الانحطاط ، واتسعت هوة التخلف والسقوط. وكان هذا الحال بقدر من الله ، في وقت كانت تواصل فيه أوربا الصليبية صعودها في سلم الرقي والتقدم والقوة ، لتزحف بعد ذلك على العالم الإسلامي ، الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام ، والاتكال على الخوارق والكرامات.

تاسعًا : الشيخ والمريد عند الصوفية :

«الشيخ عند المتصوفة هو إله ، يعطونه كل صفات الألوهية ، وهو الأساس في كل طريقة ، وما تفرقت الطرق إلا اتباعاً لشيخ ، وتسمى كلها باسم مشايخها ومؤسسيها ، ومع الزمن تتفرع الطريقة الواحدة إلى طرق كثيرة تحمل أسماء مشايخها الجدد» (٤).

---

(١) المغرب الأوسط هو الجزائر.

(٢) أعلام المغرب العربي ٢٩٢/١.

(٣) عجائب الآثار ٢٧٤/٢.

(٤) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣١٧.

ويقول الغزالي : «فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ، ليهديه إلى سواء السبيل ، فإن سبيل الدين غامض!! ، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه ، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة .... فمعتصم المريد، بعد تقديم الشروط المذكورة، شيخه ، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد ، بحيث يفوض أمره إليه بالكلية ، ولا يخالفه في ورده ولا صدره ، ولا يبقي في متابعته شيئًا ولا يذر ، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه - لو أخطأ - أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب!!، فإذا وجد مثل هذا المعتصم ، وجب على معتصمه (أي شيخه) أن يحميه ويعصمه بحصن حصين» [١].

ويقول الشعراني : «فإن لم يتيسر للمريد صلاة الجمعة عند أستاذه ، فليتخيله عنده في أي مسجد صلى فيه » [٢]. ويقول « علي وفا » : « فكما أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها » [٣]. ويقول «أبو يزيد البسطامي» : «إذا أمر الأستاذ التلميذ أمراً من أمور الدنيا ، وبعثه في إصلاحه ، فيقيم مؤذن في بعض طرقاته على مسجد من المساجد ، فيقول: أدخل أولاً المسجد وأصلي، ثم أكون وراء ما بعثني إليه، فقد وقع في بئر لا يتبين أسفلها و يعني ليس لها مقر» [٤].

ويقول الرفاعي : «من لم يكن له شيخ ، فشيخه الشيطان» [٥]

وباختصار ، فقد جعل المتصوفة مرتبة الشيخ عندهم بمرتبة الإله كما سبق ، فمن ثم لا نعجب بعد هذا مما سنذكره من أمثلة يندى لها الجبين.

وقد مر معنا ما للخلوات عند الصوفية من آداب ، ومن أهم هذه الآداب ، إدامة التفكير في الشيخ [٦]. وقد اعتبر المتصوفة أن أعظم الناس جرمًا من تردد في أوامر شيخه ، أو أساء الظن فيه ، ولو كان يقضي بطلاق زوجته، وفراق أولاده ، أو يمنعه من أداء ما أمر به الدين من فروض وواجبات[٧].

«وقد أوجب شيوخ الطريق على المريد آدابًا شلت إرادته ، وطمست شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل جاوزت به هذه المرتبة ... فمن ذلك ما يراه السيد «محمد البكري الكبير»

(١) المصدر السابق ص٢١٧.

(٢) المصدر السابق ص٢١٨.

(٣) المصدر السابق ص٢١٨.

(٤) المصدر السابق ص٢١٩.

(٥) المصدر السابق ص٢٢١.

(٦) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص٦٩.

(٧) المصدر السابق ص١٠٨.

(المتوفى سنة ٩٩٤هـ) في رسالة يصرح فيها بأن من واجب العبد - أي المريد أن يذكر أنه بين يدي أستاذه في كل نفس من أنفاسه ، ... بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ، ولو قضت بعصيانه لله ، وتمرده على قواعد دينه ، بإفطار رمضان ، أو الإهمال في إقامة الصلاة!! ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ ، ...... وإذا أشرك المريد بشيخه شيخًا آخر ، كان كمن يشرك بآلهة أخرى ...... إلى آخر هذا الهذر الذي فشا في آثار هؤلاء الشيوخ» [١].

وقد كان المريدون يعبدون الله على طريقة شيوخهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، وإن تردد المريد في أمر شيخه أو عصاه ، وجب على شيخه أن يخرجه من زاويته ويطرده من رحمته ورضوانه. «وما كان سلطان الشيوخ على المجاور، ليقف عند الدين، أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى ، فقد تجاوز ذلك - باسم الدين - إلى الدنيا وشؤونها، فحرموا عليه الإقدام على عمل أو الشروع في أمر مهم دون استشارة الشيخ والانقياد لمشورته - وإن وضح له فسادها، فإن اقترف في دنياه إثمًا ، وجب عليه أن يبادر إلى شيخه ليعترف على يديه ، ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه وبذلك أضحى لشيوخ الطريق سلطان على مريديهم ، لا يقره الإسلام ، وإن أباحته المسيحية أو أحله القسس لأنفسهم» [٢].

وهكذا «تضخم الشيخ في حس المريد إلى حد أن يصبح في حقيقة الأمر واسطة بينه وبين الله ، في الوقت الذي جاء فيه الإسلام ليلغي كل واسطة بين العبد والرب ويحرر القلب البشري من كل قيد يعوقه عن الاتصال المباشر بالله ، وعبادة الله وحده لا شريك ، ويكون من تعليمه للناس : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ [البقرة ١٨٦] [٣].

«وقد وضع الصوفية قواعد عامة لتربية مريديهم ، وكلها تحوم حول الخضوع التام من المريد للشيخ ، بحيث يتحول التلميذ المسكين إلى آلة جوفاء تردد ما يقال لها ، بلا تفكير ، ولا شخصية مستقلة ، بل انقياد اعمى ، وحتى تتم هذه التربية الذليلة ألزموهم بلبس معين ، ومشية معينة ، وشيخ معين ، وطريقة معينة ، ومن هذه القواعد المتعارفة بينهم :

كن بين يدين الشيخ كالميت بين يدي المغسل .

لا تعترض فتنطرد .

من قال لشيخه لم ، لا يفلح» [٤].

---

(١) المصدر السابق ص١٣٤.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٢.

(٣) واقعنا المعاصر ص١٥٠.

(٤) دراسات في الفرق : الصوفية ص٧٨.

وإن من يقرأ في تراجم القرنين الماضيين ، ليرى صوراً عجيبة ، وأمثلة غريبة لما وصل إليه تقديس الشيوخ عند مريديهم وتلاميذهم ، ويقول على المسلمين السلام. حيث كان شيوخ الصوفية هم الرواد للأمة ، يفعلون بها الأفاعيل ، وينتقلون بها من هاوية إلى أخرى.

فهذا مفتي الحنفية في «بغداد» الشيخ «عبد الله بن صبغة الله بن إبراهيم الحيدري النقشبندي الخالدي» ، يأمره شيخه الصوفي الشهير «خالد الشهرزوري» «بحمل الماء على ظهره ، وتسبيله في أسواق «بغداد» وأزقتها ، وسقي العطاش من حاضر وباد ، فامتثل الأمر العالي ، وفعل ذلك مدة عشرين يومًا على التوالي ، ثم أمره ببيع الماء من دون تسبيل ، ففعل ذلك عشرة أيام من البكرة إلى الأصيل ، مع كونه من أجل العلماء ، وأفضل الفضلاء..» [(١)].

ويقول محقق الكتاب الشيخ «محمد بهجت البيطار» معلقًا على ذلك : «أليس هذا من العجيب الغريب؟ أديب كبير ، وشاعر في اللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية ثم هو من أجل العلماء ، وأفضل الفضلاء ، يكلف بحمل الماء على ظهره ، وسقي المارة في مدينة «بغداد» عشرين يومًا ، وبيعه لمدة عشرة أيام ، ولمن يترك نشر الدين والعلم..؟ للسقائين والحمالين. اللهم أرنا الحق حقًا [(٢)].

أما الشيخ «علي الدرقاوي» الذي كان مدرسًا يعلم التلاميذ وتسبب شيخه في إحداث مأساة اجتماعية لأسرته ولأمه خاصة ، فقد أمره شيخه «سعيد المعدري» أن يترك التدريس في المدرسة ، وأن يدور في الأسواق ، وأن يتكفف الناس فيها ، فيمد يديه ، وهو يقول : أطعموني فإني أموت جوعًا ، وهو في أسمال رقاع متلونة كأنها قوس قزح ، وقد تدلى وراء كتفه جراب مثقوب من أصله ، يلقي فيه كل ما امتدت به إليه الأيدي ، ولكنه سرعان ما يسقط وراءه ، فيتتبعه الصبيان زرافات ، والهمج والرعاع [(٣)] . وقد غضب أهله من ذلك أشد الغضب ، وهم من أبعد الناس عن التكفف والسؤال ، ولم يصدقوا الخبر في بادىء الأمر. ثم لما تحققوا الأمر ، اعتقدوا أنه اصيب بالعين ، أو أنه مسحور ، أو مسته الجن ، فلما نفذ صبرهم ذهب أخوه «محمد» مع رجل آخر ، فأسراه وحملاه على البغلة ، وعادا به مكبولاً إلى الدار ، وهو على حالته ، لا يحير الجواب لأبيه ولا لأمه، ولا يتكلم بسوى عبارات التكفف والاستغاثة ، والصراخ بأن الجوع كاد يأتي عليه.

ويقول ولده المؤلف[(٤)] : حكت لي والدته «تاكدا» [(٥)] رحمها الله ، أنها إذ ذاك كادت تتمزق كبدها

---

(١) حلية البشر ١٠٢٥/٢.

(٢) حلية البشر ١٠٢٥/٢.

(٣) المعسول ٢٠٥/١.

(٤) هو «المختار السوسي» صاحب «المعسول».

(٥) من الأسماء عند قبائل البربر.

، وينفطر قلبها ، إذ سمعت به ينادي أن السغب يقطع أحشائه قالت : فلا أدع كل ما تصله يدي ، وأمكن لي من الطيبات إلا قدمته له ، فأملأ جانبيه باللحم الحنيذ ، والبيض المسلوق ، والسمن الممزوج بالعسل ، واللوز المطحون ، والتمر الجيد ، والزبيب والجوز ، وكل ما عندنا ، ثم لا يعير ذلك كله التفاتًا، ومتى غفلنا عنه ، وقد أودعناه في بيت ، ينفتل إلى سطح الدار ، فيصرخ : ألا من يشبع جوعتى الملتهبة الهائجة ، ولو بقطعة من الخبز المكرج [١] ، فإنني ياعباد الله أكاد أهلك جوعًا ، قالت : فنبادر إلى إيوائه إلى البيت أيضًا، ونحن نتقطع على ولدنا العالم الذي صار مجنونًا يتخبط - وفي يوم من الأيام نادى أمه لأول مرة ، وسأل : لماذا وضعوا القيد في رجليه ، فأخبرها أنه استرد شعوره، وعاد إليه عقله ، ففرحت أمه فرحًا شديدًا ، ودعت بمن كسر القيد ، فألبسته كسوة بيضاء ، و أولموا وليمة كبيرة ، تقول أمه : وأقبل المهنئون يهنئوننا بشفاء ولدنا ، ولكن والده سيدي «أحمد» لم يزل ملازمًا للفراش من مرض كان ألم به ، ثم ازداد بما وقع لولدنا ، ففي صباح يوم لعله اليوم الثاني، ذهب ليزور الأستاذ سيدي «محمد بن عبد الله»، فلم أشعر حتى هرولت إلى امرأة من القرية، فصارت تناديني ، وصوتها متهدج إنني الآن رأيت ولدك قد استدار بثنية (تالات نيت عيس) [٢] ويذكر الهيللة جهرًا ، وقد ذهب عنك أيضًا قالت : فقامت قيامتي ، ولم اتحمل الصبر ، فأهويت ببغلتنا ، أجوب بها الطريق إلى المعدر ، لا سترد فلذة كبدي من ذلك الرجل المعدري الذي أفسده (تعني شيخه «سعيد المعدري» قالت : فراح علي الليل في «تيغمي» [٣] فبت هناك عند أسرة من معاريفنا ، ثم تعقبني من أخبرني بأن زوجي والد أولادي قد خرجت روحه ، إثر خروجي من الدار ، فكنت إذ ذاك أشقى نساء العالم ، وأنكأهن مصيبة، فهذا ولدي العالم الذي هو كل منيتي وآمالي في حياتي ، قد عانه العائنون، وتم فيه مرام الحاسدين الشامتين ، حتى اختل عقله ، فتنكب أهله ، وصار يجول في البلدان والهًا حيران أبله ، وهذا زوجي وقطب أسرتي ، ولب مهجتي ، قد مات عني ، فوقفت في حيرتي ، لا أدري أأتقدم إلى الإمام لافتش عن ولدي ، أم أنكص على عقبي ، لأشهد مأتم زوجي [٤].

وقد آثرنا أن ننقل هذه الواقعة المأساوية بطولها ، لنرى مدى الآثار الاجتماعية الخطيرة التي كان يتسبب بها شيوخ المتصوفة ، من تقطيع للأوصار ، وتمزيق للوشائج ، وزعزعة الروابط التي يقوم عليها المجتمع ، ونشر العقوق والتمرد على الوالدين ، وقطع الرحم ، بما كان يصدره شيوخهم لأتباعهم من أوامر قاسية ، وتعليمات منحرفة [٥].

---

(١) كرج الخبز : إذا يبس وفسد.

(٢،٣) اسمان لموضعين في «سوس» في المغرب.

(٤) المعسول ٢٠٦/١ - ٢٠٧.

(٥) يقول صاحب «المعسول» ٢٠٨/١ : وهذا الذي فعله الحاج «علي» يسمى بالتجريد وخرق العادة ، وهو ترك الهيئات الحسنة ، والوقوف في مواقف الذل ، وإنكار الذات والتسول وقد أشار الحاج علي إلى كارثة أمة بشعره الصوفي :

ويذكر الشيخ «محمد المجذوب» أنه حضر مجلساً ، وفيه حشد بأصناف الناس ، بينهم بعض خريجي المعاهد الشرعية العليا ، وتبرك الحاضرين بسؤر الشيخ من الماء ، وإقبالهم على تقبيل يدي الشيخ ورأسه ، وهو يمد يده ، لا للمصافحة ، ولكن للقبل ...... ثم يقول : وما ذلك إلا خطب يسير ، إذا قوبل بما هو أشد وأدهى ، مما أصبح مألوفاً في كثير من المساجد ...... حيث يصل الشيخ متأخراً لخطبة الجمعة ، فلا يبقى واحد من مريديه هناك إلا نهض على قدميه إجلالاً للشيخ .. وهو عن ذلك راض وبه جد مسرور..» (١).

وقد كان شيوخ المتصوفة يتصرفون في أتباعهم تصرفات شاذة ، ويصدرون على المخالفين منهم أحكاماً طاغوتية ، ما أنزل الله بها من سلطان ، بل وتشاركهم في تلك الأحكام الجائرة سلسلة أرواح مشايخهم في الطريقة ، من الذين هلكوا من قبلهم كما يزعمون.

يقول صاحب «الحلية» عند ترجمة الشيخ «يحيى بن العمادي الشافعي» : «ومما وقع له أيضاً مما يدل على رفعة مقامه ، ووصوله في الطريق إلى مرامه ، أن عبد الوهاب السوسي الذي خلفه حضرة مولانا «خالد» (٢) في الأستانة العلية ، ثم طرده عن الطريقة ، لعجبه بنفسه بمخالطة أكابر الرجال! ، وجمع الحطام والأموال! ، دخل يوماً على الشيخ «يحيى» وقبل يديه ، والتمس منه أن يطلب العفو عنه من حضرة مولانا «خالد» قدس الله سره فقام الشيخ «يحيى» ودخل على حضرة مولانا «خالد» ، والتمس منه العفو عن «عبد الوهاب» ، فقال حضرة الشيخ إن الأمر لو كان بيدي لعفوت عنه! ، ولكن جميع روحانيات السلسلة العلية النقشبندية قد طردوه عن باب طريقتهم ، اللهم إلا أن

تركت ما سوى الإله هجرا ... فلهجت نفسي بربي ذكرا
وقبحت عندي ملاح الدنيا ... مما يرى برؤية والرؤيا
وليس لي في غير ذات الله ... مأوى ولا عن حسنه الملاهي
فصلت عني سائر العلائق ... لكونها عن مقصدي عوائقي
بدلت أحوالي بخرق العادة ... لطلب الإخلاص في العبادة
وكان في تخريقي العوائد ... أفضل ما يجنى من الفوائد
تصير رافضاً ومرفوضاً إذا ... ما أقرب الإخلاص ممن نبذا
فاختلف الناس فذا يقول ... جن فأين القيد والحبول
والبعض قال إنه مسحور ... أين رقى المسحور والبخور
وعند جل الناس كنت أحمقا ... فلم يكن فعلي لديهم منتقى
فكل من جهل شيئاً عاداه ... وكل من عرف شيئاً ناداه

وكل ذلك بسبب شيخه نعوذ بالله من العمى والضلال . انظر المعسول ١/٢٠٨ .

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص١٢٥.

(٢) هو «خالد الشهرزوري» الذي ورد ذكره مراراً.

يحلق «عبد الوهاب» لحيته ويسود وجهه ، ويركب الحمار منكوساً ويشهر نفسه في الأزقة والأسواق كسراً لنفسه!!! فإنهم قدس الله أسرارهم يعفون عنه حينئذ. فقال الشيخ «يحيى» قدس الله سره : يا شيخي إن «عبد الوهاب» لا تطاوعه نفسه على مثل هذا الفعل ، ولكن رخصني ، فإني أعمل هذا الفعل عوضاً عنه لعله يعفى عنه ، وأنا أفدي نفسي في حاجة المسلم ، فبكى حضرة مولانا «خالد» قدس الله سره ، وتعانق مع الشيخ «يحيى» ، وبقيا يبكيان ، ثم قام حضرة الشيخ قدس الله سره لصلاة النافلة، وذهب الشيخ «يحيي» قدس سره إلى محله ، وقال لـ «عبد الوهاب» : فلا تلومن إلا نفسك ، وقام «عبد الوهاب» خائباً ، والعياذ بالله تعالى من سوء المنقلب» (١).

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط ، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة، يقومون بأعمال الحرفيين ومهن السقائين والحمالين طاعة لشيوخهم ، ويقومون بحالات أشبه بحالات الجنون . وكان شيوخهم الضالون المضلون لا يرضون عمن خالف بعض مسلكهم المنحرف ، بأقل من الطرد والغضب وحلق اللحية ، وتسويد الوجه ، والركوب منكوساً على الحمار، والتشهير في الشوارع حتى ولو كان المخالف لهم من خاصة مريديهم ، لم يكسب إثماً سوى أنه جمع مالاً ، أو لقي بعض الأكابر.

وبهذه الأفاعيل والأباطيل التي تولى كبرها شيوخ المتصوفة ، أشاعوا روح الذل والخنوع بين الناس ، وقتلوا الإباء والأنفة والعزة في نفوسهم ، فخرجت في الأمة جموع ذليلة، قد استناخت للضيم واستمرأت الهوان ، وهذا مع غيره من الأمراض والانحرافات الأخرى ، يفسر لنا سهولة سيطرة الاستعمار الصليبي على بلدان المسلمين في زمن قصير.

عاشراً : الصوفية والجهاد ومقاومة الاستعمار :

يذكر كثير من الكتاب الصوفية بشيء من الثناء والإطراء ، حين يتحدثون عن دورها في نشر الإسلام، ومقاومة الاستعمار خصوصاً في القارة الافريقية. ولكنهم لا يذكرون أبداً أن هؤلاء المتصوفة لم يبلغوا الإسلام الصحيح ، وإنما بلغوه في قالب صوفي ، بعيد كل البعد عن حقيقته التي أنزله الله عز وجل عليها.

---

(١) حلية البشر ٣/١٥٩٠ وعلى هامش الصفحة للشيخ «محمد البيطار» ما نصه : من المعلوم أن ما تحقق به التوبة النصوح: الإقلاع عن الذنب في الحال ، والندم على ما فات ، والاستعداد لما هو آت ، قال تعالى : { إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفوراً رحيما } وهذا الإذلال الوارد في السؤال ليس شرطاً شرعياً، ولم يذكر له مستنداً. انتهى . ونقول : وهل فعل الرجل شيئاً حتى يتوب منه. بل هذا الإذلال من الأحكام الطاغوتية التي كان يحكم بها المتصوفة على أتباعهم.

ولكن ما من شك في تفاوت انحرافات الصوفية ، ومدى قربها أو بعدها من الإسلام والمرجو أن يجيء يوم يتهيأ فيه الإصلاح الديني ، فيدرك الناس أن الإسلام شيء ، والصوفية شيء آخر. ولا شك أن انتقال الناس إلى الإسلام في قالبه الصوفي ، كان خيراً من بقائهم على وثنيتهم أو نصرانيتهم أو يهوديتهم في كثير من الأحيان [١].

أما بالنسبة لموقف الصوفية من الجهاد ومقاومة الاستعمار ، فإنه موقف متباين ، يسوده التذبذب والاضطراب. فبينما نرى طائفة منهم ، أعلنت الجهاد وقاومت الاستعمار ، وأقضت مضاجع المستعمرين ، نرى على النقيض الآخر طائفة أخرى ، نكصت عن الجهاد، ونكلت عن الحرب ، وانزوت على نفسها فرقًا وهربًا.

وبين هاتين الطائفتين ، طائفتان أخريان. الأولى منهما حاربت المستعمر وقاومته ردحًا من الزمن ، فلما طال أمد القتال ، ولم تفلح في طرد المستعمر ، بل كان هو الظاهر عليها في كثير من الوقائع ، استسلمت له في نهاية المطاف ، ولم تكتف بالاستسلام للمستعمر ، وإبرام المعاهدات المخزية معه ، بل صارت تشنع على من يحاول رفع راية الجهاد ضده من جديد ، وينقض ما أبرمته من معاهدات. والطائفة الثانية ، وهي شر طوائف الصوفية جميعًا ، وهي الطائفة التي وقفت معه منذ البداية جنبًا إلى جنب ، تؤازره ، وتناصره ، وتقاتل في صفوفه ، وتحت رايته ، وتدعو الناس إلى الرضوخ له ، وتحذر من مغبة مقاومته.

ومن الطائفة الأولى يعتبر أتباع الطريقة السنوسية الذين جاهدوا الاستعمار الإيطالي في ليبيا من أوضح الأمثلة على ذلك. ويقابلهم في الناحية الأخرى كثير من المتصوفة الذين كان يعيشون في غير واقعهم ، ولا يرون الانشغال بغير الذكر والزهد. أما الطائفة التي قاتلت ثم نكلت ، وجاهدت ثم نكصت ، فأوضح من يمثلها هو الأمير «عبد القادر الجزائري» [٢] ، وسيأتي الحديث عنه قريبًا إن شاء الله. أما الطائفة التي والت المستعمر ، وقاتلت إخوانها في سبيله ، فكثير من زعماء الطريقة التجانية يعتبرون من أبرز الأمثلة عليها. ولكن لا بد لنا من أن نوضح حقيقة هامة ، وهي أن الصوفية لم تكن في يوم من الأيام مؤهلة لقيادة الأمة ، ومجاهدة المستعمرين ، ولا ينفي هذا وجود جماعات وقيادات صوفية ، أبلت في جهاد الأعداء بلاءًا حسنًا.

فقد سبق فيما كتبناه من مباحث أن أوردنا نظرة الصوفية المنحرفة إلى الحياة ، وبعض عقائدهم وطقوسهم التي تتعارض في حقيقتها مع الجهاد.

---

(١) وذلك بحسب انحراف الطريقة الصوفية ، وشدة ذلك الانحراف.

(٢) انظر : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير «عبد القادر». وهو مرجع سبق ذكره.

وإذا كان «الغزالي» (المتوفى سنة ٥٠٥هـ) الذي عاش في القرن الخامس وهو العصر الذي غزا فيه الصليبيون والتتار بلاد المسلمين، واحتلوا كثيراً منها، وذبحوا الألوف الكثيرة من أهلها، وفعلوا بهم الأفاعيل، لم يذكر الجهاد في سبيل الله في كتابه «إحياء علوم الدين» ولم يتطرق إليه أبداً (١) بل كان مجاوراً في بيت المقدس تارة، ومعتكفاً بزاويته في الجامع الأموي تارة أخرى (٢). وكأنه في كوكب آخر، لا يعيش بين المسلمين.

إذا كان هو هذا حال كبير المتصوفة في عصره، بل كبيرهم في كثير من القرون الذي يحومون حول مؤلفاته، ويتقمصون منهجه ومسلكه. فلا غرابة بعد ذلك أن يكون موقف الصوفية من الجهاد في جملته موقفاً سلبياً، بل موقفاً معادياً في بعض الأحيان. فأما الأمير «عبد القادر الجزائري» (المتوفى سنة ١٣٠٠هـ) (٣) فقد بايعه الجزائريون بعد دخول الفرنسيين الجزائر، فقادهم إلى جهاد الفرنسيين طيلة سبعة عشر عاماً. ولكنه استسلم في آخر الأمر، وسلم نفسه إلى الفرنسيين فنفوه إلى خارج البلاد، ثم أطلقوا سراحه، بعد أن اشترطوا عليه أن لا يعود إلى الجزائر، ورتبوا له مبلغاً من المال يأخذه كل عام، وزار «باريس»، ثم استقر في «دمشق» حتى توفي بها (٤).

وحين انهزمت فرنسا سنة ١٨٧٠م «أظهر «كمال الأسف، وتزين بنيشانها الأكبر (٥) إظهاراً لاعتراف مصادقتها، وتخلى عن ملاقاة الناس مدة..» (٦) واعتبر «السنوسي» ذلك «من أخبار وفائه». وكان الأولى به أن يعتبرها من أخبار ضعف ولائه وبرائه. وحين قام ابنه «محيي الدين» بإعلان الجهاد ضد الفرنسيين مرة أخرى، واتفق مع بعض زعماء القبائل في الجزائر، تبرأ «عبد القادر» منه، وكان ذلك سبباً في انفضاض القبائل عنه، وفشل حركته (٧).

ونأتي الآن إلى طوائف الصوفية التي والت المستعمر، واتخذته بطانة من دون المؤمنين، وقاومت الجهاد ضد المعتدين، وكانت خنجراً مسموماً يطعن ظهور المجاهدين من الخلف. وقد كانت تلك الطوائف من أكبر الأسباب التي مكنت المستعمر من السيطرة على البلاد. ففي رسالة من المارشال (بوجو) أول حاكم فرنسي للجزائر إلى شيخ التجانية ذات النفوذ الواسع، جاء فيها: أنه

---

(١) انظر: كتاب «إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين» ص٢٧ «علي حسن علي عبد الحميد» مكتبة ابن الجوزي. «الأحساء». «الهفوف». الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) إحياء علوم الدين ص٥ .

(٣) الأعلام ٤/٤٥ .

(٤) الأعلام ٤/٤٦.

(٥) وكان قد أهدي له لدى زيارته «باريس» عام ١٨٦٧م.

(٦) الرحلة الحجازية ٣/٢٠٠.

(٧) أعلام المغرب العربي ١/٢١٦.

لولا موقف الطريقة التجانية المتعاطف!! ، لكان استقرار الفرنسيين في البلاد المفتتحة حديثًا أصعب بكثير مما كان [١].

وحين كان الأمير «عبد القادر» يقود المجاهدين لحرب المستعمر ، قاومه كثير من الطرقيين. وانبث كثير من شيوخ الطرق في البلاد لتثبيط الهمم بالنسبة للمقاومة ، ومطالبة الناس بالانتظار والهدوء ، حتى تصل السفن الفرنسية. وقد قامت حكومة الجزائر الفرنسية بتقريبهم ، ومكافآتهم ، ومنحهم النياشين والأوسمة ، تقديراً لجهودهم في خدمتها ، والوقوف إلى جانبها.

وكان شيوخ الطرق الخائنون يقومون بكتابة عرائض بتوقيعاتهم ، وتوقيعات أتباعهم ، يملؤونها بالثناء والشكر لفرنسا ، التي كانت تعتبرهم ممثلين للشعب. ولا غرابة بعد ذلك كله ، أن يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر : إن الحكومة الفرنسية تعظم زاوية من زوايا الطرق ، أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها ، وأن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا!! [٢].

وقد سجلت مجلة «الفتح» (م٦) قصة صاحب السجادة الكبرى الذي ألقى خطبة الإخلاص (١٣٥٠هـ - ١٩٣١م) وهو «محمد الكبير» رئيس الطريقة التجانية ، بين يدي الكولونيل «سيكوني» الفرنسي ، وصف فيها فرنسا المستعمرة بأنها أم الوطن الكبرى ، وقال : إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا مادياً وأدبياً وسياسياً ، وقال : إن أجدادي قد أحسنوا صنعًا في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا ، ففي عام ١٨٣٨م كان أحد أجدادي قد أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدو لفرنسا (عبد القادر الجزائري) [٣]. وفي عام ١٨٧٠م حمل سيدي أحمد تشكرات الجزائريين ، وبرهن على ارتباطه بفرنسا ، فتزوج (أوريلي بيكار) وبفضلها تحولت منطقة (كوردان) من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع ، وهو أول مسلم تزوج بأجنبية [٤].

ومما يذكر أن مدام (أوريلي بيكار) قد أصدرت كتاباً اسمته (أميرة الرمال) تعني نفسها، ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التجانية ، ومسلمي الجزائر . وذكرت أن «أحمد التجاني» قد تزوجها على يد الكردينال «لا فيجري» على حسب الطقوس المسيحية وبقيت (أوريلي) على كاثوليكيتها. ولما توفي عنها زوجها ، خلفه عليها وعلى السجادة التجانية أخوه «علي» ، فأطلق عليها لقب «زوجة السيدين» [٥].

---

(١) التجانية ص٦١.

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ص٥١ - ٥٢ «أنور الجندي». الدار القومية للطباعة والنشر. «القاهرة» ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م.

(٣) كان عدوًا ، ثم انقلب إلى صديق وديع.

(٤) المصدر السابق ص٥٢.

(٥) المصدر السابق ص٥٢. التجانية ص٦١.

وقد كافأتها السلطات الفرنسية لقاء ما قدمته من خدمات بوسام جوقة الشرف وقالت عنها في براءة التوجيه : إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التجانية إدارة حسنة كما تحب فرنسا وترضى ، وساقت إلينا جنوداً مجندة من «أحباب» هذه الطريقة ومريديها ، يجاهدون في سبيل فرنسا كأنهم بنيان مرصوص [(١)].

وجاء في خطاب «محمد الكبير» الذي أشرنا إلى بعضه آنفًا الآتي :

«في سنة ١٨٦٤م كان عمي سيدي أحمد مهد السبيل لجنود الدوك دومال ، وسهل عليهم السير إلى مدينة بسكرة ، وعاونهم على احتلالها».

«وفي سنة ١٨٨١م كان المقدم [(٢)] سي «عبد القادر بن حميدة» مات شهيداً!! مع الكولونيل «فلاتين» حيث كان يعاونه على احتلال بعض النواحي الصحراوية».

«وفي سنة ١٨٩٤م طلب منا مسيو (جول كوميون) والي «الجزائر» العام يومئذ أن نكتب رسائل توصية ، فكتبنا عدة رسائل وأصدرنا عدة أوامر إلى أحباب طريقتنا في بلاد « الهكاد» (التوارق) [(٣)] و«السودان» (أي السودان الفرنسي) نخبرهم بأن حملة فود ولامي الفرنسية هاجمة على بلادهم ونأمرهم بألا يقابلوها إلا بالسمع والطاعة ، وأن يعاونوها على تلك البلاد ، وعلى نشر العافية فيها».

«وبالجملة فإن فرنسا ماطلبت من الطائفة التجانية نفوذها الديني إلا وأسرعنا بكل فرح ونشاط بتلبية طلبها وتحقيق رغائبها ، وذلك لأجل عظمة ورفاهية وفخر حبيبتنا فرنسا النبيلة» [(٤)] على أن الغريب في الأمر أن زعيم الطريقة التاجانية في السودان الغربي «السنغال» وهو الحاج «عمر بن سعيد الفوتي السنغالي الأزهري» (المتوفى سنة ١٢٨٣هـ ، قد قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة شديدة ، وجاهد الوثنيين هناك ، ونشر الإسلام بينهم.

وقد أدرك هذا التناقض المسيو «أندري راسين» فقال مستغرباً عند حديثه عن التجانية : «وأشهر من شهرها في السودان الحاج «عمر» ، ومن الغريب أنها في الجزائر تنصح بالموالاة للفرنسيين ، وفي السودان [(٥)] ترفع راية الجهاد [(٦)].

---

(١) التجانية ص٦٢.

(٢) المقدم كما ذكر «ابن الدخيل الله» رتبة في الطريقة التجانية ، والمقدم من أجازه الشيخ في تلقين الورد للناس.

(٣) الطوارق بالطاء كما هو معروف.

(٤) المصدر السابق ص٦٣.

(٥) أي السودان الغربي (السنغال وما حولها).

(٦) التجانية ص٦٥ وأرجع «ابن الدخيل الله» ذلك التناقض إلى دراسة «الفوتي» في الجامع الأزهر الذي كان له دور في توجيه حياته.

وهذا يؤكد ما ذكرناه سابقًا حول تباين موقف الصوفية واضطرابه من الجهاد . وحين قام المجاهد المغربي «محمد بن عبد الكريم الخطابي» (المتوفى ١٣٨٢هـ) [(١)] بالجهاد ضد الإسبانيين في الريف المغربي في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري ، تألب عليه بعض مشايخ الطرق ، وقاموا بخيانته في كثير من المواقع [(٢)].

أما «محمد بن عبد الحي الكتاني» (المتوفى سنة ١٣٨٢هـ) من شيوخ الطريقة الأحمدية الكتانية ، فقد كان مواليًا للاستعمار الفرنسي في المغرب منافحًا عنه ، وحين استقل المغرب كان في «باريس» فاستمر إلى أن مات بها [(٣)].

وحين تأسست جمعية العلماء المسلمين في الجزائر سنة ١٩٣١م ، وانطلقت تؤدي دورها التربوي ، وتنشيء المدارس ، وتنشر اللغة العربية ، أقلقت السلطات الفرنسية وكان سلاحها الماضي في القضاء على تلك الجمعية ، رجال الطرق الصوفية. فقد تألبت كل من الطريقة العليوية والطريقة الشاذلية والطريقة القادرية وغيرها من الطرق الصوفية الأخرى ، ضد الجمعية ، تحاول القضاء عليها وتنفير الناس منها. ووصل الأمر ببعضها إلى القيام بمحاولة اغتيال مؤسسها المجاهد الشيخ «عبد الحميد بن باديس» رحمه الله تعالى [(٤)].

وقد كانت كثير من الزوايا الصوفية تقوم مقام المراكز الاستخبارية للدول المستعمرة. فقد كانت زاوية «مستغانم» أعظم مراكز الاستخبارات الفرنسية بالنسبة للمغرب. وكان فقراؤها (أي مريدوها) العليويون من أمهر الجواسيس العاملين لحساب السياسة الفرنسية [(٥)].

وحسبنا أن نعرف أن «أبا حمارة» [(٦)] صاحب الثورة في تاريخ المغرب الحديث في العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري ـ والذي سبق ذكره ـ ، والذي دوخ حكام المغرب ، وانتصر على الجيش السلطاني في كثير من المواقع، وعجز قواده عن إلحاق الهزيمة به، ودامت ثورته المحمومة سبعة أعوام كان واحدًا من هؤلاء المتصوفة الذين عملوا لحساب الاستخبارات الفرنسية [(٧)].

---

(١) الأعلام ٦/٢١٦.

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ص٥٢.

(٣) الأعلام ٦/١٨٨ وهو صاحب «فهرس الفهارس» ومن كبار العاكفين على علم الحديث. نسأل الله السلامة. وللشيخ «محمد بشير الإبراهيمي» «نشر الطي من أعمال عبد الحي» في نقد سيرته. الأعلام ٦/٥٤.

(٤) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ص٥٢. وقد توفي الشيخ «بن باديس» عام ١٣٥٩هـ عن نحو خمسة وخمسين عامًا ، أوذي من القريب والبعيد ، وجفاه أبوه ، وقاطعه إخوته. واضطهدته السلطة المحتلة ، وظل صابرًا محتسبًا ينشر دعوته ، ويجاهد بقلمه حتى لبى نداء ربه ، بعد حياة حافلة بالجهاد والتربية والعمل المثمر.

(٥) أعلام المغرب العربي ١/٣٠٦.

(٦) اسمه «الجيلاني بن عبد السلام اليوسفي الزرهوني». أعدم بـ «فاس» يوم الخميس ٢٣ شعبان ١٣٢٧هـ.

(٧) اقرأ ترجمته ونبأ ثورته في : أعلام المغرب العربي ١/٣٠٢ ـ ٣٩٧ وأطلق عليه المغاربة لقب «الدعي الفتان» لأنه ادعى أنه

وقد أقام «أبو حمارة» دولة في المناطق التي استولى عليها ، وعين وزيرًا لخارجيته أحد الجواسيس العاملين لحساب فرنسا ، وهو «عبد القادر التلمساني». وعين ضابطًا فرنسيًا من أصل جزائري وزيرًا للحرب. أما «كابرييل ديلبريل» (١) الجاسوس الفرنسي ، فقد عينه رئيسًا لأركان الحرب، ومديرًا للعلاقات العمومية .

وهكذا كانت كثير من الطرق الصوفية طابورًا خامسًا ، تعمل مع أعداء الإسلام جنبًا إلى جنب، للقضاء على حركات الجهاد والمقاومة التي اندلعت ضدهم ، ورضى زعماؤها أن يكونوا عملاء المستعمرين ، خائنين لأمتهم ولأوطانهم.

وعلى العموم ، فكل الصوفية بكل طوائفها وطرقها ، لم تكن هي القادرة على الدفاع عن الأمة ، أو الذود عن حياضها. وكانت بحق كالسرطان المستشري في جسم الأمة ، الذي أصيب بالضعف والهزال بسببها ، فكان الوقوف للاستعمار ودحره في تلك الحالة ، أمرًا يعد من المستحيل.

الحادي عشر : الصوفية والمجاذيب الأولياء :

ذكرنا فيما سبق الجذبة عند المتصوفة ، والتي توازي عمل الثقلين عندهم. والجذبة هي أن يجذب الله الصوفي إلى حضرته ، ويكشف له الحجاب.

فيكون المجذوب بجسده على الأرض ، وعقله سابح في ملكوت السماء ، يطلع الغيب ، ويخبر المتجمهرين حوله من الناس بالمغيبات ، بعد أن كشف له الحجاب.

والمجذوب لا يعدو في أغلب الأحيان أن يكون مجنونًا أو دجالاً متظاهرًا بالجنون. ولكن الجماهير تعتقد أنه جن حين كشف له الحجاب ، وجذبه الخالق ، فلم يعد يحتمل عالم الغيب الرهيب.

ولا أدري أي ضلال أودى بالمتصوفة إلى اعتبار المعتوهين والمجانين والمجاذيب من كبار الأولياء!!. يقول الرحالة الأوربي «ادوارد لين» الذي زار مصر عام ١٢٥٠هـ - ١٨٣٥م : «إن المعتوه أو

الأمير «محمد بن الحسن» أخو السلطان «عبد العزيز» الذي كان مرشحًا في حياة أبيه السلطان «الحسن» للملك. ولكن الحاجب «أحمد بن موسى النجاري» اعتقله لما مات والده في ذي الحجة من عام ١٣١١هـ وأخذ البيعة لأخيه الصغير «عبد العزيز». وكان بين الدعي وبين الأمير «محمد» بعض الشبه ، وأتاحت له خدمته في القصر السلطاني أن يعرف كثيرًا من الأمور التي تقوي ادعائه فادعى أنه الأمير «محمد» ، وصدقه الكثير من البسطاء والقبائل .

(١) أخطر جاسوس فرنسي عاش في بلاط السلطان «الحسن الأول» وبلاط السلطان «عبد العزيز» انظر : المصدر السابق ٣٢٧/١. ومن المحتمل - وهو احتمال قوي - أن فرنسا عبر جاسوسها هذا قد زينت «لأبي حمارة» أن يدعي أنه الأمير المذكور ، ويقوم بثورته تلك ، خصوصًا أنهما كانا يعملان معًا في البلاط السلطاني. وقد جنت فرنسا من تلك الثورة المشئومة فوائد عظيمة. وكان إعلان الحماية على المغرب في أعقابها - وخسر المغرب من الأموال والعتاد والرجال ما لا يخطر على البال. وبعد أن قام بالدور المطلوب تخلت عنه فرنسا ، ليقع أسيرًا في قبضة السلطان «عبد الحفيظ» الذي حكم بإعدامه.

المجنون في عرف الجمهور ، كائن عقله في السماء ، وجزؤه الكثيف على الأرض - إنه حبيب الله ، ومهما ارتكب من الفظائع ، فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس ، وكثيرون هم الذي يتخطون على الدوام قواعد الدين ، ويتمردون على مبادئه ، ولكن العلة في ذلك عند الناس ، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله!! ، مما أدى إلى العجز عن التحكم في العواطف - والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر يحفظون في الحبس - أما الذين لا يخشى منهم ينظر الناس على أنهم أولياء الله .... ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخابيل أو دجالون ، يسير بعضهم في الشوارع عارياً كامل العري ، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير - حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم ، بل يأذن لهؤلاء الخبثاء أحياناً ، بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية» [(١)] .

وذكر الجبرتي أن «عبد الله جاك مينو» قائد الحملة الفرنسية في مصر بعد رحيل نابليون ومقتل كليبر أرسل إلى المشايخ يسألهم عن «الذين يدورون في الأسواق ، ويكشفون عوراتهم ، ويصيحون ويصرخون ، ويدعون الولاية ، وتعتقدهم العامة ، ولا يصلون صلاة المسلمين ، ولا يصومون ، هل هذا جائز عندكم في دينكم ، أو هو محرم ، فأجابوه بأن ذلك حرام ، ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا ، فشكرهم على ذلك ، وأمر الحكام بمنعهم والقبض على من يرونه كذلك ، فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان ، أو غير مجنون فأما أن يرجع عن حالته أو يخرج من البلد» [(٢)].

ولكن ما لبث أن عادت الأمور كما كانت عليه بعد رحيل الفرنسيين ، وكأن شيئاً لم يكن وقد كانت الجذبة غاية الكبار من المتصوفة التي يطمحون إليها ، ويجاهدون من أجلها فهذا الصوفي الشهير «أحمد أسعد المدني». «لم يزل يسمو مقامه فوق الواجب ، وقدره يتعالى ، ونعيمه يتجدد ، ويتوالى إلى أن حصل له في آخر أمره جذبة إلاهية!! أذهلته عن إدراك أموره العادية» [(٣)].

وهذا الصوفي «إسماعيل بن عبد الجواد الكيالي» (المتوفى سنة ١٢٣٢هـ) حصل له جذبة عام ١٢٠٠هـ فخلع ثيابه ، وصار يدور في الأسواق على هذه الحالة ويتكلم بما لا يعني من الكلام ، ومال إلى الخمول والذهول وتغيرت أحواله ، ومع هذه الحالة شوهدت له كرامات كلية! ، وخوارق وأحوال ، وأخبارات غيبية ، وكانت الناس تحترمه ، وتهابه وتخشى من بطشه ، ويرجون دعواته ، وينظرون إليه بعين المهابة والتعظيم!!» [(٤)].

---

(١) التصوف في مصر إبان العثر العثماني ص١١٤.

(٢) عجائب الآثار ٤٠٣/٢.

(٣) حلية البشر ٢١٥/١.

(٤) المصدر السابق ٣٢٥/١.

أما المجذوب «حسن الدنا» (المتوفى سنة ١٢٨٦هـ) فيقول عنه صاحب «الحلية» : «التائه الكبير، والمعتقد الشهير ، المجذوب الغائب بمولاه عما سواه ، كان في أغلب أمره مكشوف العورة ، مأخوذاً عن نفسه ، يتقدم تارة في مسيره ، ويرجع أخرى ، وهو يفرك بيديه ، ويعض على أصابعه ، ولا يتكلم أبداً »[١].

وأما المجذوب «أبو بكر المراكشي» (المتوفى سنة ١٢٧١هـ) فهو : «الولي المجذوب الهائم المتيم المحبوب ..... وكان الخليفة «محمد بن عبد الرحمن العلوي» يعتقده ويعظمه ويخلع عليه الملابس وقتاً بعد وقت ، وشوهدت له كرامات عديدة ، وأخبار بمغيبات ، منها إخباره بموته ، وكان من عادته رحمه الله حلق رأسه في كل وقت ولو بدون شعر فيه»[٢].

وهذا الشيخ «حسن الهابط الدمشقي» (المتوفى سنة ١٢٧٦هـ) : «المجذوب لمولاه والمنقطع عما سوى الله ، صاحب الكرامات الظاهرة والخوارق العجيبة الباهرة .... كان ملازماً للوقوف في ساحة الحمام ، ولا يخرج منها ، حتى في فصل الشتاء ونزول الثلج الذي ربما غطاه أحياناً ...... وكان إذا أظهر المحبة إلى إنسان شمه بأنفه ! ، وكان دائماً نظره إلى الأرض ، مطرقاً برأسه يدور في محله ويتردد.....» .

ولما تأخر الشيخ «حسن» والد الشيخ «عبد الرزاق البيطار» عام ١٢٦٣هـ بسبب حضوره حفل ختان ابني السلطان «عبد المجيد» وهما «مراد وعبد الحميد». قلق أهله ، فخرج الشيخ «عبد الرزاق» وكان صغيراً لا يتجاوز العاشرة ، فوجد المجذوب أمام حجرة والده يتردد ، ولم يكن له عادة في الانتقال من الساحة المتقدمة ، فاستغرب ذلك وسأله فقال له بلسان فصيح : يأتي الشيخ يوم الأحد ، فقلت له : وأي أحد ، فقال : يوم الأحد ، فكررت ، وهو لا يزيد عن ذلك ، ففي ثاني يوم صباحاً ورد علينا مكتوب من «بيروت» بحضوره إليها ، وكان وصوله إلينا يوم الأحد كما قال المترجم. وكان كثيراً ما تأتي إليه جملة من أكابر المجاذيب ليلاً ، فيجلسون عنده ، ويتذاكرون معه ، وإذا مر عليهم أحد سكتوا عن الكلام إلى أن يبتعد عنهم ، ورؤوسهم متدانية بعضها من بعض ، خوفاً من أن يسمعهم أحد ، وأما صغار المجاذيب ، فإنهم لا قدرة لهم على المرور من محلته ، حتى لو جرهم أحد يمتنعون من مطاوعته ، ويظهرون الخوف والتباعد[٣].

أما المجذوب «أحمد بن عبد الرحمن العلوي البلغيثي المراكشي» (المتوفى سنة ١٣١٨هـ) : فقد كان في أول أمره «يقرأ على الفقيه البركة السيد «عبد القادر الدكالي» ، ثم أخذه جذب ، فصار ينطق

---

(١) المصدر السابق ٤٨٨/١.

(٢) الإعلام بمن حل «مراكش» وأغمات من الأعلام ٢٢١/١.

(٣) حلية البشر ٥٢٠/١.

بالكلام الذي تشمئز منه النفس ، ويفعل الأمور التي ينكرها الشرع ...... ورأى الناس له كرامات ، منها إخباره بالمغيبات على وجه الإشارة الذي يظهر صدقها كفلق الصبح ، والدخول على المواضع وأبوابها مغلقة ، على ما أخبرني به غير واحد.

وكان يدخل على دار الوزير السيد «أحمد» من غير إذن ، ويعطيه الكساوى الفاخرة ، ويركبه بهائمه ، ويساعده على كل ما أراد ، ولا ينكر عليه شيئًا من أفعاله!!.... وكان دائمًا يلهج بلفظة الفرنسيس» (١).

إن هذا الموقف الغريب من المجاذيب، لهو مؤشر خطير على مدى الانحدار والسقوط الذي وقعت فيه الأمة، حين ركن الجمهور فيها إلى المجاذيب والمجانين، يحبونهم، ويهابونهم، ويخافون منهم ، ويجلونهم ، ويكرمونهم ، ويغضون الطرف عن فضائحهم وقبائحهم ويستشفون الغيب منهم (٢).

وصار الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين ، ولا شك أن هناك بينهم نسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين ، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس ، فاندسوا بين صفوفهم ، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء ، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب ، مهما ارتكبوا من الموبقات ، وجاهروا بالفواحش والآثام.

ولا شك أن بعض هؤلاء المجاذيب ، بل كثير منهم ، كان بهم مس من الجن وللشياطين بهم تخبط ، وبعضهم ممن كان يتعامل مع الجن ، كالذين يدخلون البيوت ، والأبواب مغلقة. لكنهم كانوا جميعًا من طبقة الأولياء التى تحظى بالاحترام والتبجيل.

قال السملالي تحت عنوان (فائدة وتنبيه) : «قال بلدينا الافراني الحافظ في الفصل السادس من درر الحجال ، ومن خطه نقلت ما نصه : قلت وقد كثر قوم يمشون في الطرقات ، منكشفي العورات ، ومرتكبي لمباحات ومحرمات ، ويسميهم الناس بالمجاذيب ، وعادتي أنا فيهم أن أعرض عنهم ، فلا أعرض لهم بإنكار ولا بتسليم..» (٣) والمتوقفون في أمر هؤلاء المجاذيب ، لا ينكرون عليهم ،

---

(١) الإعلام بمن حل «مراكش» وأغمات من الأعلام ٤٤٨/٢ . وكأن لهجه المستمر بكلمة الفرنسيس يريد أن ينبه بها قومه في المغرب ليحذروهم. لعل المؤلف يريد أن يصل إلى هذا. ولماذا ينتظر تنبيهات المجانين أو الأولياء منهم! والفرنسيون محتلون للجزائر وتونس ، ويوشكون أن يحتلوا المغرب. فهذا المجنون يكرر دائمًا : الفرنسيس ، الفرنسيس. يريد تحذير قومه. وهو إعلام لهم بالغيب القادم ولكن عن طريق الإشارة. فأي ضياع أعظم من هذا. أن تركن الأمة إلى الغفلة والنوم، وألا تتنبه لمخططات الأعداء ولا تسمع إلا للمجاذيب.

(٢) قال تعالى : { قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله } [النمل ٦٥] وقال سبحانه : { وما كان الله ليطلعكم على الغيب } [آل عمران ١٧٩] فمن ادعى شيئًا من علم الغيب فهو كافر مرتد ، يستتاب وإلا قتل . ولا خلاف بين المسلمين في ذلك.

(٣) المصدر السابق ٤٤٩/٢.

ولا يسلمون لهم ، كما صنع الأفراني كانوا قلة ، مع أن موقفهم هذا باطل شرعًا ، لأنه يتعارض مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أما المعارضون لهم ، والمنكرون عليهم ، فكانوا قلة قليلة ، لا يأبه بهم أحد. وإن أمة كان المجانين والمعتوهون يتصدرون الناس فيها ، ويكرمون فيها ، ويعدون الأولياء فيها ، وتحتشد جماهيرها وراءهم في وقت كانت هدفًا للأعداء ، وغرضًا لسهامهم وحملاتهم ومخططاتهم ، لمستحقة أن تغزى في عقر دارها ، وأن تستباح بيضتها. وأن تجتاح بلادها وأن يغرب أهلها وتمسخ هويتها ، وهو ما وقع بالفعل .

الثاني عشر : الصوفية والعقائد المنحرفة :

ونعني بالعقائد المنحرفة ، تلك العقائد الكفرية ، التي تخرج معتقدها من الملة فقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة. ولعل أخطر العقائد التي آمن بها كثير من المتصوفة عقيدتا وحدة الوجود والحلول [1]. وعلى الرغم من خطورة هاتين العقيدتين ، والهجوم العنيف الذي واجهته من قبل علماء الأمة على اختلاف مذاهبهم، إلا أن المتصوفة قد احتضنوهما، وعملوا على نشرهما، وألفوا المؤلفات من أجلهما، واعتبروهما الحقيقة التي كشف لهم سرها وسترعن الآخرين.

ولا غرابة بعد هذا أن نجد في تلك الفترة الحالكة التي نقوم بدراستها ، كثيراً من المتصوفة الذين يؤمنون بهذه العقائد الباطلة التي تخرج أصحابها من دائرة الإسلام. كما نجد التبجيل العظيم والتقديس المفرط ، من جماهير المتصوفة ودهمائهم لرموز هاتين العقيدتين الباطلتين ، من أمثال «الحلاج وابن عربي» وغيرهما.

---

(١) قسم شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله تعالى أهل الحلول والاتحاد إلى أربعة أقسام هي : -

١ - الحلول الخاص ، وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقولون إن اللاهوت حل في الناسوت ، وتدرع به كحلول الماء في الإناء .... وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة ، كغالية الرافضة الذين يقولون : إنه حل بـ «علي بن أبي طالب» وأئمة أهل بيته ، وغالية النساك الذي يقولون بالحلول في الأولياء ، ومن يعتقدون فيه الولاية ، أو في بعضهم : كـ «الحلاج» و«يونس» و«الحاكم» ونحو هؤلاء.

٢ - الاتحاد الخاص ، وهو قول يعقوبية النصارى وهم أخبث قولاً ، وهم السودان والقبط ، يقولون : إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا ، كاختلاط اللبن بالماء ، وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

٣ - الحلول العام ، وهو قول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة الجهمية المتقدمين ، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون : إن الله بذاته في كل مكان.

٤ - الاتحاد العام وهو قول هؤلاء الملاحدة (ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني) الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات ، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى من وجهين : فمن جهة أن أولئك قالوا إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه ، بعد أن لم يكونا متحدين ، وهؤلاء يقولون : مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره. والثاني: من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظمه كالمسيح ، وهؤلاء جعلوا ذلك سارياً في الكلاب والخنازير والاقذار والاوساخ. مجموع الفتاوى ١٧١/٢.

فـ «ابن عربي» له ضريح كبير ومقام شهير في صالحية «دمشق» ، وليس ذلك بغريب في عصر عبادة الأضرحة والقبور. ولكن الذي يهمنا نظرة الناس إليه. يقول «القاياتي» لدى زيارته لضريحه : «فابتدأنا بزيارة الشيخ الأكبر «محيي الدين بن عربي الطائي» صاحب المقامات والكرامات والمكاشفات الظاهرة والخوارق الباهرة ، سلطان أهل الحقيقة [1] ، وشيخ مشايخ الطريقة ، له في التوحيد القدم الراسخة!! وفي المعارف الإلهية الذروة الشامخة .... وقبره داخل قبة عظيمة، لها أطواق وشبابيك مطلة على البساتين والجنائن ...... وعلى قبره الشريف مقصورة من نحاس أصفر وكواكب الفضة المطلية بالذهب الأحمر . ولم نر في بلاد الشام ضريحاً يشبه أضرحة آل البيت بمصر إلا هذا الضريح الأنور والمزار الأزهر» [٢].

وقد كان كثير من متصوفة العصر يعكفون على دراسة كتب «ابن عربي» وغيره من كتب غلاة المتصوفة. يقول الشيخ «عبد الرزاق البيطار» عند ترجمة الشيخ «الطيب بن محمد المبارك الجزائري المالكي» : «فكنا نحضر وإياه مع من حضر كتاب «الفتوحات المكية» ، وغيرها من كتب السادة الصوفية .... وفي سنة ألف ومائتين وسبع وثمانين ، أرسله حضرة الأمير «عبد القادر الجزائري» مع حضرة شيخنا «الطنطاوي» إلى مدينة «قونية» لمقابلة الفتوحات المكية على خط مؤلفها العارف بالله الشيخ «محيي الدين العربي» ، وقرأها مع الشيخ المذكور هناك مرتين مقابلة ، وبعد مجيئهما قرأناها جميعًا على الأمير المرقوم مع التزامنا لإصلاح نسختنا على النسخة المقابلة على خط المؤلف» [٣].

وإذا كان هذا هو حال العلماء ، حيث يعكفون على مثل تلك الكتب المنحرفة ، يسافرون بأمر أكابرهم من أجل مقابلة نسخها ، ويجتمعون على دراستها ، فليت شعري كيف كان حال العامة الذين رزئوا بأمثال هؤلاء العلماء.

فالأمير «عبد القادر» الذي استسلم للفرنسيين ، وتعاهد معهم على ألا يقاتلهم ، وأقام في دمشق ، حيث «لازم بيته معتكفًا على مطالعة الفتوحات للشيخ الأكبر والمحاورة في مسائلها مع جلة علماء الشام» [٤]. وقد رأينا كيف كان يرسل العلماء على حسابه ، ليقابلوا كتاب الفتوحات على خط مؤلفه الهالك.

وكان المشير «أمين باشا التركي» والي « دمشق » «مولعًا بكتب الشيخ «محيي الدين بن عربي»... ولما توفي سنة ١٢٦٧هـ دفن في مقام الشيخ «محيي الدين ابن عربي»» [٥].

---

(١) يعنون بالحقيقة وحدة الوجود.

(٢) نفحة البشام ص١٣٢ وللاعتناء بضريحه سبب لا يخفى له علاقة بغلوه الصوفي.

(٣) حلية البشر ٢/٧٥٧.

(٤) الرحلة الحجازية ٣/٢٠٠.

(٥) تاريخ معرة النعمان ٢/٢٣٠.

وهذا «أحمد السهسواني الهندي» (المتوفي سنة ١٢٥٩هـ) : «كان من القائلين بوحدة الوجود له مصنفات منها : «البنيان المرصوص في شرح الفصوص لابن عربي»» (١).

وكان تدريس كتابيّ «فصوص الحكم» و«الفتوحات المكية» لـ«ابن عربي» وغيرهما من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم. وهو المنزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم ، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء. كما رأينا ذلك بوضوح عند الأمير «عبد القادر الجزائري» ، وجمهور علماء «الشام». ولم يكن الأمر مقتصراً على «الشام» ، بل كان ذلك الانحراف واقعًا في غالب الأقطار.

فهذا الشيخ «حسن بن إبراهيم اللكهنوي» (المتوفى سنة ١٢٤١هـ) : «كان شيخًا جليلاً وقوراً عظيم المنزلة عند الأمراء يدرس «الفصوص» و«الفتوحات» (٢).

وهذا الشيخ «علي أكبر الفيض آبادي» (المتوفى سنة ١٢١٠هـ) كان يعكف على مطالعة كتب الشيخ «محيي الدين بن عربي». كما يقول من ترجمه (٣).

وهذا «ابن عجيبة الحسني المغربي» (المتوفى سنة ١٢٢٤هـ) (٤) ينقل قول «الحلاج» الذي يصرح فيه بالحلول :

سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل الشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب

ثم يعلق على ذلك الكفر بكفر آخر : «وبإظهار هذا وأمثاله قتل رضي الله عنه ، فمن لطف الله تعالى ورحمته ، أن ستر ذلك السر بظهور نقائصه ، صونًا لذلك السر أن يظهر لغير أهله ، ومن أفشاه لغير أهله قتل كما فعل بـ «الحلاج»» (٥). ويقول في موضع آخر : « .... وإلا فقد علمت ما وقع «للحلاج» وهو ولي الله حقًا ...» (٦).

وقد كان ابن عجيبة ممن يقول بوحدة الوجود كما ذكر ذلك في كتابه «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» (٧)

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٣.
(٢) المصدر السابق ٧/١٣٠.
(٣) المصدر السابق ٧/٣٢٨.
(٤) الأعلام ١/٢٤٥.
(٥) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٧٠.
(٦) المصدر السابق ص٧٨.
(٧) انظر المصدر السابق ص٦٩ ـ ٧١ ، ص١٦١ ـ ١٦٤ ، ص١٩٦ ـ ٢٠٠.

وكثيراً ما يرد في ثنايا التراجم بعض العبارات الدالة على إيمان المتصوفة في ذلك العهد بتلك العقائد المنحرفة ، كما يذكر «ابن أبي الضياف» عن المجذوب «عبد الواحد» أنه كان على درجة من الزهد واحتقار الدنيا ، لا يرى في الوجود غير الواحد الموجود [١].

وهذا الشيخ « الدردير » (المتوفى سنة ١٢٠١هـ) [٢] من أشهر علماء المالكية في مصر ، ومن كبار شيوخ الأزهر، يقول في صلواته المبتدعة : «... وزج بي في بحار الأحدية!، وانشلني من أوحال التوحيد! ، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها...» [٣].

وإن يكن كثير من المتصوفة في ذلك العهد لم يستطيعوا أن يصرحوا بهذه العقائد الكفرية ، واكتفوا بدسها والإشارة إليها في خضم الأذكار والأوراد والشروح والحواشي إلا بعضاً منهم كانوا يجاهرون بها دون مواراة ، كما صنع الشيخ «سعيد الخالدي الدمشقي» حيث «استخف بالعلماء وجحد فضيلة الفضلاء ، وأنكر العلم والعمل وعن كثير من التكاليف اعتزل ، وقال : هذه واجبة على المحجوبين لا على المحبوبين .... ومن دخل في الطريق ، وترقى في المقامات صارت ذاته عين الذات وصفاته عين الصفات ...» [٤] وقد تبعه على مقالته جماعة من المتصوفة.

ويذكر الشيخ «عبد الرزاق البيطار» أنه خرج معه إلى الصحراء ، فرأى امرأة قروية قد لبست لباساً أحمر فقال لها : يا حبيبي عملت نفسك امرأة ، ولبست اللباس الأحمر!!

ومرة رأى هراً فصرخ وقال له : عملت نفسك هراً ، وتظن أني ما عرفتك!

وكان يقول عن ابليس إنسان كامل [٥].

ويقول الشيخ «حسن رضوان» الذي تفقه بالأزهر (المتوفى سنة ١٣١٠هـ) [٦] من منظومته الصوفية «روض القلوب المستطاب» :

وحسبك من ذلك المقصود ... إشراق نور وحدة الوجود!!
وكل ما سواه نجم آفل ... بل في شهور العارفين باطل
فليس إلا الله والمظاهر ... لجملة لأسماء وهو الظاهر [٧]

---

(١) إتحاف أهل الزمان ١٥٩/٦.
(٢) الأعلام ١٩١/٢.
(٣) الكشف عن حقيقة الصوفية ص١٩٣.
(٤) حلية البشر ٦٧٢/٢.
(٥) المصدر السابق ٦٧٢/٢.
(٦) الأعلام ١٩١/٢.
(٧) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢١١.

ويقول الشيخ «علي بن أحمد اليشرطي الشاذلي» (المتوفى سنة ١٣١٦هـ) [١] : «ما زال العبد يذكر الله حتى يستولي عليه الاسم ، ومتى استولى عليه الاسم ، انطوت العبدية بالربية وظهرت عليه صفات الرب ، ولذة الرب تغيب العبد عن وجوده حسًا ومعنى .... ومن يرحم الفقير ربي يحسن إليه ، وهذه وحدة الوجود لا يحصل عليها أي انسان ، فهي للأصفياء والأنبياء...» [٢]

أما إيمان أئمة التجانية وشيوخها بهذه العقيدة فهو من أهم سمات هذه الطريقة [٣]. تعالى الله عما يقول الزنادقة والملحدون علوًا كبيرًا.

ومن العقائد التي آمن بها بعض متصوفة ذلك العصر عقيدة تناسخ الأرواح [٤]. ومن ذلك ما يذكره «أحمد بن الحاج» كاتب الشونة ضمن كرامات الحاج «محمود الولي الصالح» «أنه سمع ممن سمع من الشيخ «خوجلي» أن الحاج «محمود» روح الشيخ «حسن ولد حسونة» رضي الله عنه ، وهذا مما ينكره أهل الظاهر ، ويسمونه بتناسخ الأرواح» [٥].

ومن العقائد الخطيرة التي آمن بها كثير من المتصوفة في تلك الفترة المظلمة ما يسمى بسقوط التكاليف الدينية عن مدعي الولاية.

فالشيخ «سعيد الخالدي الدمشقي» الذي ذكرناه قبل قليل ، وتبعه جماعة ، ادعى سقوط التكاليف عنه «وأنكر العلم والعمل ، وعن كثير من التكاليف اعتزل ، وقال هذه واجبة على المحجوبين لا على المحبوبين .... وصار لا يقول بواجب ولا مسنون ، ويقول إن التمسك بذلك محض جنون ، ومن دخل في الطريق ، وترقى في المقامات صارت ذاته عين الذات ، وصفاته عين الصفات ، وهل يجب على الله صلاة أو صيام بحال ، وهل يقال في حقه عن شيء حرام أو حلال .... وقد وافقه على ذلك عدة أشخاص قد خرجوا من الدين ولات حين مناص ، فتجاهروا بالآثام ، ولم يتقيدوا بحلال أو حرام ..... وتبعهم على ذلك جملة قوية ، حتى صاروا فرقة ذات متانة وحمية..» [٦].

والارتباط بين عقيدة وحدة الوجود وبين عقيدة رفع التكاليف وسقوطها ، واضح للعيان ، كما استدل به ذلك الزنديق المارق ؛ إذ أن العقيدة الثانية لازمة للعقيدة الأولى وفرع عنها.

---

(١) الأعلام ٤/٢٦٠.

(٢) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢١٩.

(٣) انظر : التجانية ص٨٣ ـ ٩٤.

(٤) والمراد بتناسخ الأرواح أنه إذا مات الإنسان يفنى منه الجسد ، وتنطلق منه الروح لتتقمص ، وتحل في جسد آخر بحسب ما قدم من عمل في حياته الأولى ، وتبدأ الروح في ذلك دورة جديدة. انظر :الملل والنحل ص٢٥٤للشهرستاني ، دار الفكر ، بيروت . والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٨٣، د علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة مصر . القاهرة.

(٥) تاريخ السلطة السنارية ص٣٢.

(٦) حلية البشر ٢/٦٧٢.

ولعل أتباع الطريقة الملامتية [١] من أولئك الذين استخفوا بالتكاليف واستباحوا المحرمات ، كما ذكرنا ذلك عن الحاج «محمود» في السودان.

ومن هؤلاء الذين رفعت عنهم التكاليف على حد زعمهم الشيخ «محيي الدين بن محمد الشافعي العاني» : «فعلا قدره ، وانتشر بين الناس ذكره إلى أن صار إذا عمل أكبر الكبائر ، يقول الناس هذه لا تعد من الصغائر ؛ لأن الشيخ له أحوال لا نعرف ما يقصد عند بعض الأفعال ، فهو من أهل الكشف والشهود، ونحن من أهل الحجاب المسدول والممدود!! فحينئذ أطلق أقواله وأظهر أفعاله ، وأتى بما لا يصدر مثله عن أهل الشقا ، فضلاً عن ذوي الطاعة والتقى» [٢].

ومع أن الطريقة الملامتية لم تكن واسعة الانتشار «لكنها استمرت تظهر في سلوك كثير من الأولياء في كل الطرق ، يتظاهرون بالتهتك وإتيان البهائم وشرب الخمور وتناول الحشيش والسرقة وغير ذلك ، ليستروا على الناس ولايتهم وصديقيتهم» [٣].

ومما يدل على ذلك ، أن صاحب «حلية البشر» حين ذكر ترجمة الشيخ «يوسف أبو خرج الدمشقي المجنوب» قال عنه : «ومع جذبه كانت أحواله لا تنكر عليه ، بل تجد أموره مائلة إلى ظاهر الشرع مستندة إليه» [٤]. حيث إن أغلب الأولياء من المجاذيب وغيرهم كانت أحوالهم في كثير من الأحيان مخالفة للشرع ، لأنهم رفعت عنهم التكاليف كما يدعون. وما دام الولي في حال الجذب ، فالتكاليف ساقطة عنه . فهذا الشيخ «عبد الله بن محمد بن عيسى الدمشقي الصالحي الشهير بالكناني» ، شيخ الطريقة الخلوتية «كان يغلب عليه في بعض الأيام ، غيبة وجذبة واصطلام [٥] ، فكان في تلك الحالة يتكلم بما هب ودرج ، وليس عليه في كلامه حينئذ ملام ولا حرج!!» [٦].

وقد كان للشيخ «علي بن أحمد المغربي اليشرطي الشاذلي» جماعة «قد خرجوا في الظاهر عن دائرة الأدب ، وتكلموا بما هو لكل ملام سبب ، وتركوا في الظاهر كل مأمور ، وارتكبوا أقبح الأمور» وقد نفت الدولة العثمانية بعضهم ، ثم أطلقتهم «فرجعوا إلى «الشام» ، ولم يزل بعض أهل هذه الطريقة (يعني طريقة الشيخ المذكور) يفتخرون بمخالفة الشريعة الغراء ، وبترك كل مأمور به ......

---

(١) وهم كما ذكرنا من قبل قوم يفعلون القبيح لأجل أن يلومهم الناس ، وكل ذلك ستراً لولايتهم!!.

(٢) حلية البشر ١٤٨٦/٣.

(٣) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٣٥٥.

(٤) حلية البشر ١٥٩٤/٣.

(٥) الاصطلام كما في «مختار الصحاح» : الاستئصال ص١٥٤.

(٦) حلية البشر ١٠٠٧/٢.

فلاطوا بالأبناء ، وزنوا بالأمهات ، وأكلوا الحرام ، وأنهمكوا في المنكرات ، واعتقدوا بأنهم صوفية الزمان ، وأن من سواهم قد ألبس نفسه ثياب الحرمان ، ويفسرون كلام الله ورسوله بكل تفسير فاسد، فيقولون بأن هذا التفسير قد ألقاه إليه بالوارد ، فما أعظمها مفسدة في الدين ، وما أجسمها فتنة على المسلمين ، فياعباد الله من يقول بأن المنهي عنه طريق الوصول ...... وأما المأمور به فهو حجاب ، ولا يتمسك به إلا المحجوبون عن طريق الصواب..» (١).

وهذا الشيخ «أحمد زيني دحلان» «كان يكره التنباك ، ويزجر من يشربه بانهماك ، وكسر مرة جميع الشيش التي في بيته ، وأمر بذلك خواص تلامذته وطلبته ، إلا أنه لما كثر عليه توارد الواردات ، وحصول الأنوار والمكاشفات ، صار يستعملها تستراً وحفظاً للبشرية !! كما كان شيخه الشيخ «عثمان» ذو المقامات العلية» (٢).

هذه العقائد المنحرفة لقيت لها رواجًا واسعًا بين المتصوفة في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية (وما زالت) ففي حين كان الكيد الاستعماري على أشده ، وأعداء الإسلام يحشدون كل إمكاناتهم للقضاء على الإسلام والمسلمين كان الكثير من المتصوفة يؤمنون بهذه العقائد المنحرفة ، كعقيدة وحدة الوجود ، التي يمكن للحياة في ظلها أن تفسد ، ويحيق الدمار بالعالم ، وتبطل الأديان بالكلية ، فلا يبقى معها دين ولا جهاد ، ولا عداء بين مسلم وكافر ، فالكل واحد ، والوجود واحد ، وإن تعددت المظاهر. نسأل الله عز وجل السلامة في الدين.

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، استخفاف كثير منهم بالشرائع ، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها ، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه ، تحت مسمى الولاية والجذب والشهود.

كل ذلك مع ما أفضناه من حديث حول الصوفية بتواكلها وسلبيتها ورضوخها للواقع ، وغلوها ، وخرافاتها وطقوسها ، كان مجالاً مفتوحًا لدخول الحركات التغريبية ، وانتشار العلمانية التي اتخذت واقع الصوفية حجة لإقصاء الدين عن مجالات الدولة والحياة.

❊ ❊ ❊

---

(١) المصدر السابق ١٠٥٧/٢ ، الأعلام ٢٦١/٤.

(٢) نفحة الرحمن ص٤٢. والشيخ «عثمان» المذكور هو الدمياطي المصري نزيل مكة المتوفى بعد ١٣٠٢هـ الأعلام ٢١٤/٤.

الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة :

ونقصد بهذه الفرق المقابلة لأهل السنة بالمصطلح العام [1] كالشيعة الاثنى عشرية والدروز والنصيرية والإسماعيليه والقاديانيه والبهائية وغيرها من الفرق المنتسبة للإسلام .

والفرق الأربع الأولى : كانت موجودة من قديم ، أما القاديانية والبهائية فلم تظهرا إلا في الفترة التي نعنى بدراستها.

وقد سبق أن أوردنا الحديث عن خطورة تلك الفرق القديمة ، وأنها كانت ومـا زالت شوكة مسمومة تخز ظهر الأمة الإسلامية ، وتتمالأ مع أعدائها عليها.

وفي تلك الفترة ازداد خطر تلك الفرق الخارجة عن الإسلام واستفحل أمرها ، خصوصاً مع مجئ الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية ، فكانوا على عادتهم دائما مع أعداء المسلمين عونًا لهم وجندًا مخلصين تحت قيادتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين ، وهاهم أولاء يسيرون على نفس الطريقة الملوثة بالخيانة والتآمر لحساب المستعمرين.

يقول القاضي «حسين بن أحمد العرشي» [2] متحدثًا عن الباطنية الذين تسببوا في إثارة القلاقل واندلاع الثورات في بلاد اليمن على طول التاريخ وتفاقم شرهم في القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر: « اعلم أن الباطنية ـ أخزاهم الله تعالى ـ أضر على الإسلام من عبدة الأوثان وسموا بها لأنهم يبطنون الكفر ، ويتظاهرون بالإسلام ، ويختفون حتى تمكنهم الوثبة ، وإظهار الكفر وهم ملاحدة بالاجماع ، ويسمون (بالإسماعيلية) لأنهم ينسبون أئمتهم المستورين فيما يزعمون الى «إسماعيل بن جعفر الصادق» ، و(بالعبيدية) لدعائهم الى «عبيد الله بن ميمون القداح» الذي نسبته الباطنية إلى ما يزعمون من الأئمة المستورين ، والعبيديون من أولاد «عبيد الله» ولاة مصر ذلك الزمن، والآن يسمون (شيعة) لكونهم مظهرين أن أئمتهم من أولاد الرسول ، حين عرفوا أنه لا يستقيم لهم إمالة الحق ، والدخول إلى دهليز الكفر إلا باظهار المحبة والتشيع.

---

(١) أما بالمصطلح الخاص فالمقصود هم أهل السنة والجماعة فتخرج بذلك جميع الفرق الكلامية كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية وغيرها.

(٢) الأعلام ٢/٢٣٢.

ولهم قضايا شنيعة ، وأعمال فظيعة ، كالاباحية وغيرها . وقد تابعهم على ذلك من ذهب عنه النور الإيماني ، واستولى على قلبه الهوى الشيطاني. وهم مع ذلك ينكرون القرآن ، والنبوة والجنة والنار. ولولا أن حياتهم معلومة عندهم ، مرتبة بينهم لأنكروها.

وعلى الجملة فدينهم النجوم ، وظواهرهم التخوم ، ولا يكاد يظهر مذهبهم لأتباعهم إلا لمن رسخ دينهم في قلبه ، وتراهم إذا وجدوا لأنفسهم قوة أظهروا أمرهم وأعلنوا كفرهم ، فان غلبوا ولم تساعدهم الأيام، كمنوا كما تكمن الحية في جحرها، وهم مع ذلك يؤملون الهجوم والوثبة، وأن ينهشوا عباد الله ... ولا ينبغي لذي معرفة وقوة، أن يعرف منهم أحداً يقتدر عليه فيتركه وشأنه، فإنهم أهلكهم الله تعالى شياطين الأرض» [١].

وقد حاول هؤلاء الباطنية أن يبسطوا سيطرتهم على بلاد اليمن وأن يعيدوا ملك أجدادهم الصليحيين [٢] ، واستطاعو أن يسيطروا على بعض الجهات وأن يحكموها ، وكم قامت بينهم وبين أئمة اليمن الزيدية من معارك طاحنة تكبد فيها الطرفان خسائر فادحة في المال والأرواح ، وكم نكب المسلمون من اعتداءاتهم هناك.

ويذكر «العرشي» حادثة كبيرة أسماها حادثة المكرمي «وهو داعي الباطنية من بني مكرم وأتباعه من بعض همدان الذين بقرب «صنعاء» ورجال (يام) وأنه ملك (حراز) أيام «المنصور الحسين ابن القاسم بن الحسين». وما قدر أحد على نزعه وما زالوا يتوارثونها حتى استفحل أمرهم ولمت الدعوة إلى «الحسين بن إسماعيل شيام المكرمي»، فاستولى على الحيمة وعمر الحصون فيها ، وجهز الإمام المتوكل على الله لقتاله الجيوش من أرحب ، ومقدمهم الإمام المنصور بالله « محمد بن يحيى » أيام سيادته . فكانت بينهم هناك ملحمة بقرية تسمى (الزيلة) قتل فيها من الباطنية ، ثم من رجال يام نيف ومائة ، وانخدعت رجال أرحب بعد ذلك ، فما زال الداعي مالكًا لها ، ولحراز وجبل عانز ، ويتطاول إلى غيرهن حتى قتله وقتل «أحمد بن الحسن» وأخرب حصونه واستولى على مملكته «أحمد مختار»[٣].

وقد استمرت إمارة هذا الباطني نحو ثلاثين عاماً إلى أن هزم [٤].

---

(١) بلوغ المرام شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام ص ٢١ القاضي «حسين بن أحمد العرشي» مطبعة البرتيري. القاهرة ١٩٣٩م.

(٢) انظر : دراسات عن الفرق ص ٢٩٤ للدكتور أحمد محمد جلي حول حكم الصليحيين في اليمن.

(٣) المصدر السابق ص ٧٦. أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر للهجرة ص ٦ محمد بن محمد بن زبارة المطبعة السلفية القاهرة ١٣٧٦هـ . تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ١٠٠ ، ولمزيد من أخبارهم انظر : ص ٢٥١ ، ص ٢٥٢ في تاريخ اليمن .

(٤) الأعلام ١٨٥/٢ .

وحين كانت اليمن إحدى الولايات التابعة للدولة العثمانية كان هؤلاء الباطنية من المقاومين لسلطانها ومن المتآمرين ضدها. ولكن الدولة تمكنت من إخضاد شوكتهم والقضاء على دولتهم بفضل الله تعالى أولاً ثم بفضل القائد التركي «أحمد مختار» الذي توجه عام ١٢٨٩هـ إلى ديارهم وتمكن من فتح حصونهم المنيعة وإنزال الهزيمة الشديدة بهم.

ويسجل «العرشي» هذا الانتصار فيقول «وقتل المكرمي وابنه ... وأخذت مملكته ، وكانت لا تحد ولا تعد .... وانجلت دولة الباطنيين منها إلى هذا اليوم. فكنت أسمع من بعض العقلاء أن هذه الكائنة من مناقب السلطان وولاته. وقد أعيا الباطنية ملوك اليمن وأئمته ، مع الإجماع على كفرهم وإلحادهم» (٢).

وفي سنة ١٢٦٩هـ هاجم الباطنية مدينة «زبيد» وقتلوا خلقًا من العلماء منهم العلامة «محمد بن علي العمراني الصنعاني» أحد تلامذة الإمام «الشوكاني» المشهورين ، حيث هاجموا داره وقتلوه وكان رحمه الله كثير الاشتغال بعلم الحديث ورجاله إلى أن صار من أعظم أهل هذا الشأن وهذا مما يبغض الباطنية لعنهم الله فيه (٣).

وحين احتل الفرنسيون سوريا. وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم كان الإسماعيلية في سلمية وغيرها يقاتلون جنبًا إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد «إبراهيم هنانو» ومن معه من المجاهدين (٤)..

وفي إيران قام رجل من الإسماعيلية يدعى «حسن علي شاه» (١٢١٩ - ١٢٩٨هـ) وجمع حوله عدداً من بني طائفته وغيرهم وقام بأعمال هدد بها الأمن وأقلق بها السلطات في إيران حتى ذاع صيته وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وانضمت إليه جماعات كثيرة إعجابًا به أو طمعًا في مكاسب مالية تأتيهم عن طريقه . وقد قام الانجليز بالاتصال به وعضدوه ومنوه حكم فارس. وفعلاً قام «حسن على شاه» بثورة عام ١٨٤٠م كانت نهايتها الفشل والقبض على قائدها ، ولكن الانجليز تدخلوا وحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن يجلو عن إيران كلها وزين له الإنجليز الذهاب إلى أفغانستان ليكون صنيعة لهم هناك ، ولكن الأفغانيين كشفوا عن هويته واضطروه إلى الرحيل إلى الهند ، واتخذ من مدينة بومباي مقراً له ، و أراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، ومن ثم اعترفوا به إماماً للطائفة الإسماعيلية النزارية (٤) وخلعوا عليه لقب أغاخان ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية ، فالتف حوله الإسماعيلية في الهند (٥).

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧.

(٢) حلية البشر ١٣١٧/٣ من الهامش.

(٣) الأعلام ٤٢/١.

(٤) نسبة إلى نزار بن المستنصر أحد حكام العبيديين . انظر الأعلام ١٦/٨.

(٥) دراسة عن الفرق ص ٢٣٩ نزهة الخواطر ١٣٩/٧.

وقد بدأ الإسماعيليون وخاصة إمامهم التعاون الفعلي مع الاستعمار الانجليزي في الهند فقد كان إمام الإسماعيلية (آغا خان الأول) رجل السلام والمحبة بين الانجليز وأتباعه ، لذلك فقد منحته بريطانيا لقب (صاحب السمو) ، وفتحت أبواب المستعمرات الانجليزية التي يدين أهلها بالإسلام له ولأتباعه ، فأرسل الإسماعيليون دعاتهم إلى أقطار أفريقيا وآسيا مثل : بورما وسيلان وكينيا وزنجبار وأوغندا ليشككوا الناس بدينهم وعقيدتهم.

وقد توطدت العلاقة أكثر بين الإسماعيليين والانجليز في عهد أغاخان الثالث ، حين صار هذا وسيطًا بين الحلفاء وألمانيا ، مما جعل بريطانيا تأمر بإطلاق أحد عشر مدفعًا تحية لأغاخان عند مقدمه للحفلات الرسمية ، وكان أغاخان معروفًا بالترف الزائد فقد تزوج أربع مرات باحتفالات أسطورية ، منها زواجه من الأميرة الايطالية (ثريا ماجليانو) سنة ١٩٠٨ م التي أنجبت له ولي عهده علي خان وعندما احتفل بيوبيله الذهبي عام ١٩٣٦م ، قدم له أتباعه هدية ذلك بأن وزنوه ذهبًا؟! وكان هذا الإمام الأمير يعد من أغنى أغنياء العالم ، إذ قدر إيراده بعشرة ملايين دولار ، وقدرت مجموعة الجواهر ألتى يتملكها بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار (٣).

وأما المدعو «حسن علي بن خليل الله الإسماعيلي القرمطي»، فقد قام بثورة عارمة عام ١٢٥٧هـ ونصر الانجليز في قتالهم مع الأفغان وأهل السند غير مرة ، وادعى الإمامه فتبعه خلق كثير من الملاحدة ، وكان من الحشاشين (٤) ، ولقبه الانكليز بسمو الأمير (٥).

وقد استطاع رؤساء الإسماعيلية أن يقدموا لأبناء طائفتهم خدمات عظيمة كفتح المدارس وإدخالهم في سلك الوظائف الهامة ، حيث كان لثروتهم الخيالية أكبر دور في ذلك. وقد بلغ دخل أحدهم في السنة الواحدة ثمانية ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٦).

---

(٣) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٧٩ د. محمد أحمد الخطيب. الطبعة الثانية . ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. دار عالم الكتب للنشر والتوزيع. الرياض. وقد نشرت مجلة «الطائف المصورة» المصرية في عددها ١٠٩٨ بتاريخ الأثنين ٢٤ فبراير سنة ١٩٦٣م ص٢٥ صورة للزعيم المذكور وكتبت تحتها ما يلي : صورة عجيبة التقطت للزعيم الهندي الطائل الثراء المعروف أغا خان في أثناء احتفاله بيوبيله الذهبي في مدينة بومباي ببلاد الهند يوم ١٩ يناير الماضي وتراه جالسًا على كفة ميزان كبير وقد وضعوا على الكفة الأخرى ما يعادل ثقله سبائك من الذهب بلغت قيمتها ٢٥,١٢٥ جنيهًا وهبها لأعمال البر والخير بمناسبة يوبيله المذكور !!!

(٤) من أسماء الإسماعيلية وعلى الأخص أتباع الحسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨هـ.
انظر : الأعلام ١٩٣/٢ ودراسة عن الفرق ص ٣٠٠.

(٥) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ١٣٩/٧.

(٦) دراسة عن الفرق ص ٢٣٥.

أما طائفتا النصيرية والدروز فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن وللثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامي ، وعوناً للأعداء من الصليبيين المستعمرين و غيرهم.

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ «يوسف باشا» والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاتلهم حيث «انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم ، وكان قد خيرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا و انخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية ، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد ..» [1] .

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها.

وقد حاول السلطان «عبد الحميد» أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام وأرسل رجلاً من خاصته اسمه «ضيا باشا» جعله متصرفاً على لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس ، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون ، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً ، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست [2].

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم . وكم قد خدعت تلك العقيدة الخطيرة «التقية» المسلمين حكاماً ومحكومين علماء ومتعلمين ، فأين علماء السنة الذين لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين !!

«وتاريخ النصيريين ، منذ أن وجدوا في هذه المنطقة (سوريا) تاريخ أسود مشبوه إذ أنهم لم يخرجوا على العقائد الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب ، بل إنهم كانوا دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية ، يتآمرون ضدها في الخفاء ، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً. والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام .... وفي التاريخ القريب حينما احتل الفرنسيون سوريا عام ١٩٢٠م تقرب إليهم النصيريون وتعاونوا معهم وكوفئوا على ذلك بأن جعل الفرنسيون لهم دولة سموها «دولة العلويين» [3].

وقد اجتمع الكابتن الفرنسي (بلونديل) رئيس مصلحة الاستخبارات في «اللاذقية» بزعماء العلويين ، فأوضح لهم الفوائد التي يجنونها من انفصال المنطقة عن سوريا وإعلان استقلالها ، وبالفعل فقد أعلنت هذه الدولة برئاسة «سلمان مرشد» الذي ادعى الألوهية بايعاز من الفرنسيين ، فكان يلبس ثياباً فيها أزرار كهربائية ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار ، فإذا وصل

---

(١) حلية البشر ١٦٠٠/٣.

(٢) خطط الشام ٢٦٠/١ ، ١٠٥/٣.

(٣) دراسات عن الفرق ص ٢٥٨.

التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين ، ومعهم المستشار الفرنسي الذي كان يسجد مع الساجدين ويخاطب «سلمان» بقوله يا إلهي . وقد غذى الفرنسيون هذه الحركة وراحوا يستغلونها على أوسع مدى لإثارة القلاقل والفتن[1].

وفي العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجري ادعى «سلمان المرشد» أحد النصيرية الألوهية «وقد «بدأت سيرته (أي سلمان المرشد) سنة ١٩٢٠م ، وسجن سنة ١٩٢٣م ، ونفي إلى «الرقة»، حتى سنة ١٩٢٥م وعاد من منفاه ، فتزعم أبناء نحلته «النصيرية» .... وكانت الثورة في سورية ، أيام عودته ، قائمة على الفرنسيين وانتهت بتأليف حكومة وطنية لها شيء من الاستقلال الداخلي ، فاستماله الفرنسيون واستخدموه وجعلوا لبلاد «العلويين» نظاماً خاصاً فقويت شوكته وتلقب برئيس «الشعب العلوي الحيدري الغساني» وعين (سنة ١٩٣٨) قضاة وفدائيين ، وفرض الضرائب على القرى التابعة له ، وأصدر قراراً جاء فيه «نظراً للتعديات من الحكومة الوطنية والشعب السني على أفراد شعبي فقد شكلت لدفع هذا الاعتداء جيشاً يقوم به الفدائيون والقواد الخ»

وجعل لمن سماهم الفدائيين ألبسة عسكرية خاصة. وكان في خلال ذلك يزور دمشق ، نائباً عن «العلويين» في المجلس النيابي السوري . فلما تحررت سورية وجلا الفرنسيون عنها ، ترك له هؤلاء من سلاحهم ما أغراه بالعصيان ، فجردت حكومة سورية قوة فتكت ببعض أتباعه ، واعتقلته مع آخرين ثم قتلته في دمشق» [2].

ويورد الدكتور الخطيب وثيقة هامة كشفت حديثاً وهي من سجلات وزارة الخارجية الفرنسية وتحمل رقم ٣٥٤٧ وتاريخها ١٥/٦/١٩٣٦/ نقلاً عن الدكتور «مجاهد الأسد» في كتابه «العلويون أو النصيرية» ، وتتضمن هذه الوثيقة عريضة رفعها زعماء الطائفة النصيرية في سوريا إلى رئيس وزراء فرنسا ، يلتمسون فيها عدم جلاء فرنسا عن سورية ، ويشيدون باليهود الذين جاءوا إلى فلسطين ، ويؤلبون فرنسا ضد المسلمين ، ووقع الوثيقة : سليمان الأسد ، ومحمد سليمان الأحمد ، ومحمود أغا حديد ، وعزيز أغا هواش ، وسليمان مرشد ، ومحمد بك جنيد . وفيما يلي نص هذه الوثيقة نورده لأهميته :

« دولة ليون بلوم ، رئيس الحكومة الفرنسية.

إن الشعب العلوي الذي حافظ على استقلاله سنة فسنة بكثير من الغيرة والتضحيات الكبيرة

---

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٣٣٤.

(٢) الأعلام ٣/١١٢.

في النفوس ، هو شعب يختلف فى معتقداته الدينية وعاداته وتاريخه عن الشعب المسلم (السني) ، ولم يحدث في يوم من الأيام أن خضع لسلطة من الداخل (وهذا من تفريط المسلمين وتهاونهم).

إننا نلمس اليوم كيف أن مواطني دمشق يرغمون اليهود القاطنين بين ظهرانيهم على عدم إرسال المواد الغذائية لإخوانهم اليهود المنكوبين في فلسطين ، وإن هؤلاء اليهود الطيبين الذين جاءوا إلى العرب المسلمين بالحضارة والسلام، ونثروا على أرض فلسطين الذهب والرخاء، ولم يوقعوا الأذى بأحد ، ولم يأخذوا شيئًا بالقوة ، ومع ذلك أعلن المسلمون ضدهم الحرب المقدسة بالرغم من وجود انكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا إننا نقدر نبل الشعور الذي يحملكم على الدفاع عن الشعب السوري ورغبته في تحقيق استقلاله ، ولكن سوريا لا تزال بعيدة عن الهدف الشريف ، خاضعة لروح الاقطاعية الدينية للمسلمين. وكسر الشعب العلوي الذي مثله الموقعون على هذه «المذكرة» نستصرخ حكومة فرنسا ضمانًا لحريته واستقلاله ، ويضع بين يديها مصيره ومستقبله ، وهو واثق أنه لابد واجد لديهم سندًا قويًا لشعب علوي صديق ، قدم لفرنسا خدمات عظيمة[(١)]».

وقد ساهم الزعيم النصيري الشيخ «صالح العلي» في إسقاط الدولة العثمانية ، عندما قام بقطع الطريق التي تصل طرطوس بحماة ، فكانت خسائر الأتراك كبيرة ، نتيجة قطع الطريق عليهم ، وقام بعقد اتفاقية مع كمال أتاتورك عام ١٩٢٠م وبعد ثورة مشبوهة ضد الفرنسيين استسلم صالح العلي ، فعفا عنه الفرنسيون ، على عكس ما كانوا يفعلونه مع المجاهدين المسلمين [(٢)].

ولا تقل عنهم خبثًا طائفة الدروز. تلك الطائفة الخطيرة التى تسببت بثوراتها المتلاحقة في زعزعة الأمن. وإرباك الدولة العثمانية واستنفاد كثير من الطاقات البشرية والمادية في سبيل القضاء عليها.

ولما سير «محمد على باشا» جيشًا لاحتلال بلاد الشام بقيادة ابنه «إبراهيم باشا» بعد أن شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية عام ١٢٤٧هـ كان الدروز من الموالين له والمناوئين للدولة. وكان الأمير «بشير الشهابي» المتوفى (١٢٦٦هـ) أمير الدروز ، وجنوده يقاتلون جنبًا إلى جنب مع جيش محمد علي وقد « غدت مهمة إبراهيم باشا ابن محمد علي ، قائد الحملة المصرية ، بفضل تعاون الأمير بشير معه ، مهمة سهلة نسبيًا. فتمكن إبراهيم باشا من الاستيلاء على دمشق ، وهزم الجيش

---

(١) الحركات الباطنية في العالم الإسلامي ص ٣٣٥.

(٢) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي. الجزء الأول مؤامرات الدويلات الطائفية ص ٢٦٣ محمد عبد الغني النواوي ط١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

التركي (العثماني) في حمص ، وعبر جبال طورس ، وأوغل في قلب بلاد الترك ، وكاد ينزل الضربة القاضية برجل أوربا المريض [١] لكن بريطانيا والنمسا وروسيا اضطرته إلى الانسحاب» [٢].

وحين عادت الشام إلى سيادة الدولة العثمانية أراد العثمانيون محاسبة الأمير بشير ، ولكن الانجليز أرسلوا له سفينة نقلته إلى مالطة [٣].

وقد حرص الدروز على استغلال كل فرصة مناسبة من أجل إقامة دولة درزية . ولأجل ذلك هاجروا إلى جبل حوران الذي سمي بعد ذلك بجبل الدروز بعد أن تمكنوا من طرد أهله المسلمين واستقلوا به استقلالاً تاماً.

ولم يكف الدروز في هذه المرحلة عن مناوشة المسلمين والنصارى من أهل القرى والبادية وقتالهم ، وقد قاموا في غضون ذلك بمذابح مروعة كالتي وقعت عام ١٢٩٨هـ حين هجموا على قريتي الكرك وأم ولد وذبحوا سكانهما عن بكرة أبيهم ولم يبقوا حتى على الأطفال الرضع وقد حاولت الدولة العثمانية تأديبهم أكثر من مرة لكنها فشلت وتراجعت أمام ضغوط الانكليز [٤].

وحين احتل الفرنسيون مصر عام ١٢١٣هـ بقيادة نابليون الذي توجه بعد إخضاعها إلى بلاد الشام وبينما كان محاصراً «لعكا» بعث الرسالة الآتية : «مخيم عكا ٢٠ آذار ١٧٩٨م إلى الأمير «بشير» . بعد السيطرة على مصر دخلت صحراء «سيناء» في سوريا ، فاتيت إلى قلعة العريش ثم إلى غزة ، ثم إلى يافا بعد أن التقيت جيوش الجزار وسحقتها ومنذ يومين وصلت إلى عكا ، وأنا أحاصره هناك.

وأسرع إلى إعلامك بكل ذلك ، لأنني لا أشك أنك تفرح لهزائم هذا الطاغية (يعني الجزار) الذي سبب الكثير من الذعر إلى الإنسانية عامة والدروز الأباة بشكل خاص.

ورغبتي المخلصة هي أن أقيم للدروز استقلالهم ، وأعطيهم مدينة «بيروت» ذات المرفأ كمركز تجاري لهم ؛ لذلك فإني أرغب في أن تأتي شخصياً ، أو ترسل حالاً من يمثلك لرسم خطة للتغلب على عدونا المشترك ، ويمكنك أن تذيع في جميع القرى الدرزية ، أن كل من يأتي لنا بالمؤن ، وخاصة الخمر ، سيكافأ بسخاء». (الامضاء) نابليون.

---

(١) لقب أطلقه قيصر روسيا نقولا الأول على الدولة العثمانية سنة ١٨٥٢م.

(٢) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ٢/٢٤١ د. فيليب حتي. ترجمة د. كمال اليازجي. دار الثقافة. بيروت ١٩٥٩م ، وانظر ترجمة الأمير بشير في الأعلام ٢/٥٧.

(٣) المصدر السابق ٢/٢٤٢.

(٤) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي ص٣١ .

ويقول الكابتن (بورون) : إن الأمير «بشير» لم يجب على رسالة «نابليون» ولكن قوة من الدروز والموارنة انضمتا إلى جيش «نابليون» الذي كان يحاصر «عكا».

وفي آذار ١٧٩٩م أتت قوة من الخيالة الدروز لنجدة «نابليون» الذي كان يحاول إخضاع عكا. ثم يقول : إن الدروز والموارنة آزروا «نابليون» ، وإن الأمير بشير أمده بالقادة والمستشارين ، وان فارس بك الأطرش قال له أن جده إسماعيل كان يملك عدة رسائل بإمضاء نابليون وموجهة إلى والد إسماعيل ولكن هذه الأوراق اتى عليها حريق شب في المنزل [١].

ومنذ تاريخ ١٩٢٠/٧/٢٥م وحتى ١٩٤٦/٤/١٧ والمسلمون يقاومون الاستعمار الفرنسي بكل ما يملكون من قوة مادية كانت أو معنوية . . غير أن الدروز كان لهم موقف آخر في جبلهم ، لقد رحبوا بالغزاة المحتلين ، وقدموا لهم كل ما يقدرون عليه من دعم أو مساعدة ، واطمأن الفرنسيون إليهم ، وأمنوا مكرهم ، ومن ذلك أنه حينما دخل الفرنسيون دمشق بعد معركة ميسلون ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م اتخذ القائد الفرنسي«غورو» حرسه الخاص من الدروز بمعرفة متعب الأطرش ، مما يدل على الثقة الكاملة التي أولاها الفرنسيون هؤلاء الدروز[٢]

وكما فعل زعماء النصيريين حين رفعوا عريضة إلى رؤساء فرنسا لمنحهم الاستقلال على حساب المسلمين ، وإقامة دولتهم ، فكذلك فعل زعماء الدروز { تشابهت قلوبهم } حين قويت علاقتهم مع الفرنسيين المحتلين ، وأجروا اتصالات مع القيادة الفرنسية لأجل استقلال الجبل ، وهذا مقدمة كتابهم :

« لحضرة رئيس البعثة الأفرنسي في دمشق الأفخم

بناء على بلاغاتكم المتكررة للرؤساء الروحيين ، لنا الشرف أن نقدم لسيادتكم بالنيابة عن الشعب الدرزي في جبل حوران برنامج الاستقلال المدرج أعلاه الذي يطلبه الشعب لكي تتكرموا بتقديمه لحضرة صاحب الفخامة المندوب السامي راجين أن يتوسل بالتصديق عليه من قبل حكومة الجمهورية الافرنسية المعظمة . واقبلوا فائق احترامنا .

الإمضاءات :

الرؤساء الروحيون ومشايخ الجبل [٣].

---

(١) المصدر السابق ص٣٦ .
(٢) المصدر السابق ص٤٦ .
(٣) المصدر السابق ص٤٧ .

وفي ٢٤ تشرين الأول عام ١٩٢٢م أصدر الجنرال «غورو» قراره رقم ١٦٤١ بإعطاء جبل حوران استقلاله باسم «دولة جبل الدروز المستقلة» [١].

أما الرافضة أو الشيعة الاثنا عشرية فإن الحروب بين الدولة الصفوية في إيران ، والتى تتخذ من عقائد الرافضة عقيدة رسمية لها وبين الدولة العثمانية السنيه لم تكد تنقطع . وقد كان هؤلاء الشيعة الروافض يطمحون إلى التوسع على حساب ممتلكات الدولة العثمانية ، كلما أمكنهم . وإذا عجزوا أو كانت الدائرة عليهم والجولة لخصومهم ، لجأوا إلى إبرام المعاهدات ، وعقد الصلح ريثما يستعدون من جديد.

فمن ذلك الحرب الشرسة التى شنتها الدولة الفارسية الشيعية على الدولة العثمانية سنة ١٢٣٥هـ ١٨٢٠م . فقد استطاع الشيعة أن يهزموا والي العراق ويحاصروا بغداد سنة ١٨٢٠ و سنة ١٨٢١م ، ولولا الله ثم تفشى وباء الكوليرا في الجيش الفارسي لسقطت بغداد . ولكنه اضطر إلى التقهقر إلى الوراء بعد عقد معاهدة أرض روم سنة ١٨٢٣م [٢].

ويؤخذ على الدولة العثمانية بعض مواقفها التى تتسم بطابع التسامح والاسترخاء في مقابل هؤلاء الروافض العتاة. وإن كانت تلك المواقف تنسجم مع السياسة التي كانت تسير عليها الدولة العثمانية من تشجيع للأضرحة وبناء للقباب وتقديس للمشاهد. فقد كانت دائرة الأوقاف العثمانية كما سبق أن ذكرنا تقوم بإدارة شئون الأضرحة ، وتعين الحراس والخدم وتدفع مرتباتهم. وكانت دائرة الأوقاف مسئولة عن الإيرادات المالية للأضرحة.

وكان الشيعة الفرس يتدفقون على تلك العتبات المقدسة عندهم ، وكان يصل عدد الزوار أحياناً في السنة الواحدة إلى حوالي ستين ألف زائر [٣].

وقد كانت الدولة العثمانية ممثلة في ولاتها يقومون بالحفاظ على أمن تلك العتبات الشيعية وراحة الزوار فيها ، ظناً منها أن في ذلك درءاً للخطر الشيعي الفارسي . وفي إحدى المرات هاجم بعض الأعراب كربلاء ، وكان بها من الزوار أكثر من أربعين ألف زائر ، ومعهم حرم شاه العجم ، فخاف والي بغداد إفساد العربان وإصابتهم الزوار بضرر ، فيرجع عليهم شاه العجم بالويل والثبور وعظيم الأمور [٤].

---

(١) المصدر السابق ص٤٩ .

(٢) تاريخ العرب الحديث. العراق ١/١٠٢ ـ ١٠٤.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٠٥.

(٤) حلية البشر ١/٥٩٠.

وعندما قدم على حلب سيف الدولة ابن شاه ايران سنة ١٣١٧هـ قاصداً زيارة مقامات أهل البيت النبوي في حلب وغيرها من البلاد الشامية استقبلته الحكومة استقبالاً باهراً ونزل ضيفاً عند شهبندر دولة إيران فبقي بضعة أيام ثم سافر إلى جهة مقصده (١).

ولا ريب أن تلك السياسة التى اتبعتها الدولة العثمانية لم يحالفها النجاح في تهدئة التوتر الذي كان ينتاب العلاقة بينها وبين الدولة الشيعية الفارسية.

وهي سياسة تنم عن قصور في الوعي والنظر والإدراك وجهل بين بعقائد الشيعة ، ومنهجهم وتاريخهم إذ أن الشيعة في كل العصور والأمكنة لا يؤمنون إلا بمنطق القوة والنفوذ ، فإذا افتقد خصومهم إلى ذلك المنطق ، لم يعد ينفع معهم لين وتسامح وتغاض ومداهنة .

وفي بلاد الهند كان هؤلاء الشيعة ظهيراً لأعداء الإسلام والمسلمين من الوثنيين الهندوس والسيخ والمستعمرين الانجليز نكاية بأهل السنة واستمراراً على نفس الطريق الآثمة فى مناصرة الكافرين .

فمن ذلك أنه كان يوجد في بلدة أجودهيا مسجد كبير من أبنية السلطان «بابر» ، وكان الهنادك يعتقدونها أرضاً مقدسة ، فلما انقرضت الدولة التيمورية غصبوا المسجد وجعلوه جزءاً لمعبدهم وكان ذلك عام ١٢٧٣هـ ، فقدم الشيخ «غلام حسين الأودي» ومن معه من المسلمين لاستخلاص المسجد من أيديهم ، فقتلوه وحرقوا المصاحف ، فلما سمع ذلك الشيخ «أمير علي الأميتهوي» دخل لكهنؤ وحرض الولاة وكانوا من الشيعة لاستعادة المسجد ، ولكن الوزير الشيعي «تقي علي» كان مرتشيا والديوان وثنيا ، فطفقا يدافعان عن الكفار ، ولكن «أمير علي» خرج إلى اجودهيا ليأخذ بثأر المسلمين ، وينتزع المسجد من أيديهم فمنعه الوزير المذكور واستفتى العلماء في ذلك وخلع عليهم ثياباً فأفتوه بأن الخروج لا يجوز ، وكان واجد علي شاه أمير تلك الناحية مغبون العقل والدين مشغولاً بالملاهي والمنكرات ، فحشد الوزير الجند وأمر بالإغارة على «أمير علي» ومن كان معه من المسلمين فلما كاد يصل إلى اجودهيا أغارت عليه العساكر الشاهانية فاستشهد الشيخ ومن معه من المسلمين (٢).

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٤٥٠.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٨٢ . ملاحظة : ومما يؤخذ على كتاب «نزهة الخواطر» احتواؤه على عشرات التراجم لهؤلاء الروافض ولغيرهم من الإسماعيلية جنبًا الى جنب مع علماء السنة دون التعرض إلى بيان خطرهم وكشف أحوالهم وتنبيه القارئ إلى ذلك. بل إن مؤلفه ليصف بعضهم بالفضل والتقوى ثم يورد لهم كتبًا في مثالب الصحابة رضوان الله عليهم وفي محاولة إطفاء نور السنة والاسلام وإذكاء شعلة التشيع والرفض فإلى الله المشتكى من غفلة أهل السنة وغربة العقيدة الصحيحة التي لا يعرف خطر هؤلاء ودفعه إلا بوعيها وعياً حقيقياً.

وهكذا تواطأ الشيعة مع الهندوس في هدم مساجد المسلمين وتحويلها إلى معابد للكفار . ولقد همّ الأمير «نواب سعادة علي خان اللكهنوي الشيعي» المتوفى ١٢٢٩هـ أن يأخذ الهند على طريق الاستيجار من ملك الانكليز كما استأجرت عنه الشركة الشرقية ... ولكنه مات قبل أن يتم مراده (١).

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري شهدت الهند نشاطًا شيعيًا ملحوظًا تمثل فيما قام به أحد علمائهم ويدعى «دلدار علي النصير آبادي» المتوفى سنة ١٢٣٥هـ وذلك أنه ادعى الاجتهاد وأقام الجماعة في الجمع والأعياد .... وكانت الشعية الإمامية في عصره متفرقين في بلاد الهند ليست لهم دعوة إلى مذهبهم وما كانت لهم جامعة تجمعهم.

وقد بذل جهده في إحقاق مذهبه وإبطال غيره من المذاهب ، لا سيما الاحناف والصوفية والاخبارية (أهل الحديث) حتى كاد يعم مذهبه في بلاد «أوده» .. ويتشيع كل الفرق (٢).

«وقريب من ذلك ما قام به الرافضي «محسن بن عبد الكريم الأمين» (المتوفى سنة ١٣٧١هـ) الذي كان يكافح عن الرافضة ويهاجم أهل السنة هجومًا شديدًا . كتهجمه على الشيخ «محمد رشيد رضا» صاحب المنار ، وتهجمه على أهل الدعوة في نجد وغير ذلك مما سخر له قلمه وفكره (٣).

وهكذا كانت الرافضة وما زالت منافسًا قويًا لأهل السنة ، وعدوًا حانقًا عليهم تبرم المؤامرات وتعمل على تقويض الإسلام ، ونشر مذهبها الباطل بين المسلمين.

وقد ذاق أهل السنة في إيران في عهد الصفويين ومن جاء بعدهم كثيرًا من الويلات وتعرضوا لكثير من النكبات. «ومما يجدر ذكره أن نسبة المسلمين السنة في إيران كانت تزيد على ٦٥٪ في عهد الصفويين أي قبل حوالي ثلاثة قرون وما زالت تنخفض نسبتهم حتى وصلت ٣٦٪ وستستمر نسبتهم في الانخفاض لأنهم هدف من أهداف الغزو الرافضي »(٤).

«ودعمًا لحكمهم الباغي قام الصفويون بحركة جادة عامة لنقل أهل السنة - وكانوا يشكلون أغلبية المسلمين في إيران في ذلك الحين - إلى التشيع بأي وسيلة حتى ولو احتاج الأمر إلى شتى

---

(١) المصدر السابق ١٩٨/٧.

(٢) المصدر السابق ١٦٧/٧.

(٣) الأعلام ٢٨٧/٥.

(٤) وجاء دور المجوس ص ٤٨١، عبد الله محمد الغريب . الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. وهو كتاب فريد في بابه كشف مؤلفه كثيرًا من مخططات الرافضة وتواطئهم مع القوى النصرانية واليهودية وينصح بقراءته وكذلك ما صدر بعد ذلك من أجزاء وهي أمل والمخيمات الفلسطينية وأحوال أهل السنة في إيران للمؤلف نفسه. وكذلك بكتاب رؤية إسلامية في الصراع العربي الاسرائيلي بجزئيه الأول والثاني لمحمد بن عبد الغني النواوي فإنهما قد كشفا في مؤلفاتهما الخطر الباطني المتمثل في فرق الشيعة على اختلافها وتعاونها مع قوى الاستعمار الحديث في حرب المسلمين.

صور التعذيب وسفك دماء الآلاف ..... وبعد استيلاء الصفويين وخلال القرون الأخيرة ذاق أهل السنة على أيدي الحكام الطاغين الذين كانوا ينتسبون - كذباً وزوراً - إلى أهل البيت ما لا يعلمه إلا الله ..... وهكذا انفصل هذا البلد عن العالم الإسلامي - وصار قاعدة محكمة لأعداء الإسلام من أهل الغرب الذين طالما بحثوا عن قاعدة يرمون منها العالم الإسلامي. وليست الحروب الصفوية وما بعدها مع العثمانيين ببعيدة عن أذهاننا [١]

وفي بلاد اليمن كان أهل السنة يواجهون اضطهاداً ومضايقات من الزيدية الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الحكم هناك. ولما أراد الترك الجلاء عن بلاد اليمن عام ١٣٣٧هـ خشي الشوافع [٢] (أهل السنة). من سيطرة الزيدية على بلادهم.

يقول «العبدلي» مؤرخ «حضرموت»: ولما تحقق اليمانيون الشافعية جلاء الأتراك عن البلاد اليمانية ذعروا. وجاء كثير من أعيان اليمن الأسفل من مشايخهم وساداتهم وزعمائهم إلى «عدن» يستفهمون عن مصيرهم فلم يوافق طلبهم هوى الباعة، وأعرض عنهم الوكيل السياسي في «عدن» وعادوا خائبين. ولم يجدهم إخلاصهم للأتراك وجهادهم بالنفس والنفيس مع «علي سعيد باشا» نفعاً. فلم يعنهم الأتراك على نيل أمانيهم بل أعانوا الإمام عليهم.

وحاول بعض الشافعية المقاومة فلم تتحد كلمتهم وساق الإمام جيشاً من قبائل الزيدية وضباط الأتراك على حبيش. فنشبت معارك دموية استدامت ستة أشهر ثم هزمت جموع الشافعية وأذعن جميعهم لحكم الإمام والسيطرة الزيدية على كره منهم[٣].

وفي بلاد الضالع استمرت المعارك بين الزيدية والشوافع عامين كاملين كانت الحرب فيها سجالاً [٤].

وعندما قام الصلح بين الشيخ «محمد صالح الأخرم» من مشايخ الشافعية ومندوب الإمام «يحيى» [٥] «لم يعد الشيخ «محمد صالح» إلى بلاده حتى وضع أعز أقاربه رهينة، ولم تمض أشهر حتى ملأ السيد «يحيى» أمير جيش قعطبة السجون من أبناء الأشراف الردفانيين وغيرهم يسوقهم

---

(١) أحوال أهل السنة في إيران ص ٢٦ عبد الله محمد الغريب. الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) يرد كثيراً هذا المصطلح عند ذكر أحداث اليمن والخلافات القائمة بين السنة والزيدية. وفي رأيي أن إطلاق هذا المصطلح يعمي على الحقيقة فيجعل من الزيدية مذهباً خامساً كما يريده أهلها فعلاً وليس فرقة كما هو المعروف.

(٣) هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ٢٦٣.

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٦.

(٥) انظر ترجمته في الأعلام ٨/١٧٠.

العريفة بالحبل والسوط مكبلين بالحديد كالمجرمين وأذاقوهم من سوء المعاملة والغطرسة ما لا يتحمله الأحرار ، بل ما دونه حريق النار. ولم ينج من سوء المعاملة حتى الشيخ «محمد صالح الاخرم» نفسه. اعتقلوه في قعطبة سبعة أشهر ولم يرحموا ضعفه ولا شيخوخته ولم يتخلص إلا بعد أن افتدى نفسه وأتباعه بوافر المال ورهن خيرة الرجال [١].

وفي شهر ربيع الثاني من تلك السنة ١٣٤٦هـ ألقت الطيارات البريطانية على مدن اليمن منشوراً أنذرت فيه الزيود بأنه عند حدوث أي تعد جديد من العساكر الزيدية سيقابل بإلقاء القنابل.

وفي شهر شعبان دخل جماعة من الزيدية إلى بلاد آل قطيب واختطفوا الشيخ «مقبل عبد الله» عم شيخ آل قطيب والشيخ «عبد النبي العلوي» [٢] شيخ آل علي فأنذرت الطيارات أمير جيش قعطبة أن يرفع النساء والأطفال في ظرف (٢٤) ساعة، وابتدأ إلقاء القنابل بعد انتهاء تلك المدة فعلاً واستمرت ثلاثة أيام...

وفي (٢٥) رمضان أذاعت الطيارات المنشور الآتي ونصه :

الى أهل المذهب الشافعي في اليمن وفي المحمية البريطانية ، بعد السلام ، لقد علمتم أنه بناء على انتهاك حرمة المحمية البريطانية من الإمام والزيود وتعديهم عليها ، أجبرنا على إلقاء القنابل على حامية الزيود، وبما أن هذه الحاميات أقامت نفسها بينكم فلعلكم قاسيتم من تأثير هذه القذائف ما قاسيتم فذلكم ذنب الزيود لا ذنبنا [٣].

ولم يتمكن امراء الشوافع من طرد الزيود من بعض المدن إلا بمساعدة الطائرات الانجليزية [٤] وهكذا وقع الشوافع (السنة) بين فكي كماشة حيث كان الزيود واضطهاداتهم من جانب والنيران الحامية التي كانت تمطر بها قراهم من قبل الطائرات الانجليزية بسبب ملاحقة الزيود من جانب آخر.

وما من شك في أن الانجليز قد أفلحوا إلى حد كبير في استغلال العداء بين الشوافع (السنة) والزيود في إضعاف الطائفتين لمزيد من تثبيت أقدامهم في المنطقة. على أن ذلك لا يعفي الزيود الحانقين من تبعة قتالهم ومحاولتهم إخضاع الشوافع (السنة) واضطهادهم.

ولا غرابة من وقوف الشوافع (السنة) مع الدولة العثمانية السنية في وجه القوات الزيدية وعلى كل حال فمهما بلغت مظالم الأتراك فلا تعد شيئاً في مقابل مظالم الزيدية الشيعية.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٧.

(٢) لا يجوز إطلاق هذا الاسم لأنه من باب التعبيد لغير الله عز وجل.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٣.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٦

وما وقع من الزيود من ظلم وقتال وإخضاع للشوافع السنة منسجم تماماً مع ما آل اليه المذهب الزيدي عند المتأخرين من رفض وسب للصحابة رضوان الله عليهم.

وقد عانى علماء اليمن المتحررون من أغلال المذهب الزيدي كـ«الصنعاني والشوكاني» وغيرهما من غلو هؤلاء الزيدية في الرفض وحنقهم على الصحابة وكتب السنة.

يقول الشيخ «محمد أبو زهرة» : «ومن بعد ذلك ضعف «المذهب الزيدي» و«المذاهب الشيعية» الأخرى قد غالبته ، أو طوته ، أو لقحته ببعض مبادئها ، ولذلك كان الذين حملوا اسم هذا المذهب من بعده لا يجوزون إمامة المفضول ، فأصبحوا يعدون من الرافضة ، وهم الذين يرفضون إمامة الشيخين «أبي بكر وعمر» رضي الله عنهما وبذلك ذهب من الزيدية الأولى أبرز خصائصها» [١].

وما ذكرناه في هذه العجالة فيه بعض الرد على من زعم أن «الزيدية أقرب فرق الشيعة من أهل السنة والجماعة حيث تتصف بالاعتدال والقصد والابتعاد عن التطرف والغلو» [٢] والمسألة ما زالت تحتاج لمزيد من الإيضاح.

وفي العراق كان اليزيديون [٣] في تلك الفترة يقومون بثورات متلاحقة ، وفتن متلاطمة ، وقد كانوا يقومون بغارات على «الموصل» ونواحيها ، ويروعون الآمنين. وقد قامت بينهم وبين والي الموصل الحاج «عبد الباقي» عدة معارك ، وهزم غير مرة ، وقتل المئات من المسلمين. وكانوا كثيراً ما يقومون بقطع الطرقات ، ونهب القوافل ، وسفك دماء المسافرين. وكانوا يتخذون من جبل سنجار قاعدة لانطلاق حملاتهم الإرهابية [٤]. وكل الفرق التي سبق الحديث عنها هي فرق نشأت قديماً ، وازدادت مع الأيام رسوخاً وشروراً وأتباعاً.

وأما الفرق التي نشأت في الفترة المدروسة فهما البهائية والقاديانية.

(فالبهائية تنسب إلى مؤسسها «البهاء حسين علي نوري الميرزا» (المتوفى سنة ١٣٠٩هـ) [٥]

---

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية ٥١/١ الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٢٥٧.

(٣) أتباع فرقة اليزيدية المعروفين بعبدة الشياطين ، سموا باليزيدية لأنهم كانوا يقدسون يزيد بن معاوية ولمزيد من الاطلاع انظر : اليزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي .

(٤) زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية ص ١٥٦ ، ألفه في الأصل ياسين بن خير الله العمري وانتخب زبدته : داود الحلبي. تحقيق وتعليق عماد عبد السلام رؤوف. مطبعة الآداب ـ النجف وانظر بعض أخبارهم في المصدر نفسه : ص ٧٠ ، ص ٨١ ، ص ١٥٥ ، ص ١٦٠ ، ص ١٧٢.

(٥) الأعلام ٢٤٨/٢.

وتعد امتداداً للدعوة البابية التي دعا بها «ميرزا محمد» الملقب بالباب الذي قتل عام ١٢٦٦هـ [(١)]. وذلك أن البهاء كان أحد تلامذة الباب ، ولما قتل تنازع مع أخيه «الميرزا يحيى» الذي كان الباب قد لقبه صبح أزل ، وأوصى بخلافته من بعده. ونشأ من هذا النزاع فرقتان هما البهائية والأزلية [(٢)].

وقد حظيت البهائية في أوائل ظهورها برعاية الحكومة الروسية التي عملت على تقويتهم ونشر نحلتهم في إيران والبلاد العثمانية [(٣)].

وقد ادعى البهاء المهدية ، ثم ادعى النبوة ، ثم ادعى الربوبية والألوهية. وما من شك أن البهائية ذات صلة وثيقة بأعداء الإسلام «ونشأت سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية ، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية» [(٤)].

على أن المؤلم حقًا هو تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة. يقول «محمد فاضل» صاحب كتاب «الحراب في صدور البهاء والباب» : «كان الواجب على دولة الخلافة وهي الحامية للدين ، الذائدة عن حوضه ، وقد علمت حقيقة البهاء وصبح الأزل ، ووقفت على ما يدعوان إليه من الإفك والبهتان ، أن تخمد أنفاس حركتهما وهي في مهدها ، قبل أن تشب ويستفحل خطبها، فتنكل بهما وأتباعهما نكالاً شديداً ، وتميتهم شر الميتات ، بأن تطعمهم من لحومهم وهم أحياء ، أو تضعهم تحت شفار السيوف ، فلا يجتمع من أبدانهم ما يزن البندقة الفارغة، أو تحرقهم بالنار أحياءً وتذر رمادهم في مهاب الرياح . إلى غير ذلك من ضروب الوبال ، وصنوف العذاب والنكال ، كيما تطهر الأرض من الأرجاس ، ويذهب الضلال من الناس.

أجل كان الواجب عليها أن تفعل شيئًا من ذلك حفظًا لسياج الدين وحرصًا على عقائد المؤمنين، وقربة وزلفى لله رب العالمين ـ لا أن تفتح لهم أبواب عكاء وقبرص ، وتجعل هاتين الجهتين الإسلاميتين محوراً تدور عليه رحى الضلال والكفر في العالم أجمع.

ولكن عسى أن تتدارك حكومة اليوم ما فات حكومة الأمس ، فتنفي «الميرزا عباس» [(٥)] من

---

(١) المصدر السابق ١٧/٥.

(٢) الحراب في صدور البهاء والباب ص ١١ محمد فاضل. دار المدني. جدة. الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

(٣) عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . الدكتور عثمان عبد المنعم عيش . مكتبة الأزهر ١٩٧٨م .

(٤) الموسوعة الميسرة ص ٦٣.

(٥) هو ابن البهاء الذي خلفه بعد موته ، كان له نشاط كبير في نشر نحلتهم ، توفي بحيفا عام ١٣٤٠هـ. انظر : الأعلام ٢٦١/٣.

ممالكها المحمية ، وتنكل بمن يثبت لديها أنه داعية له ، أو تابع إليه ، وتذيقه وبال أمره ، ولا تبقى عليه في بلادها. كذلك يجب على حكومة الحضرة الفخيمة الخديوية ، وهي حكومة إسلامية ، أن تخرج الرجل من ديارها ، وتنفي من يثبت لديها أنه من شيعته ، أو يدعو إليه ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾ [المائدة ٣٣]. ولعلهما فاعلتان»(١).

ولكن للأسف الشديد فإن الحكومتين المذكورتين لم تقوما بأي إجراء تجاه البهائيين ، بل إنهم وزعيمهم عباس كانوا يسرحون ويمرحون في البلاد الإسلامية الخاضعة لهاتين الحكومتين اللتين تركتا لهم الحبل على الغارب ، وكانت بعض الصحف في مصر تتابع تنقلات الميرزا عباس ، وتشيد به، وتصفه بأنه من علماء الإسلام العظام ، ومن الذين يسعون إلى خير الإنسانية ورفاهيتها (٢).

ومما يزيد في الحسرة والألم أن حكومة الشيعة في إيران كانت أغير على عقائدها الرافضية من هذه الدول المسلمة. فهي التي قامت بقتل الباب مع بعض أتباعه ، وسجنت بعضهم ، وطردت الباقين، وهو ما لم تفعله دولة مسلمة على الإطلاق (٣).

وقد انتشرت هذه النحلة في إيران وفلسطين وبعض الأقطار العربية الأخرى ، ووصلت إلى أمريكا واتسعت فيها ، واتخذت من «شيكاغو» مركزًا لها.

«والحق أن البهائية يشتد نشاطها في الديار الإسلامية في عهود الدعوات الانحلالية التي يغذيها أعداء هذا الدين ، فقويت عقب الحرب العالمية الأولى ، وقويت عقب الحرب العالمية الثانية ، وهي الآن ترفع رأسها ، ولا بد من قطعه أو عودته إلى «شيكاغو» موطن دعايته» (٤).

وأما القاديانية فهي نحلة تنسب إلى «غلام أحمد القادياني» ، نسبة إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) (٥) ، وهي حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي

---

(١) الحراب في صدور البهاء والباب ص ١٨.

(٢) انظر ما نشرته جريدة المؤيد في عدد يوم الأحد ١٢ شوال سنة ١٣٢٨هـ في كتاب «الحراب في صدور البهاء والباب» ص٣٠ ، وما نشرته البلاغ المصري في عددها الصادر في ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ في المرجع السابق ص ٧٢ ، وما نشرته الأهرام في عدد يوم الخميس ١٨ محرم سنة ١٣٢٩هـ في المرجع السابق ص ٧٤.

(٣) ولا يعارض ذلك بعض الإجراءات الأمنية التي قامت بها السلطات العثمانية ، والتي لم يكن لها أي تأثير على الحد من نشاط البهائيين في نشر نحلتهم ، أو تحجيم دورهم.

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية ٢٤٨/١.

(٥) الأعلام ٢٥٦/١.

في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام» (١) .

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية ، وقد كان من أبرز ملامح دعوة «غلام أحمد القادياني» «ميله الشديد للإنجليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند ، وإبطال عقيدة الجهاد لهم ، وثناؤه عليهم ، وحث أتباعه على نصرتهم في كل مكان..» (٢).

ويقول القادياني : «ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين مسلك البغاة!! وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر ويعانوا على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الاشارة أو المال أو التدابير المفسدة بل هذه الأمور حرام قطعي ومن أرادها فقد عصى الله ورسوله وضل ضلالاً مبيناً » (٣).

وكان فرحاً فخوراً بما قدمه للإنجليز من خدمات ، مختالاً بخاينته للمسلمين وغدره بهم.

وهكذا رأينا أن هذه الفرق كانت مصدراً لإثارة الفتن والقلاقل ، وإحداث الفوضى والتنازع بين المسلمين. بالإضافة إلى تآمرها المستمر مع أعداء الإسلام ، وخيانة المسلمين في أحرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، ونستطيع أن نقول إن تفاقم شرور هذه الفرق ، وانخداع كثير من الناس بها ، جاء تعبيراً صادقًا لغيبة عقيدة أهل السنة والجماعة عن واقع الأمة ، إذ لا يمكن في الحقيقة التنبه لخطر هذه الفرق والحذر منها بغير هذه العقيدة. ولولا أن الأمة قد ابتعدت عنها لما اكتوت بشرور هذه الفرق، ووقعت فريسة لأحابيلها ومؤامراتها.

* * *

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٣٨٩. وقد ذكرت أن حركته قد نشأت عام ١٩٠٠م ولا أدري ما وجه هذا التاريخ ، مع أن بداية ظهور دعوته تسبق هذا التاريخ بنحو ربع قرن ، وذلك حين مرض أبوه سنة ١٨٧٦م فزعم أنه أوحي إليه أن أباه سيموت بعد الغروب ثم تتابع كفره وضلاله بعد ذلك ، انظر : عقيدة ختم النبوة ص ١٥٨. للدكتور عثمان عيش .

(٢) عقيدة ختم النبوة ٢٠٩. للدكتور عثمان عيش .

(٣) عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية ص ٢٥٥ د. أحمد سعد حمدان. دار طيبة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

حلية البشام ص ١٦٩ للقاياتي . وكلما ازداد العالم خضوعاً للظلمة الخائنين من الحكام ، ازدادوا إمعاناً في إذلاله وإهانته والاستخفاف به. ورحم الله الشهيد «سيد قطب» حين ألح عليه في كتابة كلمات يسترحم بها فرعون مصر ، فرفض قائلاً : إن أصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ، ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية. وقال أيضاً : لماذا استرحم؟ إن سجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق ، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أسترحم الباطل. «سيد قطب» من الميلاد إلى الاستشهاد ص ٤٧٤ د. صلاح الخالدي. دار القلم. بيروت. الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

الفصل التاسع : موقف العلماء

للعلماء مكانة بارزة في الإسلام لا تعدلها مكانة أخرى ، إذ هم حملة الشريعة ، وورثة الأنبياء ، والمؤتمنون على الرسالة ، والقائمون بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقدوة الحسنة للناس في تطبيق تعاليم الإسلام في الواقع.

وتختلف مهمة العلماء في الإسلام عن مهمة رجال الدين في النصرانية مثلاً ، ويأتي ذلك الاختلاف من طبيعة الديانتين وتباين تعاليمهما تبايناً عظيماً ، إذ تنحصر مهمة العلماء في الديانة النصرانية فيما له علاقة بالتعاليم والطقوس المنسوبة إلى المسيح عليه السلام وحوارييه ، تلك التعاليم التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فصلاً يكاد يكون كاملاً ، حيث تدعو إلى إهمال الحياة الدنيا ، والاستهانة بجميع أنشطة الحياة. والإقبال الكلي على الآخرة ، وينسبون الي المسيح عليه السلام أقوالاً مشكوكاً في صحتها مثل : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وغير ذلك من الوصايا والتعاليم التي تدعو إلى ترك الحياة الدنيا وحرمان النفس وتعذيبها بتحريم ما أحل الله لها؛ لذا أطلق على هؤلاء العلماء اسم رجال الدين وهو اسم صحيح ومطابق لحال أولئك العلماء الذين حصروا نشاطهم وحياتهم في خدمة الدين النصراني وطقوسه ، تاركين مسرح الحياة وما يدور بداخله لغيرهم من الناس لأن ذلك على مقتضى تعاليمهم ليس من شأنهم أن يعملوا فيه [(١)].

ولكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للدين الإسلامي فليس هناك رجال دين بالمعنى النصراني ، بل يوجد العلماء الذين يتمثلون الإسلام في واقعهم ، علماً وعملاً ، عبادة وجهاداً، ديناً ودولة ، عقيدة وشريعة ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وكم تكون العواقب وخيمة حين ينسى العلماء مهمتهم الكبرى ، وينصرفون إلى حلقات العلم والدرس ظانين أنهم بذلك العمل قد أدوا كل ما عليهم من مهمة، وأخلوا أنفسهم من المسؤولية.

وكم يكون التقصير عظيماً حين ينزوي العلماء بعيداً عن الأحداث ، بل حين يرى بعضهم أو كثير منهم أن النزول في الساحة والمشاركة في الأحداث ليس من شأن العلماء ولا من مهماتهم . ولا نود أن نستطرد في الحديث قبل أن نطالع أحوال العلماء في الفترة التي ندرسها لنرى أن الضعف قد تطرق إليهم ولم يسلم الكثيرون منهم من وطأة الانحرافات التي طرأت على الأمة الإسلامية . وقد رأينا فيما سبق [(٢)] كيف كان كثير من العلماء يضربون صفحاً عن العلم وحلقاته ، ويقبلون على

---

(١) انظر : مذاهب فكرية معاصرة . تحريف الدين ص٩ . الرهبانية ص٥٨ . الشيخ محمد قطب ، دار الشروق ، القاهرة ط١ ، ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٣م .

(٢) في فصل الصوفية .

التصوف وحلقات الذكر وإقامة الموالد ، ويقتدي بهم ألوف من العامة ، وقد سبق أن أوردنا ما ذكره «الجبرتي» من أن الشيخ «الشرقاوي» وهو شيخ الأزهر سافر إلى مولد المدعو بالسيد البدوي واقتدى به كثير من العامة وسخاف العقول (١).

وفي تلك الفترة الحالكة كثر الانزواء من جانب العلماء والابتعاد عن المشاركة الفعالة في الأحداث والوقائع المتتابعة التي لم ينج منها قطر ، وما من شك أنه كان للصوفية دور كبير في ازدياد حجم ذلك الانزواء الذي يتفق تماماً مع ما تدعو إليه من تجرد وزهد منحرف ، فكيف إذا كان كثير من العلماء في ذلك الزمن قد غرقوا في متاهات التصوف وعقائده الفارغة ؟

ومع أن بعض العلماء من المتصوفة وغيرهم كان لهم مشاركة أو دور في بعض الأحداث إلا أن ذلك لا يكاد يغير الحالة العامة التي كان عليها العلماء من إحجام وتباعد عن الخوض في الأحداث والوقائع ، وإن كانت هناك مشاركة فلم تكن على مستوى الأحداث. ولعل أصدق مثال على تجافي العلماء عن الأحداث السياسية ما يعبر عنه الشيخ «محمد السنوسي» (المتوفى ١٣١٨هـ) في رسالة منه إلى وزير الدولة التونسية لما منع من الهجرة إلى خارج تونس حيث كتب في رسالته : «ليعلم سيدي أني رجل بعيد عن معنى السياسة في نازلة الحال بالنظر لذاتي ..... أما بالنظر لذاتي فغير خفي عن جنابكم أني من خدمة العلم الشريف وغاية شغلي هو تدريس التوحيد والفقه والعربية بجامع الزيتونة كل يوم تطوعاً لله. وقد قال «ابن خلدون» «إن أهل العلم أبعد الناس عن السياسة...» (٢).

فهذا مثال واضح لعالم من علماء ذلك الزمان يقر على نفسه بأنه بعيد عن السياسة وأنها ليست تعنيه لأنه مشتغل بالعلم. وأما بالنسبة لما نقله عن «ابن خلدون» فأعتقد أن «ابن خلدون» يصف حال الكثير من العلماء الذين يبتعدون عن السياسة ويشتغلون بالعلم ، حتى عمم ذلك الحكم وحكم به على أهل العلم واعتبره من صفاتهم، أما أنه يجب على أهل العلم أن يبتعدوا عن السياسة وأنها من الأمور التي يجب أن يتجنبوها. فهذا لا يفهم من كلام ابن خلدون (٣).

---

(١) عجائب الآثار ٦٥١/٢ وغير مستغرب في بحثنا هذا أن نركز الحديث عن العلماء في مصر باعتبارها بلد الأزهر والبلد الإسلامي الأول في كثرة العلماء ، وبإمكاننا أن نعتبر مستوى العلماء في مصر إلى حد كبير مقياساً لمستويات العلماء في الأقطار الإسلامية الأخرى للاعتبارين اللذين ذكرناهما .

(٢) الرحلة الحجازية ١٢/٢ محمد السنوسي ، من رسالة له بتاريخ ٢٦محرم في سنة ١٢٩٩هـ .

(٣) يقول ابن خلدون بعد أن عنون بقوله : فصل في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات . . . ، فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية ، لا يعرفون سواها ، والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة مافي الخارج ، وما يلحقها من الأحوال . . . فتكون العلماء لأجل ماتعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم ، فيقعون في الغلط كثيراً ولا يؤمن عليهم » . مقدمة ابن خلدون ص٤٧٦ وهذا المعنى متفق مع ماذكرناه أعلاه .

وجاء في مذكرة الاحتجاج التي بعث بها «حمدان خوجة» إلى وزير الحربية الفرنسي (في ١٥ محرم ١٢٤٩هـ) وقد مرت معنا من قبل قوله: «وأيضًا علماؤنا يفنون شبابهم في تعلم العلم في الجوامع، لا اختلاط لهم مع الناس، ولا علم لهم بالقوانين السياسية وتدبير الملك ومعاملة السلاطين...» (١).

وقد قال ذلك حينما أوذي بعض العلماء من قبل الفرنسيين، فهو ينقم عليهم إيذاء هؤلاء العلماء الذين لا دخل لهم بأمور السياسة، ولا علم لهم بقوانينها، لانشغالهم بالعلم.

وأما الشيخ «عبد الرحمن الشربيني» شيخ الجامع الأزهر (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) (٢) فيقول في لقاء مع جريدة (الجوائب المصرية) أجرته معه في ٧ محرم عام ١٣٢٣هـ حين احتدم النقاش والنزاع حول ما سمي بإصلاح الأزهر: «وأما الخدمة التي قام بها الأزهر ولا يزال يؤديها له فهي حفظ الدين لا غير، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به، ولا ينبغي له!!».

ثم يقول: « وقد رأيت الكثيرين من إخواني خدمة العلم في منصب المشيخة، فوجدتهم أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة!! أشدهم فرارًا من مظاهر الدنيا الباطلة، كانوا ينقطعون لخدمة العلم ويجلسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر، وذكرهم العاطر».

ويقول أيضًا: «حتى أن من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف إلى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرؤوها أو مجلة فلان ليتصفحوها ومثل هذا في تاريخ الأزهر من قبل ما سمعت ولا رأيت..» (٣).

ومع افتخار علماء الأزهر بأنهم بعيدون عن الاشتغال بالسياسة لأنها ليست ميدانًا لهم، فإنهم كانوا في كثير من الأحيان مطية للخديوي وحكوماته المتلاحقة لتنفيذ أغراضهم السياسية، وقد كان ذلك من المطاعن التي وجهت لهم من قبل خصومهم (٤).

أما قراءة الجرائد والمجلات التي استنكرها شيخ الأزهر، وانحى باللائمة على من يطالعونها، فهو متفق مع النظرة التي ذكرها عن مهمة العلماء وهي الاشتغال بالعلم فقط. وقد انتقد شيخ للأزهر عزوف العلماء في الأزهر عن مطالعة الجرائد والمجلات، وهو الشيخ «محمد الأحمدي الظواهري» (المتوفى سنة ١٣٦٣هـ) (٥)، وكان ذلك قبل أن يلي مشيخة الأزهر، وسيأتي مزيد من التوضيح

---

(١) بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ص١٦٤.

(٢) الأعلام ٣/٣٢٤.

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٥٠٣.

(٤) المصدر السابق ١/٥١١.

(٥) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص١٢٠. وانظر ترجمته في الأعلام ٦/٢٣.

والبيان لهذه القضية الخطيرة في ثنايا الفصل. ويقول الشيخ «مصطفى صبري» : «والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين ، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم ، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم ، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة ، فيقبلون أيديهم ، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم ، ثم يفعلون ما يشاؤون بدين الناس ودنياهم. محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، إلا ما يعد من فضول اللسان ، أو ما يكمن في القلب ، وذلك أضعف الايمان . فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطؤوا مع كل الساسة ، صالحيهم وظالميهم ، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي..» [١].

لقد أمر الإسلام بالزهد في الحياة الدنيا وبالتجافي عن دار الغرور ، كما أمر بتعمير الأرض والمشي في مناكبها والتمتع بالطيبات من الرزق، وعاب على من أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فكيف إذا كان العلماء هم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم ، وضعفوا عن القيام بواجباتهم ، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقبهم عن كثب.

فهذا عالم كبير [٢] « إلا أنه كان قليل الورع عن بعض سفاسف الأمور. اتفق أنه تنازع مع عجوز في فدان ونصف طين مدة سنين وأهين بسببها مراراً ... ولم يزل ينازعها وتنازعه إلى أن مات، وغير ذلك أمور يستحى من ذكرها في حق مثله. وبذلك قلت وجاهته بين نظرائه» [٣].

وآخر[٤] «اشترى خرابة بسوق القشاشين بالقرب من الأزهر وعمرها داراً لسكنه وتعدى حدوده وحاف على أماكن جيرانه، وهدم مكتب المدرسة السنانية ، وكان مكتباً عظيماً ، فهدمه وأدخله في بنائه من غير تحاش أو خشية لوم مخلوق أو خوف من خالق ، وأوقف أعوانه من الصعايدة المنتسبين للمجاورة وطلب العلم يسخرون من يمر بهم من حمير الترابين وجمال الأعيان المارين عليهم فيستعملونها في نقل تراب الشيخ لأجل التبرك إما قهراً أو محاباة ، ويأخذ من مياسير الناس والسوقة دراهم على سبيل القرض الذي لا يرد ، وكذلك المؤن حتى تممها على هذه الصورة ، وسكن فيها وأحدق به الجلاوزة من الطلبة يغدون ويروحون في الخصومات والدعاوى ويأخذون الجعالات والرشوات من المحق والمبطل ، ومن خالف عليهم ضربوه وأهانوه ولو عظيماً من غير مبالاة ولا حياء ، ومن اشتد عليهم اجتمعوا عليه من كل فج حتى بوابين الوكائل وسكان الطباق وباعة النشوق وينسب

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٨٤/٢ .

(٢) هو الشيخ عبد الباسط السنديوني .

(٣) عجائب الآثار ٣٦/٢ .

(٤) هو شيخ السادات أبو الأنوار.

الكل إلى الأزهر ، ومن عذلهم أو لامهم كفروه ونسبوه إلى الظلم والتعدي والاستهزاء بأهل العلم والشريعة وزاد الحال وصار كل من رؤساء الجماعة شيخًا على انفراده يجلس في ناحية ببعض الحوانيت يقضي ويأمر وينهي .....» [١].

هذه بعض الصور لوقوع بعض العلماء في أخطاء قد يترفع عنها الرجل من العامة فضلاً عن العلماء.

وفي تلك الفترة الحالكة ترى كثيراً من العلماء يتهافتون على متاع الدنيا ، ويركضون خلف مغرياتها. ويعيشون في رفاهية وثراء فاحش حتى إن «الجبرتي» لما ترجم للشيخ «أحمد بن سلامة الشافعي» (المتوفى ١٢١٥هـ) قال عنه : «إلا أن الدهر لم يصافه على عادته وعاش في خمول وضيق عيش وخشونة ملبس وفقد رفاهية بحيث إن من يراه لا يعرفه لرثاثة ثيابه» [٢] . فقوله : «إلا أن الدهر لم يصافه على عادته» دليل على ما كان يعيشه العلماء وينعمون به من رغد ورفاهية. ويدل على ذلك ما أورده «الجبرتي» من تراجم لعشرات العلماء ممن عاشوا في ترف وثراء.

وهذا الشيخ «محمد سعد بن جلال الدين» توقفوا في توليته على سجادة السادة البكرية لأجل أنه فقير [٣]. دليل آخر على الرفاهية التي كان يعيشها العلماء والمتصوفة.

ويحسن بنا أن نورد نصاً مهماً «للجبرتي» يصف فيه انكباب العلماء على الدنيا ومتاعها وأثر ذلك في العلم حيث يذكر : إنه فرضت الضرائب على جميع الأراضي «ما عدا البلاد والحصص التي للمشايخ خارجة عن ذلك ولا يؤخذ منها نصف الفائض ولا ثلثه ولا ربعه وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمي فيهم ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحيهم تحت حمايتها ونظير صيانتها واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين ، واتخذوا الخدم والمقدمين وأعوان [٤] وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج ...... واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم في الارساليات للبلاد وقدروا حق طرق لاتباعهم ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وانذارات عن

---

(١) المصدر السابق ١٧٤/٢ .

(٢) المصدر السابق ٤٤٤/٢ .

(٣) المصدر السابق ٥١٦/٢ . والسجادة البكرية : منصب صوفي كبير في ذلك الزمن ، وكان المتولي عليها من السلالة البكرية ، وفي الغالب يكون شيخ مشايخ الصوفية ، وقد تضم له نقابة الأشراف ، هذا عدا إدارة بعض الأضرحة الكبيرة التي تدر أموالاً طائلة .

(٤) هكذا في الأصل ولعله «الأعوان» .

تأخر المطلوب مع عدم سماع شكوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة ، وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام وحساب الميري والفائض والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكي والتجني مع الأقباط ، واستدعاء عظمائهم في جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنهم والتفاخر بترددهم والترداد عليهم ، والمهاداة فيما بينهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وأوقع مع ذلك زيادة مما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة ، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية ، مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها والتعريض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة كالاجتماع في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة .... والتفاخر والكذب والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات ....»(١).

فإذا كان هذا هو حال الكثير من العلماء فهل ينتظر منهم أن يقوموا بدورهم كما ينبغي؟ وهل سيقفون أمام الجماهير في الأحداث والأزمات يقودونها ويمسكون بقيادها إلى بر الأمان؟. وهل سيكون يسيراً عليهم أن يبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله وهم الغارقون في متاع الحياة الدنيا والمترفون فيها.

وفي تلك الفترة ترى كثيراً من العلماء يتسارعون إلى أبواب السلاطين والحكام الجائرين. وبدلاً من أن يقوموا بواجبهم في النصح لهم والإنكار عليهم فيما خالفوا فيه الدين ، نراهم يترددون على قصورهم ويخالطونهم ويسعون إليهم ، ومتى أحس الحكام الجائرون بأن العلماء يسعون إليهم ويرجون نوالهم سقطوا من أعينهم ، وهانوا في نفوسهم ، ولم يبالوا لوجودهم، بل إنهم يستغلونهم في تنفيذ مآربهم وفي خداع الجماهير المضللة.

وهنا قد يسعى هؤلاء الطغاة في تكبيل هؤلاء العلماء وتكميم أفواههم بغير سيف ولا سوط ، ولكن بإغداق العطايا عليهم ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة (٢) التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم.

---

(١) المصدر السابق ٣/٢١٩ .

(٢) يقول سفيان الثوري رحمه الله : ماوضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذل له . ويقول أيضاً : المال داء هذه الأمة ، والعالم طبيب هذه الأمة ، فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس . سير أعلام النبلاء ٧/٢٤٣ .فكيف بمن يضعون أنفسهم برمتها في عطايا الظالمين ويتغمسون في مناصبهم وإنعاماتهم .

وقد مر معنا كلام «الجبرتي» في إعفاء بلاد المشايخ وأطيانهم من الضرائب والمغارم التي أثقلت كواهل الناس وأضرت بهم إضراراً عظيماً. وهذه إحدى المزايا التي كان يتمتع بها العلماء دون غيرهم ، زيادة في تكبيلهم وإسكات ضمائرهم وأصواتهم.

ومتى تداخل العلماء مع الحكام الجائرين وقبلوا أعطياتهم وتولوا أعمالهم فإنهم بذلك يقومون بتضليل قطاع عريض من الجماهير ، ويضفون صبغة شرعية على حكوماتهم الجائرة.

وهنا يقف العلماء حائرين بين القيام بأمانتهم والصدع بكلمة الحق ، وبين الرضوخ لهؤلاء الحكام الجائرين الذين أغرقوهم بالثراء والجاه ، والخوف من زوالهما ، والوجل مما قد ينالهم من أذى على أيدي هؤلاء الحكام فيما لو خالفوهم.

إن العلماء الذين استحفظوا على دين الله عز وجل ، وحملوا على عواتقهم أمانته العظيمة ، ليتعرضون أثناء مسيرتهم في قيادة الأمة إلى معوقات قوية من الرغبة والرهبة ، وتتنازعهم المغريات والملهيات جنباً إلى جنب مع التهديد بالإيذاء والطغيان. إنه الابتلاء الصعب ، والطريق العسر بين رغبة ومال وجاه ومنصب ، وبين خوف ورهبة وظلم واضطهاد. قال سبحانه : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ [الأنبياء ٣٥] وقد أبان الله سبحانه وتعالى عن ذلك الطريق في كتابه الكريم بأوضح بيان ، فقال جل وعلا : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور. يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة ٤٤].

يقول الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله تعالى عند هذه الآية : «ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه في كل زمان وفي كل أمة معارضة من بعض الناس ، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام. ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث .... علم الله سبحانه أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجهات ، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة ، وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال .. فهو يناديهم : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ فلا تقف خشيتهم للناس دون تنفيذهم لشريعة الله ، سواء من الناس أولئك الطغاة الذين يأبون الاستسلام لشريعة الله ، ويرفضون الإقرار من ثم بتفرد الله سبحانه بالألوهية. أو أولئك المستغلون الذين تحول شريعة الله بينهم وبين الاستغلال وقد مردوا عليه. أو تلك الجموع المضللة أو المنحرفة أو المنحلة التي تستثقل شريعة الله وتشغب عليها .. لا تقف خشيتهم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من الناس دون المضي في تحكيم شريعة الله في الحياة. فالله وحده هو الذي يستحق أن يخشوه، والخشية لا تكون إلا لله ..» .

كذلك علم الله سبحانه أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين ، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا ، وهم يجدون أصحاب السلطان ، وأصحاب المال ، وأصحاب الشهوات ، لا يريدون حكم الله فيملقون شهوات هؤلاء جميعاً، طمعاً في عرض الحياة الدنيا ـ كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل، وكما كان ذلك واقعاً في علماء بني إسرائيل. فناداهم الله : ﴿ **ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً** ﴾ .. وذلك لقاء السكوت ، أو لقاء التحريف ، أو لقاء الفتاوى المدخولة! وكل ثمن هو في حقيقته قليل ، ولو كان ملك الحياة الدنيا .. فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقاباً ومصالح صغيرة ، يباع بها الدين ، وتشترى بها جهنم عن يقين» (١).

ولما كانت نوازع الرهبة والخوف أشد على النفس من نوازع الرغبة والطمع ، فيصبر العالم عن أكل الحرام ، وعن زخرف الدنيا وزينتها فلا يقول إلا الحق، ولكنه في زمن الشدة وتحت سيف الرهبة والبطش وصولجان الإرهاب والطغيان يقول الباطل ، ويداهن بالإفك خوفاً من طاغوت أو جبار ـ لما كان ذلك امتدح الله عز وجل العلماء الربانيين والدعاة الصادقين الذين يبلغون دين الله لا يخشون أحداً من الناس فقال جل ذكره : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله . وكفى بالله حسيباً** ﴾ [الأحزاب ٣٩].

ومتى حاول العلماء الذين استدرجوا بالأموال والمناصب أن يصدعوا بالحق ويقفوا في وجه الحاكم الجائر فإنهم لا يستطيعون ذلك غالباً؛ لأنه سيتهمهم بأنهم مشاركون له في الظلم. وهو ما وقع للعلماء مع «محمد على باشا» والي مصر حيث يذكر «الجبرتي» ضمن أحداث جمادى الثانية سنة ١٢٢٣هـ حين نقص النيل وشحت الغلال « واجتمع في ذلك اليوم المشايخ عند الباشا فقال لهم اعملوا استسقاء وأمروا الفقراء والضعفاء والأطفال أن يخرجوا إلى الصحراء وادعوا الله . فقال له الشيخ «الشرقاوي» : ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم . فقال : أنا لست بظالم وحدي وأنتم أظلم مني فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغرم إكراماً لكم وأنتم تأخذونها من الفلاحين ، وعندي دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفي كيس ولا بد أني أفحص عن ذلك ، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحيته أرفع الحصة عنه ...» (٢) . وحين أشار بعض كبار الفلاحين على «محمد علي» بأن يساوي بين الناس في أخذ الضرائب بما في ذلك المشايخ، غضب المشايخ وثاروا عليه وتشاجروا معه (٣). فكيف يمكن للعلماء بعد ذلك أن يأمروا بمعروف أو ينهوا عن منكر ما داموا قد خالطوا هؤلاء الحكام الجائرين وتلبسوا ببعض مظالمهم.

---

(١) في ظلال القرآن ٨٩٧/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٣٩/٣ .

(٣) المصدر السابق ٣١٤/٣ .

وكل هذا الكلام مع العلماء الطيبين الذين يظنون أنهم بمداخلتهم للحكام سوف يصلحون. أما العلماء الذين تحولوا إلى أبواق للسلطة تنفخ فيهم كيف شاءت، فهؤلاء من حاشية السلطان الجائر وخاصته ، فلا داعي للخوض في شأنهم.

ويتحدث الامام «الشوكاني» عن حال هؤلاء العلماء اللاهثين وراء المناصب والداخلين للحكام والسلاطين ، وعن أثر ذلك في العلم والناس فيقول :

«فبهذه الوسيلة دخل على أهل العلم بما صنعه هؤلاء من هذه الهنات الوضيعة والفعلات الشنيعة ما تبكي عيون العلم وأهله ، وتقوم عليه النواعي ...... ومن هذه الحيثية تنازل منصب العلم وتهاون الناس به ؛ لأنهم يرون رجلاً قد لبس لباس أهل العلم وتزيا بزيهم وحضر مجالسهم ، ثم ذهب إلى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليهامن وزير أو أمير فتصاغر لهم وتذلل وتهاون وتحقر ، حتى يصير في عداد خدامهم ومن هو في أبوابهم ، ثم أعطوه منصباً من المناصب فعمل على ما يريدونه منه وإن خالف الشرع واعتمدما يرسمونه له ، وإن كان طاغوتاً بحتاً ، فيظن من لا علم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكذا ، وأنهم ينسلخون من العلم إذا ظفروا بمنصب من المناصب هذا الانسلاخ ويمسخون هذا المسخ ، ويعود أمرهم إلى هذا المعاد ، فيزهد في العلم وأهله ، وتنفر عنه نفسه ، وتقل فيه رغبته ، ويؤثر الحرف الدنيوية عليه ليربح السلامة من المهانة التي رآها نازلة بهذا المشؤم الجالب على نفسه وعلى أهل العلم ما جلب من الذل والصغار . وإذا كان ماجناه هؤلاء النوكاء على العلم وأهله بالغًا إلى هذا الحد عند سائر الناس، فما ظنك بما يعتقده فيهم من يطلبون من المناصب بعد أن شاهد منهم ما يشاهده من الخضوع والذلة والانسلاخ عن الشرع إلى ما يريدونه منه وبذل الأموال لهم على ذلك ، ومهاداتهم بأفخر الهدايا، والوقوف على مايطلبونه منه على أي صفة تراد منهم، وينضم إلى هذا خلوهم عن العلم وجهلهم لأهله الذين هم أهله ، لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر الذي لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم ، فهل تراهم بعد هذا يميلون إلى ما يقوله أهل العلم وينزجرون بما يوردونه عليهم من الزواجر الشرعية المتضمنة لإنكار ما هو منكر والأمر بما هو معروف، والتخويف لهم عن مجاوزة حدود الله. هيهات أن يصغوا لهذا سمعاً أو يفتحوا له طرفًا فإلى الله المشتكى»[(١)].

ولقد كان الناس وما زالوا يعرفون للعلماء مكانتهم ؛ لذا تراهم يلتفون حولهم ، ويقصدونهم في الأزمات ، ويعلقون عليهم آمالهم بعد الله - عز وجل - في الدفاع عنهم أمام الظالمين ، وفي قيادتهم

---

(١) أدب الطلب ص١٣٤.

إلى الطريق الصحيح ، والنزول عند آرائهم ومشورتهم فيما يلم بالأمة من فتن وخطوب . ولقد سبق أن ذكرنا أن العلماء في تلك الفترة قد تجافوا عن المشاركة في الأحداث السياسية ، ومع أن بعضهم كان لهم مشاركة ، إلا أنها لم تكن بالمستوى المطلوب . وإن المرء ليعجب مثلاً من اختيار العلماء لرجل مثل «محمد علي باشا» ليتولى أمورهم ، وإصرارهم عليه في وقت خلت البلاد من حاكم ، لتتابع الثورات [١].

أما كان أحدهم جديراً بالقيام بهذا المنصب الخطير ، وأولى به من عسكري جاهل مغرور من جملة العساكر الذين غالبًا ما يتصفون برقة الديانة والانتهازية والبطش، أم أن العلماء قد فقدوا الثقة بأنفسهم فصاروا يتهيبون النزول إلى الميدان ، وتحمل المسؤوليات العظام ؛ لأنهم قد ألفوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب ، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات.

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات والضغائن بينهم واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة عليهم. ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم ومزيد من التقويض لصف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ «عبد الله الشرقاوي» شيخ الأزهر ، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من «محمد علي باشا» إلى الشيخ «الشرقاوي» بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة. وسبب ذلك كما يقول «الجبرتي» : «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه ..... فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره» [٢].

وقد تبوأ «محمد علي» عرش مصر وتمكن من حكمها بمساعدة العلماء الذين أوصلوه إلى سدة الحكم بشرط إقامة الشريعة والعدل ، ولكن ما إن ثبت أقدامه في السلطة حتى غدر بهم وقلب لهم ظهر المجن ، فكان أول عمل قام به أن نفى نقيب الأشراف الشريف «عمر مكرم» الرجل الأول في إيصاله إلى الحكم وأول من بايعه من الناس.

وسبب ذلك كثرة المظالم والمغارم التي أحدثها «محمد علي باشا» ، حيث اجتمع الناس في الأزهر وأبطلت الدروس ، واجتمع المشايخ والسيد عمر وكتبوا عرضحال إلى الباشا يذكرون فيه المحدثات من المظالم ، وحبس شخص من أهل العلم بلا ذنب وقد تعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة.

فأرسل إليهم الباشا رسولاً يسألهم عن طلبهم فعرفوه بما سطروه إجمالاً وبينوه له تفصيلاً ،

---

(١) عجائب الآثار ٣/٦٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/١٣٤ .

فقال : ينبغي ذهابكم إليه وتخاطبونه مشافهة بما تريدون ، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم . فقالوا بلسان واحد : لا نذهب إليه أبداً ما دام يفعل هذه الفعال فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه ، كما كنا في السابق فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور.

فحاول الرسول إقناعهم بالمجئ فأبوا أشد الإباء ، وقالوا: لا نجتمع عليه أبداً ولا نثير فتنة ، بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ، ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا ، فأخذ منهم العرضحال ووعدهم برد الجواب ، وبعد عودته أطلق ذلك الشخص الذي كان محبوساً، وتأخر الجواب.

ولكن العلماء لم يكونوا على قلب رجل واحد فإن فيهم الانتهازيين وطلاب المناصب ، وهل أتي الناس قديماً وحديثًا إلا من قبل هؤلاء الذين أضاعوا علمهم ورغبوا في الفاني عن الباقي!؟ وهل تمكن الطغاة والمتجبرون إلا على أكتاف هؤلاء الطغمة المنسوبة إلى العلم ممن جعلوه وسيلة إلى قضاء مآربهم ، وحظوظ نفوسهم!؟.

ثم اجتمع شيخان من مشايخ الأزهر هما الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي مع محمد أفندي طبل ناظر المهمات في حكومة محمد علي ، وقد كان الثلاثة على غير وفاق مع السيد عمر ، وتناجوا مع بعضهم ، ثم ذهب الشيخان المذكوران إلى السيد عمر وأخبراه عن أن محمد أفندي ذكر لهم أن الباشا لم يحدث شيئًا من تلك المظالم ، وقد كذب من نقل ذلك وقال انه يقول إني لا أخالف أوامر المشايخ وعند اجتماعهم معه يحصل كل المراد ، ولكن السيد عمر قد سئم من ألاعيب محمد علي وخبرها جيداً ، فبين لهذين الشيخين أن ما قاله محمد أفندي كذب لا أصل له ، وأراهم بعض الأوراق التي تشتمل على المطالبة بهذه المظالم الجديدة ، وقال لهم : أما الذهاب إليه فلا أذهب إليه أبداً وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأي لكم ، ثم انفض المجلس.

«وأخذ الباشا يدبر في تفريق جمعهم وخذلان السيد عمر لما في نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ومعارضته له في غالب الأمور ، ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم ، وهو الذي قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملكه الأقليم». ثم ذهب الشيخان المذكوران وديوان أفندي وعبد الله بكتاش الترجمان وحضر الجميع عند السيد عمر وطال بينهما الكلام والسيد عمر مصمم على الامتناع.

«ثم قام المهدي والدواخلي وخرجا صحبة ديوان أفندي والترجمان وطلعوا إلى القلعة وتقابلوا مع الباشا ، ودار بينهم الكلام وقال في كلامه : أنا لا أرد شفاعتكم ولا أقطع رجاكم والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافًا أن تنصحوني وترشدوني . ثم أخذ يلوم على السيد عمر في تخلفه وتعنته

ويثني على البواقي ويقول عنه : وفي كل وقت يعاندني ويبطل أحكامي ويخوفني بقيام الجمهور. فقال الشيخ المهدي : هو ليس إلا بنا وإذا خلا عنا فلا يسوى بشئ إن هو إلا صاحب حرفة او جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين (١) . فعند ذلك تبين قصد الباشا لهم ووافق ذلك مافي نفوسهم من الحقد للسيد عمر.

ثم عادوا إلى السيد عمر وأخبروه بأن الباشا يقبل الشفاعة (٢) ، ولم يقع منه خلاف. وأخبروه بقول الباشا «وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر (٣)، فهذا لا يناسب منكم وكأنكم تخوفوني بهذا الاجتماع وتهيج الشرور وقيام الرعية ، كما كنتم تفعلون في زمان المماليك فأنا لا أفزع من ذلك وإن حصل من الرعية أمر فليس لهم إلا السيف والانتقام» (٤).

ثم إن المشايخ وديوان أفندي وعبد الله بكتاش اجتمعوا في بيت السيد عمر مكرم وتكلموا في شأن الطلوع إلى الباشا ومقابلته ، فحلف السيد عمر إنه لا يطلع إليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجهاً إلا إذا أبطل المظالم التي أحدثها . ويبن موقفه قائلاً :

إن جميع الناس يتهموني معه ويزعمون أنه لا يتجارأ على شيء يفعله إلا باتفاقي معه (٥). وامتنع عن الطلوع ، فاتفقوا على طلوع الشيخ عبد الله الشرقاوي والمهدي والدواخلي والفيومي وذلك على خلاف غرض السيد عمر ، فلما طلعوا إلى الباشا وتكلموا معه وقد فهم كل منهم لغة الآخر الباطنية ، وحاول الباشا أن يراوغهم ويظهر أنه أبطل المظالم ، ثم عادوا إلى السيد عمر وأخبروه بما وقع ، فأخبرهم بكذب ذلك للمرة الثانية ، وعاتب المشايخ لمسايرتهم له وعدم إنكارهم عليه ، « ووجه عليهم اللوم في نقضهم العهد والأيمان ، وانفض المجلس وتفرقت الآراء وراج سوق النفاق وتحركت

---

(١) مما يؤسف أن السيد «عمر مكرم» لم يكن من جملة العلماء المتصدرين في الأزهر ، كما يفهم ذلك من كلام الشيخ المهدي ، ولكنه كان مخلصاً في خدمة الناس ، وجاداً في رفع المظالم عنهم ؛ لذا لا نعجب من التفافهم حوله ، وخوف محمد علي باشا من تلك المكانة ، ومسارعته إلى إسقاطها .

(٢) أي شفاعة هذه ، أيعد الإنكار على الظالم والدعوة إلى رفع الظلم شفاعة يتفضل الظالمون بقبولها ، ويتطوعون بإنفاذها أم إنها الأساليب الملتوية والعبث بالكلمات ، وتقليب الحقائق والضحك على عقول العلماء .

(٣) وهذا أيضاً من تغيير الحقائق واتهام المصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالتشنيع والتشهير وإحداث الفتن، إنه شأن كل فرعون متكبر جبار في كل زمان ومكان ، كما قال فرعون الأول مستخفاً بعقول عبيده من الناس { وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد } [٢٦ غافر] ، وكما قال الملأ الفرعوني لإلههم المزعوم فرعون : { أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك } [١٢٧ سورة الأعراف]

(٤) هنا يزيح محمد علي القناع عن وجهه الحقيقي ، ويكشف زيف ما قاله من احترام العلماء ورد المظالم حين يلوح بسيف التهديد والبطش ليخرس الألسن ويقضي على النفوس الحرة الأبية

(٥) لأن العلماء بمداخلتهم للسلاطين والحكام الجائرين يشاركونهم في مظالمهم ويعززون من سلطانهم الجائر ويغررون بالناس .

حفائظ الحقد والحسد وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار والباشا يراسل السيد عمر ويطلبه للحضور إليه والاجتماع به ويعده بإنجاز ما يشير عليه به ، وأرسل إليه كتخدا (النائب) ليترفق به وذكر له أن الباشا يرتب له كيساً في كل يوم ويعطيه في هذا الحين ثلثمائة كيس خلال ذلك فلم يقبل ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه ويتجسس ويتفحص عن أحواله وعلى من يتردد عليه من كبار العسكر، وربما أغرى به بعض الكبار فراسلوه سراً وأظهروا له كراهتهم للباشا وأنه إن انتبذ لمقاومته ساعدوه وقاموا بنصرته عليه فلم يخف على السيد عمر مكرم (١) ولم يزل مصمماً وممتنعاً عن الاجتماع به والامتثال إليه ويسخط عليه» .

وفي ذلك الوقت أمر الباشا بكتابة عرضحال بسبب المطلوب لوزير الدولة وهي أربعة آلاف كيس ويذكر أنها صرفت في مشاريع وأعمال كسد ترعة الفرعونية ومحاربة الأمراء المصرية (المماليك) حتى دخلوا في طاعة الدولة وعمارة القلعة والقناة التي تنقل المياه إليها وحفر الخلجان والترع، ثم أرسله إلى السيد عمر ليضع خطه وختمه عليه فامتنع وقال «أما صرفه على سد الترعة فان الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافاً كثيرة ، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له وان وجد من يحاسبه على ما أخذ من القطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعه الدفاتر».

فلما أخبر الباشا بذلك حنق واغتاظ في نفسه وطلبه للاجتماع به فامتنع ، فلما أكثر عليه قال: إن كان ولا بد فأجتمع معه في بيت السادات وأما طلوعي إليه فلا يكون ، فلما أخبر بذلك ازداد حنقه وقال «إنه بلغ به أن يزدريني ويرذلني ويأمرني بالنزول من محل حكمي إلى بيوت الناس».

ثم اجتمع الباشا مع المشايخ في اليوم الثاني في بيت ولده إبراهيم وأرسل رسولاً من طرفه ورسولاً من طرف القاضي يطلبه للحضور ليتحاقق ويتشارع معه ، فرجعا وأخبرا بأنه شرب دواء ولا يمكنه الحضور في هذا اليوم ، فعند ذلك أحضر الباشا خلعة وألبسها لشيخ السادات على نقابة الأشراف وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر يوم تاريخه ، فتشفع المشايخ في إمهاله ثلاثة أيام حتى يقضي أشغاله ، فأجاب إلى ذلك . فتقبل السيد عمر أمر النفي بصدر رحب.

وفي يوم الأحد أول رجب عام ١٢٢٤هـ اجتمع المودعون للسيد عمر ، ثم حضر محمد كتخدا فعند وصوله قام السيد عمر وركب في الحال وخرج صحبته وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزناً على فراقه ، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر لأنه كان ركناً وملجأ ومقصداً للناس ولتعصبه لنصرة الحق (٢).

---

(١) ألا يتعظ المصلحون وقيادات الحركة الإسلامية ولا يستخفنهم الذين لا يوقنون ولا استدراج الماكرين بذلك ورحم الله السيد عمر ، فقد كان بصيراً بكل ذلك ، لم تؤثر فيه نوازع الرغبة والرهبة ، ولم يستدرجه الذين لا يوقنون .

(٢) انظر تفاصيل هذه الواقعة الأليمة في عجائب الآثار ٣/٢٦٥ - ٢٧٢ .

وفي صبح ذلك اليوم ، حضر الشيخ المهدي عند الباشا وطلب وظائف السيد عمر فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعي ، ونظر وقف سنان باشا ببولاق ، وحاسب على المنكسر له من الغلال مدة أربع سنوات فأمر بدفعها له من خزينته نقداً وقدرها خمسة وعشرون كيساً وذلك في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر [١].

وفي مستهل شعبان نمق مشايخ الوقت عرضحال في حق السيد عمر بأمر الباشا ليرسله إلى الدولة وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر وعدوا له مثالب ومعايب وجنحاً وذنوباً ، منها أنه أدخل في دفتر الأشراف أسماء أشخاص ممن أسلم من القبط واليهود. ، ومنها أنه أخذ من الألفي (أحد زعماء المماليك الكبار) مبلغاً من المال ليملكه مصر في فتنة أحمد باشا خورشيد، وأنه كاتب الأمراء المصريين أيضاً في وقت الفتنة ليأخذوا مصر على حين غفلة من أهلها في يوم قطع الخليج (الاحتفال بوفاء النيل)، وأنه أراد إيقاع الفتن في العساكر لينقض دولة الباشا ويولي خلافه ويجمع عليه طوائف المغاربة والصعائدة وأخلاط العوام وغير ذلك ، وذلك على حد من أعان ظالماً سلط عليه وكتبوا عليه أسماء المشايخ وذهبوا به إليهم ليضعوا ختومهم عليه فامتنع البعض من ذلك وقال: هذا كلام لا أصل له ووقع بينهم محاججات ولام الأعاظم الممتنعين على الامتناع ، وكان من الممتنعين الشيخ أحمد الطحطاوي مفتي الحنفية ، وكان ذلك سبباً في عزله عن ذلك المنصب بعد أن اتفق الأشياخ والمتصدرون على عزله . فاعتكف في داره لا يخرج منها إلا قليلاً واعتزلهم ولم يخالطهم وهم يبالغون في ذمه والحط عليه لكونه لم يوافقهم في شهادة الزور «والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع أن السيد عمر كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض» [٢].

هذه الحادثة المؤلمة آثرنا الإسهاب في تفصيلها لأنها صورة صادقة عن أحوال فريق عظيم من العلماء في تلك الفترة الحالكة ، من البارزين والمتصدرين في الجامع الأزهر الذين لم تكن مكانتهم تقتصر على مصر فحسب ، بل إنها لتصل إلى تركيا والمغرب والحجاز والشام واليمن وغيرها من أقطار العالم الإسلامي ، تلك المكانة التي كانت تستمد من الجامع الأزهر، وهي كما رأينا صورة قاتمة ظهر فيها تلاعب الطغاة والحكام الجائرين بالعلماء واستغلالهم كوسيلة شرعية أمام الناس لكل ما يرتكبونه من ظلم وإرهاب.

وكذلك خيانة بعضهم لما تحملوه من أمانة العلم الشرعي ومشاركتهم عن عمد لهؤلاء الطغاة

---

(١) المصدر السابق ٣/٢٧٢ .
(٢) المصدر السابق ٣/٢٧٤ .

ورضوخهم لهم ومعاونتهم في مظالمهم واستبدادهم حسداً من عند أنفسهم لبعض المخلصين ، كل ذلك مما أبرزته لنا هذه الصورة الحية العجيبة وهكذا كان يستغل علماء الدين أبشع استغلال ، في القضاء على الحق وإقرار الباطل ، ويؤذى المصلحون ، ويضطهد الأخيار ، وتحقق رغبة الطغاة والظالمين عبر هؤلاء العلماء المداهنين ، الذين رضوا بأن يكونوا عونًا للظلم وردءًا للطغيان.

وبعد أن رضي هؤلاء العلماء بالدون والهوان والاستغلال ، فإن الطغاة لم يكن ليقف استغلالهم للعلماء عند حد من الحدود ، شأن كل طاغية مع من باع آخرته بدنياه من المنتسبين إلى العلم. فقد كان محمد علي يمارس ضغطه المستمر مع العلماء في مصر من أجل بقائه في السلطة ، وإضفاء الشرعية على حكومته الظالمة.

فحين ورد مرسوم سلطاني من الدولة العثمانية بنقل ولاية «محمد علي» من مصر إلى سالونيك ، وتعيين وال جديد على مصر ، سارع «محمد علي باشا» فأمر ترجمانه بكتابة عرض حال على لسان العلماء والمشايخ إلى الدولة ، وأنهم لا يرضون بسواه. وأرسله إلى المشايخ «لوضع أسمائهم وختومهم عليه ، ليرسله الباشا إلى الدولة ، فلم تسعهم المخالفة ، ونظموا صورته ثم بيضوه في كاغد كبير»[(١)].

وبعد قرابة شهرين ورد مرسوم من الدولة بإبقاء «محمد علي باشا» ، واستمراره على ولاية مصر ، بشهادة العلماء ورجائهم من أجله[(٢)]. بل إن «محمد علي» كان يستغل العلماء في غمرة صراعه السياسي مع المماليك الحكام القدامى لمصر ، ويأمر المشايخ أن يضعوا ختومهم على رسائله التي يبعث بها إلى خصومه المماليك[(٣)] ، ويستغل سلطتهم الدينية كيف شاء.

وحين كان بعض العلماء المخلصين يناصحون الحكام والأمراء وينكرون عليهم ما يقومون به من مخالفات شرعية ، كان السواد الأعظم من المنتسبين إلى العلماء والمحسوبين عليهم يناصبونهم العداء، ويوغرون صدور الحكام عليهم ، ويقومون بتبرير مظالمهم ومخالفتهم.

يذكر الإمام «الشوكاني» حادثة وصفها بالشناعة حدثت له مع إمام اليمن المنصور وملخصها أن الإمام «الشوكاني» منذ اتصاله بهذا الإمام كان يرغبه دائمًا في العدل والإنصاف وينصحه في رفع المظالم وعلى رأسها المكس ، وأن يقتصر على ما ورد به الشرع وعدم مجاوزته في شيء ، فألهمه الله سبحانه إلى الإجابة بعد طول مداراة وترغيب فأصدر أمره بخط «الشوكاني» إلى جميع العمال

---

(١) المصدر السابق ١٢٧/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٣٦/٣ .

(٣) المصدر السابق ١٨٨/٣ .

بالالتزام بالعدل ورفع المظالم. وفي هذا المكتوب التشديد في الربا والسياسة الشيطانية والأخذ على قضاة الأقطار أن يبعثوا من يعلم الناس أمر دينهم من الصلاة والصيام والحج والزكاة والتوحيد على الوجه المطابق لمراد الله عز وجل.

وقرر الإمام ذلك وأنفذه وأظهره في الناس فقامت شياطين المقلدة وفراعين البدوان وخونة الوزراء في وجه هذا الأمر قياماً يبكى له الإسلام ويموت كمداً عنده الأعلام ، ثم يذكر أن هذا من مثل هؤلاء ليس بغريب.

ولكن العجب من جماعة من أهل العلم والورع متكئين على أرائكهم عاكفين على دفاترهم صاروا ينكرون من هذا الأمر ما يعلمون أنه مخالفة لقطعيات الشريعة ، مع علمهم بحكم من خالفها ، واعترافهم بأن هذا هو الحق الذي اتفقت عليه الكتب المنزلة والرسل المرسلة ، لكنهم يتركون تدبير الشرع ، ويعودون لتدبير الدولة وما يصلحهم ويصلح لهم ، حتى كأنهم من أهل الولايات ومن القابضين للجبايات ، وظهر ما عندهم وتكلموا به للنا س ، حتى اعتقد من لا حقيقة لديه من العامة ، ومن يلتحق بهم ومن أصحاب الدولة ومن شابههم. أني أرشدت إلى خطأ وأمرت بمنكر ، فاجتمع من جميع ما قدمت ذكره تشوش خاطر الإمام ، ومن له رغبة في شرائع الإسلام ، فتوقف الأمر [١].

ولقد كان السلف الصالح ومن تبعهم من العلماء الصالحين يحجمون عن تولي المناصب ، ويخشون من عدم قدرتهم على القيام بالمسؤوليات والمهمات المناطة بها ، ويتهيبونها ، فتراهم يتورعون عن الإفتاء وعن القضاء وغير ذلك ، لمعرفتهم بالأمانة التي يتحملونها ، فيما لو تولوا شيئاً منها ، وإن قدر ، وتولى أحدهم بعضها ، فإنه - بعون الله وتوفيقه - يقوم بها أحسن قيام مع خوفه أن يكون قد قصر فيها.

أما كثير من علماء تلك الفترة فعلى العكس من ذلك تماماً ، فتراهم يتسابقون إلى الظفر بها ، ويتنافسون لأجلها ، ويستميتون في الحصول عليها. ثم إذا نالوا مطلوبهم ، وظفروا بما سعوا إليه من مناصب فإن القليل هو الذي يقوم بحقها ويؤدي أمانته على الوجه الأكمل.

ورحم الله السلف حين كان يسجن الرجل منهم ليلي القضاء ، فلا يقبل . أين ذلك مما كان عليه السواد الأعظم من العلماء في تلك الفترة من التسارع إلى تولي المناصب والفرح بها ، وحين كان يظفر أحدهم بمنصب ثقيل ، كالقضاء ، يسارع أصدقاؤه ومحبوه من العلماء الآخرين وغيرهم بتقديم التهنئة له.

---

(١) أدب الطلب ص١٦٢ .

يقول الشيخ «عبد السلام الشطي» أحد علماء «دمشق» مهنئًا الشيخ «محمد بن عثمان الجابي» على توليه قضاء «استنبول» في قصيدة مطلعها :

محمد جابي أفندي زادة أعطاه رب العالمين مراده
لازال مرفوع المقام معظمًا عند الأنام وفوقهم وزيادة
ورث المفاخر كابرًا عن كابر وله الأماجد دائمًا منقادة
سلطاننا عبد العزيز أعزه رب العباد وعز فيه عباده
لما رأى هذا الهمام بأنه أهل لكل فضيلة وسيادة
أولاه إحسانا وخص جنابه بقضاء إسلامبول دار سعادة
فلذا أتى عبد السلام مهنئًا مولاه فيما صار فيه إرادة(١)

وقال الشيخ «محمد شهاب الدين» مهنئًا الشيخ «ابراهيم بن محمد الباجوري» المتوفى سنة ١٢٦٣هـ

يا دهر أعط القوس باريها فقد أفرطت في التقديم والتأخير
هذا مجلي جلبة السبق الذي حاز الفخار بسعيه المشكور(٢)

ولما أعيد منصب إفتاء الحنفية إلى الشيخ «علي أفندي المرادي» بعد أن عزل عنه زمنًا جاء الشيخ «مصطفى بن عبد الرحيم الدمشقي الشافعي» وأنشده مهنئًا بقصيدة طويلة أولها :

الحمد لله عاد الماء موضعه هنئت ياكوكبًا فالهم قد ذهبا(٣)

وكذلك قام الشاعر «اللوحي الدمشقي» بتقديم التهاني إلى الشيخ «كمال الدين الغزي» حين تولى منصب فتوى الشافعية عام ١٢٠٣هـ بقصيدة طويلة جاء منها :

أفديه من ماجد طابت أرومته فطاب منشأ شهم قد ملي أدبا
كنز الهداية مصباح الأنام فتى جليل قدر غدا بالله محتسبا
لا زال يرقى معالي العز سؤدده ما صاح طير وما قطر السما سكبا(٤)

---

(١) منتخبات تواريخ دمشق ص٦٩٢ .
(٢) حلية البشر ١/١٠ .
(٣) المصدر السابق ص٦٧٦ . أذهب الهم بتولي الإفتاء إلى هذا الحد وصل الأمر في التعلق بالمناصب الثقيلة الأمانة .
(٤) المصدر السابق ص٦٧٦ . وقد كانت المناصب مراقي للعز والسؤدد والشهرة عند هؤلاء الناس .

ولما ولى السلطان الحسن بن محمد الشيخ أبا محمد بن خضراء القضاء بـ«مراكش» سنة ١٢٩٧هـ امتدحه بقصيدة جاء منها :

لبيك دمت مؤيداً و مظفراً ... ولك الكمال كما تشاء موفرا
وافي خديمك أمرك العالي الذي ... في ضمنه إسعاده بين الورى
إذ خص دونهم بأشرف دعوة ... يا سعد من أضحى بها مستبشرا
فأجاب مبتدراً إجابة صادق ... لم يلهه أهل ولا حب الذرى
ويجيب شكر مواهب أوليتها ... كرماً وحق لمثلها أن يشكرا
مولاي يا أزكي الأئمة شيمة ... وافيت بابك أبتغى منك القرى(١)

وهكذا كان كثير من العلماء يجرون خلف المناصب ويجتهدون في تحصيلها ويتبادلون التهاني بحصولها شأنهم في ذلك كبقية الناس.

وكيف يكون حال الأمة إذا كان العلماء فيها على هذا المنوال ، وكيف يمكن للعالم أن يقول كلمة الحق لا يخاف فيها لومة لائم وهو أسير لمنصب من المناصب يخاف من زواله ، ويجتهد في بقائه واستمراره.

ولما اندلعت الثورة العرابية شارك الكثير من العلماء فيها وانضموا تحت لواء قائد الثورة «أحمد عرابي» ، وقد كان جديراً بهؤلاء العلماء أن يتولوا قيادة الثورة ويصلوا بها إلى نتائجها المطلوبة ولكن ذلك لم يحدث ، مما أسفر عن احتلال الانجليز لمصر وخيانة الخديوي «توفيق» ، الذي نكل بالعلماء بمعونة أوليائه من المحتلين فقتل فريقاً منهم وحبس فريقاً ونفى الباقي.

ولما عاد جملة من العلماء المنفيين إلى البلاد بعد أن أنهوا مدة النفي أخذوا في استعطاف الخديوي الخائن واسترحامه وغير ذلك من الأفعال التي لا تليق بالعلماء المخلصين.

يقول أحدهم : «ولقد أشار علينا كثير من الإخوان والأمراء بالترجي والاستسماح من حضرة الخديوي الأعظم فقدمنا له جملة عروض تتضمن طلب العفو والصفح والتعطف بغاية الانكسار والاسترحام والتلطف فلم تجد نفعاً ولم توجب دفعاً ، بل كلما زاد الطلب ، بعد الأرب وانعكس الأمر وانقلب ، والأمور مرهونة لأوقاتها ومربوطة بميقاتها. ولعل السبب في توقف جناب الخديوي عن

---

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٦٠/٤ .

الصفح هو تمكن الوشاية التي ألقيت إليه من قلبه لعدم وقوفه قبل هذه الحادثة على حقيقة حالنا وأننا من أولاد الفقراء المشتغلين بقراءة العلم مدة من الزمن في الجامع الأزهر وغيره [(١)].

«لقد كان علماء الدين دائمًا في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها ، وهم ملجأها كذلك إذا حزبهم أمر ، وملاذها عند الفزع .. تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم ، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة ، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم ، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .. وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحيانًا ، ويلقون في السجون أحيانًا ، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحيانًا ولكنهم يصمدون لهذا كله ، تقديرًا لمسئوليتهم أمام الله ....

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في أمورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، وكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان .. يذكرونها بالله واليوم الآخر ، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين ، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم ، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين ، والدين حي في النفوس .. وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في الله حق جهاده ، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله فما ضعفوا واستكانوا .. فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصددها من التاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الذي عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد .....؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه وينهونه ، قتلهم أم لم يقتلهم؟

---

(١) نفحة البشام ص١٦٩ للقاياتي . وكلما ازداد العالم خضوعًا للظلمة والخائنين من الحكام ، ازدادوا إمعانًا في إذلاله وإهانته والاستخفاف به . ورحم الله الأستاذ سيد قطب حين ألح عليه في كتابة كلمات يسترحم بها فرعون مصر ، فرفض قائلاً :

إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفًا يقر به حكم طاغية .

قال أيضًا : لما أسترحم ؟ إن سجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق ، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل .

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد ص٤٧٤ . د/صلاح الخالدي ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ .

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان ، ومشوا في ركابه ، يتملقونه ويباركون مظالمه فيمدونه في الغي ، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها ، أو انزوت في الدرس والكتاب ، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس العلم...... وما نريد أن نظلمهم ، فقد كان منهم ولا شك من صدع بكلمة الحق ، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولي السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق ..... ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالبة التي راحت تلهث وراء المتاع الأرضي ، أو تقبع داخل الدرس والكتاب ، على ما فيهما من جوانب القصور ...»[١].

* * *

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH
٢٠٩

(١) واقعنا المعاصر ص٣٢٧ .

٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٣٠٩

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة

قام الطالب بتعديل وتصويب ما طلب منه أعضاء المناقشة .

الانحرافات العقدية والعلمية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

وآثارها في حياة الأمة

الطالب

علي بن بخيت بن عبد الله الزهراني

باشراف / فضيلة الشيخ

محمد قطب

جامعة أم القرى مكة المكرمة
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

المجلد الثاني

رسالة لنيل درجة الماجستير لعام / ١٤١٤ هـ

الباب الثاني

الانحرافات العلمية
في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

الفصل الأول : المستوى التعليمي ومناهج التعليم

انحدر المستوى التعليمي في الفترة التي ندرسها انحداراً خطيراً ، وساءت الحالة العلمية كثيراً، وكان ذلك بفعل عدة عوامل أسهمت في الواقع السيء الذي وصل إليه المستوى التعليمي في تلك الفترة ، ولم يكن ذلك الانحدار التعليمي مقصوراً على هذه الفترة التي ندرسها ، وإنما كان امتداداً لانحدار بدأ منذ أزمنة متطاولة شأنه كشأن بقية الانحرافات الأخرى فقد «بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ...... وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ....»(١).

وقد زاد انحطاط العلم في القرن العاشر والحادي عشر ودخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و«صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير» كما قال أحد العارفين بذاك القرن ...»(٢).

ومع ازدياد حدة الانحرافات التي أصابت الأمة من تصوف وإرجاء وترد في الشرك والبدع والخرافات وغير ذلك ، «وتحت تأثير ذلك كله فقد غفت الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت فترة قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر ، تقابل من تاريخ اوربا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر قرني الصعود الأوربي نحو السيطرة والتمكن ، والتقدم العلمي والحضاري والمادي ...»(٣).

فبالنسبة لمناهج التعليم «حدث تقلص ضخم ، أبعد بالتدريج ـ كل العلوم «الدنيوية» من معاهد العلم في ذات الوقت الذي اقتصرت فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير ، مع الفارق الكبير بين الأصالة التي كان عليها فكر القرن الخامس والتقليد الذي تلا ذلك من القرون ، وظل «يتحجر» قرناً بعد قرن!»(٤).

فالانحراف الذي طرأ على مناهج التعليم عند المسلمين كان من جهتين ، من جهة التقلص الذي حدث وذلك بإخراج العلوم الدنيوية من طب وهندسة وفلك وفيزياء وكيمياء إلى خارج المستوى

---

(١) خطط الشام ٣/٤٩ محمد كرد علي ، دار العلم للملايين، بيروت ط ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.
(٢) المصدر السابق ٣/٥٧.
(٣) واقعنا المعاصر ص ١٧٤.
(٤) المصدر السابق ص ١٧٤.

التعليمي لأسباب سوف نتطرق لها. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ما أصاب العلوم الدينية من جمود وانغلاق لأسباب أخرى سنتطرق لها أيضاً.

«لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية .... أنها تفتحت «للعلم» كله ، وأبدعت في العلم كله ، وكان العالم يكون عالمًا في العلوم الشرعية ، وعالمًا في ذات الوقت في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك. وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها ـ تلك التي تعلمت فيها أوربا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة ـ تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفريق ، وكانت العلوم «الدنيوية» من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية ، ومن هناك تعلمت أوربا المنهج التجريبي في البحث العلمي ، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتلمذ عليه في بدء نهضتها الحديثة.

ولكن المسلمين «الغافلين» طردوا تلك العلوم تدريجيًا من معاهدهم ليقتصروا على العلوم الشرعية ، مع ما في دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من «تخلف» عن الصورة التي ينبغي أن تكون الدراسة عليها ...»[(١)].

«وقد ضعف التفكير العلمي وتوقف المسلمون عن السير في كشف سنن الكون، وأعرضوا عن ذلك إعراضاً يكاد يكون تامًا ، فأهملت علوم الكون أو الطبيعة ، بل انتشرت الخرافات والأساطير ، وضعف التفكير في الأسباب ومعرفتها ، حتى إن الأمية انتشرت انتشاراً كبيراً بين المسلمين بعد أن كان الإسلام دافعًا إلى إزالتها ، وإلى نشر العلم والتعليم ، واكتشاف آيات الله في الكون ، وازدهار العلوم الكونية. ومال الناس ميلاً عظيمًا إلى ذكر الخوارق والكرامات تعظيمًا لمن يعتقدون بهم[(٢)].

ونتحدث الآن عن العلوم الدنيوية ففي أوائل الفترة التي ندرسها كانت أوربا تواصل صعودها السريع على أكتاف ما تتعلمه من علوم دنيوية (كونية) محاولة السيطرة على العالم الإسلامي الذي كان يتردى في دركات من الجهل والخرافة ، وقد أحس المسلمون بالخطر الأوربي القادم المتسلح بالعلوم الكونية الحديثة ، فوقف الكثير من المسلمين في وجه هذه العلوم الزاحفة ، ومنعوا من تعلمها بحجة أنها خرجت من بلاد الكفار التي لا يخرج منها إلا الكفر والضلال ، وقد ساعد على ذلك الجهل المتفشي في ديار الإسلام ، الذي جعل المسلمين ينفرون من هذه العلوم ، ويستبشعون أخذها عن غيرهم ، ويرون حرمة أخذها أو تعليمها ، وغفلوا عن «أن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[(٣)] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

(٢) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٤.

(٣) رواه «الترمذي» برقم ٢٦٨٧ كتاب العلم ، وقال : حديث غريب.

وهذا هو الموقف السلبي الذي وقفته كثير من بلاد المسلمين وهو «رفض العالم الإسلامي هذه الحضارة القادمة من بلاد الكفار ، وما جاءت به بتاتًا ، ووقوفها منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئًا ، ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئًا من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة»(١) .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى ذلك الموقف السلبي ما حدث في الهند مثلاً التي كانت واقعة تحت الاحتلال الإنجليزي ، حيث قامت «ضجة بين الأوساط الدينية في الهند ، لأن العلوم الوافدة من الغرب كانت لها ثقافتها وأفكارها التي تمثل الحياة المادية البحتة ، وإذا تعلمها طالب ناشىء أول مرة أصابته الحيرة ، ورسخت الأفكار الباطلة الملونة بزينة هذه الحياة الدنيا في ذهنه ، فالأفكار الغربية المادية وجدت عقلية ناشئة ساذجة خالية ، فتمكنت فيها وتغلبت عليها ، ولما شاهد العلماء أن هذه العلوم تفسد أخلاق الشباب المسلمين ، وتسوقهم إلى الخمر والقمار ، والفساد في العقائد ، قاطعوا هذا التعليم وكافحوا هذه الثقافة .... واعتزل المسلمون بصفة عامة ـ التعليم الجديد الأوربي ، فتأخروا في الحياة ، وتخلفوا اقتصاديًا واجتماعيًا ، أما الشعوب الأخرى في الهند فانها تقدمت في العلوم الحديثة ، ونالت نصيبًا من عزة وكرامة وبذخ وشرف في حياتها الاقتصادية والسياسية»(٢).

وهكذا زهد المسلمون في كل ما يأتيهم من الخارج ، ولم يفرقوا في ذلك بين خير وشر ، ونافع وضار. «وإذا كان أكثر المعاهد المصرية قد تأثرت بالآراء الغربية الحديثة فإن الكثرة الغالبة من علماء الأزهر ورجاله كانوا يفاخرون بأنهم بمعزل عن هذه التيارات الحديثة ، ويزعمون أن إصلاح الأزهر إفساد له وقضاء عليه(٣)، حتى أن الأمر بلغ بالمجاورين إلى أن رموا الشرطة بالحجارة وأكرهوهم على الانسحاب من الأزهر حينما أرادوا أن يدخلوه في ٧ يونيه سنة ١٨٩٦م للتحقق من تنفيذ بعض الاحتياطات الصحية التي اقتضاها انتشار الطاعون»(٤).

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٢ . انظر : مبحث الولاء والبراء في الباب الأول من هذه الرسالة ص٨٩.

(٢) العلامة «السيد عبد الحي الحسني» مؤرخ الهند ص ٢٨. د. «قدرة الله الحسني» الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣م. دار الشروق. جدة.

(٣) لم يكونوا يروا ذلك إصلاحًا وكانوا يرون أن الأزهر ليس بحاجة إلى مثل تلك الإصلاحات. والجدير بالذكر أن كثيراً من الحركات التي حاولت إصلاح الأزهر كانت مشوبة بالتيار التغريبي ومتأثرة بالهزيمة الروحية في ذلك الزمن أمام الغرب. وسيأتي مزيد من الحديث عن تلك القضية.

(٤) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٤٧ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر. دار ومطابع الشعب ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.

وقد أدى هذا الانغلاق أمام العلوم الحديثة إلى استنكار الأزهريين القول بأن الشمس تغرب على قوم لتطلع على آخرين»[١].

ولا نكاد نبالغ إذا قلنا أن الصوفية كانت من أعظم العوامل التي أدت إلى الاستهانة بالعلوم الدنيوية ثم إخراجها نهائياً. «فالصوفية التي فرقت بين الدنيا والآخرة ، واتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة تزكية الأرواح من أجل الآخرة ، وأهملت بالتالي عمارة الأرض ، على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها ، ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة ، واعتبرتها نافلة تستطيع الأمة أن تستغني عن أدائها بلا ضير»[٢].

ومما يذكر أن الشعراني وهو عملاق عصره في التصوف تتلمذ على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم النحو ... بل كان بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون[٣]. فلئن كانوا قد استهانوا بالعلوم الدينية واللغوية ، فمن باب أولى أن يستهينوا بالعلوم الدنيوية.

وهكذا خلت مناهج التعليم من هذه العلوم الدنيوية ، وأخرجت من معاهد العلم ، وأصبحت المعاهد التعليمية في طول بلاد الإسلام وعرضها نائية عن هذه العلوم. فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول كان مجافياً للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضة وفلك ونحوها ، حيث إن «منهاج الدراسة بالأزهر كان خلواً من علوم الدنيا ، تلك العلوم التي تفيد صاحبها في زراعة أو صناعة أو تجارة أو في غيرها من وسائل الحياة ، وكانت العناية فيه منصرفة إلى تحقيقات لفظية ليس لعامة الشعب فيها غناء»[٤].

ويذكر الجبرتي ان الوالي التركي «أحمد باشا» الذي ولي مصر سنة ١١٦١ هـ قال لشيخ الأزهر «عبد الله الشبراوي» كلاماً معناه : إني سمعت عن مصر أنها منبع الفضائل والعلوم ولكن وجدتها كما يقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» لأن «أحمد باشا» قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر في العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً فقال له الشيخ «الشبراوي» أن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض كعلم الحساب. ولأن هذه العلوم تحتاج إلى أدوات وآلات ودقة الرسم وأهل الأزهر فقراء[٥].

---

(١) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٢٣٨ الدكتور «ماجد عرسان الكيلاني». دار ابن كثير. «دمشق». «بيروت». الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٧٥ بل لم يتوقف الأمر عند اعتبارها نافلة ، بل لقد تعدى ذلك إلى تحريمها ومهاجمتها كما سنعرف ذلك.

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٤٧.

(٤) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ١٧.

(٥) عجائب الآثار ١٩٢/١ وانظر: تاريخ الإصلاح في الأزهر ص١٠ - ١٢ عبد المتعال الصعيدي مطبعة الاعتماد. «القاهرة».

فقد دل كلام الشيخ «الشبراوي» على بعض النظرة التي كان ينظرها شيوخ الأزهر وتلامذته إلى هذه العلوم وأنهم كانوا لا يتعلمون منها إلا مايساعدهم في حساب الفرائض لا غير ولا شك أن تلك النظرة الخاطئة كانت تدل على قصور في الوعي بشأن أهمية تلك العلوم .

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الشيخ «الشبراوي» عن الفقر الذي يعاني منه أهل الأزهر مما يجعلهم يعزفون لضيق ذات يدهم عن هذه العلوم التي تحتاج إلى المال لشراء الأدوات والآلات اللازمة لتعلمها والإفادة منها.

يقول «عبد المتعال الصعيدي»[1] معلقًا على هذه القصة : «وإن هذا الباشا ليذكر له بالفخار أنه كان أول من شعر بنقص التعليم بالأزهر ولا سيما أنه قد شعر بهذا في عصر خيم الجهل فيه على العقول ، ونام المسلمون فيه نومة أهل الكهف ، حتى صاروا لا يشعرون بنقصهم في العلوم ، ولا يدركون تأخرهم في التعليم ، ولا يقدرون عاقبة هذا الإهمال من ضياع بلادهم ، ووقوعها لقمة سائغة في يد أمم أوربا التي كانت قد قطعت شوطًا عظيمًا في نهضتها العلمية ، وتوشك أن تنقض على البلاد الإسلامية للاستيلاء عليها ، بعد أن وصلت بنهضتها العلمية إلى ما وصلت إليه من القوة ، ووصلت الأمم الإسلامية بتأخرها في العلم إلى ما وصلت إليه من الضعف.

وكذلك يحمد للشيخ «عبد الله الشبراوي» أنه اعترف بذلك النقص ، ولم يجادل في أمر العلوم الرياضية التي أخذ الباشا عليهم إهمالهم لها ، فهو في هذا خير من أولئك الذين جادلوا في أمرها بعده بنحو قرنين ، وثاروا عليها عند دخولها في الأزهر ، وعارضوها باسم الدين ، والدين براء مما يعارضون ......

وكانت فرصة صالحة لإصلاح الأزهر ، اتفق فيها الرئيس المدني والرئيس الديني على نقص التعليم فيه ، فلو تعاونا على إصلاحه لكان نجاحهما فيه مكفولاً ، ولأدركا الإصلاح قبل أن يفوت أوانه ، فينهض المسلمون قبل أن يأخذهم أعداؤهم في غفلتهم ، ويبتلعوهم لقمة سائغة بسبب جهلهم..»[2].

ومن العوامل التي أدت إلى الإعراض عن دراسة العلوم الدنيوية أيضًا ما كان «يرجع إلى قانون العرض والطلب فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيرًا. وقد كانت الوظائف المعروفة إذ ذاك وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضي ونائبه والمفتي والمحتسب والمدرس...»[3].

---

(١) الأعلام ١٤٨/٤.

(٢) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٣.

(٣) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٥.

وقد «أصاب الجمود التعليم في الجامع الأزهر وسائر المعاهد العلمية فأهمل تدريس العلوم الحديثة بالجامع الأزهر وأصبح الاهتمام منصباً على العلوم الدينية واللغوية...»(١).

وليت الأمر وقف عند الإعراض عن تلك العلوم وإهمالها أو الاستهانة بها ، بل لقد وصل الأمر إلى مهاجمتها ومحاربتها وتحريمها بعد أن استبعدت من الأزهر تماماً.

فحين أراد بعض المتصدرين للإصلاح في الأزهر إدخال العلوم الطبيعية والرياضية في الأزهر شعروا بما سيواجهونه في سبيل ذلك من سخط وإعراض «واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية في مسألة العلوم التي يجوز تدريسها بالجامع ، ولا تعتبر العناية بها في أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية. وكلفوا عالمًا تونسياً فاضلاً هو الأستاذ «محمد بيرم» أشهر علماء الزيتونة في عصره أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ «محمد الانباني» شيخ الجامع الأزهر يومذاك (١٣٠٥ هـ ـ ١٨٨٧ م) فكتب إليه بعد التمهيد «ما قولكم رضي الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ينبني عليه منها من زيادة القوة في الأمة بما تجاري به الأمم المعاصرة لها في كل ما يشمله الأمر بالاستعداد؟(٢) ......

وقد كان الشيخ «الانباني» يعلم مصدر الاستفتاء ، فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه. فكتب في جوابه :

«يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبًا كفائيًا كما يجب علم الطب لذلك كما أفاده «الغزالي» في مواضع من كتابه الاحياء. وما زاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة في القدر الواجب فتعلمه فضيلة (٣)....

---

(١) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٣.

(٢) يقول «الغزالي» رحمه الله : وأما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما. وهي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد. وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة. إحياء علوم الدين ٢٧/١.

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله : فأخذ علم الطب من كتبهم (يعني كتب الفلاسفة) مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسن. لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة ، بل هي مجرد انتفاع بآثارهم ، كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك. مجموع الفتاوي ١١٤/٤.

(٣) الأزهر. تاريخه وتطوره ص ٢٤٩. وانظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٩ ـ ٤٣.

وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر «الشافعي» صدرت الموافقة عليها من مفتي الديار المصرية ، وهو حنفي المذهب ، فقال : «إن ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا.....»(١).

وهذا الموقف من أغرب المواقف وآلمها على النفس ، فبعد أن كانت معاهد المسلمين وجامعاتهم تزخر بهذه العلوم التي كانت تلقى بين جنباتها كما ذكرنا ذلك سابقًا ، أبعدت هذه العلوم رويداً رويداً حتى جاء على الأمة الإسلامية يوم يستفتى فيه عن جواز تدريس هذه العلوم التي لم تكن غريبة على المعاهد الإسلامية في يوم من الأيام .

بل إن نفس الجامع الأزهر كانت تدرس فيه هذه العلوم إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري تقريبًا ، فالشيخ «أحمد الدمنهوري» (المتوفى سنة ١١٩٢هـ) (٢) شيخ الأزهر ذكر عن نفسه أنه قد درس كثيراً من المؤلفات في علوم الحساب والجبر والمقابلة والطب والفلك والهندسة والجغرافيا والأحياء والجيولوجيا(٣).

والشيخ «حسن الجبرتي» الذي عكف الوالي التركي «أحمد باشا» على مجالسته والاستفادة منه ، بعد أن دله الشيخ «الشبراوي» عليه كان عالمًا متبحراً في تلك العلوم(٤).

ولكن يبدو - والله أعلم - أنها لم تكن على المستوى العام ، وإنما يقوم بدراستها بعض النابغين من ذوي الهمم العالية. وعلى أي حال فإن ما كان يدرس من تلك العلوم لم يكن إلا ما درس في القرون السابقة ، لم يداخله تطوير ولا ابتكار.

ومع ذلك فلم يعمل بالفتوى المذكورة إلا بعد مضي تسع سنوات أخرى : ولهذا أيضًا دلالته(٥)

وهنا لا بد لنا من كلمة موجزة حول إصلاح الأزهر الذي شغل حيزًا لا بأس به من التفكير الإسلامي في العصر الحديث فلا بد قبل كل شيء أن نكون حذرين عند حديثنا عن إصلاح الأزهر ، بل وعما سمي بالإصلاح والحركات الإصلاحية بصورة عامة ، لأن هذا المجال أضحى معتركًا ضيقًا ،

---

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٥٠.

(٢) الأعلام ١٦٤/١ وقد ذكر «الزركلي» أن «الدمنهوري» له رسالتان في تلك العلوم. الأولى هي «عين الحياة في استنباط المياه» والثانية هي : «القول الصريح في علم التشريح». غير أن «الدمنهوري» بعد أن ساق المؤلفات في تلك العلوم التي تلقاها على مشايخه ، أعقبها بذكر المؤلفات التي قرأها بنفسه دون أن يكون قد أخذها على شيخ ، وذكر منها الرسالتين السابقتين. فيحتمل أن «الزركلي» قد أخطأ في نسبة الرسالتين إليه. انظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٠.

(٣) انظر أسماء هذه المؤلفات في : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) عجائب الآثار ١٩٢/١.

(٥) التصوف في مصر ابان العصر العثماني ص ٢٠٩.

اختلطت فيه الأمور ، فلم يعد يميز فيه بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف المصيب من المخطىء ولا يشك عاقل في أن الأزهر كان بحاجة إلى إصلاح شامل، ولكن المتأمل لحركة الإصلاح في الأزهر يرى بوضوح أن غالب من نادى بالإصلاح كان متأثراً بالحضارة الغربية ومشدوهاً بها. وعلى رأس هؤلاء «رفاعة الطهطاوي» و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» وغيرهم.

لقد كان كثير مما انتقده هؤلاء على الأزهر حقًا ، ولكن انتقادهم كان ممزوجًا بالنظرة الغربية والفلسفة الأوربية ولم يكن إسلاميًا صافيًا ، فكان حريًا ألا يقبل هذا الإصلاح لأول مرة . واصطدم دعاته بشيوخ الأزهر. وحدث صراع عنيف بين أنصار الإصلاح وكانوا قلة ، وبين جمهور الأزهريين شيوخًا وطلابًا(١)

فالشيخ «محمد عبده» الذي كان أكبر داعية إلى إصلاح الأزهر ، يخاطب من أنكر عليه حدته في دعوته وقال له إنه قد تعلم في الأزهر ووصل في العلم إلى منزلة عالية : إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر!! ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة!!(٢)

فالإصلاح الذي كان يدعو إليه «محمد عبده» كان إصلاحًا نابعًا من كره وغيظ شديدين للأزهر وأهله ، وليس له ما يبرره في نظرنا حتى ولو قسا عليه الأزهريون ، واشتطوا في الهجوم عليه. وقد طغى الصراع على الفريقين، حتى نسي أنصار الإصلاح ما يدعون إليه في خضم صراعهم ، وأصبح همهم مهاجمة من يسمونهم بالجامدين ، وإلصاق كل نقيصة بهم ، ونعي جمودهم وتخلفهم ورجعيتهم.

وكان « محمد عبده » يطلق على الأزهر بعض الألقاب الجارحة ، كالاصطبل والمارستان والمخروب(٣).

ومن أغرب الأمور أن جمهور الأزهريين الذين كانوا ناقمين على الشيخ «محمد عبده» الذي سفه أحلامهم وانتقصهم أيما انتقاص ، وعارضوا دعوته إلى الإصلاح معارضة شديدة ، انقلب خلفهم بعد ذلك إلى متعصبين شديدي التعصب للشيخ نفسه ، لا يقبلون بنقده أبداً. فهاجموه في البداية دون أن يقبلوا شيئًا من دعوته الإصلاحية ، وتولوه في النهاية ولاية لا تقبل طعنًا أو نقدًا. فكانوا مخطئين في

---

(١) انظر مراحل هذا الصراع في : تاريخ الإصلاح في الأزهر.

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ وقد أورث «محمد عبده» تلاميذه تلك الروح الناقمة التي تلتهب حقداً وكراهة للأزهر واقرأ ما كتبه تلميذه الشيخ «محمد رشيد رضا» عن الأزهر مما يشيع في نفس القارىء التقزز والنفور في تاريخ الأستاذ الإمام ٤٨١/١ مطبعة المنار . مصر . الطبعة الثانية ١٣٤٤هـ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ٤٩٥/١.

الحالين معًا. ولم يهيأ للأزهر إلى زمننا هذا مصلح صادق يقوم إصلاحه على منهج أهل السنة والجماعة.

ولم يكن الأمر مقتصراً على الأزهر فحسب، بل لقد كانت المعاهد الإسلامية الأخرى كذلك. فالزيتونة في تونس، والقرويين في فاس لم يعد لهذه العلوم وجود فيها، بعد أن كانت تدرس أزمنة بين جنباتها. «وانمحى أثرها في القرن التاسع عشر نظرًا إلى فقدان المدرسين الأكفاء، إذ عنوان المطامح آنذاك إنما كان علم الفقه»[١].

وحتى عندما أصدر «أحمد باي» الأول مرسومًا عام ١٨٤٢م يقضي بتنظيم التعليم في جامع الزيتونة وفق خطة معينة، كانت تلك الخطة ناقصة من حيث العلوم العصرية التي أدخلت على نطاق ضيق لا يتناسب مع ما تقضيه مستلزمات العصر، إذ على الرغم من أنه أدخل على برنامج الجامع تعليم شيء من الحساب والجغرافية والهندسة وغيرها من العلوم، إلا أن ذلك بقي ضمن إطار محدود ويكاد يكون غير إجباري[٢].

ويذكر الشيخ «رشيد رضا» أن الشيخ «حسين الجسر الأزهري» (المتوفى سنة ١٣٢٧هـ)[٣] قد أسس مدرسة تسمى «المدرسة الوطنية الإسلامية» وأدخل فيها بعض العلوم العصرية، ولكن الحكومة العثمانية لم تقبل أن تعدها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية، فكان ذلك سببًا في إلغائها[٤]. وفي ذلك دلالة على التدهور العلمي، والنظرة المشوهة إلى تلك العلوم في هذه الفترة.

ويقول الشيخ «محمد أديب الحصني» متحدثًا عن العلوم التي كانت رائجة في بلاد الشام ثم تلاشت: «ومن العلوم التي راجت في تلك العصور الرياضيات كالحساب والجغرافيا والهندسة والفلك وما يتفرع عنه ....، وقد اضمحلت هذه العلوم كلها وفي تاريخ موتها تفاوت»[٥].

وهكذا أبعدت هذه العلوم من حيز التعليم وعورضت معارضة شديدة، بل لقد أصبحت في عقول الناس وأذهانهم مرتبطة تمامًا بالكفر والضلال، فما ظنك بأناس سدوا على أنفسهم أبوابًا من العلم والقوة، رأوا أن في فتحها وتعلمها شرًا عظيمًا وبلاء خطيرًا - إلا وقوع الانحطاط والتخلف في حياتهم.

---

(١) التعليم الإسلامي وعلاقته بتطور المجتمع ص ٢٨١، د. «علي الشنوفي». من ضمن «الدين والمجتمع»، وهو مرجع سبق ذكره.

(٢) تونس العربية ص ٢٠٢ «إحسان حقي».

(٣) الأعلام ٢/٢٥٨.

(٤) السيد «رشيد رضا» أو اخاء أربعين سنة ص ٣٦.

(٥) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٣٠١.

وحتى العلماء المجتهدون الذين بلغوا منزلة عظيمة في العلم والدين والبصيرة كان لهذا الصد العنيف تجاه هذه العلوم من قبل جمهور العلماء أثر في عدم قدرتهم على مواجهة الناس بضرورة دراستهم لهذه العلوم. فهذا الامام «الشوكاني» يرسم منهاجاً لطلبة العلم بكافة مستوياتهم ، ويحدد المواد والعلوم لكل مستوى من حيث علوم الدين واللغة على اختلافها ثم يقول : «ثم لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصقل الأفكار ويصفى القرائح ويزيد القلب سروراً والنفس انشراحاً كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب ، وبالجملة فالعلم بكل فن خير من الجهل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ، فإنها كما قدمنا لك شعبة من التقليد. وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما قد يكون لديك من العلم ، غير محكوم عليك، واختر لنفسك ما يحلو ، وليس يخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وإنما يخشى على من كان غير ثابت القدم في علوم الكتاب والسنة ، فإنه ربما يتزلزل وتحول ثقته فإذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت وتبحر في الدقائق ما استطعت ، وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا ان سهلاً ذم جهلاً   علوماً ليس يعرفهن سهل
علوماً لو دراها ما تلاها   ولكن الرضى بالجهل سهل

واني لأعجب من رجل يدعى الإنصاف والمحبة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه ..... ولقد وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاً عظيماً وفائدة جليلة في دفع المبطلين والمتعصبين»[(١)].

ويفهم من هذا النص الذي أوردناه للإمام «الشوكاني» التردي العميق الذي منيت به هذه العلوم في تلك الفترة، ونرى ذلك في كلام «الشوكاني» الذي اتخذ من اللين والهدوء والتدرج أسلوباً ، حتى لا ينقض عليه الجامدون ، ويتألب عليه الجاهلون. فدخل عليهم من باب الاستحياء والحذر.

ولقد كان لهذا الموقف السلبي الذي وقفه غالب علماء المسلمين وفقهائهم من هذه العلوم التجريبية آثار وخيمة بعيدة المدى حيث أضحى موقفهم ضعيفاً وحرجاً أمام حركات التغريب وموجات التحرر والعلمانية التي غزت العالم الإسلامي في العصر الحديث وكان موقفهم من دعاة التغريب أن «أعلنوها عليهم حرباً شعواء عملت في أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح والتجريح .. ولكنهم مع ذلك عجزوا

---

(١) أدب الطلب ص ١٢٤.

عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذي يفهمه الجيل الجديد ، فظلوا خارج ميدان المعركة، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التي اكتشفها العقل الحديث : فكأن مهمتهم الكبرى هي أن يحبسوا المسلمين في نطاق أسفارهم الموروثة ، دون أن يسمحوا لهم بالقاء نظرة إلى خارجها ....

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثر كبير في نفرة الشباب الجديد من الإسلام إذ اعتبروهم صورة من الدين الذي يدعون إليه فهو إذن دين بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث. يستنكر كل تقدم عقلي أحرزه الإنسان في ظل الحضارة الحديثة ، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الجدل!»[١].

ومما لا شك فيه أن ذلك الموقف السلبي قد هيأ تربة خصبة لبذور العلمانية والتغريب حيث بدا الانقسام واضحاً بين جيلين كل منهما على طرف نقيض حيث «جاءت النتائج الخطرة التي تولدت من هذا الفصل الجديد بين الجيلين ، إذ انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ليردد أقوال السابقين ، ويحذر من حوله من أباطيل اللاحقين ... على حين انقطع الآخر عن سبيله بل عن الدين كله ، ليتولى شئون الدنيا كلها ، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأي سبب[٢] . «وجاءت نتيجة سيئة ... هي أن أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جمود الفقهاء ناشىء عن جمود الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم في الدين ، وقل احترامهم للمتدينين»[٣].

على أن بعض الباحثين يحمل الاستعمار الأوربي بعض المسؤولية في عزوف المسلمين عن هذه العلوم وحرمانهم منها في تلك الفترة حيث يقول : «أن الضعف العلمي الذي بدأ في عهود الأتراك وصل غايته في عهد الاستعمار الأوربي للدول الإسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرمهم التفكير ، ولا يمكن أن ترجى نهضة علمية في جو من الإرهاب والقيود والعبودية ، وفي جو من الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التي بذرها الغرب في الدول الإسلامية التي أخضعها إليه...»[٤].

ولكن هذا لا يعفي المسلمين مهما كان الأمر من تحمل المسؤولية كاملة فيما وقع من إهمال العلوم الكونية حيث تهاونوا فيها مما ترتب على ذلك آثار عظيمة من التخلف والضعف وكان سبباً

---

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠.

(٣) المجتمع الإسلامي ص ٢٠٩ د. «أحمد شلبي». مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة ١٩٦٧م.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٦.

جوهرياً في رواج دعوات التغريب والعلمانية في الأمة الإسلامية. وإن ما وقع في الأمة من إعراض عن دراسة هذه العلوم في القرون المتأخرة ليس له أي تبرير على الإطلاق ، وهو موقف دل على جهل عظيم بالدين والتاريخ .

فإن الدين هو «الذي دفع المسلمين إلى طلب العلم ، والتعمق فيه ، والبحث الجاد في مجالاته المختلفة .. وإن روح البحث العلمي سواء النظري أو التجريبي ، لم تكن طبيعة في هذه الأمة قبل إسلامها ، إنما اكتسبتها الأمه من الإسلام حينما آمنت به ومارسته في عالم الواقع.

فقد بدأ الوحي - أول ما بدأ - بالتوجيه إلى القراءة. ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق ١- ٥]. وتوالت الآيات تطلب من المسلمين التفكر والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وتخبرهم أن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، وأن عليه أن يبذل جهده في التعلم لتحقيق ذلك التسخير في عالم الواقع . وأن القوة مطلب من مطالب هذه الأمة من أجل المحافظة على عقيدتها وكيانها ، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين ، والقوة لا تتأتى بغير العلم.

وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبي في البحث العلمي على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقًا ، وبالمنهج التجريبي تقدمت العلوم تقدماً هائلاً ، ووضعت اللبنات التي يقوم عليها صرح التقدم العلمي في الوقت الحاضر»(١).

وإن التاريخ لهو خير شاهد لاهتمام المسلمين في القرون المتقدمة بهذه العلوم. وإن حواضر الإسلام الكبرى كـ«بغداد» و«دمشق» و«فاس» و«القيروان» و«القاهرة» و«قرطبة» و«غرناطة» ، وغيرها لشاهدة بأن هذه العلوم كانت رائجة جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية ، وأن الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي وفي الأندلس لم تكن سوى صدى عظيماً للاحتفاء بهذه العلوم. ولكن الانحرافات العقدية والدينية التي قدمنا الحديث عنها جعلت المسلمين مع توالي القرون يهملونها شيئًا فشيئًا ، حتى وصل بهم الأمر إلى تحريمها ، فبرزت الآثار وخيمة جداً.

أما العلوم الدينية التي اقتصر عليها المسلمون في تلك الفترة فقد أصابتها الرتابة ، وأصبحت إلى حد كبير لا تتلائم مع تغير الزمن ، وتجدد الأحوال وتطورها ، لأنها وقفت عند صورة معينة لا تتخطاها.

وقد تأثرت هي الأخرى بروح «التقلص» العامة التي غشت العالم الإسلامي من أكثر من وجه.

---

(١) العلمانيون والإسلام ص ٥٠ الشيخ «محمد قطب». دار الوطن للنشر. «الرياض» الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

فمن ناحية قل الاقبال على العلم عند الناس فتفشت الأمية والجهل في الأمة ، بنفس المقدار الذي كانت أوربا تزيل به أميتها وتفتح المدارس لنشر العلم!.

ومن ناحية أخرى « جمدت العلوم الشرعية على صورتها التي كانت تدرس بها قبل خمسة قرون على الأقل بما كان قد دخل فيها من غزو فكري إغريقي ، ومن «علم كلام» لا يغني ولا ينفع ، فوق تحويله دراسة العقيدة إلى معاظلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي وتحيلها إلى «قضايا» فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية! وفوق ذلك كله فقد تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين . يتعالم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي ، ولكنه لا يفكر لنفسه ولا يفكر بنفسه ، ففقد «العلماء» أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين[١].

يقول الدكتور «جمال الدين الشيال» (المتوفى سنة ١٣٨٧هـ)[٢] متحدثًا عن عيوب التعليم في تلك الفترة : «ومنها .. جمود الدراسات وتأخرها ، بحيث أصبح المدرسون يرددون ما قاله السابقون ، ويدرسون المتون والكتب القديمة دون أن يؤلفوا أو يكتبوا جديداً ، فانعدم الابتكار ، وأثر هذا بالتالي في الطلاب ، فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة ، ويعتمدون على الاستذكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم.

ونستطيع أن نتبين من تراجم شيوخ هذا العصر وعلمائه أن بعضهم كان غزير الإنتاج ، فكم من عالم أنتج العشرات من الكتب والرسائل ، ولكننا لا نستطيع أن نجد من بينها بحثًا له قيمة أو كتابًا يضيف إلى العلم جديداً ، أو رسالة فيها شيء من الابتكار أو أصالة الفكر ، وإنما كان أقصى ما يفعله الواحد منهم أن يكتب شرحًا لمتن أو يضيف حاشية على شرح..»[٣].

ومن أهم أوجه النقد التي صوبت إلى مناهج التعليم في ذلك الوقت أنها لا تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية ، كما يقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» الذي يراها فقط «تكون ثقافة لفظية ، يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العميقة طوال سني الدراسة»[٤].

وقد أصيبت العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية ، ومن هذه العوامل :

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٥.

(٢) الأعلام ٢/١٣٥.

(٣) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي ص ١١ المطبعة الكمالية ـ ١٩٥٨م.

(٤) «ابن باديس» حياته وآثاره ١/١٠٨.

١ ـ الاهتمام بالمختصرات :

ونعني بها ما قام به العلماء من اختصار للمؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم ، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم بسبب الاعتماد على الحفظ والتركيز عليه.

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم ، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة ، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة ، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها[(١)] .... يقول الشيخ «محمد بن الحسن الحجوي» تحت عنوان «غوائل الاختصار وتاريخ ابتدائه» :

«لما ألفت المتقدمون دواوين كباراً كـ « المدونة » و« الموازية » و« الوضحة » وأمثالها ، عسر على المتأخرين حفظها لبرودة وقعت في الهمم ، فقام أهل القرن الرابع باختصارها ، فأول من وقفت عليه اختصر «المدونة» «فضل بن سلمة الجهني الأندلسي» (المتوفى سنة ٣١٩ هـ) ... كما اختصرها «ابن أبي زيد» في «القيروان» ، ثم جاء «البرادعي» وألف «التهذيب» اختصر مختصر «ابن أبي زيد» ، واتقن ترتيبه ، واشتهر كثيراً حتى صار من اصطلاحهم إطلاق لفظ «المدونة» عليه ، ثم جاء «أبو عمر ابن الحاجب» واختصر تهذيب البرادعي في أواسط السابع ، ثم جاء «خليل» في أواسط الثامن واختصره. وهناك بلغ الاختصار غايته ، لأن مختصر «خليل» مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرات ، وان أخل بالفصاحة وكاد جل عبارته أن يكون لغزاً ....»[(٢)].

ثم يذكر أن اللغة تحتوي على مترادفات متفاوتة المعنى وفيها المشترك والتراكيب ذات الوجهين فأصبحت الجملة الواحدة تحتمل احتمالات ، فلما اختصروا أحالوا أشياء عما قصد بها ، وتغيرت مسائل عن موضعها ، ثم يذكر انتقاد الشراح على هذه المختصرات ووقوعهم في الغلط نفسه «باختصار بعضهم لبعض ومن هذا ألفت الحواشي على هذه الشروح لإصلاح الأغلاط فحصل الطول وضاع الفقه الحقيقي ، كما ضاع جل وقت الدرس والمطالعة في حل المقفل وبيان المجمل[(٣)].

ويتابع «الحجوي» حديثه قائلاً: ومنها (أي من غوائل الاختصار) أنهم لما أغرقوا في الاختصار، صار لفظ المتن مغلقاً لا يفهم إلا بواسطة الشراح ، أو الشروح والحواشي ففات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار وهو جمع الأسفار في سفر واحد ، وتقريب المسافة وتخفيف المشاق وتكثير العلم

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر. ص ٥٦ .

(٢) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢/٢٩٨ وخليل صاحب المختصر هو «ابن اسحاق الجندي» ، من فقهاء المالكية بمصر توفي سنة ٧٧٦هـ الأعلام ٢/٣١٥.

(٣) المصدر السابق ٢/٢٩٨.

وتقليل الزمن ، بل انعكس الأمر ، إذ كثرت المشاق في فتح الأغلاق ، وضاع الزمن من غير ثمن. فإذا «ابن عرفة» ألف مختصره مسابقًا «ابن الحاجب» و«خليلاً» في مضمار الاختصار ، ففاتهما في الإغراق في الاستغلاق.

ولما كان يدرس هو فيه تعريف الإجارة وهو قوله : بيع منفعة ما أمكن نقله غير سفينة ولا حيوان لا يعقل بعوض غير ناشىء عنها بعضه يتبعض بتبعيضها . وأورد عليه بعض تلاميذه أن زيادة لفظ «بعض» تنافي الاختصار ، فما وجهه؟ فتوقف يومين وهو يتضرع إلى الله في فهمها وأجاب في اليوم الثاني بأنه لو أسقطها لخرج النكاح المجعول صداقه منفعة ما يمكن نقله ، وناقشه تلميذه «الوانوغي» وغيره بما يطول جلبه.

ثم يقول بعد ذلك : فتأمل وانظر أفكار الشيخ والتلاميذ التي اشتغلت هذا الزمن الكثير في حل مشكلة عويصة وهي إقحام لفظ واحد لا أهمية له تفريعًا ولا تأصيلاً يومين بل وبعده اشتغل غيره أيامًا ولا زلنا نشتغل كذلك ، فذلك دليل على أن الوقت ليس له عندهم ثمن[١].

ثم يبين ما وقع من التطويل العظيم فيقول : «وأما من حيث المواد وتقليل الأسفار ، فقد وقع لهم غلط فيما أملوه وصرنا من جمع القلة إلى الكثرة وذلك أن «المدونة» مثلاً فيها نحو ثلاثة أسفار ضخام وهي مفهومة بنفسها لا تحتاج لشرح في غالب مواضعها ، لكن «خليل» لا يمكننا أن نفهمه ونثق بما فهمنا منه إلا بستة أسفار «للخرشي» ، وثمانية «للزرقاني» ، وثمانية «للرهوي» ، الجميع اثنان وعشرون سفرًا مع طول الزمن المتضاعف في الدروس والمطالعة في تفهم العبارات المغلقة فلم يحصل المقصود من الاختصار ، بل انعكس الأمر ، وأصبحنا في التطويل ، فأصبح علم الفقه يستغرق عمر الطالب والمدرس ، لا يبقى معه فراغ لعلم غيره لمن يريد إتقانه وتوقي الغلط فيه ، والطامة الكبرى هي عدم الوثوق بما فهمناه ، لأن الاختصار تذهب عنه متانة الصراحة وتأتي مرونة الإجمال والإبهام والإيهام حتى صار يضرب المثل لكل عبارة إجمالية تحتمل احتمالات ، فيقال : عبارة فقهية أو عدلية. وقد ختم المختصر بعض أشياخنا تدريسًا في نحو أربعين سنة ومع هذا فإنما يحرر الفروع ويسردها مسلمة ، وأما الاطلاع على أصولها من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، وعلة الحكم التي لأجلها شرع، وفهم أسرار الفقه ، وما هناك من أفكار السلف وكيفية استنباطهم ومداركهم ، فكل ذلك فاتنا بفوات كتب الأقدمين...» [٢].

---

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٠.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٠١.

ثم يقول متعجباً : «ومن الغريب في أحوال القرون الأخيرة أن النحو الذي لا تدعو ضرورة لإقامة أدلة على قواعده ، افتعلوا له أدلة فضخموه وصعبوه ، والفقه الذي يتأكد معرفة أدلته تركوها وضخموه بكثرة الاختصار ، وكثرة المسائل النادرة وإن إفناء العمر في المسائل النادرة التي تمضي الأعمار ولا تقع واحدة منها قليل الجدوى ، وهي غالب ما زاده المختصر على «المدونة» على أن في «المدونة» من المسائل بل الأبواب النادرة الوقوع كثير وغير خفي أن الاشتغال في دراستها لمن ليس بحافظ ولا يبقى على باله منها إلا القليل ضياع للعمر ، فطلاب الفقه محتاجون إلى كتاب بين الصراحة واضح لا يحتاج إلى شرح ، جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون النادرة أو المستحيلة ، فبهذا تكون الدراسة والتعلم ، وهذا الذي يفيد المبتدئين بل والمتوسطين ، وأن كثيراً من الناس تراهم يحفظون المختصر عن ظاهر قلب وليسوا فقهاء ، بل إذا احتاجوا في العبادة لمسألة راجعوا الشراح أو الفقهاء لعدم فهم ألفاظه إلا بشرح في كثير من أبوابه ......»(١).

ثم يبين المؤلف أن الفتور الذي أصاب الأمم الإسلامية عموماً حتى في العلوم اللغوية والدينية ، كان سببه الوحيد «هو الاختصار والتواليف التي لم تبق صالحة للتعليم ، ولا مناسبة لروح العصر.

والواقع في الفقه هو الواقع في النحو والصرف والبيان والأصول ، حتى إن صاحب «جمع الجوامع» لتمكن فكرة الاختصار منه ادعى في آخره استحالة اختصاره (٢). وكل العلوم وقع فيها ذلك..»(٣).

ويقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» ناقداً للطريقة التقليدية في تدريس الفقه : «واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها»(٤).

ومن هنا يمكننا القول بأن الاختصار كان عاملاً من عوامل الجمود والضعف الذي أصاب العلوم الإسلامية ومناهج التعليم حيث استمال إلى غاية يتسابق إليها العلماء وطلبة العلم كما عرفنا ذلك.

ويذكر الامام «الشوكاني» اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي

---

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٢.

(٢) حيث أصبح الاختصار والاستغراق فيه هو الغاية عندهم وفيه يتسابقون وكأن أفقههم هو من لم يترك لغيره مجالاً لاختصار ما قام باختصاره. ومن هنا يمكننا أن نطلق على تلك الانكبابة الغريبة على الاختصار بـ «موضة الاختصار» إن صح التعبير.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٠٤.

(٤) ابن باديس ، حياته وآثاره ١/١٠٨ .

على ذلك فيقول : «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه ، وزهدوا فيه زهداً شديداً»(١).

٢ ـ الشروح والحواشي والتقريرات :

بعد أن ألفت المختصرات والمتون وبولغ في اختصارها وتعقيدها احتيج إلى الشروح والحواشي والتقريرات التي لم تسلم هي ذاتها من التعقيد والغموض فضاع العلم بذلك وسط هذا الخضم الهائل من المؤلفات. وكان «أكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعاليق وشروح الشروح ونحوها. ويصح أن يسمى هذا العصر «عصر الشروح والحواشي»(٢).

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغصت بالحواشي والتقريرات والتلخيصات والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبىء عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه(٣).

وكانت الهمم والعزائم عند الشيوخ والتلاميذ تتجه إلى حل ألفاظ الكتب من شروح وحواشٍ وتقريرات وقد كانت «الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هي العلم كله. والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيباً على من دخل الأزهر أو عالج كتبه ، أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله (في بعض الأحيان) فإذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن فهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبت إلى الحاشية والتقرير قابلت ألفاظاً ومعميات»(٤).

ويضرب أحد الباحثين على ذلك مثلاً بـ : «متن المنهاج «للنووي» وبشرحه تحفة المحتاج وحاشية «الشرنواني» على الشرح عند قوله بسم الله الرحمن الرحيم ويذكر كلام الشارح رحمه الله في لفظ (باسم) ثم يذكر أن «الشرنواني» علق على كلمة من كلمات «ابن حجر» وان هذا التعليق قد بلغ ثلاث صفحات من الحجم الكبير»(٥).

---

(١) أدب الطلب ص ٥٩.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٢٧٣ «جرجي زيدان». مطبعة الهلال ط ١٩٣١.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٨.

(٤) المجتمع الإسلامي ص ٢٦١ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٦١.

فكان الحفظ للمتون من غير فهم والعكوف على الحواشي والشروح والتقريرات والتعليقات يزيد في اضطراب عقول الطلاب هذا إذا وصلوا إليها[(١)].

«ويصف أحد علماء الأزهر هذه الحال بقوله : ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف وشرح ، وشرح الشرح ، وشرح شرح الشرح، وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعاني الأصلية واضطربت المباحث واختلت التراكيب وتعقدت العبارات واختفى مراد المصنف»[(٢)].

ويقول الإمام «الشوكاني» ـ رحمه الله ـ الذي درس ودرّس الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها : «مع أن فيها جميعها ما لا تدعو إليه حاجة بل غالبها كذلك ولا سيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل»[(٣)].

ثم يبين ـ رحمه الله ـ الآثار السيئة المترتبة على العكوف على هذه الشروح والحواشي وأن سبب ذلك أنه «جاء في المتأخرين من اشتغل بعلوم أخرى خارجة عن العلوم الشرعية ، ثم استعملها في العلوم الشرعية ، فجاء من بعده ، فظن أنه من علوم الشريعة ، فبعدت عليه المسافة ، وطالت عليه الطرق ، فربما بات دون المنزل ، ولم يبلغ إلى مقصده ، فإن وصل فبذهن كليل وفهم عليل ؛ لأنه قد استفرغ قوته في مقدماته ، وهذا مشاهد معلوم ، فان غالب طلبة علوم الاجتهاد تنقضي أعمارهم في تحقيق الآلات وتدقيقها ، ومنهم من لا يفتح كتاباً من كتب السنة ولا سفراً من أسفار التفسير ، فحال هذا كحال من حصل الكاغد والحبر ، وبرى أقلامه ، ولاك داوته ، ولم يكتب حرفًا ، فلم يفعل المقصود......»[(٤)].

وقد كان علماء تلك الفترة وطلابها لا يرفعون رأساً بغير تلك الحواشي والشروح ولهذا كانوا ينتقدون من يخرج عن حيزها كما انتقد بعض علماء مصر الشيخ «طاهر الجزائري»[(٥)] في طريقة

---

(١) «جمال الدين القاسمي» وعصره ص ١٦

(٢) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٤.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٨٦

(٤) المصدر السابق ص ٨٨.

(٥) هو الشيخ «طاهر الجزائري» الأصل الدمشقي موطنًا ، عالم باللغة والأدب والمخطوطات ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وله مؤلفات كثيرة ، توفي سنة ١٣٣٨هـ . الأعلام ٢٢٢/٣.

تأليفه. كما ذكر الشيخ «محمد سعيد الباني»[١] وقالوا : «ما هذه المؤلفات الصغيرة أين المجلدات وأين الشروح والحواشي» فرد «الباني» عليهم : «بأن هذه الحواشي التي ينوهون بقدرها ما زادت العلم إلا نقصاً وتقهقراً إلى ما وراء لحيلولتها بين ذهن المتعلم القاصر الفهم وبين قواعد العلم السمحة وأنت ترى أكثر أسفار المتأخرين ومجامعهم الضخمة خالية من دواعي التأليف وإضاعة الوقت بالمؤلفات الفارغة. لذا ترى بعض المؤلفين مثلاً يتناولون كتاباً قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس ألفاظ الشراح السالفين بدون إدخال إصلاح أو تجديد واختراع في الأسلوب فيزيدونها بلة على ذهن الطالب وإني انتحل المعذرة لهؤلاء لأن روح زمانهم اقتضت ذلك ولكل زمان روح جديدة وأما اليوم فلا عذر ولا اعتذار»[٢].

وبهذا اتسع الأمر و«كثر التدوين وتفرع فوضعت الكتب واختصرت وشرحت ووضعت الحواشي واشتغل الناس بها ، وكان ذلك على حساب الاشتغال بالكتاب والسنة ، وقد أضر ذلك كثيراً وقد عقد «ابن خلدون» فصلاً في مقدمته عنون له بقوله : «فصل في أن كثرة التآليف في العلوم عائقة عن التحصيل» وقال في هذا الفصل : اعلم أنه مما أضر الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته : كثرة التآليف ، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ولا بد دون رتبة التحصيل......»[٣].

وبهذا كانت هذه المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة ، ولا يعني هذا أنه لم يوجد في هذه المؤلفات بعض الحواشي والشروح المفيدة ، ولكنها كانت بجانب غيرها لا تكاد تذكر.

ولو ألقينا نظرة إلى مناهج التعليم الدينية في تلك الفترة لوجدنا أنها وللأسف الشديد كانت بعيدة ، كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة ذلك المنهج الذي يتمثل به الإسلام في واقع الحياة. وكانت المعاهد الإسلامية كلها تقريباً غريبة عن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه.

---

(١) أديب وعالم دمشقي ، من المناهضين للترك ، تولى الإفتاء في بعض أقضية «دمشق». له كتاب «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» توفي سنة ١٣٥١هـ . الأعلام ٦/١٤٣.

(٢) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٧٣٩.

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٥٠ «د.عمر الأشقر». مكتبة الفلاح. الكويت. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

فالعقيدة والتوحيد تدرسان من كتب المتكلمين مثل : أم البراهين للسنوسي ، وجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ، والعقائد النسفية للنسفي ، والمقاصد لسعد الدين التفتازاني ، والمواقف لعبد الرحمن العضد. وغير ذلك من كتب علم الكلام التي لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضياعاً ، «وفوق ذلك تحويلها دراسة العقيدة إلى معاظلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي إلى قضايا فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية»[١]. كما سبق وذكرنا .

يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام :

«ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات ، ولكني لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بال ، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام ......»[٢].

وقد هيمن علم الكلام على بلاد الإسلام شرقاً وغرباً إلا ما رحم الله ، وعكف عليه العلماء والطلاب بالدراسة والاهتمام[٣]. وحتى العلماء الذين لم يكونوا يؤمنون بجدواه ونفعه لم يكن لهم بد من دراسته وتدريسه نظراً لوقوع العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه تحت هيمنة ذلك العلم ورضوخه له أزمنة طويلة.

فالإمام «الشوكاني» في بلاد اليمن يتحدث عما ينبغي لطلبة العلم الطالبين لنيل رتبة الاجتهاد وهم ما عناهم بالطبقة الأولى أن يدرسوه ويتعلموه فيقول : «ثم ينبغي له (لطالب العلم من تلك الطبقة) بعد إتقان فن أصول الفقه وإن لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته أن يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين[٤] ، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ومن مؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب فإنه إذا فعل كل هذه عرف الاعتقادات كما ينبغي وأنصف كل فرقة بالترجيح ، أو التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد على حقيقة. ومن أحسن مؤلفات المعتزلة المجتبى ومن أحسن مؤلفات متأخري الأشعرية المواقف العضدية وشرحها للشريف والمقاصد السعدية وشرحها له ...»[٥].

وإذا كان الامام «الشوكاني» يوصي طالب العلم ومريد الاجتهاد بدراسة هذه الكتب للمتكلمين

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٦.

(٢) المجتمع الإسلامي ص ٢٥٨.

(٣) انظر : مبحث علم الكلام والفلسفة في الباب الأول من هذه الرسالة ص

(٤) وهل ضاع الدين أو كاد إلا حين صار ذلك الكلام الضار أصولاً للدين يعكف العلماء على تدريسه ، والطلاب على دراسته.

(٥) أدب الطلب ص ١١٥.

الحائدين عن طريق أهل السنة والجماعة فإنه كان يدرس للطلبة بعضاً منها حيث يقول عن نفسه : «وكنت أدرس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً ...... منها ما هو في الأصول كالعضد وحواشيه والغاية وحاشيتها ..»(١).

واننا لنستغرب مثل ذلك على الإمام «الشوكاني» ، ولا يمكننا أن نرى إلا أن البيئة الكلامية التي نشأ عليها في اليمن(٢) كانت هي المؤثرة على منهجه الذي سار عليه ورغب من طلبة العلم أن يسيروا عليه أيضاً ، ومع إيمانه بمخالفتها للحق إلا أنه قد حيل بينه وبين أن يفلت من أغلالها .

ويحسن بنا ان ننقل شيئاً من كلامه رحمه الله في رحلته مع علم الكلام وكتب المتكلمين فبعد أن بين لطالب العلم ما ينبغي له أن يطالعه ويعكف عليه من مؤلفات علم الكلام قال : «وأني أقول بعد هذا انه لا ينبغي لعالم ان يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة ، وإبراز الصفات كما جاءت ......»(٣) .

ثم يصف رحلته الحائرة مع علم الكلام ، حيث يقول : « واعلم أني عند الاشتغال بعلم الكلام وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزدد بها إلا حيرة ، ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات خزعبلات فقلت مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم :

وغاية ما حصلته من مباحثي ومن نظري من بعد طول التدبر

هو الوقف ما بين الطريقين حائراً فما علم من لم يلق غير التحير

على أنني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسي بدون التبحر

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حالق ، وطرحتها خلف الحائط ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنة المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم ، السالكين مسالكهم ، فطاحت الحيرة ، وانجابت ظلمة العماية ، وانقشعت وانكشفت ستور الغواية ، ولله الحمد ، على أني ولله الشكر لم أشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة ، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله مبنية على غير أساس(٤) رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع ، ويدمغ زائفها من أنوار الكتاب والسنة ، ولكني كنت أقدر في نفسي أنه لو لم يكن لدى إلا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ إلا حيرة، ولا أمشي إلا في

---

(١) البدر الطالع ١/٤٦٤.

(٢) لأن الزيدية تبع للمعتزلة في علم الكلام . انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ١/٥٠.

(٣) أدب الطلب ص ١١٣.

(٤) وما أكثر مسائل علم الكلام التي لم تبن على أي أساس إلا الخرص والتخمين.

ظلمة ، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة ، وفي دعة من تلك الخزعبلات والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان»[١].

وإذا كان هذا هو حال علم الكلام ومقالات المتكلمين وما تسببه من حيرة وضلال فكيف يجعلها «الشوكاني» من المناهج التي ينبغي على طالب العلم أن يتعلمها. وأين كتب السلف الصالح في ذلك المجال. أين كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم» وغيرهما ممن أصلوا عقيدة أهل السنة والجماعة في مؤلفات كثيرة ، و«الشوكاني» من الذين يعلمون ذلك.

هذه العلوم التي تسبب الحيرة والظلمة كان لها كامل الهيمنة على ديار الإسلام ومعاهد العلم وبدلاً من أن يلقى بتلك العلوم جملة ، وتعزل جانباً عن العقيدة الإسلامية الخالصة ، وتدرس دراسة تاريخية بحتة ، لبيان زوايا الانحراف فيها ، وأسباب هذا الانحراف لتجنب كل ذلك كما يقول أحد الدعاة[٢] ـ وهذا على أحسن حال ـ بدلاً من هذا فقد أضحت هي العلوم المقدمة وأصول الدين التي يجب أن يتعلمها الطلاب ، ويعلمها الشيوخ والعلماء لتلاميذهم. وفوق ذلك فهي المصادر التي يجب أن تؤخذ العقيدة عنها.

«لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الركام الذي كان ينوء بأفكارها وحياتها ، ويثقلها ، ومن التيه الذي كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه ، ولينشىء لها تصوراً خاصاً متميزاً متفرداً ، وحياة أخرى تسير وفق منهج الله القويم . فإذا البشرية كلها اليوم ترتكس إلى التية وإلى الركام الكريه!.

ولقد جاء الإسلام لينشىء أمة ، يسلمها قيادة البشرية ، لتنأى بها عن التيه وعن الركام فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة ، وتترك منهج القيادة ، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه ، وفي الركام الكريه..»[٣].

ولكن المسلمين فرطوا في منهج الله القويم وارتكسوا في ركام علم الكلام وفي تيه الفلسفة المظلم ونسوا أنهم أمة القيادة في العالم ومن أجل ذلك أنزل الله لهم ذلك المنهج القويم كي يرتفعوا بأنفسهم عن تلك الركامات الهائلة التي تتخبط فيها بقية الأمم.

وقد أصاب المناهج الإسلامية في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف حيث «أن

---

(١) المصدر السابق ص ١١٥.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٣.

(٣) المصدر السابق ص ٢١.

العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح ، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها .....»[١].

ويضرب بعض الباحثين على ذلك بعض الأمثلة ، منها : الزكاة وهي أهم أبواب الفقه صلة بالناحية الاجتماعية يتكلمون عن المادة والجسم دون أي عناية توجه للروح ، أنهم يبدؤون كلامهم بقولهم : تجب الزكاة في خمسة أشياء : المواشي والأثمان والزوع والثمار وعروض التجارة ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكثرون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التي كانت أهم مصادر الثروة والغنى في الجزيرة العربية ، وينسون أنها الآن لا تكاد توجد في أكثر العالم الإسلامي ولم يهتم أحد منهم تقريباً بمصادر الثروة التي جدت في العصور الحديثة ، فليس فيهم واحد فيما أعرف تكلم عن زكاة الدخل الوارد من العمارات والحوانيت المؤجرة مع ما تفيضه على أصحابها من ثروة. وقد قلنا إن أغلب الفقهاء أهملوا روح الإسلام ، ونريد أن نقرر هنا شيئاً يبلغ الغاية في الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الإسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التي يتخلصون بها من الزكاة ، كأن يرسم للمالك أن يهب ماله لابنه أو لزوجته قبيل أن يحول الحول ثم يستوهبه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب زكاة عن الحول الماضي لأنه لم يكمل وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول فلا تجب عليه زكاة قط.

فنجد أن الفقهاء قد تكلموا عن كل هذا بجفاف تام على حين أنهم أهملوا الكلام عن نظرية الإسلام الاقتصادية وفوائد الزكاة ووجوب التعاون بين المسلمين وتنبيه الناس إلى خطورة عبادة المال وأنها كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقي الذي أصاب العالم إلى غير ذلك من الأهداف والغايات الرائعة النبيلة للزكاة في الإسلام[٢].

ثم يمثل المؤلف بمثل آخر هو الصوم فيقول : نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق فليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم، وأنه عن طريق الصوم يتحرر الإنسان من العادات التي خضع لها كتناول الطعام في وقت معين ، ..... تلك العادات التي يمكن أن يقال أن الشخص أصبح عبداً لها لا يستطيع أن يتخلف عنها ..... ماذا كتب الفقهاء عن الصوم؟ إن الجمهرة العظمى لهؤلاء الفقهاء تصور الصوم جوعاً وحرماناً ، تضع له الشروط. وتسرف في بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تعطى أي اهتمام للجانب الروحي في هذه الفريضة السامية.

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢١١.

ويضرب المؤلف أمثلة جافة تحفل الكتب الفقهية منها بالمئات بل والآلاف ... ومن ذلك : لو بل خيطًا بريقة ، ثم أدخله في فمه ، وهو رطب واختلط بلل الخيط بريقه وابتلعه أفطر .. هذا وأمثاله ما اهتم به الفقهاء ، أما هجر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم ، والانتفاع به ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه . . . فهذا ما لم يعن به الفقهاء ، أو ما عنوا به عناية ضئيلة...(١)

وفي باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشتاتًا من الاحتمالات قدرها الفقهاء ، وتكلموا فيها ، ولكنهم كالعهد بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انقلاب من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى الله بضع لحظات من اليوم ، وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء وهم يعرفون آداب الدخول على الخليفة والمثول بين يديه والحديث في حضرته....

وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة. فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله؟.

الحقيقة المؤلمة أنهم لم يدونوا شيئًا من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجهًا اتجاهًا ماديًا جافًا ، جعل من الصلاة عملية أوتوماتيكية ، كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء والتيمم وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما في الصلاة من تفرغ إلى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلي العظيم، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتمامًا ذا بال، وحتى كلمة «الخشوع» التي قفزت إلى اصطلاحات الفقهاء خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأني في السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معاني هذه الكلمة من الخضوع والتفكير في الله والإجلال لذاته ..(٢)

وفي الحديث عن السواك مثلاً أورد الفقهاء مسئلة وهي : لو استاك بأصبع غيره!! وهي خشنة أجزأه قطعًا قاله في شرح المهذب ، وفي أصبعه خلاف ، الراجح في الروضة لا يجزي ، والراجح في شرح المهذب الإجزاء ، وبه قطع القاضي «حسين» و«المحاملي» و«البغوي» والشيخ «أبو حامد» واختاره «الروياني» في البحر ...

مسئلة أخرى هي : الشك فيما خرج من الفرج هل هو مني أو مذي وأن هذا الخلاف وصل في بعض الكتب إلى ثلاث عشرة مقالة! .....

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٥.

وكذلك عند حديثهم عن تعدد الزوجات مثلاً وعن الطلاق ، فهم لا يكادون يذكرون شيئًا عن بعض الحكم والفوائد التي انطوت عليها مثل تلك الأحكام ولم يجهدوا أنفسهم في إيضاح روح التشريع فيها.

وهكذا في أغلب أبواب الفقه التي أصابها الجفاف وركز فيها على الجوانب المادية دون المعنوية. «وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس علم الفقه وحده هو الذي بلي بهذه الدراسات الجافة ، بل إنها العلوم كلها التي عالجها من نسميهم العلماء ، إنها المنطق ، والحديث والتفسير ، والتاريخ الإسلامي ، وعلم الكلام ، والنحو والصرف والبلاغة ..... وانعدمت الروح في دراستها ....»[١].

«ماذا فعل به (يعني القرآن الكريم) هؤلاء العلماء عندما كتبوا عنه ما أسموه تفسيراً؟ الجواب أنهم كتبوا كل شيء لا يلزم ، وأهملوا كل ما يجب أن يكتب ، أهملوا إبراز جمال القرآن في أسلوبه ومعانيه ، وما يدعو له من خلق وبر وعمل صالح ، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب والأسلوب المعجز إلى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية.

إن الرجل العربي ليقرأ القرآن فيحس بلذة ما تعدلها لذة ، فإذا ذهب يقرأ تفسير القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق»[٢].

وبعد هذا فإنه مما لا شك فيه أن هذا الجفاف الذي أصاب مناهج التعليم من حيث الاهتمام بالجسم والمادة دون الروح والمعنى كان من الأسباب التي ساعدت على تفلت المسلمين من أحكام الدين والعبادات على مر القرون ، فكم نرى من الفقهاء بل ربما من المفتين الذي لم يراعوا لله حرمة ، ولم يراعوا ما تعلموه من تلك الدراسات الجافة. فكيف بسواهم من التلاميذ فضلاً عن العامة. وقد ذكرنا أن ذلك الجفاف كان سببًا كبيرًا في تحول الجماهير عن هؤلاء العلماء والفقهاء إلى شيوخ الصوفية .... ونحن نورد هنا بيانًا مختصراً عن المناهج التعليمية في الأزهر عام ١٣١٠ هـ لنرى إلى أي مدى استطاعت تلك المناهج أن تؤدي دورها[٣] وبالطبع لم يكن هذا هو حال جميع العلماء ، بل هو حال الغالبية منهم ، وإلا فإن هناك من العلماء ـ وإن كانوا قلة ـ من راعوا روح الشريعة وحكمها ، وتميزت مصنفاتهم بالروعة والتجديد والحيوية .

كتب علم التوحيد :

١ ـ أم البراهين (الصغرى للشيخ «محمد يوسف السنوسي» بشرح الشيخ السنوسي والشيخ «الهدهدي» والشيخ «الباجوري» .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٥. (٢) المصدر السابق ص ٢٢٦.

(٣) من رسالة قدمتها مشيخة الأزهر إلى الخديوي عام ١٣١٠هـ.

٢ ـ (أم البراهين) الكبرى «لأبي عبد الله محمد السنوسي» .

٣ ـ جوهرة التوحيد للشيخ «إبراهيم اللقاني» بشرح «عبد السلام اللقاني» .

٤ ـ العقائد النسفية بشرح «سعد الدين التفتازاني» .

٥ ـ الخريدة للشيخ «أحمد الدردير» .

٦ ـ المقاصد لـ«سعد الدين التفتازاني».

٧ ـ المواقف للشيخ «عبد الرحمن العضد» بشرح الجرجاني .

٨ ـ طوالع الأنوار «للبيضاوي» بشرح الأصفهاني» .

٩ ـ متن بليحة بشرح الشيخ «السقا» .

١٠ ـ متن السباعي بشرح «الباجوري».

كتب التصوف :

١ ـ الإبريز لسيدي «عبد العزيز» .

٢ ـ الأنوار القدسية لسيدي «عبد الوهاب الشعراني» .

٣ ـ بستان العارفين للشيخ «نصر السمر قندي» .

٤ ـ تاج العروس «لابن عطاء الله السكندري» .

٥ ـ التجليات الالهية للشيخ «محيي الدين بن عربي»

٦ ـ تحفة الإخوان للشيخ «الدردير» .

٧ ـ تفليس إبليس «لعز الدين بن عبد السلام» .

٨ ـ تنبيه الغافلين للشيخ «نصر السمر قندي» .

٩ ـ التنوير في إسقاط التدبير «لابن عطاء السكندري» .

١٠ ـ الإحياء «للغزالي» .

١١ ـ قوت القلوب «لأبي طالب المكي» .

١٢ ـ المنن الكبرى للشيخ «الشعراني».

كتب علم التفسير :

١ ـ الكشاف لـ «الزمخشري» .

٢ ـ تفسير الجلالين بحاشية الشيخ الجمل .

٣ ـ تفسير الخطيب الشربيني .

٤ ـ تفسير البيضاوي .

٥ ـ تفسير أبي السعود .

٦ ـ تفسير الفخر الرازي .

٧ ـ تفسير الخازن .

٨ ـ تفسير النسفي .

٩ ـ الإتقان للسيوطي.

كتب المنطق :

١ ـ السلم للأخضري بشرح المؤلف نفسه والقويسني والملوي والباجوري .

٢ ـ إيساغوجي للأبهري بشرح الشيخ زكريا الأنصاري.

٣ ـ التهذيب للسعد التفتازاني بشرح الخبيصي .

٤ ـ الشمسية للكاتبي بشرح قطب الدين الرازي .

٥ ـ المختصر للسنوسي .

٦ ـ المطالع للأرموي بشرح الرازي.

كتب التاريخ :

منها طبقات الشعراني لسيدي عبد الوهاب ، لواقح الأنوار للشعراني.

كتب الحكمة :

١ ـ الإرشادات لابن سينا .

٢ ـ الهداية لأثير الدين الأبهري .

٣ ـ حكمة العين للكاتبي .

٤ ـ مقولات السجاعي .

٥ ـ مقولات البليدي .

٦ ـ مقولات المرصفي .

٧ ـ غالية النشر لعبد الجواد القباني.

أما كتب الفقه فلم تخرج عن المذاهب الأربعة وكذلك كتب أصول الفقه وهي جميعها عبارة عن مختصرات وشروح وحواش[1].

---

(١) الأزهر ، تاريخه وتطوره ص ٢٨٣ ـ ص ٢٩٢ . وانظر تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٥٠ ـ ص ٥٥.

فبالنسبة لعلم التوحيد والعقيدة نجد أن المناهج كلها كلامية اعتمدت علم الكلام وبعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة في التوحيد والعقيدة وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك الانحراف.

وبالنسبة لعلم التفسير فأغلبها من قبيل التفسير بالرأي المذموم وهي تفاسير مليئة بانحرافات المتكلمين وشبههم من معتزلة وأشعرية ، ونجد أنه لا مكان للتفسير بالمأثور في هذا المنهج ، فلا وجود لـ «جامع البيان والتأويل» «للطبري» ولـ «تفسير القرآن العظيم» «لابن كثير» ولـ«تفسير البغوي» وغيرها من التفاسير المعتمدة المتبعة لآثار السلف ومروياتهم .

يقول العلامة العراقي «محمود شكري الألوسي» عن كتب التفسير في العصر الآخير : «إن من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فإن منها ما هو مشحون بقواعد النحو ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه ما يفوت الحصر ، ومنها ما هو مشحون بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات إلى ما أصله من الأصول ، ويؤول النصوص القطعية إلى ما يوافق معتقده . إذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام . ومنها ما اشتمل على قصص بني إسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول ، وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لا يدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الإشارة ، ومنها مما لا يحيط به العد والإحصاء.

ثم نقل كلاماً طويلاً للشيخ محمد بدر الدين الحلبي في كتابه (التعليم والإرشاد) انتقد فيه كثيراً من كتب التفسير المتداولة في تلك الفترة والتي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله عز وجل. وذكر أنها غير صالحة للتعليم.

فتفسير الخازن مثلاً ، وهو أكثر كتب التفسير تداولاً ، وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية ، خير ما يقال فيه إنه مجموعة من الأكاذيب ، ولو جرد ما فيه من الأحاديث الموضوعة ، و الإسرائيليات والقصص الكاذبة لكانت فوق نصف الكتاب، وبعد ذلك فأشياء إن لم تضر لم تنفع ، «وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات ، فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبة العلوم الشرعية ، وأكثر انتشاراً بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين، ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى ثم تحدث عن تفسيري الزمخشري والبيضاوي اللذين يعدان غاية في الغموض والإغلاق. «ولشدة عراقتها في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما وتوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي

والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان إلا على ما ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرة ، لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيهما ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله.

ويلحق تفسير «أبي السعود» بهذين التفسيرين ، فإنه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً». وقد تحدث عن غالب كتب التفسير «ثم اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن هذه التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الإسلامية ، وأن ضرورة المحافظة على الدين تقتضي باختيار الكتب النافعة»(١).

أما دراسة التصوف في الأزهر فهي مؤشر خطير على مدى عدول الأزهر عن الخط الذي كان يجب أن يسير عليه ، وانجرافه في تيارات الواقع المتردي من صوفية وعلم كلام وتعصب مذهبي وكذلك تدريس المنطق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والذي ما زادت به العلوم إلا تعقيداً وتأخراً. وبعد ذلك تدريس تراجم المتصوفة كالطبقات الكبرى «للشعراني» التي احتوت على مئات من الأباطيل والخرافات ، وطفحت بالشرك الصريح.

ومن الانحرافات التي تطرقت إلى مناهج التعليم وكان لها أثر عظيم فيما وقع للأمة من تدهور وانحطاط عدم اهتمام العلماء من فقهاء ومفسرين ومتكلمين بعلم الحديث وقد نعى الإمام «الشوكاني» على هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى حديث الرسولﷺ : «ولا يفرقون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب كما يعرف ذلك من يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان ، ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا فلينظر مؤلفات جماعة هم في الفقه بأعلى رتبة، مع التبحر في فنون كثيرة كـ«الجويني» و«الغزالي» وأمثالهما فإنهم إذا أرادوا أن يتكلموا في الحديث جاءوا بما يضحك منه سامعه ويعجب ؛ لأنهم يوردون الموضوعات فضلاً عن الضعاف ، ولا يعرفون ذلك ، ولا يفطنون به ، ولا يفرقون بينه وبين غيره، وسبب ذلك عدم اشتغالهم بالحديث كما ينبغي فكانوا عند التكلم فيه عبرة من العبر ، وهكذا حال مثل هذين الرجلين وأشباههم من أهل طبقتهم مع تبحرهم في فنون عديدة فما بالك بمن يتصدى للكلام في فن الحديث ويشتغل بإدخاله في مؤلفاته وهو دون أولئك بمراحل لا تحصر.

---

(١) غاية الأماني ١/٧٨ ـ ٨٣.

وهكذا تجد كثيراً من أئمة التفسير الذين لم يكن لهم كثير اشتغال بعلم السنة كـ«الزمخشري» و«الفخر الرازي» وغالب من جاء بعدهم فإنهم يوردون في تفاسيرهم الموضوعات التي لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم الحديث في كونه موضوعاً مكذوباً على رسول الله ﷺ ، وذلك المفسر قد أدخله في تفسيره واستدل به على ما يقصده من تفسير كتاب الله سبحانه .

وهكذا أئمة أصول الفقه فإن أكثر من يشتغل الناس في هذا الزمان بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ولا يميزون شيئاً منه بل يذكرون في مؤلفاتهم الموضوعات ويبنون عليها القناطر»(١).

ثم يبين رحمه الله ما جناه بعض الفقهاء على الشريعة بإدخال ما ليس منها فيها ، ويطالب أهل عصره من المشتغلين بالفقه الإنكار على مثل هؤلاء المتهاونين في علم الحديث وبيان ما في كتبهم من خطأ وباطل و « أن يأخذوا على أيدي الناس ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذي لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل . ولا يميز بين ما هو من الشريعة وما ليس منها فما أوجب هذا عليهم ، فإن هذا المشؤم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية شديدة وفعل منكراً عظيماً ، وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر في الناس مسائل الدين ، ويظن من اتبعه في الأخذ عنه أن هذا الذي جاء به هذا المصنف هو الشريعة. فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم وفتنة شديدة ، وهذا هو السبب الأعظم في اختلاط المعروف بالمنكر في كتب الفقه وغلبة علم الرأي على علم الرواية .... وبهذه العلة تجد المصنفين في علم الفقه يعولون في كثير من المسائل على محض الرأي ويدونونه في مصنفاتهم وهم لا يشعرون أن في ذلك سنة صحيحة يعرفها أقل طالب لعلم الحديث.

وقد كثر هذا جداً من المشتغلين بالفقه على تفاقم شره وتعاظم ضرره ، وجنوا على أنفسهم وعلى الشريعة وعلى المسلمين. وإذا شككت في شيء من هذا فخذ أي كتاب شئت من الكتب المصنفة في الفقه وطالعه تجد الكثير الواسع..»(٢).

ثم أخذ ـ رحمه الله ـ ينكر على مثل هذا المتفيقه وأمثاله حيث قد حفظ الواحد منهم مختصراً من مختصرات مذهبه ولم يحط بمذهبه ولا بمذاهب غيره فضلاً عن المؤلفات في سائر العلوم ثم يذكر المؤلف أن هذا وأمثاله من علامات القيامة ومن دلائل رفع العلم كما في الحديث الصحيح حين يتخذ الناس رؤوساً جهالاً فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون(٣).

على أننا نرى أن علم الحديث قد تعرض إلى ثلاثة انحرافات هي : ـ

---

(١) أدب المطلب ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) المصدر السابق ص ٥٨.

١ ـ أنه فقد دوره في التربية الإسلامية الصحيحة ، فلم يعد ذا تأثير إيجابي ملموس في حياة الناس.

٢ ـ أنه لم يكن يقرأ لأخذ الأحكام منه ، بل يقرأ في الغالب على سبيل البركة كما ذكر «الأثري»(١). وقد رأينا كيف كان يقرأ «البخاري» لحصول البركات ودفع الأزمات. وكثيراً ما وقفت الأوقاف على من يقرأ كتب الحديث عند ضريح من الأضرحة ، أو في زاوية من الزوايا(٢).

ومما يؤكد شيوع هذين الانحرافين الذين أصابا علم الحديث الشريف هو جمع الكثيرين من الشيوخ بينه وبين التصوف. ونضرب على ذلك مثالين :

الأول : هو الشيخ الحبيب «حسين الحبشي» (المتوفى سنة ١٣٣٠هـ) جاء في ترجمته ما خلاصته «تلقن الذكر ، ولبس الخرقة من السيد «أبي بكر ابن عبد الله العطاس» ، بمكة ، فنجب ، وتفنن في فنون كثيرة وعلوم شهيرة ، لكن كان اشتهاره بعلم الحديث والتصوف والحقائق والاعتناء بالغرائب والدقائق»(٣).

والثاني : ما ذكره «السلاوي» صاحب «الاستقصا» عن شيخه القاضي «أبي بكر ابن محمد عواد» (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ) بقوله : «ختمنا عليه عدة كتب كبار .... جعلها الله في ميزان حسناته ، منها «صحيح البخاري» نحو عشر مرات و«صحيح مسلم» ثلاث مرات .... و«إحياء الغزالي» رضي الله عنه ، و«عوارف المعارف للسهروردي»(٤).

٣ ـ عدم الاعتناء بالتخريج والتحقيق ، وتمييز المقبول من الحديث من المردود ، وانتشار الأحاديث الموضوعة. وقد ذكر «الجبرتي» أن الشيخ «محمد مرتضى الزبيدي» حين استقر في مصر كان حريصاً على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون ، كعلم الأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين ، وأنه ألف في ذلك كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز جمة(٥) . وفي ذلك دلالة على عدم اهتمام العلماء في تلك الفترة بالحديث وعلومه.

ويقول الشيخ «عبد العزيز الملتاني» من علماء الهند في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري مصوراً ما وصلت إليه حالة علم الحديث في عصره : «وإلى الله المشتكى من المعاصرين ومن

(١) أعلام العراق ص ٩٠.
(٢) كالوقف الذي وقف لمن يقرأ الحديث في مسجد الصخرة بالقدس في رجب وشعبان ورمضان انظر نهر الذهب في تاريخ حلب ٦١/٢.
(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١٣٨/١.
(٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٥٦/٤.
(٥) عجائب الآثار ١٠٦/٢.

علمائهم المتعصبين القاصرين ، اتخذوا علم الحديث ظهرياً ، ونبذوا التخريج نسياً منسياً ، فأوعظهم ألهجهم بالأكاذيب ، وأعلمهم أكذبهم في الترغيب والترهيب ، وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام ، بل هذه الشنيعة متقادمة من سالف الأيام ، فإن الأبالسة أفسدوا بالوضع والتزوير ، فانخدع لهم مدونو المواعظ والتفسير ، ويهلك بتدوينها تالف بعد تالف والله الناصر الموفق للمحدثين وموكلهم عن نفي الكذب في الدين(١).

٣ ـ الإجازات :

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات فـ«نجد في هذا العصر تساهلاً كبيراً في منح الإجازات العلمية. ففي العصور الأولى كان طالب الإجازة يلازم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما سمعه من الأستاذ الذي لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان ، أما العصر الذي ندرسه (العصر العثماني) فكانت تعطى جزافًا ، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته. وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في «القاهرة» يبعث إلى طالب في «مكة» بالإجازة دون أن يراه أو يختبره. فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية.

وشذ من هؤلاء العلماء «محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي» (المتوفى سنة ١١٩٩هـ) فقد ذكر «الجبرتي» أنه كان صعباً في الإجازة ، لا يجيز أحداً إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذي يطلب الإجازة فيه بتمامه ولا يرى الإجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى أن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك. وهذه الطريقة في مثل هذا الزمان عسرة جداً» (٢).

ولما رحل «الزبيدي» إلى مصر تقاطر إليه علماء الأزهر وطلبوا منه الإجازة فقال لهم لابد من قراءة أوائل الكتب (٣) . وقد كان موقفه مفاجأة لأهل الأزهر الذين ما اعتادوا ذلك.

وفي اعتقادي أن المتصوفة كان لهم دور كبير في الاستهانة بالإجازات والإفراط في منحها فقد سبق أن عرفنا نظرتهم إلى العلوم واستهانتهم بها فلا عجب بعد ذلك أن يستهين شيوخ المتصوفة بالإجازات ويفرطوا في منحها.

فقد ذكر الشيخ «عبد الرزاق البيطار» أن الشيخ «خالد النقشبندي» من كبار زعماء المتصوفة

---

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٧٧/٧.

(٢) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٢.

(٣) عجائب الآثار ١٠٦/٢.

في القرن الثالث عشر أمر تلميذه الشيخ «هداية الله الأربيلي» بقراءة الورقة الأولى من كل كتاب معد للتدريس، فقرأ ذلك على حضرة المذكور، ثم أجازه بجميع العلوم النقلية والعقلية، وتدريس كتبها الدقيقة (١).

«وقد كانت الإجازة المكتوبة في البداية محددة ومقننة، فلا يعطاها أي طالب، ولكن بتوالي الزمن وضعف التعليم والتعلم، وتدهور الحياة العقلية بصفة عامة، أصبح منح الإجازات سهلاً وشائعًا، وكثيراً ما كان يمنح الطالب الإجازة سواء كان يستحقها أو لا يستحقها، أي من جلس للدرس وتتلمذ، ومن كان عابر سبيل، بل أصبحت الإجازة تعطى عن طريق المراسلة دون أن يرى الطالب المدرس ويأخذ عنه»(٢).

ويذكر الشيخ «محمد رشيد رضا» أن الشيخ «محمد عبده» كتب إلى عالم من الهند طلب منه أن يجيزه بما رواه وما تلقاه، وفيه بيان رأيه في الإجازة بالكتب وتناقل الأسانيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم:

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ "أحمد أبي الخير" حفظه الله:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فقد سرني أن أعرف لي أخاً جديداً في بلاد الهند، يقدر العلم قدره، ويحب بثه بين الناس ونشره. يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ما تلقيت وما رويت، ويطلب مني أن أرسل إليه سندي في رواياتي، وإني أقول لحضرتكم: أنني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء، لم يكن لي فيه أثر بالنسبة إليه، كيف أجيزك بشيء تقول أنك ترويه عني، ولم تروه في الحقيقة عني، ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسي رجاله، ولا أحوالهم، ولا مكانهم من الثقة والضبط، وإنما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف تقلدهم فيها، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون. أحب أن أكشف لك رأيي في هذه الشؤون:

هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب الله، وإنما شأني الذي كلفت به هو أن أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبته، فله أن يرويه عني، وأن يؤديه على ما فهمه بعد دقة البحث والتحري، والأخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية، فإذا

(١) حلية البشر ١٥٧٩/٣.

(٢) تاريخ الجزائر الثقافي ٢٨٠/١.

وصل إليك شيء مما أقول أو أكتب وفهمته كما أحب أن يفهم ، فإليك الأخذ به ، وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة ، وأكون لك من الشاكرين ، أسأل الله أن يوفقنا إلى خدمة دينه الحق ، إنه ولي العاملين. والسلام عليكم ورحمة الله.

١٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ

مفتي الديار المصرية "محمد عبده"

وعلق الشيخ «رشيد رضا» قائلاً : إن الأستاذ الامام - رحمه الله تعالى - افترض هذا الطلب ليبين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة : عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصل لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما. كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة ما فيها إلى أصحابها، وذلك من وسائل حفظها، ولم يبق في الإجازة شيء من هذه الفائدة، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم ، وإن لم يكن له أدنى حظ من عظمته في علم ولا هدى ولا ملك ولا غنى(١).

ويذكر «السنوسي» أنه زار في «دمشق» الشيخ «سليم العطار» محدث «دمشق» (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ)(٢) ، وكان يومئذ نقهًا من مرض. ويقول : «ودخلت عليه صبيحة يوم الأحد الرابع من ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ وكان مجلسه محتبكًا بحضور العائدين من العلماء والوجهاء .... وجرت مسائل من علم الكلام والحديث .... وبوقوع المشاركة معه فيما عرض من الحديث خشيت أن أسمع منه حديثًا قبل أن أروي عليه المسلسل بالأولية (٣) ، فبادرت له في ذلك المجمع العظيم ، وطلبت منه روايته عنه للحصول على شرف سنده!! .... ثم طلبت منه الإجازة برواية «الصحاح» الستة (٤) بأسانيده فيها، فأجاز لي بها ، ثم طلبت منه تعميم الإجازة بما تضمنه ثبت جده الشيخ «أحمد العطار» ، فأجاز لي به إجازة تامة . وبإثر ذلك استجازه أغلب الشيوخ الحاضرين فأجازهم بذلك ، وعد ذلك من حسن الاجتماع»(٥).

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٥٩١/٢ .

(٢) قال عنه الزركلي في الأعلام : له إجازات كثيرة لعلماء عصره ، وله منهم إجازات . الأعلام ١٤٧/٦.

(٣) هو حديث «الراحمون يرحمهم الله. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وجرت العادة أن يكون أول ما يسمعه الطالب من شيخه. ورواه «الترمذي» برقم ١٩٢٤ كتاب البر والصلة وقال عنه : حديث حسن صحيح.

(٤) قوله : الصحاح الستة هي من باب التجوز ، إذ لا يصح عند التحقيق إطلاق ذلك إلا على الصحيحين.

(٥) الرحلة الحجازية ٢٦٦/٣.

وفي ذلك أوضح دليل على اهتمامهم بالمظهر دون المضمون ، والقشر دون اللب. وقد كان الشيخ «صالح بن إبراهيم الريس» (المتوفى سنة ١٢٤٠هـ) يقرىء «صحيح البخاري» بالحرم يقول أحد تلامذته : (ومما تفضل الله به علينا في عام تسع وثلاثين ومائتين وألف أننا سمعنا منه جملة من صحيح الإمام البخاري وكان ذلك تجاه الكعبة مجالس عديدة متوالية من غير انقطاع ، وبعد ختمه لذلك الصحيح مع جملة من العلماء أهل الفضل والاتباع ، أشار شيخنا وأستاذنا الشيخ «عمر بن عبد الكريم بن عبد رب الرسول» على شيخنا المترجم بأن يجيز جميع من حضر ذلك المجلس إجازة عامة فأجابه لذلك وأجاز جملة الحاضرين(١).

ولما سافر الشيخ «علي علاء الدين» (المتوفى سنة ١٣٤٠هـ) موفداً من والده إلى الإمام الشهير النواب «حسن صديق خان» ملك بهوبال سنة ١٢٩٩ هـ في مصلحة طبع كتبه وكتب أبيه «أبي الثناء» فبقي في ضيافته نحو سبعة عشر يوماً .... فقرأ عليه وعلى شيخه المحدث الكبير الشيخ «حسن بن محسن اليمني الأنصاري» ما تيسر له. وأجازه كل منهما إجازة عامة(٢).

وهذا الشيخ «محمد بن عبد الحفيظ» لازم «أبا الفيض الكتاني» وانتفع به وأجازه إجازة عامة ، كتب له بالإجازة أئمة علماء الحرمين والشام والعراق والهند والأستانة وغيرهم...(٣).

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما فائدة كل هذا؟

لا شك أنها مجرد شكليات ورسوم برزت في الناحية العلمية حين خبت جذوتها ، وانطفأ نورها. وقد كان رأي الشيخ «محمد عبده» فيها صائباً ، حيث عدها من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي ، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهما من عوامل انحدار المستوى التعليمي ، وضعف العلوم الشرعية ، حين أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم ، هو حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع(٤).

٤ ـ وراثة المنصب العلمي :

من العجيب في تلك الفترة التي ندرسها ما وقع من أمر غريب في الأحوال الدينية ، ألا وهو وراثة المناصب التعليمية والشرعية كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء ، فقد غدت تلك المناصب

---

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/١٧٥.

(٢) أعلام العراق ص ٧٣.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٤٣٤.

(٤) كما هو الحال بالنسبة لكثير من طلاب الشهادات اليوم ، والله المستعان.

تورث بموت من كانوا يتولونها ، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال ، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه ، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه إلى ولده. أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لا بد من التصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافة المتوفى في منصبه الذي رحل عنه.

ويذكر «الجبرتي» أن «عبد الفتاح بن الجوهري» قد تصدر لمنصب التدريس والإقراء بدلاً عن أخيه الأكبر «أحمد» ، مع أنه لم يكن من أهل العلم بل هو من التجار ولكن فعل ذلك «حفظاً للناموس وبقاءً لصورة العلم الموروث»[١].

ولا أدري أي ناموس هذا الذي يقضي بتوارث مناصب التدريس والتعليم وحكرها في أسر معينة تتوارثها خلفاً عن سلف. والذي نجزم به أن هذا الناموس كان بعيداً عن روح الإسلام وغريباً عن تعاليمه.

ويذكر «الجبرتي» أيضاً أن والد الشيخ «أحمد بن سالم النفراوي المالكي» (المتوفى سنة ١٢٠٧هـ) لما توفى والده تعصب له الشيخ «عبد الله الشبراوي» وحاز له وظائف والده وتعلقاته وأجلسه للإقراء في مكان درس أبيه وأمر جماعة أبيه بالحضور عليه. وكان الشيخ «علي الصعيدي» من أكبر طلبة أبيه فتطلع للجلوس في محله ، وكان أهلاً لذلك ، فعارضه الشيخ «الشبراوي» وأقصاه وصدر ولده لذلك ، مع قلة بضاعته ولثغة في لسانه....»[٢].

وهكذا كان يقصى العلماء الجديرون بتولي مثل تلك المناصب، ليتولاها من ليس أهلاً لها بدعوى أنها كانت في حوزة آبائهم وتحت ولايتهم ، وهم أحق بوراثتها من غيرهم حتى ولو كانوا غير جديرين بها ، وكان غيرهم أحق بها. حفظاً للناموس وصورة للعلم الموروث كما قال «الجبرتي» ، وفي تعصب الشيخ «عبد الله الشبراوي» شيخ الأزهر في وقته أكبر دليل على تمكن تلك العادة السيئة ذات الآثار الوخيمة من أهل العلم والمنتسبين إليه.

وعندما توفي الشيخ «أحمد البراوي الشافعي الأزهري» تصدر بعده ولده الشيخ «إسماعيل» (المتوفى سنة ١٢١٤هـ) وكان كما يقول «الجبرتي» : «قليل البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتداخل»[٣].

---

(١) عجائب الآثار ٤٣٣/٢.
(٢) المصدر نفسه ١٥٨/٢.
(٣) المصدر نفسه ٢٧٩/٢.

وهذا الشيخ «محمد المنيني» مفتي «دمشق» : «تصدر لقراءة العلوم الدينية والفنون والعلوم العربية في مدرسة الملك العادل لصيقة داره المشروطة لسكناه مع تدريس العلوم بها ورث ذلك عن آبائه وأجداده ، وقد ورث عنهم أيضاً وظيفة تدريس «البخاري» الشريف تحت قبة النسر .... وحصة من الخطابة والإمامة مع تربدراية مقام النبي الحصور...»[١].

وهذا الشيخ «عبد الله بن العلامة سعيد الحلبي الدمشقي الحنفي» : «لما توفي والده تصدر مكانه للتدريس والإفادة ... وقد تقلد صاحب الترجمة بعد وفاة أبيه درس البخاري تحت قبة النسر في كل جمعة بالجامع الأموي .... بالنيابة عن القاصر «محمد افندي المنيني» مفتي «دمشق» (السابق ذكره)...»[٢].

ولما مات الشيخ «عمر بن عبد الغني الغزي» مفتي الشافعية تولى بعده إفتاء الشافعية ولده «محمد أفندي»[٣].

ولما عين الشيخ «قاسم بن صالح» الشهير بالحلاق الدمشقي الشافعي إماماً للشافعية بجامع السنانية وذلك سنة ١٢٧٩ هـ ترك إمامة ذاك المسجد لأحد أنجاله[٤].

وربما وقعت الخصومات والمنازعات بين أولئك المتعطشين لوراثة تلك المناصب كما حدث مع ولد الشيخ «سليم العطار» الذي تولى مكان جده تدريس البخاري في جامع السلطان سليمان .... «وبعد وفاته قام ولده العالم الفاضل الشيخ «صادق» وطلب درس السليمانية في مكانه حيث هو جدير به إلا انه عارضه عم أبيه العلامة الشيخ «بكري» صاحب هذه الوظيفة لوفاة والده الشيخ «حامد» عنه وهو مراهق ، فوجهت إليه بالوكالة عن مدرس هذا الدرس اليوم ولده الشيخ «أحمد» الذي كان تاجراً إذ ذاك وكان ذلك سبباً لهجرة الشيخ «صادق» إلى بلاد «فاس»[٥].

ويذكر صاحب كتاب «نشر النور والزهر» أن الشيخ «عبد الرحمن عجمي» (المتوفى سنة ١٣٠١هـ) : «سافر إلى الأستانة بمساعدة الشيخ «عبد الرحمن سراج» ، وكبار الخطباء ، وكتبوا معروضاً ليعرضه على السلطان «عبد العزيز خان» ، عندما أراد بعض الناس الذي لم يكن من أبناء الخطباء والأئمة ، ولا من سلكهم الدخول معهم ومشاركتهم في وظائفهم ، وذلك بمساعدة بعض

---

(١) منتخبات تواريخ دمشق ٧٨٨ ومعنى تربدارية المقام ادارة تربة المقام الذي يحوي ضريحاً.

(٢) المصدر السابق ٦٦٧.

(٣) المصدر السابق ٦٧٢.

(٤) المصدر السابق ٦٧٤.

(٥) المصدر السابق ٧٢٤.

الحكام . . . فنجح له مطلوبه ..... وأنه خلف ابنين أحدهما ... الفاضل الشيخ «حسن» وانتقلت إليه وظيفة الخطابة والإمامة»[١].

يقول «محمد كردعلي» في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني : «وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن ، وكان المفتي «أبو السعود» من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم. بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين ، وكم من أمي غدا في «دمشق» و«حلب» و«القدس» و«بيروت» قاضي القضاة ، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم...»[٢].

ويقول «عبد الوهاب عزام» : «كانت خطابة الجوامع الكبيرة منصباً مشرفًا في تاريخ المسلمين ، وكثير من علمائنا يلقبون بالخطيب ، وكانت هذه المناصب متوارثة ، يخلف فيها الأبناء الآباء ، وتحرص الأسر على شرفها ، كما كانت في تاريخنا بيوت تعرف بالقضاء وأخرى بالفقه وهكذا....»[٣].

ويقول الدكتور «الشيال» معدداً عيوب نظم التعليم في تلك الفترة : «منها أن وظائف التدريس كانت أحيانًا تؤخذ بالوراثة لا بالجدارة ، فيعين الابن مدرساً مكان أبيه ، ولو لم يكن كفئًا لتولي هذه الوظيفة»[٤].

تلك العادة السيئة كان لها آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم ، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين ، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية ، وحكرها في أسر معينة ، فيتربع عليها الجهال ويقصى عنها العلماء الأكفاء ، وكذلك بشغلها عقول العلماء وتفكيرهم أولاً وآخراً في كيفية حيازة تلك المناصب والاستئثار بها والتنافس من أجلها ، كل ذلك ساعد على ركود الأحوال العلمية وتغلغل الضعف فيها.

* * *

---

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ٢٠٥/١.

(٢) خطط الشام ٧٠/٣.

(٣) رحلات «عبد الوهاب عزام» ص ٤٠٣.

(٤) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ص ١١.

الفصل الثاني : التعصب المذهبي

من الانحرافات التي اشتدت وطأتها في القرون المتأخرة خصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ما عرف بالتعصب المذهبي ، ذلك الداء العضال الذي استشرى مع الأيام خطره ، وأعيى دواؤه ، وقد ساعد هذا الداء الخطير على إضعاف المستوى التعليمي، وانحدار العلوم وجمودها وتكبيل العقول والأفهام والحجر عليها. بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم ، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم ، بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات ، كل طائفة تناصر مذهبها وتعادي غيرها من أجله ، وكم تكون المصيبة حين يجتمع في البلدة الواحدة مذهبان ، فتصبح مسرحاً للعداء المتفاقم بين الطائفتين ، وتحرص كل طائفة أن تفرض هيمنتها على المدينة التي تقطنها ، وتبسط نفوذها على ما جاورها من قرى وأماكن ، فليس بمستغرب بعد هذا أن ينقرض مذهب عاش زمناً طويلاً في بلد ما ، بسبب النزاعات الدائمة وهجرة الفقهاء بسببها.

وزاد من حدة هذا البلاء مشاركة الحكام وذوي المناصب في تلك النزاعات المحتدمة ، ووقوفهم بسلطاتهم إلى جانب أنصار مذهبهم يدافعون عنهم ويفرضون سيطرتهم على مخالفيهم وينزلون ما شاءوا من العقوبات عليهم.

«وشب بذلك عداء طويل بين المذاهب المختلفة ، وأسفر العداء عن معارك طاحنة ، وأسفرت المعارك عن خراب ودمار ، وقد شمل هذا الدمار كثيراً من البلدان ، وحسبك أن تقرأ في «معجم البلدان» لـ«ياقوت» لترى أنه في عدة مواضع يقول : وقد خربت هذه البلدة بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية» (١).

يقول الشيخ «محمد قطب» عن التعصب المذهبي الذي عم الدارسين : «كل يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه ويجعل قصارى جهده من أجل دينه أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها ، وأن يدخل في معارك من أجل المذهب تتجاوز في كثير من الأحيان حد الجدل باللسان ، إلى التدافع بالأيدي والأبدان، وفشت الفرقة والتنابذ بين أصحاب المذاهب المختلفة حتى إن أحدهم قد

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٤٤.

يرفض أن يصلي خلف إمام من غير مذهبه بل قد يقاتل أخاه في الصلاة ؛ لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه ، ويحس أن مقاتلته لأخيه في الإسلام على هذا النحو هي «الخدمة» التي يؤديها للإسلام» (١).

وإن الألم ليعصر قلب المؤمن ويتملكه الأسى حين يدخل إلى الحرم أو إلى مسجد رسول الله ﷺ أو المسجد الأقصى وغيرها من المساجد والجوامع الكبار كالجامع الأزهر والجامع الأموي بدمشق في ذلك الزمن فيرى المسلمين طوائف وجماعات ، كل طائفة تصلي خلف إمام مذهبها ، ولا ترى أن صلاتها تصح خلف غيره. فأي فرقة أعظم من هذه.

ويذكر الشيخ «أحمد السباعي» قصة وقعت أحداثها في القرن الحادي عشر في المسجد الحرام فيقول : «وفي هذا العهد كانت خطبة عيد الفطر للإمام «زين العابدين الطبري» وهو من الأئمة الشافعية وكان المتبع أن يعد الخطيب «سماطًا» (وهو ما يبسط ليضع عليه الطعام) في بيته لاستقبال رواده بعد صلاة العيد مباشرة فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية ، وهو المذهب الشائع في سائر بلاد الترك وقد اتصل النبأ بوالد «زين العابدين» فحاول المراجعة قبل أن يبلغ الخبر ابنه فلم ينجح وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعد لكل شيء عدته ، فلما أخبره شهق شهقة فاضت فيها روحه . وهكذا اعتلى خطيب الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطوات منه ينتظر صلاة الجنازة وهكذا يتعسف الحكام في سبيل نصرة مذاهبهم» (٢).

وفي تلك الفترة التي نعنى بدراستها تفاقم هذا البلاء وعم البلاد والأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر.

فالجامع الأزهر كان ميدانًا رحبًا للصراعات المذهبية خصوصًا بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر (٣)...

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٦.

(٢) تاريخ مكة ١٩/٢. والجدير بالذكر أن الصلاة في الحرم المكي كانت تقام للمذاهب الأربعة فكان لكل مذهب مكان معروف وجهة واحدة من جهات الكعبة الأربع يصلون فيه ولم تنقطع تلك البدعة الشنيعة إلا بدخول الملك «عبد العزيز» رحمه الله مكة سنة ١٣٤٣ هـ وأمره بإبطالها.

(٣) ومن ذلك حين لجأ الشوافع إلى مقام الشافعي لنقض ما أبرمه الوالي من إسناد منصب شيخ الأزهر إلى فقيه حنفي ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك . انظر عجائب الآثار ٢٤٢/٢.

ففي إحدى المرات خلت مشيخة الأزهر من شيخ يتصدر لها قرابة السنتين وذلك بسبب النزاع والشغب الذي نشب بين الحنفية والشافعية [١].

وهكذا ينسى هؤلاء العلماء الرسالة المنوطة بعواتقهم من نشر العلم الشرعي وتبصير الناس بأمور دينهم ومحاربة الجهل ، وينصرفون إلى المنازعة والخصومة فيما بينهم بسبب التعصب المقيت الذي سيطر على عقولهم وقلوبهم.

ويذكر العلامة «محمود شكري الألوسي» عن المدعو بالسيد «أحمد بن السيد إبراهيم النقشبندي الخالدي» : أنه كان شافعي المذهب متعصباً فيه لا يرى تقليد غيره...» [٢].

ويذكر الإمام «الشوكاني» أنه اجتمع بالشيخ «صديق بن علي المزجاجي الزبيدي الحنفي» في بعض المواقف بمحضر جماعة فيقول : وقعت بيني وبينه مراجعة في مسائل ، وأكثرت الاعتراض في مسائل من فقه الحنفية وأوردت الدليل ، وهو يتمحل الجواب لما يوافق الحنفية وينتصر لهم ، فلما خلوت به قلت له : اصدقني هل ما تبديه في المراجعة تعتقده اعتقاداً جازماً ، فإن مثلك في علمك بالسنة لا يظن به أنه يؤثر مذهبه الذي هو محض الرأي في بعض المسائل على ما يعلمه صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا أعتقد صحة ما يخالف الدليل وإن قال به من قال ، ولا أدين الله بما يقوله أبو حنيفة وأصحابه إذا خالف الحديث الصحيح ولكن المرء يدافع عن مذهبه» [٣] .

والسؤال هو لماذا يدافع عن مذهبه إذا خالف الدليل. أليس ذلك هو التعصب بعينه؟.

ويقول الشيخ «محمد المجذوب» : «ولقد والله سمعت واحداً من هؤلاء ا(لمتعصبين) ومن ذوي المناصب الدينية العالية ، يقول لي بصراحة مدهشة : «إنني لآخذ بكلام شيخي ، ولو تعارض مع نص نبوي ثابت ، لأني أشك بعلمي ، وأثق بمأخذ شيخي» تماماً كما فعل الذين من قبلهم إذ كانوا ﴿إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ . . . وهذا الكلام قد تجد له تأويلاً يرضيك، ولكنني لا أفهم منه سوى الجهل المطبق بمذاهب الأئمة أنفسهم ، الذين يقررون جميعاً أن الحديث هو مذهبهم إذا صح . ثم الجهل المطبق بكتاب الله الذي يتعبد عباده بمتابعة الرسول ﷺ دون غيره من الخلق ، فلا دين إلا ما جاء به فقط ، وكل كلام أو عمل من غيره فوسيلة إلى معرفة ما قال الله وقال رسوله.....» [٤].

---

(١) الأزهر. تاريخه وتطوره ص ٣٢٧.

(٢) المسك الأذفر ص

(٣) البدر الطالع ١/٢٩٣.

(٤) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٢.

ويقول العلامة «محمود شكري الألوسي» : وقد سمعت من بعض قضاة الأتراك أنه قال : إذا رأيت نصًا في منية المصلي (من كتب الأحناف) ، ورأيت حديثًا في صحيح الإمام البخاري يخالف ذلك النص ، آخذ بما في المنية ، وأترك الحديث الصحيح ، ولا أعمل به . فانظر إلى هذه الغباوة والجهل العظيم [1].

ويقول «محمد يوسف البنوري» عن شيخه «أنور» [2] : «وقد قضى نحو ثلاثين عامًا وهو شطر عمره الشريف في خدمة مذهب إمامنا ومقتدانا الإمام القطب الذي تدور حوله رحى الفقه من فقهاء الأمصار الإمام الكوفي «أبي حنيفة» .... ، وكان يقول عن نفسه : قد أسست بنيان الحنفية بحيث لا يفنى مذهبهم مائة سنة إن شاء الله .. [3]

وهذا الشيخ «جمال الدين العظيم آبادي» يذكر أنه رأى النبي ﷺ يتوضأ فسأله ﷺ من يوافقك في الوضوء من المجتهدين ، فقال «أبو حنيفة»!! [4].

ولما قام الشيخ «أحمد عرفان» بدعوته في الهند ، ومال بعضهم إلى رفع اليدين في الصلاة شنع عليهم المتعصبون ، ومن هؤلاء «كرامة علي الجونيوري» (المتوفى سنة ١٢٩٠هـ) الذي قال عنهم : «إنهم تمذهبوا بمذهب جديد ، وافترى عليهم غير ذلك ، ورغبهم عن الكتاب والسنة وقال : إن القرآن والحديث عسيران جداً ، وفهم ذلك لا يتيسر إلا للمجتهدين [5] !!.

ووصل الأمر حتى قال بعض المتأخرين من الأحناف : إن الحنفي إذا صار شافعيًا يعزر. [6]

«والأحناف في بلغاريا وقزان يعدون ذكر الجهر بالتأمين بدعة ، وينهرون عنه صاحبه ، وينكرون عليه أشد الإنكار» [7].

وكان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، فلا يلي الإفتاء والقضاء إلا من كان حنفيًا. لذا كان الانتقال إلى مذهب أبي حنيفة ظاهرة واضحة. فهذا الشيخ «أحمد بن محمد الخاني الحنفي» يقول عنه «البيطار» : «وكان شافعي المذهب ، إلا أنه لما تولى القضاء في بعض الأمكنة للضرورة الداعية لذلك ألزمته ظروف الأحوال للانتقال لمذهب سيدنا الإمام أبي حنيفة النعمان...» [8].

---

(١) غاية الأماني في الرد على النبهاني ٧٠/١.

(٢) هو الشيخ «محمد أنور شاه الكشميري» (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ).

(٣) نفحة العنبر في حياة إمام العصر «أنور» ص٩٢ «محمد يوسف البنوري». إدارة المجلس العلمي. «كراتشي».

(٤) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ١٢٢/٧.

(٥) المصدر السابق ٢٣٧/٧.

(٦) المصدر السابق ٢٨٧/٧.

(٧) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ٤٠٤/٢.

(٨) حلية البشر ١٨٥/١.

ويقول عن الشيخ «حسين بن سليم الدجاني الشافعي» «انتقل إلى المذهب الحنفي بقصد الإفتاء مع أنه إلى موته يتعبد على مذهب الشافعي» [(١)].

وكان المتحررون من أغلال هذه المذاهب عرضة لاضطهاد المتعصبين الذين يستعدون عليهم السلطة في كثير من الأحيان. فهذا الشيخ «إبراهيم بن أبي إبراهيم البنكالي» رفض التقليد ، وكان يعمل بنصوص من الكتاب والسنة ، فشنع عليه المتعصبون والجامدون، ونسبوا إليه أقوالاً غير مرضية كعادتهم دائماً [(٢)].

ولما خالف الشيخ المحدث «عبد الله الغزنوي» (المتوفى سنة ١٢٩٨هـ) العلماء في عصره في بعض المسائل الفرعية ، استدعاه أمير «كابل» ، وأشار عليه بأن يوافق العلماء في المسائل التي خالفهم فيها ، ولكنه أبى ، وكان الأمير لا يقدر أن يخالف العلماء فأمر أن تنتف لحيته ، ويسود وجهه، ويركب على الحمار ، ويشهر في البلد ، ثم يجلى إلى بلاد الهند [(٣)].

بل لقد كان التعصب وضيق الأفق يسودان تلك الفترة المظلمة في كل المجالات العلمية ، وليس المجال الفقهي فقط . ومن هذه المجالات التي هيمن عليها التعصب ، مجال اللغة وعلومها . فقد ذكر «السنوسي» أنه التقى بالشيخ «محمد محمود الشنقيطي» (المتوفى سنة ١٣٢٢هـ) [(٤)] في المدينة بعد أن خرج من مكة إليها بسبب معاداة علماء الحرم له ، والسبب كما يقول : «أنه غلط «سيبويه» فمن بعد إلى «ابن مالك» و«ابن هشام» في مسألة قولهم بمنع صرف «ثعل» للعلمية والعدل ، مع أن العدل إنما يلتجأ إليه في علل منع الصرف إذا ورد الاسم ممنوعاً من الصرف ، ولم تعرف له علة ، وهذا ثعل لم يرد عن العرب إلا مصروفاً ...... وبذلك نشأت لي جميع العدوات التي أنا فيها ، وصرت في الحرمين مثلاً ، وربما سموني ثعل الشنقيطي ، حتى أن بعض علماء «مكة» نظم نظماً في العلوم وقال فيه :

وصنته جهدي من التخليط　　　فلم يكن كثعل الشنقيطي [(٥)]

«لقد مني الفقه الإسلامي بظاهرتين : إحداهما التعصب المذهبي ، وثانيهما التقليد البعيد عن معرفة الدليل الشرعي الأصلي ، وهو غالباً تقليد لفقيه متأخر من فقهاء المذاهب أو المؤلفين فيه.

---

(١) المصدر السابق ٥٣٨/١.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٧.

(٣) المصدر السابق ٣٠٢/٧.

(٤) الأعلام ٨٩/٧ وصفه الزركلي بعلامة عصره في اللغة والأدب.

(٥) الرحلة الحجازية ١٧٠/٣.

وبالبعد عن نصوص القرآن والسنة ضعفت الملكة الفقهية ، وضيق على الناس أفق الشرع الواسع ، وظهرت العصبية بين المذاهب حتى كان يصلي في كل مسجد أئمة بعدد المذاهب المتبعة في ذلك البلد ، وتقام عدة جماعات في آن واحد أو على التعاقب ومن البديهي حينئذ أن تختفي ملكة الاجتهاد حتى في صورها الجزئية والمحدودة ، وألا يظهر مجتهدون كبار وأن تقف وتركد الحيوية في هذا المجال كما ركدت الحياة في المجالات الأخرى» (١).

ويتحدث الإمام «الشوكاني» رحمه الله عن التعصب المذهبي في زمانه فيقول : «ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه واستفظعه...» (٢).

ثم يبين - رحمه الله - حال أولئك المتعصبين الذين يكادون أن يكونوا خالين من العلوم إلا ما تحزبوا عليه وتعصبوا له من فقه بلا دليل فيقول :

«فإنهم إذا استفرغوا وسعهم في علم الرأي وأنفقوا في الاشتغال به شطراً من أعمارهم وسكنت نفوسهم إلى التقليد سكوناً تاماً ، وقبلته قبولاً كلياً، لم تبق فيهم بقية لفهم شئ من العلوم ، وقد شاهدنا من هذا الجنس من لا يأتي عليه الحصر ، قد تقتضيه في بعض الأحوال رغبة تجذبه إلى النظر في علم النحو ، فلا يفهمه قط فضلاً عن سائر علوم الاجتهاد التي يفتتحها الطلبة بهذا العلم ...... فإنه قد ارتكز في ذهن غالب هؤلاء أن الصحة والسلامة لهم هي في نفس العلة التي قد تمكنت من أذهانهم فسرت إلى قلوبهم وعقولهم وأشربوا من حبها زيادة على ما يجده الصحيح عن العلة من محبة ما هو فيه من الصحة والعافية ، وسبب ذلك أنهم اعتقدوا إمامهم الذي قلدوه ليس في علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، ثم قبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل وزاد بزيادة الأيام والليالي حتى بلغ إلى حد يتسبب عنه أن جميع أقواله صحيحة جارية على وفق الشريعة ليس فيها خطأ ولا ضعف ، وأنه أعلم الناس بالأدلة الواردة في الكتاب والسنة على وجه لا يفوت عليه منها شيء ولا تخفى منها خافية ، فإذا أسمعوا دليلاً في كتاب الله أو سنة رسوله قالوا لو كان هذا راجحاً على ما ذهب إليه إمامنا لذهب إليه ولم يتركه ، لكنه تركه لما هو أرجح منه عنده ، فلا يرفعون بذلك رأساً ولا يرون بمخالفته بأساً.

وهذا صنيع قد اشتهر عنهم وكاد أن يعمهم قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر على اختلاف المذاهب وتباين النحل ، فإذا قال لهم القائل اعملوا بهذه الآية القرآنية أو بهذا الحديث الصحيح قالوا لست أعلم من إمامنا حتى نتبعك ، ولو كان هذا كما تقول لم يخالفه من قلدناه. فهو لم يخالفه إلا إلى

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٦.

(٢) أدب الطلب ص ٤٧.

ما هو أرجح منه وقد ينضم إلى هذا من بعض أهل الجهل والسفه والوقاحة ووصف ذلك الدليل الذي جاء به المخاطب لهم بالبطلان والكذب إن كان من السنة ولو تمكنوا من تكذيب ما في الكتاب العزيز إذا خالف ما قد قلدوا فيه لفعلوا (١).

ثم يبين ـ رحمه الله ـ السبب في وقوع التعصب وشيوعه واستفحاله في عصره فيقول :

«واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جداً فمنها وهو أكثرها وقوعًا وأشدها بلاءً أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين واقتدوا بعالم مخصوص وهذا الداء قد طبق في بلاد الإسلام وعم أهلها ولم يخرج عنه الأفراد ، قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة ، وقد لا يوجد ، لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة ، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين ﴿ وكل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم ، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة ، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك والسبب أنهم نشأوا فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم على ذلك ، ورثه الخلف عن السلف والآخر عن الأول وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم ، وإذا وجد فيهم من يعرف فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه وأقرب قرابته فضلاً عن غيره لما يخافه على نفسه أو على ماله أو على جاهه حسب اختلاف المقاصد وتباين العزائم الدينية ...... فإذا سمع عالمًا من العلماء يفتي بخلافه أو يعمل على ما لا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ومن الدعاة إلى البدعة وهذا إذا عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه فإن تمكن من ذلك فعله معتقداً أنه من أعظم ما يتقرب به إلى الله ، ويدخره في صحائف حسناته ويتاجر الله به ، وهذا معلوم لكل أحد ، وقد شاهدنا منه ما لا يأتي عليه حصر ولا تحيط به عبارة ، بل قد بلغ هذا المتعصب في معاداة من يخالفه إلى حد تجاوز به عدواته لليهود والنصارى ....» (٢).

ويتحدث الإمام «الشوكاني» رحمه الله عما جناه هذا التعصب المقيت على الشريعة الإسلامية فيقول : «ولقد عظمت المحنة على الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة حتى بطل كثير من الشريعة الصحيحة التي لا خلاف بين المسلمين في ثبوتها لاشتهارها بين أهل العلم ، ووجودها إما في محكم الكتاب العزيز أو في ما صح من دواوين السنة المطهرة التي هي مشتهرة بين الناس اشتهاراً على

(١) المصدر السابق ص ٤٨.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣.

UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

٢٠٣٠٩

وجه لا يخفى على من ينسب إلى العلم ، وإن كان قليل الحظ فيه . وسبب ذلك إن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطلبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به ، وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً ، فإذا سمعوا آية من كتاب الله أو حديثاً من سنة رسول الله ﷺ مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة من أهل طبقتهم كان ذلك هيناً عندهم كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله ، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب ، بل مفهوم من مفاهيمه ، وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم .

وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفاً مستقلاً من أدلة الكتاب والسنة يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ما يجاوز المئين أو الألوف كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذي قد عرفه من الفقه لم يلتفت إلى شئ من ذلك ، ولو انضم إلى الكتاب والسنة المنقولة في ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من ينتسب إلى العلم على خلاف ما في ذلك المختصر لم يرفع رأسه إلى شئ من ذلك ، ولا أستبعد أنه لو جاءه نبي مرسل أو ملك مقرب يخبره أن الحق الذي شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر لم يسمع منهما ولا صدقهما بل لو انشقت السماء وصرخ منها ملك من الملائكة بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذي في المختصر لم يصدقه ولا رجع إلى قوله ....

وبالجملة فمن كان بهذه المنزلة فهو ممن طبع الله على قلبه وسلبه نور التوفيق فعمي عن طريق الرشاد وضل عن سبيل الحق ، ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه ولا يستأهل الاشتغال به فإنه وإن كان في مسلاخ إنسان وعلى شكل بني آدم فهو بالدواب أشبه وإليها أقرب وياليته لو كان دابة ليسلم من معرته عباد الله وشريعته ، ولكن هذا المخذول مع كونه حماري الفهم بهيمي الطبع قد شغل نفسه بالحط على علماء الدين المبرزين المشتغلين بالكتاب والسنة وعلمهما وما يوصل إليهما وعاداهم أشد العداوة وكافحهم بالمكروه مكافحة ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل» [١].

ثم ينعي - رحمه الله - حال الأمة بسبب هؤلاء المتعصبين واستيلائهم على كل المجالات الدينية

---

(١) أدب الطلب ص ٦٠.

والعلمية لأنهم «قد طبقوا جميع أقطار الأرض الإسلامية وصارت المدارس والفتاوى والقضاء وجميع الأعمال الدينية بأيديهم فإن كل مملكة من الممالك الإسلامية يعتزى أهلها إلى مذهب من المذاهب ونحلة من النحل وكل بلد من البلاد وقطر من الأقطار كثرت أو قلت لابد أن يكون أهلها مقلدين لميت من الأموات يأخذون عنه ما يجدونه في مؤلفاته ومؤلفات أتباعه المقلدين له حتى صارت مسائل مذهبهم نصب أعينهم لا يتحولون عنها ولا يخالفونها ، ويعتقد من تفاقم تعصبه من المقلدة أن الخروج عن ذلك خروج من الدين بأسره ، وإن كانت بقية المذاهب على خلافه في تلك المسألة كما نجده في كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها» (١).

ثم يقول رحمه الله : ومع هذا فهذه المذاهب قد طبقت الأقطار وصارت عند المنتمين إلى الإسلام قدوة يقتدون بها ، لا يخرج عنها ويجتهد رأيه ويعمل بما قام عليه الدليل إلا الفرد بعد الفرد والواحد بعد الواحد ، وهم على غاية الكتم لما عندهم والتستر بما لديهم ، خوفًا من المتمذهبين ، لأنهم قد جعلوا المذهب الذي هم عليه حجة شرعية على كل فرد من أفراد العباد ، لا يخرج عنه خارج ولا يخالفه مخالف ، إلا مزقوا عرضه وأهانوه وأخافوه ، والدولة في كل أرض معهم وفي أيديهم. والملوك معهم لأنهم من جنسهم في القصور والبعد عن الحقائق. وإذا وجد النادر من الملوك ، والشاذ من السلاطين له من الإدراك والفهم للحقائق ما يعرف به الحق والمحقين فهو تحت حكم المقلدة وطوع أمرهم لأنهم جنده ورعيته ....» (٢).

ويعتبر الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن هذه المذاهب التي جلبت التعصب والشقاق من الدواهي العظيمة التي رزئ بها الإسلام حيث يقول : «واعلم أن المفاسد الماحقة لبركة العلم والمفرقة لكلمة المسلمين كثيرة جداً ، والإحاطة بها تتعسر ، وقد ذكرنا هنا ما حضر عند التحرير ، وأعظم ما أصيب به دين الإسلام من الدواهي الكبار ، والمفاسد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار ، أمران أحدهما : هذه المذاهب التي ذهبت ببهجة الإسلام وغيرت رونقه وجهمت وجهه ....» (٣).

ويقول الشيخ «محمد بن الحسن الحجوي» بعد أن ذكر عبارة صاحب «جمع الجوامع» في وجوب التزام مذهب معين من المذاهب الأربعة وهي : «الأصح أنه يجب على من لم يبلغ رتبة الاجتهاد التزام مذهب معين يعتقده أرجح أو مساوياً ثم ينبغي السعي في اعتقاده أرجح». وبمثل هذه الأقوال نشأ الجمود وتأخر الفقه (٤).

---

(١) المصدر السابق ص ٨١.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧.

(٤) الفكر السامي ٢/٤١٤.

ثم يقول : وتعلم أن قولهم خلاف العلماء رحمة لما كانت الأخلاق مهذبة في الصدر الأول زمن الصحابة ومن بعدهم كـ«مالك» و«ابن حنبل» وأضرابهما لا في هذا الزمن الذي ظهر فيه التعصب فقد صار الخلاف فيه نقمة وسبب الفرقة ، كما أشار «العياشي» (١) في الرحلة قائلاً :

من طاف الحجاز والعراق والشام وديار المشرق ، علم ذلك فإن المالكي مثلاً إذا كان في بلد ليس فيه عالم مالكي ، ونزلت به نازلة أو نوازل في دينه يأنف أن يسأل من هو شافعي ، فيعمل عن جهل أو يسأل عامياً مثله ... وكم من عالم في الشام وغيرها أريد توظيفه في بلد أهلها حنابلة في الفتوى مثلاً ، فيلزم أن ينتقل من مذهبه الأصلي كـ «الشافعي» ، ويصير حنبلياً كي يكون مفتياً ، مع أن هذا سهل لا بأس به ، ولكنه من أدلة ما كان لهم من التعصب الذميم .

وهناك بالمشرق أوقاف خاصة بالشافعية ، وأخرى بالحنفية مثلاً ، ومدارس لا ينال التدريس بها إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة ، ووظائف كذلك من قضاء وفتوى ، فكان هذا العمل مما أوجب بقاء العلماء يقلدون ولو بلغوا درجة الاجتهاد . . . . . ولله در « الشعراني » إذ يقول : إن أعدى عدو للإمام « المهدي » عند خروجه هم الفقهاء ، لأنهم مقلدون ، يعتقدون الحق في أئمتهم قد انحصر، متعصبون ، وهو مجتهد ، ووزراؤه مجتهدون ، وهو فرع ظريف ناشئ عن فكر لطيف ، وإغاظة لقول بعض الحنفية أن الإمام المهدي يتمذهب بمذهبهم . فانظر إلى هذه الهذيانات التي شغلت أفكار الأمة (٢).

«إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة ، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأرثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم ، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام ، وقد كان أهمها في هذا العصر الاستعمار ، أي استيلاء غير المسلمين على بلاد الإسلام ، وجعلها تحت حكمهم والإلحاد والتشكيك في الإسلام . وقد كان ذلك مقترناً مع الاستعمار ومساعداً له ... ، وقد دخل الإلحاد والشك عن طريق الأوربيين الغربيين أولاً سواء أكانوا مدنيين باسم العلمانية والعلم وتحت ستارهما أم كانوا مبشرين بالمسيحية ، فاكتفوا بتشكيك المسلمين بدينهم مساعدة للمستعمرين من بني قومهم لإضعاف مقاومة المسلمين وتمزيقاً لوحدة صفوفهم ، ثم استمر انتشاره واشتد عن طريق الشيوعية ومذهبها المادي ، والعدو الثالث المشترك والمهم مع العدوين السابقين هو اليهودية العالمية والصهيونية.

---

(١) هو«عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي» من أهل «فاس» ، قام برحلة دونها في كتابه «الرحلة العياشية» توفي سنة ١٠٩٠هـ انظر الأعلام ١٢٩/٤.

(٢) الفكر السامي ٤٨٨/٢.

«إن ما أحدثته العصبية من جفاء وعداوة وانقسام بين المسلمين المنقسمين إلى مذاهب قد شغلهم عن هذه الأخطار الثلاثة ، وشغلت بعضهم ببعض عن صد غزوات أعدائهم الحربية والفكرية ، فكانت العصبية عونًا لأعدائهم عليهم ....».

«إن الانشغال بهذه الخلافيات بين المسلمين وبمعاداة المخالفين من أهل القبلة صرف جمهور المسلمين عن قضايا العالم الإسلامي الكبرى ، سواء منها السياسية كقضايا فلسطين وكشمير والصومال وأرتيريا وتنزانيا أو العقائدية كالغزو العقائدي والفكري»[(١)].

وهكذا كان التعصب المذهبي انحرافًا عظيمًا اتسعت به دائرة الانحرافات وزاد في عمقها من حيث حجره على العقول ، وتكبيله للأفهام ، وتسببه في جمود العلوم ، وكذلك ما بثه بين المسلمين من عداء ونزاع وانقسام ، مما كان له أعظم الأثر في التدهور الذي وصل إليه المسلمون ، والانحطاط الذي وقعوا فيه.

* * *

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٩٠.

الفصل الثالث : رفض إعادة فتح باب الاجتهاد

لا ينقطع بالإنسان العجب حين يطالع تلك القضية الخطيرة التي أطلق عليها «إغلاق باب الاجتهاد»، وإن كان المرء ليعجب من جميع الانحرافات التي وقعت فيها الأمة[1]، إلا أن ذلك الانحراف ليزداد منه العجب، وذلك حين يعد الحجر على العقول ومصادرة الأفكار والأفهام دينًا يتقرب به إلى الله عز وجل، ويقول بذلك جماهير من العلماء المعتبرين والمبرزين فيما دعوا إلى إغلاقه وسده.

فلقد «أثر عن بعض الفقهاء القول بأن الاجتهاد أصبح بعيد المنال ، لا يستطيع الوصول إليه أحد من العلماء ، مهما وصلت درجته العلمية ، وليس أمام الناس علماء وجهال ، خاصة وعامة إلا التقليد والاتباع.

إن هذا والله العجب العجاب ، من هذا الذي حجر على العقول أن تنظر في دين الله وشريعته ، مستنبطة للأحكام «مستخرجة لها من أدلتها التي نصبها الشارع للتوصل لمعرفة الحكم الشرعي ، أكان الاجتهاد وقفًا على طبقة معينة أو جيل من الفقهاء قد مضى ، أو على فئة مخصوصة انتهى الاجتهاد بانتهائها؟ فعلى أي أساس جاز هذا القول وعلى أي قاعدة علمية صدر الحكم على باب الاجتهاد بإغلاقه؟ ولمصلحة من قيل هذا القول الفظيع الخطير. أيراد أن يتهم الإسلام وشريعته التي خاطبت العقول بأن من مبادئ الإسلام الجمود والتوقف والحجر على النظر» [2].

يقول الشيخ «محمد قطب» موضحًا جوانب تلك القضية الخطيرة «لقد ظلت الأمور في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع في الحقيقة - عشرة قرون كاملة تقريبًا لا تكاد تتغير إلا في نطاق محدود».

وكان الفقهاء المسلمون الكبار قد اجتهدوا في كل ما واجههم من الأمور فأنشأوا فقهًا متكاملاً عميقًا شاملاً يغطي احتياجات المسلمين في العبادات والمعاملات. ثم جاء تلاميذهم وشراحهم فزادوا في قضايا الفروع حلولاً لمشكلات تصوروا حدوثها في أي ظرف من الظروف القادمة فكانوا يفترضون الفرض ويقولون : أرأيت لو حدث كذا ! ويستنبطون لهذا الأمر المتخيل حكمًا مستمدًا من

---

(١) ولا يقل عنها عجبًا الفكر الإرجائي الذي هيمن على حياة الأمة ، وأصبح معتقد السواد الأعظم منها.

(٢) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٦ . د. عبد الحميد ميهوب. دار الكتاب الجامعي. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ، ١٩٧٨م.

شريعة الله. فلما مضى الزمن وحدثت تلك الافتراضات بالفعل ، لم يحس المسلمون أنهم في حاجة إلى اجتهادات جديدة ، فقد غطى الفقهاء وتلاميذهم وشراحهم من قبل كل ما جد في حياتهم .. لذلك أعلنوا - منذ القرن الخامس - إغلاق باب الاجتهاد لعدم الحاجة إليه!

ومرت خمسة قرون أخرى أو ستة على وجه التقريب والمسلمون لا يحسون بحاجة لمراجعة هذا القرار ، لأن ما بين أيديهم من الفقه يكفيهم ويفيض عن حاجتهم ، فاكتفوا بالتتلمذ عليه ، وإخراج المختصرات التي تفي بحاجة طالب العلم المبتدئ لتعينه على الدخول في عالم الفقه العويص!

ولكن الأمور منذ القرن الثاني عشر الهجري على الأقل بدأت تتغير تغيراً سريعًا بعد اختراع الآلة وتقدم الأبحاث العلمية والمكتشفات والمخترعات ، مما أحدث أوضاعًا جديدة وعلاقات جديدة لم يكن الفقهاء القدامى وتلاميذهم وشراحهم قد تخيلوا حدوثها ، فلم يستنبطوا لها الأحكام الملائمة من الشريعة الإسلامية.

وهنا كان المفروض أن يعاد فتح باب الاجتهاد لمواجهة هذه التغيرات وبيان حكم الله فيها ليلتزم به المسلمون. إذ مهمة الفقه الدائمة التي لا تتوقف هي مواجهة كل ما يلم بالمسلم في حياته وبيان حكم الله فيه من حلال أو حرام أو مندوب أو مكروه أو مباح ، ليكون المسلم على بينة من ربه في كل أمر يأتيه. ولكن الدولة العثمانية رفضت إعادة فتح باب الاجتهاد» [١]. وفي الواقع فإن باب الاجتهاد ظل مفتوحًا عند جملة من العلماء ، وإن كان الجمهور الأعظم أعلنوا إغلاقه ، وشنعوا على من يحاول فتحه .

ويعزو بعض الباحثين إغلاق باب الاجتهاد إلى أسباب منها : تفرق المسلمين إلى فرق وأحزاب كل فرقة تحاول أن تجتهد في إنزال النصوص الشرعية تبعًا لأهوائها ، ومن هنا سد باب الاجتهاد حتى لا تأخذ أقوال هذه الفرق وآراؤها صفة الاجتهاد فيجوز العمل بها.

وسبب ثان وهو إيحاء الأمراء والحكام ، لأنه كان لا يلي أمر المسلمين إلا من بلغ رتبة الاجتهاد سواء كان في القضاء أو الولاية العامة. وساعد على انتشار هذا القول والانتصار له بعض أدعياء العلم حتى يقال إنهم في عداد العلماء لأن الناس جميعًا صاروا مقلدين لا مجتهدين فيتساوى أدعياء العلم أو أنصاف الفقهاء مع الفقهاء القادرين على الاجتهاد [٢].

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٥٩ ويذكر الشيخ «محمد قطب» أن ذلك كان من الدولة العثمانية عن حسن نية وبغيرة حقيقية على دين الله على أساس أنه لا يوجد في ذلك الوقت من تتوفر فيه شروط الاجتهاد. ولكن نتائجه كانت خطيرة (انظر نفس الصفحة).

(٢) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٨ وكان الحكام أرادوا إبطال هذا الشرط بمن يتولى الإمامة العامة ، فأوحوا إلى الفقهاء بسد باب الاجتهاد.

وقد مر معنا ما أشار أليه الشيخ «محمد قطب» من شعور الفقهاء بالاكتفاء والإستيفاء في مجال الفقه ، وأن الفقهاء الأولين لم يتركوا مسألة إلا تناولوها ، وهذا هو السبب الرئيسي لإغلاق باب الاجتهاد.

وقد كان بعض العلماء يرى في إغلاق باب الاجتهاد سداً للذرائع لأن الورع قل ، والتحفظ على الديانات كذلك ، وكثرت الشهوات وكثر من يدعي العلم ويتجاسر على الفتيا ، ولو فتح لهم ذلك لا تسع الخرق على الراقع ، وهتكوا هيبة المذاهب[١]. ومع كل هذا فليس لهذه الأسباب ما يبررها في نظرنا.

لقد أعلن إغلاق باب الاجتهاد في القرن الخامس تقريباً [٢]. ويقول السيوطي (المتوفى سنة ٩١١) الذي أدرك أوائل القرن العاشر الهجري : لهج كثير من الناس اليوم بأن المجتهد المطلق فقد من قديم وأنه لم يوجد من دهر إلا المجتهد المقيد [٣].

وبعد أوائل القرن العاشر الهجري لم يبق سلطان غير سلطان التقليد ، وجاء زمن لم يبق من الاجتهاد إلا اسمه وأصبح دعواه ، بل دعوى إمكان وجوده ذنباً لا يغتفر ، واقتصرت وظيفة العلماء في اختصار الكتب ، وشرحها والتعليق عليها[٤].

وفي تلك الفترة الحالكة التى نقوم بدراستها كان القول بالاجتهاد وفتح بابه كبيرة من الكبائر ، إن لم يصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر ، وكان من التهم التى وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد ، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحداً منهم لم ينقل عنه القول بذلك [٥] .

ويعتبر الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ مثالاً ظاهراً لما وصل إليه إيذاء المجتهدين ، وتألب أرباب البدع والتقليد من السلاطين والأمراء والعلماء والعوام عليهم ، وإنكارهم الشديد على من نسب ذلك إلى نفسه ولو عن طريق مؤلفاته التى خالف فيها المشهور من المذاهب الأربعة.

---

(١) الفكر السامي ٢/٤٦٣.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٨ : يقول الامام «النووي» : إن الاجتهاد نوعان مستقل وقد فقد من رأس المائة الرابعة. انظر : الفكر السامي ٢/٤٥٢.

(٣) الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ص ٣٨. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

(٤) الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر ص٩٢. د. «سيد محمد موسى» (توانا) الأفغانستاني مطابع المدني بمصر. نشر دار الكتب الحديثة ١٣٩١هـ.

(٥) غاية الأماني في الرد على النبهاني ١/٦٠. وسيأتي مزيد من الحديث عن هذه القضية في الباب الثالث إن شاء الله تعالى.

يقول رحمه الله : «ولكنه قد جفاني جماعة من الذين لا يعرفون الحقائق لصدور اجتهادات مني مخالفة لما ألفوه وعرفوه . وهذا دأبهم خلفًا عن سلف لا يزالون يعادون من بلغ رتبة الاجتهاد وخالف ما دأبوا عليه ودرجوا من مذاهب الآباء والأجداد (١)

وينقل الشوكاني كلاماً للعصامي عند كلامه عن الشيخ ملا علي قاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي وهو قوله : «أحد جماهير الأعلام ومشاهير أولى الحفظ والأفهام » ، ثم قال : «لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لا سيما «الشافعي» وأصحابه واعترض على الإمام «مالك» في إرسال يديه ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم ، ومن ثمة نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء ويعلق «الشوكاني» على ذلك قائلاً : «وأقول ذلك دليل على علو منزلته فإن المجتهد شأنه أن يبين ما يخالف الأدلة الصحيحة ويعترضه سواء كان قائله عظيمًا أو حقيراً ...» (٢).

وقد حاول الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن يحارب تلك البدعة العظيمة ، وأن يقاوم أهل عصره الذين كادوا أن يطبقوا على القول بها ، وأن يبذل من وقته وحياته في سبيل رد الناس إلى الجادة ، وبيان أن الاجتهاد مرتبة لا تقتصر على عصر دون عصر ، ولا على أشخاص دون أشخاص.

ولعل رسالته المسماة بـ (بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد) (٣) خير مثال على ما قلناه . ومن ذلك معظم تراث «الشوكاني» في الأصول والفقه ، حيث نجد أنه من خلال تلك المؤلفات قد قاوم القول بإغلاق باب الاجتهاد أشد المقاومة ، وأنكر على القائلين به أعظم الإنكار (٤).

ويعد كتاب «البدر الطالع» في التراجم والسير الذي ألفه «الشوكاني» رداً عملياً وقوياً على

---

(١) البدر الطالع ٣١٩/١.

(٢) البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع ٤٤٥/١.

(٣) من ترجمة له في أول الروضة الندية لصديق حسن خان .

(٤) قال في إرشاد الفحول بعد ذكر الخلاف في ذلك : وبالجملة فتطويل البحث في مثل هذا لا يأتي بكثير فائدة فإن أمره أوضح من كل واضح وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال وما هذه بأول فاقرة جاء بها المقلدون ولا هي بأول مقالة باطلة قالها المقصرون ، ومن حصر فضل الله على بعض خلقه وقصر فهم الشريعة المطهرة على من تقدم عصره فقد تجرأ على الله عز وجل ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة ، ويالله العجب من مقالات هي جهالات وضلالات. فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب وبالسنة وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء. فإن كان التعبد بالكتاب والسنة مختصاً بمن كانوا في العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة والمقالة الزائفة وهل النسخ إلا هذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٥٤ دار الفكر.

طوائف المقلدة والجامدين ، حيث أورد فيه من تراجم المجتهدين وأحوالهم ما يدمغ به تلك الطوائف المنحرفة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانت تلك الفرية العظيمة سبباً في تأليف ذلك الكتاب الحافل بتراجم عشرات من المجتهدين والعلماء.

يقول رحمه الله في مقدمة الكتاب : «فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض ، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون. وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم، وأنزر نصيب من عرفان ، وأحقر حصة من فهم ، لأنها قصر للتفضل الإلهي ، والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض ، وعلى أهل عصر دون عصر ، وأبناء دهر دون دهر ، بدون برهان ولا قرآن.

على أن هذه المقالة المخذولة والحكاية المرذولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله ومترجم عن كتابه وسنة رسوله ومبين لما شرعه لعباده ، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مرية وذهاب الدين بلا شك ، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت وعند كل حاجة.

حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله وله المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحل عن عنقه عرى التقليد..» (١).

ويعرف «الشوكاني» بالمجتهد فيقول : «وبالجملة فالمجتهد على التحقيق هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي وإن كان في آخر الزمان ، وكأنه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد. فان الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق . وحينئذ يهون الخطب ، وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين» (٢).

وقد كان العلماء المجتهدون يواجهون حرباً شعواء من قبل المبتدعين من المقلدين والجامدين وعلى رأسهم أهل السلطان وذوو النفوذ.

---

(١) البدر الطالع ٢/١.

(٢) أدب الطلب ص ١٢٢.

وخير مثال على ذلك الحادثة التي وقعت في «دمشق» عام ١٣١٣هـ ، واطلق عليها اسم «حادثة المجتهدين» ، حيث اجتمع جملة من العلماء : منهم الشيخ « جمال الدين القاسمي » ، والشيخ «عبد الرزاق البيطار» ، والشيخ «سليم سمارة» ، والشيخ «بدر الدين المغربي» وغيرهم.

ويسوق «القاسمي» أحداث القصة فيقول : وذلك أنه يوم الجمعة العاشر من شعبان سنة ١٣١٣هـ وردت علينا رسالة من دائرة الحكومة مضمونها أن يحضر يوم السبت إلى المحكمة هؤلاء الأفاضل وهم : ـ

الشيخ «عبد الرزاق البيطار» ، والشيخ «سليم سمارة» ، والشيخ «بدر الدين المغربي» ، والشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» ، والشيخ «أمين السفرجلاني» ، والشيخ «سعيد الغر» ، والشيخ «مصطفى الحلاق» ، والفقير جامع الكتاب.

والسبب كما يقول الشيخ وشاية من بعض الحاسدين ، لما اجتمع هؤلاء الأفاضل للمدارسة والمذاكرة ، فيذكر أن «الواشي» ذهب إلى والي «الشام» «عثمان نوري باشا» ، ووشى له عن الجماعة المنوه بهم ما شاء ، فقال له عن الشيخ «بدر الدين» أنه قرر في درسه بعد الجمعة في الأموي على رؤوس العالمين تحريم الدخان!! ، وذم ترك العمائم وشنع على الحيل في الربا التي تجري في المحاكم وكون الخلافة صارت ملكًا عضوضاً ، وغير ذلك مما نقله ذلك النمام عن هذا النحرير الهمام .

وأما الشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» فوشوا عليه بأنه تكلم في درسه بين العشائين في الأموي بنجاسة أعيان المشركين ، وغير ذلك مما لفقوه من المين.

وأما بقية الجماعة فوشوا عليهم بأنهم عدوا أنفسهم من المجتهدين وأنهم يجتمعون على قراءة الحديث الشريف ، ويريدون أن يستنبطوا منه كل معنى شريف!! ، وأنهم صاروا يتذاكرون في أقوال الفقهاء ويبحثون فيها ويتطلبون الأدلة على تلك الآراء!! (١) إلى غير ذلك مما نسبوه إليهم.

ثم يذكر «القاسمي» رحمه الله بداية هذا الاجتماع أنه كان من غير قصد من بعض منهم للمذاكرة والمدارسة ، وأنهم زاد عددهم فجعلوا لهم موعداً من كل أسبوع للفوائد العلمية ثم يقول :

واتفق أن حضر يومئذ رجل ينتمي بزيه للعلماء ، بيد أنه مشاء بنميم ، عتل زنيم ، فعد عليهم أبحاثهم وأحصاها . وبعد انفضاض الجمع قلب موضوعها في المجالس وأفشاها ، فعزز هذا السفيه أخويه السابقين (يقصد اثنين كانا قد قعدا معهم قبل ذلك) وأضحى ثالثهم، وتعاونوا في المجامع على أن ينشروا مباحثهم ، ففشا أمر اجتماعنا وانتشر ، وطار صيته في أقطار «دمشق» واشتهر ولقبوه

---

(١) لقد كان السؤال عن الدليل جريمة عظمى إذ لا يسأل عن الدليل إلا كل ضال يريد أن يخرق السياج المقدس لحرمة الاجتهاد.

جمعية المجتهدين ، ونسبوا مذهبهم إلى الفقير ، وقالوا : المذهب الجمالي ...... ثم دعانا الشيخ «أمين السفرجلاني» ، ودعا العلامة مقدم علماء «الشام» الشيخ «البكري العطار» ، فحضر معنا ضحوة ذلك النهار، وقصد بدعوته أن يطلعه على هذا الاجتماع ، ويريه هل يرى فيه ما ينكره سليمو الطباع ، فلم ير في مباحثنا ما يستنكر! بيد أنه قال : قد ذاع صيتكم بالاجتهاد وانتشر!! (١) فقلنا : أين الاجتهاد ونحن على ما ترى؟ وهل نباهة المرء وحرية أفكاره تعد نكراً ..... ثم لم تشعر الأصحاب إلا والقضية صارت لدى المحاكم، نم بها بعض من يتشوف المظالم ، وقلبوا على الجماعة، ونسبوا لهم عجائب الأمور .... وأمر البوليس أن يخبرهم بحضورهم للمحكمة الكبرى آمنين. وعينوا عقد مجلس كبير رئيسه القاضي «مكي بك أفندي» ، وأعضاؤه المفتي وأعوانه من المنتفشين.

ويذكر «القاسمي» أن المفتي أخذ يسألهم واحداً واحداً إلا من لم يحضر بعذر شرعي ، وكان مما قاله للشيخ «القاسمي» : ما لكم ولقراءة الحديث؟ وعزز بعض مجالسيه هذا القول الخبيث ، بأنه يلزم قراءة الكتب الفقهية ، والحجر على قراءة الكتب الحديثية والتفسيرية!!! (٢) ظناً منه أن العلماء يمتثلون أمره ....

ثم يذكر أنه أوقف تلك الليلة في البوليس. وكان مما قال : ثم تذاكر أهل المجلس بعضهم مع بعض ورأوا أنهم قد أدوا ما لزمهم في تعزير الجماعة من الغرض وكان بودهم أن يقر أحدنا بصريح الاجتهاد ، أو أن يزل واحد منا فيلحقه الحمق منهم والعناد فيبلغوا مأربهم من نفيهم من «الشام».

ثم يحاول أن يلتمس للمفتي بعض العذر فيقول : ونحن لا ننكر أن كثيراً من الأعيان أغروه علينا . . . . ولقد قال له بعض المشايخ المتصدرين : إن هؤلاء إن دام جمعهم لا نأمن أن يردوا فتوى المفتي حيث إنهم يناقشون الأقدمين . كما أن بعض المشهورين قال له : لو كان المفتي «الحمزاوي» حيًا ما جسر أحد على دعوى الاجتهاد (٣).

هكذا كان اجتماع أهل العلم للتذاكر والتدارس في كتب الحديث والتفسير في تلك الفترة الحالكة ذريعة للجهال والمقلدين أن يتسلطوا عليهم بالإيذاء والحبس والنفي والتشهير بدعوى الاجتهاد ومحاولة منعهم من قراءة كتب الحديث النبوي ، وكتب التفسير التي تساعدهم على اقتحام سياج التقليد!. وقصرهم على كتب الفقه المذهبية من مختصرات وشروح وحواش.

---

(١) وتلك جريمة كبرى لا تغتفر في تلك الفترة الحالكة كما ذكرنا.

(٢) يا سبحان الله ! هذا مع الحديث يمنعون من قرآته لئلا يستنبطوا منه الأحكام فيصبحوا مجتهدين ، ولكن ماذا يصنعون في القرآن. أيمنعون الناس من تلاوته للسبب نفسه ، في الواقع أنهم لم يفكروا في ذلك لأن القرآن قد فقد مكانته عندهم وأضحى يتلى في المآتم وعلى الموتى وأمام الأضرحة ويكتب في التعاويذ. ويكفيهم من ذلك منع كتب التفسير.

(٣) جمال الدين القاسمي وعصره ص ٤٨ ـ ٦٩.

ومن جملة ما رمى به المبتدع المدعو «يوسف بن إسماعيل النبهاني» (المتوفى ١٣٥٠هـ) [(١)] أهل الدعوة السلفية دعوى الاجتهاد. ظنًا منه بفرط جهله أن تلك دامغة يدمغهم بها ، وكبيرة من الكبائر يلصقها بهم نظرًا لما كان سائدًا في ذلك العصر من تحريم الاجتهاد.

يقول «النبهاني» [(٢)] : القسم الأول من المقدمة في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق ، الذي تدعيه - بالباطل - فرقة الوهابية ، ومن أعجبه شأنهم من جهلة المبتدعين شذاذ المذاهب الإسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة، لأصحاب الدعاوي الكاذبة)، ثم ذكر خطبة هذه الرسالة، إلى أن قال : فأقول : إن دعوى الاجتهاد في هذا الزمان - منهم ومن غيرهم مطلقًا مهما كان عالمًا - هي دعوى كاذبة ، لا يلتفت إليها ولا يعول عليها . قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين) الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالإمام «الشعراني» ، والإمام «ابن حجر الهيتمي»، والإمام «النووي» وغيرهم ، بما يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم، إلى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم إلا مختل العقل والدين [(٣)] ، إلا من طريق الولاية [(٤)] ، كما قاله الشيخ الأكبر «محيي الدين بن عربي» .

ثم نقل ما نقله «المناوي» في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن «ابن حجر المكي» ، أنه قال : لما ادعى «الجلال السيوطي» الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة ...... قال «الشهاب» : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها - فضلاً عن مدعي الاجتهاد المطلق - في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وأنه ممن ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة ، بل قال «ابن الصلاح» ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر إلى عصر «ابن حجر» وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، إذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر وهو عام تأليفي لكتاب (حجة الله على العالمين) .... فإذا لم يتأهل الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعي ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق»[(٥)].

---

(١) الأعلام ٢١٨/٨.

(٢) من كتاب له أسماه «شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق» لم أقف عليه.

(٣) وكأن مدعيه قد ادعى النبوة وأتى بجائحة من جوائح الدهر. انظر توضيح ذلك في غاية الأماني ٦٤/١.

(٤) قاتل الله أرباب البدع والتصوف والضلال ، أرأيت كيف يبيحون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم ، فيحرمون حرية الفكر والنظر على أهل العلم والدين ، ويبيحونه للطرقية والمخرفة من مدعي الولاية والجذب من الدجالين وغيرهم.

(٥) غاية الأماني في الرد على النبهاني ٥٨/١.

وكما اعتبرنا الإمام «الشوكاني» مثالاً ظاهراً وحيًا لما كان يلقاه المجتهدون في تلك الفترة من أذى وعداء ، فإن «النبهاني» ليعد المثال الأظهر على موقف السواد الأعظم من الجامدين والمقلدين الذين يحرمون الاجتهاد ، ويحاربون من حام حول حماه.

وكذلك ما تفوه به «النبهاني» في هذا المقام من نسبة الاختلال في العقل والدين الى مدعى الاجتهاد حتى ولو كان أهلاً لذلك ، وتضخيمه لمرتبة الاجتهاد ومبالغته فيها حتى إنه ليكاد أن يلحقها بمرتبة النبوة كل ذلك كان لا يعدو النظرة القائمة التي كان ينظر بها أهل عصره إلى الاجتهاد والمجتهدين ويمثلها أصدق تمثيل.

ومن هؤلاء «داود بن جرجيس» (المتوفى سنة ١٢٩٩هـ) الذي تصدى لمنافحة أهل الدعوة السلفية ، وكان من أشد خصومهم ، ألف رسالة أسماها «أشد الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد» رد بها عليهم فيما نسب إليهم من دعوى الاجتهاد. إذ كانت دعوى الاجتهاد في ذلك الزمن أم الموبقات ورأس الكبائر [١].

وهذا الشيخ «شهاب الدين المرجاني» (المتوفى سنة ١٣٠٦هـ) «كان عالم عصره في بلاده ، أصله من قرية «مرجان» التابعة لولاية «قزان» ودرس في بخارى وسمرقند ، وتولى الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الأول بقزان سنة ١٢٦٦هـ ، وتخرج على يديه كثير من العلماء وكان مجاهراً بالاجتهاد وانتقاد بعض المتقدمين [٢] فعاداه معاصروه ، فانعزل عن منصبه ثم عاد إليه [٣].

أما الشيخ «عبد الحق بن فضل العثماني البنارسي» (المتوفى سنة ١٢٧٦هـ) فقد كان لا يتقيد بمذهب، ولا يقلد أحداً في شيء من أمور دينية [٤] ، بل يعمل بنصوص الكتاب والسنة، ويجتهد برأيه، وبذلك جرت بينه وبين الأحناف مباحثات كثيرة في الاجتهاد والتقليد ، ومن مصنفاته «الدر الفريد في المنع عن التقليد» وشنع عليه المتعصبون ، وحبس «بمكة» بدعوى انتقاص الأئمة المجتهدين، ثم اطلق وسافر إلى المدنية فوشوا به إلى القاضي ، ففر منها متخفيًا!! [٥].

وقد استمرت تلك اللوثة في معاداة المجتهدين والتصدي لكل من يحاول الاجتهاد بعد ذلك ، وكانت مناهج التعليم ضحية من ضحايا تلك اللوثة ، كما كان للأزهر دور كبير في المحافظة على

---

(١) الأعلام ٢/٣٣٢. وقد رد عليه الشيخ «عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ» رحمه الله بكتابه المعروف (منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود ابن جرجيس).

(٢) يعني في مخالفته لهم في بعض المسائل ، حين آثر ما رآه دليلاً على ما ذهبوا إليه.

(٣) الأعلام ٣/١٧٨.

(٤) هكذا في الأصل. ولعلها من أمور دينه وهو الأقرب.

(٥) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٢٤٠.

إغلاق باب الاجتهاد، وحرص علمائه على أن يبقى ذلك الباب مسدوداً، وكأنهم قد آثروا الدعة والخمول من خلال عكوفهم على كتب السابقين لا يتجاوزونها أبداً.

يقول أحد الدارسين بالأزهر بعد أن تكلم على قضية الاجتهاد وإغلاق بابه والحكم على المجتهدين بالضلال: «وهذا مسطور في كتب الفقهاء، طالعنا ذلك ونحن في المراحل الأولى من التعليم الأزهري عند الكلام على أن لفظ الطلاق يقع ثلاثًا ـ ولابن تيمية» و«وابن القيم» ، أنه يقع واحدة ثم قيل عن «ابن تيمية» إنه ضال مضل. وصل الأمر إلى هذا، يرمي المجتهد بالضلال والإضلال، إنه لبلاء حل بالمسلمين وركود فقهي ساد عقول المفتين» (١).

ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين الى يومنا هذا.

«فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته .. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة ، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة ، لأن هذا الظل لم يمد ـ بالاجتهاد ـ حتى يغطيها.

وقد حدث الأمران معًا ، الواحد تلو الآخر .. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة» (٢).

فبعد أن ساد الجمود والتخلف الحياة الإسلامية ، ونضبت الروح المتدفقة التي كان قد أطلقها الإسلام في القرون المفضلة ـ في سائر المجالات ، كان لا بد من وقفة صادقة للرجوع الى المنهج الإسلامي الأصيل ، والعودة السريعة الى عقيدة أهل السنة والجماعة التي تمثل ذلك المنهج في واقع الحياة ، وفتح باب الاجتهاد الذي كأن قد أوصده الجامدون والمقلدون ، وأحكموا إغلاقه ، حتى تبعث تلك الروح الموءودة ، وتسطع شمس الاجتهاد والعلم لتصهر ما تراكم في حياة الأمة من جمود ، وتزيل ما أصابها من تخلف وركود ، لتواكب مسيرة الحياة في العالم المتجدد الذي أخذ يشق طريقه في دنيا العلوم والتقدم والاختراع ، ولكن أمراً كهذا لم يحدث مطلقًا ، بل على العكس من ذلك تماماً. حيث كان الذي يقع أنه كلما تجددت الأحوال ، وترقت الأمم في مدارج التقدم والمعرفة أن يتسارع أهل العمى وفاسدو البصائر من الجامدين والمقلدين في رد كل جديد ، وفي زيادة الأقفال والأوصاد على باب الاجتهاد مع شدة الحاجة أليه.

---

(١) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٨. د. «عبد الحميد ميهوب».

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٩.

ولكن عجلة الحياة كانت أسرع وأقوى من تخبط هؤلاء الجاهلين ومقاومتهم التي سرعان ما اندفعت محطمة ما أفنوا أعمارهم في إغلاقه ، وما تواصوا به خلفًا عن سلف من إيصاده ، ليخرج الأمر من أيديهم إلى الأبد ، ولم يعد خارجًا عن ميدان الاجتهاد فحسب ، بل عن الإسلام كله.

«وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة ، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً ، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل .. وكان من هذا أن مضى الناس من غير المسلمين - يواجهون كل جديد ، ويتعاملون معه ، ويستولدون منه جديداً .. وهكذا سار الناس - من غير المسلمين - قدماً مع الحياة ، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون» [(١)].

وكان استيراد المبادئ والنظم من أوربا أثرًا عميقًا بالغ الخطورة ، نتج عن سوء الأحوال الدينية التي تحدثنا عنها ، وبوجه أخص ، بما وقع من قفل لباب الاجتهاد وحرص متواصل على عدم فتحه ، ومقاومة كل من يحوم حوله. وسيأتي بحث هذه القضية عند حديثنا عن الآثار الخارجية في الباب الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه ص ١٤٤. «عبد الكريم الخطيب» . دار الأصالة. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

الباب الثالث

الآثار المترتبة
على الانحرافات العقدية والعلمية
في القرنين
الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

الآثار المترتبة
على الانحرافات العقدية والعلمية
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول : الآثار الداخلية (تفشي الضعف في الأمة)

الفصل الثاني : الآثار الخارجية .

الفصل الأول

الآثار الداخلية

(تفشي الضعف في الأمة)

ويتكون من أربعة مباحث :

المبحث الأول : الضعف السياسي والحربي

المبحث الثاني : الضعف الاقتصادي

المبحث الثالث : الضعف العلمي

المبحث الرابع : الضعف الاجتماعي والأخلاقي

تمهيد

إن الدارس للانحرافات العقدية والعلمية في تلك الفترة الحالكة ليجزم بأنه لابد أن تتمخض تلك الانحرافات السيئة عن آثار خطيرة تؤثر في حياة الأمة الإسلامية ، ويرى أن ما أصابها من ضعف وهبوط في شتى نواحي الحياة ، وما تعرضت له - وما زالت تتعرض له - من تسلط الاستعمار وتبعيته ومن غزو فكري ونشاط تنصيري إلى غير ذلك لهو نهاية طبيعية لما آلت إليه أحوال المسلمين العقدية والعلمية من ضعف وانحراف ، ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ [فصلت ٤٦] ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ [الرعد ١١]. ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا. قل هو من عند أنفسكم** ﴾ [آل عمران ١٦٥].

وقد رأينا في الباب الأول عظم هذه الانحرافات الدينية وانتشارها وطغيانها على حياة المسلمين فضعف العقيدة الصحيحة وغربتها ومحاربتها واتساع الفكر الإرجائي ، ومحاولة القضاء على عقيدة الولاء والبراء من قبل بعض الحكام ، وتفشي الشرك الأكبر بعبادة الأولياء وبناء الأضرحة والقباب ، وهيمنة الصوفية بطرقها وطقوسها المبتدعة على حياة الناس ، وتفاقم حدة التعصب المذهبي، وجمود المناهج التعليمية ، ورفض إعادة فتح باب الاجتهاد ، وازدياد نشاط الفرق الباطنية وغيرها في حرب المسلمين والتآمر عليهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى والوثنيين ، وأخيراً تقصير علماء المسلمين في أداء واجبهم ، وابتعادهم عن قيادة الأمة . وكل ذلك المزيج الهائل من الانحرافات كان له تلك الآثار الخطيرة في حياة الأمة .

ويخطئ الكثير من المفكرين خطأً فادحاً حين ينظرون إلى هذه الآثار المدمرة على أنها أسباب ضعف الأمة وانحطاطها ، وأنه إذا تم القضاء على تلك الآثار نهضت الأمة وعادت قوية من جديد ، ويتجاوزون أو يغفلون عن النظر إلى الأسباب الحقيقية التي تمثلت في الانحرافات العقدية التي كانت موضوع الباب الأول من هذه الرسالة.

إن هؤلاء المفكرين بمثابة طبيب غير حاذق في مهنته ، يعرض عليه مريض ، فلا يوجه عنايته إلا للقضاء على علامات المرض وأعراضه كارتفاع درجة الحرارة ، ولا يتجاوز باهتمامه إلى الكشف عن حقيقة هذا المرض فيحاول علاجه وقد ينجح فعلاً في تخفيض درجة الحرارة ، ولكن إلى حين؛ لأن المرض الحقيقي لا زال موجوداً.

فالحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة ، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي والانحراف الديني.

وما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة. ومن هنا يأتي حديثنا عن تلك الآثار بوصفها آثاراً ناتجة عن الانحرافات العقدية والعلمية .

ولا بد أن نذكر أن هذه الآثار كانت متشابكة ومتداخلة ، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالضعف ؛ السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي ، ويتأثر به ، وهكذا ، ولكننا سنركز الحديث على تلك الآثار كلٌ على حدة. وإنه ما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية المتمثلة في الانحرافات العقدية ، فليس بالإمكان أبداً أن يقضى على تلك الآثار ، وقد رأينا جميع المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي في ذلك المضمار قد باءت جميعاً بالفشل ؛ لأنها لم تفكر أبداً في معالجة الأسباب الحقيقية، ولن تفلح في أي خطوات إصلاحية في المستقبل، ما دامت غافلة عن تلك الأسباب الرئيسة .

* * *

الآثار الداخلية لتفشي الضعف في الأمة

المبحث الأول : الضعف السياسي والحربي

إن الأمة الإسلامية في اعتقادي لم تشهد ضعفًا سياسيًا كالذي شهدته في تلك الفترة. ويكفي في ذلك تسمية الدولة العثمانية الكيان السياسي الكبير للأمة الإسلامية باسم «الرجل المريض»(١) وهي تسمية توافق ما كانت عليه تلك الدولة المترامية الأطراف من ضعف وتفكك واندلاع للثورات في كثير من أجزائها.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ، والنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري انتشرت الفتن واندلعت الثورات في كل مكان ، وكان فقدان الأمن ، واضطراب الأوضاع السياسية طابعًا عامًا لتلك الفترة ، ولا نكاد نرى بلداً واحداً إلا وكان مسرحًا لصراعات دموية عنيفة. وكان الصراع على الحكم شيئًا مألوفًا عند الناس ، وقد يستمر الصراع سنوات طويلة ، كالصراع بين العثمانيين وبين المماليك في مصر. والصراع بين أسر الأشراف للاستئثار بالسلطة في بلد الله الحرام ، وغير ذلك.

وفي حين شاخت السلطة المركزية في الأستانة ، وضعفت قبضتها على البلدان التابعة لها ، قامت بعض الولايات بمحاولة الانفصال عنها ، ومن هذه الولايات مصر واليمن.

وكانت بعض البلدان مناطق متفجرة بالصراع الدائم كالبلقان والأناضول. وكان انتشار السلب والنهب والقتل وقطع الطريق في كافة أنحاء العالم الإسلامي سمة رئيسية لتلك الفترة. ويظهر ذلك بأدنى مطالعة لكتب التاريخ في ذلك العصر . كل ذلك يبرز لنا مدى الضعف السياسي الذي كانت الأمة غارقة فيه.

هذا بالإضافة إلى ما قامت به الفرق الباطنية من ثورات متتابعة كما رأينا ذلك عند حديثنا عن الفرق ، واستنفدت به كثيراً من جهود الدولة السياسية والحربية.

«ومنذ نهاية القرن الثامن عشر (الميلادي) فقدت الدولة العثمانية القدرة على المبادرة بالهجوم والتزمت سياسية الدفاع والتنازل عن بعض ممتلكاتها الأوربية كثمن لعقد الصلح ووقف الحرب ،

(١) لقب أطلقه قيصر روسيا «نقولا الأول» سنة ١٨٥٣م ، وأصبح بعد ذلك متداولاً ومشتهراً في ذلك الزمن ، لمزيد من التفصيل، انظر الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/ ٨٣٠.

وحال التنافس بين الدول الأوربية دون أن تلتهم دولة أوربية بمفردها الدولة العثمانية ، الأمر الذي أعان الدولة على أن تقف على قدميها أمام التهديد الأوربي حتى الحرب العالمية الأولى» (١).

وإذا كان التنازل عن بعض الممتلكات يعد صورة من صور الضعف الذي أصاب الدولة ، فإن الامتيازات الأجنبية صورة أخرى من صور ذلك الضعف حين «تطرق الضعف إلى الدولة العثمانية وامتد إلى أرجاء ممالكها المترامية الأطراف . وأخذت الدول الأوربية في الحصول على الامتيازات الأجنبية والمعاهدات الطائفية التي تخول لكل دولة نصرانية حماية أتباع مذهبها في بلاد الدولة» (٢).

«وكانت الدول الأوربية الكبرى لا تنفك عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية ، بطرق وأساليب مختلفة ، وذلك استناداً إلى «الامتيازات الأجنبية......».

إن الامتيازات المذكورة كانت قد نشأت من الفرامين التي أصدرها ، والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان ، في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات.

إنها كانت أخذت شكل «نظم تعهدية» لم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها ، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحطاط فصارت الدول المذكورة تعتبر تلك الامتيازات بمثابة «حقوق مكتسبة» لها ولرعاياها وحتى لكل من تشملهم بنعمة «حمايتها» من تبعة الدولة نفسها» (٣).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من هذه الامتيازات قد منحت في فترة بلغت فيها قوة الدولة العثمانية أوجها كالامتيازات التي أعطاها السلطان «سليمان القانوني» لحكومة فرنسا ورعاياها ومن يحتمي بها (٤). ويعلق الدكتور «إحسان حقي» على ذلك بقوله : «ومن الغريب جداً أن تعقد الدولة العثمانية وهي في أوج عظمتها وقوتها ، معاهدة مع دول الغرب بمثل هذا التسامح الذي بلغ حد الذل والضعف..» (٥).

وكانت السلطنة على غرورها بنفسها كريمة في عقد هذه المعاهدات ، ومنح هذه الامتيازات دون

---

(١) تاريخ العرب الحديث . العراق ١/٩٠.

(٢) بلاد الشام في القرن التاسع عشر ص ٢٨٥ دراسة وتحقيق د. سهيل ذكار . دار حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٢ ساطع الحصري. دار العلم للملايين. الطبعة الثالثة ١٩٦٥م.

(٤) تاريخ الدولة العلية ص ٢٢٣ «محمد فريد بك المحامي» . تحقيق الدكتور إحسان حقي. دار النفائس. بيروت. الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٩٨ د. محمد حرب. دار القلم. دمشق. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٥) تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٣٠.

نظر إلى المستقبل البعيد ...... ولكن السلطنة فيما بعد وجدت نفسها أمام معاهدات وامتيازات كانت تقيدت بها إبان قوتها السابقة ثم تحولت إلى سلاسل وأغلال طوقت عنقها ويديها ، وجدت نفسها أنها ليست عاجزة عن التخلص منها بل ما إن ضعفت عزائمها ، واسترخت قواها ، حتى فرضت عليها الدول الأوربية معاهدات وامتيازات أخرى أثقل من سابقاتها ، وأشد تقييداً لحريتها» (١).

ومن هذه الامتيازات «أن الأوروبيين الذين يؤمون البلاد العثمانية ـ ويعملون فيها ، ويرتزقون منها ـ كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة ، تجعلهم «مفضلين» على أهل البلاد ، في ميداني القضاء والاقتصاد. وبناء على هذه الامتيازات ، ما كان يحق لسلطات الأمن والعدل أن تفتش مسكن أحد من هؤلاء الأجانب لأي سبب كان ، ولا أن تحقق معه أو تحاكمه ... إلا بحضور ممثل عن قنصلية الدولة التي ينتسب إليها.

كما أنه ، ما كان يحق للحكومة العثمانية ـ بناء على تلك الامتيازات ـ أن تجبي من الأجانب أي ضريبة مباشرة. فكانت المتاجر والمصانع والمصارف الأجنبية ، تعمل في البلاد العثمانية بكل حرية ، وتتصرف بأرباحها كما تشاء ، دون أن تدفع أية ضريبة عن تلك الأرباح للحكومة أو البلدية» (٢).

جاء في كتاب «التبشير والاستعمار» : «الامتيازات الأجنبية كما يدل الاسم ، كانت تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية النازلين في الامبراطورية العثمانية أو السائحين فيها أو المارين بها مروراً «امتيازات» لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم . ومن أشهر هذه الامتيازات إعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة ومن جزء كبير من رسوم الجمارك. ثم إن السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل أجنبي مهما كان السبب، حتى لو أن جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية أن تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت . إن البيت الذي كان يسكنه رجل انكليزي أو فرنسي أو يوناني أو اسوجي أو برازيلي ، كان يعتبر جزءاً من انكلترا أو فرنسة أو اليونان أو اسوج أو البرازيل.

وكذلك كان لكل أجنبي أن يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء. فاذا اتفق أن ناله سوء ـ ولو قضاء وقدراً ـ فإن حكومته تطالب بديته أضعافاً مضاعفه ، وقد تشدد أحياناً حتى تنال امتيازات سياسية وتجارية جديدة لم تكن لها من قبل. وكانت القوانين العثمانية لا تطبق على الأجانب النازلين في الامبراطورية العثمانية» (٣).

---

(١) فلسفة التاريخ العثماني ص ٨٨ محمد جميل بيهم. شركة فرج الله للمطبوعات. بيروت. ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٣.

(٣) التبشير والاستعمار ص ١٣٢ د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ. منشورات المكتبة العصرية. بيروت. ١٩٨٣م.

وكان أحد هؤلاء الأجانب أو المحميين يتخطي القوانين ويخالف مبادئ الإنسانية فإذا تعرض له متعرض شمخ بأنفه وقال : «أنا أجنبي» أو «أنا حماية أجنبية» روى «عبد الله المشنوق» شيئًا من هذا قال : «من ذلك حادثة شهدتها بأم عيني - دهست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية : القنصلية ، لا شأن لي معك. وتابع (السائق) طريقه تاركًا الطفل المسكين يعاني سكرات الموت» (١).

«وعندما قام الباشا التركي بإغلاق حانة للخمور لرجل يوناني عام ١٨٥٦م احتج القنصل اليوناني على ذلك ثم فتحها ؛ لأن صاحبها يتمتع بحماية دولة مسيحية .... وكذلك كانت الخمر تشحن من انكلترا إلى الامبراطورية العثمانية لتفتك بالشعوب العثمانية» (٢).

وعندما وقعت أحداث الستين المشهورة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م (٣) - ، كان من أسبابها ما تمتع به النصارى من نفوذ في ظل تلك الامتيازات الأجنبية ، يصور ذلك لنا «الحسيبي» أحد شهود العيان من المسلمين لتلك الأحداث فيقول :

«إن نصارى الشام طالبوا برفع الجزية والخراج وما زالوا بالدولة العلية حتى استجابت ، وصار الفرنج يتدخلون في شئون سورية، ويقولون للنصارى بأنه موجب التنظيمات الخيرة [إصلاحات ١٨٣٩م - ١٨٧٦م] الإدارية والتشريعية ، المسلم والنصراني واحد ، كلهم مخاليق الله وليس هناك ما يمنع النصارى أن يلبسوا مثل ما يلبس المسلمون ، وأدى هذا إلى شطط كبير بين النصارى ، ومن ثم صار إذا تشاجر نصراني مع مسلم مثلما يقول له المسلم يقول النصراني وأزود ، وإذا تشاكوا إلى الحكومة تأخذ بيد النصراني ، حيث كل واحد من طائفة النصارى له أقارب داخل أحدهم تحت حماية أحد الأجانب ويعد من رعيته وكان أكثرهم تحت الحماية الفرنسية ، حتى أن كل من له شكوى على واحد من المسلمين يحولها إلى واحد من الرعايا الأجانب ، وإذا ما حدثت مشاجرة مع أحد النصارى ، كائنًا من كان المتشاجر من المسلمين يقول النصراني : أنا من رعايا الدولة الفلانية ، مع أن الحال

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٩.

(٣) سميت بأحداث الستين لأنها وقعت سنة ١٨٦٠م. وتعود أسبابها في الحقيقة إلى ما كان يتمتع به النصارى من امتيازات في ظل الدول الأوربية الكبرى. وبدأت بنزاع بين النصارى والدروز في جبل لبنان ، ثم شملت أجزاء أخرى ، واشترك فيها المسلمون مع الدروز ضد النصارى . ووقعت بعض مذابح من كلا الفريقين ، ولكنها زادت في جانب النصارى. وبالغت الدول الغربية فيها ، وطوقت أساطيل فرنسا الساحل اللبناني. واستغلت الواقعة بعد أن ضخمت في الضغط على الدولة العثمانية التي قامت بعدة إجراءات نتيجة لذلك. منها إعدام والي الشام متهمة إياه بالتساهل حيال تلك الفتنة ، وإعدام بعض العلماء والتجار ، ونفت فريقًا كبيرًا منهم.

ليس ذلك بل يكون أحد أقاربه أو أحبائه هو حاميه ، واعتاد كل قنصل أن يرسل مندوبه «القواص» إلى السجن لاخراج من تثبت عليه جناية من النصارى بحجة أنه سيسجنه في بيته ، مع أن ذلك كذب. واذا كان الحق على المسلم يطلب النصراني «شرفية» ويحبس المسلم أكثر مما أثبتت عليه جنايته ، فلو قضى القانون أن يحبس عشرة أيام يحبس عشرين ...... واستمر هذا الحال نحو من سبع سنين أو أكثر.

ثم يتحدث عن نصارى زحلة فيقول : وازداد شغب نصارى زحلة ، وظهر منهم البغي على كافة الملل من المسلمين وغيرهم ، حتى أنه لو وجد مسلم داخل إلى زحلة راكب يحولوه عن الدابة غصباً وإذا لم يتحول يرمونه عن ظهر الدابة إلى الأرض ويسبوا نبيه ، وكان من جملة بغيهم تسميتهم لكلابهم على أسماء الأنبياء والصحابة ، وكثيراً ما حدث أن أحد المسلمين مار بزحلة ، وقد علم أهلها باسمه : عمر أو علي أو غيره ، فينادونه وعندما يلتفت الرجل يقولون له : لسنا نناديك بل نصرخ إلى الكلب (١).

وهذه الامتيازات السياسية التي منحتها الدولة العثمانية أصبحت «مشاعًا» للجميع في بلادها وتعدت حد الحقوق الدولية إلى التدخل في شؤون السلطة الخارجية حتى أفضى هذا التدخل إلى تقييد حريتها. ويكفي للتدليل على ذلك الاشارة إلى الحد من حرية تركيا (٢) في ناحية وضع الرسوم الجمركية وتوجيهها في هذا توجيهاً مضراً بمصالحها. فالمعاهدة التي عقدتها مع فرنسا ١٨٣٨م حتمت عليها أن لا تتقاضى عن البضائع الداخلية لجماركها إلا خمسة في المائة بينما حددت الرسوم على صادراتها ١٢٪ . وهذا ما حدا بكامل باشا الصدر الأعظم خلال حرب البلقان أن يقول : «إن

---

(١) بلاد الشام في القرن التاسع عشر. ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦. من مذكرات محمد أبو السعود الحسيبي الدمشقي وقد أثبتنا النص كما هو في الأصل ، بصرف النظر عن ركاكة الأسلوب ، والصيغ العامية الواردة فيه.

ومما يذكر أن اليهود في بلاد الشام كانوا أداة السياسة البريطانية القائمة على تعميق وتحريك الفتن الطائفية ، وهم الذين لعبوا دوراً بارزاً في فتن ١٨٦٠م ، وزادوا من حدتها، وهذا ما تؤكده الوثائق المعاصرة وتقارير القناصل الأجانب، فقامت الدولة العثمانية وقتذاك بالقبض على بعض منهم ، بعد أن علمت دورهم في هذه الفتن ، وأكد هذا الدور كل فئات الشعب من المسلمين والمسيحيين من أهل الشام ، لا سيما في مدينة دمشق ، وطلب أعيان اليهود حماية بريطانيا التي سارعت الى تلبية طلبهم . وقد استطاع التدخل البريطاني أن ينهي هذه الأزمة لصالح اليهود ، حيث خرج من قبض عليه سوى اسرائيلي واحد لتراكم الشكوى عليه وعدم تقديم الشهود لتبرئته.

ص ٥٥ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية . حسان علي حلاق ١٩٧٨م جامعة بيروت العربية.

(٢) هذه التسمية (تركيا) من المصطلحات الواردة من أوربا وهي بمعنى الدولة العثمانية. ولم تأخذ طابعًا رسميًا إلا عام ١٩٢٣م حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا وإلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال أتاترك. واستخدمت هذه التسمية لإبعاد الشعب التركي عن الخط الإسلامي ونبذ تقاليدها.

انظر تفصيل ذلك في الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/١١ ـ ١٢.

تركيا هي الدولة الوحيدة التي ليس لها حرية التصرف بأموالها والسيطرة على دخلها ، حتى إن كل قرش من مواردها لا تحصل عليه إلا بعد صدور السماح من الدول». [١] .

«وكانت هذه الامتيازات عقبة كؤوداً أمام الدولة حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم؛ ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى [٢].

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولكنه تجاوز ذلك «الى أن الدول الأوربية تجاوزت هذه الحدود وتعدتها إلى تقرير حقوق مكتسبة في السلطنة ليس لها أساس في المعاهدات من ذلك البرد الأجنبية التي ما وسع السلطان «عبد الحميد الثاني» إلا أن يعرب عن أسفه لوجودها حيث قال في مذكراته : «أما السبب الذي أدى إلى إنشاء دور البرد الأجنبية في تركية فهو أن أسلافي على العرش العثماني سمحوا بدون اكتراث وبنية حسنة ، لرسل السفراء الأوربيين بحمل رسائل خصوصية ، وقد انتقلت هذه العادة على ممر الأيام إلى نظام بريد أجنبي واسع ، كما هو اليوم ، وخسرت تركيا بهذه الطريقة أموالاً طائلة .....

إن بلادنا هي البلاد الوحيدة الصابرة على هذا الضيم. فللنمسا في المملكة ثلاثون شعبة بريد ، ولروسيا أربع وعشرون ، ولفرنسا عشرون ، ولايطاليا ثماني ، ولالمانيا خمس ، ولانكلترا أربع ، والهند اثنتان» [٣] . وللعلم فإن خسارة الأموال العظيمة ليست وحدها هي الثمرة المرة لتلك البرد الأجنبية ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها غدت أوكاراً للجاسوسية ومقرات للتآمر على الدولة التي هي في مأمن منها. وقد بلغ عدد القناصل في «حلب» وحدها نحو ١٥٠٠ رجل «والسبب في ذلك أن الدولة سمحت لكل سفير في «استانبول» ولكل قنصل خارجها بشخص وترجمان استثنته من جميع التكاليف الأميرية فانفتح بسبب ذلك باب لمن أراد الدخول في الترجمانية» [٤].

«والخلاصة فان هذه الامتيازات الأجنبية المختلفة جعلت تركيا مستعمرة ، ولكنها ليست مستعمرة لدولة واحدة بل للدول القوية كافة ، ولا أدل على ذلك من قول «رينه بينون» الفرنسي حين أعلن صراحة (لا توجد في العالم بلاد كالمملكة العثمانية يجد فيها الغرباء ، ولا سيما الفرنسيون ، حرية العمل وثمرات الجد ..... وإن الافرنسيين لم يستعملوا رؤوس أموالهم في بلد آخر حتى ولا في مستعمراتهم مثلما استعملوها في تركيا للاستثمار ، وكانت تلك الامتيازات وبالاً على السلطنة في

---

(١) «فلسفة التاريخ العثماني ص ٩٥.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٧٥٠.

(٣) فلسفة التاريخ العثماني ص ٩٦.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣١١.

كل ناحية. ويكفي أنها جعلت الشعب العثماني غريباً في وطنه ، بينما أصبح الغرباء فيه يمشون تيهاً واختيالاً ، لا يطالهم القانون بل هم يحمون من يشاؤون من القانون» (١).

وقد تمادى الضعف السياسي بالدولة العثمانية، وأخذ المستعمرون يتآمرون فيما بينهم لاقتسام تركة الرجل المريض الذي بات يحتضر بفعل الضربات المتتابعة إلى جسده العليل. «هذا المرض الذي انتاب السلطان العثماني إنما هو تعبير دبلوماسي قصد به الضعف السياسي والعسكري بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور في القرن التاسع عشر. حقيقة كان الجانب من الضعف الذي أصاب الدولة يرجع إليها ....

ولكن كانت الدول الأوربية الكبرى هي المسئولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذي ألم بالدولة، أخذت الروسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الإقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في وسط أوربا وفي حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان وتغلغلت الروسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز. وأصبحت هاتان الدولتان في حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدت قوة الدولة وحيويتها ، ولم تعطياها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها.

ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها. ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس. واحتلت ايطاليا جزر الدوديكانيز وولايتي برقة وطرابلس. وهكذا اتبعت الروسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها» (٢) حتى لقد وصل الأمر إلى إصدار مائه مشروع لتقسيم الدولة العثمانية (٣).

وفي خضم هذه الأحداث الهائلة ، ووسط هذه الظروف الصعبة ارتقى السلطان «عبد الحميد الثاني» عرش الدولة عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م ، وشمس الدولة تأذن بالأفول ، فحاول بما أوتي من حنكة وسياسة ووعي أن يبقي على ذلك الكيان المتداعي ، ودعا إلى فكرة الجامعة الاسلامية باعتباره خليفة المسلمين ، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير ولكن الانحرافات الدينية كانت تتسع دائرتها والضعف يزداد بالدولة وضغوط الدول الأوربية تشتد ، وكان ذلك جديراً بأن يجعل من الجهود الكثيرة التي بذلها السلطان «عبد الحميد» ضعيفة التأثير أو عديمة الجدوى.

---

(١) المصدر السابق ص ٩٦.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢/٨٣٣.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ٣/٣١٧ لوثروب ستودارد. ترجمة عجاج نويهض. بتعليق الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م.

فإن حجم تلك الانحرافات وثقلها كانت أكبر بكثير من الجهود التي بذلت في سبيل الابقاء على الكيان المتداعي للدولة خصوصاً وقد كان كثير من تلك الجهود المبذولة مشوبة ببعض هذه الانحرافات ومتأثرة بها.

«وقد أفاد «عبد الحميد» من نزعته الصوفية بدون شك فاستقطب «الدراويش» وتقرب إلى العامة والبسطاء كما أكرم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية، وقرب النابغين من رجالات هذه الفرق. وكان العداء بين «عبد الحميد» والدعوة السلفية بسبب من ضراوتها في الهجوم على الطرق الصوفية» (١).

«كما يبدو أن السلطان «عبد الحميد الثاني» وجد في النظرة الصوفية الاشراقية ما يحقق حاجة الدولة العثمانية المتداعية في التفاف الرعية حول الخليفة باعتباره «ظل الله في الأرض» تعزيزاً للجامعة الإسلامية» (٢).

فتشجيع «عبد الحميد» ودولته للتصوف ورجال الطرق والاتكال عليهم في مقاومة رياح التغريب والاستعمار واتخاذ ذلك أشرعة لإنقاذ الدولة من الغرق الوشيك، لم يأخذ الدولة إلى بر الأمان ولم يتداركها من السقوط، وإن كان قد تأخر السقوط زمناً، ولم تجد حنكة السلطان «عبد الحميد» ودهاؤه في القضاء على الضعف السياسي الذي بلغ منتهاه، وإنما كان قصارى جهوده العمل على تفادي مزيد من الضعف في وقت كانت الضغوط والكوارث التي تعرضت لها الدولة تؤكد باستشراء ذلك الضعف وتفاقمه وحتى تتضح الصورة نسوق واقعة مزرية تمثل فيها الضعف السياسي الذي ورثه «عبد الحميد».

وذلك حين ولى السلطان «عبد الحميد» «أنيس باشا» على «حلب» سنة ١٣١٨هـ «ومضى على قدومه إلى «حلب» عدة أيام، ولم تزره قناصل الدول، ثم شاع عنهم أنهم يطلبون من السلطان تبديله، وأنهم لا يعترفون بولايته على «حلب»، زاعمين أنه هو الذي أغرى الأمة في ولاية ديار بكر حينما كان والياً عليها ـ بالقيام على الأرمن وقتلهم، ولما أصر القناصل على عدم الاعتراف بولايته على «حلب»، ورد إليه أمر مرموز بأن يبقى مختبئاً في منزله لا يظهر إلى أحد!! ، حتى يأتيه أمر آخر يوضح له ما يجب عليه عمله. فبقي هذا الوالي المسكين مختبئاً في منزله كالمحبوس مدة شهرين أو أكثر لا يظهر لأحد، وقام بأمور الولاية بدله «علي محسن باشا» القائد العام على «حلب» .... ثم ورد له الأمر بالظهور ومباشرة العمل» (٣).

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥.

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٤٥٣ وكان ظهوره بعد أن استرضى السلطان سفراء الدول!

«ومع بداية القرن العشرين الميلادي انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك باسم الوطن ، والحرية ، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي ، لمعارضة الحكومة العثمانية ، وتمكنت هذه الجمعيات أخيراً من الثورة سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م وإسقاط السلطان «عبد الحميد» سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، وكان «قره صو» اليهودي واحداً من الذين اشتركوا في خلعه ، وقدم له قرار العزل» (١).

ويعتبر سقوط السلطان «عبد الحميد» هو السقوط الحقيقي للدولة العثمانية. وبعد أن تم إسقاط «عبد الحميد» على أيدي الاتحاديين من يهود الدونمة والمستغربين سارعوا بزج الدولة المتداعية في أتون الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ ـ ١٣٣٧هـ/١٩١٤ ـ ١٩١٨م) إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ، في حين تمكن الانجليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك. وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ، ووقعت الأستانة تحت سيطرة الانجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها (٢).

وتبع خلع السلطان «عبد الحميد» وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي في معاهدة «سايكس بيكو» سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، وصدور وعد بلفور البريطاني عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م القاضي بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

وفي عام ١٣٤١هـ/١٩٢٣م أعلن عن قيام الجمهورية في تركيا وانتخب «مصطفى كمال» أول رئيس لها وفصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير «عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة» ، بدلاً من «محمد السادس» الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان «عبد المجيد» أي سلطات للحكم.

وفي عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ألغيت الخلافة ، وأخرج السلطان «عبد المجيد» من البلاد وأعلن الدستور العلماني في تركيا ، وبدأ حكم «كمال أتاتورك» رئيسا للجمهورية التركية رسمياً وسرعان ما قام بتنحية الشريعة الاسلامية نهائياً وألغى المحاكم الشرعية ، والتقويم الهجري وجعل العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وحرم الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، واستبدل الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية ، وألغى الحجاب وأمر بالسفور ، وألغى قوامة الرجل ، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية ومنع الحج (٣).

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ١١٩ د. جميل المصري. دار أم القرى. عمان. الأردن. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٣ ـ ١٣٠.

وهكذا فقد كان خلع السلطان «عبد الحميد» وإلغاء ما كان يسمى بالخلافة أبرز صور الضعف السياسي الذي غشي العالم الاسلامي.

وقد كان أعداء الإسلام يعملون على إسقاط الدولة العثمانية لتحقيق ما يلي :

أولاً : تمزيق الدولة العثمانية التي تمثل قوة إسلامية كبرى وتجد لها في مسلمي الهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الاسلامي صدى وتأييداً.

ثانياً : السيطرة على الأجزاء العربية من الدولة ووضعها تحت سلطان الاحتلال البريطاني والفرنسي.

ثالثاً : إقامة إسرائيل في فلسطين قلب العالم الاسلامي.

«ومن هنا فقد كانت خطة القضاء على الدولة العثمانية هدفاً أساسياً للقوى الاستعمارية والأقليات المختلفة الموالية للنفوذ الاستعماري وهدفاً أساسياً أيضاً للحركة الصهيونية الوليدة...»(١).

وبعد أن قضي على الدولة العثمانية التي عاشت قروناً تلم شعث المسلمين وتوحد بينهم على كثرة الانحرافات التي وقعت فيها ازداد الضعف بالأمة ، وتفككت أجزاؤها ، وطمع فيها الأعداء أكثر من ذي قبل ، ونجحوا نجاحاً عظيماً في تقطيع أوصالها والتهامها ، هذا ويعتبر الاستعمار الذي بدأ قبل نهاية الدولة العثمانية وكان من أسباب ضعفها واستمر كذلك بعد سقوطها من أبرز صور الضعف السياسي ، ولكننا نرجئ الحديث عنه إلى مبحث قادم إن شاء الله تعالى.

وبسبب دعاوى الوطنية والقومية التي أفرزها الغزو الفكري زاد التفرق واشتد الضعف ، حيث أضحى كل جزء يسعى إلى الاستقلال بنفسه على حساب الجزء الآخر. لقد «ظلت الصليبية الصهيونية تتآمر على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها. وفتتت العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة ، تتصارع فيما بينها وتتشاحن بما يحقق مصالح الأعداء دائماً ، ويحقق لهم السيطرة على مقدرات المسلمين» (٢)

وكانت النتيجة لهذا الضعف هي «وقوع الكثير من الدول الإسلامية إن لم نقل كلها في براثن أعداء الإسلام يتحكمون في مقدراتها ويرسمون سياساتها ويخططون لها ويوجهون قادتها بما ينبغي أن يأتوه أو يذروه عن طريق القوة والتهديد أحياناً وعن طريق الخداع باسم الاستشارة

---

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج - عالم الإسلام المعاصر. ص ٢٠ أنور الجندي. توزيع دار الأنصار - مطبعة التقدم . القاهرة ١٩٧٧م

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ١٨٣. الشيخ محمد قطب. دار الوطن للنشر. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

والإفادة من الخبرات أحيانًا أخرى وعن طريق استسلام القادة وخنوعهم الذليل لأولئك الأعداء بل وإعجابهم بهم وسيرهم في ركابهم والنظر إليهم بإكبار وإجلال .... إن واقع كثير من المسلمين ـ حكاماً ومحكومين ـ المناقض لصفة محمد ﷺ والذين معه هو في حد ذاته مظهر من مظاهر الانهزام السياسي المريع» (١).

«هذا وتتصف معظم الدول الإسلامية الحالية بالتبعية السياسية في مجال الحكم والاقتصاد والفكر ، وهذا ما يجعل أوضاعها غير مستقرة وعرضة لأطماع المعسكر الشرقي والغربي على حد سواء» (٢).

وفي ظل الأوضاع السياسية السيئة في العالم الإسلامي أمكن للغرب أن يبسط نظريته السياسية عليه ، وجعل الناس يتطلعون إلى أنمطة الحياة السياسية في الغرب ، بسبب تردي الجانب السياسي عند المسلمين.

أما بالنسبة للضعف الحربي فقد كان مواكبًا للضعف السياسي وسببًا من أسبابه. لقد كان الضعف الحربي ولا شك نتيجة حتمية للجمود الذي أصاب العلوم الاسلامية وللانحرافات التي وقعت في حياة الأمة .

فبينما كانت أوربا تتقدم في المضمار العلمي والحربي بخطوات واسعة وسريعة كان المسلمون يغطون في سبات عميق ، ماكثين على ما هم عليه من قوة حربية غير متيقظين لحركة التطور من حولهم وفي الدولة العثمانية كانت الفيالق الانكشارية محور قوة الدولة، وبهذه الفيالق استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة وتتوغل في البلدان الأوربية (٣) ولكنها مع الزمن تعاظم نفوذها وتزايدت شرورها بعد أن أصابها الخلل ودب إليها الإنحراف ، يقول «د. عبد العزيز الشناوي» عن الانكشارية «كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد. ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش ـ أي البقشيش ـ كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخًا لا يستطيع سلطان مهما أوتي من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم .... وامتدت شرور الانكشارية في أوقات السلم إلى

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ١٠٠ عبد الله بن حمد الشبانة . دار طيبة للنشر. الرياض. طبعة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٣٩ د. جميل محمد المصري.

(٣) لمزيد من المعرفة لهذه الطائفة انظر : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٤٧١/١ وما بعدها.

المدنيين الوادعين سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فمارسوا نشاطًا إجراميًا في السلب والنهب. كانوا يعمدون إلى إحراق أحد أحياء مدينة يبغون نهبها، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الإنكشارية ينهبون الأحياء الأخرى في المدينة. فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية» (١).

وكان قد بلغ من نفوذهم أنهم شاركوا في عزل السلطان «أبي يزيد الثاني» ، وأجبروا السلطان «سليم الأول» على إنهاء الحرب في فارس مع الدولة الصفوية بعد أن حقق العثمانيون انتصارات كبيرة. ووصل بهم الأمر إلى عزل السلطان «عثمان الثاني» ثم إعدامه ، وأقدموا على قتل الصدر الأعظم إبان حكم السلطان «مراد الرابع».

ثم قاموا بعزل السلطان «إبراهيم الأول» وقتلوه خنقًا ، وكذلك قتلوا «الصدر الأعظم» وسبوا زوجاته أيام السلطان «سليمان الثاني» ، وطالبوا السلطان «أحمد الثالث» بقتل «الصدر الأعظم» فاستجاب لهم مرغمًا ، ولما حاول السلطان «سليم الثالث» أن ينشئ النظام العسكري الجديد استطاع الانكشارية أن يعزلوه بعد أن أجبروه على إلغاء النظام الجديد ، ونصبوا السلطان «مصطفى الرابع» عام ١٨٠٧م (٢).

وقد حاول سلاطين بني عثمان أن يقوموا بإدخال إصلاحات عديدة للجيش عامة ولفيالق الانكشارية خاصة، ولكنها جميعها منيت بالفشل، لتصلب الإنكشارية ومعارضتهم الشديدة لهذه الإصلاحات ومن هؤلاء السلطان محمود الثاني الذي تمكن من القضاء على الإنكشارية فيما بعد(٣).

«وقرر «محمود الثاني» أنه لا فائدة مما يحاول تنفيذه من إصلاح وأن عليه أن يوجه ضربة قوية للإنكشارية ، لكي ينهي كل متاعبه معهم. وفي ليلة ١٣ - ١٤ يونيو ١٨٢٦م قام الانكشارية بتمرد ، للاحتجاج على مشروع الإصلاح الجديد ، وقلبوا أواني الحساء ، وكانت تلك علامة التمرد والثورة ، التي اشتهروا بها دائمًا عند غضبهم من شيء ، أو احتجاجهم على تصرف السلطان ، أو الحكومة ، على أن «محمود الثاني» لم يفزع من ثورتهم ، وأمر «حسين الأسود» بعبور البسفور ، بقواته الموالية للسلطان، وعبر «حسين الأسود» بقوات كبيرة إلى القسطنطينية ، وهاجم الانكشارية ، بمنتهى القوة والعنف ، وحطم بمدافعه القوية ثكناتهم عليهم ، وهم معزولون داخلها ، وفي خلال ساعات قليلة كان قد تم القضاء على أية مقاومة لهم» (٤).

---

(١) المصدر السابق ١/٤٩٤ ـ ٤٩٩.

(٢) المصدر السابق ١/٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٩.

(٣) انظر : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني .

(٤) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية د. محمد كمال دسوقي. دار الثقافة. القاهرة ١٩٧٦م.

وفي اعتقادي أن الأمور الحربية كانت بحاجة ماسة إلى الاصلاح ، ولكن ليس على الطريقة الغربية وإدخال العادات والنظم الحربية كما فعل السلطان «محمود الثاني» الذي ألغى بالقوة الفيالق الإنكشارية وأشاد به جمهور المؤرخين على هذا الفعل ، وسلك طريقًا تغريبيًا في إصلاحاته الكثيرة التي قام بها وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لذلك عند حديثنا عن استيراد المبادئ والنظم.

لقد كان للخطوات التغريبية التي قام بها السطان العثماني «محمود الثاني»، ومهد لها بالقضاء على ركيزة عظيمة من ركائز الجيش العثماني وهي الانكشارية آثار عميقة مما جعل بعض الباحثين يقرر «بأن انتهاء الانكشارية كان انتهاء للمجد الحربي للدولة العثمانية» (١).

«ولعل الهزائم المتتابعة هي التي أوحت إلى « دسترلكر» أن يقرر أن القضاء على الانكشارية كانت بداية النهاية للدولة العثمانية» (٢).

ونتج عن الضعف الحربي نتائج خطيرة حيث أصبحت الدولة العثمانية تخضع خضوعًا كاملاً لأعدائها ، وتتنازل عن بعض أجزائها ثمنًا لإجراء صفقة عسكرية ، كيوم تنازلت عن جزيرة قبرص لبريطانيا مقابل أخذها لمعونة عسكرية عام ١٨٧٧م (٣).

يقول الشيخ «أبو الحسن الندوي» :

«ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب بل كان هذا الانحطاط عامًا وشاملاً ، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الآخير ابن بجدتها وأبا عذرتها ، قد أقر بفضلهم وتبريزهم العالم ، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت الجيوش العثمانية هزيمة منكرة سنة ١٧٧٤م» (٤).

ومع ما حدث في تركيا من إصلاحات ومحاولات للنهوض بالدولة خصوصًا في المجال الحربي إلا أنك إذا قارنت ذلك بما قطعته أوربا من أشواط في ميدان الرقي والتقدم تجد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة» (٥).

---

(١) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨٨

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧١ أبو الحسن الندوي. دار الأنصار. القاهرة. الطبعة الثانية عشر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٢.

وكانت هزائم العثمانيين تعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الحربي الذي كانوا يعانون منه ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا متقدمة في المجال العسكري تقدماً أحرزت به النصر في كل المعارك التي خاضتها ضدهم. وفي المجال البحري خاصة كان ضعف البحرية العثمانية سبباً في إنهاء كثير من المعارك لصالح خصومهم.

ولعل الهزيمة البحرية الساحقة التي مني بها العثمانيون في ليبانتو سنة ١٥٧١م في عهد «سليمان القانوني» في أوج التفوق الإسلامي البري ، كانت بداية لتغير موازين القوى بين الشرق والغرب حيث «مرن الغربيون في أساليب الحرب البحرية في حين سكنت الملاحة في الشرق وقلت سفنه وأغلقت ثغوره .. وفهم الغرب ضعف الشرق في هذه الناحية فصار يهاجمه - إذا أراد - من البحار ويحصره في المياه .....» [١].

هذا بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت مهيمنة على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي ، ولم تكن بقية أجزاء العالم الإسلامي بمنأى عن ذلك الضعف ، فالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر لم يستطع جيشهم الصمود أمام الحملة الفرنسية في معركة «إمبابة» سوى ثلاثة أرباع الساعة [٢] بسبب التفوق في التسلح من جانب الفرنسيين.

وكانت «المدافع المركبة في إمبابة وعددها أربعون مدفعاً ، لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، وأن المقاتلين لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التي كانوا ممتنعين بها [٣]. «وعندما هجم الفرنسيون على المماليك حاولوا صد هجومهم بإطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات إمبابة ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ، ولم يستطع رماتها أن يعيدوا الضرب بها [٤].

وكان جنود المدفعية يحشون المدافع في نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة [٥] وكتب «المسيو مور Mure» قنصل فرنسا في تقريره الذي قدمه سنة ١٧٨٣م إلى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر : «إن مرافئ الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهلين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٤٢.

(٢) عجائب الآثار ٢/١٨٩.

(٣) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ١/٢٠٩.

(٤) المصدر السابق ١/٢١١.

(٥) المصدر السابق ١/٢٠٤.

العثماني ، أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد!!» (١)

وذكر الرحالة الفرنسي «فلي» الذي زار مصر ونشر رحلته عام ١٧٨٧م أنه لا يوجد في المدينة سوى أربع مدافع في حالة صالحة ، وليس بين الحامية التي يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب المرمى ، بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين (٢).

وفي الجزائر تمكن الأسطول الفرنسي من احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م ، وانهارت مقاومة الجزائريين بقيادة «الداي» الذي أعلن الاستسلام بعد أربعة أسابيع من بدء القتال (٣). وكان التفوق في القوة والسلاح هو الذي حدد نتيجة المعركة.

وفي مراكش (المغرب) استطاع جيش فرنسي لا يتجاوز عدده ستة آلاف مقاتل ، أن يهزم الجيش المراكشي البالغ عدده خمسة وستين ألف رجل تحت قيادة ابن السلطان عام ١٨٤٢م وفي وادي إيسلي ، بسبب ضعف السلاح وفقد النظام (٤).

وفي مصر تمكن البريطانيون من هزيمة جيش عرابي ذي القوات المسلحة تسليحاً رديئًا في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢م . وترتب على هذه الهزيمة احتلال مصر واستعمارها لمدة تزيد عن نصف قرن (٥). وقبل ذلك تمكن الأسطول الانجليزي من ضرب مدينة الاسكندرية والاستيلاء عليها بسهولة لضعف التحصينات الحربية المدافعة فيها وكانت بعض المدافع منذ عهد «محمد علي» وهي قديمة الصنع (٦).

لقد كان الضعف الحربي والتخلف العسكري الذي أفرزته الانحرافات العقدية والعلمية سببًا جوهريًا في إلحاق جل الهزائم والنكبات العسكرية بالمسلمين حين لم يأخذوا بقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [الأنفال ٦٠] فكانوا لقمة سائغة أمام أعدائهم.

---

(١) المصدر السابق ١/١٦٣.
(٢) الشرق الإسلامي ص ٧٤.
(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦٢١.
(٤) المصدر السابق ص٦٢٦ .
(٥) المصدر السابق ص ٥٩١.
(٦) انظر : يوم ١١ يولية ١٨٨٢م الأمير عمر طوسون ط ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.

يوم أن ركن الحكام إلى ملذاتهم ودنياهم وأهملوا أمر الأمة ، وتفشت مظاهر الشرك والبدع والخرافات في حياة المسلمين ، وشغلت أوقاتهم بإحياء الموالد ، وهيمنت الأضرحة والقبور على حياتهم ، وتفاخروا بها ، وتعلقوا بالكرامات والخوارق عن تغيير الواقع وأهملوا العلوم الكونية والأخذ بالأسباب فانتابهم ذلك الضعف السياسي الرهيب ، وغشيهم ذلك الانحطاط الحربي والعسكري الشديد الذي رأينا منه طرفًا في هذه العجالة الصغيرة.

* * *

المبحث الثاني : الضعف الاقتصادي

كان لزاماً من سوء الأحوال الدينية عند المسلمين ، وتفاقم الانحرافات العقدية في حياتهم أن يغشى الضعف الاقتصادي حياة الناس ، وأن تتدهور الأوضاع الاقتصادية «نعم لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت في هذا التخلف ولكنها - وحدها - لا تبرره ولا تفسره. لقد كانت أوربا الصليبية تسعى - منذ القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس - إلى تطويق العالم الإسلامي ، وإضعافه بكل الوسائل. وكان من بين الوسائل التي اتخذوها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم ، وانتزاعها من يد المماليك ، الذين كانوا يمسكون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض فتدر عليهم أموالاً طائلة ، وعلى العالم الإسلامي كله كذلك.

ومنذ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، الذين كشفوه على هدي الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحارة المسلمين بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته ، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة المماليك ويحرموا منها العالم الإسلامي كله.

وحدث ذلك بالفعل ، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثراً بالغاً بما حدث، ولكن .. هل هذا هو التفسير؟ أو هذا هو التبرير»[(١)].

لا شك أن ما سبق إيراده كان له دور في تردي الأحوال الاقتصادية وانحطاطها. ولكن الأسباب الحقيقية لم تكن سوى الأحوال الدينية السيئة التي بسطنا شيئاً منها في الباب الأول.

«فسلب التجارة من يد المسلمين ، واستيلاء أوربا الصليبية عليها ، له أسبابه الكامنة في التخلف العقدي الذي أصاب الأمة في مجموعها ، والتقلص والضمور الذي ترتب عليه في كل اتجاه. فتضاؤل القوة الحربية الذي مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم الإسلامي هو ذاته أثر من آثار التخلف العقدي.

ولكن آثار التخلف العقدي في الميدان الاقتصادي الخاص لا تحتاج إلى توكيد. فلنفرض أن التجارة العالمية قد سلبت من أيدي المسلمين لسبب قاهر لا يقدرون على درئه ، فهل تتوقف ثروة العالم الإسلامي على التجارة وحدها في ذلك الحين أو في أي حين؟

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٠.

إن الأرض الإسلامية من المحيط إلى الميحط هي - بقدر الله - أغنى بقعة في الأرض وأكثرها خيرات، وقد كانت - وما تزال حتى هذه اللحظة - لم تستثمر الاستثمار الكامل الذي يستغل كل مواردها وكل طاقاتها. فإذا ضاع جزء من الثروة لأسباب قاهرة، فلماذا لم تسع الأمة - في مجموعها - إلى استغلال الثروات الأخرى القابلة للاستغلال، من زراعة وصناعة ومعادن مذخورة في باطن الأرض[١].

وإن الناظر إلى ما ذكرناه من أحوال دينية سيئة خصوصاً الأحوال العقدية منها ليدرك جيداً أن هذه الأحوال السيئة كان ولا بد أن تتمخض عن آثار خطيرة يكون الضعف الاقتصادي أحدها.

فالصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، وسيطرت بعقائدها الباطلة وطقوسها المبتدعة كان لها أكبر الأثر في اتساع هوة الضعف الاقتصادي، وحسبنا أن نعرف أن الشخص القاعد عن العمل والكسب بل عن أي نشاط دنيوي والمتفرغ بالكلية للذكر الصوفي في زاوية أو مسجد أو خلوة أو مغارة كان يرقى في المستوى الذي يرتفع به عن ألسنة النقد والاعتراض، بل كان ينظر إليه بالإعجاب والإكبار والهيبة، ويحاط بهالة وقداسة ويكون مثلاً وقدوة يتمناها الكثيرون.

وإن جموع الفقراء والطرقية الذين أسهموا بشكل عظيم في ارتفاع معدل البطالة، وانخفاض الانتاج، كانوا عند الحكام والمحكومين هم أهل الله وخاصته، يتسابق إلى الإغداق والنفقة عليهم أرباب المال والجاه والثراء.

بل لقد كانت النظرة مشوهة جداً، فالبطالة التي تحرص كل أمة تريد النهوض على القضاء عليها، وتعتبر اليوم من المشاكل الاقتصادية المعقدة التي تعاني أكثر الدول في العالم منها وتسعى إلى تخفيفها وإنهائها، كانت في تلك الفترة التي ندرسها طبيعية ومنسجمة مع الأجواء التي أوجدتها الصوفية بل ومرغوبة في كثير من الأحيان، حين نجد أن الدولة لم تفكر أبداً في القضاء على البطالة المتمثلة غالباً في جموع الصوفية، بل إننا نجد العكس من ذلك تماماً، حين نرى أن هذه الجموع الغفيرة تحظى بكل عون وتشجيع من قبل الدولة، مما جعل التصوف ينتشر والبطالة تتفشى والضعف الاقتصادي يستشري.

إن «السبب هو التقاعس، والتواكل، والضعف العلمي، ووهن العزائم، والانصراف عن عمارة الأرض، والرضى بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغي السعي إلى تغييره خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ١٨١.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٨١.

وإذا أضفنا إلى ذلك فكرة الإنفاق من الغيب والوصول إلى الحضرة التي تهيء لصاحبها كل ما يسمو إليه ويتمناه من هبات وعطايا ، وكذلك انتشار التسول وذلك «بعد أن استهجنوا السعي وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذي يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول مباحاً محبوباً فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوي عليه من لذات والإنسان فيها يشبه المريض الذي حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر في هذه المسألة إلا في الحساب العسير الذي ينتظره فكذلك العاقل في دنياه لا يفكر في تعليم نفسه أو تحسين معيشته ، وترقية مستوى حياته ؛ لأن ذلك انصراف لأتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة، والإنسان الذي يعرف مكانته وصلته هو الذي لا يبيت على دينار أبداً ، وحسبه من دنياه التوكل على الله (التواكل) ، وما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، ويسكون أحدهما يتحرك الآخر، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ... والإخلاص في العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلاً فقيراً ويخرج منها عالمًا واسع العلم ، ثرياً طائل الثراء ، قوياً موفور القوة ..»(١).

فليس غريباً بعد ذلك كله أن تتدهور الأوضاع الاقتصادية ، ويقل الإنتاج والاستثمار وهو ما تنادي الصوفية بتقليله بدعوى الزهد في الحياة الدنيا والتفرغ للدار الآخرة. ولا ريب «أن حصر الإنتاج في أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة كلها تعيش في حالة الكفاف ، ولا يجعل لديها «الفائض» الذي تنفقه في متطلبات «التمكين في الأرض» فإذا عاش مجموع الناس عيشة الكفاف ، ولم ينتجوا إلا في حدود الكفاف فكيف للدولة المسلمة أن تعد ما استطاعت من قوة لإرهاب أعداء الله ، تلك القوة التي لا يستمر التمكين في الأرض إلا بها، إنما يحتاج الأمر إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك القليل وهذه هي المعادلة التي يتم بها التمكين في الأرض والمحافظة عليه. أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك القليل فلا يؤدي إلا إلى فقر مجموع الأمة ، الفقر الذي يؤدي إلى الضعف ، والضعف يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض»(٢).

وفي خلال الفترة التى نقوم بدراستها والتى غشي الضعف الإقتصادي فيها العالم الإسلامي نرى كثيراً من المظاهر لذلك الضعف والتى كان من أخطرها مشكلة الديون.

---

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٤٩.

فعندما ارتقى السلطان عبد العزيز عرش السلطنة سنة ١٨٦١م. كان أسلافه على العرش قد خلفوا وراءهم ديناً مقداره ١٥ مليون جنيه استرليني ، وقد بلغ العجز في نفس العام ٤٥٠ مليون غرش ، أي ما يعادل ١٠٣ ملايين فرنك.

وعندما اقترض الباب العالي من بريطانيا في السنة التالية مبلغاً يبلغ ستة ملايين جنيه استرليني ، اضطر ، مقابل ذلك إلى أن يوافق على تعيين مفوض بريطاني مهمته مراقبة الوجوه التي تنفق فيها أموال القرض. وبعد برهة وجيزة ارتضى السلطان تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى ، وبناء على اقتراح الممثلين أنشئ في استنابول ديوان للمحاسبة وبنك للدولة(١).

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ - ١٨٨٠م) ، عانت الأمبراطورية العثمانية أيضاً مصاعب مالية متصلة الحلقات . وإنما بلغت هذه المصاعب أوجها سنة ١٨٧٥م . وعبثاً حاول الباب العالي أن يعقد قرضاً جديداً في باريس وأن يجعل من البنك العثماني جابياً وخازناً في آن واحد ، في الامبراطورية كلها. ولو قد استطاع السلطان عبد العزيز أن يوطن نفسه في ذلك الوقت على التضحية بجزء من ثروته الضخمة الخاصة أو اختصار نفقات بلاطه على الأقل إذاً لكان من الميسور تلافي ما هو أسوأ من ذلك جميعاً. ولكن مثل هذه التضحية ما كانت لتنتظر منه ، وهكذا لم يبق أمام الباب العالي إلا أن يعلن إفلاس الدولة . . .

وفي تشرين الأول أعلن الصدر الأعظم أن العجز في ميزانية الدولة سيضطر الباب العالي خلال السنوات الخمس التالية ، إلى أن يدفع نصف قيمة الفائدة نقداً ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المئة ، ولم يستثن من ذلك إلا القرضان الأولان اللذان عقدا بسبب حرب القرم ، واللذان ضمنتهما بريطانيا وفرنسة ، والسندات المالية التى يملكها السلطان وتبلغ قيمتها نحواً من ١٤٤ مليون فرنك. والواقع أن الباب العالي كان قد عقد في العشرين السنة السابقة عشرة قروض ، آخرها ذاك الذي عقد بأبخس ما يمكن من أثمان الأصدار وبفائدة يبلغ معدلها ٩,٥ في المائة(٢).

وقد كان لهذه القروض والديون آثار بعيدة المدى جعلت ممتلكات الدولة نفسها عرضة لأطماع الدول الأوربية التى كانت تهاجم الدولة وولاياتها لأتفه الأسباب . ولما عجزت الدولة العثمانية مثلاً عن سداد الدين المستحق لـ «أورلاندو وتوبيني وشركاه» الذي بلغ أكثر من نصف مليون ليرة ذهبية ، وبما أن الدائنين المذكورين كانوا من تبعة فرنسا ، أخذت الحكومة الفرنسية تهتم به اهتماماً كبيراً ، وتلح على الباب العالي لتسريع تسويته ، ولكنها عندما رأت استمرار الحكومة في التسويف ، قررت

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٢.

سنة ١٩٠١م ـ أن تلجأ إلى القوة لتحقيق مطلبها هذا ، فقامت باحتلال جزيرة (مدللي ـ ميتيلن) ووضعت يدها على جماركها ، استيفاءً لما كان عليها من ديون إلى الشركة المذكورة ، عندئذ سارع الباب العالي إلى تسوية الدين المذكور ، لتخليص الجزيرة من هذا الاحتلال.

غير أن فرنسا أرادت أن تستغل هذا الحادث إلى أقصى حدود الإمكان ، وقدمت إلى الباب العالي قائمة طويلة بالمدارس والمؤسسات الافرنسية التي ظلت بدون رخصة رسمية ، أو تعرضت إلى بعض المشاكل ، وطلبت تسويتها بصورة عاجلة ، وأعلمته بأنها لن تجلو عن الجزيرة قبل تسوية المسائل المذكورة برمتها.

وقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى تلبية جميع طلبات فرنسا المتعلقة بتلك المؤسسات [١].

وقد وصل الأمر إلى أن طلبت الدول الأوربية إخضاع مالية الولايات الثلاث ـ التي تكون ما يسمونه «ماكدونيا» ـ إلى مراقبة دولية، ولكن السلطان عبد الحميد امتنع عن ذلك أشد الامتناع. وعندئذ لجأت هذه الدول إلى القوة فأرسلت أسطولاً مشتركًا لاحتلال جزيرة «مدللي» الواقعة مقابل سواحل ازمير ، وعندما رأت عدم تزحزح عبد الحميد عن موقفه ، احتلت جزيرة «ليمني ـ ليمنوس» ـ الواقعة بالقرب من مدخل الداردنيل ـ أيضًا ، وأظهرت بذلك أنها مصممة على توسيع نطاق الاحتلال ، إلى أن تقبل الحكومة العثمانية «مشروع المراقبة المالية» المعروض عليها. عندئذ اضطر السلطان عبد الحميد إلى الموافقة على ماطلبته منه الدول[٢].

ومــا إن أشـرفت الحـرب العـالميـة الأولى على الظهـور عـام ١٩١٤م حـتى وصلت ديون الدولة العثمانية إلى ٣٩٠٠ مليون فرنك ، كان أغلبها من فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا[٣] وقد «كانت كل دولة من الدول الكبرى تسعى إلى تكثير مؤسساتها الاقتصادية والثقافية في الممالك العثمانية. وكانت تركز معظم جهودها في هذا السبيل في المناطق التي تطمع في امتلاكها في يوم من الأيام. وإن النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي اكتسبته بعض الدول بواسطة هذه المؤسسات ، كثيرًا ماكان يسبق الاحتلال السياسي والعسكري ، بل يمهد له السبيل»[٤].

وإذا تجاوزنا تركيا واتجهنا نحو مصر التي لجأ حكامها من أسرة «محمد علي» إلى سياسة الاقتراض والتداين والتي كثيراً ما أنفقت تلك القروض في غير الصالح العام ـ نرى أن أزمة الديون

---

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩.

(٣) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٤٧.

(٤) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٧.

قد بلغت منتهاها عام ١٨٧٦م عندما وصلت قيمة هذه الديون في عهد الخديوي «إسماعيل» المتوفى سنة ١٣١٢هـ إلى مئة مليون جنيه تقريباً[١] ، مما اضطره أن يعلن إفلاسه ويتوقف عن الدفع، بل توقف حتى عن دفع رواتب الموظفين في الدولة ، وقام بمضاعفة الضريبة السنوية على الفلاحين. فقامت كل من بريطانيا وفرنسا بتعيين لجنة (مندوبية للتحقيق في مالية مصر. وفي سنة ١٨٧٨م أكرهت هذه اللجنة الخديوي وأسرته على التنازل للدولة عن معظم ممتلكاتهم ، وعهد إلى «ولسن» البريطاني بوزارة المالية ، وإلى «دي بلينيير» الفرنسي بوزارة الأشغال العامة ، وهكذا وقعت مصر تحت الوصاية الأجنبية ، ولما عزم الخديوي على تسريح هذين الوزيرين الأجنبيين ، تدخلت الدول الأوربية وأجبرته على التنازل عن العرش لابنه الأكبر «توفيق» ، بعد أن خلع من قبل السلطان[٢].

وعندما احتاج سلطان المغرب إلى الاقتراض من فرنسا عام ١٣٢١هـ للنفقات على الثورات المتلاحقة في بلاده ، وقع الاتفاق على أن يقوم بنك باريس بإقراض حكومة المغرب مبلغ ٦٢٥٠٠٠٠٠ فرنك مقابل رهنه لمداخيل موانئه مدة ٣٥ سنة تبتدئ من يوم ١ يوليو سنة ١٩٠٦م وتنتهي ١ يوليو سنة ١٩٤١م بعد أن يكون قد أدى جميع الدين. وقد وقع العقد مندوبون عن الطرفين[٣].

وكانت غالب بلاد المسلمين مسرحاً لتجارة الغرب ، وسوقاً كبيراً لبضائعه ومنتجاته ، وكانت الحكومات في البلاد الإسلامية تمنح الشركات الأجنبية امتيازات اقتصادية كبيرة للتنقيب عن المعادن والبترول في أراضيها ، وكانت حرية الملاحة أمام السفن الأجنبية أمراً لم يفكر أحد في الاعتراض عليه ، أو محاولة الحد منه.

ولم يكن بمقدور أي حاكم في ذلك الوقت إلا أن يرضخ في خلافه مع دول أوربا مهما كان ذلك الخلاف جائراً من جانب تلك الدول ، نظراً لتداعي الاقتصاد في بلده ، واعتماده على اقتصاد تلك الدول. فعندما نشب خلاف بين «داود باشا» والي العراق (المتوفى سنة ١٢٦٧هـ)[٤] والوكيل السياسي البريطاني في «بغداد» المستر «ديتش» ، واضطر الآخير إلى أن يغادر البلاد نهائياً قامت بريطانيا وأوقفت التجارة مع العراق ، مما كبد خزينة «داود باشا» خسائر فادحة ، إذ كانت التجارة الهندية تمثل أهم ممول لخزانة «داود» الذي اضطر إلى أن يوقع على اتفاقية أعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وقيدت «داود» بالفرمانات والمعاهدات المعقودة بين السلطان وبريطانيا. وهذه الاتفاقية

---

(١) يقول عنه الزركلي : كان مسرفًا في الإنفاق على ملاذه وعلى مشروعاته ، ولي مصر وعليها من الدين ثلاثة ملايين جنيه ، واعتزلها وعليها نحو مئة مليون جنيه. الأعلام ٣٠٨/١.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨١.

(٣) أعلام المغرب العربي ٣٣٥/١.

(٤) الأعلام ٣٣١/٢.

تكشف لنا على أن المصالح البريطانية كانت على جانب كبير من الأهمية ، وأن الضغط الاقتصادي البريطاني كان كفيلاً بأن يضطر الوالي إلى الخضوع للمطالب البريطانية(١).

وهكذا نجد في «عهد جمود المسلمين تخلف نظامهم الاقتصادي كتخلفهم في جميع المجالات فكان الفقر والمرض والأمية والجهل متفشياً ، والتواكل باسم القناعة منتشراً ... ولم تنل المصالح العامة شيئاً من الإنفاق ، ومن ذلك إهمال العناية بالري والزراعة(٢) ، فكثرت الفياضانات ، وأهملت الطرق وشئون الأمن ، فاستغل العيارون واللصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت ، وقام الأعراب بغارات على الريف ونهبوا المحاصيل وتربصوا بقوافل الحجاج والتجارة ، فعانى المسلمون فقدان الأمن والجوع وانتشرت الأوبئة ، وخاصة بعد أن تغيرت طرق التجارة عن بلاد الإسلام بعد حركة الكشوف الجغرافية الأوربية»(٣).

«وفي ظل هذه الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن يبسط سلطانه على بلاد الإسلام ففرض نظامه الاقتصادي مع فلسفته ونظرياته الاقتصادية ، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مبادئ هذا النظام الاقتصادي ، فأكل المسلمون السحت أولاً ، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام ..»(٤).

وفي خضم هذه الأحوال الاقتصادية السيئة ومع شيوع النظرة الصوفية المنحرفة إلى المال والاقتصاد كان الكثير من الكفار الموجودين في البلاد الإسلامية يحكمون السيطرة على جل الجوانب الاقتصادية ومجالاتها المختلفة ، فحين شغل المسلمون بما ذكرناه في الباب الأول من شرك وبدع وخرافات، كان هؤلاء الكفار يعملون بكل وسيلة على إحكام قبضتهم على الاقتصاد والتجارة، وحسبنا أن نرى أن كثيراً من هؤلاء كانوا يملكون ثروات ضخمة ويتحكمون من خلالها ليس في مصير الشعوب المسلمة فحسب ، بل في مصير الحكومات نفسها ، كما صنع اليهودي «نفتالي» في الجزائر الذي سيطر على البلاد وامتص خيراتها منذ سنة ١٧٧٠م ، حتى إذا كانت سنة ١٨٠٥م ثار عليه الإنكشارية فقتلوه مع كثير من اليهود المرابين ..(٥) .

---

(١) تاريخ العرب الحديث، العراق ١/١٠٧.

(٢) ففي تونس تمادى الإهمال في الزراعة حتى لقد انتهى ثلث الاراضي التونسية الخصبة إلى أن يصبح في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر بلقعاً . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢٩.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٤ د. جميل المصري.

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٤.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢١.

ومع ذلك فإن يهود الجزائر يكادون أن يسيطروا على أزمة الأمور الاقتصادية في البلاد. وقد كان للتجار اليهود هناك دور في مساعدة فرنسا لاحتلال الجزائر(١).

وفي تونس كان النائب بدار المال هو كبير أثرياء اليهود «نسيم بيشي»(٢). واليهود على قلتهم هم المسيطرون على اقتصاديات البلاد وعلى صناعتها وتجارتها إجمالاً وكان بمقدورهم زمن الحماية أن يشلوا حركة البلاد متى شاءوا وتظهر قدرتهم هذه في أيام أعيادهم حيث تنعدم الحركة في العاصمة. واليهود في تونس كما هي الحال في أكثر بلاد العالم يسيطرون على الصناعات والمهن الحرة وفي مدينة تونس ذاتها هم مالكو أحسن أحيائها(٣).

وفي مصر مثلاً كان الأقباط يكادون أن يسيطروا على المجالات الاقتصادية في البلاد. وكانت مهن المحاسبة والكتابة والصرف تنحصر في أيديهم ، وإن من يقرأ في عجائب الآثار «للجبرتي» مثلاً ليرى أن المسلمين في الشئون الاقتصادية الخطيرة كانوا عالة على هؤلاء الأقباط الذين لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.

وحسبك ما ذكره «الجبرتي» عن المعلم «إبراهيم الجوهري» القبطي رئيس كتبة الأقباط في مصر والذي حزن عليه كثيراً أمير المماليك وحاكم البلد «إبراهيم بك» وتأسف على فقده تأسفاً عظيماً حيث يقول : أنه «أدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم ، وأول ظهوره من أيام المعلم «رزق»(٤) كاتب «علي بك» الكبير، ولما مات «علي بك» والمعلم «رزق» ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام «محمد بك»، فلما انقضت أيام «محمد بك» ، وترأس «إبراهيم بك» ، قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة(٥) والميري وجميع الايراد والمنصرف (الصادر) وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته»(٦).

ومن ثم لا يستغرب بعد هذا من استغلال هؤلاء الكفار لمكانتهم القوية وتوجيه الاقتصاد في خدمة دينهم ونشر باطلهم. فالمعلم «إبراهيم الجوهري» يقول عنه «الجبرتي» «وعمرت في أيامه

---

(١) الشرق الإسلامي ص ١١٣.

(٢) إتحاف أهل الزمان ص ١٩٣.

(٣) تونس العربية ص ١٨٧.

(٤) كاتب قبطي أيضاً.

(٥) وتعني دفاتر الخراج وضرائب الأطيان. انظر : تاريخ الحركة القومية للرافعي ٢١/١.

(٦) عجائب الآثار ١٧٢/٢.

الكنائس ودور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجلية والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال»[١].

وكذلك كان الحال في تركيا والشام وكثير من بقاع المسلمين. وتؤكد الوثائق أن كثيراً من يهود الدولة العثمانية قد سيطروا على النشاط الاقتصادي بواسطة اشتغالهم بالصيرفة والربا والتجارة الخارجية التي أقاموها بين بلاد الشام ومصر ، وأنهم نتيجة لأموالهم المتكاثرة استطاعوا تعطيل كثير من الجرائد التي كانت تعارض أهدافهم العدوانية[٢].

وهكذا كان يسيطر الكفّار الموجودون بين المسلمين على الاقتصاد والتجارة ، ويخططون لخنق البلاد وإفقارها ، بينما كان المسلمون عن ذلك كله في سبات عميق يعيشون في أجواء موبوءة بالتصوف والخرافات . وإن الدارس لهذه الفترة المظلمة في تاريخ الأمة ليرى من خلال كتب التاريخ والتراجم والأخبار والرحلات مظاهر الضعف الإقتصادي الشديد وذلك في وقوع المجاعات المروعة وغلاء الأسعار غلاءً فاحشاً ، وتقلبها بين برهة وأخرى لعدم وجود التوازن الاقتصادي ، وانعدام الكثير من السلع الغذائية الضرورية، وفقدان الأقوات، وانتشار الأوبئة الفتاكة والمرض والجهل والأمية وتدني مستويات المعيشة وشيوع الفقر بشكل منقطع النظير .

ولعل الصورة الآتية التى ننقلها عن استانبول عاصمة الدولة العثمانية التي كانت تعاني من فوضى اقتصادية بشكل يكاد يكون مستمراً ، تكشف لنا ولو نوعًا ما عن مدى الضعف الاقتصادي المتغلغل في أحشاء الدولة. يقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا (المتوفى سنة ١٣١٢هـ)[٣] متحدثًا عن الوضع الاقتصادي السيء لمدينة استانبول في السنوات الأولى من حكم السلطان عبد العزيز الذي ارتقى عرش السلطنة عام ١٢٧٦هـ :

«كانت الخزينة في وضع مالي سيء جداً ، ويزداد سوءاً مع مرور الوقت ، وفي أحد الأيام وقبل أن يصل فؤاد باشا إلى استانبول[٤] كان الذهب الذي قيمته مائة قرش بالنقود الورقية المسماة بـ«القائمة» قد طفر وأصبح بثلاثمائة قرش ، وفي اليوم التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ، ثم ما إن وصلت القيمة إلى أربعمائة قرش حتى أصبحت هذه الأوراق المالية لا تساوي شيئًا ، وأصبح البقال والخباز والقصاب لا يقبلها ، بينما لم يكن في أيدي الشعب سوى هذه الأوراق المالية ، لذلك فقد بقي

---

(١) المصدر السابق ١٧٣/٢.

(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ٥٥.

(٣) من الوزراء في البلاط العثماني وصاحب «تاريخ جودت» بالتركية اثنا عشر مجلداً. الأعلام ١٠٨/١.

(٤) كان فؤاد باشا في الشام عندما عين صدراً أعظماً، وكان في طريقه إلى استانبول لاستلام منصبه.

الكثيرون جياعًا ، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا به الخبز لثلاثة أو خمسة أيام ، لذا فقد نفد الخبز ولم يجده الآخرون في السوق، وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة من أيدي الذي اشتروه بكمية كبيرة ، وظهرت بعض أمارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات ، الأمر الذي دعا الكثيرين لحمل السلاح والعتاد ، واستولى على استامبول جو من الرهبة ، واستولت الحيرة على الجميع..»(١)

وإذا كان هذا هو حال العاصمة التى كانت مركزًا رئيسيًا للتجارة والاقتصاد ، فكيف بغيرها من الأقاليم والمدن الأخرى!.

ولو نظرنا إلى أهم محاور النشاط الاقتصادي وهي : التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، لرأينا مدى التخلف الذريع في هذه المجالات ، فالتجارة كانت مسلوبة إلى حد كبير من أيدي المسلمين محليًا ودوليًا كما مر معنا ، والزراعة أهملت إهمالاً شديداً وقد ساعد على ذلك الاستعمار فيما بعد بتشجيعه لزراعة محاصيل معينة ، كالقطن في مصر والسودان، والتمر في العراق ، والزيتون في تونس والمغرب ، والمطاط في أندونيسيا وماليزيا ، وزيت النخيل في نيجيريا ، والعنب في الجزائر وغير ذلك(٢). وأساليب الزراعة لم يستحدث فيها أي شيء جديد.

أما بالنسبة للصناعة ، فنجد أنه في حين انفجرت الثورة الصناعية في الغرب وحلت الآلات البخارية محل اليد العاملة ، وانطلقت آوربا في مضمار التقدم الصناعي ، كان المسلمون في مجال الصناعة يعانون تخلفًا مذهلاً ، لا يعرفون من الصناعة سوى بعض الحرف البسيطة ، ويعيشون حياة أسلافهم قبل بضعة قرون دون أي تغيير يذكر ، غير شاعرين بالعالم الذي بدأ يتقدم من حولهم وبالتغيرات التي حدثت في الدول ، وكان لها تأثيرات في نتائج الصراعات فيما بينهاوما يعيشه المسلمون اليوم من تخلف في جميع المجالات ، والمجال الاقتصادي واحد منها لهو تخلف مزمن له أسبابه الكامنة في الانحرافات العقدية والعلمية .

«وبالمعايير الاقتصادية السائدة ، فإن اقتصاد العالم الإسلامي بواقعه الحالي أليم فالدخل القومي في أكثر بلاد العالم الإسلامي يضع الفرد المسلم في أقل من مستوى الآدميين والواقع المشاهد يؤكد لغة الأرقام .. وتزيد الأنظمة الاشتراكية البلاد الإسلامية ضيقًا وضنكًا ، تعيشه في الطوابير ، ويقضي فيها نصف يومه بحثًا عن حاجياته وأحيانًا ضرورياته .. هذا إن وجد في جيبه

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ص ٤٥، أورخان محمد علي. دار الوثائق . الكويت. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٥ د. جميل المصري.

الثمن أو التكاليف.

والإنتاج القومي هو الآخر سيء. والبلاد الإسلامية تتوزع بين أن تكون مزرعة .. تستجلب منها القوى العالمية موادها الأولية أو أن تكون سوقًا استهلاكيًا توزع القوى العالمية فيها سلعها أو تجارتها، وهي بالتالي محرومة من «الصناعات الثقيلة» والإنتاج الكبير. والبلاد التي آتاها الله بسطة في الرزق - وهي قليلة - تمتص أكثر رزقها القوى العالمية بإيداعها رؤوس أموالها في بنوكها ، وتعريضها لتخفيض العملة بين الحين والحين ، ثم بتصدير السلع الكمالية الاستهلاكية والترفيهية التي تمتص ما بقى لدى تلك الدول المختلفة من رأس المال.

وميزان المدفوعات مختل لدى أكثر الدول الإسلامية.؛لأن أكثرها تستورد أكثر مما تصدر»[(١)].

«إن استقراء الأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي يجعلنا نقرر وعن يقين أن معظم الدول الإسلامية تعاني من ضعف في تنمية مواردها وقواها الاقتصادية ، وهذا الضعف في التنمية الاقتصادية نرى آثاره فيما يأتي :

١ - الديون المتراكمة.

٢ - الاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية[(٢)].

أما الديون الخارجية وتراكمها في كثير من الدول الإسلامية فقد عرض الدكتور «صبحي الطويل» بعض الأرقام المذهلة التي تزايدت بصورة هائلة في العقد ١٣٩٠ - ١٤٠٠هـ/١٩٧٠ - ١٩٨٠م بحيث شكلت في عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م أكثر من ٥٠٪ من إجمالي الناتج القومي. والديون في الغالب للدول الكبيرة أو المؤسسات الدولية الخاضعة لها . فيؤثر ذلك في سياسات الدول الفقيرة المدينة الداخلية والخارجية[(٣)].

وأما بالنسبة للاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية وغيرها ، فقد نتج عن ذلك وقوع المزيد من الأزمات الاقتصادية في البلاد الإسلامية ، ورضوخ الكثير من دول العالم الإسلامي وشعوبه للاحتكارات العالمية والمقايضات اليهودية والديون الربوية التي طوقت أغلالها رقاب تلك الدول والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها[(٤)].

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٩١. د. علي جريشة. دار المجتمع. جدة. الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢١ د. محمد عبد القادر هنادي. مكتبة الطالب الجامعي. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٥٠ د. جميل المصري.

(٤) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٨٨.

وليس من نافلة القول أن نقول إن العالم الإسلامي في هذا العصر يعيش عالة على العالم النصراني والوثني واليهودي، وأن الاقتصاد الإسلامي مغلول العنق واليدين ومكبل بقيود الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه القوى الثلاث الكافرة.

ولعل من أبرز ذلك هو «التكدس المريع لأموال المسلمين في البنوك والمصارف الأجنبية نتيجة تخلف العالم الإسلامي في ميدان الاقتصاد وتمثيله دور التابع الذليل لأساطين الاقتصاد العالمي والممسكين بمقوده وزمامه، وعجزه عن تصريف فائض أمواله بطريقة علمية متخصصة مدروسة بالإضافة إلى عجزه عن تخليص نفسه مما كبل به من أغلال النظام الاقتصادي العالمي وقيوده»[(١)].

ومن ذلك أيضاً انتشار المجاعات المروعة والفقر المدقع في طول بلاد الإسلام وعرضها حيث تصل نسبة الفقر في بعض الدول الإسلامية إلى ٨٠٪ يعيشون دون مستوى الكفاف[(٢)] وحسبنا أن العالم الإسلامي كله تقريباً يقبع في الزاوية المهملة في زاوية الدول النامية أو ما يسمى بدول العالم الثالث. وهذا المصطلح وهو مصطلح الدول النامية أطلقه الاستعمار عن خبث كي يبقي على تخلف البلاد الإسلامية، حيث أن الخبث في هذا التعبير يوحي بالحركة القائمة مع أن واقع هذه الدول هو العكس تماماً ، ففيه استنقاع اقتصادي إن لم نقل تراجعاً وتأخراً[(٣)].

وقد أدى ذلك مع غيره من مظاهر الضعف الاقتصادي إلى الوقوع تحت غائلة ما يسمى بالمعونات الخارجية للدول النامية التي يذيعها الغرب دائماً ويملأ وسائل الإعلام والأسماع بها ، والحقيقة المرة أن هذه الدول لا تنمو بل تزداد فقراً على فقر ، فهو يستهدف الابتزاز والكسب غير المشروع تحت ستار المساعدات ، ولقد عبر رئيس إحدى الشركات الأمريكية في خطبة له عن سياسة الاحتكارات اليهودية الأمريكية والاستعمار الجديد بقوله : «لقد حصلنا مقابل كل دولار أنفقناه في السنوات الخمس الماضية على مختلف الأغراض خارج الولايات المتحدة على ٤,٦٧ دولاراً أي أن كل دولار ربح ٣,٦٧ دولاراً أي أن نسبة الربح بلغت ٣٦٧٪ وهي سرقة وابتزاز وليست عمليات اقتصادية سليمة[(٤)].

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨.

(٢) كما هو الحال في اندونيسيا. انظر بعض الأرقام المأساوية في حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٧ د. جميل المصري.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩ د. جميل المصري.

(٤) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩. لعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي في مصر للفترة ما بين ١٩٧٨ ـ ١٩٨١م وكان الهدف المعلن لهذا المشروع هو إخراج مصر من أزمتها الاقتصادية ، وتقليل نسبة عجز ميزانها التجاري. وأظهرت دراسة اقتصادية قام بها الدكتور رمزي زكي الخبير الأول في معهد التخطيط القومي المصري أن الصنوق دخل مصر عام ١٩٧٨م وهي مدينة بـ ٨٠٠٠ مليون دولار وخرج الصندوق إياه منها عام =

وما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من تخلف اقتصادي مذهل ـ حيث أن أفقر دول العالم على الإطلاق تعد جزءاً منه ـ ليس وليد الظروف القائمة الآن فيه فحسب ، ولكنه تخلف ضارب بجذوره في الماضي لعدة قرون ، ولا يمكن القضاء عليه بالسهولة التي يتصورها البعض ، وما دام الخلل الديني موجوداً ، فالقضاء عليه يعد ضرباً من المستحيل.

* * *

= ١٩٨١م وهي مدينة بأكثر من ١٨,٠٠٠ مليون دولار أي أن كل مواطن مصري كان مديوناً بـ ٤٢٢ دولاراً للعالم . والغريب أن دخل الفرد الواحد كان لا يتعدى ٤٦٠ دولاراً في السنة. المصدر نفسه ص ٢٥٠.

المبحث الثالث : الضعف العلمي

يعد الضعف العلمي من أشد المجالات خطورة لما له من دور مباشر في تردي كثير من المجالات الأخرى لا سيما الجوانب العسكرية والحربية والاقتصادية.

وقد عرفنا فيما سبق أن المناهج التعليمية قد تعرضت لانحرافين خطيرين ؛ فالبنسبة للمناهج الدينية أصابها الجمود والتقليد للسابقين ، وبالنسبة للمناهج الدنيوية رأينا أنها أهملت تماماً ، بل ربما حوربت في كثير من الأحيان ، واتهم بالتكفير من يدعو إلى تعلمها أو يحاول تعلم شيء منها ، وأغلق باب الاجتهاد ، وأخذ المسلمون يتوارثون حراسته قرناً بعد قرن ، ويعلنون النكير لمن حام حوله أو رام فتحه ، فكان هذا إيذاناً بحجر العقول وتكبيلها ، ومدعاة إلى السبات والاسترخاء والخمول ، وكان ذلك بعد أن استفحل داء التقليد وهيمنت روح التعصب المذهبي وقد نتج عن ذلك تخلف علمي مذهل في شتى مجالات الحياة ، هذا في حين كانت أوربا تواصل تقدمها العلمي والصناعي وتعمل بدأب ونشاط على تقوية نفسها من أجل فرض سيطرتها على العالم الإسلامي.

وقد كان لهذا الضعف العلمي عدة مظاهر منها : الجمود في كثير من أنشطة الحياة عند ماعاش عليه المسلمون قبل عدة قرون وعدم التجديد وفقدان الابتكار والاختراع والاكتشاف ، ولم يكن ذلك بالطبع غريباً حين أهملت العلوم التجريبية وحوربت وانصرف الناس عنها . لقد ركن المسلمون إلى الماضي دون أي محاولة بذلوها لتحسين مستوى معيشتهم ، وتركوا الأخذ بالأسباب ، واعتبروا ذلك زيادة في التوكل والإيمان بالله كما عرفنا ذلك من قبل ، وأهملوا العلوم التجريبية بل حاربوها ، وشنعوا على من يدعوا إليها ، وخيم الجهل والظلام على أرجاء البلاد الإسلامية. وكانت النظرة السائدة في المجتمعات الإسلامية صوب كل جديد يطل عليها من مخترعات أوربا ، هو القصور والسذاجة الممزوجة بالخوف والتردد والحذر تجاه كل قادم مهما كان نافعاً ومفيداً.

يذكر السلاوي أن بعض الفرنسيين تكلموا مع سلطان المغرب الحسن بن محمد في شأن بابور البر [١] والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما في سائر بلاد المعمورة . ثم يقول معلقاً على ذلك : «وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى ، وهو والله عين الضرر!! وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم..»[٢] وليس لدينا على ذلك أي تعليق.

---

(١) هو القطار.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/٢٥٤.

ويذكر الغزي أن التلغراف قد دخل إلى حلب سنة ١٢٧٨هـ ، وحين مدت أسلاك البرق ، وقيل للناس إنه ينقل الأخبار من بلد إلى آخر مهما كان بعيداً في لحظة كطرفة عين ، أنكروا ذلك ، وقالوا : لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل[1] . وحين ظن بعض الناس أن الساعة عبارة عن سحر ، قام العلامة الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله بتأليف رسالة يبين فيها أنها صناعة وليست سحراً[2].

«ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحي ، ولم تدخل المطابع والمحاجر الصحية في هذه الدولة إلا في القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربي . وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالونًا يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء..»[3].

وذكر الجبرتي ضمن أحداث شهر شعبان لسنة ١٢١٣هـ المنطاد الذي عمله الفرنسيون فقال : «وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقًا بتطيير طيارة ببركة الأزبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر، وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة ، وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم!!»[4].

وكل هذا يدلنا على مبلغ الجهل الذي أطبق على المسلمين في القرون المتأخرة ، حتى جعلهم يستوحشون من كل مخترع حديث ، ولا يصدقون به ، وينسبونه إلى الجن والسحر.

وحين كان يوجد بعض أفراد منهم لهم شيء من الإلمام ببعض تلك العلوم كان نصيبهم هو التجاهل والإهمال على أقل الأحوال ، فهذا الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري من علماء طرابلس الغرب كان «يبحث في الخلائط والمواد وطبائع الأشياء وخصائص المعادن وطبقات ودراسة الجيولوجيا ويصل من هذه المحاولات والتجارب إلى أشياء مفيدة ، ولكنه لم يستطع أن يجد من يستفيد منها. وكان هذا يغيظه ويحرقه حرقة العالم الغريب في محيطه ، ويأسف لهذا .

ويقول أحمد بن عبد الدائم عن نفسه ، ومبينًا المجتمع الذي كان يعيش فيه وإعراض الناس عن تجاربه : «لي معرفة بسبعين حكمة ، وعمري الآن ماينيف عن الخمسين ، ولم يسألني أحد من أهالي طرابلس عن واحدة منها».

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣٩٠.

(٢) الأعلام ٣/١٢٦.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧٠.

(٤) عجائب الآثار ٢/٢٤٤ .

ومن تلك التجارب التى نجح فيها ابن عبد الدائم طريقة لاستخراج الماء من الأرض بغير عناء وكثير مشقة. «وكان ابن عبد الدائم بصنيعه واستنباطه يستطيع إخراج الماء بلا مضخات ولا آلات ضخمة، ولا شك أنه توصل إلى هذا بعد كد فكر وإجهاد نظر وتجارب تفشل حيناً وتصل إلى مرتبة النجاح أخيراً»[1].

وقد عرفنا أن معاهد المسلمين الكبرى ساهمت في استشراء ذلك الضعف بإهمالها للعلوم التجريبية بعد أن أصبحت خاوية من هذه العلوم.

وقد رأينا أن الأزهر حين أراد بعض دعاة الإصلاح إدخال بعض هذه العلوم فيه لم يستطيعوا ذلك إلا بعد استصدار فتوى من شيخه بجواز ذلك.

وإذا كان هذا هو حال الأزهر وغيره من المعاهد العتيقة في العالم الإسلامي[2] فمن الطبيعي أن يكون ذلك موقف دور العلم في الأقطار الأخرى.

ففي المدينة المنورة «أقام الشيخ حسن بن حسين الأسكوبي على سطح منزله مرصداً فلكياً، جلبه من أوربا فثار عليه علماء المدينة، ونظم أحدهم (عبد الجليل برادة) رجزاً فيه، أوله :

ماقولكم في شيخنا الأسكوبي ... يبيت طول الليل في الراقوب

يرقب منه الفلك الدوارا ... مشابهاً في فعله النصارى

وهاجموا بيته فأنزلوا ما على سطحه من مناظير وأصطرلابات وزوايا، فاعتزل الناس ومرض حتى توفي عام ١٣٠٣هـ»[3]. لقد كان حرياً بعد هذا أن يخيم الجهل والتخلف، ويختفي الابتكار والنبوغ، وتظل الحياة جامدة لا تتحرك ولا تتغير إلا إلى الأسوأ.

على أن ما قام به «الأسكوبي وابن عبد الدائم» من محاولات وتجارب علمية يعد أمراً نادراً بالنسبة لأحوال ما عاشا فيه من حقبة زمنية. ونود أن نشير إلى مجال علمي واحد هو الطب لنرى شيئاً من الآثار المروعة التي كانت تقع نتيجة للتخلف العظيم في ذلك المجال. فقد رأينا مآل إليه علم الطب من جهل وخرافة ودجل، فليس بغريب بعد ذلك أن تنتشر في المجتمعات الإسلامية الأمراض

---

(١) أعلام من طرابلس ص ١٩٤ علي مصطفى المصراتي. دار الفكر. طرابلس. ليبيا. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢. وقد عاش ابن عبد الدائم في منتصف القرن الثاني عشر الهجري.

(٢) وعلى رأسها الزيتونة بتونس والقرويين بفاس بالمغرب.

(٣) الأعلام ١٨٩/٢ من آثاره كما يقول الزركلي : «مزولة» كانت في المسجد النبوي وكتب في علم الهيئة والميقات وطريقة استعمال آلات المراصد الفلكية.

الخطيرة والأدواء الخبيثة ، ويعجز الناس عن علاجها. وكم تذكر كتب التاريخ لتلك الحقبة الزمنية أخباراً للأوبئة الفتاكة التى كانت تجتاح البلدان الإسلامية فيسقط ضحيتها الآلاف ، ويسبب بعضها عاهات مستديمة.

وهذه بعض الأمثلة البسيطة : ففي عام ١٨١٣م حل الوباء العظيم في بغداد ، وأخذ يغتال أهلها ويتفاقم بينهم بدرجة بعثت الرعب في النفوس ، فكان يموت منه في الأيام الأولى مائة وخمسون في اليوم ، ثم اشتدت وطأة الوباء في الأيام الأخيرة من الشهر حتى مات في نصفه الثاني سبعة آلاف ، وضاعف المرض قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات في اليوم الواحد إلى خمسة الآف ، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت ، وشملتها رهبة الرعب ، وانتابها فزع شامل ، ومضى الناس ولا هم لهم إلا تجهيز موتاهم للدفن ، وتجهيز أنفسهم للمرض ، ووقفت الأعمال ، فلم يبق سقاء ولا عامل في متجر ولا في طريق حتى لقد طلب داود (حاكم العراق) قارباً فلم يجد نوتياً يقوده ، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأتى على أهلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاماً ، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى ، فأصبحت جثثهم ملقاة في الطريق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين أنهك المرض قواهم(١).

وذكر الجبرتي الطاعون الذي وقع سنة ١٢٠٥هـ في القاهرة ، والذي هلك به خلق لا يحصيهم إلا الله ، « ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه . . . ومات في أثناء ذلك الأغا(٢) والوالي في أثناء ذلك ، فولوا خلافهما ، فماتا بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلافهما فماتا أيضاً ، واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة . . » (٣) .

وفي سنة ١٢٨٢هـ هلك من الحجاج وغيرهم بالهواء الأصفر نحو مئة ألف نسمة ... ثم في هذه السنة وصل هذا المرض إلى حلب ، وبلغت وفياته اليومية ثلاثمائة نسمة ... وكان الناس يدورون في الأزقة يستعينون بالله ، ويخرج بعض القراء إلى المآذن ، ويقرؤون سورة الدخان(٤).

ويذكر الجندي أنه في أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨هـ عاد إلى المعرة داء الهيضة «الكوليرا» وضرب عليها الحجر الصحي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٣٧٥.

(٢) الاغا هو المحتسب.

(٣) عجائب الآثار ٢/٩٥.

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣٩٢.

أواخر صفر لجهل الناس بمداواته وبأسباب التوقي منه ، وجهل الحكومة وقلة عنايتها بذلك[١]. وفي سنة ١٣١٢هـ تفشى مرض الجدري في المعرة وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمي كثيرون بسببه لفقد الأطباء[٢]. وفي عام ١٨٨٣م هلك أكثر من ستين ألفًا من المصريين بسبب داء الكوليرا[٣]. ولم يكن الناس فقط هم ضحايا الأوبئة الفتاكة ، بل لقد كانت الحيونات تتعرض هي الأخرى إلى أوبئة قاتلة تفنى بسببها أعداد هائلة منها، ويحدث نتيجة لذلك أزمة إقتصادية في البلاد.

ومثال ذلك ماذكره الجبرتي من داء أصاب الأبقار سنة ١٢٠١هـ ، فتساقط المئات منها حتى جافت الأرض ، وبيع اللحم البقري بأبخس الأثمان ، ومع ذلك فلا يشتريه أحد من الناس ، وغلت أسعار السمن واللبن والأجبان غلاءً فاحشًا[٤] .

فبعد أن كانت الأمة تولي اهتمامها ورعايتها لمثل هذه العلوم من أجل أن تتقوى وتصبح قادرة على أداء رسالتها ، وحين كان الانصباب على هذه العلوم أمرًا معتادًا عند المسلمين والتنافس بين العلماء على البحث في شتى فروعها المختلفة من طب وهندسة وفلك ورياضيات وكيمياء وفيزياء وغير ذلك سمة بارزة من سماتهم - أصبح الإقبال عليها ضعيفًا أو نادرًا ، وحسبك أن تقرأ العشرات من كتب التراجم والرجال ثم لا تجد في خضم هذه التراجم الغفيرة التي تبلغ الآلاف ترجمة لواحد منهم عني بهذه العلوم ، أو قام باكتشاف وابتكار فيها .

وهذا دليل واضح على انصراف الأمة عن هذه العلوم وتقاعسها عن واجبها في إعداد القوة التى لا تقوم بغير هذه العلوم ، وحتى إن وجد نفر يهتمون ببعضها فإنهم كانوا يقفون عند ما وصلت إليه هذه العلوم في الماضي ، وعند فكر الأقدمين وبحوثهم ، وهو ما تجاوزته أوربا بمراحل معتمدة عليه في بادئ الأمر ، وأصبح بالنسبة لعلوم العصر الحديث ومخترعاته يعد أمرًا متأخرًا تجاوزه الزمن، وفاتته عجلة العلم والحضارة والرقي.

«وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة من أن تدخل في منطقتهم ، وإذ كانوا متصرفين بزمام تعليم الأمة الاسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طفت في دور الانحطاط وكانت لاتسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة

---

(١) تاريخ معرة النعمان ١/٢٠٨.

(٢) المصدر السابق ١/٢١٠.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/١٦٠.

(٤) عجائب الآثار ٢/١٩ ..

والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس ويبنوا علمهم على الاستدلال ، فلم تزل المدارس الاسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي ، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي(١).

يقول الأمير شكيب أرسلان : «ونحن مع الأسف نرى المسلمين اليوم أقل الأمم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم إتقانها الحيل الحربية وجر الأثقال واختراع الآلات التى توفر دمائهم وتصون دهمائهم ، ونرى جمهور علمائهم نافرين من هذه العلوم والفنون كأنها من عمل الشياطين ، يقضون الأعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدونها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لا شك في ضرورته ، لأنه به قوام اللغة والعقيدة ، ولكنه ليس يغنى أصلاً عن العلوم الطبيعية التى هلك اليوم من أهملها ، وعن الميكانيكيات التى لو أفرغوا لها من الوقت ربع ماأفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ يضاهي حظوظ الأمم الأوربية ، ولكنا قد أهملنا علوم هذه الدنيا وحصرنا جميع عنايتنا بعلوم الآخرة غير ذاكرين أن الإسلام إنما هو شرع دنيا وآخرة وإن من أهمل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهمل الشق الآخر(٢).

لقد أهمل المسلمون هذه العلوم ، واكتفوا بدراسة فلسفات عقيمة ، وعلوم سقيمة «يصرفون فيها أوقاتهم ، ويضيعون فيها جهودهم ، لنضوب معين علومهم وجمود قرائحهم وعجزهم عن الاجتهاد والتفكير وقوة الاكتشاف والإبداع ، ولما منى به علماؤهم من جمود وركود فلا يضيفون للعلم جديداً ، ولا يفتحون للعقل أبواباً ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون» «وإنما قصاراهم شروح وحواش يذيلون بها ماكتبه أسلافهم حتى طغت الشروح على المؤلفات وزادت الحواشي على المتون. إنك في قرون عديدة مرت على المسلمين لا تكاد تعثر على أثر فكرة مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد ؛ ولذلك طرأ عليهم جمود فكري وغشيت أجواءهم العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد»(٣).

وها هو العالم الإسلامي في هذه الأيام مايزال قابعاً في زاوية التخلف والجهل ، بعد تفريط وإهمال وجمود دام قروناً.

ومن أبرز وجوه الضعف العلمي تفشي الأمية بين أفراد المجتمعات الإسلامية. إن نسبة الأمية لترتفع في العالم الإسلامي بشكل يدعو إلى الفزع ، وليس أدل على ذلك من أنه في العصر الحاضر ،

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٧.

(٢) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف ص١٩٣. الأمير شكيب أرسلان. تعليق : الشيخ محمد رشيد رضا.

(٣) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص١٤١ والكلام للندوي والمودودي بشيء من التصرف.

وبعد جهود مكثفة لمحاربة الأمية والقضاء عليها ماتزال نسبتها مرتفعة جداً. حتى إن نسبة المتعلمين لتصل في الانخفاض إلى ٢٪ في بعض المجتمعات كأفغانستان مثلاً [١]. وقد ذكرت إحصائيات هيئة اليونيسكو أن العالم سيضم عام ٢٠٠٠ ما يقرب من/١٠٠٠/ مليون أمي أكثرهم من العالم العربي والإسلامي.

ففي مصر مثلاً تشير التقارير إلى أنه يوجد ٢٠٠ ألف طفل مصري ينضمون إلى الأمية سنوياً نتيجة قصور الاستيعاب في المدارس [٢]. وتبلغ نسبة الأميين في مصر حوالي ٧٠٪ من عدد السكان[٣].

ولا يخفى ما للأمية من آثار وخيمة في البلاد الإسلامية، ومن ذلك شيوع الجهل وانتشار الخرافة والدجل والبدع.

وكذلك ضعف التنمية الاقتصادية التى تعتمد على زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي وتحسينه، وزيادة الإنتاج كمًا ونوعاً تتوقف على وجود قوة منتجة متعلمة، ولقد ثبت أن العامل الأمي لا يمكنه أن يحسن إنتاجه إلا بمقدار ضئيل.

وهذه الأمية التى أصبحت ظاهرة في العالم الإسلامي ترجع إلى إهمال الفريضة التي ألزم الله بها المسلمين وهي فريضة القراءة، وهي أسبق من فريضة الصلاة والزكاة والصيام وسواها من الفرائض[٤].

وليس بغريب أن تنتشر الأمية ذلك الانتشار المذهل في الأوساط الإسلامية التى كانت خاضعة لعقائد الصوفية ومبادئها المنحرفة، ومن ذلك إهمال العلوم جملة وتفصيلاً، وبالتالي إهمال القراءة والكتابة، وقد مر معنا أن جملة من مشايخ الصوفية كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون كما وقع لبعض شيوخ الشعراني. «وحينما ننظر إلى واقع العالم الإسلامي نجده عالة على المجتمعات الغربية والشرقية الشيوعية في كل ما يتصل بالمخترعات والابتكارات سواء في المجالات الصناعية أو الزراعية أو الطبية أو العسكرية، أو الهندسية ... ولعل هذا الواقع المؤلم يمثل صورة بارزة من صور التحديات الحضارية التى تواجهها الأمة الإسلامية في القرن العشرين»[٥].

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص١٦، هذه النسبة المذكورة أظهرها باحث هندي قام برحلة الى أفغانستان عام ١٩١٥م وعاش فيها عدة سنوات ورأى هناك التخلف المذهل والجهل المطبق.

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص١٥.

(٣) تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية ص٢٩٨ منير عطا الله سليمان وآخران. مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٢م.

(٤) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص١٥.

(٥) المصدر السابق ص١٤.

ولعل الظاهرتين الخطيرتين الآتيتين اللتين ماتزالان تسيطران على العالم الإسلامي إلى أيامنا هذه توضح لنا حجم هذا الضعف العلمي ، ومدى الانحطاط الذي تعيشه الأمة وهاتان الظاهرتان هما :

الأولى : أن العالم الإسلامي أصبح عالة على الغرب «متطفلاً على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقض والإبرام»(١).

وخضع العالم الإسلامي للنظام التعليمي الأوربي بطبيعة الحال» إذ كان مصاباً بالإنحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوربا ـ فقبل هذا النظام التعليمي على علاته ، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي»(٢) .

الظاهرة الثانية : ما تمثل في هجرة العقول المسلمة.

كان طبيعياً لما وقع من ضعف علمي أن يهاجر العقل الواعي المسلم من بيئته الجاهلة التى لا يوجد بها أدنى احتفال حقيقي بالعلوم إلى الغرب الذي فتح أبوابه لكل قادم «ويعاني العالم الإسلامي في هذا العصر من نزيف يكاد ينخره وهو نزيف العقول الإسلامية المهاجرة التى تضم كفاءات علمية وأكاديمية أصبح العالم الغربي يعتمد عليها في بناء حضارته»(٣).

يقول الأستاذ الدكتور«محمد عبد العليم موسى»:

«إن عدد الأطباء المسلمين الموجودين في باريس وحدها أكثر من الأطباء الموجودين على التراب الجزائري كله ، وفي لندن الباكستانيون بالذات بالآلاف ، ويشير تقرير رسمي للحكومة الباكستانية عام ١٩٧٠م إلى دراسة قام بها اثنان من الأساتذة إلى أنه في اليوم التالي لإعلان نتائج كليات الطب في باكستان فإن ٩٠٪ من الخريجين قد تقدموا بطلبات الهجرة إلى السفارة الامريكية والبريطانية . أما الدراسة التى أعددتها من مصر وهي دراسة محدودة بالنسبة لبلد واحد مسلم من سنة ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠م وعلى مدار عشر سنوات امتنع (٩٥٠) ممن حصلوا على الدكتوراه من العودة إلى مصر ، وحينما نترجم هذا إلى أرقام تصبح مصر كأنها هي التى تعطي معونة إلى امريكا.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص٢٩٣.

(٢) المصدر السابق ص٢٩٦.

(٣) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص١٨.

ويبلغ عدد المسلمين المهاجرين من مهندسين وخبراء وأطباء في أوربا وأمريكا وكندا واستراليا ١٠٠ ألف عالم من أصحاب الكفاءات العالية ، وهؤلاء العلماء والمهندسون والأطباء لو كانوا موجودين في العالم الإسلامي ، ولو أن كل واحد أنتج بحثًا على مدار العام لأصبح في عالمنا الإسلامي مائة ألف بحث ، فكم من مشكلة تحلها هذه البحوث؟ وكم من إبداع يبدعه هؤلاء الباحثون ...

ولقد شهد الغربيون بهذه الظاهرة ، ظاهرة هجرة العقول المسلمة ، فهذا رئيس جامعة كورنيل الأمريكية يصرح أمام الكونجرس بأن المهاجرين المسلمين من الأطباء وفروا على الولايات المتحدة إنشاء ٣٠ كلية طب سنويًا (١).

وهكذا غشي الضعف العلمي على حياة المسلمين ونتج عنه تخلف مذهل في شتى المجالات ، ولم يكن هناك ثمة تقدم في أي مجال ، فلم تظهر أية مكتشفات ومخترعات ، وبقيت الحياة رتيبة كما هي من قرون تسير ببطء دون أي تغيير يذكر ، والعالم بدأ يتقدم ويغتني ، والمسلمون يتخلفون ويفتقرون.

فأوربا تقطع أشواطًا بعيدة في التقدم العلمي والصناعي وتأخذ بالأسباب المؤدية إلى القوة والسيطرة على العالم، والمسلمون في غفلة عن ذلك.

ولا شك أن المسلمين قد فرطوا في ذلك تفريطًا عظيمًا بتخليهم عن الأخذ بالأسباب وبالتالي حدث التقاعس عن المهمة الكبرى الملقاة على عواتقهم وهي الوصاية والشهادة على العالم أخذًا من قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا** ﴾(١٤٣ ، البقرة). ومن مقتضى الشهادة على الناس أن تكون الأمة قوية غنية ، إذ لو كانت ضعيفة لم يتح لها أن تقوم بالشهادة ، ولا تكون القوة إلا بالأخذ بالأسباب وإحراز التقدم في العلوم والمكتشفات والصناعات.

وفي فترات الانحطاط التي عاشها المسلمون خصوصًا تلك الفترة التى نعنى بدراستها وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان حدث الانحراف الخطير في تخلي الأمة عن قيادة العالم لتهاونها في الأخذ بأسباب القوة والتقدم ، واعتقادها الخاطئ أن ما فعلته يتلاءم مع دينها ، وأنها بتخليها عن الأخذ بهذه الأسباب كانت تخدم هذا الدين ، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم ، وانحراف خطير تولد من سوء الأحوال الدينية ، وهو خطأ من جانبين كما سبق وبينا ذلك : خطأ من جانب الدين نفسه الذي يأمر باتخاذ الأسباب وإعداد القوة. كقوله تعالى ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾ [٦٠ ، الأنفال] والعدو دائمًا متربص بالأمة الدوائر، ينتظر أدنى فرصة للانقضاض عليها. وهذا ما وقع فعلاً حين غفت الأمة الإسلامية وتخلت عن اتخاذ أسباب

(١) المصدر السابق ص١٩.

القوة ، وخالفت الأوامر الربانية في ذلك. فانتهزت أوربا القوية المتقدمة المتربصة هذه الفرصة ، وفرضت سيطرتها وحكمها فيما يعرف بالاستعمار.

وكذلك من جانب الواقع التاريخي للأمة ، حيث كان المسلمون حريصين على أن يكونوا أقوياء ، وكان ذلك الأمر واضحًا عندهم وقت تمسكهم بالدين حيث سادوا العالم وقادوا البشرية ، ثم حدث ما حدث من تخلف وانحطاط للأسباب التى ذكرنا ، وذهبت هذه المعاني من نفوسهم كأنها لم تكن في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله ﷺ ولم تمارس فى تاريخ الأمة.

وجهل المسلمون أن أوربا قد أخذت تلك العلوم عن المسلمين وأن المسلمين كانوا متقدمين فيها ثم تخلفوا . يقول الاستاذ«أنور الجندي» في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا» : «ومن هنا وجد خير الدين التونسي(١) الإجابة عن التساؤل الحائر الذي كان يعم العالم الإسلامي إذ ذاك وهو : « هل من حق المسلمين اقتباس هذه الحضارة ، وهل يتعارض ذلك مع الإسلام »(٢) وهذه محاولة من خير الدين التونسي لإزالة ذلك الجهل التاريخي الذي خيم على الأمة ، وإقناع منه لعلماء الزيتونة الذين هجروا العلوم الكونية وبالغوا في رفضها شأنهم في ذلك كشأن بقية العلماء في العالم الإسلامي أن ينظروا في التاريخ ليروا أنهم قد حادوا عن طريق أسلافهم في الماضي بإعراضهم عن هذه العلوم.

* * *

(١) وزير تونسي شركسي الأصل ، اتصل بالسلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى التى تعادل منصب رئيس الوزراء ، لكنه ما لبث أن استقال. نعته الزركلي في الأعلام بأنه من رجال الإصلاح الإسلامي. له كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. توفي سنة ١٣٠٨هـ. الأعلام ٢/٣٢٧. ومما لا شك فيه أن كثيراً ممن نعتهم الزركلي برجال الإصلاح الإسلامي كانوا متأثرين بالحضارة الغربية ومنهزمين منها ، ومن هؤلاء خير الدين .

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ص٢٨.

المبحث الرابع : الضعف الاجتماعي والأخلاقي

ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن مفهوم العبادة في الإسلام قد انحصر في الشعائر التعبدية فقط ، حيث أصبحت العبادة في حس القرون المتأخرة عبارة عن القيام بالصلاة والصيام والحج وغيرها. وأخرجت بقية الأعمال من مفهوم العبادة ، وكان هذا جديراً بتطرق الضعف إلى الجوانب الاجتماعية والأخلاقية مادام أنها قد زحزحت إلى خارج دائرة العبادة ، وأمست غريبة عنها.

وقد زاد من حدة هذا الضعف الذي تطرق إلى المجتمع والأخلاق ماتمثل في الفكر الإرجائي الذي يخرج الأعمال كلها من حوزة الإيمان ، ويضفي الطمأنينة على الفرد بأن إيمانه كامل ولو لم يعمل أدنى عمل ، لأن الإيمان هو التصديق لا غير.

هذان العاملان مع ماوقع من انحرافات أخرى وعلى رأسها الشرك الأكبر المتمثل في عبادة الأولياء والأضرحة ، وهيمنة الصوفية بطقوسها وعقائدها على حياة الناس وانشغال الناس بالبدع والخرافات ، وازدياد التعصب المذهبي ، وإذا اضفنا إلى ذلك ماجبل عليه الإنسان من ضعف وتفلت إزاء ما أمر به من تكاليف وأوامر مع قلة التذكير من جانب العلماء نجد أن كل ذلك على توالي القرون كان يعمل على إضعاف الجوانب الاجتماعية والأخلاقية.

وفي تلك الفترة التى نقوم بدراستها فشا الظلم والجور ، وطغت الضرائب والمكوس والمصادرات ، وكانت الشعوب المسلمة ضحية لحكوماتهم المستبدة التى لم تكن تقوم في كثير من الأوقات إلا على مثل تلك المظالم. ولسنا بحاجة إلى التدليل على ماوصلت إليه الحالة الاجتماعية في ذلك الجانب من ترد وانحطاط. ولا نكاد نقرأ كتاباً من كتب التاريخ لتلك الفترة المظلمة إلا ونجده مشحوناً بذكر الظلم والعسف والإرهاب ، ويشكو مؤلفه من كثرة الضرائب والمكوس ، ويصف معاناة الناس وعنتهم وضيق عيشهم وبؤسهم.

لقد كانت أيضاً هناك بعض الظواهر الاجتماعية السيئة كمنع تعليم المرأة واعتقاد أن ذلك يضر ولا ينفع [1] ، واحتقارها وامتهانها ، ومصادرة حقها في إبداء رأيها في مسائل تخصها كاختيار زوجها مثلاً واعتبار ذلك كله من كمال قوامة الرجل، وحرمانها من الميراث.

ظاهرة أخرى كان لها نصيب كبير في اتساع شقة الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد. تلك هي

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص١١ زينب بنت فواز العاملي، دار المعرفة، الطبعة الثانية.

ظاهرة التعصب المذهبي ، وقد رأينا عند حديثنا عنها أنها كانت من عوامل الفرقة والتشتت بين أفراد المجتمع.

ظاهرة ثالثة كانت تتكرر باستمرار وهي الاستيلاء على الأوقاف وأكل أموالها بالباطل «وهذه شنشنة قل أن يخلو منها بلد من بلدان الإسلام» (١) كما يقول الأمير «شكيب أرسلان» رحمه الله.

ظاهرة رابعة : ما كان يحدث من فسق وفجور واختلاط في بعض الاحتفالات الدينية كالموالد وغيرها ، وما كان يمارسه بعض الدجالين من أدعياء الطريق من هتك للحرمات وتعد على الأخلاق وظهور الفواحش كشرب الخمر والزنا ، والسماح لبيوت الدعارة والبغاء بممارسة تلك الجريمة - كما ذكر الغزي عن انتشارها في حلب (٢) ، وما ذكره «حسين بن محمد نصيف» (٣) عن كثرة مراتع الخمور والبغاء في جدة ، بل في مكة شرفها الله ، ولم تخف هذه الحالة إلا في عهد الشريف «حسين»(٤) الذي عمل على القضاء على تلك المنكرات العظيمة بكل صرامة (٥) . وما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا» عن انتشارها في مصر ، وما كان يقع من تهتك البغايا حتى أنهن يقعدن على قارعة الطريق لإغراء الناس بالزنا ، وما فعله شيخه «محمد عبده» من مكافحة لها حين كان قاضياً يعمل في المحاكم الأهلية (٦) .

ظاهرة خامسة تتمثل في انتشار الغناء في تلك الفترة ، وإقبال الناس على سماع المعازف والقيان واحتفاء الحكام وعلية القوم بالمغنين والمغنيات فهذه المغنية المصرية «ألمس» التي «حازت شهرة عظيمة لا مزيد عليها ، وقد جمعت أموالاً كثيرة حتى قيل فيها: إنها سلبت أموال القطر المصري» وكانت ثرواتها تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات (٧) !! وكيف ترجو النهوض أمة ، يكرم فيها المغنون والمغنيات وتغدق الأموال عليهم ، ليشيعوا فيها الفجور والنفاق والتحلل.

هذه بعض المظاهر الاجتماعية السيئة على سبيل المثال :

ولكن الذي يهمنا في هذا الحديث أمران هما :

---

(١) الارتسامات اللطاف ص٣٢. وانظر حول ذلك : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص٥٣.

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٦٨١ وما بعدها.

(٣) الأعلام ٢/٢٥٩.

(٤) هو الحسين بن علي آخر من حكم مكة من الأشراف. توفى سنة - ١٣٥٠هـ الأعلام ٢/٢٤٩.

(٥) ماضي الحجاز وحاضره ص١١٤ وما بعدها حسين محمد نصيف. الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ.

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤٢٢.

(٧) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص٧٨.

الأول : أن الجوانب الاجتماعية والأخلاقية قد آلت مع مرور الأعوام إلى عادات باهتة وتقاليد خاوية ، ولم تعد ذات صلة وثيقة بالعقيدة كما ذكرنا.

فترى الناس يتوارثون الحفاظ عليها على أنها عادات الآباء والأجداد التي لا يجوز المساس بها أو التفريط فيها ، وقد ظل ذلك الحال إلى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري حيث كان الجانب الاجتماعي والأخلاقي على شيء من التماسك الهش. ولنضرب على ذلك مثالاً واحداً هو الحجاب وما يتبعه من قضايا تخص المرأة (١) . فلقد كان سائداً في ذلك الوقت ، وكان تقليداً مرعياً ، وعادة محترمة ، لا يمكن التهاون في ارتدائه أو التجرؤ على مهاجمته أو خلعه ، ولكنه مع الزمن فقد قيمته الحقيقية في نفوس الكثيرين ، واستحال إلى عادة موروثة ليس لها من الإيمان رصيد. فإذا المرأة ترتديه لأنه عادة ورثتها عن أمها، وليس لأن الله أمرها به ، وافترضه عليها.

وفي تلك الفترة كانت تتسم هذه العادات والتقاليد الاجتماعية بالصرامة والشدة ، ولم يكن الإخلال بشيء منها يغتفر في كثير من الأحوال ، ومن ذلك الحجاب.

فحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٢١٣هـ ، جاء «نابليون» بفريق من البغايا ليقمن بدور مرسوم في إفساد المرأة المسلمة في مصر ، حيث يذكر «الجبرتي» بعض ما كن يقمن به من تبرج وسفور ، وخلاعة ومجون ، ومخالطة للرجال ، وما كان يعمله الفرنسيون خصوصاً في احتفالاتهم برأس السنة الميلادية ، من خروج إلى النيل ومجاهرتهم بالتهتك والانحلال على مرأى من الناس ، مما أغرى بعض النساء من المسلمات بإظهار الفساد والتبرج (٢) .

ووصل الأمر إلى قيام بعض النساء من الأعيان بمشاركة الفرنسيين في تلك الاحتفالات المخلة بالدين والآداب ، ومن هؤلاء النساء ابنة الشيخ «البكري» شيخ السجادة البكرية ، وهو من الشخصيات الدينية والبارزة في مصر أيام الحملة الفرنسية . فما كان من والدها إلا أن أعلن البراءة منها على الملأ. وما إن بارح الفرنسيون القاهرة ، وخلفهم العثمانيون حتى سارع بعض قوادهم إلى القبض عليها وعلى بعض من كن معها في مشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم، وحكموا عليهن بالقتل، ونفذت الأحكام (٣) .

---

(١) أعجبني قول الشيخ محمد بن إسماعيل في كتابه القيم «عودة الحجاب» وهو : ليس الحجاب الذي نعنيه مجرد ستر لبدن المرأة .. إن الحجاب عنوان تلك المجموعة من الأحكام الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة في النظام الإسلامي ، والتي شرعها الله سبحانه وتعالى لتكون «الحصن الحصين» الذي يحمي المرأة و«السياج الواقي» الذي يعصم المجتمع من الافتتان بها و«الإطار المنضبط» الذي تؤدي المرأة من خلاله وظيفة «صناعة الأجيال» و«صياغة مستقبل الأمة» وبالتالي المساهمة في نصر الإسلام والتمكين له. من خاتمة كتاب «عودة الحجاب».

(٢) عجائب الآثار ٤٣٦/٢.

(٣) عجائب الآثار ٤٨٦/٢.

وإذا كانت هذه الواقعة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري توحي لنا بمدى شدة تمسك الناس بتلك العادات المرعية في جانب المرأة ، فإننا ننتقل إلى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر لنذكر واقعة أخرى على المنوال ذاته [(١)] .

فقد روت وصيفة «الملكة نازلي» عن شدة معاملة «الملك فؤاد» [(٢)] لها ـ قالت : وفي السبع عشرة سنة التي عاشها الملك مع الملكة لم يسمح لها بالسفر إلى أوربا سوى مرة واحدة عندما أجمع الأطباء على ضرورة سفرها إلى إحدى مدن المياه المعدنية بفرنسا لتعالج فيها ، وذلك عام ١٩٢٧م ، وكان الملك مسافراً لبعض دول أوربا زيارة رسمية ، ورفض أن يصحبها معه في هذه «الزيارات» ، واشترط أن تبقى في أوربا محجبة ، ورفض أن تكون معه على نفس الباخرة ، وأمر أن تسافر باليخت (المحروسة) ليتفادى سفرها بالبواخر العادية حتى لا تختلط بالرجال ، وأمر الملك أن يكون هناك (ديدبان) طوال الليل يمشي أمام الجناح الخاص بالملكة في اليخت ، وعندما بدأت الرحلة ، وخيم الظلام في الليلة الأولى رأت الملكة الديدبان ، فغضبت وهاجت وماجت وأمرت قبطان اليخت المحروسة بسحب الديدبان فوراً ، وقال لها القبطان في احترام «إنني أنفذ أوامر جلالة الملك شخصياً وقالت الملكة «ولكن وجوده هنا يضايقني ، وصوت حذائه يزعجني ويقلق نومي» ولم يستطع القبطان أن يقول إن صوت الحذاء لا يسمع مع وجود (البساط) المفروش على الأرض ، بل قال للملكة : إذا كان صوت حذاء الديدبان يزعج جلالتك فإنني سآمره أن يخلع حذاءه ، وفعلاً كان الجنود الذين يتناوبون الحراسة ليلاً أمام جناح الملكة يخلعون أحذيتهم ويقفون حفاة تنفيذاً لأمر الملك من جهة ، وإرضاء للملكة من جهة اخرى.

وحدث في تلك الايام أن نشرت مجلة (روز اليوسف) صورة للملكة «نازلي» ووجهها مكشوف فقامت قيامة الملك «فؤاد» ، وطلب من « توفيق نسيم باشا» رئيس الديوان الملكي أن يطلب من «عبد الخالق ثروت» رئيس الوزراء إغلاق مجلة روز اليوسف بتهمة العيب في الذات الملكية) .. وحقق مدير المطبوعات مع «روز اليوسف» فقالت : إن الصورة منقولة عن جريدة فرنسية وزعت في مصر . واكتفى مدير المطبوعات بتوجيه توبيخ شديد اللهجة إلى روز اليوسف.

---

(١) ذكرنا تلميحاً أن الجوانب الاجتماعية والاخلاقية كانت متماسكة نوعاً ما من أوائل القرن الثالث عشر الى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر تقريباً ، ثم ظهرت آثار الدعوة الى تحرير المرأة.

(٢) الأعلام ١/١٩٦.

وكان «الملك فؤاد» يحرص أن لا تبدو الملكة سافرة أمام رجل ، حتى أنها كانت لا تستطيع أن تتنزه في حدائق القصر الملكي إلا إذا حجبت نصف وجهها ، وبعد ما يتحقق بوليس القصر من عدم وجود رجل في المنطقة التي ستتنزه فيها الملكة ، يصدر الأمر إلى جنود الحرس الملكي الذين يقفون فوق جدران القصر بأن يديروا ظهورهم إلى حديقة القصر طول مدة سير الملكة في الحديقة ، وعندما أراد ملك أفغانستان «أمان الله خان» زيارة مصر وهو في طريقه إلى أوربا قام باصطحاب الملكة «ثريا» زوجته ، ورحب الملك « فؤاد » بملك أفغانستان ، ثم سمع أن الملك « أمان الله » ، دعا نساء أفغانستان إلى نزع الحجاب اقتداء بالغازي (كمال أتاترك) الذي ألغى الحجاب في تركيا ، وجاءت البرقيات تقول إن الملكة (ثريا) سترافق الملك سافرة في رحلته ، وعندئذ ألغى الملك «فؤاد» استضافته ملك أفغانستان في قصر عابدين ، بحجة أن التقاليد تحول دون اشتراك الملكة «ثريا» في الزيارة الرسمية ، وعرف أن الملك «فؤاد» لا يريد أن تقيم «ثريا» في قصر عابدين حتى لا تسمم أفكار الملكة «نازلي» ، ووافق الملك «أمان الله» على أن تكون إقامة «ثريا» في مصر إقامة غير رسمية ، فلا تشترك في الحفلات والاستقبالات التي يدعى إليها ، ولم يكتف الملك «فؤاد» بذلك ، بل أبلغ الملك «أمان الله» أنه يرجو ألا تظهر زوجته سافرة أثناء إقامتها في مصر مراعاة لتقاليدها ، وخضعت «ثريا» لرغبة الملك ، وأصدر الملك «فؤاد» أمره إلى وزارة الداخلية بعدم محاولة تصوير ملكة أفغانستان ، وفعلاً لم تظهر صورة واحدة للملكة «ثريا» في الصحف المصرية طوال مدة إقامتها ، وعندما انتهت الزيارة ، وصعدت ملكة أفغانستان إلى الباخرة الإيطالية التي أقلتها إلى أوربا أسرعت ، ونزعت الحجاب بحركة عصبية ، وقالت للصحافيين : «أظن أننا لم نعد مقيدين بأوامر الملك «فؤاد» هنا» (١) .

وهذا ملك أفغانستان «أمان الله» الذي سبق ذكره خلعه العلماء وحرم عرش آبائه ، وأجلي عن البلاد ؛ لأنه سمح لعقيلته بأن تخرج سافرة ، ودعا النساء المسلمات إلى نبذ الحجاب.

ولكن كل ما ذكرناه من أمثلة ووقائع على مراعاة الناس لهذه العادات ، لم يخرج عن كونه واقعًا ضمن دائرة العادات والتقاليد ، تلك التي لم يعد لها رصيد من العقيدة في كثير من الأحوال. وما قيل عن الحجاب والعادات المتعلقة بالمرأة يمكن أن يقال عن بقية الجوانب الاجتماعية والأخلاقية الأخرى ، وأنها جميعها قد فقدت قيمتها وأصالتها يوم أن فقدت قاعدتها الإيمانية ، وتحولت إلى عادات موروثة وتقاليد خاوية.

---

(١) من مقالات بعنوان : (من عشرة لعشرين) للصحافي مصطفى أمين - أخبار اليوم ٩ يناير ١٩٨٢م نقلاً عن عودة الحجاب ٧١/١.

وهنا جاءت النتيجة الخطيرة ، فلم يكن يمكن للعادات الموروثة والتقاليد الخاوية أن تصمد طويلاً في وجه حملات التغريب المنظمة وهجمات الغزو الفكري المخططة ، فإذا بتلك العادات والتقاليد تتهاوى سريعًا تحت معاول العلمانيين وضرباتهم المتتابعة ، وإذا بالجماهير الغفيرة تسرع بهجرها والتخلي عنها وتتبرم منها حتى كأنها لم تكن في حياتها يومًا من الأيام.

فالبنسبة للحجاب سقط في المعركة بعد أن اشتدت ضراوتها ، وصوبت سهام الأعداء إليه من كل جانب ، وآتت حركة تحرير المرأة كما يسمونها أكلها ، وظهرت نتائجها سريعًا في كثير من بلدان العالم الإسلامي ، تلك التي بدأت تتسابق فيما بينها للقذف بمجتمعاتها في تيارات العلمنة والتغريب والغزو الفكري ، وعندما أصدر «قاسم أمين» كتابيه المعروفين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩م ، و«المرأة الجديدة» عام ١٩٠١م قامت الدنيا من أجلهما ، وهوجم مؤلفهما هجومًا شديدًا ، واتهم بالكفر ، ومنع من دخول قصر خديوي مصر بدعوى أنه يدعو إلى الإباحية (١) .

وتعالت صيحات المستنكرين في كل مكان ، في مصر خاصة ، وفي معظم البلاد الإسلامية الأخرى وتوالت الردود العنيفة عبر المقالات الصحفية والكتب التي بلغ عددها وحدها مائة كتاب (٢) ولكن هذه الحشود الكبيرة من الردود الصحفية والكتب المعارضة قد تلاشت أمام دعوة «قاسم أمين» التي أودعها في مؤلفيه السابقين. واستطاع ما انطوى عليه هذان المؤلفان من فكر دخيل أن يشق طريقه وأن ينفذ من بين هذه المائة كتاب التي لم تكن الأوضاع الاجتماعية في صالحها ، ليستقر معمولاً به في أرض الواقع ، واستطاعت دعوة «قاسم أمين» أن تجد لها تربة خصبة في الحياة الإسلامية التي كانت تعاني من انحرافات فصلنا القول فيها.

فلم يكن بإمكان مائة كتاب أو ألف مقال أن تتصدى لإصلاح أوضاع فاسدة ، وأخلاق هشة ، ومجتمعات ضعيفة. ومن ثم فلم يمكنها الوقوف في وجه الحملات العدائية وفي مقدمتها دعوة «قاسم أمين» التي تولت كبر ما يسمى بحركة تحرير المرأة. وكان الحجاب مما سقط ، فالبرغم من ضراوة المعركة ، وتوالي الهجمات الشرسة ، على الحجاب فقد كان بالإمكان أن يبقى لو لم يكن قد تحول إلى عادة موروثة وتقليد خاو. و«لبيان ذلك نقول : إن هذه الوسائل ما تزال مستخدمة حتى هذه اللحظة وبعنف أشد مما كان قبل خمسين عامًا دون شك ، وقد أحدثت هذه الوسائل في خلال ما يزيد على نصف قرن تيارًا هائلاً نافرًا من الإسلام منسلخًا منه ، ومع ذلك توجد فتيات محجبات ، جامعيات مثقفات ، لا يتنازلن عن حجابهن ولو دخلن من أجله السجون والمعتقلات».

---

(١) عودة الحجاب ٤٧/١.

(٢) المصدر السابق ٥٠/١ انظر بعض أسمائها ص ٥٠ من نفس المصدر.

«وبعبارة أخرى نسأل : هل كان الحجاب الذي سقط عقيدة أم تقاليد؟ والأخلاق التي سقطت .. هل كانت ذات رصيد إيماني حقيقي أم كانت تقاليد؟ ......

حين يكون الحجاب عقيدة فإنه لا يسقط .. مهما سلط عليه من أدوات التحطيم.

وحين تكون الأخلاق ذات رصيد إيماني حقيقي ، فليس من السهل أن تسقط - ولو سلطت عليها عوامل الإفساد - إلا بعد مقاومة شديدة وزمن مديد.

أما التقاليد الخاوية من الروح ، وأما العنجهية الفارغة .. فهي عرضة للسقوط إذا اشتد عليها الضغط ، وقد كان الضغط عنيفًا بالفعل ، بل كان شيطانيًا بكل ما تحملة الكلمة من معان» (١) . وقد لاقى الحجاب حملة شديدة استهدفت القضاء عليه ومحوه من الحياة الإسلامية إلى الأبد ، ولعل أجرأ الخطوات وأشدها جرمًا ما قام به «مصطفى كمال أتاترك» في تركيا بعد أن مهد لذلك بإلغاء الخلافة العثمانية ، وعمل على سلخ تركيا من الإسلام وقد أصدر قانونًا بنزع الحجاب ومعاقبة مخالفيه وشنق معارضيه في ذلك (٢) .

وكذلك فعل ملك أفغانستان «محمد أمان» حين أصدر قانونًا بنزع حجاب المرأة.

وفي ألبانيا حارب «أحمد زوغو» الحجاب بقانون ، ثم عادت المرأة المسلمة الألبانية إلى الحجاب أيام الحرب العالمية الثانية ، ثم عاد «أنور خوجا» مرة ثانية وشن حربًا شعواء على الحجاب في ألبانيا(٣) .

وفي الجزائر تمكن «أحمد بن بيلا» من سرقة الثورة الإسلامية ، وتحويلها إلى ثورة اشتراكية بعيدة عن الإسلام ، ودعا المرأة الجزائرية إلى خلع الحجاب بحجة عجيبة حين قال : إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلى ذلك ، أما اليوم فإني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر (٤) .

ولسنا بحاجة لتتبع ما قام به أعداء الإسلام في الداخل والخارج في هدم الأسس الأخلاقية والاجتماعية عند المسلمين ، وتقويض معالمها ، ونجاحهم في ذلك نجاحًا مذهلاً ، وبسرعة مذهلة وزمن قصير ، بعد أن ارتفعت هذه الأسس قرونًا كثيرة ، وذلك بعد أن ضعف ارتباطها بالدين ، ونضبت في داخلها العقيدة والصلاح.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٦٤.

(٢) عودة الحجاب ١/٢٠٥.

(٣) المصدر السابق ١/٢١٦.

(٤) واقعنا المعاصر ٢٦٠.

ولعل ما ذكره الشيخ «أبو الحسن الندوي» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» عن أفغانستان ذلك البلد الإسلامي يعطي صورة واضحة عن سرعة انهيار الجوانب الاجتماعية والأخلاقية في كثير من البلدان الإسلامية. يقول «الندوي» :

«وقد كانت هذه الحال في أفغانستان حين طفرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية ، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف. وقد حدثت هناك ثورة في الأوضاع في خلال ٣٢ سنة . فالمجتمع الأفغاني الذي ثار على «أمان الله خان» الأمير العريق في الملك والشرف لأجل إصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرته تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلاء الدائم، وأصبح هذا المجتمع الأفغاني يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الأفغانية بخطى سريعة واسعة، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصون تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته» (١) .

ثم ينقل كلاماً لأحد الصحفيين الأوربيين المراسلين لإحدى الصحف الهندية الانجليزية « بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب (أغسطس) عام ١٩٥٩م ، أثر منشور ملكي سمح للنساء بالسفور ، ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً ، سألت السيدة «معصومة الكاظمي» وكانت تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية في الطب ، وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة : ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور؟

قالت : إنني وأختي طرحنا الملاءة وأردية القناع في التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً» (٢) .

ويقول المؤلف حين قام بنفسه بزيارة إلى أفغانستان عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) : لاحظنا أنا المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلاد، وأن الثقافة الغربية قد آتت أكلها يانعة ناضجة، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ ـ ١٩٧٣م كانت واسعة بعيدة . فقد كان الشعب الأفغاني إلى عهد «أمان الله خان» متمسكاً بالتقاليد الإسلامية الأفغانية عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ في ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك «أمان الله خان» عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، إنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢١.

مدة خمس وأربعين سنة ولكن المسافة الفكرية والثقافية ، هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن العاصمة ...» (١) .

وليست أفغانستان سوى مثل تكرر على منواله ما جرى في أكثر الأقطار الإسلامية من سقوط للأسس الأخلاقية والاجتماعية وتهاويها السريع بصورة مذهلة.

وهكذا تكون مصائر العادات والتقاليد الجوفاء الخالية من العقيدة ، مهما اتسمت بالصرامة ، وامتزجت بالمغالاة والتطرف.

هذا هو المرتكز الأول الذي رأيناه جديراً بالتسجيل والحديث حول الضعف الاجتماعي والأخلاقي في الفترة التي نعنى بدراستها ، ألا وهو تحول كثير من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية إلى عادات وتقاليد لا تقوم على قاعدة متينة من العقيدة الصحيحة ، والإيمان القوي وأن هذه العادات والتقاليد ما كان لها أن تظل صامدة أمام الهجمات الشرسة من قبل أعداء الإسلام. وقد استغل أعداء الإسلام في أثناء هجومهم على الأخلاق والتقاليد الخاطئة الموجودة في المجتمع الإسلامي ، وهاجموا معها العادات المستمدة من الدين من حجاب واستقرار في البيت وغير ذلك ، وجعلوا كل ذلك من التقاليد العتيقة التي عفى عليها الزمن ولم يعد يستساغ وجودها في العصر الحاضر (٢) .

أما المرتكز الثاني : فهو ما أصيبت به الأمة الإسلامية في هذه الفترة وخاصة القرن الرابع عشر الهجري من انهيار مهول في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية ، وتحلل وفوضى فيها ، ومع ذلك فإنه يعد أمراً هيناً بجانب الأمر الخطير الذي وقع لأول مرة في تاريخ الأمة وهو انتقاص القيم الإسلامية ومهاجمتها بشدة ومحاولة القضاء عليها من أبناء الأمة نفسهاوذلك بفعل الغزو الفكري .

إن وقوع التحلل والترذل الخلقي أمر محتمل الوقوع ، بل متحقق في حياة الناس ، وقد وقعت بعض مظاهره في طول تاريخ الأمة ، وليس هذا غريباً. ولكن الغريب حقاً أمران وقعا في تلك الفترة التي ندرسها.

الأمر الأول : هو حجم الفساد وتفشيه العظيم في أوساط المجتمعات الإسلامية فلم يطغ مثل هذا الحجم الهائل من الفساد على الحياة الإسلامية إلا في تلك الفترة. ولم يصل إلى ما وصل إليه بذلك الشكل الخطير في أي عصر مضى. وبالتالي تسبب هذا الانتشار في ضعف إحساس الناس

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) انظر : واقعنا المعاصر ص ٢٨٦.

بمخالفة الأخلاق. فلم تعد مخالفتها تثير في نفوسهم من الكره والاشمئزاز ما كانت تثيره من قبل. أو بعبارة أخرى فقد طغى الفساد والتحلل على المجتمعات الإسلامية، وأصبح هو الغالب عليها، والمسير لحياتها ، وانحصرت القيم الخلقية والمثل الاجتماعية في أضيق نطاق ، فكأن الفساد هو الأصل ، والصلاح هو الشاذ والغريب ، كما يبدو ذلك واضحا من خلال النظرة إلى تلك المجتمعات. «فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذاً يستنكر ، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع ، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر» (١) .

الأمر الثاني : وهو الأشد خطورة ، ولا أظنه حدث أبداً في تاريخ الأمة كما قلنا من قبل، ألا وهو الهجوم الشديد على الروابط الأخلاقية والاجتماعية ، وانتقاصها ، واعتبارها رمزاً للتخلف والرجعية ، فلم يكتف بالتخلي عن هذه الروابط والتهاون فيها ، بل تعدى ذلك إلى مهاجمتها وإلقاء اللائمة عليها فيما أصاب المسلمين من ضعف وتخلف، وهوجم الدين في أثناء ذلك هجوماً عنيفاً ، ونودي بفصل الدين عن الحياة ، وأن الأخلاق لا علاقة لها بالدين ! !

وسوف ندمج الحديث عن هذين الأمرين بصفتهما متلازمين ، ومتأثر كل منهما بالآخر فلقد حدث الأمران معاً ، فوقع فساد عظيم في الدين والأخلاق ، صاحبه هجوم شديد ومتواصل عليهما ، وارتبط ذلك كله بعجلة التطور ، ومفهوم التخلف والرجعية.

فاعتبرت الأخلاق الإسلامية علامة على التخلف والرجعية ، واتهمت الروابط الاجتماعية أنها تقف في طريق تقدم المجتمعات ورقيها، «وانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية ، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ، ثم دب دبيب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال ، فتكاسل الناس عن أداء العبادات وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة ، ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية» (٢) .

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٩٤.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٢ د . جميل المصري من كتاب «الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام» للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد.

ولعل من الأحداث البارزة التي شن فيها الهجوم على بعض المثل الإسلامية ما تمثل في مظاهرة النساء المصريات (١) في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) (٢) أمام ثكنات الجيش الإنجليزي سنة ١٣٣٨هـ ـ ١٩١٩م بقيادة «صفية هانم زغلول» ، و«هدى شعراوي» وقيامهن في وضح النهار وأمام الملأ بخلع الحجاب وإشعال النار فيه (٣) .

فكان هذا الهجوم السافر إعلانًا باستشراء الفساد وغلبة الباطل ، ودليلاً على انزواء الصلاح وضعف الحق وهوانه بين الناس.

فكانت الأحداث تتوالى سريعًا في صورة صراع مرير بين القديم والجديد ، أو إن شئت فقل صراعًا بين الإسلام الذي انقلب في أكثره إلى رسوم وعادات جوفاء وبين الباطل في صورة حضارة قوية أخاذة وغالبة ، هجمت عليه من كل جانب.

وفي موضوع المرأة كانت دعوة «قاسم أمين» هي فاتحة الشرور التي أطلت على المسلمين بعد ذلك ، وعلى الرغم أن «قاسم أمين» «لم يدع قط إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقصتهم ولم يدع قط إلى أن يتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق ، والصدور والظهور. ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تخفي عورات الجسم إلا لتبرز مواضع الفتنة والإغراء منها ... فإنه هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات ، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لا بد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات لم يعد الذي دعا إليه «قاسم أمين» هو شغل الناس بعد الحرب (٤) ، فقد أخذت الأمور تتطور تطورًا سريعًا ، حتى أصبحت دعوة «قاسم أمين» وقد استنفدت في وقت وجيز كل أغراضها واندفع الناس إلى ما وراءها في سرعة غير منتظرة.

فقد خلعت المرأة النقاب ، ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة (٥) ، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة ، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيول وفي الأكمام وفي الجيوب (٦) ، ولم يزل يجور عليها فيضيقها على صاحبتها حتى أصبحت كبعض جلدها ، ثم إنها تجاوزت ذلك كله

---

(١) كن خليطًا من المسلمات والنصرانيات واليهوديات.

(٢) هو ميدان التحرير حاليًا.

(٣) انظر حول ذلك : واقعنا المعاصر ص ٢٥٨. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٥٠.

(٤) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م.

(٥) الحبرة : هي إزار كانت المرأة تلتحف به إذا برزت للطريق ، وقد كان يتخذ من قماش أسود ويتكون من قطعتين ، تدور إحداهما حول الخصر وتتسدل إلى أن تغطي الساقين ، وتنزل الأخرى من فوق الرأس فتغطي الصدر والكتفين وتنتهي إلى ما تحت الخصر ، وقد اختفى هذا الزي الآن أو كاد.

(٦) جيب الثوب هو طوقه الذي يحيط بالرقبة ، والفتحة التي يدخل فيها اللابس رأسه حين يلبسه. من هوامش د. محمد محمد حسين رحمه الله.

إلى الظهور على شواطئ البحر في المصايف بما لا يكاد يستر شيئًا، ولم تعد عصمة النساء في أيدي أزواجهن، ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومشيعي الفجور ، وقطعت مرحلة التعليم الإبتدائي والثانوي واقتحمت الجامعة ، مزاحمة فيما يلائمها. وفيما لا يلائمها من ثقافات وصناعات ، وشاركت في الوظائف العامة ، ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ما سماه أنصارها «حقوق المرأة» أو «مساواتها بالرجل» وكأنما كان عبثًا أن خلق الله ـ سبحانه ـ الذكر والأنثى ، وأقام كلاً منهما فيما أراد وامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات ، وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان ، فاختفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها، بعد أن أصبحن يفضلن مشاركة الرجال» (١) .

«كتب «أنيس منصور» في إحدى مقالاته في أخبار اليوم : إنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجًا مستلقين على الحشائش في فناء الجامعة ..... قال : فقلت في نفسي : متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط! لكي تراه عيون أهل الصعيد ، وتتعود عليه!

هذا وغيره فضلاً عن آلاف بل ملايين الصور العارية .. والأغاني العارية ... والأفكار العارية ... والنكت العارية ... التى تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون .... وآلاف بل ملايين الأجساد العارية في كل مكان : في الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية في فصل الصيف..» (٢) .

«فهذه صحيفة السياسة الأسبوعية تكتب مقالاً عن فتاة تركيا ١٩٢٦م ، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضًا عامًا ، في رحلة على نفقة الحكومة ، تنتقل فيها بين موانئ أوربا الشهيرة فتقول إن هذه الباخرة كانت تقل (خمسًا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة كلهن جميلات مقصوصات الشعور ، لا يكاد يميزهن الرائي من فتيات لندرة وباريس) .

ويقول مراسل الصحيفة : إن أكثر الفتيات يتكلمن الإنجليزية بإتقان يدعو إلى الدهشة ، وأن بعضهن قد تلقى العلم في الكلية الأمريكية في القسطنطينية. ويروى بعض ماصرحت به الفتيات ، من مثل قول إحداهن في بعض الموانىء الإنجليزية : (إن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية ، ونرقص وندخن ونسافر ونتنقل بغير أزواجنا) (٣) .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٤٩/٢.

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٩٥.

(٣) الاتجاهات الوطنية ٢٥٥/٢.

بل لقد حظي هذا الهجوم الآثم بمساندة الأنظمة الحاكمة له في كثير من بلاد الإسلام. ومحاولة هذه الأنظمة العلمانية الجائرة القضاء على الجوانب الخلقية والاجتماعية وفرض نقائضها وما يخالفها بالقوة على المجتمع، وسن القوانين التى تهدف إلى إلغائها . وقد ذكرنا ماقام به كل من : «كمال أتاترك» في تركيا. «والملك أمان الله » في أفغانستان «وأحمد زوغو» في ألبانيا ، و«أحمد بن بيلا» في الجزائر في سبيل تحقيق ذلك ، ووصل الأمر في بعض تلك الدول إلى اعتقال بعض النساء المسلمات بتهمة ارتداء الحجاب !! [١] . وتم فصل بعض المدرسات من أعمالهن بسبب إصرارهن على لبس الحجاب في إحدى تلك الدول [٢] . وأصدر في بعضها قانون يمنع تعدد الزوجات ، ويعتبر أن التعدد جنحة يعاقب مرتكبها بالسجن لمدة سنة ، وبغرامة مالية تقرب من (٢٤٠) ديناراً.

وعندما ضبط أحد الذين تزوجوا ثانية ، وسيق إلى المحاكمة ، تبرأ من عمله بأن هذه ليست زوجته الثانية ، وإنما هي خليلته ، فعفى عنه [٣] .

وقام آخر من هؤلاء العلمانيين المارقين بإصدار قوانين تساوي بين الرجل والمرأة في الميراث وتمنع تعدد الزوجات ، وعلق معارضيه من العلماء على أعواد المشانق بعد أن حكم عليهم بالإعدام [٤] . وأنزلت المظليات والمظليون إلى شوارع إحدى العواصم الإسلامية لينتزعوا بالقوة والإرهاب حجاب النساء المسلمات في هجوم سافر على فريضة شرعية. «وافتتحت الخمارات في كل مكان ، حتى تغلغلت إلى الريف وإلى أحياء العمال. وافتتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم. وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التى لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة» [٥] .

ويسرت سبل الإفساد ، وسهلت وسائل الرذيلة وإشاعة الفاحشة عبر وسائل الإعلام ، وبما تقوم الأنظمة العلمانية برعايته من كل مامن شأنه شرخ العقيدة الإسلامية ، وهدم الأخلاق والفضائل ، «ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك تيسير استخدام موانع الحمل وإنتاجها على نطاق واسع أكبر بكثير جداً من حاجة البشرية الراشدة ، وتخفيض أسعارها حتى تصبح في متناول أي فتاة تريد أن تحصل عليها ، وإخراجها من دائرة المراقبة الصحية التى يمكن للأطباء أن يمارسوها ، وذلك ببيعها دون

---

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٦٥.

(٢) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٢٨٥ محمد الناصر. خولة درويش. دار الرسالة. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥.

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٦.

(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٢٦٤.

حاجة إلى تذكرة الطبيب ، على الرغم مما يقوله الأطباء أنفسهم من خطورة استخدامها بغير رقابة صحية. والهدف من ذلك واضح. فحين تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير المشروعة ، فما الذي يمنعها - في الفوضى الخلقية الضاربة أطنابها في الجاهلية المعاصرة - أن تغرق في هذه العلاقات إلى آخر المدى ، ويتحقق للشياطين مايريدون من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق» [١] .

ومازالت المعاول الهدامة تدك صروح الأخلاق الإسلامية ، وتداهمها الدعوات المشبوهة هازئة بها ، ومتخطية إياها حتى قوضتها ، وأزالتها من النفوس واستبدلت بها أردية التحرر والتحلل والانفلات من الضوابط ، فنشأت مجتمعات تستمرئ الرذيلة وتألف الفاحشة ، وتستروح الفساد ، في الوقت الذي نبذت فيه الفضيلة ، واستوحشت من الطهر والصلاح ، ونظرت إلى ذلك بعين الإزدراء. وظهرت فتنة الموضة والأزياء مبكراً ، كمؤشر على الخواء الروحي الذي أصاب نساء المسلمين.

تقول إحدى الكاتبات التى عاصرت غزو الموضة إلى العالم الإسلامي في بواكير القرن الرابع عشر الهجري : «ولكن لم تلبث أن تقدمت نحونا تلك المناظرة بخيلها ورجلها ، ودخلت بلادنا ضيفاً غير محتشم ، واستمالت قلوب النساء والبنات إلى الأخذ بها ، فتغيرت الحالة الأولى بضدها ، واستحالت عوائدنا القديمة إلى عكسها وارتفع علم المودة (أي الزي الجديد) في ربوعنا حتى راجت بضاعته ، ونال من أفئدتنا بغيته...»

إلى أن قالت : «أما الآن فترى المسئلة معكوسة من جميع وجوهها حيث نجد المثريات منا اللواتي ينبغي أن يكن قدوة لجمعيات يتسابقن إلى ميدان المودة ، ويبرزن بحللهن وحليهن تيهاً وإعجاباً ، ويتفاخرن كل يوم بثوب جديد إعلاماً ببذخهن وإسرافهن إلى غير ذلك ، مما يجدد في نفوس عامة النساء روح الغيرة والافتتان ، ويحملهن على إقدامهن على نحو هذا التقليد المضر بصالحهن المادي والأدبي ، فضلاً عن إضراره بصحتهن وراحتهن ..»

وتقول أيضاً : «وكم من امرأة قد باعت ما لديها من الحلي والعقار وابتاعت بقيمته قبعات وأثواباً ومراوح إلى غير ذلك من لوازم المودة العائدة بخراب بلادنا والمنفعة لغيرها من البلاد التى تختلق لنا لزوم ما لا يلزم فنتهافت إلى ابتياعه ولا تهافت الجياع إلى القصاع..» [٢] .

ومع دلالة الموضة على الجهل والخواء الروحي ، فإنها لتدل على غياب القدوة في حياة المرأة المسلمة والمتمثلة في أمهات المؤمنين ونساء الصحابة الأبرار ، ومن جاء بعدهن ممن ترسمن خطاهن ، واقتدين بهن في القرون المتقدمة.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٩٧.

(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ١٤ وما بعدها.

ومـا من داع أن نخـوض حـول عـبـودية المودة في هذا العـصـر ، وانتـشـارها بين النسـاء في المجتمعات الإسلامية ، فإن الواقع الأليم قد كفانا مؤنة ذلك.

كما أصيبت تلك المجتمعات بالتفكك ، وسادت فيها الأخلاق النفعية ، والعلاقات الانتهازية ، وطغت فيها أنانية الفرد ، وحب التسلط على الآخرين.

«وإنه لأمر مؤلم أن تسود النفعية كثيرًا من مجتمعاتنا المسلمة في العصر الحاضر ، فبعد أن كان الإخلاص والأمانة والصدق والإيثار ، من أهم خصائص أخلاق المسلمين ، إذا بالغش والكذب ، والأنانية والخيانة تحل محل تلك الفضائل عند كثير من الناس ، ومن هنا باتت الشكوى مريرة والانهيار خطيرًا » (١) .

وانتشرت الغيبة والنميمة والكذب وأصبحت من أخلاق الكثيرين وطباعهم ، وطغت الرشوة وأساليب المكر والاحتيال حتى عد ارتكابها من الذكاء وبعد النظر.

وتصدعت الأسرة المسلمة بعد أن استجابت الأم والزوجة لدعاة خروج المرأة إلى العمل زاعمين أن بقاءها في البيت «انتقاص لحقوقها وقتل لشخصيتها واعتداء على كيانها» (٢) . فأصيب الأطفال بالضياع والتشرد الأسري نتيجة لما يسمى بالخروج إلى العمل ، وفسدت تنشئتهم حين وكل بتربيتهم إلى الخدم ودور الحضانة ، ولجأت الأم إلى الوسائل الصناعية في إرضاع طفلها خيانة للأمانة وتفريطًا فيها وتعطيلاً لسنة الله ، لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الأم لتبرزه في السهرات وتكشف عن جماله وتنصبه شركًا في الطرقات ، ولكنه أوجده أصلاً للإرضاع . والرضاعة مع ذلك ليست عملية عضوية آلية فحسب ، ولكنها حنان متبادل وميثاق غليظ - وليس لنا أن نتوقع بعد شيوع الرضاعة الصناعية إلا السعي لاختراع وسيلة للحمل الصناعي بعيدًا عن بطن الأم - إن أمكن - توفيرًا لجهدها وصيانة لجمالها (٣) .

«والأسرة المسلمة دب فيها الوهن بعدما بعدت عن أحكام الإسلام فالعلاقات بين الزوجين متوترة وعلى الأحسن فاترة ، والعلاقات بين أفراد الأسرة الآخرين تفككت تقليدًا للغرب الصليبي ، ومظاهر قطع الرحم والخصام تزيد عن مظاهر الوئام والسلام ، ومظاهر التظالم بين أفراد الأسرة

---

(١) أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص ٣٣٣ .

(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٠٤ د. محمد محمد حسين دار الرسالة. مكة المكرمة. الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٤م.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

الواحدة والتشاحن على الميراث وعلى غيره من أغراض الحياة الدنيا كثيرة وكبيرة وعميقة. والمجتمع المسلم لم يعد جسداً واحداً ؛ تقطعت أوصاله وأجزاؤه على مستوى الأمة الإسلامية ، فلم تعد واحدة، وتقطعت أوصاله وأجزاؤه داخل البلد الواحد إلى أحزاب وفرق وعصبيات وساد الفكر الصليبي ، أو الصهيوني، أو ما يريده هذا وذاك أن يسود ، وانتفى فيه التكافل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وانهار خلقًا بترك الصدق والأمانة والعفة .

وعاون على ذلك إعلام فاجر لا يرعى الله ولا الأخلاق ولا القيم ، ويحقق للصهيونية أو الصليبية كل ما تبغيه ، عقيدة وخلقًا وسلوكًا كما ساعد على ذلك تعليم تفلت أو يتفلت من قيم الإسلام ، ليعلي قيمًا غير إسلامية ، وليقرر مناهج غير إسلامية في مجال الطبيعيات والعلوم الإنسانية والاجتماعية وليزري عن عمد أو عن جهل بالدين ورجاله وعلمائه فيزري بالتالي بقيمه وأحكامه» (١) .

والأم «أصبح دورها ضعيفًا في توجيه الأبناء بسبب الجهل ، أو غلبة المفاهيم الغربية على كثير من المتعلمين والمتعلمات من أبناء أمتنا . وكانت محاولات المرأة للخروج (كما ذكرنا) من منزلها للعمل من أهم أسباب إهمال الأطفال ، أو تسليمهم لأيدي الخادمات ، وربما كن غير مسلمات - لقد بدأت الصيحات تتعالى لتقليد المرأة الغربية ، مما نجم عنه خطر داهم في تفكك روابط الأسرة المسلمة ..» (٢) .

ولا عجب بعد ذلك إذا سمعنا عن جرائم اجتماعية في العالم الإسلامي تضاهي التي في أوربا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد، ولا عجب أن تنتشر الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة ، وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك .... وأن تنتشر ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب خاصة، مما ترتب على ذلك كثرة جرائم القتل والسرقة والتهريب (٣) .

وقد بلغ الفساد والانحلال بكثير من البلاد الإسلامية أنك لم تعد تستطيع أن تفرق بينها وبين البلاد الغربية وما تعج به من مظاهر الفساد والتحلل ، حيث تطغى هذه المظاهر على جميع ميادين الحياة في الشوارع والأسواق والأعمال والمستشفيات والمنتزهات والمؤسسات التعليمية من معاهد ومدارس وجامعات ، وانعدم الأمن بسبب ذلك ، وفقدت الثقة والاحترام ، وانتهكت الأعراض بل استحلت في حقيقة الأمر ، ولم يعد الصالحون يأمنون على أعراضهم وأنفسهم وسط تلك المجتمعات المتحللة من الفضيلة والأخلاق .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٨٨ د. علي جريشه.

(٢) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٣٢٥.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢٤ د. جميل المصري.

ومن المتناقضات الاجتماعية الصارخة التي أضحت من سمات المجتمعات الإسلامية المعاصرة التفاوت المادي الشديد بين فئات المسلمين ، فبينما ترى في البلد الواحد عدداً كبيراً من الأثرياء وأصحاب الأرقام الفلكية من الأموال، تجد ألوفًا بل ملايين من الآدميين الذين أهدرت آدميتهم بسبب الحالة المدقعة التي تدنو إليها، حيث تصل هذه الحالة في بعض البلدان إلى دون مستوى الحيوان(١)

يقول الدكتور «نبيل صبحي الطويل» متحدثًا عن ذلك التفاوت العجيب بين مجتمعات المسلمين : «لقد زرت وعشت أياماً وأشهراً في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين «لاغوس» في نيجيريا و«دكا» في بنغلاديش ، ورأيت فيها جميعًا التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لا يملكون شروى نقير ، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة ، بين الحدائق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الحواضر الكبرى هذه ، وفي أحيائها القديمة بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحمًا ودهنًا من التخمة ... وبين الأسمال والخرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة - بين الفنادق الفخمة ذات النجوم الخمسة ، وكثير منها للأجانب ، وبين المقعدين المعوقين من الشحاذين الفقراء صغاراً وكباراً ... على أبواب هذه الأبنية الرائعة يحدث كل هذا في ديار المسلمين»(٢) .

وما ذكره الدكتور «الطويل» يكاد يتكرر في كل بلد إسلامي حيث تبرز الطبقية الكريهة واضحة بلا خفاء- وأصبح التعامل والعلاقات على ضوء هذه الطبقية التي تزيد الفجوة أصلاً بين أفراد المجتمع اتساعًا ، وهل كان يحدث مثل هذا التميز الواضح لو أن المسلمين كانوا متمسكين بدينهم ، وأخرج الأثرياء منهم زكاة أموالهم ؟ في الواقع لم يحدث مثل ذلك على الإطلاق ، وظلت الأحوال تزداد سوءًا يومًا بعد يوم ، وتتفاقم هذه الطبقية وتستشري مع مرور الزمن.

---

(١) في خطاب للإمام حسن البنا رحمه الله تعالى ألقاه في المؤتمر السادس للإخوان المسلمين في القاهرة عام ١٩٤١م تحدث فيه رحمه الله عن فساد النظام الاجتماعي في مصر فكان مما ذكره : أن أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشاً في الشهر إلا بشق النفس ، فإذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل في الأسر المصرية عامة .. كان متوسط ما خص الفرد في العام جنيهين ، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار ، فإن الحمار يتكلف على صاحبه (١٤٠ قرشاً خُمس فدان برسيم و٣٠ قرشاً حملاً ونصف الحمل من التبن و١٥٠ قرشاً أردب فول و٢٠ قرشاً أربعة قراريط عفش ذرة ومجموعها ٣٤٠ قرشاً) وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الآدميين في مصر، وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان.

الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ ٢/٢٧٩ محمود عبد الحليم . دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. الاسكندرية. ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص ٤٣ نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٨ د. جميل المصري.

لقد كان خروج الأخلاق من دائرة العبادة الواسعة في الإسلام سبباً في سهولة تحطيمها وإضعافها ، «وحين يخرج الصدق من دائرة العبادة لم يعد الصدق في حس الناس لازماً .. وإنما أصبح شيئًا جميلاً إن وجد ، فإن لم يوجد فلا بأس!

وحين خرجت الأمانة من دائرة العبادة لم تعد لازمة في التعامل! إنما هي جميلة إن وجدت في شخص بعينه ، فإن لم توجد فلا بأس! وحين خرج الوفاء بالوعد من دائرة العبادة لم يعد لازماً! إنما هو موعظة جميلة يلقي بها الخطيب في خطبة الجمعة ، فإن لم يمارسه أحد فلا بأس!» (١) .

وهكذا خرجت العفة والحشمة والإيثار والتوقير وغيرها من الأخلاق من دائرة العبادة «وهكذا صار عند الناس إسلام بلا أخلاق .. إسلام لم ينزله الله تعالى ولم يأمر به، إنما أمر بضده تماماً .... ويجيء الفكر الإرجائي فيواكب هذا التخلف العقدي المهلك ، ويتسع تدريجياً مع كل تخلف جديد على أساس قاعدته «العظمى» أنه لا يضر مع الإيمان شيء، وأن الإيمان هو التصديق ، أو هو الإقرار والتصديق ، وأن العمل خارج من مسمى الإيمان ..» (٢) .

لقد رأينا في الباب الأول مزيداً من التدني في الأحوال العقدية ، وتفاقماً في الانحرافات الدينية، فالكل لم ينج من لوثات هذه الانحرافات ، فأنى لمجتمعات تضافرت على الشرك والبدع والخرافات ، وملاحقة المجاذيب ، والتعلق بالخوارق والكرامات ، والركون إلى عالم الغيب كما يفهمونه هم ، والإعراض أو الاستهانة بعالم المحسوسات ، والرضوخ والرضا بسيادة المتصوفة والمخرقة ، والخنوع للواقع المرير المؤلم المليء بكافة صور الفقر والحرمان والمرض والجهل والتخلف ، والجري وراء إقامة الموالد وتقديم القرابين والذبائح والهدايا والنذور إلى سدنة الأضرحة والمشاهد ، وتكاتفهم أحزاباً لنصرة مذاهبهم وطرقهم ، وتفرقهم بسبب ذلك . أقول بعد ذلك أنى لمثل هذه المجتمعات أن ترعى الأخلاق أو أن تظل محافظة عليها ، ساهرة على حمايتها ضد كل سهم يصوب إليها.

لقد كانت هذه المجتمعات التي وصفنا بعض حالها في غفلة تامة عما أريد بها من شر وفساد بسبب انشغالها بما ذكرنا من انحراف وباطل.

حتى اذا بدأت دعوات التغريب والعلمنة في تصويب سهامها القاتلة ضدها وجدت الحدود خالية من حراسها الذين كانوا غارقين في حمأة الوجد والتصوف، مما عجل بنهاية المعركة وارتفاع رايات العلمنة والتغريب فوق تلك المجتمعات التي لم تفق من وجدها وهياماتها وانحرافاتها إلا على أنظمة العلمانيين ومؤسساتهم تقرع رؤوسهم وتحكمهم وتسير بهم إلى هاوية التفرنج والانسلاخ من الدين.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٧١.

قضية أخيرة لا بد من الإشارة إليها بعد أن حاولنا أن نكشف الغطاء عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي الذي أصاب الأمة الإسلامية في الفترة الأخيرة، ذلك هو غياب فريضة إسلامية عظيمة كان من الممكن لو أنها مورست ولو على نطاق ضيق أن تخفف بعض الشيء من حدة ذلك الضعف. هذه الفريضة هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تلك الفريضة التي كانت شبه غائبة عن حياة الأمة ولم يكن أسوأ من هذه القضية سوى تقاعس العلماء وطلبة العلم عن القيام بواجبهم الذي يتركز أساساً في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأين كان العلماء من هذه الفريضة العظيمة وقت توالي الفساد وتتابع الشرور والفتن على الأمة ؟ ماذا كان موقف العلماء من التعالن بالمنكرات والجهر بها، ومن تفشى الرذائل وألوان الإباحية والتحلل ، ومن طمس الفضائل ومحاربتها.

لقد كان موقف العلماء الذي كان مفترضاً عليهم أن يحموا الأمة من عاديات الشرور، ومضلات الفتن ، ضعيفاً لا يكاد يذكر.

وكيف يمكن لعلماء حشيت عقولهم وأذهانهم بمصطلحات علم الكلام العقيم ، وأوغرت صدورهم بتعصب مذهبي مقيت وتقليد أعمى ، وهامت أرواحهم في خيالات التصوف أن يتصدوا لذلك الزحف العنيف والهجوم المتواصل من قبل شراذم العلمانيين على الدين والأخلاق.

إن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمعات وإلى الجرأة على اقتراف المنكرات ، وإلى صعوبة الإصلاح والتغيير (١) .

وهو ما حدث بالفعل في العالم الإسلامي.

* * *

---

(١) مجتمعنا المعاصر. أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ١٨٥ د. عبد الله سليمان المشوخي. مكتبة المنار. الأردن. الزرقاء. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

الفصل الثاني

الآثار الخارجية

ويتكون من ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الاستعمار

المبحث الثاني : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم

المبحث الثالث : النشاط التنصيري

المبحث الأول : الاستعمار[١] :

لم ينقطع الصراع بين الإسلام وخصومه يوماً من الأيام. وما إن صدع النبي ﷺ بدعوته بين ظهراني المشركين في مكة ، حتى توالت سلسة العدوات والمؤامرات والتربصات بهذا الدين الجديد، وما فتئ المشركون ومن ورائهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ أول وهلة بلغتهم دعوة الإسلام في الكيد والمكر والعمل الدؤوب على محاولة إطفاء نور الله ، وإزالة الفئة المؤمنة من الأرض. ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ [التوبة ٣٢].

ولكن المسلمين في الصدر الأول استطاعوا التغلب على تلك المؤامرات والهجمات بسبب تمسكهم بدينهم وحيطتهم وصبرهم خلال ذلك الصراع المرير. كما أخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها. وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا. إن الله بما يعملون محيط** ﴾ [آل عمران ١٢٠].

ولم ينقطع كيد الأعداء وتخطيطهم للقضاء على الإسلام والمسلمين في يوم من الأيام ، فليس ذلك هو العلة الحقيقية في انهزام المسلمين ووقوعهم تحت أقدام الغزاة المحتلين ، ولكن العلة الأولى هي مدى اتقاء المسلمين وصبرهم خلال مبارزة ذلك الكيد ومقاومته ، فبمقدار تقوى الأمة وتمسكها بدينها وصبرها تكون مغالبة لما يدبرها أعداؤها من كيد وحرب. فحين فرطت الأمة في ذلك التوجيه الرباني ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا** ﴾ وغيره من التوجيهات والأوامر الأخرى التي تندرج ضمن هذا التوجيه الشامل العظيم، أصابها ما أصابها من وقوعها فريسة سهلة ولقمة سائغة لجحافل المستعمرين وجيوشهم .

لقد رأينا في الباب الأول ما آلت إليه الأحوال الدينية عند المسلمين من سوء وانحراف ، وكيف أن المسلمين شغلوا بهذه الانحرافات عن الالتفات للخطر الصليبي الداهم . وفي القرون المتأخرة وخصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ازدادت فجوة هذه الانحرافات كما رأينا ،

---

(١) هذه اللفظة وما توحيه من معنى مجانبة للصواب في حقيقة الأمر. إذ جاء في القرآن { هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها } . بمعنى طلب منكم عمارة الأرض. وهكذا ادعى هؤلاء الغزاة الصليبيون حين وطئوا البلاد الإسلامية أنهم جاءوا لتعمير البلاد وتطويرها ، إذن فلفظة الاستعمار خاطئة بهذا المعنى ، ولكننا آثرنا استخدامها لشهرتها في هذا الميدان .

حيث عم الشرك وضرب بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي وفشت البدع والخرافات ، وساد التواكل والاستسلام القاتل لما يحدث في الواقع من ضعف وتخلف ، وانتشرت الطرق الصوفية فلم تدع قطراً إلا دخلته ، ولا فجاً إلا سلكته ، وانشغل العلماء بمسائل لا فائدة منها ، وحرصوا على سد باب الاجتهاد وإذكاء جذوة التعصب المذهبي ، وانطوى المسلمون على أنفسهم ، وأوصدوا الأبواب دونهم ، فلم يكونوا واعين بحركة العالم من حولهم ، ولم يستيقظوا من سباتهم العميق إلا على أصوات أقدام العدو يغزوهم في عقر دارهم.

لقد كان القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان هما العصر الذهبي للتقدم الأوربي حيث انطلقت أوربا تعد القوة لتنقض على العالم الإسلامي الذي كان يعيش في حالة يرثى لها من الضعف والشتات والتخلف.

بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في الحقيقة منذ بدايات القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بعد طرد الإسلام من الأندلس ، فحين سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس - وهي دويلة غرناطة - عام ١٤٩٢م بعد معارك وحشية طويلة ، بارك البابا الانتصار الصليبي، وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية بلاد الإسلام» (١).

ويمكن أن يقال إن بداية الاستعمار الحديث بدأ بقيام هولندا تلك الدولة الأوربية الصغيرة باحتلال جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) في بداية القرن السابع عشر عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢م (٢).

ثم بدأ التسلل الانجليزي إلى الهند في نفس الفترة حينما منحت ملكة بريطانيا «اليزابيث الأولى» شركة الهند الشرقية امتيازاً عام ١٠٠٩هـ - ١٦٠٠م للتجارة الانجليزية في الهند والأقطار المجاورة، ثم لم يلبث ذلك التسلل حتى صار احتلالاً على كامل تراب الهند.

ثم قاد «نابليون بنابرت» الحملة الصليبية الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م ولكنها فشلت بعد ثلاث سنوات من مقاومة المسلمين في مصر ، وضغوط العثمانيين والانجليز من الخارج .

«في بداية منتصف القرن التاسع عشر - وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧م - تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً ، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية (التي تأسست في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م، والتي انضمت إلى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م) إلى التاج البريطاني، وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، وهي دولة المغول في الهند....

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٨٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٩ الدكتور محمد البهي. دار المعارف. مصر. الطبعة العاشرة ١٩٨٩م.

كما تم في السنة نفسها - وهي سنة ١٨٥٧م - استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء، بعد أن ابتدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م» (١).

ثم استولت فرنسا على تونس بعد أن فرضت حمايتها عليها، ثم أخضعت المغرب الأقصى، بعد أن تركت الريف المغربي لأسبانيا. واتجهت إلى الشرق لتحتل سوريا ولبنان. أما انجلترا فبعد أن ثبتت أقدامها في الهند قامت باحتلال مصر وقناة السويس عام ١٨٨٢م، وقبل ذلك احتلت قبرص، ثم عادت فقامت باحتلال كل من العراق وفلسطين والأردن.

ولم تدع إيطاليا الفرصة تفوتها، فأقدمت على احتلال ليبيا.

وتغلغلت روسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز. «وقد بدأ الهجوم الروسي على المناطق القديمة المتحضرة في منطقة الفولغا سنة ١٥٥٢م، وبعد أن استولى الروس، حربًا على مدينة قازان عاصمة خانات التتر التي كانت مركزًا لحضارة إسلامية عريقة زاهرة، ودمروها وقلبوا عاليها سافلها، وقضوا على الدولة التترية، وهكذا فقد جاء دور مسلمي روسيا الشرقية لكي يعيشوا أربعة قرون تحت سيطرة الكفار» (٢).

وهكذا سقطت معظم الأقطار الإسلامية تحت براثن الاستعمار الصليبي ولم يبق سوى أجزاء لا تكاد تذكر مقارنة بما سقط من تلك الأقطار.

إن وقوع العالم الإسلامي تحت وطأة الاستعمار كان أمرًا متوقعًا بل ومؤكدًا لمن طالع أحوال المسلمين في تلك الفترة. فإن الغرب الصليبي ما طفق يتقوى حتى بادر بالانقضاض على عدوه الأبدي - العالم الإسلامي - الذي كان في غفلة عما يدبر له في الخفاء.

وإن تلك الفترة المظلمة من تاريخ أمتنا التي غشيت على الحياة الإسلامية قبل مجيء الاستعمار كانت فترة مهيأة للخضوع لذلك الزحف الاستعماري بسبب ما أسلفنا الحديث عنه من أحوال دينية سيئة.

لقد استطاعت جيوش المستعمرين وجحافلهم إلحاق هزائم مروعة بكل الجيوش الإسلامية التي اصطدمت بها، وتكبيدها خسائر فادحة في الأموال والأرواح.

وعلى الرغم من بسالة المقاومة وضراوة المعركة التي خاضتها الجماهير المسلمة وقياداتها في كل قطر وطئه المستعمرون بأقدامهم إلا أنه قد قضي عليها في كثير من الأحيان.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) المسلمون في الاتحاد السوفيتي ص ٢٧ «شانتال لكلجي» و«الكسندر بينفسن». تعريب الدكتور إحسان حقي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

لقد فوجئ العالم الإسلامي حقًّا بجحافل المستعمرين تطرق أبوابه ، وتجتاح دياره حين كان غارقًا في تلك الانحرافات التي فصلنا القول عنها في الباب الأول. ولم يستيقظ من سباته العميق حتى بعد أن كشر الاستعمار الصليبي عن أنيابه وبدأ في تقطيع أجزائه وبلاده بكل وحشية وبطش. وظل لابثًا في غفوته تلك حتى أحكم الاستعمار قبضته عليه فحاول الإفلات والتخلص ولكن أنى له ذلك. وهذه قضية لا بد من معرفتها حتى يتم لنا وضع الأمور في نصابها ، والحكم عليها من منظور صحيح.

إن الأجيال المسلمة مطالبة بمعرفة حقيقة الصراع مع الغرب وجوانبه المتعددة . مطالبة أولاً بمعرفة أسبابه ودوافعه، ومطالبة ثانيًا بمعرفة تاريخه الطويل ، ومطالبة ثالثًا بإدراك نتائجه وآثاره، ومطالبة رابعًا بتقييم موقف الأمة ودراسة أحوالها خلال ذلك الصراع، ومطالبة أخيرًا باتخاذ الأسباب والعمل على دفع ذلك الصراع في صالح الأمة.

وما يهمنا في هذا المقام هو القضية الرابعة التي تحدد موقف الأمة وتقيم أحوالها أثناء هذا الصراع، والتي تبين أن الأمة في تلك الفترة التي ندرسها لم تكن مستعدة لأن تخوض حربًا مع الغرب المستعد المتربص ، وأنها كانت في أحرج أوقاتها وأضعف أحوالها بسبب ما وقعت فيه من انحرافات دينية وعقدية. فهذه القضية لو كانت قد حظيت بشيء من الوعي والنظر لكان من الممكن أن تعيد الثقة إلى النفوس ، وأن تقي الأمة بعض ما أصيبت به من هزيمة نفسية نتيجة ذلك الصراع.

لقد كانت الهزيمة الروحية والنفسية أخطر ما أثمره الاستعمار في البلاد الإسلامية ، ولقد كانت هزيمة قاسية نزلت على القلوب والعقول فخلفت فيها أثرًا عميقًا ما يزال عالقًا بها حتى وقتنا الحاضر.

إن الواقع السيء المليء بالإنحرافات الدينية والعقدية الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية هو الذي أنشأ في الحقيقة تلك الهزيمة الروحية العنيفة.

وما من شك أن الهزيمة الروحية كانت تابعة للهزيمة العسكرية والحربية وناشئة منها. فبعد أن هزم المسلمون في المجال العسكري هزائم نكراء ، ورأوا بأعينهم التفوق الكبير في السلاح والعتاد والتنظيم بما لا قبل لهم به ، دبت فيهم بوادر الهزيمة الروحية التي كانت تزداد مع كل هزيمة عسكرية. فمع كل هزيمة كانت تقع في الميدان كانت هناك هزيمة أشد وأنكى تقع على العقول والنفوس تتلاشى أمامها هزائم الميدان .

ولم يكن بالضرورة وقوع مثل تلك الهزيمة الروحية والنفسية نتيجة للهزيمة العسكرية والحربية لو لم تكن تلك الانحرافات غاشية على حياة الأمة ومؤثرة فيها .

يقول الشيخ «أبو الأعلى المودودي» رحمه الله تعالى :

«في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي. وبينما المسلمون في هجود الكرى ، لم يستيقظوا بعد كل اليقظة (١) ، جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر ، حتى شرق العالم الإسلامي وغرب ، وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الاوربي وخولاً له، والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه ونجدته. ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه ، بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا إليها ، فشلت ريحهم وزال عنهم بغتة ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصل فيهم ببقائهم في عز الغلبة ومجد السيادة من قرون متوالية. فعادوا يفكرون في أنفسهم كالسكران يصحبه توالي الضربات من عدو شديد ، ويبحثون عن الأسباب التى هبطت بهم وغلبت الافرنج عليهم ، غير أن عقولهم لم تكن ثابت بعد إلى رشدها ، إذ كان السكر لاريب قد ذهب عنهم ولكن ميزان الفكر كان بعد مختلاً فيهم ، فبجانب كان يلح بهم شعور بالذلة والهوان ويؤزهم أزًا على تبديل ما هم فيه من الحالة ، وبجانب يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء ما يحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة. وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدئت ملكات الفهم والذكاء ، بطول تعطلها عن العمل . زد على ذلك كله ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التى تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة.

وتفاعلت هذه الأسباب في محبي الإصلاح من المسلمين وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية، فأكثرهم ماكادوا يفطنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم. وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأعوزهم من بعد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة ما يتشجعون به على اختيار الطرق الوعرة للرقي والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التى تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء، فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الاصلاح لم يروا أضمن للرقي ولا أدنى للوصول إليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، فيعودوا كالمرآة الصافية يرى فيها خيال الروضة والأزهار والرياحين ، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء» (٢).

---

(١) حيث كانت أحوالهم كما ذكرنا من الانحراف والتخلف.

(٢) الحجاب ص ٣٨ أبو الأعلى المودودي. دار الفكر. بيروت .

«إن الهزيمة النفسية شعور بالهوان والضعة والضعف والعجز عن مجاراة الأعداء بله التفوق عليهم. إن الهزيمة النفسية في أدق صورها وأجلى معانيها ذوبان في الشخصية ، وتحلل من التبعات ورخاوة في تناول شئون الحياة وإخلاد إلى الدعة والسكون في ذلة وخور وإقبال على المتاع الغليظ يعب منه المهزوم فلا يكاد يفيق. إنها ذل يعيش في سويداء القلب ورضى بالدونية يجعل صاحبه لا يرفع رأسه ولا يفتح عينيه.

إنها واقع مريض أسود يصم صاحبه بكل قبيح من الصفات التي يكفي منها أن يستبدل العبودية بالحرية وأن يتحول إلى ظل لهازمه الذي ملأ عليه كل فراغ وسد عليه كل منفذ فلا يستنشق إلا الهواء الذي يستنشقه هازمه الذي يسير في ركابه ويسيطر على عقله وقلبه وكيانه كله ولا يسلك إلا الطريق الذي يسلكه ولا يرى إلا ما يراه ولا يسمع إلا ما يسمعه. إن الهزيمة النفسية بعبارة أخرى تحول إلى «نسخة كربونية» ـ إن صح التعبير ـ عن ذلك السيد الهازم المطاع»(١).

ولا شك أن الهزيمة النفسية تمر بعدة مراحل وأطوار:

الأولى ـ هي الشعور بالضعف والذلة والهوان.

والثانية ـ هي الانبهار والاعجاب والتعلق.

والثالثة ـ هي التقليد والمتابعة والمحاكاة.

وقد وقع كل ذلك في حياة المسلمين تقريباً . فقد ساد الشعور بالضعف والذلة والهوان بعد الاحتكاك العسكري وغلبة العدو لهم، ثم أعقب ذلك شعور بالانبهار والإعجاب بعد أن خفت وطأة الهزيمة في نفوسهم ، وبارحت آثارها جوانحهم ، ثم جاء دور التقليد والمتابعة والمحاكاة ، ووقع ما أخبر به المصطفى ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا يارسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : فمن»؟ (٢)

هذه عقدة «الرجل الأبيض» كما سميت. وإنه لتصوير نبوي عجيب من المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. فماذا يكون ياترى في جحر الضب حتى ينساق فيه المنهزمون. ولكن الضباب من المنهزمين لا ينظرون في الجحر وعدم فائدته فضلاً عن خطورته. فليس ذلك هو المهم ، ولا يعنيهم في شيء البتة ، إنما المهم عندهم متابعة الأسياد وتقليدهم أينما كانوا ،

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٣١.

(٢) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم ٣٤٥٦ (الفتح ٦/٤٩٥) . ورواه مسلم بنحوه برقم ٢٦٦٩ كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤.

ومهما فعلوا ، الأمر الذي يعنى به هؤلاء الضباب من المنهزمين هو ملاحقة هازميهم ومحاولة تقليدهم في كل شيء وعدم تفويت أية حركة أو سكنة لهم. حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه على إثرهم.

ويرى أحد هؤلاء الضُّباب ممن كان له منصب وجاه وصيت في دنيا الهزيمة النفسية أن سبيل النهضة (واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي : «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب» (١).

ولا أدري كيف يمكن لعاقل يخاطب العقلاء أن يقول أنه يجب علينا أن نأخذ الخير والشر ، والحلو والمر ، فضلاً عن أن ينصب عميداً للأدب العربي. ولكنها الهزيمة النفسية التى تسيطر على كاتب هذه الكلمات التى تتجافى مع العقل الصريح والفطرة السليمة.

وإذا كان. «الخديوي اسماعيل» حاكم مصر وهو يمثل قمة الهزيمة النفسية في عالم السياسة ودنيا الحكام كانت أمنيته وما دأب عليه طوال سني حكمه هو أن يجعل مصر قطعة من أوربا ـ فإن عميد الأدب العربي بعد ذلك بحين يرى أن ما قاله الخديوي هو عين الحقيقة أصلاً وليس غير ذلك فيقول : «ولا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التى قالها إسماعيل وجعل بها مصر جزءاً من أوربا قد كانت فناً من فنون التمدح ، أو لوناً من ألوان المفاخرة، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها» (٢) .

ولا يستحيي بعد ذلك أن يتفوه بمثل هذا الكذب العاري في أن مصر كانت دوماً جزءاً من أوربا في ثقافتها وعقليتها على اختلاف فروعها . إن كان يقصد بذلك تاريخ مصر قبل الإسلام فلعل الخطب يهون ، ولا يفهم ذلك القصد من قوله : كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا. وإن أراد بذلك تاريخ مصر الإسلامي وهو ما يتفق مع قوله : دائماً ، فإنه ليلغي بذلك فترة بلغت حوالي اثنى عشر قرناً على الأقل كانت مصر خلالها لا تزال بهويتها الإسلامية، وثقافتها الإسلامية، وعقليتها الإسلامية. والأزهر خير شاهد ودليل (٣) .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٢٩ ويقول د. محمد حسين معلقاً : وهو شبيه بقول : «آغا أوغلي أحمد» أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه : «إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم» نقلاً عن موقف العقل والعلم والعالم لمصطفى صبري ج١ هامش ص٣٦٩. نعوذ بالله من الكفر والزيغ والضلال.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٣٣.

(٣) لا نعني بذلك أنها إسلامية مائة بالمائة ، لأن انحرافات كثيرة كما عرفنا شابت حياة جميع الأقطار ، وليس مصر وحدها ، ولكنها إسلامية على أية حال. المهم أنها لم تكن كما أراد طه حسين من صبغها باللون الأوربي واتهامها بذلك. بل لقد عادت ذلك ووقفت منه موقفاً يشرفها ويدحض هذه الدعاوى العارية من أي دليل.

وهل يلام عميد الأدب العربي على المجازفة بكذب كهذا بعدما نادى بأخذ شر أوربا ومرها وعيوبها؟ أليس من شرور أوربا وعيوبها عموماً وكتابها خصوصاً ممن تتلمذ عليهم العميد وأشرب قلبه بمحبتهم - عدم الموضوعية في الرأي والبحث ، واستخدام الكذب والافتراء تمشياً مع المنطق الأوربي الشهير «الغاية تبرر الوسيلة» .

ومصيبتنا في هؤلاء الضباب المنهزمين - وما أكثرهم - أنهم لم يأخذوا من أوربا إلا أسوأ ما فيها ، وأنهم لم يفتشوا ويبحثوا وينادوا إلا على شرورها وآثامها وعيوبها. ولا نستطيع في هذه العجالة أن نأتي على جوانب هذه الهزيمة النفسية المريرة التي أصابت المسلمين بعد حلول الاستعمار ولا أن نزيد في إيراد الأمثلة عليها.

ومع ذلك فيمكن اعتبار حاضر الأمة وواقعها السيء وما دار في تاريخها الأخير من دعوات للتغريب والعلمنة داخلاً في دائرة تلك الهزيمة وصدى من أصدائها. ونرى أن نختم الحديث حول ذلك الموضوع الخطير بكلام للشيخ «أبي الأعلى المودودي» رحمه الله تحت عنوان «العبودية الفكرية» حيث يقول :

« وهذه هي الفترة البحرانية؟ التي غدت الأمم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي واللباس ، وتتشبه بها في مظاهر الاجتماع وفي آداب المجالس وأطوار الحياة، حتى في الحركة والمشي والتكلم والنطق. وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية. وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة التجدد، بدون حيطة أو شعور بالعواقب. وعدوا من لوازم التنور الفكري إيمان العرب بكل ما بلغه من قبل الغرب من فكرة ناضجة أو فجة والإفاضة فيه في مجالسه . ورحبوا بالخمر والقمار واليانصيب وسباق الخيل (١) ، وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية، ثم سلموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون حتى في العقائد الإيمانية والعبادات ، سلموا بكل ذلك من غير فهم وشعور أو نقد وتجريح كأنه تنزيل من حكيم حميد ، ليس لهم قبله إلا أن يقولوا : آمنا. وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر اليه أعداء الإسلام القدماء بعين التحقير أو التعيير ، من وقائع التاريخ الإسلامي ، وأحكام الشرع الإلهي وآثار الكتاب والسنة ، وطفقوا يحاولون أن يمحوا تلك السيئة عن أنفسهم ..... اعترض أهل الغرب على ما عندهم من الجهاد. فقال هؤلاء : ما لنا وللجهاد يا سادة: إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية (٢). واعترضوا على

---

(١) لعله يقصد سباق الخيل عن طريق المقامرة.

(٢) وقال جمع منهم الجهاد دفاع فقط...

الرق. فقال هؤلاء : إنما هو حرام عندنا أصلاً. وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات. فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويحرفون الكلم عن مواضعه. ثم قال أولئك : لا بد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة. فوافقهم هؤلاء بقولهم : هذا هو الذي يعلمه ديننا أيضًا. وطعن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الإسلام . فقامت طائفة من المسلمين تعالجها بالاصلاح والتعديل . ولما عابوا الإسلام بأنه عدو للفنون الجميلة ، استدرك هؤلاء قائلين : لا بل ما زال الإسلام، مذ كان ، يُشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل» (١).

ولا شك أن هذه الهزيمة النفسية قد جنت الأمة ثمارها المرة في كافة الميادين والمجالات، سواء منها العلمية والثقافية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية والأخلاقية أو العسكرية والحربية. فقلما وجد مجال من هذه المجالات في أي مكان إلا وأعاصير هذه الهزيمة تهب عليه فتجعله حصيداً خامداً.

لقد قتلت هذه الهزيمة روح الاستقلال والحرية والإباء والأنفة والشجاعة والمروؤة وكل خصال الخير ، لقد وأدت الإبداع والابتكار والتقدم ، حين دبت في النفوس، ورانت على القلوب ، وغشيت على الأذهان.

لقد رحل الاستعمار (٢) عن بلاد المسلمين ، ولكن تلك الهزيمة النفسية أبت الرحيل، وآثرت البقاء بعد أن تمكنت منها ، فليس رحيل الاستعمار هو الذي يزيلها ويمحو آثارها . وإن كان هذا فرصة للعمل على إزالتها، إنما كان الجدير بإزالتها والقضاء عليها هو إزالة الضعف العقدي وتدارك الأحوال الدينية السيئة، وهو أمر لم يحدث آنذاك ، فكان بقاؤها هو المتوقع.

وفي ظل حكم الاستعمار ذاق المسلمون النكبات ، وجنوا الويلات ، واكتووا فيه بناره وعانوا من آثاره فإلى جانب تلك الهمجية والوحشية التي طبع عليها هؤلاء المستعمرون في معاملة المسلمين والتي لم تخل بلدة من جرائمهم ومذابحهم واعتداءاتهم. وفي كل شبر وطأته أقدام المستعمرين جرح لا زال يثخن بالدم، شاهد على إجرامهم ووحشيتهم. إلى جانب ذلك كله هناك الآثار الفادحة ، والبصمات الواضحة لهذا الاستعمار في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

ولعل أفدح هذه الاثار على الإطلاق هو تنحية الشريعة الإسلامية التي دأب المستعمرون على إزاحتها وإلغاء العمل بها ، وقد تم لهم ذلك ، ولن أطيل حول هذه القضية الخطيرة ، فسوف أتناولها

---

(١) الحجاب ص ٣٩.

(٢) رحل ظاهريًا كما سنبين ذلك إن شاء الله.

بشيء من الإسهاب في المبحث القادم المعنون بـ«الغزو الفكري واستيراد المبادىء والنظم من الغرب».

«لقد أحكم أعداء الإسلام قبضتهم على المسلمين من خلال هذا النظام أعني النظام السياسي إثر تخطيط رهيب طويل لحلقات ذلك الإحكام التي من أهمها وفي مقدمتها عزلهم عن نظامهم السياسي الفريد (١) وغزوهم بأنظمة الغرب والشرق السياسية وقوانين الشرق والغرب الوضعية ودساتيرهم وإقناعهم بأن البديل خير من المستبدل ، وأن الجديد خير من القديم ، وأن نظامهم من ذلك القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب فلا يصلح لتطبيق ولا تقوم به حياة . وهو إقناع لا قيمة له في الواقع ؛ إذ أن ركوب المسلمين لقطار نظم الغرب السياسية والاقتصادية وغيرها إنما تم بالإكراه والقوة والحديد والنار فيما اصطلح على تسميته بـ«الاستعمار» الذي ابتليت به أكثر أقطار المسلمين ففرض عليها نظمه وأفكاره ولغته ، بل وحاول فرض معتقداته أيضاً عن طريق « التنصير» الذي يسمونه اصطلاحاً «بالتبشير»» (٢).

«وقد غلب الاحتلال الصليبي الأمة على نفسها ، فنحى شريعتها ، وألجمها بالحديد والنار والعسف والتسلط ولكنه ـ كما قلنا ـ لا يأمن أن يحدث رد الفعل ، وأن تحدث الثورة على هذا الأمر في يوم قريب أو بعيد ... فلا بد من العمل الجاد للحيلولة دون وقوع رد الفعل المرهوب ... وهنا تقدم عملاؤه لمعاونته في زحزحة الأمة عن عقيدتها في عالم السياسة ، كما عاونه آخرون في مجال الفكر والأدب ، ومجال المرأة ، ومجال الأخلاق وكل مجال عمد فيه إلى محاربة الإسلام ..» (٣).

ومع ذلك فإنه لا يمكن أن نعفي المسلمين أبداً من مسؤوليتهم تجاه ما وقع من تنحية للشريعة بإلقاء اللائمة على الاستعمار وتحميله المسؤولية في ذلك.

إن الأحوال العقدية والعلمية السيئة كانت هي السبب في تقبل المسلمين لما فرضه الاستعمار عليهم بالقوة من تنحية للشريعة الإسلامية.

فكيف يمكن لأناس ملأ الشرك حياتهم ، وشغلوا بالموالد والبدع والخرافات ، وتمكن الإرجاء من قلوبهم (٤) ، وألفوا الذل والخنوع في رحاب المتصوفة ـ أن يقاوموا عملاً مثل ذلك . وقد ثار المسلمون في بعض البلاد كما حدث في الهند. «فقد حدثت هزيمة المجاهدين المسلمين في الهند أمام الغزو

---

(١) يعني الشريعة الإسلامية.

(٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٥.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦.

(٤) قد ذكرنا بعض كلام المرجئين عند حديثنا عن الإرجاء وهو كلام يهدم أركان الدين ويقوض دعائمه.

الإنجليزي ، ولكن تنحية الشريعة الإسلامية هناك وإحلال القانون الإنجليزي محلها، أثارت المجاهدين مرة أخرى ـ رغم هزيمتهم ـ فقاموا بثورات متعددة ما بين عام ١٨٢٦ وعام ١٨٥٧م كبدت الإنجليز خسائر كثيرة في الأرواح ، ولم تسمح لهم بالاستقرار حتى قضوا عليها بوحشية بالغة» (١).

وعندما حاول «نابليون» تنحية الشريعة عندما قام بغزو مصر سنة ١٧٩٨م ، لم يحالفه النجاح واندلعت الثورات تقاوم جيشه في كل مكان حتى اضطر إلى الإنسحاب دون تحقيق شيء من ذلك ، ولكن الإنجليز حين جاءوا إلى مصر عام ١٨٨٢م نحوا الشريعة الإسلامية ، وحكموا بدلاً منها قانون «نابليون» دون ثورة من جانب الشعب .. ولقد يعجب الإنسان اليوم من تبدل الموقف تجاه الأمر الواحد ما بين عامي ١٧٩٨ و١٨٨٢م ، ولكن عوامل عدة كانت تعمل في ساحة الأحداث وفي داخل النفوس.

فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع. فسياسة «التغريب» التي اتبعها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبناؤه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعها «محمد علي» (٢) ، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التي اتبعها أبناؤه وبخاصة الخديوي «اسماعيل» ، كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن.

ووجود المدارس التبشيرية التي نشطت في عهد أبناء «محمد علي» ، وكان يتعلم فيها مسلمون ومسلمات ، يتزايد عددهم على الدوام ، ويبرزون بالتدرج على ساحة المجتمع ، وينشرون التفرنج سواء في أزياء الملبس أو أزياء الفكر أو أزياء السلوك .. كان له أثره التدريجي في زحزحة المجتمع ......

وربما كان العامل المباشر الذي حدد موقف الأمة الإسلامية في مصر من تنحية الشريعة الإسلامية هو فشل الثورة التي قام بها «عرابي» في صد الإنجليز ، ودخول الإنجليز منتصرين واحتلالهم البلاد بعد القضاء على قوة الجيش المصري ، ولكن هذه ـ وحدها ـ لم تكن لتؤدي إلى سكوت الأمة عن هذا الأمر الخطير .... لولا الخواء الشامل الذي أصاب حياة الأمة من تخلفها العقدي» (٣).

وفي عام ١٩٣٠م أجبرت فرنسا سلطان مراكش الشاب على أن يصدر ظهيراً (مرسوماً) عرف

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦.

(٢) بالإضافة الى ما ذكرناه من قبل من قيامه بإنشاء نظام تعليمي كامل على النمط الأوربي.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٦.

باسم «الظهير البربري» ينص على أن يكون للقبائل المراكشية التي هي من أصل بربري نظام قضائي خاص ، أو على الأصح نظام شرعي خاص ، فلا تسري عليهم قوانين الشرع الإسلامي ، بل قواعد العرف العشائري البربري» (١).

«هذا وقد ظل المسلمون في تاريخهم كله يتحاكمون إلى شرع الله، ولا يحيدون عنه اعتقاداً منهم بأن هذا هو مقتضى كونهم مسلمين ، ولم يفرض عليهم تشريع مخالف لشرع الله إلا مرتين : أولاهما : في عهد التتار حين غلبوا على بلاد المسلمين ، ولكن المغلوبين لم يخضعوا لتشريعهم وما أرادوا به حكم المسلمين ، وسرعان ما انقشعت الغمة ، وغلب الإسلام التتار ، ومزجهم بالمسلمين، وأدخلهم في لوائه(٢) ، فزال أثر التشريع المتغلب بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم.

والمرة الأخرى في عهد الاستعمار الغربي منذ استيلائه على بلاد المسلمين، وما تزال هذه ممتدة إلى اليوم ، وتختلف عن الأولى بانخراط المسلمين في التشريعات غير الإسلامية لأول مرة في تاريخهم واندماجهم في الغزاة والمتغلبين ، ومد يد العون إلى التشريعات الواردة تعلماً وتعليماً وتنفيذاً وابتكاراً ...» (٣).

إذ لم تكن الإنحرافات في المرة الأولى قد اتسعت وتعمقت كما هو الحال في المرة الثانية حين غلب الاستعمار الصليبي على البلاد الإسلامية، وقام بتنحية الشريعة الإسلامية وأحل مكانها القوانين الوضعية.

فلا مناص من تحمل المسلمين مسؤوليتهم كاملة فيما وقع من تنحية للشريعة الإسلامية وتحكيم القوانين الوضعية في المرة الثانية ، وقد كان لهم أسوة في أسلافهم زمن التتار المتغلبين حين لم يخضعوا لعدوهم ، ولم يستكينوا لشريعته الباطلة. ولكنهم في المرة الثانية لم يعودوا قادرين على مقاومة ذلك الفعل الخطير بسبب انحرافاتهم التي بددت طاقاتهم ، وبعثرت جهودهم . وسهلت خضوعهم ، وأسلمت زمامهم إلى عدوهم يقودهم إلى حيث يشاء.

إن التنازل عن الشريعة الإسلامية الذي وقع في القرنين الماضيين أمر لا يمكن توقعه فضلاً عن حدوثه ، وهو من الفداحة والخطورة بحيث لا يمكننا تحميل الاستعمار وحده مسؤولية هذا الجرم الفظيع.

إنها جريمة كبرى يوم رضيت الأمة الإسلامية بالتخلي عن الشريعة الإسلامية ، ورضخت أو

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٥٨. الاستعمار الفرنسي في مراكش (المغرب الأقصى) ص ٤٦ ، ص ٧١ محمد عبد العالي جلال. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

(٢) هكذا في الأصل ، والأجود تحت لوائه.

(٣) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٢٣ خادم حسين إلهي بخش. دار حراء للنشر والتوزيع. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

بادرت إلى تحكيم القوانين الوضعية. إنها جريمة شنعاء اشترك فيها الحكام والعلماء والناس ، كل حسب مسؤوليته، وبمقدار رضاه. فليس المقر بها والمحتكم إليها المسلم بحكمها كالمتجافي عنها الذي لم يرض بها ، وإن كان سكوت الأمة على ذلك جريمة أيضاً. ولا يمكننا تفسير كيف وقعت الأمة في هذه الهوة السحيقة إلا حين نعرف أحوالها العقدية ، فحين نعلم أن الإرجاء قد نخر في عقيدة الأمة على مدى قرون حتى أحالها إلى خواء لا روح فيه . وأنه في ظل الإرجاء لا يساور المرء القلق على إيمانه فمهما عمل من أعمال تخالف الإسلام ، ومهما فرط في تكاليفه وواجباته فلا خوف عليه أبداً ما دام مصدقاً ومؤمناً بقلبه!. وفي الوقت نفسه لا يحق له اتهام غيره بالكفر حتى ولو كفر فعلاً ، ونحى الشريعة الإسلامية وأحل القوانين الوضعية محلها. لأن الإيمان في القلب ، ولا يطلع أحد عليه إلا الله! وهذا الذي استبدل القانون الوضعي بالشريعة الربانية يقول لا إله إلا الله ويتظاهر بحب الإسلام وبالتالي يكون مؤمناً بالطبع (١) !.

فإذا بارحنا ظل الإرجاء واتجهنا إلى رحاب الصوفية، تلك الرحاب التي يجد الهارب إليها الأمن والطمأنينة ، ويلقى فيها متنفساً مما يعانيه في هذه الحياة من غصص وكربات بالولوج في خيالاتها وأوهامها. رأينا أن الأمر عندهم يسير والخطب هين ، فالخير كل الخير عندهم في اعتزال الدنيا والإعراض عنها ، والخلوة للذكر حتى الوصول إلى الحضرة !

فلا يهم إذن أي شريعة تحكم الدنيا ، إن كانت الشريعة الإسلامية هي التي تحكم فنعما هي ، وإن كان غيرها هو الحاكم فلا ضير من ذلك فلتحكم هي الدنيا وتدع لها الآخرة. ثم تزداد هذه النظرة انحرافا حين يترك للصوفية كامل الحرية ، فلا يتعرض المستعمر لعقائدها وطقوسها ، بل ربما حظيت بالرعاية والعناية والتشجيع في رحاب تلك الحكومات التي لا تحكم بشرع الله. فلم الامتعاض من تحكيم القوانين إذن ، والأسف على فوات الشريعة الإسلامية وتنحيتها .

واذا عرفنا مما سبق أن الدين عندهم قد أصبح عبارة عن عبادة الأولياء والأضرحة وعن إقامة الموالد التي يصعب إحصاؤها ، وعن الاحتفال بالمحمل وإحياء ليالي السنة بالحفلات والذكر ، وعن اتخاذ طريقة للسير عليها ، وشيخ للتبرك به والسلوك على يديه ، وعن سيل من البدع والخرافات تملأ على المرء منهم يومه وليلته ولا تدع عنده وقتاً للتفكير في غير ذلك.

وباختصار صار الدين عندهم هو التصوف ، وهذا التصوف لم يمس بشئ ولم يتعرض له أحد بسوء بل شجع كما رأينا وروعي مراعاة عظيمة ، فلا عليهم بعد ذلك أن تنحى الشريعة وتستبدل

---

(١) نقول هذا لأن الاستعمار في كل بلد عزل فيه الشريعة الإسلامية جانباً كان له من الحكام المحليين من ينفذ سياسته والمرجئة مع ذلك يسلكونه في عداد المؤمنين ، على أساس أن عمله هذا معصية ، والمعصية لا تضر مع الإيمان!.

بالقانون الوضعي، ما داموا آمنين على دينهم أو قل على تصوفهم! وإرجائهم أيضاً.

ولا يخفى ما ترتب على تنحية الشريعة الإسلامية من فساد عظيم في كل مجالات الحياة ، ومن تدهور في الأوضاع ، وهيمنة للمذاهب والحركات الهدامة كالعلمانية والقومية والاشتراكية والبعثية ، وباختصار فقد ظهر الفساد في البر والبحر واستحالت الحياة إلى عنت لا يكاد يطاق.

لقد بدأ الضعف والتخلف والفساد يغشى الحياة عند المسلمين ويهيمن عليها يوم أن فشت الانحرافات العقدية ، وساءت الأحوال الدينية ، ثم جاء الاستعمار نتيجة لذلك بعد أن وجد الفرصة سانحة ، والأمة غارقة في الشرك والبدع والخرافات ، وبعد أن وطد أقدامه أخذ يعمل على إضعاف الأمة وإفقارها وتخلفها وإفسادها بعد أن تم له تنحية الشريعة الإسلامية، واستبدال القانون الوضعي بها.

وقد حاول الاستعمار بجميع الوسائل المتاحة له القضاء على الإسلام نهائياً ، وسلك في ذلك أساليب كثيرة غير مباشرة ولكنها أشد أثراً وأبعد خطراً من الصدام المباشر ، وأخذ في تشجيع دعوات التغريب والغزو الفكري ، كالدعوة إلى الارتماء في أحضان الغرب ، وإلى احتقار الماضي الإسلامي ، وإلى فصل الدين عن الدنيا وهذه هي العلمانية ، والهجوم على اللغة العربية والدعوة للعامية ، ولا ننسى أن نقول: إن الاستعمار كان كثيراً ما يفرض لغته الأصلية لغة رسمية على البلاد التي يستعمرها ، كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والاستعمار الإنجليزي في الهند على سبيل المثال.

وفي المجالين الاجتماعي والأخلاقي رأينا كيف هوجم الدين وهوجمت الأخلاق ، وسخر منها ، واعتبرت علامة على التخلف والرجعية ، ورعى الدعوة إلى تحرير المرأة تلك التي انتشرت آثارها الخطيرة في كل جزء من المجتمع وقد «شجع الاستعمار قيام نظام طبقي أساسه وجود فئة من الإقطاعيين والاحتكاريين يستأثرون بالثروة ، على غرار النظام الإقطاعي في أوربا في العصور الوسطى ، وباقي الناس في ذل وفقر وجهل - بمعنى آخر - أوجد التفاوت الطبقي الكبير الذي لم يعرفه المسلمون في تاريخهم ... فأصبحت علاقات المجتمع عدائية بدل الحب والتعاون والتكافل في المجتمع الإسلامي» (١)

وفي المجال السياسي استطاع الاستعمار كما عرفنا تنحية الشريعة ، وإقامة حكام دمى يحكمون بلادهم بالقوانين الوضعية. «وانتزع المستعمرون أقساماً من العالم الإسلامي ، وسلموها

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٣ ، د. جميل المصري .

لغير المسلمين مثل فلسطين ، وأريتريا ، وصومال أنفدي ، والصومال الغربي ، وقبرص ، ولبنان وكثير من الأقطار الإسلامية الواسعة داخل الاتحاد السوفيتي ، وأوربا الشرقية. وقد «جزأ الاستعمار العالم الإسلامي ، وأقام الحدود المصطنعة ، وأبقى لكل قطر مشكلة مع جيرانه بعد رحيله ليحول بين المسلمين والتعاون فيما بينهم ولن تعوزنا الأمثلة لذلك : الصومال مع جيرانه ، العراق وإيران ، سوريا وتركيا ، مصر وليبيا ، السودان وجيرانها التسعة [١] ، المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ، وتنزنيا ، نيجيريا ، أندونيسيا وماليزيا ، الهند وباكستان ، ثم بنغلاديش والهند ، وكشمير ، اليمن الشمالي والجنوبي وعمان ، ومشكلة كل قطر مع الآخر مستعصية لا يحلها إلا الإسلام الذي أقصي عن الساحة» [٢].

بل يغلب على الظن أنه لا توجد دولتان متجاورتان إلا والخلاف على الحدود قائم بينهما ، والغريب أن كثيراً من تلك الحدود لم تسو بعد في كثير من الأقطار. وفي هذا مدعاة لدخول أطراف أخرى لتفجير النزاع في أية لحظة لتكسب هذه الأطراف نتيجة النزاع لصالحها. وأما الحدود التى قد سويت فإن النزاع لا يزال قائماً من أجلها لأن كلا الطرفين غير راض بهذه التسوية. والواقع المعاصر خير دليل على ذلك.

وفي المجال الاقتصادي «وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة ، فشجع رؤوس الأموال الأجنبية على غزو البلاد واستثمار خيراتها ، وأصبحت معظم الشركات أجنبية تدار لمصالح استعمارية ، فقد أقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب أوربا الذي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن التاسع عشر ، وفتح الأسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الاستهلاكية والترفيهية والكمالية ، فأصبح لأفراد العالم الإسلامي ولع خاص بالاستهلاك التفاخري ، ولهم جرأة عجيبة على الإنفاق الاستهلاكي والتطرف فيها ، وهذه نقطة قاتلة لاقتصاد المسلمين.

ثم عمد الاستعمار إلى إقراض الحكومات للسيطرة عليها ، وتكبيلها بالنفوذ الغربي ، وإيقاع ذوي اليسار في الديون ، للاستيلاء على أملاكهم ، وتحويل مختلف الأراضي والتجارات والأموال إلى البنوك الأجنبية ، فأنتج أجيالاً تفكر في الحصول على منتجات الغرب ، ولا تفكر كيف تنتج هذه الأشياء ..» [٣].

---

(١) في الأصل : وجيرانها التسع وهو خطأ. ولو قال : وجاراتها التسع لصح.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٤.

كما قام أيضا باحتكار «التجارة الخارجية للبلاد الإسلامية ومعظم التجارة الداخلية ، وعمد إلى توطين الأوربيين في البلاد الإسلامية عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر والهند وأندونيسيا وأفريقيا وتركستان ، وأوفد إلى البلاد العربية خاصة مئات الألوف من الأوربيين ومعظمهم من اليهود فاستوطنوا فيها وتحكموا في اقتصادها وخاصة في أقطار المغرب العربي» (١) .

كما حارب الاستعمار الصناعة الوطنية في العالم الإسلامي واكتفى بتوجيه المسلمين إلى الاشتغال بالزراعة ، وفي محاصيل معينة كما ذكرنا من قبل (٢) .

واحتكر ثروات العالم الإسلامي المعدنية والبترولية ، كما شجع نظام الإقطاع الزراعي والطبقية ، وحرم السواد الأعظم من المسلمين أن يعيش في مستوى لائق ، لذا شاع الفقر والبؤس والتخلف والمرض في عالم الخيرات الوفيرة والموارد الكثيرة ، فأفقر دول العالم مسلمة حالياً (٣).

ونعود فنقول إنه مع كل هذه الآثار السيئة التي خلفها الاستعمار والتي ما زالت تجثم على حياة المسلمين فإن ذلك لا يعفي الأمة أبداً من تحمل مسؤوليتها ، والقيام بواجبها في إزالة تلك الآثار السيئة.

أمر آخر له صلة بالاستعمار لا بد من الإشارة إليه وإن كنا سنتعرض له في مبحث قادم ، ذلك هو تشجيع التنصير ورعايته من قبل المستعمرين. حيث أن «المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبوا أن يتقدم الجيش أولاً ، لأن ذلك يسهل مهمتهم» (٤).

وبعد أن انحسرت شمس الدولة العثمانية عن كثير من البلاد الإسلامية ، وجاء الاستعمار ليحكم تلك البلاد ، ويفتح أبوابها ومدنها لسيل هائل من المنصرين لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في يوم من الأيام لولا مساندة الاستعمار لهم.

ولم تخيب هذه الدول الاستعمارية ظن هؤلاء المنصرين ، فقامت بتمهيد السبل في طريقهم وظلت تكلؤهم وترعاهم لتحقيق مآربهم وأهدافهم التنصيرية.

ويقول المنصر «كنيث لاتورت» في مقال له في «المجلة الدولية للإرساليات» : «ولكن يجب أن نذكر على كل حال أنه لم يحدث انتقال واسع من الإسلام إلى النصرانية في قطر ما إلا بعد أن تبدل ذلك القطر بحكومته الإسلامية حكومة غربية مسيحية..» (٥).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥.

(٢) راجع الضعف الاقتصادي من هذا البحث.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥.

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٤٤.

(٥) المصدر السابق ص ١٤٧.

وبعد أن تم للإنجليز احتلال مصر عام ١٨٨٢م هيئت الأجواء أمام طوائف المنصرين «ولقد اتهم بعض المبشرين «اللورد كرومر» ، المعتمد (الأول) البريطاني في مصر ، بأنه كان يحابي المسلمين ، مع أنه كان يشجع التبشير بين المسلمين ويحمي القسس الأجانب والمبشرين» (١).

ولعل مرد ذلك الاتهام هو قول «اللورد كرومر» واصفاً سياسته في مصر : «إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يعني مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن؛ بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب - منعاً من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك» (٢).

«وحين بدأ حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ، فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم؟ ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم ، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكاً بدينهم ، ولكني اتفقت مع شاب تخرج قريباً في كلية اللاهوت بلندن ، ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم» (٣).

إذن فكرومر كان يرمي إلى سياسة أدهى في التنصير وأهدى في التخطيط والعمل. جرياً على الأسلوب الإنجليزي البارد في تحويل الناس عن الإسلام ، وذلك الأسلوب الذي يتفق مع مثلهم المشهور (Slow but sure) بطئ ولكنه أكيد المفعول» (٤).

ولعل في ذلك إجابة على من يهونون من شأن الصلة بين الاستعمار والتنصير أو ينفونها ، فنقول : إن الاستعمار والتنصير (٥) وجهان لعملة واحدة هي الصليبية ، فالمستعمر منصر ، والمنصر مستعمر. ولكن الأقنعة تختلف ، فأحدهما يتقنع بقناع الاستعمار ، والآخر بقناع التنصير وكلاهما صليبي حاقد. وفي السودان لم يبدأ التبشير الفعلي إلا بعد مجيء الجنرال «غوردون» حاكماً عليه ، وهدأت هذه الجهود أيام الثورة المهدية ، ثم عادت أكثر مما كانت عليه من قبل ، بعد سقوط المهدية ، وعودة الحكم الإنجليزي . وبلغ من تدخل المبشرين في شئون السودان ومن دالتهم على المعتمدين البريطانيين في مصر أنهم كانوا يبدون آراءهم في تعيين الموظفين في السودان ، ولكنهم لم ينجحوا دائماً» (٦).

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٨.

(٢) مصر الحديثة. اللورد كرومر نقلاً عن واقعنا المعاصر ص ٢١٦.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢١٦.

(٥) ويضاف إليهما الاستشراق.

(٦) التبشير والاستعمار ص ١٤٩.

وعلى العموم فقد رعى الاستعمار التنصير والمنصرين في كل بلد استعمرها ، فالإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والأسبانيون والهولنديون والروس كل منهم قد عني بالتنصير عناية فائقة ، وأفسح لهم المجال في البلاد التي كان يحتلها. وفي اعتقادي أن الاستعمار كان البوابة الكبرى والوسيلة العظمى التي سلك من خلالها المنصرون لغزو العالم الإسلامي عقائدياً، وأنه لولا الاستعمار في كثير من الأحيان لما نجحت إرسالية تنصيرية في مهمتها وما دمنا قد تحدثنا عن رعاية الاستعمار للتنصير فلا بد من الإشارة بشكل موجز عن دور الاستعمار في رعاية الطوائف غير المسلمة من فرق وأديان.

لقد حرص الاستعمار في كل قطر سيطر عليه على البحث عن غير المسلمين من الطوائف الأخرى ، فقربهم وأعلى شأنهم ، ومنحهم فرص التعليم كي يتمكنوا من تولي المناصب الهامة التي يرعون من خلالها مصالحه بعد رحيله. في نفس الوقت الذي كان فيه يقصي المسلمين ، ويسد الأبواب في وجوههم. فحيثما حل المستعمرون يقومون بنبش العقائد الميتة أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية ويمهدون لها السبل لتولي المناصب المهمة مستثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان استعماراً لهم وأن المسلمين متعصبون ضدهم» (١).

وقد رأينا عند حديثنا عن الفرق كيف وصل الأمر بالمستعمرين الفرنسيين إلى إقامة دولة مستقلة في الشام لكل من : طائفتي الدروز والنصيرية المارقتين من الإسلام.

لقد حاول الاستعمار دائماً تقوية الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة الأثني العشرية. ففي الهند قام الإنجليز بفتح مدارس خاصة لهم كان لا يسمح لغير أبناء طائفتهم بالدراسة فيها، وبلغ عدد المدارس الأثنى عشرية في باكستان حوالي ثمان عشرة مدرسة ، فالتعليم الأثني عشري برمته في الهند كلها مدين للاستعمار ومنة من منته على تلك الطائفة (٢).

أما طائفة البهرة ، فقد ظل الاستعمار هناك يرعاها ، ويحميها ويمنحها الامتيازات التي تخول لها نشر مذهبها ، ومضايقة أهل السنة والاعتداء عليهم دون خوف من الانتقام منهم (٣) .

---

(١) العلمانية ص ٥٤٠ د سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الدار السلفية . الكويت . ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

(٢) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٩٨.

(٣) ومن أمثلة ذلك عندما قام الحرس الخاص بداعي البهرة الخامس والأربعين بقتل العالم «رمضان علي السني» في حي البهرة بمندسور في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٣٩هـ ، وحاول أهل السنة الأخذ بثأره ، فقاموا بمحاصرة مسكن الداعي فاستنجد بالإنجليز فأسعفوه بثلاث كتائب من جيشهم المسلح ، ثم شرعوا له قانوناً يخوله إقامة كتيبة مسلحة تحفظه وتحفظ أتباعه ولما حاول العلامة «مظهر علي» المطالبة بدم الفقيد حكم عليه بالسجن المؤبد من قبل محكمة إنجليزية. المصدر السابق ص ٣٠٢.

وكانت كثير من الدول الأوربية تتعلل في استعمارها للبلاد الإسلامية والتدخل في شؤونها بحماية الأقليات غير المسلمة.

وفي أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر قام الإنجليز بفتح المجال في التعليم والاستثمار والوظائف أمام كل من اليهود والنصارى «على أن الاحتلال البريطاني لمصر أتاح لليهود النازحين ـ بصفة خاصة ـ الشعور بالأمان منذ سنة (١٨٨٢) حتى (١٩٤٨) وساعدهم على الاستقرار والإبداع في كل مجال» (١) .

أما الأقباط وغيرهم من طوائف النصارى الأخرى فقد تمتعوا بالرعاية والعناية في ظل الاحتلال الانجليزي. «وقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول : «اللورد كرومر» ، من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة وانفتح أمامهم باب الأمل في تحسين حالتهم ... واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصًا شديدًا، وكان إقبالهم على التعليم ـ وعلى الأجنبي منه بنوع خاص ـ بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التي زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل (٢) ـ كان كل ذلك سببًا في أن تجاوز نسبتهم في الوظائف الحكومية نسبتهم العددية في السكان بمقدار كبير. وكان حرصهم على جمع المال سببًا في اضطراد الازدياد في ثرواتهم» (٣). «وتحت ستار اللاتعصب واللاطائفية مكن للأقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولي المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الإنجليز» (٤).

وقد بلغ الأمر بالأقباط في عهد الإحتلال الإنجليزي أن أخذت صحفهم تتحدث وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأي العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره ، وتشتكي للإنجليز لينقذوهم من وضعهم السيء على حد زعمها ، وكان الذروة لهذه الحملة القبطية الهائجة هو عقد المؤتمر القبطي العام في أسيوط من ٥ مارس إلى ٨ مارس من عام ١٩١٠م وانحصرت مطالبه في : ـ

١ ـ طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة.

٢ ـ أن تكون قاعدة التوظيف هي الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية في السكان.

---

(١) اليهود والماسون في مصر ص ٦٧ د. علي شلش. الزهراء للإعلام العربي. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) ذكرنا بعض الأمثلة على ذلك عند حديثنا عن الولاء والبراء ص١٠٠ ، ص١٠٤ .

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٢٧/١.

(٤) العلمانية ص ٥٤١.

٣ ـ وضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامي وحده في المدارس الأولية.

٤ ـ وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصري في المجالس النيابية.

٥ ـ جعل الخزينة العمومية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية»(١).

وهذه المطالب كما نرى ترمي إلى تقوية جانب الأقباط على حساب المسلمين ، وإعلاء شأنهم . ولم يكن هذا المؤتمر لينعقد أو يخرج بمطالبه تلك لولا وجود الإنجليز ورعايتهم له رعاية غير مباشرة على الأقل . ولابد من الإشارة إلى أمر يختص بالوظائف فنقول : إن تقريب الأقباط في المناصب المالية المهمة قد بدأ قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر. فقد ذكرنا عند حديثنا عن الولاء والبراء أن بعض المتأخرين من حكام المماليك قد عهدوا بمناصب هامة في النواحي المالية إلى بعض الأقباط ، واستمر ذلك حتى جاء محمد علي وأولاده فأطلقوا لهم المناصب الهامة ومنحوهم الثقة التامة. ولكن الوضع قد تغير في عهد الإنجليز ، إذ طمع الأقباط في الاستيلاء على كل مركز هام في الدولة بمعونة بني ملتهم من المحتلين ، فما زالوا يعملون لأجل ذلك الهدف حتى حققوا جزءًا كبيراً منه ، وأصبحوا أكثرية في الوظائف والمناصب مع أنهم أقلية صغيرة بالنسبة للمسلمين.

وفي بلاد الشام «تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت فلولهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية ، وعند إنشاء الجامعة السورية ـ مثلاً ـ عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق»(٢).

«وفي معظم دول افريقيا خرج الاستعمار مخلفا وراءه حكومات نصرانية تحكم شعوبًا تصل نسبة الإسلام في بعضها إلى ٩٩٪»(٣).

لقد عمل الاستعمارطوال فترة حكمه في البلاد الإسلامية على رفع مستوى كل الطوائف المعادية للإسلام من فرق وأديان ، ودأب على إيثارهم بالتعليم والوظائف وبكل ما من شأنه أن يقوي جانبهم ، ليقضى بذلك على الكثرة الساحقة من المسلمين ، وقد نجح الاستعمار في تلك الخطوات ، بفضل استغلال هذه الطوائف الفرص الممنوحة لهم من قبل المستعمر الذي لم يغادر البلاد حتى سلم اقتصادها ووظائفها لهذه الأقليات الحاقدة التى لا ترقب في المسلمين إلاً ولا ذمة، فأصبحت مصائر المسلمين وثرواتهم مكبلة بأيدي تلك الأقليات تعبث بها كيف تريد .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/١٣٥.

(٢) العلمانية ص ٥٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ٥٤١.

ونختتم حديثنا عن الاستعمار بقضية هي الأهم في نظرنا لأنها من الخطورة بمكان . هذه القضية هي خروج الاستعمار ظاهراً وبقائه باطنًا ، أو خروج الاستعمار المباشر وبقاء الاستعمار غير المباشر. أو بتعبير آخر هو خروج الاستعمار الرسمي كما عبر عن ذلك مؤلفا «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» (١) . وبقاء الاستعمار غير رسمي؟

أما أسباب خروج الاستعمار الظاهر فلن نحاول الخوض فيها، وإن كانت المقاومة العنيفة التى لقيها الاستعمار ، والخسائر الهائلة التى تكبدها في الأرواح والأموال كانتا من أكبر الأسباب التى أجبرته على الخروج ، ولكن السبب الجوهري في نظرنا هو ما نود الحديث عنه هنا وهو الاستعمار غير المباشر .

إن الاستعمار لم يخرج في الظاهر حتى خلف بذوره في الداخل لتنبت فور خروجه ويظل يقطف ثمارها على الدوام دون أن يشعر به أحد ، ولم يغادر المستعمرات حتى بات مطمئنًا على مصالحه ، وضامنًا وصولها إليه دون عناء أو مشقة . إن الاستعمار ما بارح الديار إيمانًا منه بأن الشعوب المستعمرة غدت قادرة على قيادة نفسها وأن للشعوب حق تقرير المصير كما يحلو لبعضهم أن يقول ، كلا ولكنه ما رحل عن الديار إلا بعد أن خلف وراءه طابوراً أمينًا يقوم بتنفيذ مآربه ، ويسهر على حفظ مصالحه. ولم يفت المستعمر قبل خروجه أن يقيم من الأنظمة السياسية ما يتفق مع أهدافه ومصالحه.

فكان عمله الأول الذي صرف فيه الجهود هو تنحية الشريعة الإسلامية ، وإقامة القوانين الوضعية لتحكم البلاد بها ممن يتولون مقاليد الأمور فيها. «فهم إذا فرضوا النظام السياسي الذي يريدون والذي يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم جاء عن طريقه الحاكم الذي يسعى في رضاهم ويأتمر بأمرهم ويتلقى عنهم ويحمى سلطتهم ويدافع عنهم ويفرضهم على محكوميه..» (٢)

ويقول الكاتب الأمريكي «مورو بيرجر»«إن النخبات الوطنية أقدر من النخبات الأجنبية في إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب.» (٣) لذا لم يكن للمستعمرين بد في إيجاد تلك النخبات الوطنية أو المحلية أثناء تواجدهم في البلاد الإسلامية لترثه عقب رحيله ، ولم ينس أن يتعاهدها دائمًا بعد أن سلمها أزمة الأمور في بلادها.

---

(١) انظر مقدمة الطبعة الثالثة ص ١.

(٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠.

إن وجود المستعمرين وجيوشهم عياناً بياناً على الأرض الإسلامية أمر يثير مشاعر المسلمين ويهز أحاسيسهم ، ويجعلهم يحسون بالهزيمة والذل ، ويحنون رؤوسهم خوفاً وخضوعاً ، ولكنهم مع ذلك يتحينون الفرصة المواتية للتمرد على هذه الجيوش والثورة ضدها ، لذا اصطبغ تاريخ الاستعمار في البلاد الإسلامية بالتوتر والاضطراب والفوضى ، وكثرت فيه الثورات والتمردات ، فكان ذلك مما عجل برحيل الاستعمار الظاهري ليخلفه الاستعمار الباطني الذي لا يكاد يشعر به أحد ، فلا استعمار ولا جنود في الشوارع ولا حاكم أجنبي . الكل قد رحل . وتقام الأفراح والاحتفالات لرحيل الاستعمار وبدء الاستقلال ، ويتنفس الناس الصعداء بعد كبت ومعاناة طويلة ، وما درت الجماهير المستغلفة أنها طردت استعماراً لتخضع لاستعمار آخر أشد خطورة وضرراً من الذي قاومته ورحل عنها ، ولكنه استعمار ماكر وخبيث يظهر في أثواب الجلاء والتحرير والاستقلال فمتى تفطن له الجماهير أو تتنبه لخطورته.

وكما قال أحد الفطناء عندما خرج الإنجليز من مصر «خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر» هؤلاء السمر هم العملاء والمأجورون لأعداء الإسلام ، والعاملون لحسابهم ولتحقيق أهدافهم. من مصاصي الدماء ، وسارقي ثروات الشعوب الذين يهتفون بتحقيق الاستقلال ، ومعاداة المستعمر.

«لم يكن هذا الاستقلال تاماً وإنما للنفوذ الاقتصادي أثره الكبير ، وكذا السيطرة الفكرية وفرض النظريات والعلوم الاجتماعية على المجتمعات الإسلامية ، وذلك بما يملكه الأجنبي من نفوذ ، وإذا علمنا هذا أمكننا أن نقدر ما تفعله الدول الكبرى من مخططات سياسية ، وإعطاء المناصب العليا ، ومن يعطي يستطيع أن ينزع ، ولهذا يعيش العالم الإسلامي حتى الآن في فوضى سياسية وتخبط فكري» (١).

ولسنا في حاجة للتدليل على بقاء هذا الاستعمار المبطن والذي يسري في البلاد الإسلامية كداء السرطان. فالشريعة الإسلامية ما زالت داخل الرفوف بعد أن نحاها المستعمر وختم عليها بالشمع الأحمر. وقد وقف المستعمرون الجدد لمن يحاول تطبيقها بالمرصاد رغم إلحاح الشعوب ومطالبتها بإصرار على وجوب تطبيقها ، ولكن لا حياة لمن تنادي.

والبلاد الإسلامية كانت وما تزال كيوم غادرها الاستعمار متخلفة وضعيفة وفقيرة. ومع وفرة ثرواتها وكثرة خيراتها إلا أن المستفيد الأكبر منها هو المستعمر الأول بمعاونة خلفائه من المستعمرين المقنعين الذين يديرون دفة الأمور في هذه البلاد . والتي تسير كل يوم من سيء إلى أسوأ . ولا غرابة بعد ذلك أن تظل بعض الشوارع بأسماء بعض سفاكين الدماء من المستعمرين في بلاد إسلامية زعمت أنها استقلت من الاستعمار.

---

(١) العالم الإسلامي ص ١٧٢ محمود شاكر. المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.

والفساد فيها يتفاقم من يوم لآخر، في ظل هذا الاستعمار الخفي الذي قام بخطوات في ذلك المجال لم يكن يحلم بها المستعمرون الأوربيون أنفسهم.«وليس أدل على ذلك من أن القوى التى حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهادية التى جابهت المستعمرين ، بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة ، تشهد أعمالها وآثارها بأنها جنت على الأمة ما لم يجنه الأعداء السافرون مما يعطي الدليل الواضح على أن تنفيذ المخطط اليهودي قد وكل إليهم مع اختلاف في الأدوار وتنوع في الإخراج (١).

وفوق هذا وذاك قيام تلك الشبكة الاستعمارية الخفية التى حاك خيوطها الاستعمار الصليبي بمحاولات لإطفاء نور الله في الأرض ووأد الصحوة الإسلامية ، وضرب الحركات الإسلامية بكل شدة وعنف ، وبصورة لم يكن ليقدم عليها أحد من المستعمرين الحقيقيين وفاقت في ضراوتها وبطشها ضراوة الاستعمار وبطشه، مما يجعلنا نقطع بيقين أن الاستعمار ماغادر البلاد إلا بعد أن ترك وراءه استعماراً أدهى منه وأخطرَ قد جعل شرعية وجوده ما يقوم به من خدمات لأعداء الأمة.

* * *

---

(١) العلمانية ص ٥٤٢.

المبحث الثاني : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم

يلقي كثير من الكتاب والمفكرين باللائمة الكبرى على الغزو الفكري في كل ما يعانيه المسلمون اليوم من فساد وتأخر ، ويعدونه العقبة العظمى في طريق النهوض بالأمة الإسلامية ، و يعتقدون أن العمل على إزالته واجتثاث جذوره هو المهمة الأولى التي يجب أن يعنى بها الدعاة وكل العاملين في الحقل الإسلامي . والذي جعلهم يذهبون هذا المذهب هو فداحة الآثار التى نجمت عن هذا الغزو الفكري، وخطورة التغييرات التى أحدثها. ولكن مع كل ذلك يظل الغزو الفكري أثرًا بارزًا نتج عن سوء الأحوال الدينية وما وقع فيها من انحرافات. فلولا هذه الانحرافات التي وقعت في حياة الأمة واتسع مداها مع الأيام لما كان للغزو الفكري أي دور يذكر.

فيوم كانت العقيدة سليمة ، والإيمان قويًا فياضًا ، والتمسك بما أمر الله به من حيطة وحذر وإعداد للقوة والتمكن قائمًا لم يكن يمكن بأي حال من الأحوال أن يجد الغزو الفكري منفذًا ينفذ منه، وإن وجد منفذًا فلن يجد مكانًا يؤثر فيه، وإن وجد مكانًا ففي أندر الأحوال يقع ذلك وسرعان ما يقاوم ويعالج . هذا كله يحدث في حال يقظة الأمة ووعيها. وفي حال هيمنة العقيدة ونبضها. ويوم كانت الأمة كذلك لم تؤثر فيها تيارات الغزو الفكري ، ولم تجد للنفوذ إليها سبيلاً. أما بعد أن غشت الانحرافات على حياة الأمة ، وأصاب الضعف عقيدتها فكان أمرًا متوقعًا أن تصبح هدفًا لحملات الغزو الفكري ، وأن تسقط فريسة لها من أول وهلة تصطدم بها.

وقبل أن نتطرق للحديث عن الغزو الفكري وما تبعه من استيراد للمبادئ والنظم نود أن نومئ إيماءة سريعة لنشأة الغزو الفكري التي يرجعها بعضهم إلى زمن صدر الإسلام حيث ما انفك أعداء الإسلام عن بذل كل المحاولات ليكيدوا بها المسلمين. ويعتبر ما حدث من ترجمة للفلسفة الإغريقية في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري مثالاً بارزًا على الغزو الفكري في العصور المتقدمة، وإن كان ذلك في الواقع حدث نتيجة لانخداع المسلمين بالفلسفة والمنطق وظنهم أنهما أداة نافعة يمكن أن تخدم العلوم الإسلامية.

ويرى البعض الآخر أن بداية التفكير في الغزو الفكري تعود إلى زمن الحروب الصليبية في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وذلك عندما وقع لويس التاسع ملك فرنسا في الأسر بعد هزيمة حملته الصليبية ، وبقي سجينًا في المنصورة حتى افتداه قومه وأطلق من أسره. وفي أثناء سجنه أخذ يتفكر فيما حل به وبقومه ، ثم عاد يقول لقومه : إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا

تقاتلوهم بالسلاح وحده ـ فقد هزمتم أمامهم في معركة السلاح ـ ولكن حاربوهم في عقيدتهم ، فهي مكمن القوة فيهم ، ووعى قومه نصيحته ، فلما عادوا لغزو العالم الإسلامي مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده ، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسائل الخبيثة التى نطلق عليها اسم «الغزو الفكري» (١) .

وسواء صحت الحكاية السابقة أم لم تصح فلقد امتازت الحروب الصليبية الثانية أو ما سمي بالاستعمار باستخدامها وسيلة الغزو الفكري كوسيلة فعالة بجانب السلاح والقتال . ويمكننا أن نعتبر البداية الحقيقية للغزو الفكري المنظم والمكثف في مطلع العصر الحديث مع قدوم الحملات الصليبية ، ويمكن اعتبار الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت عام ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م على مصر النقطة الأولى التى انطلق منها الغزو الفكري في العصر الحديث صوب الأمة الإسلامية.

لقد رأينا في الباب الأول من هذا البحث أن الأمة الإسلامية كانت غارقة في موجات من الانحرافات العقدية والدينية من انتشار لمظاهر الشرك والبدع والخرافات ، ومن هيمنة للصوفية ومعتقداتها ، ومن طغيان لمذهب الإرجاء ، ومن تشويه لمفهوم العبادة ، ومن خرق لعقيدة الولاء والبراء عند طائفة لايستهان بها من حكام المسلمين ، حتى أضحت عقيدة السلف الصالح غريبة بل ومحاربة من قبل المبتدعة والخرافيين . هذا كله بالإضافة إلى ما وقع من تخلي العلماء عن دورهم وتقصيرهم في واجبهم ، وفساد مناهج التعليم وجمودها ، وشيوع روح التعصب المذهبي ، والإصرار على إغلاق باب الاجتهاد، وغير ذلك مما تناولناه بالتفصيل أثناء حديثنا عن هذه الانحرافات.

لقد كان هذا الواقع الديني المنحرف سبباً جوهرياً في كل ما جنته الأمة وقاسته من آثار داخلية وخارجية لازالت تعاني منها إلى اليوم.

ومن هذه الآثار الغزو الفكري الذي يعد أخطر أثر خارجي أحدق بالأمة ، وكان له في واقعها الأثر الفعال والدور الكبير في إفساد الحياة الإسلامية بالكلية ، ومطاردة كل ما له علاقة بالإسلام والقضاء عليه. وإذا كانت الانحرافات الدينية قد شملت كل جزء في حياة الأمة تقريباً ، فإن الغزو الفكري بعد ذلك قد ماثلها في سعة الانتشار ، وخلفها في كل جزء كانت فيه، وكأنما كان هناك تناسب طردي بينهما . فبمقدار ما توغلت وانتشرت الانحرافات الدينية في حياة المسلمين ، فقد جاء الغزو الفكري بعد ذلك وتوغل فيها بنفس حجم الانتشار أو أشد.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٩٦.

لقد كان الواقع الديني بانحرافاته تربة خصبة وملائمة لإلقاء بذور الغزو الفكري التي أخذت تنبت وتنمو بسرعة في الأرض الإسلامية بصورة لم تكن متوقعة ، إذا لم نأخذ في حسابنا الأبعاد الحقيقية لتلك الانحرافات الدينية.

إن أهداف الغزو الفكري التي يخطط لها أعداء الإسلام ترمي إلى إخراج المسلمين من دينهم حتى يتركوا الإسلام «وإبقاء الشعوب الإسلامية ضعيفة هزيلة لا حول لها ولا قوة ، وخاضعة لنفوذهم ، وذلك بقطع حب الله الذي يربط هذه الأمة بخالقها سبحانه وتعالى ، والحيلولة بين هذه الأمة الإسلامية وبين تاريخها المجيد الذي انبثق من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وإحلال لغة الغازي وفكره محل ذلك ، وتطبيق مبادئه على أبناء الأمة الإسلامية ، فتشوه فكرهم وتمسخ عقولهم ، وتخرج بهم إلى حياة مغلوبة وتابعة لأعداء الأمة الإسلامية ، فيعيشون عيشة الأتباع والأذناب» (١).

وقد سلك الغزو الفكري عدة وسائل للنفوذ من خلالها ، ولكن أعظم وسيلتين اعتمد عليهما من تلك الوسائل هما مناهج التعليم ووسائل الإعلام فإنهما تمثلان البوابتين العظيمتين التي ولج منهما الغزو الفكري.

أما القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري أثناء هجومه فهي كثيرة ولكن أهمها قضية تنحية الشريعة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة (العلمانية) وقضية تحرير المرأة، وقضية التطور ونبذ الدين ، وقضية القومية والوطنية وقضايا أخرى.

فتنحية الشريعة الإسلامية تحدثنا عنها في مبحث الاستعمار من حيث علاقته بها ، حيث كان له الدور الأكبر في تنحيتها. ولكننا في هذا المقام سوف نركز الحديث باختصار عن دور الغزو الفكري في تلك القضية الخطيرة، قضية تنحية الشريعة الإسلامية.

فمع أن الاستعمار الصليبي كان هو الذي تولى كبر هذه الجريمة وابتدأ تنفيذها ، إلا أن ذلك لم يكن ليقع لولا حملات الغزو الفكري المكثفة التي صاحبت ومهدت لهذه الجريمة. ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا الحالة العقدية والدينية المتردية التي تعد السبب الحقيقي في كل ما وقع؛ إذ لولا هذه الحالة أيضاً لما تمكنت حملات الغزو الفكري من تحقيق أي نجاح لها في تلك القضية الخطيرة.

لقد كان العمل على تنحية الشريعة الإسلامية هدفاً رئيسياً ومشتركاً بين أعداء الإسلام جميعاً، اتفقوا على محاولة تحقيقه. وقد كان ذلك هو الهدف الأول للاستعمار الصليبي حين جاء إلى البلاد الإسلامية، حين كان دأب الاستعمار حيثما حل هو العمل بقوة الحديد والنار على تنحية الشريعة

---

(١) مجتمعنا المعاصر، أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ٣٠٩.

الإسلامية ، واستبدال القوانين الوضعية بها. وقد قلنا في مبحث سابق [(١)] إنه على الرغم من فظاعة المستعمر واستخدامه القوة والرهبة فإن ذلك لم يكن ليعفي الأمة من تحمل مسؤوليتها أو يبيح لها التنازل عن شريعتها.

وقد رأينا كيف أخفقت الحملة الفرنسية بقيادة «نابليون» الذي عمل على تنحية الشريعة الإسلامية في مصر ومن ثم فشلت في تحقيق ذلك الهدف بعد أن أجبرتها المقاومة على الرحيل.

ولكن ذلك الهدف قد تحقق فيما بعد على أيدي الانجليز الذين لم يلاقوا مقاومة كالتي لاقاها الفرنسيون. ومرد ذلك إلى حملات الغزو الفكري المتتابعة. «فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع.

فسياسة «التغريب» التي اتبعها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبناؤه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعها «محمد علي» ، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التي اتبعها أبناؤه وبخاصة الخديوي «اسماعيل» كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن ...» [(٢)].

وهكذا كان الغزو الفكري عاملاً مهمًا في قيام أعداء الإسلام بتنحية الشريعة الإسلامية ، وفي تقبل المسلمين لهذا الحدث العظيم. «فإن الغزو الصليبي - سواء العسكري أو الفكري - قد دفع الأمة دفعة خطيرة وراء آخر الحواجز التي كانت قد وقفت عندها على الرغم من كل تقاعسها وكل انحرافها. فأخرجها من شريعة الله وهو يزين لها عملها ، ويمد لها في الغي ، ويوهمها أنها ما زالت في دائرة الإيمان .. ولقد قاوم المسلمون الغزو العسكري والغزو الفكري بما كان قد بقي فيهم من طاقة ... ولكن الخواء الذي كانت تعانيه الأمة من جراء انحرافاتها وأمراضها جعل هذه المقاومة أضعف من أن تقف للغزو الكاسح ، فاستتب الأمر للغزاة ، وتم لهم ما أرادوه من صرف الأمة عن الإسلام. ولقد كان لهم من وراء تنحية شريعة الله عن الحكم مآرب عدة ... كانوا يريدون أن تعمل حركة التنصير في العالم الإسلامي وهي آمنة مطمئنة لتفتن من تستطيع فتنته عن دينه. ولن تجد هذه الحركة مجالاً لو بقيت الشريعة قائمة ، ونفذ حد الردة على المتنصر الذي يرتد عن الإسلام.

وكانوا يريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع الإسلامي لتنحل أخلاقه ، ويسلس قياده للمستعمر ، ولم يكونوا ليستطيعوا - والشريعة قائمة - أن يفتحوا بيوتًا رسمية للبغاء تحميها الدولة «المسلمة!» بتشريعاتها وتنظيماتها وشرطتها! ولا أن يفتحوا الحانات لتسقى الناس الخمر علانية

---

(١) هو مبحث الاستعمار.

(٢) واقعنا المعاصر ص ٣٠٥ وقد تقدم معنا هذا النص ص٥١٦.

باسم «المشروبات الروحية» ، ولا أن يفتحوا المراقص للساقطات اللواتي أطلق عليهن فيما بعد لقب « الفنانات ! » لتلهية الناس عن صلاتهم وصيامهم ، ودنياهم وآخرتهم ، باسم الفن والحضارة والتقدم»[(١)].

وإذا كان أعداء الإسلام قد ركزوا على مصر لأجل تنحية الشريعة الإسلامية عنها لما لها من موقع جغرافي هام ، ولوجود الأزهر فيها ودورها القيادي في البلاد الإسلامية، واستخدموا الجيوش العسكرية في فرض القوانين الوضعية وعزل الشريعة الإسلامية. كما فعل الفرنسيون ، ثم الانجليز الذين حكموا مصر قرابة السبعين عامًا بتلك الصورة، فقد ركزوا تركيزًا شديدًا على تركيا بصفتها مركز القيادة في العالم الإسلامي ، ومحط أنظار المسلمين في كافة أنحاء العالم.

لقد جهد أعداء الإسلام على تنحية الشريعة الإسلامية في الدولة العثمانية ، وصوبوا حملاتهم صوب الأستانة عاصمة الدولة. وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد نحيت في مصر تحت القهر والإرهاب الذي استخدمته جيوش المستعمرين الرابضة على الأرض هناك، فإن الشريعة الإسلامية في تركيا بدأ في تنحيتها بغير سيف ولا نار ، بل كان الغزو الفكري هو الدافع إلى ذلك ، و كان أمضى في التأثير ، وأبعد في النتائج.

نحن لا ننكر أنه كانت هناك ضغوط شديدة تمارسها الدول الأوربية على الدولة والسلاطين العثمانيين بشأن تنحية الشريعة الإسلامية بحجة البدء في الإصلاح وتحسين الأوضاع ومساواة غير مسلمين بالمسلمين، ولكن تلك الضغوط لم يكن ليستجاب لها ، أو يرضخ لها لولا هجوم الغزو الفكري الكاسح الذي خضع له وتأثر به عدد كبير من ذوي الرأي والسياسة في العاصمة استامبول وغيرها من مدن تركيا.

لقد كانت الأوضاع السائدة في الدولة العثمانية منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي سيئة للغاية ، وفي الفترة التي نقوم بدراستها ازدادت هذه الأوضاع سوءًا وترديًا. وغشي الضعف والتخلف كافة الميادين من سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية. وأغرى هذا الضعف المستشري في جسم الدولة التي كانت تلقب بالرجل المريض الدول الأوربية وخاصة روسيا للانقضاض عليها وإنزال أشد الهزائم بها.

كل ذلك مع ما أصيبت به الدولة من خواء عقدي مزمن أوقع كثيرًا من رجال السياسة والرأي في الأستانة تحت براثن هزيمة نفسية مريرة ، أحنت رؤوسهم خجلاً ومقتًا لذلك الواقع المتردي ،

---

(١) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٦٤. الأستاذ محمد قطب. مكتبة السنة. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م. القاهرة.

وجعلتهم يتطلعون إلى هازمتهم أوربا كي تلتفت إليهم لتنقذهم مما هم فيه من تخلف وهبوط ، أو يحاولوا اللحاق بركبها والسير في طريقها ، واستعطافها حتى لو كان الثمن لذلك هو نبذ الدين كلية ، وإقصاء الشريعة جانبًا. وقد كان للسلاطين العثمانيين من تلك الهزيمة أوفر الحظ والنصيب. ويحسن بنا أن ندرج عند حديثنا عن تنحية الشريعة الإسلامية الحديث عن استيراد المبادئ والنظم من الغرب لأنهما خطوتان متبادلتان ومتلازمتان في حدوثهما.

وكان البادئ الحقيقي في ذلك هو السلطان «سليم الثالث» [١] حيث سعى لادخال ما يسمى بالنظام الجديد على الجيش على النمط الأوربي الحديث. وإن كانت الخطوات الأولى قد بدأت قبل ذلك بزمن طويل في عهد السلطان سليمان القانوني الذي سن عدة قوانين لقب من أجلها بالقانوني [٢].

وفي عهد السلطان «سليم الثالث» قام الصدر الأعظم «ابراهيم باشا» بتكليف «سعيد أفندي ابن محمد أفندي» المشهور بـ«يكرمي سكز جلبي» بكتابة بحث عن أسباب تقدم الأوربيين وسبل الأخذ عنهم . فقام هذا بالمهمة وكتب رسالة في ذلك ، وقد طبعت عدة مرات وترجمت للغة الفرنسية [٣] . وقد فتح السلطان «سليم الثالث» مراسلات مع ملك فرنسا ووزرائه حيث كان يبحث عن ثقافة سياسية من أكثر دول أوربا تقدمًا وقتذاك ؛ ولأنه كان يميل إلى الثقافة الفرنسية على الأخص ، وكانت رسائله التي تبادلها مدة ثلاثة سنوات مع «لويس السادس عشر» تفيض برغبته في المعرفة والاطلاع [٤].

وكذلك كان لـ «سانت مور Saint Maur» الذي كان يتولى الشئون فوق العادية لدى السلطان «سليم» تأثير عليه ووضع نصب عينيه أن يحكم بنظام مماثل للنظام الفرنسي [٥].

ومع كل الجهود التي بذلها السلطان «سليم» في ذلك المضمار التغريبي ، وفي محاولته الإصلاحية على الطريقة الأوربية فقد فشل في تحقيق ذلك فشلاً ذريعًا ، ودفع عرشه وحياته ثمنًا لتلك المحاولات؛ إذ ما لبث أن ثار عليه الانكشارية بعد محاولته لإدخال النظام الجديد على الجيش العثماني الذي يشكل الانكشارية محوره الرئيسي ، وعزلوه عام ١٨٠٧م وأقاموا «مصطفى الرابع» سلطانًا بدلاً منه، الذي ما إن ارتقى عرش السلطنة حتى سارع إلى قتل «سليم الثالث» غير أن أنصار السلطان «سليم» أرادوا أن يثأروا من خصومهم فقاموا بثورة عنيفة أدت إلى عزل السلطان الجديد ثم قتله ، ونادوا بتعيين أخيه السلطان «محمود الثاني» [٦].

---

(١) انظر ترجمته في تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٦٣ ـ ص ٣٩٣.

(٢) حقائق الأخبار عن دول البحار ص٥٥٥ ، إسماعيل سرهنك . المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢هـ .

(٣) حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٩٤.

(٤) المصدر السابق ص ٩٩.

(٥) المصدر السابق ص ١٠٠.

(٦) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/٢٥٨ وما بعدها.

وبارتقاء السلطان «محمود الثاني» على سدة السلطنة عام ١٨٠٨م تبدأ مرحلة خطيرة وحاسمة في التوجه العثماني نحو أوربا. ذلك التوجه الكبير والسريع في محاولة نقل الأمة إلى الدائرة التابعة للغرب، وفي محاولة إدخال نظم أوربا وأساليبها بحذافيرها على المسلمين دون أدنى مراعاة لدينهم وعقيدتهم.

و«محمود الثاني» [(١)] هو الابن الثاني لـ«عبد الحميد الأول» من امرأة فرنسية. فلا غرو بعد ذلك أن يشغف قلبه بأوربا وفرنسا خاصة، ويهيم بمتابعتها وتقليدها في كل شيء.

وبرغم الأحداث العصيبة والثورة العنيفة التى أشعل فتيلها الانكشارية ضد ما يسمى بالنظام الجديد وأدت إلى عزل السلطان سليم الثالث الذي حاول إدخال ذلك النظام إلى الجيش ثم مقتله - فقد صمم السلطان محمود الثاني على أن يستأنف سياسة سليم الثالث الاصلاحية وعلى الطريقة الأوربية أيضاً، فأخذ لتوه يتبنى عادات الأوربيين فارتدى الطربوش والسترة وأطلق لحية صغيرة [(٢)]

وقد انتقلت إليه أفكار الثورة الفرنسية وأدرك التغيير الجذري الذي يسود أوربا عن طريق بعض الأتراك الذين عاشوا في باريس [(٣)].

وقد أدرك السلطان محمود الثاني من الأحداث أنه لن يتم له المضي في سياسته الإصلاحية ذات الطابع التغريبي ما لم يقم بالقضاء على الانكشارية الذين يمثلون العقبة الحقيقية في طريقه.

فبدأ يخطط للقضاء عليهم حتى واتته الفرصة ليلة ١٣ - ١٤ يونيو سنة ١٨٢٦م حين قام الانكشارية بتمرد للاحتجاج على مشروع الاصلاح الجديد، فما كان من السلطان محمود إلا أن أمر قائده المطيع حسين الأسود بعبور البسفور بقواته الموالية له، التى هاجمت الانكشارية في مواقعهم، ودكت بمدافعها ثكناتهم، حتى تم القضاء عليهم.

عندئذ خلت الأجواء للسلطان محمود للقيام بتغريب السلطنة، وعلمنة الدولة، وتنحية الشريعة الإسلامية بعد أن قضى على الانكشارية أقوى معارضيه. ولم يعد يوجد في الساحة من يجرؤ على معارضته أو يحاول انتقاد سياسته التغريبية وتطلعاته الأوربية.

ولا ينبغي أن ينسينا الحديث عن الغزو الفكري وتشبع السلاطين به ما عنينا به أساساً، وهو ما كانت تنوء به الدولة العثمانية من انحرافات دينية وعقدية خطيرة أفسحت المجال لدخول الغزو

---

(١) انظر ترجمة حياته وتفاصيل ما قام به في تاريخ الدولة العلية ص ٣٩٨ - ص ٤٥٣.

(٢) حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٣٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٣.

الفكري ، ومكنت له من الاستقرار في عقول كثير من الحكام والقواد ، والتأثير في سياستهم وتوجهاتهم.

وما كان للعلماء أن يتنبهوا إلى خطر الغزو الفكري الداهم ، ولا أن يقفوا في وجه من ولى وجهه شطر الغرب من سلاطينهم وحكامهم، وأكثرهم غارقون في خيالات التصوف ، وعائمون في خرافاته وأساطيره، ويتنافسون في نصرة مذاهبهم ، ونشر طرقهم.

فمن هنا وجد السلطان محمود الطريق خالياً من المعارضين ، وأمن إلى تنفيذ ما اعتزمه من إصلاحات على الطريقة الأوربية بعد أن لم يرتفع العلماء إلى مستوى الأحداث في عصره وبعد أن قد تم له القضاء على الانكشارية أشد خصومه المعارضين وأقواهم.

لقد كان الواقع المليء بالانحرافات الدينية مناخاً مناسباً وتربة خصبة وجد خلالها دعاة الغزو الفكري فرصة لا تقدر بثمن لإلقاء بذور دعواتهم وإحكام مخططاتهم فيما يرمون إليه من تغريب.

فالضعف الحربي والعسكري الذي أحدث للدولة عدة نكسات متوالية كان سببه الإعراض عن تعلم العلوم النافعة بحجة أنها من علوم الكفار . وتلك لعمر الله ثغرة عظيمة وقعت في تاريخ المسلمين نفذ من خلالها أعداء الإسلام وأحسن دعاة الغزو الفكري استغلالها لصالح أفكارهم وسياساتهم. فقد اجتمع السلطان محمود الثاني بالعلماء والقواد في دولته وبعد مداولات ووفق على ادخال أسلحة الكفار وتعاليمهم ، ودعمت تلك الموافقة بفتوى شيخ الإسلام الذي قرأها بنفسه مخاطباً الانكشارية الحاضرين والغائبين ، وأشار إلى ماورد في الكتاب الكريم والسنة من وجوب تعليم العسكر وأهل الإسلام فنون الحرب [(١)].

وقد عقد هذا الاجتماع في استامبول في مطلع شهر أكتوبر ـ تشرين الأول عام ١٨٠٨م وقد دعى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار في هذا الاجتماع إلى ضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، والتى كان استخدامها في الجيش الروسي في مقدمة أسباب انتصارات الروس الآخيرة على جيش الدولة [(٢)].

وبعد اجتماع آخر عام ١٨٢٦م أصدر السلطان محمود الثاني ما عرف باسم خطي شريف ويقضي بإنشاء جيش جديد وفقًا للنظم الأوربية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب [(٣)].

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٦. وقد كان ذلك الاجتماع قبل القضاء على الانكشارية.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/٥٣٥.

(٣) المصدر السابق ١/٥٤٧.

وهكذا كان الحال من إفراط في الإعراض والجمود حتى تعدى ذلك إلى أسلحة الحرب إلى إفراط في الأخذ والتقبل حتى التعاليم الأوربية والأنظمة الغربية التى لا تكاد تنفق مع الإسلام في شيء وإذا كان هذا الاعراض والجمود الذي أدى إلى تأخر وفساد في الأوضاع كان سببه العلماء فقد أفلت الزمام من أيديهم بعد أن استولى عليه دعاة التغريب بسبب موقفهم الجامد والرافض لهذه العلوم.

وإغلاق باب الاجتهاد ورفض إعادة فتحه من جديد ومعاقبة المجتهدين كان انحرافًا دينيًا عظيمًا دفعت الأمة ثمنه غاليًا. دفعت ثمنه أولاً تخلفاً علمياً مريعًا ، وجموداً مزمنًا. ودفعت ثمنه ثانيًا يوم تلقفها دعاة الغزو الفكري يقودونها بعيداً عن الإسلام الذي يحظر الإجتهاد ويعاقب المجتهدين كما تعلل بذلك من تولى قيادتها من دعاة الغزو الفكري.

فقد أمر السلطان «محمود» الثاني عام ١٨٣٧م بالبدء في عمل موسوعة مدنية تتناول الأمور التى لم يرد عنها نص في القرآن الكريم أو السنة [١]. لتوضع تلك الأمور التى لم ترد فيها نصوص شرعية في قوالب مستوردة من أنظمة الغرب وأساليبه.

وهل ياترى لو بقي باب الاجتهاد مفتوحًا وتشجيع المجتهدين موجوداً، هل كان من الممكن التعلل بمثل هذه العلة الواهية.

لقد كان هذان الانحرافان الدينيان اللذان وقع فيهما المسلمون في العصور المتأخرة واستفحل أمرهما في الفترة التى ندرسها ثغرتين عظيمتين نفذ من خلالهما دعاة التغريب والغزو الفكري للمطالبة بإصلاح الأوضاع وعلاج التخلف الذي أصاب الأمة.

لقد كانت الأوضاع بحاجة ماسة إلى الاصلاح ، ولم يكن بالضرورة أن يقوم على الطريقة الغربية ، وإدخال العادات والنظم الأوربية كما فعل السلطان العثماني «محمود» الثاني. ولكنها على أية حال كانت فرصة تمكنت أوربا وأذنابها من المنتسبين إلى الإسلام من استغلالها والحصول من ورائها على كل ما يرمون إليه من نشر لفكرهم وثقافتهم وعاداتهم ليفسدوا المسلمين بالمرة ، ويسهل عليهم استعمارهم واخضاعهم.

ويجدر بنا أن نقف بعض الشيء مع هذا السلطان العثماني الذي قيل إنه نحا في نزعته الاصلاحية على الطريقة الأوربية منحى والي مصر «محمد علي باشا» وتأثر به [٢]. وما قام به السلطان «محمود» الثاني من اصلاحات مثال واضح على التخبط والفشل الذريع الذين مني بهما كل من رام الاصلاح على الطريقة الأوربية ممن جاء بعده وحذى حذوه من حكام المسلمين.

---

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٩٧.

(٢) الشرق الإسلامي ص ٢٠٥.

وبنظرة سريعة إلى المحاولات التي قام بها السلطان «محمود الثاني» في سياسته الاصلاحية التي سار عليها مدة ثلاثين عاماً تقريباً هي مدة حكمه ، والتطلعات التي كان يتطلع إليها ويسعى إلى تحقيقها تتجلى لنا حقيقة هامة وهي تفاهة تلك التطلعات وضآلة تلك الأهداف. وهذه سمة لم يكد يسلم منها أحد ممن نادوا بالاصلاح على الطريقة الأوربية وسلكوا الوجهة التغريبية من حكام المسلمين .

والسبب في تفاهة تطلعاتهم وضآلة أهدافهم هو ما أصيبوا به من هزيمة نفسيه وروحية جعلتهم يفقدون صوابهم في كثير من الأحيان ، ويجعلون أكبر همهم هو تقليد أسيادهم ومحاكاة هازميهم ، ليس في تحصيل القوة الحقيقية ، والعمل الدؤوب لاتخاذ الأسباب المادية. فتلك لعمر الله طموحات لا تتلاءم ونفسياتهم المنهزمة وعقولهم المضطربة. فلم يبق لهم إلا التشاغل بالأهداف الرخيصة والتطلعات التافهة ضمن سياسات ضحلة ، وتخطيطات مضطربة ، يغررون فيها بالأمة ، ويحاكون بها أعداءها في الشكليات والمظاهر والرسوم ، فظنوا أنهم حين يلبسون جيوشهم أزياء أوربية ويدخلون ضمنها فرقًا موسيقية كما يحدث في أوربا يحصلون على أسباب القوة ، ويواكبون الأمم الأوربية في مضمار الرقي والتقدم.

وقد أعجبني ما قاله الشيخ «محمد رشيد رضا» عن إصلاحات العثمانيين في تلك الفترة حيث يقول : «وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحريتهم وظواهر نظمهم ، وإنما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الأصاغر ، لمن فوقهم من الأكابر ، كالأزياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجموا أكثر القوانين فلم يقيموا منها شيئًا ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئًا» (١).

وهذه نبذة صغيرة لأهم التجديدات والاصلاحات التي قام بها السلطان «محمود» الثاني لتتضح لنا تفاهة تطلعاته ، وضآلة أهدافه وضحالة سياستة التغريبية.

يذكر عن السلطان «محمود» الثاني أنه كان يحب الشعر والموسيقى وسائر الفنون، وقد انشئت في عهده مقصورة في «بيرا» زودت بالصحف والكتب المستوردة من كثير من البلاد الأوربية(٢). وفي عهده أيضاً انتشرت المدارس اليونانية والأرمينية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعايته لها وتشجيعه إياها ، إذ إنه اقتبس منها كثيراً ، وأفادته بما أحرزته من تقدم وخبرة (٣). كما يقولون.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٤١٥/١.

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٢٠١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٠.

وقد أكثر «محمود الثاني» من إرسال الشبان العثمانيين إلى كل من «لندن» و«باريس» لتحصيل كل أنواع الفنون والمعرفة ..... وتتميز سنة ١٨٢٧م بالاكثار من ارسال بعثات من الطلبة إلى أوربا ، ويقال إنه تأثر في ذلك بـ«محمد علي» الذي كان قد أرسل بعثة كبيرة إلى باريس سنة ١٨٢٦م (١).

ومن أهم التجديدات على يدي ذلك السلطان رائد الاصلاح كما يحلو للتغريبيين أن يسموه استخدام الموسيقى في الحرس والجيش ، وقد أنشئ لهذا الغرض مزيكًا همايون مكتبي في سنة ١٨٢٦م ولكنها اتخذت مظهر المدارس الحربية ، إذ كان الغرض الأساسي منها امداد الجيش بالموسيقيين. وفي سنة ١٨٣١ استدعي «Donizeui» أخو «Goetaro» المؤلف الموسيقي المشهور لتأليف فرقة موسيقية والاشراف على هذه المدرسة (٢).

وهذا في الوقت الذي استشرى فيه الضعف بالجيش العثماني ، وتوالت على الدولة هزائم ساحقة من روسيا وغيرها ، سارع هذا السلطان لإنقاذ جيشه وتدارك دولته بادخال فرق موسيقية إلى صفوفه ، وببناء مدرسة للموسيقى تخرج فرسان الحرب وصناديد القتال. ويقول «Jouanin» : إن العادات الأوربية أخذت تنتشر يومًا بعد يوم بسرعة كبيرة وأذن السلطان لايطاليا ببناء مسرح وتمثيل أدوار فرنسية وغيرها ... (٣)

وكان السلطان يظهر في ملابس نظام جديد في أكثر الحالات وتأييداً منه للأفكار الجديدة ترك العمامة والقفطان ولبس الحذاء والسروال الضيق والقميص والطربوش. وكان السروال على النظام القوقازي وسرج حصانه من النوع الانجليزي وحذاؤه مثبت به مغماز عند ركوب فرسه وعلى رأسه ما يشبه القبعة من حرير أزرق .... (٤)

ولم يكن يشبه هذا الخليط المتنافر الذي جعله السلطان تقليداً له وعادة إلا الاضطراب الذي كان يموج في الاصلاح الحربي في وقته. حيث أن الجيش الجديد كانت ترى فيه القمصان الروسية والبنادق البلجيكية وأغطية الرأس التركية والأحزمة المجرية والسيوف الانجليزية إلى جانب القوانين واللوائح الفرنسية والمعلمين من أمم شتى (٥).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٣.

(٥) المصدر السابق ص ٢٤٦. والجدير بالذكر أن السلطان سليم الذي قتله الانكشارية هو أول من اتخذ الزي الأوربي للجيش. انظر : الدولة العثمانية ٥٢٦/١.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : «.. حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

وهذه سمة أخرى اتسمت بها اصلاحات دعاة الغزو الفكري والتغريب وهي الاضطراب والتناقض والحيرة فيما يقدمون عليه من خطوات إلى جانب ما ذكرناه من تفاهة تطلعاتهم وضآلة أهدافهم ، وبالتالي فساد اصلاحاتهم وفشل تخطيطاتهم.

وقد ذكرنا في مبحث الولاء والبراء كيف حاول «محمود الثاني» بسياسته التغريبية أن يقضي على هذه العقيدة ، وأن يطمس معالمها حتى يسهل عليه تنفيذ سياسته. حتى قال قولته المشهورة التي تطالب بالمساواة التامة بين الطوائف الثلاث ، المسلمين واليهود والنصارى ، وإزالة الفوارق بينهم. وحاول أن يلزم العلماء بلبس الطربوش الأحمر. ويلزم الجنود بوضع حزامين متقاطعين على شكل صليب. وإعفاء أهل الذمة من لبس القلنسوة المميزة لهم [١]. إلى غير ذلك من أعمال استهدف بها تقويض أركان عقيدة الولاء والبراء ، وإزالة معالمها.

ويعتبر بعض المؤرخين الأوربيين ومن بينهم «أرنولد توينبي» ما وقع في عصر السلطان «محمود الثاني» أول تأثير غربي حقيقي على تركيا [٢] .

وقد كان «محمود» قليل التوقير للدين ورجاله [٣] ، كثير الاستهانة بالتقاليد والاوضاع. فأثارت تصرفاته مخاوف المسلمين وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه درويش على قارعة الطريق ، وأتهمه بممالأة النصارى على المسلمين ، وأنذره بسوء المصير[٤].

ومع فشل الاصلاحات التي حاول السلطان «محمود» الثاني القيام بها والتجديدات التي لم يكن لها أي فائدة تذكر ، فقد بالغ المؤرخون كثيراً في تقدير الدور الذي قام به والاصلاح الذي أدخله [٥]. ولعل أهم عمل قام به السلطان «محمود» واستحق عليه إشادة كثير من المؤرخين هو إلغاء الفيالق الانكشارية [٦]. مع أن كثيراً منهم اعتبر أن انتهاء الانكشارية كان انتهاءً للمجد الحربي للدولة العثمانية [٧]. ورأى بعضهم أن القضاء على الانكشارية كان بداية النهاية للدولة العثمانية [٨]. كما ذكرنا من قبل.

---

(١) راجع مبحث الولاء والبراء من هذا البحث ص

(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) ذكرنا من قبل أنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى برجال الدين كالنصرانية مثلاً ، بل يوجد فيه العلماء. انظر ص من هذا البحث .

(٤) الشرق الإسلامي ص ٢٥١.

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٦) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/٥٥٥. (٧) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩.

(٨) المصدر السابق ص ٢٤٣.

ونمضي مع خطوات الغزو الفكري وما أعقبها من استيراد للمبادئ والنظم في عاصمة الدولة العثمانية الدولة الإسلامية الأم لا لنؤرخ لتلك الحقبة السوداء من تاريخ الأمة المسلمة، ولكن لنلقي بعض الأضواء على تلك الخطوات الخطرة التي أدت إلى منزلق البوار في حياة الأمة.

فقد مات السلطان «محمود» الثاني سنة ١٨٣٩م وخلفه ابنه «عبد المجيد» في السادسة عشرة من عمره ، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال ما بدأه والده الراحل من اصلاحات على الطريقة الأوربية ، والتمادي في استحداث الوسائل التغريبية ، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين «مصطفى رشيد باشا» الذي كان سفيراً للدولة في «لندن» و«باريس» ، ووصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان «محمود» الثاني ، وكانت باكورة اصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف «بخط شريف جلخانة» أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام ١٨٣٩م. وجاء فيه :

«إن النظم الأهلية تضمن لرعايانا من الآن أمنا شاملاً على أرواحهم وشرفهم وأموالهم. وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب .. يستمتع بها الكل على السواء»[١].

وبدأ من أجل ذلك عهداً جديداً يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية ، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون [٢].

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود ، وهناك خطبهم «رضا باشا» ـ وهو من المنسوبين إلى الإصلاح ـ باسم السلطان ، فقال : أيها المسلمون والنصارى واليهود ، إنكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد ، إن السلطان يسوى بينكم جميعا [٣].

«ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي سانده «مصطفى رشيد» وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم . فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ«رشيد باشا» ، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين ، ورأوا أن ذلك ويغض النظر عن النواحي الدينية سيؤدي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.

وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة»[٤].

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥٣.
(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/٩٧.
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٣.
(٤) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٨.

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم ، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم.

«وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوربا .... مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف ، وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف ، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يبيحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لابد أن يكون تمييز بين المسلمين ومن في ذمة المسلمين ، فاما هذا التصريح الخطير فله دلالته ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزانًا صالحًا للحكم ، ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن (١).

وقد أنشأ رشيد باشا مجلسًا للنواب ، ووضع للدولة قانونًا للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسيًا ليضع قانونًا مدنيًا حديثًا للدولة ، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها . وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقًا مالية. (٢) ثم صدر مرسوم آخر عام ١٨٥٦م أكد فيه السلطان عبد المجيد الأول المبادئ التى سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا ، وزاد فيه عدة امتيازات وحصانات لرعايا الدولة غير المسلمين ، وكانت قيمته في أنه اشتمل على اعتراف صريح واضح بالمساواة الكاملة بين جميع الأديان في الإمبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية ، ومنح النصارى حقًا قانونيًا مطلقًا في المساواة بالمسلمين (٣).

ويعتبر السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يضفي على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية ، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر باصدار فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤ ، ١٨٥٦م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي ، وبهذين الفرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.

والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعًا لتأثير وزيره «رشيد باشا» الذي وجد في الغرب

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥٤ ووصفه لأحكام الشريعة بالتقاليد القديمة وصف باطل من مخلفات الغزو الفكري.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ ومما يذكر أن أكثر هذه الأوراق المالية صدرت دون أي رصيد معدني ، وبالتالي فقدت قيمتها . حدث ذلك دون أن ينصحهم أحد من مستشاريهم الأوربيين الذين يعرفون بداهة خطورة هذه الخطوة ، وفداحة هذا الخطأ من الناحية الاقتصادية.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٨/١.

مثله وفي الماسونية فلسفته ، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة ، وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التى بدأها هو[١].

وحينما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالشريعة الحنفية قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتتخذ زي النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضيم- نفروا من ذلك نفوراً عظيماً ، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي ، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم[٢] .

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب ولم يمنع من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق ، وفتحت لها الأبواب. ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٨٤١م إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام ١٨٤٥م تسانده مجموعة من أعضاء المحافل الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني ...[٣] وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦م وعزل منها سنة ١٨٥٨م [٤].

وازدادت الأحوال سوءاً وانحطاطاً ، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والاصلاح فلا يجدون امامهم غير الطريقة الأوربية في الاصلاح ، والوجهة التغريبية في التغيير التى بدئ في اتخاذها ، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور إلى نصابها ، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامي. وكما قال الكاتب التركي الأستاذ «نجيب فاضل» : ولخلو الامبرطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له .. وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل ، وذبول الإرادة وعموم الشلل[٥].

---

(١) من مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٣. ترجمة وتقويم وتحقيق وتعليق. محمد حرب عبد الحميد. دار الوثائق.الكويت.

(٢) الشرق الإسلامي ص ٢٥٦.

(٣) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٩.

(٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/١٨١.

(٥) السلطان عبد الحميد. حياته وأحداث عصره ص ٤٣.

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم ، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين. حتى أن الألوسي لما زار والي كركوك علي باشا عام ١٢٦٧هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء وإكرامهم وبالأخلاق الفاضلة ثم قال بعد ذلك : «والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئًا من الآراء الافرنجية الجديدة ، حيث أنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس ! ويكفي أهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم عن تلك الوصمة ، وقلما تنال هذه الرحمة في هذا الزمن الذميم!» (١).

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية وتوالت الضغوط على السلطان عبد الحميد الثاني بعد ذلك حتى أصدر الدستور (القانون الأساسي) عام ١٨٧٦م في أوائل حكمه ، غير أن عبد الحميد وهو الحذر من دسائس الغرب أوقف العمل بهذا الدستور عام ١٨٧٨م . ولم تفلح جهود أنصار الدستور في إعادة العمل به ، إلا بعد قيام جمعية الاتحاد والترقي بثورة عسكرية عام ١٩٠٨م ضد السلطان عبد الحميد ، وأعادت العمل به.

غير أن ثورة عارمة مضادة للثورة الأولى تزعمها الدراويش وأئمة المساجد وبعض العلماء وطلبة العلم اندلعت في العاصمة استانبول ، وشاركهم في ذلك ضباط الجيش «الآلايلية» (٢) ، ولقيت استجابة من جماهير العامة ، وتنادى الجميع إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت في خطر وطافت المظاهرات في شوارع المدينة تهتف «باشا سون شريعة محمدية» أي فلتعش الشريعة المحمدية. وامتدت هذه الثورة إلى أنحاء الأناضول ، ولكن جيش الحركة التابع لجمعية الاتحادوالترقي ما لبث أن أخمد هذه الثورة العارمة ، واستطاع بعد قتال مرير أن يخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م (٣).

إن قبول السلطان عبد الحميد بالدستور عام ١٨٧٦م يمثل خطأ فادحًا في سياساته الأولى.

هذا الدستور الذي ينص على أن جميع رعايا السلطان «عثمانيون» وأنهم يتمتعون بالمساواة أمام القانون (٤). وإن كانت الظروف فيما بعد قد أجبرت عبد الحميد بإعلان الدستور عام ١٩٠٨م فإن قبوله للدستور عام ١٨٧٦م لم يكن له أي مبرر على الإطلاق ، ولم يكن لحاكم عرف ببعد النظر وعمق السياسة مثل عبد الحميد أن يستجيب للضغوط الرامية إلى تنحية الشريعة الإسلامية ، وإلغاء

---

(١) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ١٠٣.

(٢) هم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدماتهم الطويلة ، وخبراتهم العملية. ولم يكونوا من خريجي المدارس الحديثة والكليات العسكرية المتأثرين بروح التغريب في الغالب.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٠٠٦/٢ وانظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه ١١٦/١.

(٤) المصدر السابق ١١١/١.

الفوارق بين المسلمين وغيرهم. وإعلان الدستور الذي ينوب الهوية الإسلامية ، وينال من أحكامها. ويعتبر هذا الدستور من أهم الخطوات التي أدت إلى علمنة الدولة العثمانية وإلى تمزيق ولاياتها (١).

ويقر عبد الحميد على نفسه أنه في أوائل حكمه كان مخلصاً في إعلان القانون الأساسي (الدستور) بل إن والده السلطان «عبد المجيد» كما يقول قد أقنعه بهذه الفكرة ، وأن خلافه مع الصدر الأعظم «مدحت باشا» لم يكن حول شرعية الدستور ، وإنما كان حول مطالبة الصدر الأعظم بتحجيم دور السلطان وتقييد سلطاته عن طريق الدستور نفسه (٢).

مع أن «عبد الحميد» كان يعتقد بعدم فائدة ذلك الدستور حين إعلانه ، أما بعد عزله فيرى أنه لم يكن غير مفيد فحسب ، بل هو ضار ايضاً (٣). وكان يعتقد أن الدستور يقتل العنصر الأصلي في البلاد يعني المسلمين. وتساءل «عبد الحميد» هل يمكن أن يكون في البرلمان الانجليزي نائب هندي واحد ، أو افريقي أو مصري؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟ واستغرب كيف يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب والعرب في البرلمان العثماني (٤).

وقد كان مجلس النواب هذا أو البرلمان يسمى مجلس المبعوثان (المبعوثين) باعتبار النائب مبعوثًا من أهالي دائرته الانتخابية. وعندما أجبر السلطان «عبد الحميد» في أواخر حكمه على إعادة الدستور ، وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع بعد إعادة الدستور وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشيحها ، فكانت النتيجة كالتالي : عدد النواب الأتراك في المجلس ١٤٢ ، وعدد النواب العرب ٦٠ ، وعدد الألبانيين ٢٥ ، واليونانيين ٢٤ ، والأرمن ١٢ ، واليهود خمسة ، والصرب ٣ ، والأفلاخ واحداً (٥).

وفي الواقع فإن ذلك المسلك التغريبي الذي سار عليه طائفة من سلاطين بني عثمان في القرن الثالث عشر دفع بعض المؤرخين المحدثين كالأستاذ «شفيق غربال» إلى اعتبار أن ما قام به السلاطين من محاولات للاصلاح على الطريقة الغربية طبعًا!! يعادل أضعاف ما أتاه الكماليون بعد الحرب الكبرى(٦). وأن الكماليين لم يفعلوا أكثر من إتمام ما بدأ به السلاطين ، ومقارنة بسيطة بين ما أدخله

---

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٣١.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٤٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق ص ٥٨.

(٥) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/١٦٥.

(٦) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م.

السلاطين من وجوه التجديد وما أدخله الكماليون تنطق بهذا ، فقد استبدل الكماليون مثلاً القبعة بلباس الرأس التركي ، ولكن السلاطين هم الذين استبدلوا الزي الأوربي بالأزياء التركية القديمة وقد استبدل الكماليون القانون السويسري بالشريعة في مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلاطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوربية محل الشريعة في غير المسائل الشخصية. وهكذا لا نجد إصلاحاً للكماليين إلا وهو في حقيقته إتمام لما بدأ به السلاطين (١).

ولا شك في أن ما قام به السلاطين في ذلك المضمار قد مهد الطريق أمام الخائن «مصطفى كمال أتاترك» الذي قام بإلغاء الخلافة عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م ويقطع كل صلة لتركيا بالإسلام ، واتخاذ دستور مدني بعد إلغاء المحاكم الشرعية (٢).

لقد أطلنا النفس بعض الشيء في الحديث عن إدخال التغريب والعلمنة إلى تركيا ، والخطوات التي رافقتها من أجل تنحية الشريعة الإسلامية واستيراد المبادئ والنظم من الغرب عوضاً عنها للتدليل على ما حققه الغزو الفكري في ذلك المجال ، فلئن كانت الشريعة الإسلامية قد نحيت من كثير من أقطار المسلمين تحت وطأة الاستعمار وإكراهه ، وساعد الغزو الفكري على تقبل ذلك والرضوخ له ، فإن دعاة الغزو الفكري في تركيا هم الذين قاموا بتنحية الشريعة الإسلامية وعلمنة البلاد.

ففي الهند ألغيت أحكام الشريعة الإسلامية منذ سنة ١٨٥٦م على أيدي الانجليز ، وفي سنة ١٨٧٥م ترجمت القوانين الفرنسية إلى العربية في مصر وأصبحت هي القوانين التي تحكم في المحاكم المختلطة ، وفي سنة ١٨٨٣م جعلت هذه القوانين هي القوانين التي تحكم الديار المصرية بعد دخول الانجليز مباشرة (٣).

أما الجزائر فقد ألغيت فيها الشريعة الإسلامية سنة ١٨٣٠م . وفي تونس أدخل الفرنسيون قانونهم سنة ١٩٠٦م ليتدخل حتى في الأحوال الشخصية ، وفي سنة ١٩١٣م وضعوا في المغرب قانونًا مدنيًا مماثلاً لما في تونس.

---

(١) من مذكرات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غربال. نقلاً عن : الشرق الإسلامي ص ٢٤٣. ونسبة الإصلاح إلى الكماليين أو إلى من سبقهم من السلاطين في المضمار التغريبي هي كنسبة المنافقين الإصلاح لأنفسهم كما قال تعالى : { واذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون } [البقرة ١١ - ١٢].

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ١٢٧ للدكتور المصري. وما قام به أتاترك هو جزء من الشروط التي أملتها الدول الغربية على تركيا في معاهدة لوزان ١٣٤٠هـ/١٩٢٣م والمعروفة بشروط كرزون وهو رئيس الوفد الانجليزي في ذلك المؤتمر.

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٨٦. وفي عام ١٩٥٥م ألغيت البقية الباقية من المحاكم الشرعية في مصر وحول اختصاصها إلى القضاء العادي على أيدي أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢م.

أما بلاد العراق والشام فقد تأخرت في ذلك بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الأحكام العدلية[١]. ولم تلغ الشريعة إلا بعد دخول الاستعمار الانجليزي والفرنسي إلى ذينك القطرين[٢]. وسواء أكانت الشريعة الإسلامية قد نحيت بفعل الاستعمار المباشر أو بفعل عوامل الغزو الفكري أو بفعلهما معاً فقد نحيت الشريعة تماماً من كل البلاد الإسلامية إلا من رحم الله واستقدمت المبادئ والقوانين بدلاً منها ، وأصبحت حياة الناس ومعاملاتهم وكافة شئونهم تدور في فلك التشريعات الوضعية وتحتكم إلى قوانينها ولوائحها. وربما كان آخر شيء يفكر به من تولى إدخال تلك الأنظمة والقوانين هو موافقتها أو عدم موافقتها للشريعة التي سبق لها أن نحيت عن الطريق.

لقد كان الغزو الفكري الذي وجد لبذوره تربة خصبة في تلك الانحرافات العقدية والدينية التي فصلناها عاملاً رئيسياً في تقبل الناس لإلغاء الشريعة الإسلامية ، واحتكامهم إلى القوانين الوضعية. بل إن الغزو الفكري اليوم يعد العائق الأكبر في طريق العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية. حين خرجت أجيال ربيت على عينه وتحت نظره ورعايته لا يربطها بالإسلام إلا اسمه، وتتطلع دائماً نحو الغرب لتأخذ عنه كل شيء دون بصيرة أو تمييز ، في الوقت الذي تنفر فيه من دينها وتتبرم بتاريخ أمتها ، وتضيق به ذرعاً ، وتحاول قطع أي صلة لها بالإسلام.

ويحسن بنا ما دمنا نتحدث عن الدور الذي أحدثه الغزو الفكري وما يزال يحدثه في هذه الأيام في إعاقة تطبيق الشريعة الإسلامية أن ننقل جزءاً من مقدمة الشيخ «محمد قطب» لكتابه «حول تطبيق الشريعة الإسلامية» حيث يقول : «كلما ذكر تطبيق الشريعة تعالت من هنا من هناك صيحات منكرة ، تستنكر الأمر وتستهوله ، كأنما تطبيق الشريعة كارثة ستحل بديار المسلمين أو كأنما التفكير في هذا الأمر خبل لا يصدر من عاقل!.

الآن؟ في القرن العشرين؟ بعد كل ما حدث في العالم من تطور؟ وبعد أن أصبح العالم بفعل وسائل الاتصال الحديثة كالقرية الصغيرة ، لا مجال فيه لاتخاذ زي يخالف أزياء الآخرين؟!.

تريدون أن نشذ وحدنا عن الناس؟!

تريدون أن ترجعوا بنا إلى الوراء أو توقفوا عجلة التطور؟!.

أم تريدون أن نعتزل العالم كله ونتقوقع على أنفسنا؟

وفيم هذا العناء كله؟ وما الذي يلجئنا إلى هذا الطريق الوعر؟

---

(١) انظر المصدر السابق ص ١٩٢.

(٢) العلمانية ص ٥٣٩ .

ألكي نكون مسلمين؟ أو لا يكفي نطق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ليجعلنا مسلمين؟ إنكم تبتدعون في دين الله ما ليس فيه! فالإسلام يثبت بنطق الشهادتين ، أما قضية الشريعة فهي من الأمور المتغيرة التي يتصرف فيها ولي الأمر بحسب رؤيته لمقتضى الأحوال! والأحوال الآن لا تسمح كما هو واضح لكل ذي عينين!.

وهل نسيتم الأقليات؟ كيف نطبق الشريعة وفي بلادنا أقليات لا تدين بالإسلام؟[1] هل نسيتم الدول «العظمى!» وموقفها من الإسلام؟ وبالذات موقفها من تطبيق الشريعة؟ هل بنا طاقة - نحن المستضعفين في الأرض - نواجه بها الدول «العظمى»؟! إن التفكير في تطبيق الشريعة في الوقت الحاضر تفكير «غير مسئول» ينادي به قوم لا يعيشون بعقولهم في الواقع التاريخي المحيط بهم! أما «العقلاء» «المسئولون» فإنهم يستنكفون أن يفكروا على هذا النحو ، ويجابهون الواقع بحنكة وروية ، ونظرة «واقعية» إلى الأمور!.

كذلك تتعالى الصيحات كلما ذكر تطبيق الشريعة!

وإنها لصيحات المنهزمين في دخيلة أنفسهم ، الذين أكل الغزو الفكري عقولهم وأرواحهم وجعلهم مسخًا مشوهًا لا يصلح لشيء»[2].

هذه تقريبًا «أهم الأفكار التي يشوشون بها على الناس ، ليوحوا إليهم أن تطبيق الشريعة أمر لا يمكن تحقيقه اليوم ، بل لا يجوز تحقيقه حتى إن كان في حيز الإمكان! فضلاً عن كونه أمرًا لا ضرورة له ولا موجب ، طالما أن إسلامنا متحقق بنطق لا إله إلا الله[3].

ولعل أهم شبهة أفرزها الغزو الفكري حول تطبيق الشريعة الإسلامية هي شبهة التطور وعدم ملاءمة الشريعة للأحوال المستجدة في حياة الناس.

«هل تصلح الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنًا أن تحكم الواقع المعاصر ، وقد جد في

---

(١) يرى العلماني يوسف ادريس أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى تقسيم مصر فيقول : «وماذا نفعل بملايين إخواننا الأقباط المصريين إذا أصروا هم الآخرون على تطبيق الشريعة المسيحية ، هل نقسم مصر حينذاك أم نتحول إلى لبنان آخر» قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١١٧ وهذه دعوة منكرة لا سابقة لها في التاريخ كما قال الشيخ محمد قطب حول تطبيق الشريعة الإسلامي ص ١٠٢.

(٢) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ٧. وقد ناقش المؤلف حفظه الله تلك القضايا وأتى على الموضوع من جميع جوانبه كعادته دائمًا فيما يطرقه من موضوعات ، ولا أعلم حسب علمي كتابًا تناول تلك القضية الخطيرة. قضية الشريعة الإسلامية وإبطال شبه ومزاعم من يمانع في تطبيقها مثل كتاب «تطبيق الشريعة الإسلامية» للمؤلف حفظه الله.

حياة الناس بعد الثورة الصناعية وتقدم العلم وتشابك العلاقات البشرية وتعقدها ما لم يكن قائماً وقت نزول هذه الشريعة؟.

وإذا كان تطبيق الشريعة قد ظل ممكناً طيلة القرون العشرة التي تلت نزولها بسبب بطء التغيرات التي جدت في حياة الناس، وانحصارها في أمور ليست بعيدة الشبه بالأحوال التي نزلت فيها الشريعة، فهل تظل على الدرجة ذاتها من إمكان التطبيق بعد أن كادت تندثر الأحوال الأولى، ووجدت بعدها أحوال تكاد تكون مبتوتة الصلة بما كان من قبل؟! كذلك يفكر بعض الناس .. ولعل هذه هي أهم القضايا التي تثور في ذهن «المثقف» الغربي تجاه تطبيق الشريعة ..»[١].

ويرى الشيخ «محمد قطب» أن كثيراً من الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية ليست إلا من إفرازات الغزو الفكري، لتظل الأمة بعيدة عن العودة إلى الشريعة الربانية بعد أن أبعدها عنها الغزو الصليبي، وأن ما يتعلق من هذه الشبهات بعدم إمكان التطبيق هو مجرد عقبات مصطنعة ضخمت جداً لتصد حتى عن مجرد التفكير في تطبيق الشريعة، وكثيراً ما تكبر الأوهام في نفوس الناس حتى تصبح في وهمهم هي الحقيقة، ويصبح الحق هو الخاطر البعيد الذي يحتاج إلى جهد لتثبيته مكان الأوهام ، ومع ذلك فإنه ما كان لهذه الشبهات أن تثار، وما كان للغزو الفكري أن يتوغل في حياة الناس، لو أن الناس كانوا على فهم حقيقي للإسلام وممارسة حقيقية لمقتضيات الإيمان[٢].

وبالرغم من مطالبة كثير من الشعوب الإسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من البلاد إلا أن تلك المطالبة لا تنم عن وعي وإدراك في كثير من الأحيان بسبب المخلفات والآثار التي أفرزها الغزو الفكري.

لقد ظل الغزو الفكري دوماً عقبة كبرى في سبيل تطبيق الشريعة الإسلامية والعودة بها إلى ميادين الحياة كدستور يحكمها مرة أخرى.

وقد رافق خطوات التغريب العملية وتنحية الشريعة الإسلامية، واستيراد المبادئ والنظم التي تحدثنا عنها فيما سبق، غزو فكري وثقافي عنيف متواصل لا يكاد يهدأ أبداً. وجاء جيل غذي بلبان الغرب، ونشأ يهيم بعاداته وتقاليده، ويحاول ترسم خطواته ومحاكاته في كل شيء قد «فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة، حين عاشوا في البلاد الأوربية، أو نشأوا في مدارسها المنبثة في أنحاء

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ بشيء من التصرف.

الشرق ، واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد. فهم يعرفون عن تاريخ انكلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب ، وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر ما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي ، وهم يعرفون أعلام الفكر الأوربي وشعرائه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلا، وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبيات تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم. وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب بينما فترت الصلات الروحية والثقافية بينهم وبين الشرق والإسلام وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترن في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، وبتلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال. وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين.

يقول «كرومر» : إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي. فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني»[(١)].

كتب «عبد القادر حمزة» في سنة ١٩٠٤م مقالاً بعنوان «خطر علينا وعلى الدين»[(٢)] ينكر فيه على من يحاولون إقحام الدين في كل شيء ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوربا من قبل ، فكانت النتيجة وبالاً على المسيحيين[(٣)]. وسمى ذلك هوساً دينياً على حد تعبيره. ويقول : إن من أخطر الأشياء أن نستنجد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالي

(١) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٢٥٩.

(٢) المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ ـ ص ٢٤٠ وقد رد عليه رفيق العظم في عدد مايو سنة ١٩٠٤م بمقال يحمل العنوان نفسه «خطر علينا وعلى الدين» ، كما رد عليه محمد كردعلي في العدد نفسه بمقال عنوانه «الدين والعامة» كما ذكر ذلك د. محمد محمد حسين رحمه الله.

(٣) قياس الكاتب الدين الإسلامي المحفوظ الرباني على الدين الكنسي المحرف قياس باطل شرعًا وعقلاً وتاريخًا. انظر حول ذلك : مذاهب فكرية معاصرة. التمهيد الأول (الدين والكنيسة) والعلمانية الباب الثاني (أسباب العلمانية).

المضر[١]. ثم يختتم الكاتب مقاله مطالباً بأن يترك الدين بيننا في زيه الحقيقي ذلك الثوب الأبيض الطاهر، وأن لا تنفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً. ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها دون تقيد أو حجر على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين[٢].

ويمثل هذه المقالات التى تدعو صراحة إلى العلمانية وتنادي بعزل الدين كانت تمتلئ الصحف والمجلات في ذلك الزمن ، واتخذ من تحول الدين إلى رسوم وبدع وخرافات ذريعة للدعوة إلى عدم إقحامه في أمور الحياة ، وإبقائه في حدود الشعائر التعبدية.

ويصف الشيخ «محمد رشيد رضا» حزب المتفرنجين الذين انتشر الإلحاد بينهم بأنهم «يعتقدون أن الدين لا يتفق في هذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة. وهؤلاء كثيرون جداً في أوربة وفي المدارس التى تدرس فيها اللغات الأوربية والعلوم العصرية[٣]. ورأى أكثرهم أنه يجب أن تكون الحكومة غير دينية. وحزبهم قوي ومنظم في الترك[٤] ، وغير منظم في مصر وضعيف في مثل سورية والعراق والهند. ورأيه (أي رأي حزب المتفرنجين) أنه يجب إلغاء منصب الخلافة الإسلامية في الدولة[٥] ، وإضعاف الدين الإسلامي في الأمة ، واتخاذ جميع الوسائل لاستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بالرابطة الدينية الإسلامية»[٦].

لقد كان إلغاء الخلافة وتنحية الشريعة الإسلامية نتيجة طبيعية ومتوقعة لتفاقم الانحرافات الدينية والعقدية التى أتاحت المجال أمام حملات الغزو الفكري التى كانت تهدف لإلغاء الخلافة التى

---

(١) لقد كانت الأحوال الدينية والعقدية السيئة مدعاة لدعاة التغريب والعلمنة أن يهاجموا الدين من خلالها وأن يدخلوا ما شاءوا من أفكار وأنظمة لا دينية ، وكان الأولى بالكاتب وأمثاله الذين يأبون الرجوع إلى الدين في كل شيء بحجة ما صار إليه من عادات وتقاليد أن ينادوا بالرجوع إلى الدين الصحيح كما أنزل من عند الله، لا أن ينادوا بتحجيم دور الدين أو عزله جانباً ، ولكن ما تعلل به الكاتب وغيره ليس إلا ستاراً يقومون تحته بمهاجمة الدين ومحاولة إقصائه عن الحياة كلياً.

(٢) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٢٧٦ ـ ٢٧٩.

(٣) للأسف الشديد في تلك الفترة الحالكة المضطربة كانت العلوم العصرية قرينة الإلحاد ونبذ الدين ، وكان الجهل بها ومحاربتها قريناً للعلوم الدينية.

(٤) بسبب الماسونية ويهود الدونمة.

(٥) وقد تم لهم ما أرادوا ..

(٦) المصدر السابق ٢/٦٣.

كانت على علاتها لا تزال الرابطة الوحيدة بين المسلمين[١]، وإلى تنحية الشريعة الإسلامية في كل بلد. وما كانت تحدث خطوة في ذلك المضمار التغريبي إلا وتسبقها حملات الغزو الفكري تمهد لها الطريق، وتقودها دعايات التغريب والعلمنة. فمثلاً عندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغائها[٢].

وعندما ألغيت الخلافة العثمانية قام شيخ أزهري وقاض شرعي!؟ هو علي عبد الرازق بإخراج كتابه المشهور : (الإسلام وأصول الحكم). والكتاب كله يدور حول هدم فكرة الخلافة ، كنظام إسلامي في الحكم ، ليصل من ذلك إلى النتيجة التى ختم بها كتابه ، حين أنكر أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعًا من الدين في شيء ، ووصفها بأنها «خطط دنيوية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة». وقد حاول المؤلف أن يصل إلى هذه النتيجة من كل طريق[٣].

ثم يكشف المؤلف عن هويته التغريبية بقوله الذي ختم به كتابه وهو : «لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا به واستكانوا إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم»[٤].

وقد «جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات ، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد ، وسرد نبذًا من سير الطواغيت ونتفًا من أقوال متملقيهم ، وعمد إلى مغالطات عجيبة ـ كل ذلك ليدلل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لاصلة لها بواقع الحياة»[٥].

---

(١) وقد أحسن شوقي عند رثائه للخلافة بوصفه :

حسب أتى طول الليالي دونه ... قد طاح بين عشية وصباح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها ... كانت أبر علائق الأرواح

ديوان شوقي ١/١١٤.

(٢) الإتجاهات الوطنية المعاصرة في الأدب المعاصر ٢/٩٧.

(٣) المصدر السابق ٢/٨٧.

(٤) المصدر السابق ١/٩٥.

(٥) العلمانية ص ٥٨٢.

وقد كان لهذا الكتاب آثار بعيدة المدى ، فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعًا معتمدًا للدراسات الاسلامية هناك ، وقام بتقريظه والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب ، وظهرت آثاره في كتاباتهم وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالمًا متحررًا متنورًا ، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية...

ووجدت الأحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة ، فلم تعد تتحرج من إعلان انتمائها للإتجاهات السياسية اللادينية شرقيها وغربيها ، وبراءتها من الدين والمتدينين. أما الكتب التى ألفت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة [١].

وكانت قمة النجاح الذي حققته حملات الغزو الفكري المتواصلة هو اقتحام الأزهر ذلك المعهد العريق ، حيث أدخل القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها كلية الشريعة والقانون بموجب القانون المعروف بقانون تطوير الأزهر . وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بين الشريعة والقانون ، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائمًا أن تنبعث منها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة وإعادتها إلى التفرد والهيمنة على شئون الحياة[٢].

وهكذا نحيت شريعة الله من غالب البلاد الإسلامية ، وكان للغزو الفكري أثره العظيم في تلك التنحية ، وكان لا بد معها من استيراد للقوانين والمبادئ والنظم ، وتم ذلك كله «في ظل الخواء الروحي والتخلف العقدي من ناحية ، وفي ظل الغزو الفكري من ناحية أخرى ـ وقد تلازما في الحقيقة لارتباط الأخير بالأول ـ فقد انهارت الحواجز ولم يعد المسلمون يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من «البضاعة الحضارية» الموجودة عند الغرب»[٣].

لقد كان موقف المسلمين من الغرب وحضارته موقفًا مضطربًا اتصف بالذهول وعدم الوعي والتمييز بين ما عنده من منافع وأضرار. وكان الواجب اقتباس ما عنده من منافع ، وترك ما عنده من أضرار وفساد ، ولكن الذي حدث بالفعل كان غير ذلك ..

«فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها ولكن بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات .. وأما الفساد فقد سارعوا إليه فاستوعبوه كله ، وعبوا منه عبًا كأنما هو «الزاد».

---

(١) المصدر السابق ص ٥٨٣.

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ١٣٢ للدكتور عبد الستار فتح الله. دار الأنصار ، القاهرة.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢٤٣.

وأما النظم فقد سعوا إلى استيرادها وتقليدها ضاربين صفحاً تماماً عما أنزل الله»[(١)].

لقد كانت الشريعة الإسلامية الهدف الأول الذي صوبت إليه حملات الغزو الفكري سهامها ، وقد نجحت تلك الحملات في تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال القوانين الوضعية والنظم الغربية بديلاً عنها.

ولم تكف هذه الحملات عن السخرية بأحكام الشريعة والاستهزاء بمبادئها ، حكماً حكماً ومبدأً مبدأً ، فهاجموا الحدود واعتبروا تنفيذها همجية ووحشية ، وهاجموا الحجاب واعتبروه تخلفاً ورجعية وهاجموا قعود المرأة في بيتها واعتبروه كبتاً وحرماناً وتعطيلاً لنصف المجتمع، وهاجموا تعدد الزوجات وعدوه امتهاناً لكرامة المرأة وإطلاقاً لشهوانية الرجل على حسابها ، وهاجموا قوامة الرجل واعتبروها تحدياً صارخاً لما ينادون إليه من مساواة، وهاجموا أحكام الميراث وقالوا عنها إنها غير عادلة ، وهاجموا تحريم الربا واعتبروه عائقاً في سبيل الاقتصاد العالمي ومخالفاً له ، ولم يكد يسلم أي حكم من ذلك الهجوم الضاري الذي يؤدي إلى تنفير الناس من تلك الأحكام ، ومعارضتها دائماً ، والوقوف في وجه من يدعو إليها أو يحاول إظهار محاسنها.

وإذا كانت قضية «تنحية الشريعة الإسلامية» هي القضية الأولى التي أجلب عليها دعاة الغزو الفكري بخيلهم ورجلهم ، فإن قضية ما سمي بـ «تحرير المرأة» تعد المرتبة الثانية بين القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري ، وقد تحدثنا عن تلك القضية بشيء من الإسهاب عند كلامنا عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي. ولكننا نومئ هنا إيماءة سريعة حول هذه القضية التي شغلت وما زالت تشغل الفكر الإسلامي في هذا العصر[(٢)].

فقد عرفنا عند حديثنا عن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية أن الضعف أصابها ، وأنها استحالت إلى تقاليد خاوية ، وعادات رتيبة يحافظ عليها الناس لأنهم توارثوها عن أسلافهم ، وكانت في كثير من الأحيان تخالف ويخرج عنها ، كما درج بعض المؤرخين على ذكر بعض مظاهر الفساد والاختلاط التي كانت تحدث في المجتمع الإسلامي ، كتلك التي كانت تحدث في احتفالات الموالد وغيرها. ومع خطورة تلك المخالفات كانت في أضيق نطاق ، ولكن البذرة الأولى بذرت زمن الحملة الفرنسية عندما أتى «نابليون بنابرت» معه بجمع من البغايا المتبذلات يخالطن الرجال بكل خلاعة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٤.

(٢) نعني بالفكر الإسلامي هنا : الفكر الذي يدور في البلاد الإسلامية بقطع النظر عن اتجاهاته وأهدافه.

ومجون ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، وكيف أن بعض نساء المسلمين خصوصاً بعض بنات الأكابر قد خلعن جلباب الحياء والعفة ، ونزلن لمشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم ومهرجاناتهم وتبذلاتهم، ومع غضب المسلمين من ذلك التحدي السافر الذي قام به بعض نسائهم ، وإصدارهم حكماً بقتلهن ، وتنفيذهم للحكم حال مغادرة الفرنسيين[١]. إلا أن تلك البذرة التى ألقيت لأول مرة في الأرض الإسلامية قد ظلت دفينة فيها ، ولم تنبت إلا بعد حين من الدهر[٢]. ثم جاء بعد ذلك أحد المبتعثين إلى الخارج هو الشيخ (رفاعة رافع الطهطاوي) المتوفي سنة ١٨٧٣م) الذي مكث في باريس من عام ١٨٢٦م-١٨٣١م ورافق البعثة كواعظ وإمام لها[٣]. ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار «باريز» ودعا فيه إلى تحرير المرأة أي إلى السفور والاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس ، فقال : إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم»[٤] . وقال أيضاً : إن السفور والاختلاط ليس داعياً إلى الفساد. ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التى يتعاطاها الرجل[٥].

«وكانت دعوة جريئة من «رفاعة» لم يجد لها معارضاً خاصة وأن حاكم البلاد ، قد بارك دعوته ، وبارك أول كتاب وضعه «رفاعة» وهو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» يبرز فيه تقدم الغرب ، وحسن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ «محمد علي» الكتاب قبل نشره - بناء على تزكية له من الشيخ «حسن العطار» شيخ الأزهر - فأمر بطبعه وأصدر أمره بقراءته في قصوره وتوزيعه على الدواوين ، والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية ، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية»[٦].

---

(١) انظر : مبحث الضعف الأخلاقي والاجتماعي ص

(٢) اعتبر النصراني الحاقد لويس عوض أن ما حدث أيام الفرنسيين هو بداية تحرير المرأة المصرية. انظر عودة الحجاب ٨٧/١.

(٣) هذه البعثة هي أول بعثة أرسلها محمد علي باشا إلى الخارج. وارساله اماماً وواعظاً لها ليس أكثر من ذر للرماد في العيون.

(٤) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩.

(٥) عودة الحجاب ٢٦/١.

(٦) المؤمراة على المرأة المسلمة ص٣٨ نقلاً من عودة الحجاب ٢٧/١ ويرى بعض الباحثين أن الشيخ «حسن العطار» بعد فراره إلى الصعيد إثر دخول الحملة الفرنسية قد عاد إلى القاهرة ، ونجح الفرنسيون في ضمه إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر عام ١٨٠٠م وتولى تعليمهم اللغة العربية ، ونقل عنهم علومهم وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم ، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم حتى وصف العطار بأنه من دعاة التجديد ، وقد توثقت صلة الشيخ «العطار بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التى يعتمد عليها محمد على في خطواته التجديدية في مصر .انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص١٦٩ .

«ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية في مصر إلى هذه الدعوة الطهطاوية في حينها فقد كانت بقية الإسلام في نفوس المسلمين ، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة ، تبلغان من القوة إلى الحد الذي يجعل مثل تلك الدعوة في ذلك الوقت مثاراً للسخرية ومثاراً للاستنكار الشديد ...

ولكن رأس الحربة كان يشير إلى الاتجاه .. «الاتجاه إلى التغريب»[١].

وبعد هلاك رفاعة الطهطاوي بحوالي ربع قرن جاء من يسمونه بمحرر المرأة قاسم أمين فألف كتابه : «تحرير المرأة» زعم فيه أن حجاب المرأة ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده[٢].

وقد لقي هذا الكتاب معارضة شديدة ، فما لبث مؤلفه أن أسفر عن وجهه الحقيقي ، وخلع عنه ثوب الحياء ، وقناع التدين ، وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً ، فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة ، التى ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة [٣].

والمرأة الجديدة التى قصدها «قاسم أمين» هي المرأة الأوربية ، وهاجم القوامة التى شرعها الله للرجل وأسماها «حق ملكية الرجال للنساء» ودعا إلى ترك حرية النساء للنساء حتى ولو أدى الأمر إلى «إلغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام ولا يحددها قانون[٤].

ثم يميط اللثام عن وجهه التغريبي ، ويبسط آراء الغزو الفكري التى اعتنقها فيقول : «نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى». ثم يقول : «والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعًا لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التدني والتقهقر .. هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ...»[٥].

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩.
(٢) عودة الحجاب ٤٠/١.
(٣) المصدر السابق ٦٢/١.
(٤) المصدر السابق ٦٣/١.
(٥) المصدر السابق ٦٧/١ وقد ساند قاسم أمين في دعوته المشبوهة الزعيم المصري «سعد زغلول».

وما دعا إليه «قاسم أمين» هو بعينه ما دعى إليه «رفاعة الطهطاوي» من قبل منذ عودته من فرنسا .. «مع فارق رئيسي .. لا في الدعوة ذاتها ولكن في المدعوين! فإن أكثر من نصف قرن من الغزو الفكري المستمر كانت قد فعلت فعلها في نفوس الناس ، فلم تقابل دعوة «قاسم أمين» بالاستنكار البات الذي قوبلت به دعوة «رفاعة الطهطاوي» ، ولم توءد في مهدها كما وئدت الدعوة الأخرى من قبل»[١].

وهكذا استطاع «قاسم أمين» أن يصنع للمرأة المسلمة في مصر قضية، ولم يكن باستطاعته أن يصنع ذلك لولا ما كانت تمر به الأمة الإسلامية من انحرافات دينية وعقدية وما كانت تعيشه من تخلف وانحطاط.

«أما في مصر - أو في العالم الإسلامي - فلم تكن للمرأة قضية خاصة! إنما كانت القضية الحقيقية هي انحراف هذا المجتمع عن حقيقة الإسلام ، مما سميناه «التخلف العقدي» وما نتج عن هذا التخلف العقدي من تخلف في جميع مجالات الحياة. وما تحقير المرأة وإهانتها وعدم إعطائها وضعها الإنساني الكريم إلا مجال من المجالات التي وقع فيها التخلف عن الصورة الحقيقية للإسلام. وعلاجها - كعلاج غيرها من الحالات جميعاً - هو العودة إلى تلك الصورة الحقيقية ، والتخلي عن ذلك التخلف المعيب ..»[٢].

«والآن وقد صار للمرأة» قضية ، فلا بد للقضية من تحريك.

وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن «هدى شعراوي» ، وفريق من الرجال المدافعين عن حقوق المرأة. وأصبح الحق الأول الذي تطالب به النسوة هو السفور ...»[٣].

ثم طولب بالتعليم بدءاً بالتعليم الإبتدائي حتى الجامعي ثم طولب بخروجها إلى ميدان العمل وقد تمت هذه الخطوات ببطء ، واستغرقت زمنًا يكفي لخلخلة عادات قديمة وزعزعة تقاليد عتيقة [٤]، ولعبت الصحافة دوراً خبيثًا في الدعوة إلى السفور والتبرج والاختلاط ودأبت على إشاعة الرذيلة والفاحشة واستماتت في محاربة الفضيلة والعفة والحياء.

«وقد بدأت صحافة المرأة في صورتها الأولى في مجلة «روز اليوسف» حيث حرصت هذه المجلة في سنواتها الأولى تحت اسم الفن وأهله على تمييع الخلق الإسلامي وتذويب الشخصية الإسلامية

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٥٣ وهناك فارق شكلي هو صراحة قاسم أمين وجرأته في المجاهرة بأقواله وآرائه.

(٢) المصدر السابق ص٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤.

(٤) انظر موضوع «تحرير المرأة» من كتاب «واقعنا المعاصر» فهو من أفضل ما كتب في هذا الأمر.

وضرب القيم الإسلامية عن طريق تقديم قصص مكشوفة من ناحية ، والبحث عن أسرار البيوتات الكبرى ، والإفاضة في الحديث عن الساهرات والراقصات وعن فنون الغواية حتى بدا أن هذه هي صورة المجتمع الطبيعية ، وكان لهذا كله أثره الخطير على تفكير المرأة العربية المسلمة ووجدانها»[١] وساعدت وسائل الإعلام الأخرى في نشر تلك الدعاوي المحمومة على اختلافها من إذاعة وتلفاز وسينما ومسرح ، وراجت سوق الأفلام الخليعة والمسلسلات الهابطة ، وصارت هي المادة الثقافية المفتوحة التى يتناولها الجميع كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، ومن خلالها يدس السم الزعاف والداء القاتل ، فإذا فسدت المرأة فقد فسد المجتمع كما قالت المنصرة «أنا ميلجان» : « ليس هناك طريق أقصر لهدم الإسلام من إبعاد المرأة المسلمة عن الإسلام» [٢].

يقول الأستاذ : «إيهاب الأزهري» في لقاء أجري معه في مجلة المسلمون : لقد حاول المخطط الصهيوني أن يصل إلينا ، ويطعن إيماننا في العمق ، وقد نجح في المحاولة حيث عرض التليفزيون المصري فيلماً أمريكياً عندما تشاهده تجد أن العقل الواعي يدرك من اللحظة الأولى أن هناك شيئاً يدبر في الخفاء من خلال الفيلم ، فبطل الفيلم يطلب الزواج من المرأة التى أحبها وهي ترفض قائلة بعبارة واحدة : لا ، لماذا تفسد علاقة الحب السعيد بالزواج؟ وهذه الجملة تحمل من الخطورة ما لا يمكن أن يقدره المسؤولون عن تقييم برامج العرض والرقابة ، لأنها تفسد القيم والمبادئ الإسلامية»[٣].

وهذا مثال واحد من مئات بل من ألوف من ألوان الأمثلة على تمرس وسائل الإعلام في عرض كل ما من شأنه أن يهدم الأخلاق والفضائل ، ويغرس في النفوس الفوضى والانحلال[٤].

إذا أضفنا إلى ذلك الحركة الاستشراقية باعتبارها من أخطر مجالات الغزو الفكري التى ازداد نشاطها في القرن التاسع عشر، إذ بلغ ما ألفه المستشرقون في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب[٥].

---

(١) الصحافة والأقلام المسمومة ص ٣٢ أنور الجندي. دار الاعتصام القاهرة. وينصح بقراءة هذا الكتاب الذي رصد الصحافة العربية ودورها في تدمير الأخلاق والفضائل وتكريس الرذائل وإشاعة الفواحش في المجتمعات الإسلامية.

(٢) حقائق ووثائق. دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي ص ٩٣ د. عبد الودود شلبي. الدار السعودية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٣) المسلمون ص٢٣ عدد ٣٢ ، سنة ١٤٠٦ هـ . نقلاً عن : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٧٣.

(٤) انظر دور وسائل الإعلام في الغزو الفكري ص ٢٣٥ وما بعدها في «واقعنا المعاصر».

(٥) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٨. الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

وقد دأب المستشرقون دائمًا على حرب الإسلام وتشويه صورته ، ويمكننا أن نلخص أهم الأهداف التى سعوا إلى تحقيقها :

١ ـ الطعن في حقيقة الإسلام وحقيقة القرآن والنبوة.

٢ ـ القول بأن الإسلام استنفد أغراضه.

٣ ـ القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق فلا دخل له بأمور الحكم والحياة.

٤ ـ القول بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني.

٥ ـ الادعاء بأن الشريعة الاسلامية لا تتلائم مع الحضارة.

٦ ـ الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها وأساليبها.

٧ ـ إثارة ما يسمى «قضية تحرير المرأة».

٨ ـ تهوين شأن الحضارة الإسلامية وتشويه تاريخها.

٩ ـ بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها.

١٠ ـ نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها.

١١ ـ وضع منهج لاديني للبحث العلمي ولو لم يكن من ثمرة جهودهم إلا ذلك لكفى ، فإن جامعات العالم الإسلامي المعاصرة تدرس التراث الإسلامي وفق ذلك المنهج الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما[(١)].

ويقول الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله : ولست أبالغ ولا أدعي غير الحق حين أقول : إن هذه الروح اللادينية مع شديد الأسف ـ قد أصبحت هي التي تسود دراسات التاريخ الإسلامي في أكثر جامعاتنا . وذلك شيء يلمسه كل من تخرج في كليات الآداب أو اتصل بها عن قريب[(٢)].

وتكمن خطورة الاستشراق في تلقف جمهرة من المنتسبين إلى الإسلام لأفكاره وآرائه ، واعتناقهم لها ، وتثقفهم بها ، ونشرها بين المسلمين . إن ترجمة الكتب الاستشراقية ، وتعمد نشرها في أوساط البيئة الإسلامية تعد خيانة للفكر الإسلامي ، قام بها مجموعة من المنهزمين نفسيًا ، وروجوا لما يقومون به من خدمة للمستشرقين ومؤلفاتهم[(٣)].

---

(١) العلمانية ص ٥٤٤ ـ ٥٥٠.　　(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٥٣.

(٣) يرى الدكتور محمد البهي أن الاستشراق لون من ألوان التبشير. الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٢٥. ولكننا رأينا إدخاله هنا لأنه ألصق بالغزو الفكري .

وقد نعى الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله على اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية التى كان يرأسها الدكتور طه حسين في حينه[١] قيامها بترجمة عدد من الكتب الأوربية والأمريكية إلى العربية، وإنفاق العرب الأموال الطائلة على تلك الترجمات[٢]، التى تلعن أجدادهم وتسب أسلافهم ، وتسفه دينهم ، وتفتري على نبيهم[٣].

وضرب على ذلك مثلاً بكتابين تولت ترجمتهما اللجنة المذكورة هما (مختارات من إمرسون) و (قصة الحضارة) لول ديورانت فالكتابان يثنيان على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً ، بينما يتعمدان الكيد للإسلام والمسيحية، فإمرسون يهدم الدين والتدين من جذوره تحت ستار الدعوة إلى الحرية وإلى استقلال الشخصية ، وأما ول ديورانت فهو يهدمه عن طريق تجريح الرسل الأطهار وإثارة الغبار حول سيرهم ، على أن الكتابين كليهما يشتركان في هدم النبوات وإنزال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى مرتبة الفلاسفة والكتاب المصلحين[٤].

وينفرد «ول ديورانت» بالطعن في شخصية الرسول ﷺ بعد أن مهد لذلك بكلمات تدل على إعجابه بها كقوله : « وكان محمد ، كما كان كل داع في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم » .

ولكنه قاتله الله لا يروي عن النبي ﷺ في كتابه هذا إلا الغرائب التى يخلعها من سياقها وظروفها[٥] حتى تبدو لغير الخبير بالتاريخ الإسلامي في صورة تثير السخط وتدعو إلى الاشمئزاز ، كالذي يصف المجرم وهو يساق إلى القتل ويعلق في الحبل ، ويخفي ما اجترح من مفاسد وما أزهق من أرواح بريئة، تجد ذلك في مثل كلامه عن قتله ﷺ امرأة ، وعن قتله شيخاً ناهز المائة لأنهم هجواه وهو يسوق ذلك في أسلوب هادئ رزين كأنه يسوق خبراً من الأخبار العادية دون أن يعلق عليه أو يحتفل به ، فلا يكاد القارئ المسلم يتنبه إلى غرضه الخبيث الذي هو في حقيقة الأمر التشنيع بالنبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) كان ذلك في السبعينيات من القرن الرابع عشر الهجري.

(٢) وقد فاقت تلك الترجمة خبثًا ما وقع في عصر المأمون العباسي من ترجمة. إذ أن الكتب المترجمة في الفترة الأولى مع ما كان فيها من كفر وضلال قد ألفت قبل ظهور الإسلام في الغالب ، أما ما ترجم في الفترة التي نحن بصددها فهو كله دس وطعن ألف لهدم الإسلام والقضاء عليه.

(٣) حصوننا مهددة من داخلها ص١٤١.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

(٥) على طريقة من يقف على قوله تعالى : { فويل للمصلين .. } او على قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة .. }.

ومثل قوله أيضاً : (وضمت صفية ـ وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة ـ إلى نساء النبي » . فمثل هذه الألغام التي يدسها الرجل في ثنايا سطوره تترك أسوأ الأثر في نفوس القراء من الغربيين ومن ضعاف الإيمان من المسلمين ، والمنتحلين منهم للحضارة الغربية المتخلقين بها خاصة. شيخ جاوز الخمسين يتزوج فتاة في السابعة عشرة ! وليس هذا فحسب ، بل إنها كانت مخطوبة لرجل يهودي من بني جنسها فأضافها إلى نسائه العديدات! هل هذا تاريخ؟ أم إنه تشنيع في أخطر صوره ، لأن صاحبه يتصنع الهدوء ويتظاهر بالاتزان والانصاف ، ويخدع الناس بمثل كلامه عن براعة النبي في القيادة وفي شؤون الحكم وفي التنظيم الاجتماعي.

ومن أمثلة هذا الأسلوب الخبيث وصفه النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه كان : (يعنى بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت. فكان يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويلبس خاتماً نقش عليه «محمد رسول الله» وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل، وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهة ولا صلصلة الأجراس والأصوات العالية وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث» . فهذا الأسلوب المسموم في التصوير إنما يريد أن يصور النبي ﷺ في صورة المتصابي وفي صورة العصبي المزاج ، المريض الأعصاب ، المصاب بالصرع»[١].

والمصيبة أن يأتي مترجم هذا الجزء من الكتاب وهو «محمد بدران» فيقول إن المؤلف قد (أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها)[٢].

إن هؤلاء المستشرقين الذين تولى تلامذتهم من المنتسبين إلى الإسلام نشر أفكارهم ونصر آراءهم لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا هؤلاء التلامذة.

فعلي عبد الرزاق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» كان عالة في كتابه على مؤلفات المستشرقين فهو يعتمد على المستشرق «سير توماس آرنولد» فيما يزعم من أنه ليس هناك سند قرآني لما ذهب إليه الفقهاء من ضرورة إقامة الخلافة. ويحيل إليه المؤلف كذلك عند تشنيعه بالخلفاء في كل العصور الإسلامية ، وتصويرهم في صورة أشبه بصورة القراصنة الذين يستحلون كل شيء في سبيل المال والجاه والسلطان[٣].

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٣.

(٣) الاتجاهات الوطنية ٢/٨٥.

وقد أثبت الدكتور «ضياء الدين الريس» أن الكتاب في الحقيقة لمستشرق يهودي هو مرجليوث ، ومعلوم أن علي عبد الرزاق ذهب إلى بريطانيا وأقام فيها عامين ، فلابد أنه كان متصلاً بهذه المستشرق أو تتلمذ عليه[١].

وكذلك طه حسين فقد كانت دعوته للعامية وآراؤه في الشعر الجاهلي صدى واضحاً لكتابات المستشرقين[٢]. وقد تأثر هو و«أحمد أمين» على الأخص بالمستشرق الإنجليزي د. س مرجليوث ويعتبران من تلامذة مدرسته[٣].

يقول الأستاذ أنور الجندي عن «طه حسين» :

«يكاد طه حسين في كل أعماله أن يكون خاضعاً للاستشراق ، متأثراً به ، تابعاً له، معلياً من قدره متحدثاً عن فضله على الأدب العربي ، والفكر الإسلامي ، فكتابه في الشعر الجاهلي أخذ نظريته من مرجليوث ، ورأيه في كتابه (مع المتنبي) أخذ نظريته من تين ، «وبرودبينر» ، وبحثه عن ابن خلدون أخذه من دوركايم ، واتجاهه في حديث الأربعاء أخذه من «سانت بيف»... وتابع (كازانوفا) ، عن مفهومه للقرآن الكريم وتفسيره له ، وهو يرى أنه من عند محمد ﷺ لا من عند الله .. وقد صور علاقته مع المستشرق «كازانوفا» الذي علمه تفسير القرآن بقوله :

«عرفته أستاذاً في الكوليج دي فرانس ، ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجاباً لم أعرف له حداً ، فلم أكد أجلس إليه حتى تغير رأيي ، أو قل حتى ذهب رأيي كله ، وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن ، وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته ، وأصحاب الحق في تأويله»[٤].

إن خطر الاستشراق يرجع بالدرجة الأولى إلى تلامذة المستشرقين من أبناء المسلمين الذين أفنوا أعمارهم ، وصرفوا طاقاتهم في نشر أفكاره وآرائه ، وتبني منهجه الخبيث في معالجة القضايا والمشكلات ، وقد ساد هذا المنهج على غالبية المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية ، وحورب المنهج الإسلامي الأصيل من خلاله حرباً شعواء ، وضيق الخناق على أصحابه ، ولم يفسح لهم المجال إلا نادراً؛ لأن الذين يملكون أزمة الأمور هم في الغالب خريجو المدارس

---

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٨٠.

(٢) العلمانية ص ٦٠٦.

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٧.

(٤) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٧٨.

الاستشراقية وتلامذة المستشرقين الأوفياء وبقيادة هؤلاء (المستشرقين العرب!!) تعثرت خطوات الأجيال المسلمة ، وانحرفت عن جادة الطريق ، وتردت في أودية الانحلال والضياع.

«ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة .. ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين. واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي في دمشق والمجمع العلمي في بغداد[١].

وفي الحقيقة أن هؤلاء المستشرقين لم يتسللوا إلى هذه المجامع العلمية في غفلة من أهلها ، بل لقد دعوا إليها من قبل القائمين عليها ، ورغبوا في الإشتراك فيها ، ولا غرابة في اشتراك هؤلاء المستشرقين في تلك المجامع التي أسست في ظل شعارات القومية والوطنية ، وأضحت مسرحاً لكثير من اليهود والنصارى الذين نسب إليهم زوراً خدمة اللغة العربية وآدابها.

ومما يؤسف له حقاً أن يوصف بعض المستشرقين بأنهم منصفون ومحايدون، وملتزمون بالموضوعية وبأصول البحث العلمي. ويزداد الأمر حين تعمد «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة»[٢] التي يفترض فيها تحري الدقة والصواب عند حديثها عن الاستشراق ، فتصنف المستشرقين إلى ثلاثة أصناف : متعصبين ومعتدلين ومنصفين ، ولا أدري أي أساس بنت عليه «الموسوعة» هذا التصنيف الذي يهوي سريعاً عند أول تفتيش وبحث في مؤلفات هؤلاء المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والإنصاف!.

ونشير بمثالين على من وصفوا في تلك الموسوعة بأنهم منصفون لنرى بطلان تلك الدعوى التي تلبس على القارئ ، وتزيف الحقائق.

فالمثال الأول هو المستشرق الهولندي «هادريان ريلاند» المتوفى سنة ١٧١٨م» ذكرته الموسوعة في رأس قائمة المنصفين وقالت عنه : «أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترشت بهولندا ، له «الديانة المحمدية» في جزأين باللغة اللاتينية (١٧٠٥م) لكن الكنيسة في أوربا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها»[٣].

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٣٦.

(٢) ذكرنا هذه الموسوعة بالذات لأنها الموسوعة الإسلامية الوحيدة في الساحة حسب علمي، التي تتحدث عن الفرق والمذاهب المعاصرة ، ولم تتعرض لغيرها من الموسوعات ودوائر المعارف التي وضعت غالباً للنيل من الإسلام ومحاولة تشويهه.

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٤.

ويبدو أن تصرف الكنيسة مع «هادريان ريلاند» في تحريمها تداول كتابه كان من الأسباب التي أغرت الموسوعة باعتباره من المستشرقين المنصفين كما يفهم من عبارتها.

وليس ذلك مبرراً في نظرنا إلى ما ذهبت إليه الموسوعة، خصوصاً إذا علمنا تاريخ الكنيسة الأسود الذي اتسم بالجنون والتهور في محاربة كل ما يمت إلى العلم بصلة.

يقول «ريلاند» في كتابه «الديانة المحمدية»: «صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء وضار بالمسيحية إلى حد بعيد، ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغي للمرء أن يكشف أعماق الشيطان وحيله؟ إن الأحرى أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً!! وأشد قوة»[1].

وتسميته للإسلام بالديانة المحمدية توحي بأن الدين ليس من عند الله، وإنما من عند محمد ﷺ كما هو مذهب جمهور المستشرقين. فكيف يوصف بعد كل هذا الخبث والمكر والحقد بالإنصاف؟!.

وأما المثال الثاني فهو المستشرق الفرنسي «جوستاف لوبون» حيث اعتبرته الموسوعة الميسرة من المستشرقين المنصفين وقالت عنه: «مستشرق وفيلسوف مادي، لا يؤمن بالأديان مطلقاً!!، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره»[2].

ولا نجد تعليقاً أفضل مما قاله الدكتور «أحمد غراب» في كتابه «رؤية اسلامية للاستشراق» حيث قال: «ولا أدري كيف يكون الملحد منصفاً للإسلام؟! أو منصفاً على الإطلاق؟! كيف لمن ينكر وجود الله، ويجحد آياته في الكون، ورسالاته إلى البشر، أن يكون منصفاً؟! كيف لمن يتخبط في ظلمات المادية أن يرى نور الإسلام حتى ينصفه؟!»[3].

ومع أن كتابه «حضارة العرب» كان من أهم الكتب التي قررت «الموسوعة الميسرة» من أجله أن تجعله منصفاً للحضارة الإسلامية، فإن عنوانه يحمل سمة الدس والجور، وليس الإنصاف. «والسؤال الذي يلح على الباحث المسلم هو: لماذا لم يجعل المستشرق «المنصف» عنوان كتابه: «حضارة الإسلام» أو «الحضارة الإسلامية»؟!

---

(١) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٠٥ د. أحمد عبد الحميد غراب. المنتدى الإسلامي. لندن. الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ٣٥.

(٣) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٢٧.

والجواب هو أن المستشرق يقصد من تأليف كتابه - كما يتضح من عنوانه وموضوعاته - إلى أهداف معينة مترابطة ، تلتقي كلها حول عدم إنصاف الإسلام ، وأهمها ثلاثة أهداف:

الهدف الأول : إنكار أن الإسلام رسالة عالمية ، أو حضارة عالمية ، فالإسلام - في زعمه - دين العرب ، وحضارته حضارة العرب ، بل وشريعته مختارة من نظم العرب في الجاهلية!

الهدف الثاني : إنكار أن العامل الأول في قيام الحضارة الإسلامية وتأثيرها في العالم هو الإسلام نفسه ، والزعم بأن العامل الأول في قيامها وتأثيرها هو عامل العرق أو الجنس : أي جنس العرب.

الهدف الثالث : تشجيع النزعة القومية عند العرب ، لتوسيع هوة الفرقة بين المسلمين ، وهدم ما تبقى من وحدة الأمة الإسلامية»(١).

«أما عن الشريعة الإسلامية فيزعم المستشرق أن الرسول ﷺ قد اختار قوانينها من نظم العرب في الجاهلية. يقول : «عرف (محمد ﷺ) كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها فدعمها بنفوذه الديني العظيم»(٢).

«وينكر المستشرق أن يكون للإسلام أو القرآن تأثير على العرب في إنجازاتهم العلمية والفلسفية فيقول : «لم يكن للإسلام - ديانة - تأثير في آثار العرب العلمية والفلسفية»(٣) . ويقول عن القرآن الكريم : «وهذا الكتاب المقدس قليل الإرتباط! ، مع أنه أنزل وحياً من الله على محمد ، وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً خال من الترتيب فاقد السياق كثيراً !!»(٤).

ويقول عن الرسول ﷺ : «ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح (؟!! ، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك ، فأولو الهوس وحدهم ، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الناس».

ولا عجب كما يقول الدكتور أحمد غراب من مستشرق كافر أن يفترى الجنون على رسل الله أو معظمهم ، صلوات الله عليهم جميعاً ، تلك الفرية التي طالما رددها المشركون والمستشرقون قبله وبعده، ولكن العجب أن يوصف هذا المستشرق بالإنصاف!(٥)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٦.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٧.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٨.

وإذا كان كل هذا الإفتراء والدس والإفك مع من اعتبرتهم «الموسوعة الميسرة» منصفين ، فكيف بمن اعتبرتهم معتدلين ، لا ريب أنهم أكثر خبثًا وافتراء ودسًا .

وقد أسهبنا في هذه القضية الخطيرة لأن كثيراً من الباحثين والمثقفين درجوا على ما أنتهجته «الموسوعة الميسرة» من تصنيف المستشرقين إلى متعصبين ومنصفين وأحيانًا معتدلين ، ووصف كثير منهم بالإنصاف والعدل نتيجة لتلك القسمة الظالمة.

وفي اعتقادي إن وصف المستشرقين بالإنصاف مظهر من مظاهر الانخداع الساذج بهذا اللون الخطير من الغزو الفكري ، وجهل بأسلوب ماكر قديم سلكه أجداد هؤلاء المستشرقين الذين فاقوا أجدادهم ضراوة وحقداً .

وقد أفصح الله عز وجل عن هذا الأسلوب الخبيث الماكر في كتابه الكريم عند حديثه عن مقاومة الكافرين من أهل الكتاب للإسلام في المدينة فقال سبحانه : { وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم } [٧٢-٧٣ آل عمران] وذلك حين يقوم من المستشرقين من وصفوا بالإنصاف والموضوعية والحياد بإظهار مدح الإسلام ، ثم يعمدون إلى دس السم في ثنايا مدحهم ، ويختموا مدحهم وإطرائهم بنقيصة يلصقونها به فيتحول المدح ذماً ، والإطراء عيباً ، فيصاب القارئ بالإحباط والخيبة والمرارة ، ويتساءل عن السبب الذي جعلهم يرتدون عن إعجابهم ومدحهم ، فيحدث في فكره بلبلة واضطراب ، ويقع من جراء ذلك الأسلوب الحقير في فتنة ، قد يرتد بسببها عن الدين ، وهو ما سعى إليه الماكرون. (لعلهم يرجعون ..) .

وإن الباحث بعد كل هذا ليخرج بنتيجة هامة حول موضوع الاستشراق ، وهي أن الاستشراق يعتبر أخطر الوسائل التي نفذ من خلالها الغزو الفكري إلى الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي التي تهيمن على المؤسسات التعليمية والثقافية وأن الفكر الاستشراقي هو المحور الضخم الذي تدور عليه عجلة الغزو الفكري في البلاد الإسلامية ، وما لم يتم كسر ذلك المحور والقضاء عليه ، فلن يمكن أبداً إيقاف تلك العجلة بحال من الأحوال.

وهكذا بان لنا أن الغزو الفكري كان من أخطر الآثار التي ترتبت على سوء الأحوال الدينية والعقدية كما رأينا.

فما كان للغزو الفكري أن يعمل في الأمة عمله ، لو كانت عقيدة الأمة راسخة سالمة من

الانحراف ، وكانت عقيدة الولاء والبراء حية في النفوس ، تحجز سهام الأعداء ورماحهم. ولكن حين ذابت هذه العقيدة وزالت معالمها ، فقد أصبحت الأمة مكشوفة لأعدائها يصوبون إليها حرابهم من كل جانب. حتى استطاعوا أن يخرجوا منها أجيالاً ممسوخة تنفر من الإسلام ، وتهرول إلى أعدائه في كل شؤونها ، ويصبح المتمسكون به وسط هذه الأجيال غريبين منبوذين .

* * *

المبحث الثالث: النشاط التنصيري في العالم الإسلامي

لقد أغرى الضعف الذي كان يعيشه العالم الإسلامي الغرب النصراني الذي كان في أوج قوته وقمة حضارته أن يسلك إلى جانب الغزو العسكري، والفتوحات الحربية طريقًا آخر لا يقل خطورة عن الأول هو طريق التنصير ، والتنصير والاستعمار توأمان متلازمان. فكل واحد يمهد للآخر ، ويزيل عن طريقه العوائق . ويستفيد منه(١). وبهما يتمكن الغرب من فرض سيطرته على العالم الإسلامي. كما أن التنصير يستخدم الغزو الفكري لتنفيذ أغراضه.

لقد أدرك النصارى منذ أول وهلة ظهر فيها الإسلام خطورة ذلك الدين الجديد على عقيدتهم المحرفة ودياناتهم البالية ، وضاقت صدورهم بالتقدم السريع الذي كانت تحققه الجيوش الإسلامية في مستعمراتهم وممتلكاتهم، ولكن الذي أزعجهم كثيراً وأقض مضاجعهم ليس هو فتح البلدان والأقاليم، وإزالة الحكم النصراني بقدر ما كان هو فتح القلوب والعقول ، ودخول الناس أفواجًا في الإسلام (٢). وارتعب أهل الصليب من ذلك رعبًا شديداً، وحنقوا على المسلمين حنقًا عظيمًا ودقوا نواقيس الخطر ، وتصايح الرهبان والقسس بأن دين المسيح أضحى في خطر، وسيقت الحملات الصليبية، يدفعها حب الانتقام ، ويقودها الحقد والبغضاء ، وتحدو لها الوحشية والإجرام ، وتكسر هذه الحملات رغم شراستها وفظاعتها حملة حملة. ويرتد الصليب عن ديار الإسلام خاسئًا وهو حسير، والإسلام ينتشر في الأرض ، والمسلمون يزداد عددهم وتعظم قوتهم . عند ذلك أدرك رجال الدين النصراني أن المجابهة العسكرية لم تعد تجدي شيئًا . بعد أن تكسرت حملاتهم تحت صخرة الإسلام ، وفشلت في تحقيق أهدافها. لذلك عدلوا عنها إلى محاولة تذويبها وتفتيتها رويداً رويداً (٣).

---

(١) راجع مبحث الاستعمار في هذه الرسالة ص

(٢) يقول المستشرق الألماني بيكر بأن هناك عداء من النصرانية ضد الإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعًا في وجه انتشار النصرانية ثم إن الإسلام قد امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها. التبشير والاستعمار ص ٣٦.

(٣) يرجع بعض الكتاب الجذور التاريخية للتنصير إلى ملك فرنسا «لويس التاسع» كما صنع الدكتور عبد الودود شلبي الذي يشكر على مؤلفاته في مقاومة التنصير وكشف خططه وألاعيبه. ومنها «أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية» الذي ذكر فيه ص١٥ أن لويس التاسع في أثناء سجنه في المنصورة كان أول من حدد دور المبشر ومهمته ، وقد ذكرنا أن بعض المفكرين اعتبره الداعي الأول للغزو الفكري بدلاً من الحرب. ولا منافاة بين ذلك فإن الغزو الفكري والتنصير وجهان لعملة واحدة هما الصليبية الحاقدة. انظر : العلمانية ص ٥٣٦.

«لقد خابت دول أوربة في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف ، فأرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير ، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات ، وفرقت المبشرين في العالم» (١).

وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تظل الأمة غالبة قوية بسبب انحرافها عن دين الله عز وجل ، فكانت كلما زاد انحرافها ازدادت ضعفًا وهوانًا ، وأصبحت في القرون المتأخرة عرضة لهجمات الأعداء وكيدهم، وما زال ضعفها يستشري حتى تكالبت عليها أمم الغرب تمزقها وتستعمرها وتسلب خيراتها وتنهب ثرواتها. وفوق ذلك تنحي شريعتها وتفسد عقيدتها وتضلل أبنائها.

لقد كانت فترة الامتيازات الأجنبية التي سبقت الاستعمار مرحلة ذهبية ، وفرصة نادرة لا تقدر بثمن منحتها الدولة العثمانية للدول الأوربية ، وقطفت ثمار تلك الامتيازات بالدرجة الأولى الارساليات والمدارس التنصيرية التي ما كانت تحلم أن تنفرد للعمل التنصيري في ديار الإسلام بكل حرية واطمئنان لولا تلك الامتيازات الظالمة.

فقد سمحت تلك الامتيازات للنشاط التنصيري أن ينطلق كمًا وكيفًا ، أما كمًا فبانتشار هيئاته وإرسالياته ومدارسه في مدن الدولة وأقاليمها. وأما كيفًا فباستخدامه ما عن له من الوسائل وراق له من الأساليب بعيداً عن أعين الرقباء ، أو حتى عن طائلة القانون.

يقول القسيس «ترويريدج» في مؤتمر لكنو التنصيري في الهند سنة ١٩١١م : إن المبشرين كانوا منذ ابتداء أعمالهم التبشيرية قبل ٨٠ سنة مظهراً لتسامح الحكومة العثمانية كما هو شأنها مع الرعايا الأجانب الذين تحميهم الامتيازات الأجنبية (٢).

«ولما اتسع نفوذ المبشرين الامريكيين في الامبراطورية العثمانية ، بين عام ١٨٤٠ ، ١٨٥٠ وكثر تدخلهم في شؤون البلاد تنفيذاً لسياسة استعمارية عزمت تركيا على إخراجهم من الامبراطورية كلها ولكن وزير الخارجية الاميركية رفض أن يتخذ مثل هذه الخطوة. ثم استطاعت الولايات المتحدة أن تحول انتباه الباب العالي إلى أمور أخرى. أي أن الولايات المتحدة أثارت لتركية مشاكل كبيرة صرفتها عن أمر المبشرين.

وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون يتمتعون في الامبراطورية العثمانية بحقوق الرعايا الامريكية كما تنص معاهدة «الامتيازات الأجنبية» التي تمنح الأجانب المرغوب في وجودهم في الامبراطورية

---

(١) التبشير والاستعمار ص ١٥.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨

العثمانية حقوقًا واسعة. ولكن المبشرين كانوا يتسلحون بهذه المعاهدة ويأتون بأعمالهم التبشيرية والسياسية»[(١)].

«ومجمل القول إن الدولة العثمانية لم تكن تملك حرية الإرادة ولا حرية التصرف حيال نشاط البعثات التنصيرية ...»[(٢)].

ومن ذلك إعفاء المنصرين من الضرائب والجمارك تمتعًا بما منح لهم من امتيازات أجنبية[(٣)]. وهكذا انطلقت الارساليات التنصيرية تقودها جحافل المنصرين تجوب أنحاء الدولة العثمانية بكل حرية واطمئنان تبث سمومها ، وتنشر عقائدها.

قد يكون هذا النشاط التنصيري أخفق في تحقيق أهدافه المباشرة ، فلم يتنصر أحد من المسلمين إلا في النادر ، فلا يحتفل به ، ويهون من شأنه ، ولكن الحقيقة التي تغيب عن هؤلاء السذج الغافلين هي أن النشاط التنصيري لم يخفق إخفاقًا كاملاً كما يظنون ، فلئن أخفق في تحويل الناس عن دينهم بالكلية ، فقد نجح بالفعل في زعزعة إيمانهم ، وخلخلة عقيدتهم ، ونزع الثقة من نفوسهم . حتى تمكن من هزيمة أرواحهم وأسر عقولهم.

يقول المسيو «شاتليه» : «وحسبنا أن نستشهد بإرسالية التبشير الكاثولكية في بيروت لتكون موضوع التفكير والتأمل في فرنسا ، إذ بالرغم من كون (كلية القديس يوسف اليسوعية) التي تدير أعمال هذه الإرسالية لا تأثير لها على النشوء الفكري في المحيط الإسلامي ، فإن التعاليم التي تنشرها وتبثها كان لها الحظ الأوفر في انتشار الأفكار الفرنساوية في سورية والقطر المصري) ثم يقول : « ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية من حيث أنها تبث الأفكار الأوربية»[(٤)].

أما القسيس «زويمر» فيقول : «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب. والأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير ـ الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وجهات أخرى ـ هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه. ولا ينبغي لنا أن نعتمد على إحصائيات التعميد ، في معرفة عدد الذين تنصروا رسميًا من المسلمين ، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور

---

(١) التبشير والاستعمار ص ٥٤.
(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/١٠٦.
(٣) التبشير والاستعمار ص ٥٦.
(٤) المصدر السابق ص ١٦.

ومتحققون من وجود مئات من الناس ، انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم ، واعتنقوا النصرانية في طرف خفي» [١] .

ويتعقب المسيو «شاتليه» كلام «زويمر» الذي نزع فيه إلى ضرب من المغالاة والتهويل ليخفف بعض الألم عن نفوس المنصرين الذين صدموا كثيراً للإخفاق الذي لازمهم . فيذكر أن الإرساليات التبشيرية على اختلافها تعجز عن زحزحة العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، وأنه لا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار الأوربية [٢].

وقال : «أما ما يقوله حضرة مكاتبنا (زويمر» عن وجود مئات من المسلمين اعتنقوا النصرانية سراً وينتظرون فرصة للجهر بها ، فذلك أمر لا يمكننا البت فيه مع حضرة الكاتب» [٣].

ثم أليس «زويمر» نفسه هو القائل في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م الذي ضم ١٢٠٠ مندوب: «.. لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها» [٤].

ومع أن ما قاله «زويمر» يعتبر في أساسه تبريراً للفشل الذريع الذي مني به المنصرون [٥] إلا أنه في الوقت نفسه يعد هدفاً من أهدافهم.

ونتيجة للفشل الذريع الذي واجهه المنصرون في تحقيق هدفهم الأول وهو إدخال المسلمين في النصرانية فقد دفعهم ذلك إلى العمل الدؤوب على قطع صلة المسلمين بالله كما يقول «زويمر»، وإفساد عقولهم وزعزعة إيمانهم وعقيدتهم «ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم «الانساني» قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل» [٦].

---

(١) المصدر السابق ص ١٧.

(٢) التي هي عبارة عن الغزو الفكري أو مزية الهدم كما يسميها زويمر.

(٣) المصدر السابق ص ١٨.

(٤) العلمانية ص٥٥٢.

(٥) قال ذلك بعد أن قضى خمسة وأربعين عاماً في البحرين يدير منها دفة التنصير في المنطقة كلها. حيث هبط إلى البحرين، لأول مرة عام ١٨٩٠م .

(٦) التبشير والاستعمار ص ٤٦.

ومن أجل ذلك يقولون إنه «.. يجب على المبشرين أن يفسدوا الطلاب المسلمين ، يقول المبشر «تكلي» : «يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي. إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية. إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً» (١).

فإذا تفككت أواصر القربى الروحية في الأمة الإسلامية خاصة فقد استطاع الغرب أن يحكم الشعوب الإسلامية ويستغل بلادها اقتصادياً وحربياً (٢).

وكما استفاد المنصرون من الامتيازات الأجنبية الممنوحة لهم من قبل السلاطين العثمانيين فقد استفادوا فوائد عظيمة بعد صدور الدستور (القانون الأساسي) (٣).

ففي مؤتمر لكنو التنصيري الذي مر معنا آنفاً أشار القسيس (ترويريدج) إلى ملخص البند العاشر من القانون الأساسي الذي يحظر خرق حرية الأفراد أو القبض على أي شخص ومعاقبته بلا مسوغ منصوص عليه في الأحكام الشرعية الإسلامية والنظامات القانونية! (٤).

ثم شرع في التعرض لما حققه المنصرون في ظل الدستور فقال : «كان طبع كتب التبشير مباحاً في تركيا منذ مدة طويلة إلا أن مهمة بائعي الكتب المتنقلين كانت محفوفة بأنواع الصعوبات فأصبح الآن بيع التبشير مباحاً بسبب حرية النشر التي عقبت الدستور ، فبيع في السنة الماضية (٥) للمسلمين ما يزيد على ٩٠٠٠ نسخة من هذه الكتب وليس هناك صعوبات تقوم في سبيل بيع الكتب المختصة بانتشار التبشير» (٦).

هذا بالنسبة للكتب والمؤلفات ، أما المدارس ونشاطاتها فيقول عنها : «إن في استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير ، وبين جدران الكلية الإنجيلية في بيروت (٧) ١٠٤ من المسلمين. وفي كلية الأستانة ٥٠ ، وفي كلية المبشرين في كدك باشا في الأستانة أيضاً ٨٠ ، ومنذ بضع سنين صدر إذن خفي!! بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية» (٨).

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق ص ٨٩.

(٣) انظر : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم من الغرب من هذا البحث ص

(٤) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨.

(٥) سنة ١٩١٠م.

(٦) المصدر السابق ص ١٠٩.

(٧) هي الجامعة الأمريكية الآن وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله فيما بعد.

(٨) المصدر السابق ص ١٠٩.

ثم قال عن الأعمال النسائية : «إن الحكومة سمحت عقب إعلان القانون الأساسي لخمس فتيات عثمانيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية ليتهيأن لإدارة الأمور في مدارس الحكومة للبنات. كما أن عدداً قليلاً من البنات المسلمات في الولايات يتردد على مدارس إرساليات التبشير»(١).

ثم ذكر أن التبشير الديني جار بلا صعوبة في المستشفيات التي يدير أعمالها المبشرون ، ثم تحدث عن المضايقات التي يتعرض لها المرتد عن الإسلام أحياناً ، بعد أن كان مصيره الإعدام ولكن ذلك نسخ بعد إعلان الدستور. «وقد دخل التسامح في شكل جديد عقب قبول اندماج المسيحيين في الجندية لأن ارتداد المسلم عن دينه كان يعتبر خيانة ووسيلة للتخلص من الخدمة العسكرية. أما الآن فأصبحت مسألة اعتناق الدين المسيحي دينية محضة»(٢) .

يقول المنصر الأمريكي «جسب» بعد أن أشار إلى إعلان الدستور : «إن القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي : ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الامبراطورية (العثمانية)؟ ويجيب «جسب» نفسه على هذا التساؤل فيقول : إن هذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ، وسيصبح المرء (العثماني) حراً في أن يغير دينه»(٣) .

«ولا يجد المبشرون حرجاً في أن يعلنوا أن نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر إمكاناً وسهولة من أجل ذلك قرروا أن يجدوا جهودهم وأن يسيروا بأعمالهم إلى الأمام»(٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠.

(٣) التبشير والاستعمار ص ٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ٥٣.

ملاحظة :

أخطأ المؤلفان خطأ بيناً باعتبارهما أن إعلان الدستور للمرة الثانية كان حدثاً عظيماً في تاريخ تركيا والعرب ومناسبة فذة ص٥٢ وقولهما : إن إعلان الحرية في تاريخ الامبراطورية العثمانية عام ١٩٠٨م يوازي الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسة ، ومع ذلك فإن المبشرين لم يهتموا بهذا الحادث العظيم إلا بمقدار ما سيخدم غاياتهم التبشيرية ويسهل عليهم النفوذ إلى أرجاء الامبراطورية ، لقد فرحوا على الأخص لأن سورية ولبنان سيفتحان في وجه المبشرين البروتستانت . ص ١٧١ .

فهل كان ياترى هؤلاء المنصرون أدرى بحقيقة الدستور الذي يتنافى مع الشريعة الإسلامية ويبيح لأعداء الإسلام من منصرين وماسونيين وقوميين أن ينشروا مذاهبهم ويروجوا لأفكارهم دون حسيب أو رقيب .

انظر كلامنا حول الدستور عند حديثنا عن الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم ص

لقد ذكرنا من قبل أن أعداء الإسلام قد ركزوا جهودهم على ذراعي الأمة الإسلامية تركيا ومصر، فإذا تمكنوا من كسر هذين الذراعين فقد سهل عليهم السيطرة على بقية الجسد. فمن هذا المنطلق توالت الإرساليات التنصيرية وتدافع القساوسة والمنصرون صوب هذين البلدين الرئيسيين. وأضحت الأستانة والقاهرة عاصمتا البلدين مسرحاً آمناً للنشاط التنصيري المكثف. وقاعدة تنطلق منها البعثات والهيئات التنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي.

ففي سنة ١٦٦٤م قام البارون «دوويتز» بتحريك ضمائر النصارى إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي ، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمرالتبشير. فارتأى أحد أحبار الكنيسة أن يعهد إلى الأروام بمسؤولية تبشير الأتراك. غير أن البارون فشل في مشروعه (١) .

وقد أدرك أعداء الإسلام من المنصرين أهمية الأستانة ومركز ثقلها في العالم الإسلامي يقول رئيس إرساليات التبشير الألمانية : «إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا أو إفريقية ، بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر سواء أكان في إفريقية أم في آسيا وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجوهها نحو الأستانة عاصمة الخلافة فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لبانتنا فيها. ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي» (٢).

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت الحركة التنصيرية تغزو آسيا الصغرى. وكان ذلك على يد المنصر «هنري مارتين» المتوفى سنة ١٨١٢م الذي كانت له يد طولى في إرسال المنصرين إلى تركيا. ومن بعده أخذت إرساليات التبشير تشد الرحال إلى الأناضول وفلسطين واتخذت لها مراكز في أزمير والقسطنطينية وبيت المقدس (٣).

ولما حدثت حوادث سنة ١٨٦٠م في سوريا (٤) توجهت الأنظار إلى جبل لبنان ، وبعد عشر سنوات انتشرت لجنة التبشير الأمريكية في البلاد العثمانية عدا سوريا . وعلى أثر تأسيس الكنيسة البروتستانية في الأستانة سنة ١٨٤٦م. صارت الأستانة مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين. ومع

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨.

(٤) انظر : الضعف السياسي من هذا البحث ص

الصعوبات التي كانت تواجههم في بعض الأحيان إلا أنها سرعان ما تتلاشى . بل كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة [(١)]. وخصوصاً بعد إعلان الدستور وخلع السلطان «عبد الحميد» ـ رحمه الله ـ حيث أصبح التجول في البلاد العثمانية غير ممنوع [(٢)].

ومما لا شك فيه أن الآثار التي ترتبت على هذا النشاط التنصيري في الآستانة كانت خطيرة للغاية ، بعيدة المدى سواء أكان ذلك في المجال السياسي أو الديني أو الثقافي أو الاجتماعي.

وقد نشرت مجلة الشرق المسيحي والتبشير الإسلامي الألمانية التي هي لسان حال جمعية إرساليات التبشير الألمانية مقالة حول تأسيس المدرسة التبشيرية لدراسة الإسلام وأصوله ومبادئه في (بوتسدام) عام ١٩٠٩م جاء فيها :

«وقد نفح الله الجمعية التبشيرية باستاذين علامتين اعتنقا الدين المسيحي يقومان بالتدريس في المدرسة وهما بمثابة سيل طام صب على الدين المسيحي الحي القوتين الإسلاميتين اللتين هما الشريعة والصوفية. واسم الأستاذ الأول المدرس نسيمي أفندي الذي ينتمي إلى عائلة إسلامية عريقة سبق لأحد أعضائها أن تقلد منصب المشيخة الإسلامية. واسم الثاني الشيخ أحمد الكشاف شيخ طريقة صوفية. وانضم إليهما القسيس (افاتارنيان) [(٣)] .. الذي كان اسمه «ملا محمد شكري افندي. وهؤلاء الثلاثة يدرسون التفسير والتعاليم الصوفية واللغة العربية والفارسية والتركية ودروساً تاريخية دينية إسلامية لتلاميذ مدرسة (بوتسدام) [(٤)].

وفي مؤتمر أدنبرج الذي عقد سنة ١٩١٠م قالت اللجنة الثالثة من لجان المؤتمر المختصة بالأعمال المدرسية : «اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوربا كلها» [(٥)].

وفي هذا دليل على مبلغ النتائج التي أحرزها النشاط التنصيري في الأستانة عاصمة الدولة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

(٣) اعتنق النصرانية ثم قام بالتنصير في البلاد البلغارية. ويحتمل أنه بلغاري.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

(٥) المصدر السابق ص ٧٢ والمسألة الشرقية كانت تعني في أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من حكم العثمانيين. وفي المرحلة الثانية أصبحت تعني تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة بها بين دول أوربا الصليبية.

العثمانية. وليس يعنى هذا أن الدولة العثمانية لم تكن تلم بأهداف المنصرين ، أو تقاوم نشاطهم . بل كانت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم ، وحالت بينهم وبين جزيرة العرب حين تهيأوا لاقتحامها بل إنها قاومتهم في تركيا نفسها ، ووقفت منهم موقفًا حازمًا فألقت في سبيلهم العراقيل وعزمت ألا يصيبوا نجاحًا [١].

«على أن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين. ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرعايا انكليز أو أميركيين أو دانمركيين أو افرنسين. فاذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سرًا ما أمكنهم. ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهرًا من الدولة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الظاهر أيضًا» [٢].

فالدولة العثمانية لم تقف مكتوفة اليدين أمام نشاطات المنصرين وجهودهم ، ولكن ما حيلتها وقد دب الوهن في قواها ، وتطرق الخراب إليها ، وأمست على حافة الفناء والزوال. وفي عام ١٨٨٨م أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الاميركيين ، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة . ولكن المستر بسنغر قنصل أميركة في بيروت والمستر اسكار ستراوس [٣] تداخلا في الآمر حتى سمح الوالي «علي رضا باشا» بأن تعود تلك المدارس إلى فتح أبوابها، على ألا تقبل إلا التلاميذ المسيحيين. ولكن الوزير والقنصل مازالا يسعيان حتى حملا الوالي على إلغاء هذا الشرط» [٤].

«لقد كانت الدول الغربية تناجز الامبراطورية العثمانية من وراء الستار ، من وراء مبشريها المنتشرين في البلاد» [٥] و«تستغل ضعف تركية السياسي لتحمي المبشرين في أعمال التنصير» [٦].

على أننا في هذا المقام لابد أن نشير إلى ضعف الجهود التى بذلتها الدولة العثمانية في مقاومة النشاط التنصيري الذي غزا غالب أراضيها في ذلك الزمن وإلى عدم وعي القائمين بتلك الجهود بالتآمر الصليبي والتخطيط النصراني المحكم. بالإضافة إلى عشوائية تلك الجهود وعدم تنظيمها ، وانطلاقها في أكثر الأحيان من عواطف مندفعة أكثر من اعتمادها على عقيدة راسخة ومقاومة مدروسة ومنظمة.

---

(١) التبشير والاستعمار ص١١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٦.

(٣) هو وزير الولايات المتحدة المفوض في تركيا وكان يهوديًا.

(٤) المصدر السابق ص ١١٩.

(٥) المصدر السابق ص ١١٩.

(٦) المصدر السابق ص ١٢٠.

فهل كان يمكن لمثل هذه الجهود التي تفتقر إلى التخطيط والتنظيم والوعي وفوق ذلك إلى العقيدة الراسخة أن تقف في وجه ذلك الطوفان التنصيري الذي أطبق على العالم الإسلامي وأغرق بلدانه بإرسالياته وهيئاته ومدارسه ومنصريه.

أما تركيز النشاط التنصيري على مصر الذراع الثاني للعالم الإسلامي فسنوجز الحديث عنه فقد بدأ مكثفًا منذ أيام «محمد علي باشا» الذي كانت سياسته التغريبية[١] تفسح الطريق أمام هؤلاء المنصرين.

وقد «طمع المبشرون بمصر لأن محمد علي أراد أن يدخل المدنية الأوربية إلى مصر. فطمع هؤلاء إلى أن يتسللوا مع المدنية الغربية إلى عقائد المسلمين. ويبدو أن المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء «عباس» الأول عام ١٤٤٨م وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير. أما «سعيد باشا» (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) فقد نعته المبشرون بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوربي أن يعود سائداً في وادي النيل ، مع أنه عهد «سعيد» باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين»[٢].

وقد ذكرنا في مبحث سابق[٣] كيف دأب «سعيد باشا» طوال سني حكمه على رعاية الارساليات التنصيرية والتبرع لها بالأموال والأراضي والكتب. بل إن ما وهبه ذلك الخديوي الضال لبعض مدارس المنصرين يفوق ما أنفقه على ميزانية التعليم في بلاده طول حكمه.

وقد لقي المنصرون حفاوة بالغة من غالب الأسرة العلوية حتى جاء الاحتلال الانجليزي. وعلى رأسه اللورد «كرومر» فانتعش التنصير وانتصر ، ومع أن بعض المنصرين اتهم «كرومر» بمحاباة المسلمين فإنه كان نصرانيًا إلى العظم يشجع التنصير بين المسلمين ، ويحمي القسس الأجانب والمنصرين. وقد ذكرنا عند حديثنا عن الاستعمار موقفه من المبشرين. ومن ذلك تنصر طالب من القدس كان يدرس في الأزهر ، فطلبه أبوه ثم حضر بنفسه إلى القاهرة ، فالتجأ الابن إلى اللورد «كرومر» فاستكتبه اللورد «كرومر» وثيقة فيها أنه لا يريد أن يرجع مع أبيه ففعل[٤] .

إن وجوه الضعف السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي أصيبت بها الأمة ، أتاحت المجال أمام هؤلاء المنصرين أن يطوفوا البلاد في أثواب المحسنين ليكفلوا اليتامى ، ويساعدوا الأرامل والأيامى ، ويحنوا على الفقراء ، ويعالجوا المرضى ، ويعلموا الأميين والجاهلين.

---

(١) انظر الحديث عن تلك السياسة في كلامنا عن الولاء والبراء من هذه الرسالة ص

(٢) التبشير والاستعمار ص ١٤٧.

(٣) الولاء والبراء

(٤) التبشير والاستعمار ص ١٤٨.

لقد كان واقعاً مراً أليماً للغاية استغله هؤلاء المنصرون أسوأ استغلال ، بإقامة الملاجئ ودور الأيتام ، وإنشاء المدارس والمستشفيات ليهرع إليها الآلاف من المعوزين واليتامى والأرامل والجهال والمرضى ، كل ينشد فيها سد فاقته ، وإشباع جوعته ، ومداواة علته، وكشف كربته.

في مؤتمر « القاهرة » للمنصرين عام ١٩٠٦م قام المنصر (هاربر) وأبان وجوب الاكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين.

وذكر « هاربر » حكاية طفلة مسلمة عنى المنصرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية في باب اللوق.

وذكر أيضاً عن رجل مسلم كان يحضر محاضرات المبشرين لإثارة الجلبة والضوضاء ، واتفق أنه مرض فدخل مستشفى المبشرين وبعد أن لبث فيه مدة شفي وخرج منه فصار يحضر المحاضرات في هذه المرة ولكن بخشوع زائد وبعد ذلك بقليل تعمد وأصبح نصرانياً على مذهب البروتستانت [١] .

ثم قام الدكتور «اراهارس» طبيب ارسالية التبشير في «طرابلس» الشام فقال : انه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاماً وهو في مهنته فلم يفشل إلا مرتين فقط وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنين من زبائنه من الحضور إليه.

وأورد إحصاء لزبائنه فقال : ان ٦٨ في المائة منهم مسلمون ونصف هؤلاء من النساء. وفي أول سنة مجيئه إلى حيث يبشر بلغ عدد زبائنه ١٧٥، وفي آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ وختم كلامه قائلاً: يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك[٢] .

أما الدكتور (تمباني) فبرغم ما واجهه من صعوبات كما يقول في التوفيق مهنتي التبشير والطب فقد نجح في تأسيس مستشفى للتبشير عن طريق الاكتتابات . وكان أول مكتتب لهذا المستشفى التبشيري رجلاً مسلماً [٣].

ويحرص المنصر (سمبسون) على أهمية وجود الطبيب المبشر إلى جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار [٤].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ٤١.

(٤) المصدر السابق ص ٤١.

وتحدثت المنصرة (أنا وستون) عن إرسالية التبشير الطبية في مدينة طنطا قائلة إن ثلاثين في المائة من الذين يعالجون في مستشفى هذه الارسالية من الفلاحين المسلمين وأكثرهم من النساء. وطريقة التبشير فيه أن يذكر الانجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف في المناقشة [١]. وفي ممباسة عني المبشرون بمعالجة امرأة مسلمة فاعتنقت النصرانية [٢].

وفي بوغندة كذلك اعتنق اثنان من المسلمين النصرانية بعد أن عني المبشرون بمعالجتها [٣].

وفي مستشفى أم درمان يطلب القائمون عليه من المرضى المسلمين أن يصلوا معهم صلاة الصبح [٤].

ويقول الطبيب الأمريكي (بول هاريسون) في كتابه «الطبيب في بلاد العرب» : «إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة (عمان) بأسرها لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونسائها نصارى» [٥].

ثم إنهم فرضوا أن يكون الطبيب المبشر نسخة حية من «الانجيل» إن بامكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين أو أن يترك في نفوسهم أثرًا عميقًا على الأقل [٦].

وفي بلاد سوريا وفلسطين كان بالإضافة إلى وجود مراكز طبية أنشأها المنصرون يوجد أطباء جوالون يزورون القرى ويلاحقون الناقهين الراجعين إلى قراهم فيكرزوا فيهم [٧].

وفي بلدة الناصر في السودان أنشأ المنصرون مستوصفًا وكانوا لا يعالجون المريض ابداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح [٨].

أما في الحبشة فكانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم.

ومن الحيل التي استعملها المنصرون في وادي النيل أنهم استخدموا ثلاثة مراكب وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل . وكانوا يعلنون عن مجئ الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل ، فيأتي

---

(١) المصدر السابق ص ٤١.
(٢) المصدر السابق ص ١٢٩.
(٣) المصدر السابق ص ١٣٠
(٤) المصدر السابق ص ١٣٣.
(٥) المصدر السابق ص ٥٩.
(٦) المصدر السابق ص ٥٩.
(٧) المصدر السابق ص ٦٠.
(٨) المصدر السابق ص ٦٢.

الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب. في هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر فرحًا بالجموع ، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضح الشمس ومضض الانتظار عمدًا وخداعًا.

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن. كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان أولئك الأطباء ، الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئًا من معاني الانسانية ، لا يبدأون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرزوا [(١)] عليهم.

وحملت أم مرة طفلها المريض وجاءت به إلى مستوصف الناصر بالسودان ، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة ، فلم يعز الطبيب هذه الأم الثكلى بل جلس يكرز عليها [(٢)].

لقد أدرك المنصرون أهمية الطب والعلاج في حياة الناس ، ولذا قالت واحدة منهم تدعى «إيرا هاريس» تنصح الطبيب الذاهب بمهمة تنصيرية : «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى آذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالانجيل. اياك أن تضيع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنه أثمن تلك الفرص على الاطلاق. ولعل الشيطان يريد أن يفتتك فيقول لك: إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير فلا تسمع منه» [(٣)].

وفي «طرابلس» كان هناك مسشفى أوربي تديره راهبات القديس يوسف ، وبه قسمان للرجال والنساء ، وقد لاقى تقدير واستحسان الأهالي هناك [(٤)].

وذكر الدكتور «عبد الحليم عويس» احصائية لبعض ما يملكه المبشرون في الجانب الطبي والاجتماعي في أواخر القرن الرابع عشر، فذكر أن المبشرين يملكون ٦٠٠ مستشفى للرجال والنساء، ١٠٥٠ صيدلية توزع الدواء بالمجان ، ١١١ مجلسًا طبيًا ، ٩٣ جمعية للممرضات ، و٢٦٥ ملجأ أيتام ، و١٢٠ ملجأ للبرص، ومثلها للصم والبكم، و١١٥ مدرسة للمكفوفين، و١١٣ مستوصفًا لمدمني الأفيون، و٨٥ ملجأ للأرامل [(٥)].

وكانت الظروف الصحية السيئة خاصة مناخًا مناسبًا للارساليات التنصيرية عملت على استغلاله لصالحها ، عبر مستوصفاتها ومستشفياتها وأطبائها . هذا المستوى الطبي المتقدم في تلك

---

(١) يكرزوا بمعنى الدعوة إلى الإنجيل والنصرانية .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق ص ٦٢.

(٤) ليبيا أثناء العهد العثماني ص ١٢١ فرانشسكو كورو. ترجمة خليفة محمد التليسي. دار الفرجاني - طرابلس - ليبيا.

(٥) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٠ د. عبد الحليم عويس. دار الاعتصام. القاهرة. الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

الفترة كان له ولا شك أعظم الأثر في نفوس المرضى الذين أضناهم المرض ، وأعياهم السهر وفي نفوس ذويهم الذين تعبوا لأجلهم ، في زعزعة عقيدتهم وتشويش أفكارهم، وذبذبة ولائهم وبرائهم.

أما الحالة الاجتماعية فكانت لا تقل سوءاً عن الحالة الصحية حيث كان الفقر والجهل والحرمان سمة بارزة للحياة الاجتماعية، ولم يفت المنصرين الاستفادة منها.

يقول القسيس « زويمر » في كتابه الذي يوجهه إلى الطلبة ، ويذكر لهم الأقاليم الخالية من المبشرين : «إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها أعمالهم التبشيرية منذ مائة سنة كانت لاهوتية دينية محضة ، أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية، وكان ينظر في سابق الأيام إلى المبشرين نظر قوم يشنون حرباً صليبية ترمي إلى التنصير فقط فتحولت الأفكار وصارت الأعمال التبشيرية تشف عن فكرة الإصلاح الاجتماعي وعن رفع شأن الشعوب غير المسيحية لأن احتلال الأقاليم الخالية من المبشرين ناشيء عن أحوال هذه البلاد الاجتماعية المحرومة من يسوع المسيح والتي هي بالتالي خالية من كل بارقة أمل» (١).

وحين كان الجهل مخيماً على البلاد الإسلامية حفز ذلك النصارى إلى نزول الأقاليم والمدن والقرى يقيمون المدارس وينشئون المعاهد لنشر التنصير وافساد عقائد المسلمين دون وجل تحت ظلام الجهل الدامس .

وعلى سبيل المثال كتب «بنيامين ماراي» مقالاً في مجلة العالم الإسلامي موضوعه : «شمالي نيجيرية ميدان للتبشير» استعرض فيه حالة تلك البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الأخص ، إذ أن الذي يحسنون القراءة والكتابة أو شيئاً من الكتابة فقط ، لا يتجاوز اثنين ونصف بالمائة ثم قال: «وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي»(٢) .

وربما اتخذ بعضها العلمانية وجهاً ظاهراً والتبشير وجهاً باطناً . يقول نفر من المبشرين : «إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارساليات في جميع البلاد كانت دائمة متشابهة . إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة .... حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم ، من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين ، تحمل معها الآراء النصرانية»(٣) .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٥٠.

(٢) التبشير والاستعمار ص ٧٠.

(٣) المصدر السابق ص ٦٦.

ويقول المنصر الأمريكي «جسب» : «إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها. لقد كانت المدارس تسمى بالاضافة إلى التبشير «دق الاسفين» وكانت على الحقيقة كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة ، ولم يكن بالامكان أن يصل اليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر» (١)

ويرى بعضهم أن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى. ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم»(٢) .

وللصغار في سياسة المنصرين التعليمية الجهد الأكبر. يقول المنصر «جون موط» : «يجب أن نؤكد في جميع ميادين (التبشير) جانب العمل بين الصغار والصغار. وبينما يبدو هذا العمل وكأنه غيرية ، ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الاسلامية. إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً. من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية . إن اختبار الارساليات في الجزائر ، فيما يتعلق بهذا الأمر، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي افريقية ، اختبار جديد ومقنع ... وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين (٣) .فإذا انضم إلى الجهل والأمية أشكال من الفقر واليتم والتشرد كان ذلك فرصة عظيمة تفسح المجال أمام المنصرين.

كتب «ألمر دوغلاس» مقالاً عنوانه «كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر» ذكر فيه أن ملاجئ قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر في شمال افريقية لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وايوائهم أحياناً ، ثم قال : إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم».

ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي افريقية ومصر (٤) . وبقدر ما يعنى المنصرون بالصغار والمرحلة الابتدائية فإنهم يعنون كثيراً كما ظهر من كلامهم بالكليات والجامعات أو التعليم العالي . إذ منها يتخرج القادة والمفكرون . «والتعليم العالي عند المبشرين لا يقل أهمية عن سائر درجات التعليم ، ذلك لأنه يساعدهم على الوصول إلى الطبقات المثقفة ، بل لعله أهم منها كلها.

---

(١) المصدر السابق ص٦٧.

(٢) المصدر السابق ص ٦٧.

(٣) المصدر السابق ص٦٨.

(٤) المصدر السابق ص ١٩٤.

ولقد أدرك المبشرون منذ زمن أن التبشير قد خاب لأن الأفراد الذين لفتهم المبشرون عن الإسلام إلى النصرانية كانوا قليلين ، ولم يكن لهم الأثر المنتظر. فلما اعتقدوا أن لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى المسلمين والى المثقفين منهم خاصة. ثم إنهم اعتقدوا أن هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الاسلامي. هذه الفكرة التي اقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالية في البلاد الإسلامية»(١).

ومن أشهر الجامعات التي أسسها المنصرون في الشرق الإسلامي الجامعة الأمريكية في «بيروت» التي خرجت الكثيرين ممن غسلت أدمغتهم إلى المناصب القيادية في أكثر البلاد العربية (٢).

فجميع رؤسائها من المنصرين والقسس منذ أيام «دانيال بلس» إلى أيام «ستيفن بنروز» (٣). وهذه نبذه عنها : أسس المنصرون البروتستانت كلية في «بيروت» عام ١٨٦٢م وجعلوا على رأسها «المستر دانيال بلس». هذه الكلية أصبحت فيما بعد : الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٥م (٤) ثم أطلق عليها اسم الجامعة الأمريكية عام ١٩١٩ (٥).

وقد اعتمدت الكلية السورية الانجيلية في تأسيسها على الرجال الذين يمولون التبشير وخصوصاً من الانكليز والاميركيين. أما عمل الكلية فيجب أن يكون وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في آسية وفي افريقية وعلى اسباغ النعمة (المسيحية) عليهم (٦).

وفي الاجتماع المنعقد في الثلاثين من كانون الأول ١٨٦٣م بحضور قنصل الولايات المتحدة في بيروت «جونسون» قال المجتمعون : «نحن نصرُّ على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً» (٧).

هذه الجامعة يقول عنها المنصر الأمريكي «جسب» أوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الامريكية في الشرق ككلية روبرت في استانبول مثلاً. أما «رشتر» فقال عنها : إنها أرقى مدرسة في الامبرطورية العثمانية.

---

(١) المصدر السابق ص٧٩.

(٢) حقائق ووثائق ص ٩١.

(٣) تولى الأول رئاستها سنة ١٨٦٢م واستمر فيها إلى عام ١٩٠٢م. أي حوالي أربعين عاماً. أما الثاني فقد رأس الجامعة من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٥٤م.

(٤) يقظة العرب ص ١٠٨ جورج انطونيوس. نقلاً عن الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/ ١٠٠.

(٥) التبشير والاستعمار ص ٩٧.

(٦) المصدر السابق ص ٩٦.

(٧) المصدر السابق ص ٩٧.

إن عمل الكلية التبشيري يتناول المسلمين في الدرجة الأولى ، وهذا ما يجعلها بارزة في ذلك بين جميع المدارس الامريكية في الامبراطورية العثمانية وإيران، إذ هي التي تهيء المدرسين المبشرين للمدارس الامريكية المنثورة في الشرق كله (١).

وقد تخرج منها عشرات من المفكرين والقادة والأدباء، وقل من سلم منهم من غائلتها. وقد كانت تجبر جميع الطلاب على حضور الصلوات في الكنيسة كل يوم ، وتجبر الطلاب الداخليين خاصة على أن يحضروا صلاة يوم الأحد أيضاً (٢).

ولما قام الطلاب المسلمون عام ١٩٠٩م باحتجاج على اجبارهم على الدخول إلى الكنيسة اجتمعت عمدة الجامعة وأصدرت منشوراً طويلاً جداً ، جاء في مادته الرابعة : إن هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي : هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ .. وإن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقًا ماذا يطلب منه (٣).

---

(١) المصدر السابق ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥.

ملاحظة : والغريب المؤلم حقًا هو قول المؤلفين بعد كل هذا الذي ذكر : وإن أحدنا ليعجب أن تكون الجامعة الأمريكية إلى اليوم أيضاً مسرحاً للتبشير ص ٧١. وقولهما : على أن الغريب على أن الجامعة الأمريكية لا تزال إلى الآن تبشيرية ص ٩٩.

وقولهما : على أن استغرابنا قد زاد عام ١٩٤٨م ولم ينقص. إن الجامعة الأمريكية نعترف بأنها بدأت تبشيرية ثم تخلت عن التبشير في عصر القومية الواسعة والتسامح العظيم والتعاون الشامل. ولكن الدكتور ستيفن بنروز الرئيس الجديد للجامعة قد خيب ظنهما وأضاع آمالهما باصراره على الصبغة التبشيرية للجامعة ص ١٠٦.

وهذه الكبوة في اعتقادي جاءت من الظروف المحيطة بالكاتبين حيث أنهما من خريجي الجامعة المذكورة، وإلا فكيف لمثلهما أن ينخدعا بأساليب المنصرين أو تنطلي عليهما دسائسهم. ولعل الكبوة الأخرى التي وقعا فيها ، وفاقت تلك هي تأثرهما بشعارات الوطنية والقومية ص ٢٥ ، ٢٧ ، وتحككهما الدائم بها ، ظنًا منهما أن ذلك يدفع عنهما تهمة التعصب التي يطلقها النصارى ضد كل مسلم موحد ملتزم بالإسلام.

ومع أن ذلك التأثر لم يكن يتعارض مع ولائهما للإسلام وتصديهما لخدمته إلا أنه لم يسلم من الآثار السيئة؛ من ذلك قولهما حينما ذكرا إصرار القوميين العرب على إخراج العنصر الديني من جهاد الشعب الجزائري المسلم «لا نرى بعد هذا أن نمضى في الاستشهاد أو الاستنتاج للدلالة على أن الافرنسيين يحاربون الجزائريين كمسلمين في الدرجة الأولى، ولكن هذا لا يمنع أحداً من قبول الجهود التي يبذلها القوميون في نصرة الجزائر ومن شكرهم عليها». ص١٧٨.

فأي جهود يا ترى بذلها القوميون حتى يشكروا عليها ، وهم الذين كفروا برابطة الإسلام ، وهم أعوان المستعمرين وعملاؤهم إلا في النادر ، وهم سراق الثورة فيما بعد، المحادون لله ورسوله والمؤمنين . ومن آثار اعتناء المؤلفين للقومية

ومن الجامعات التنصيرية أيضاً الجامعة الأمريكية في القاهرة التي كانت تسمى بالكلية الأمريكية أرادوا بها منافسة الجامع الأزهر [١]. وهناك كلية روبرت في استانبول «وهي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها ويقول «دانيال بلس» إن كلية بيروت [٢] وكلية استانبول ليستا أختين فقط بل توأمتان.

إن هذه الكلية قد أنشأها مبشر ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر [٣]. وكلية غوردن[٤] الانكليزية في الخرطوم. تأسست عام ١٩٠٣م. وكلية جيرارد أو كلية الأميريكان في صيداء[٥]. هذه بعض مؤسسات التعليم العالي التي أنشأها المنصرون الأمريكيون والانجليز. وليس الفرنسيون أقل توجهاً منهم. فقد أسسوا لهم كلية في لاهور [٦] إبان الاحتلال الانجليزي للهند. هذا عدا مؤسساتهم التي نثروها في الشرق.

والوطنية اصرارهما المتواصل والعجيب على جعل العداوة بين الغرب والإسلام سياسية واقتصادية لا دينية ص ٣٦، ص ٣٨، من ذلك قولهما: إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية ص ٤٥.

وهذه فكرة خاطئة أوحت بها إلى المؤلفين الظروف التي كانا يعيشان خلالها من هيمنة شعارات الوطنية والقومية والتسامح والحب التي دعا إليها نصارى لبنان خاصة فلتكن العداوة بين المسلمين والنصارى. إذن سياسية وليس دينية هروباً من الواقع، إذ سيصبح الموقف حرجاً حين يجعلان العداوة دينية لأنهم يعيشون والنصارى في بلد واحد وذلك يتنافى مع شعارات القومية السائدة هناك. ولتكن عداوة بين الغرب المستعمر والشرق المكافح ضد الاستعمار على اختلاف الطوائف والملل دون نظر إلى الدين.

ولسنا بحاجة لبيان تهافت هذا الرأي وفساد هذه الفكرة؛ إذ إن العداوة لا ريب دينية عقائدية في الصميم، وما الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا صور لذلك الصراع الديني العنيف، والقرآن والسنة والتاريخ والواقع يدل على هذا، بل وكتاب المؤلفين نفسيهما المليء بأقوال قادة الغرب ومنصريه يدل على ذلك. ومع ذلك فإن فكرة نزع الدين من الصراع بين المسلمين والغرب لم تنشأ إلا في أذهان العلمانيين والقوميين، ولم يستفد من ورائها سوى الغرب النصراني عامة ونصارى العرب خاصة. وتكاد تكون هذه سمة غالبة على كثير من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين يجاورهم النصارى في بلدانهم الذين رضخوا لضغط الشعارات القومية والوطنية - ولعل عنوان الكتاب فيه إشارة إلى ما قصداه المؤلفان من نفي الصراع الديني بين الغرب والمسلمين، وذلك من ربط التبشير بالاستعمار، حيث يعتبران التبشير وسيلة فقط من وسائل الاستعمار التي استغلها في صراعاته السياسية والاقتصادية.

وبعد فإن هذه الملاحظات على أهميتها لا تغض من قدر هذا الكتاب إذ تبقى له مكانته وقيمته. إذ أنه يأتي مع كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» في مقدمة الكتب التي سبقت في ذلك الميدان العظيم، ومع مرور الزمن عليهما فإن الباحث في شئون التنصير لا يستطيع الاستغناء عنهما.

(١) المصدر السابق ص ٨٠.   (٢) يعني الجامعة الأمريكية.

(٣) المصدر السابق ص ٩٥.

(٤) هو الحاكم الانجليزي العسكري للسودان. قتله أنصار المهدي الثائر عام ١٨٨٥ م بعدما سقطت الخرطوم على أيديهم.

(٥) المصدر السابق ص ١١٠.

(٦) هي عاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم.

لقد رعى الاستعمار هذه الجامعات والمؤسسات التنصيرية رعاية كاملة ، ومنحها حق الوجود والاستمرار. ولكن المؤسف هو أن تظل هذه الجامعات والمؤسسات باقية بعد رحيل الاستعمار ترعى مصالحه ، وتفتح الأبواب امام النفوذ الأجنبي على مصاريعها . وفوق ذلك تقوم بإفساد أبناء المسلمين وتسميم أفكارهم وزعزعة عقيدتهم.

وقد كفل الدستور العلماني في كثير من الدول الإسلامية البقاء والحرية لتلك الجامعات والمدارس ، وحين أرادت بعض تلك الدول ضمها وإلحاقها بالتعليم الرسمي في بلادها. لم يكن ذلك الضم إلا صورياً في الغالب ، وهنا تكمن الخطورة في اتخاذ ذلك غطاءًا ، تنفذ من خلاله جميع مخططاتها ، وهي بعد ذلك آمنة من أية مؤاخذة . بل إن الكثير من هذه المؤسسات التنصيرية لتتحدى أنظمة هذه الدول ، ولا تتقيد بلوائحها ومناهجها ، وتصر على بقائها كما كانت تنصيرية خالصة تجاهر ذلك.

وقد أولت هذه المؤسسات التنصيرية عناية فائقة للتعليم النسوي لما للمرأة من دور خطير في تربية المجتمع واستقامته. يقول «جسب» «إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني لقد شعرت دائمًا أن مستقبل سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها. لقد بدأت مدرستنا (للبنات) ، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها. وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية»[(١)].

إن المبشرين لم يتأخروا في فتح مدارس البنات. إن أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية فتحها المبشرون عام ١٨٣٠م. ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والأفغان [(٢)]

ويفرح المبشرون اذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيئتهن أعظم . وتتكلم المبشرة «أنا ميليغان» فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات اباؤهن باشوات وبكوات وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمت طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة[(٣)] . وليس غريباً أن يهتم المبشرون بالمرأة ، فالمرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول إليها بالتبشير وصول إلى الأسرة كلها بل إلى المجتمع كله. من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ، ومن أجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة.

---

(١) المصدر السابق ص ٨٧.

(٢) المصدر السابق ص ٨٧

(٣) المصدر السابق ص ٨٧.

ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها. لقد خرجت إلى الهواء الطلق، لقد نزعت عنها حجابها. ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمية قد فعلت ذلك، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية. ولهذا السبب أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون: لقد سنحت لنا فرصة عظيمة [1]

إن الحالة الاجتماعية السيئة المملؤة بصنوف الفقر والعوز والحرمان قد أتاحت المجال لهؤلاء المنصرين أن يستغلوا ذلك في سبيل تنصير المرأة المسلمة وإفساد دينها وخلقها.

جاء في مؤتمر قسطنطينة في الجزائر ما يلي: «إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار. ويجب أن تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي، ثم تفرق النساء فيها حسب أحوالهن وحاجاتهن. وكذلك مكث هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن، ثم إن كل فتاة يجب أن تعلم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيش به بعد أن تغادر تلك البيوت».

وأخيراً» نرى أن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الانجيل. ثم اننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يمرن أكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن»[2].

وقد نجح هؤلاء المنصرون في إفساد المرأة المسلمة وإن لم ينجحوا في تنصيرها، وتواكب ذلك من حملات الغزو الفكري الشعواء التي وجهت إلى المرأة.

وكما كان للمنصرين اهتمام خاص بالصغار والمرأة فإن للشباب أيضاً أهمية عندهم لا تقل عن ذلك. فهم إن أفسدوا المرأة، وأفسدوا الأطفال، ثم أدخلوهم المدارس ليشكلوهم على النحو الذي يريدون، ثم ضمنوا لهم من التعليم العالي ما يمسخ شخصياتهم وعقولهم، فلا بد لهم من إشباع الجانب الترفيهي عند هؤلاء الشباب، وتطوير ميولهم الشخصية كما يقولون. لذا سارعوا إلى إنشاء النوادي الرياضية وبيوت الشباب «وتضم هذه الأندية نشاطاً اجتماعياً مختلف الأنواع والألوان. هناك حفلات تقام، ومحاضرات تلقى، وليالي أنس وسمر، ومطاعم، ومنامات يأوي إليها محبوا الاقتصاد وأسباب تسلية يغشاها الشباب.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥.

على أن الذي تضمه هذه الأندية ليس أمراً مقصوداً لذاته ، أي أن عمدة هذا النادي لا يهمها أن يأتي الناس ليتمتعوا بما في النادي من أسباب التثقيف والترويح ، بل يهمها أن تجتذب بهذه الأسباب أناساً يستمعون إلى صوت المبشر الانكليزي أو الامريكي أو الافرنسي والهولندي أو ليجد حب الغرب طريقه إلى قلوب الشرقيين على الأقل» (١).

أما بيوت الشباب التى تتبع لتلك الأندية فيأوي إليها في الغالب من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشباب أو ممن لا بيوت لهم أبداً ، ويعتبرها النصارى حرباً صليبية مسيحية لما لها من تأثير كبير في عقول الشباب (٢).

وبعد كل هذا فلعل المعادلة الغريبة التى تلتبس على الكثيرين هي : أنهم كيف يفسرون تهالك العالم الغربي على نشر النصرانية في العالم عامة والإسلامي منه خاصة ، وهو عالم علماني متحرر من كل دين.

«إننا اذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالماً ملحداً لا يؤمن بدين ، وعالماً مادياً لا يعرف للروح معنى : إن امريكة التى تعبد الحديد والذهب والبترول ـ كما يقول أمين الريحاني ـ قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون انهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني. وبينما نرى فرنسة دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التى تحمي رجال الدين في الخارج. إن اليسوعيين المطرودين من فرنسة هم خصوم فرنسة في الداخل واصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها. وكذلك إيطالية ، التى ناصبت الكنيسة العداء وحجزت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني جميع سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين» (٣).

ولكي نعرف الحل الصحيح لتلك المعادلة ، لابد لنا أن نعرف حقيقة الدين النصراني كما يعيشه الغرب ويفهمه مفكروه وفلاسفته ويتعاملون معه. إن الغرب يؤمن بالدين ولكن بالمفهوم العلماني أي بفصله عن الحياة ، وعزله في زاوية صغيرة جداً لا تكاد تذكر في زحمة الحياة ومشاغلها كما قال أحدهم : «إن الانجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة» (٤).

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٤.

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٢٠٣.

ومع ذلك فإن أوربا لم تعرف الدين الصحيح أبداً، ولم توفق إلى اعتناق ما جاء به المسيح - عليه السلام - من عقيدة وتعاليم ، وإنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوربية ، لا صلة لها بالأصل المنزل ، الذي أرسل المسيح ليبلغه لبني إسرائيل ﴿ **ورسولاً إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم** ﴾ [٤٩ آل عمران] [١].

يقول «درابر» : «دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان «قسطنطين» فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧م) [٢].

ويأتي على رأس هؤلاء المنافقين «بولس» اليهودي أو «شاؤل الطرسوسي» الذي وضع البذرة الأولى» للتثليث[٣]. أو صاحب المسيحية الرسمية التى اعتنقها قسطنطين وأطبق الغرب على اعتناقها.

بالإضافة إلى هذا التحريف الذي منيت به النصرانية واستمرت الكنيسة ترعاه وتزيده اتساعاً. كان للفلسفتين اليونانية والرومانية تأثير عميق على هذه الديانة المحرفة [٤]. فلما جاء العصر الحديث وقامت الثورتان الصناعية والفرنسية ارتدت أوربا إلى الجاهلية الاغريقية الرومانية. فمن الاغريق (اليونان) ، أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد في صورة جمال حسي. ومن الرومان أخذت عبادة الجسد في صورة متاع حسي ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الانسان في المتاع وينسى القيم التى تكون الإنسان [٥] .

فهذه الديانة المحرفة التى ابتليت بعدوى الوثنية ترضى من الأفراد بمجرد الانتساب لها، والقيام ببعض الطقوس التي لا تكلفه عناءاً من الوقت أو من الجهد . بل إن رجال الدين النصراني لما آلمهم عزوف رعاياهم عن تعاليم الكنيسة وطقوسها لجأوا إلى وسائل ترفيهية ، ولكن على حساب الأخلاق كالرقص المختلط علهم يجدون لكنيستهم رواداً في ذلك الماخور العظيم ، حتى ولو كان ذلك يتعارض مع الدين [٦].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٩. انظر تحريف الدين في الكتاب نفسه.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٨٥ وقد اعتنق قسطنطين النصرانية الوثنية عام ٣٠٦م

(٣) العلمانية ص ٣٦.

(٤) التثليث والحلول أو تجسد الإله في شكل بشري والرهبانية وتقديس الصور ، واعتقاد الفداء والخلاص والواسطة بين الخالق والمخلوق كل هذه الانحرافات أخذت من وثنيتي اليونان والرومان. العلمانية ص ٣٠ ، ص ٣١.

(٥) مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٥٤.

(٦) انظر قصة «الأب» النصراني الذي يقيم الرقص لقاصديه من الفتيان والفتيات بعد أداء الطقوس الدينية في الكنيسة في العلمانية ص ٥٠٠.

وهكذا فلا يجد الكثير من الغربيين حرجاً في بقائهم متدينين نصارى بهذا الوضع المسوخ. وقد وصف الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالفسق في أكثر من موضع. فقال تعالى : ﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ [آل عمران ١١٠] وقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ [المائدة]»[١]. فإن انحراف هؤلاء النصارى وفسقهم يشيع النقمة في نفوسهم على المسلمين ودينهم ، ويدفعهم إلى معاداتهم والكيد لهم. ومن ذلك محاولة تنصيرهم أو حتى زعزعة عقيدتهم وإفساد دينهم.

إن الغرب العلماني في صراعة مع الإسلام لا مناص له من اتخاذ موروث ثقافي وروحي في مقارعة الإسلام وذلك مع نضوب حضارته وجفاف علمانيته. هذا الموروث الذي يتكئ عليه الغرب في صراعه مع الإسلام هو الموروث الصليبي والحروب الصليبية التي كان يشعل فتيلها في القرون الوسطى القساوسة والرهبان ويتساءل الدكتور «عبد الحليم عويس» عن ذلك التناقض الذي يظهر في علمانية الغرب وإصراره على تنصير المسلمين ، وحشده الامكانات الهائلة في سبيل ذلك ، ويجيب على ذلك فيقول : «فما معنى هذا كله ..؟ هل النصرانية مجرد بضاعة للتصدير؟ نعم إنها لكذلك فعلاً .... إنها مجن واق من أخطار الزحف الإسلامي .. ، إنها ستار يراد منه أن يمنع شمس الإسلام من الظهور إنها تراث حضاري يرشح للوقوف في وجه تراث الإسلام وحضارته ..

إنها - في أقل حياتها - صورة (دين) يمكن أن يحارب بها (دين) آخر .. حيث ثبت - تاريخياً - أنه لا يقف أمام الدين إلا الدين ولا يفل الحديد إلا الحديد .. والبقاء للأصلح في نهاية المطاف ..»[٢].

فلا يزال الغرب إلى يومنا هذا مع علمانيته الصارخة [٣] يتعامل مع الإسلام بالروح الصليبية الحاقدة، ولا يزال يصر على تنصير العالم الإسلامي بكل ما أوتى من وسائل وقوة فأمريكا العلمانية في بلادها النصرانية بل التنصيرية في تعاملها مع المسلمين بلغت عدد مدارسهم التنصيرية في سوريا وحدها مائة وأربعاً وسبعين مدرسة ، وذلك في عام ١٩٠٩م [٤] ، ولو لم يكن للأمريكيين غير

---

(١) اقرأ تفسير الأستاذ سيد قطب رحمه الله لهذه الآية حيث ذكر أن عدم إيمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون وبما اتصفوا به من فسق كل ذلك يدفعهم إلى محاربة المسلمين بالحروب الصليبية تارة ، وبالتنصير تارة أخرى وبالغزو الفكري تارات وتارات . وقد رد - رحمه الله - على من قال إن الحروب الدينية قد انتهت وإن الصراع اليوم لم يعد دينياً وإنما مادياً. كما رد - رحمه الله - على الدعوة إلى تقارب الأديان في وجه الإلحاد كما يقال.

في ظلال القرآن ٩٢٣/٢ وما بعدها.

(٢) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٤.

(٣) أقرأ حول ذلك : ماذا بقي للدين في كتاب العلمانية ص ٤٩٢ وما بعدها.

(٤) التبشير والاستعمار ص ٧٨.

الجامعة الأمريكية في بيروت التي أسلفنا الحديث عنها لكفى به دليلاً على صليبيتهم وعدائهم للمسلمين.

فكم خدع السذج والمغفلون وتخادع العلمانيون عن نصرانية الغرب وصليبيته بعلمانيته وتحرره وليس أشبه بهذا الانخداع وإن كان داخلاً ضمنه إلا الانخداع بالرحالة المنصرين واعتبار رحلاتهم كشوفًا جغرافية كانت خالصة للبحث والمعرفة ونفع بني الإنسان دون النظر إلى دين أو جنس. كما هو الحال مع «فاسكو داجاما» ، و«ماجلان» ، و«ليفنغستون» ، وغيرهم من عشرات بل مئات الرحالة الغربيين الذين جاسوا خلال ديار الإسلام ، منصرين ، وجواسيس ، وطلائع للاستعمار. فماذا قال «فاسكو داجاما» حين قام برحلته من أوربا إلى أقصى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح ذلك الطريق الذي كان معروفًا عند المسلمين.

لقد قال قولته المشهورة التي تكشف الهدف الحقيقي لهذه الرحلة : الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت. ومع ذلك فإنا ندرسها لأبنائنا بتأثير الغزو الفكري أنها رحلة علمية ، وكشف جغرافي عظيم (١).

أما «ماجلان» قاهر البحار كما ندرس لطلابنا بتأثير من الغزو الفكري أيضًا (٢). فقد دفع حياته ثمنًا لإحدى رحلاته التنصيرية والتي قام بها إلى الفلبين بعد أن أخذ إذن البابا ومباركته وحاول رفع الصليب على أرض المسلمين. ونحن ندرس لأبنائنا أن «المتبربرين» الذين لم يقدروا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة قتلوه (٣).

وأما «دافيد ليفنغستون» (١٨٨٣ - ١٨٧٣م) الرحالة أو على الحقيقة المنصر البريطاني الذي اخترق أواسط افريقية من مرفأ سان بول دي لاوندا في انغولا البرتغالية شرقًا إلى كيليمان عند مصب نهر زامبيسي في مضيق الموزمبيك تجاه مدغشقر شمال خط العرض العشرين غربًا. لم تكن رحلته المشهورة في تاريخ الاستكشافات الجغرافية إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية. لقد أراد ليفنغستون أن يستكشف طرقًا في افريقيا للمبشرين لا للمدنية (٤).

فهل يقال بعد هذا إن الغرب علماني لا يهتم بأمر الأديان وأن تلك الرحلات التي قام بها

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٩ ومما يؤسف له أن الذي قام بمساعدة ذلك الرحالة البرتغالي الصليبي هو البحار المسلم «ابن ماجد» الذي أمده بالمعلومات والخرائط ، بل قاد بنفسه سفينته نحو جزر الهند الشرقية.

(٢) العلمانية ص ٦١١.

(٣) واقعنا المعاصر ص ١٨٩.

(٤) التبشير والاستعمار ص ٥١.

المنصرون والصليبيون كانت في سبيل العلم والمعرفة وإسداء النفع للبشرية؟!

إن الجهود التي يبذلها المنصرون برعاية دول الغرب ودعمها أكبر من أن يحدها الحصر ، أو يأتي عليها قلم. «ولا سبيل إلى احصاء ما كتبه المبشرون وأنصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والإسلام ، فإن «شترايت ودندنعر» قد أصدرا بين عام ١٩١٦م وعام ١٩٣١م سبعة مجلدات ذكرا فيها أسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل أعمالهم. ثم إن أكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً، فإن الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الأدنى فقط إلى زملائهم بين عام ١٨٣٠م وعام ١٨٤٢م طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من أصل ثمانية وثلاثين مجلداً.

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في ادنبره (في اسكوتلندة) عام ١٩١٠ أصدر تقريراً عن النواحي المختلفة التى يجب أن يهتم لها المبشرون ، تم طبعه في عشرة مجلدات. أما مؤتمر التبشير الدولي الذي اجتمع في القدس عام ١٩٢٨م مدة اسبوعين فقط. فقد وضع تقريراً في ثمان مجلدات. وهناك عشرات من أمثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة» (١).

«أما المجلات التبشيرية التى صدرت في بلدان مختلفة فهي أكثر من أن يحصيها العد. أضف إلى ذلك أن ثمة في العالم كله جرائد ومجلات سياسية أو أدبية أو علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين» (٢).

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الغربي يرحل عن بلاد المسلمين ظاهريًا ، ويعود أدراجه من حيث جاء. أخذ يمكن بعده للمؤسسات التنصيرية ، ويعمل على تثبيتها . بل إن النشاط التنصيري في العالم الإسلامي قد تعاظم وتفاقم بعد رحيل الاستعمار ، وكأنما الغرب قد أزعجه انسحاب جيوشه العسكرية ، فأبدلها بجيوش هائلة من المنصرين.

ولنضرب على ذلك بمثال هو اندونيسيا(٣) تلك البلاد المسلمة التى استشرى فيها التنصير بشكل لم يعرف مثله في بلاد أخرى. يقول الدكتور رؤوف شلبي (٤) :

---

(١) المصدر السابق ص ٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

(٣) تقع اندونيسيا أو جزر الهند الشرقية أو بلاد الجاوى كما كان يسميها المسلمون في جنوب شرق آسيا وتبلغ مساحتها أكثر من ٢ مليون كم٢ وتضم ١٣٦٧٧ جزيرة صغيرة منها ٦٠٤٤ جزيرة مأهولة. ويبلغ عدد سكانها أكثر من ١٥٠ مليون نسمة تمثل نسبة المسلمين حوالي ٩٦٪ ، و٣٪ نصارى والبقية وثنيون ، وهذه النسبة قد انخفضت بنسبة تصل إلى ١٠٪ بسبب الهجمة التنصيرية الوحشية على ذلك القطر المسلم.

انظر : حاضر العالم الإسلامي ص ٤٥٥ د. جميل المصري.

(٤) من دراسة له نشرت في مجلة الأزهر عام ١٣٩٩هـ.

«إن الخطر الذي يتهدد الإسلام ومستقبله في أندونيسيا بحق وحقيقة آت من سيطرة النصارى على مراكز العصب الحساس في أجهزة الدولة، وأزمة الاقتصاد، مما يذكرنا بسيطرة نصارى المستعمرين أيام أوج الاستعمار الهولندي[١]، وإذا كان ذلك طبيعياً أيام الاستعمار فإنه من المفارقات جداً أن يستمر بعد ثلاثين سنة من الاستقلال[٢]. وهذه السيطرة قد خططوا لها منذ أمد طويل، إذ أعدوا كوادرهم وأتاحوا لهم فرص التحصيل العلمي إلى أعلى المستويات في جامعات أندونيسيا وجامعات الخارج بما يؤمن لشبابهم من منح دراسية سخية. بينما أبناء المسلمين محرومون من تلك الفرص»[٣].

ثم شرع يذكر بالتفصيل الوزرات والمراكز الحساسة التى يسيطر عليها النصارى ومن هذه الوزارات: وزارة الدفاع والأمن الداخلي والصحة والتجارة عدا عشرات المناصب الهامة الأخرى كإدارة الجوازات والهجرة التى تسهل دخول الارساليين ورجال الأعمال الفاتيكان وتعفى القسس ورجال الكنائس من رسوم تأشيرات الخروج الباهظة[٤].

بل إن النصارى قد استولوا على مقاليد الحكم المحلي (اللامركزي) في أربع ولايات مع أن بعضها ذات أغلبية من المسلمين[٥]. ويسيطر النصارى على أغلب الأحزاب والتشكيلات السياسية كطائفة الجولكار[٦] والهيئة المركزية للحزب الديمقراطي الأندونيسي[٧]. كما يسيطرون على القطاع الاقتصادي سيطرة تكاد تكون تامة. إذ يمتلكون عشرات البنوك والشركات المنتجة[٨].

وتشير إحدى الإحصائيات السرية لمجلس الكنائس العالمي إلى أن عدد المبشرين المتفرغين لذلك يبلغ ١٤ ألفًا في عام ١٩٨١م وأن عدد الكنائس يصل إلى ١٦ ألف كنيسة، وأن ما أنفق على التبشير البروتستنتي في أندونيسيا وحدها يعادل ١٣٥ مليون دولار[٩].

---

(١) استمر الاستعمار الهولندي في أندونيسيا أكثر من ثلاثة قرون ونصف. وارتحل عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م.

(٢) هذا الاستقلال ليس إلا ظاهرياً فقط، شأنه في ذلك شأن بقية البلدان التي رحل منها الاستعمار، كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن الاستعمار.

(٣) حقائق ووثائق ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق ص ٥٢.

(٥) المصدر السابق ص ٥٧.

(٦) كلمة الجولكار منحوتة من كلمتين باللغة الاندونيسية وهي جولونقان كاريا أي طائفة أصحاب الحرف وينضوي تحت مفهوم أصحاب الحرف كل من يحترف حرفة يعيش منها، ولها ضريبة تتقاضاها من أتباعها.

(٧) المصدر السابق ص ٥٩.

(٨) المصدر السابق ص ٦٠.

(٩) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٩٠. د. جميل المصري.

كما يمتلكون أحدث وسائل النقل والمواصلات مثل طائرات الهيليكويتر وطائرات التشيستا والأجهزة اللاسلكية [١]. وحسبك أنهم يمتلكون خمسين مطاراً خاصاً بهم [٢].

لقد قرر المنصرون في مؤتمرهم الذي عقدوه في مالانغ في جاوة الشرقية أنه يجب أن ينتهوا من تنصير سكان جزيرة جاوة خلال العشرين سنة المقبلة، وأن ينتهوا من تنصير أندونيسيا كلها خلال خمسين عاماً القادمة. وقد نشرت مجلة (تايم) الأمريكية في عددها ١٩٨٢/٥/٣م أن ٥,٦ مليون مسلم في أندونيسيا قد تحولوا إلى النصرانية [٣]. ومع ضخامة هذه الرقم وفظاعته إلا أنه جاء نتيجة طبيعية لتلك الجهود الجبارة التي بذلها النصارى.

وبلغ من جرأة المنصرين ومجاهرتهم بالتنصير هناك إلى محاولاتهم تنصير الدكتور «محمد رشيدي» أول وزير للشئون الدينية في أندونيسيا المستقلة كما ذكر ذلك نفسه [٤]. ولما أعلنت نيجيريا عزمها على الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٨٦م احتجت الهيئات التنصيرية لدى الحكومة النيجيرية [٥]. مع أن ذلك الانضمام لم يؤثر أبداً في النشاط التنصيري هناك، ولكنه الحقد النصراني الذي لا يعرف له حدود.

أما أفريقيا التي يطمح المنصرون إلى تنصيرها بالكامل فيبلغ عدد المنصرين فيها ١٠٤ آلاف ويعمل ٩٣ ألف رجل وامرأة ضمن لجان تطوعية لتوزيع الإنجيل، وفيها ١٦٦٧١ معهداً كنسياً لمختلف مراحل التعليم، كما تخضع ٥٠٠ جامعة أفريقية للكنيسة، ومما يزيد عن ٤٨٩ مدرسة لاهوتية لتخريج المنصرين، وتنفق الولايات المتحدة وحدها على الارساليات في افريقيا أكثر من ٦٠٠ مليون دولار سنوياً [٦].

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨٥.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ١٩٤. د. علي جريشة.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٨٧ د. جميل المصري. وتشير بعض الاحصائيات إلى تناقص نسبة المسلمين من ٩٦٪ قبل الاستقلال إلى ٨٦٪ في حين ارتفعت نسبة النصارى البروتستنت والكاثوليك من ٢٪ إلى ٨,٨٪ في عهد الاستقلال.

(٤) الدكتور الحاج محمد رشيدي، هو أحد مثقفي الرعيل الأول من الأندونيسيين الذين تخرجوا في الجامعات العربية، تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة ونال إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون، وأسند إليه كرسي الدراسات الاسلامية بجامعة (ماك جيل) بكندا. وقد رشح لمنصب مدير المركز الإسلامي بواشنطن ويتولى الآن كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة أندونيسيا بجاكرتا، كان أول وزير للشئون الدينية وعمل سفيراً لأندونيسيا في عدد من الدول العربية والإسلامية. حقائق ووثائق ص ٤١.

(٥) حقائق ووثائق ص ٨٤.

(٦) من إحصائية للدكتور عبد الحليم عويس، نشرت في مجلة المجتمع ص ٣٥، عدد ١٠ شعبان ١٤٠٥ تحت عنوان (إحصائية افريقية) نقلاً عن: قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٣٢.

وفي بعض الإحصائيات يوجد في افريقيا وحدها ١١٩٠٠٠ مبشر ومبشرة ينفقون بليوني دولار في السنة (١).

أما من حيث عدد العاملين في حقل التنصير فقد ذكرت مجلة الدعوة المصرية هذه الإحصائية : «يقدر عدد المنصرين في العالم الآن بحوالي ٢٢٠ ألف منصر ، منهم ١٣٨٠٠ من الكاثوليك و٨٢٠٠٠ من البروتستانت ، ومن بين هؤلاء وأولئك أكثر من ستة آلاف كاثوليكي و٣٢٠٠ بروتستانتي من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها (٢).

أما عدد العاملين من الأطباء والباحثين والاجتماعيين المعاونين للمنظمات التنصيرية فقد تجاوز ١٧ مليونًا ، وهناك ٣٠٠ جامعة ومعهد تعمل في مجال تدريب وتخريج المنصرين وإرسالهم إلى مناطق مختلفة من العالم (٣).

ولم يكتف المنصرون بغزو العالم الإسلامي بعقائدهم الباطلة الفاسدة إنما سعوا جاهدين إلى تنصير المسلمين المغتربين الموجودين في الدول الغربية ، فقد أعلنت المنظمة العالمية للتنصير عن بدء خطة للعمل في تنصير المهاجرين المسلمين من العرب والأفارقة.

وقد قال رئيس هذه المنظمة إنه ينبغي عدم الاكتفاء بالدعوة ضد الإسلام في ديار المسلمين ، وإنما يجب محاربة الإسلام في نفوس المسلمين الذين هاجروا إلى أوربا للعمل فيها حيث يوجد في أوربا الغربية وحدها ١٠ مليون مسلم ، ويعيش معظمهم في بريطانيا وفرنسا وألمانية الغربية واستطرد يقول : إن الفرصة كبيرة لتنفيذ خطة تنصير هؤلاء المسلمين عن طريق فتح الصدور والبيوت أمامهم واستقبالهم بالمودة والكرم ، وعلينا أن نبدأ نشاطنا بدعوتهم للخروج من الإسلام ، وعلينا أن ندرك أن هؤلاء المسلمين المقيمين في ديارنا هم هبة الله لنا ، وما علينا إلا أن نتقبلها من الله ونعمل في صفوفهم لتحقيق هذه الرسالة» (٤).

نشرت مجلة «لافيد» الإيطالية تقريرًا منسوبًا إلى «دائرة تنصير الشعوب» في روما . يقول هذا التقرير : إن عدد المدارس والمعاهد التي تشرف عليها هذه الدائرة قد بلغ ٥٨,٠٠٠ ثمانية وخمسين ألف مدرسة ، و٢٦,٠٠٠ ستة وعشرين ألف معهد وجامعة ، وقد بلغ عدد المدرسين العاملين في

---

(١) حقائق ووثائق ص ١٥٥.

(٢) الدعوة المصرية ، ص ٤٠ عدد ذي الحجة ١٤٠٣هـ. نقلاً عن المصدر السابق ص ١٢٨ وفي إحصائية أخرى قدر عدد المنصرين بـ٢٥٠,٠٠٠ ألف منصر ، ص ٣٨ من كتاب أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية للدكتور عبد الودود شلبي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة. الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٤) من تقرير د. عبد الحليم عويس واحصائيته السابقة. نقلاً عن قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٣٢.

المدارس التابعة لهذه المؤسسة ٤١٧,٠٠٠ أربعمائة وسبعة عشر ألف مدرس ومدرسة. ويقول هذا التقرير : إن ميزانية الكنيسة الكاثوليكية في أسبانيا قد بلغ في عام واحد : ١١٧,٠٠٠,٠٠٠ مائة وسبعة عشر مليون دولاراً أمريكياً ، وأن مؤسسة واحدة تدعى «روماسيا» قدمت إلى الكنيسة ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ ثمانين مليوناً لها» (١).

إن الظروف السيئة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم خصوصاً منها ما سببته الحروب والمجاعات من تزايد عدد اللاجئين والجائعين ساعدت النشاط التنصيري على توسيع دائرة نشاطه. يقول «ريموند جويس» : «إن أوضاع العالم الإسلامي مؤاتية لنا بأكثر من أي وقت مضى ، بسبب التمزقات والاضطرابات التي تسوده» (٢).

وإن الغرب النصراني ليشن في هذه الأيام حرباً سافرة على الإسلام والمسلمين يقودها المنصرون والقسس ، ويخطط لها البابا والفاتيكان الذي يمتلك ثروة خيالية. «لقد قدرت بعض الصحف الأوروبية هذه الثروة بأكثر من مائة وثلاثين بليوناً ... أي ثروة أكثر من مائة وثلاثين ألف مليون من الدولارات نقداً وعقاراً وشركات وبنوكاً» (٣). أما دعم الحكومات الأوربية للمشاريع التنصيرية فهو جزء من مخططها الاستعماري القديم الذي يمهد لنفوذها ، ويحقق مصالحها.

وأما الولايات المتحدة الأمريكية فتعد حاملة لواء التنصير ورافعة الصليب في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي خاصة. وما تنفقه في مجال التنصير أمر لا تحده الأعداد أو تقف عنده الأرقام.

إن الحملات التنصيرية التي تجتاح العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه لتلاحق اللاجئين والجائعين والنساء والأطفال والشيوخ ، وتساوم الملايين من المسلمين على ترك دينهم من أجل لقمة العيش التي لا تتجاوز في كثير من الأحيان رغيفاً من الخبز ، أو حفنة من الأرز. إن تلك الحملات لهي جيوش الاستعمار الصليبي الجديد الذي يتخفى وراء هيئات الإغاثة ومنظمات اللاجئين.

وما إن تحل كارثة ببلد إسلامي - وما أكثر الكوارث - حتى تسارع هذه المنظمات التنصيرية أو تلك الجيوش الصليبية المقنعة للاستحواذ على هذا البلد المنكوب لتنصيره وإفساده. وما يحدث الآن

---

(١) حقائق ووثائق ص ٨٣. وللعلم فإن كل هذه الإحصائيات قد أخذت قبل سنوات تقدر على الأقل بعشر سنوات. وهي في ازدياد مستمر.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون ص ٢٨.

(٣) أفيقوا أيها المسلمون ص ١٢٢.

في الصومال من تكالب الهيئات التنصيرية لهو أكبر دليل على هذا . وكذلك ما يحدث في البوسنة والهرسك حيث يباع أطفال المسلمين إلى الهيئات الأوربية التنصيرية بأبخس الأثمان لتنفث فيهم حقدها المسموم ، وتقوم برعايتهم لينشأوا نصارى حاقدين.

إن هذه الحرب التنصيرية الشرسة التي تشعل أوارها دول الغرب والتي لم تلق مقاومة من جانب الدول الإسلامية للأسف الشديد إلا في القليل النادر - بل إن بعض الحكومات الإسلامية توافق على النشاط التنصيري في بلادها بل تدعو إليه صراحة كما قال «ريموند جويس» [(١)] :

إن هذه الحرب جزء من صراع النصرانية الحاقدة مع الإسلام. ولا يمكن الظفر فيها أو حتى إيقافها إلا بعودة الأمة إلى دينها وتطبيقه في حياتها تطبيقًا كاملاً. حتى يعود الإسلام كما كان ممكنًا في الأرض. ويصبح الواقع الإسلامي الصحيح هو الداعي الأول لهذا الدين ، عندئذ تتقهقر النصرانية وينحدر الصليب ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

وفي خاتمة المطاف لا بد لنا من أن نشير إلى أمر ذي بال ، هو سوء الأحوال الدينية الذي لولاه ما فكرت الإرساليات التنصيرية في غزو العالم الإسلامي فضلاً عن أن تحقق لها نجاحًا. وحسبنا أن نعرف أنه في حين كانت هذه الإرساليات تغزو البلاد الإسلامية وينتقل المئات من المنصرين بين هذه البلدان كان هناك آلاف من الصوفية يطوفون الأقاليم ويرتحلون من بلد إلى آخر لنشر طرقهم. وفي غمرة معتقدات الصوفية المنحرفة يفسح المجال لكل طارق خبيث ، وعدو متربص. وهل كان يمكن بعد كل الأحوال العقدية والدينية التي فصلنا القول عنها في الباب الأول أن تعي الأمة بتلك الهجمة التنصيرية الشرسة أو أن تعد العدة لمقاومتها!؟.

* * *

(١) المصدر السابق ص ٢٨.

الباب الرابع

الصحوة الإسلامية
وآفاق المستقبل

الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل

ويتكون من فصلين

الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في العالم الإسلامي

الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر

الفصل الأول

أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في العالم الإسلامي

أثر حركة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله في العالم الإسلامي [(١)].

لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام المجدد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منتصف القرن الثاني عشر الهجري [(٢)]. بعد ما أطبقت الجهالة على الأرض ، وخيمت الظلمات على البلاد ، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين ، وانطمس نور الإسلام ، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبق سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئاً. واختفت السنة وظهرت البدعة ، وترأس أهل الضلال والأهواء. وأضحى الدين غريباً والباطل قريباً. حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بيأس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك.

ولكن الله عز وجل قضى بحفظ دينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وكان من رحمته تبارك وتعالى بهذه الأمة أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه [(٣)].

فكان الشيخ الامام «محمد بن عبد الوهاب» بتوفيق الله عز وجل هو مجدد القرن الثاني عشر الهجري وهو أمر في حكم المتفق عليه [(٤)].

---

(١) كان عنوان هذا الفصل في خطة الرسالة هو : الحركات الإسلامية وتأثرها بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولكنني آثرت العنوان الحالي ، وبقراءة الفصل تعرف أسباب العدول عن العنوان القديم إلى العنوان الجديد.

(٢) ولد رحمه في بلدة العيينة سنة ١١١٥هـ ، وأعلن الدعوة بعد وفاة أبيه عام ١١٥٣هـ وكان قبل ذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان ذلك في بلدة حريملا . ثم انتقل إلى العيينة التي آزره أميرها عثمان بن معمر أول أمره ، وهناك باشر الشيخ الدعوة الفعلية ، حيث قام بقطع الأشجار التي كان الناس يتبركون بها هناك ، وهدم قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه رغم شدة المعارضة التي قضت عليها مؤازرة الأمير.

وكان رجم المرأة المحصنة التي أقرت بالزنا بعد ذلك إشهاراً لأمر الشيخ في البلدان مما ألب عليه أمير الأحساء سليمان بن محمد الحميدي الذي أرسل إلى ابن معمر يتهدد ويتوعد بقطع الخراج عنه إن لم يقتل الشيخ ، فانتقل الشيخ إلى الدرعية عام ١١٥٨هـ ، وهناك حدث اللقاء التاريخي مع أمير الدرعية محمد بن سعود وتم التعاقد بينهما على نصرة الدعوة مهما كلفهما الأمر. وبذلك دخلت الدعوة ميدان الصراع الحقيقي، وصار لها دولة ومنعة وكيان ، وطار ذكرها في أرجاء العالم. واستمر الشيخ رحمه الله يدعو ويغزو ويجاهد في سبيل الله ، ويدرس ويفتي ويقضي إلى أن أقر الله عينه بانتشار دعوته ، وظهور أتباعها ، فقبضه الله إليه سنة ١٢٠٥هـ فرحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل الله له المثوبة والأجر ، ولمن جاهد معه ، ودعا بدعوته ، إلى يوم الدين.

(٣) حديث صحيح رواه ابو داود برقم ٤٢٩١. في كتاب الملاحم، وهو في صحيح أبي داود برقم ٣٦٠٦.

(٤) انظر من قال من العلماء بهذا في كتاب : عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ١٠ - ١١ للدكتور صالح بن عبد الله العبود. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. إحياء التراث الإسلامي. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

ويمكننا القول إن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله تعد البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل . وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين.

إن الدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» في القرن الثاني عشر الهجري لم تكن سوى الدعوة التي نادى بها المصلح العظيم والإمام المجدد شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله في القرن الثامن الهجري ، وهي نفس الدعوة التي أوذي من أجلها امام أهل السنة والجماعة «أحمد بن حنبل» رحمه الله في القرن الثالث الهجري ، وهي تعنى باختصار الرجوع إلى الإسلام كما أنزل على الرسول الكريم ﷺ ، وفهمه الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون المفضلة عقيدة وشريعة وسلوكًا.

وهي الدعوة التي تكفل الله بحفظها ووعد من حملها بالظهور والنصر إلى قيام الساعة مهما خذلها المتخاذلون وخالفها الخصوم والمناؤون. وأخبر بذلك سيد المرسلين محمد ﷺ في الحديث الصحيح : «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس» (١). ولا زال أتباعها في كل عصر ومصر يقومون بحملها وتبليغها للناس كل بحسب طاقته(٢) ، غير أن الله عز وجل بارك في جهود شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته الأعلام كـ«الحافظ ابن القيم» و«الحافظ الذهبي» و«الحافظ ابن كثير» و«الحافظ ابن رجب» وغيرهم رحمهم الله أجمعين. وكانت دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من كبار الثمار لتلك الجهود الطيبة المباركة التي بذلها شيخ الإسلام وتلامذته الكرام وأتت أكلها بعد حين.

وليس من شأن بحثنا أن نخوض في تفصيل دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» أو نحاول أن نستقصى جهوده وأعماله ، فقد كتب عنه الكثير من المؤلفات (٣) . ولكن الذي يعنينا في هذا المقام هو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، برقم ٣٦٤١ (الفتح ٦/٦٣٢)، ومسلم برقم ١٠٣٧ كتاب الإمارة ٣/١٥٢٤ ، وهو حديث ثابت مستفيض عن الصحابة ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٤٧٩.

(٢) انظر مبحث غربة العقيدة الصحيحة في هذه الرسالة لترى بعض من حملها في الفترة التي نقوم بدراستها وأوذي من أجلها ص

(٣) منها على سبيل المثال : محمد بن عبد الوهاب . لأحمد بن عبد الغفور عطار . داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب لعبد العزيز سيد الأهل. سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين سعيد. الشيخ محمد بن عبد الوهاب للشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي. الشيخ محمد بن عبد الوهاب . حياته وفكره للدكتور عبد الله الصالح العثيمين . الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في التاريخ. عبد الله بن سعد الرويشد. الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب حياته ودعوته للدكتور عبد الله بن يوسف الشبل. محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفترى عليه. مسعود عالم الندوي. هذا عدا المصادر الأصلية مثل تاريخ ابن غنام وتاريخ ابن بشر وتاريخ ابن عيسى. أما الرسائل الجامعية فقد كتب فيه على سبيل

ذلك الأثر العظيم الذي أثمرته تلك الدعوة المباركة في العالم الإسلامي. وسنحاول بيان ذلك بإيجاز شديد لما له من ارتباط وثيق بموضوع الصحوة الإسلامية الذي نحن بصدده فنقول : إن من الخطأ بادئ ذي بدء أن نقف بالأثر العظيم الذي أثمرته دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عند زمن معين أو بلد معين أو جماعة إسلامية معينة ، فإن ذلك لا يمكن أن يفي بحقها ، أو يوضح بجلاء أثرها ، مع ما في مخالفة بعض ذلك للواقع ، كما سيتبين عند حديثنا حول ما قيل عن تأثر كثير من الدعوات الإصلاحية بها.

فالدعوة السلفية كان أثرها العظيم يظهر تدريجياً مع توالي السنين والأيام ، فإن أثرها لا زال في تعاظم وازدياد بالرغم من زوال دولتها الأولى عام ١٢٣٤هـ ومناوأة الكثيرين لها على طول تاريخها. ولسنا نعني بالأثر أكثر من عودة الكثيرين إلى المنهج السلفي ، وانتشار عقيدة السلف بين شباب الصحوة وانحسار الشرك والبدع والخرافات إلى حد كبير . فهذا هو الأثر الحقيقي للدعوة الذي يجدر التحدث عنه ، والإشادة به.

ولو لم يكن للدعوة من أثر إلا انتشار مؤلفات الشيخ وأتباعه بين الشباب خاصة. لكفى بذلك نجاحاً وأثراً . فكيف اذا ضم لها الفضل بعد الله - عز وجل - في نشر مؤلفات شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته في العصر الحاضر ، لقد أغفل كثير ممن تصدى لدراسة أثر دعوة الشيخ في العالم الإسلامي أمراً هاماً وحقيقة ساطعة عند حديثهم عن هذا الأثر ، تمثل ذلك في إغفال الأحوال الدينية السيئة والانحرافات العقدية التي أطبقت على العالم الإسلامي ، وكادت لولا عناية الله أن تخنق هذه الدعوة في مهدها.

إن من يطالع بعض هذه الدراسات القيمة فيقرأ عن أثر الدعوة في العالم الإسلامي ليخرج بنظرة ناقصة ونتيجة غير صحيحة حين لا ينطبع في فكره إلا الحديث عن أثر الدعوة في العلماء والحركات والدول [(١)]. وكأن الأحوال الدينية قد تحسنت ، واستقامت ، والانحرافات العقدية قد زالت ، ولا أريد أن أقول إنه قد بولغ في الحديث عن أثر الدعوة واستجابة الناس لها ، ولكن إغفال الجوانب المظلمة ، رغم كثرتها والتركيز على الجوانب المضيئة ، رغم قلتها ، لا يعطي نظرة كاملة ولا تصوراً صحيحاً.

المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. رسالة دكتوراه للدكتور أحمد عطية الزهراني من قسم العقيدة في جامعة أم القرى. وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. رسالة دكتوره للدكتور صالح بن عبد الله العبود . من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . وغيرها.

(١) انظر على سبيل المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. للدكتور أحمد عطية الزهراني وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. للدكتور صالح عبد الله العبود.

لقد رأينا من خلال دراستنا الطويلة في هذه الرسالة التي كشفت لنا حقيقة الأوضاع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أن الأمة الإسلامية كانت في أسوأ مراحلها التاريخية، وأن أمر الدين قد وهي جداً. وأن الانحرافات قد عظمت والأحوال قد تردت.

وعند ظهور دعوة الشيخ في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، كان أمر الجهل والشرك والبدع والتصوف قد استفحل في البلدان. ورأينا كيف غدت عقيدة السلف محاربة من قبل السواد الأعظم، وغريبة بين الناس، قد تألب ضدها الحكام والعامة والعلماء والجهال. وأن تهمة الوهابية كانت تعني عندهم إهدار الدم والمال أو السجن أو النفي وحرق الكتب. لقد كان أمر الدعوة ضعيفاً وأثرها محدوداً في بداية أمرها، وما زال أمرها في تقو وأثرها في اتساع إلى هذه اللحظة. ولكن تلك الانحرافات العقدية والأحوال الدينية السيئة التي تفاقمت مع توالي القرون كانت من الضخامة والانتشار ما يجعل من إزالتها في فترة وجيزة أمراً غير ممكن على الإطلاق. بل إنه لولا رحمة الله ولطفه عز وجل لاستطاع أعداء الدعوة المتكالبون عليها من كل مكان أن يقضوا عليها قضاء مبرماً.

فكيف يتسنى بعد ذلك إغفال هذه الانحرافات التى لم تكن الدعوة بالنسبة لها سوى شعلة مضيئة في وسط بيداء مظلمة. فتركيز الحديث عن الشعلة المضيئة لا ينفي أنها واقعة في ظلمات بيداء قاحلة.

نعم لقد كان أثر الدعوة كبيراً في نجد وما حولها. أما في الحجاز أو مصر أو المغرب أو العراق أو الشام أو الهند فلم يكن بالطبع قوياً كما رأينا في الباب الأول من هذه الرسالة.

فليس كل بلد يذكر فيه عالم أو عالمان من العلماء يؤمنان بالدعوة وينافحان عنها يصح أن يقال عنه إن الدعوة أثرت فيه تأثيراً جيداً (١). كيف يقال هذا وعشرات من العلماء والفقهاء والمتصوفة بل مئات منهم كانوا يناصبون الدعوة العداء، وتتساق خلفهم جماهير الدهماء، وغالب الحكام والسلاطين. ومن ذكر من المتأثرين بالدعوة لا يعدو أن يكون طريداً غريباً إلا في القليل النادر وكثير من هؤلاء الذين قيل إنهم تأثروا بالدعوة كانوا يتوخون منهج السلف ويحاولون ترسم خطاهم، قبل أن تبلغهم الدعوة كما هو الحال مع الامامين «الصنعاني والشوكاني» (٢).

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٤٧.

(٢) يقول الامام الصنعاني رحمه الله من قصيدته التي بعث بها إلى الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب:

سلام على أهل الحديث فإنني ... نشأت على حب الأحاديث من مهدي

هم بذلوا في حفظ سنة أحمد ... وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد

وقوله منها:

إن الأثر العظيم في نظري ليس في وجود عالم أو أكثر في بلد قيل إنه قد تأثر بدعوة الشيخ فذلك أمر مهما حاول أحد أن يستوعبه يظل محدوداً إلى جانب المخالفين الذين يربونهم أضعافاً مضاعفة. ولكن الأثر جاء بعد ذلك يتسع مع الأيام، ويقوى مع الأعوام ليأخذ المنهج السلفي مكانه المرموق في فكر الصحوة الإسلامية. وما زلنا ننتظر أن يتسع هذا الأثر ليشمل فكر الصحوة بالكامل إن شاء الله تعالى. وإن غداً لناظره قريب.

لابد من بيان الصعوبات التى واجهت وما تزال تواجه الدعوة السلفية. والتركيز على ضخامة الانحرافات. أما أن نسلك الطريقة المعهودة التى درج عليها الكثيرون ممن كتب عن دعوة الشيخ فنذكر الحالة الدينية قبل الدعوة فنغرق في وصفها بالانحراف والجهل ثم نعطف بدعوة الشيخ والجهود العظيمة التى بذلها. ثم نختم بأثرها في العالم الإسلامي. دون أن نشير إلى أن الانحرافات مازالت موجودة ومن الضخامة بمكان فتلك طريقة لا تؤدي إلى نتيجة صحيحة على أقل تقدير.

ويتصور القارئ لأول وهلة أن هذه الدعوة قد قضت على جميع الانحرافات ، وهذا بالطبع غير صحيح . وهذه هي القضية الأولى حول أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لا ينبغي أن نقف به عند زمن معين أو بلد معين ، وليس لنا بعد ذلك أن نغفل الانحرافات الدينية التى ما زالت عقبة كؤوداً في طريق نهوض الأمة وعودتها إلى منزلة القيادة الربانية للعالم . ونعود ونقول : إن الأثر العظيم الذي أحرزته الدعوة هو تبوء المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر الصحوة الإسلامية وانتشاره يوماً بعد يوم.

أما القضية الثانية فهي ما قيل عن تأثر الدعوات الاصلاحية بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وهي قضية تستحق منا وقفة لنخرج من ذلك بنتيجة صائبة.

فقد دأب كثير من المؤرخين المحدثين على نسبة كثير من حركات الإصلاح ودعواته في تأثرها إلى دعوة الشيخ . ومن هؤلاء « خير الدين الزركلي » ، حيث يقول عند ترجمته للامام «محمد بن عبد الوهاب»: «وكانت دعوته وقد جهر بها سنة ١١٤٣هـ(١٧٣٠م) الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله : تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها . فظهر «الألوسي الكبير» في بغداد ، و«جمال الدين الأفغاني» بأفغانستان ، و«محمد عبده» بمصر ، و«جمال الدين

لقد سرني ما جاءني من طريقة وكنت أرى هذي الطريقة لي وحدي

عنوان المجد ١/٥٥.

القاسمي» بالشام ، و«خير الدين التونسي» بتونس ، و«صديق حسن خان» في بهوبال ، و«أمير علي» في كلكتة ، ولمعت أسماء آخرين ...» (١)

ويقول غيره عن حركة الشيخ : «وفي نظرنا لو تم لهذه الحركة مسيرها لتغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى ، ومع أن قوتها السياسية قد زالت زمنًا ما فقد فتحت أفقًا جديداً للمسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فنكاد لا نجد حركة من حركات الإصلاح إلا كان مرجعها ما نادى به «محمد ابن عبد الوهاب» في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر» (٢).

وتقول «الموسوعة الميسرة» : «لقد تركت هذه الدعوة بصماتها وآثارها على حركات الاصلاح التي قامت في العالم الإسلامي بعد ذلك كالمهدية والسنوسية ومدرسة الافغاني و«محمد عبده» في مصر وحركات أخرى في القارة الهندية» (٣).

ولا أعرف مستنداً حقيقياً يمكن لهذا الكلام أن يستند عليه. فهل حدث فعلاً أن تأثر بدعوة الشيخ من ذكرهم «الزركلي» وعدهم من رجال الإصلاح. وهل رجعت جميع حركات الإصلاح التي ذكرت إلى دعوة الشيخ. وهل صحيح أن حركات البعث الإسلامي التي تلتها ما هي إلا صدى لهذه الحركة وامتداد طبيعي لها. وأن امتدادها الفكري قد أمد جميع الحركات الإسلامية بمدد لا ينفد (٤). ويا ليت بعض هؤلاء قد قدم دليلاً واحداً على تأثر هؤلاء المنسوبين إلى الإصلاح وهذه الحركات المنسوبة إلى الإصلاح بدعوة الشيخ. من كلامهم أو من كلام أتباعهم أو من كلام مؤسسي هذه الجماعات والحركات. بل إننا نجد ما يخالف ذلك تماماً في كثير من الأحيان ، ويدحض هذه المقولة ، لأن كثيراً من هؤلاء الرجال وكثيراً من هذه الحركات تختلف مع دعوة الشيخ في العقيدة والمنهج. فكيف يصح أن يقال بعد هذا إن هذه الدعوات قد تأثرت بدعوة الشيخ أو أنها امتداد طبيعي لها.

فـ«جمال الدين الأسد آبادي» المشهور بالأفغاني (٥). الذي لا زال الغموض يكتنف شخصيته

---

(١) الأعلام ٢٥٧/٦.

(٢) دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ص ٢١ . د. محمد بديع شريف وزملاؤه . نقلاً عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٤١٧ .

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٢٧٨.

(٤) الثقافة الإسلامية. المستوى الرابع. ص ١٦٩ الأستاذ مصطفى كامل. جامعة أم القرى. مكة المكرمة.

(٥) من أسد آباد قرب همذان في إيران ولم يكن أفغانياً من أسعد أباد (من أعمال كابل بأفغانستان) كان شيعياً وليس حنفياً سنياً وإيرانياً وليس أفغانياً على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس.

انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ص ١٩٩ ـ ٢٢٥ مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال. دار طيبة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٣م.

والسرية تحوط معظم تصرفاته كان ذا علاقة مريبة باليهود والنصارى والمرتدين. وصلة وثيقة بالمحافل الماسونية ، بل رئيساً لأحدها وهو محفل كوكب الشرق في القاهرة. وهو ما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا». وقال عنه «سليم العنجوري» في شرح ديوان (سحر هاروت) عند ترجمته له : إنه سافر إلى الهند وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر في لغة السانسكريت أم لغات الشرق. وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم ، زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ من ترقي الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»[(١)].

ووصف الشيخ «رشيد رضا» الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود ، التي يشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية ، وقال إن كلامه في النشوء والترقي يشتبه بكلام «داروين»[(٢)].

وسيرته وتنقلاته وتصرفاته تذكر بأهداف الباطنية وأساليبهم ، كما قال الدكتور « محمد محمد حسين »[(٣)]. فكيف يقال بعد ذلك أنه من دعاة الإصلاح ، أو أنه قد تأثر بدعوة الشيخ « محمد بن عبد الوهاب».

أما تلميذه الشيخ « محمد عبده » ومفتي مصر والصديق الأول للمندوب السامي[(٤)] على مصر اللورد «كرومر» الذي نعاه يوم موته ، وقال عنه : «والأيام وحدها هي التي ستكشف عما اذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ «محمد عبده» سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي ، وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجياً ، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال يكمن في هذا الطريق الذي رسمه الشيخ «محمد عبده » ، وإن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع عن عطف الأوروبي وتشجيعه»[(٥)].

ويقول عنه الشيخ «مصطفى صبري» : «أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ «محمد عبده» فخلاصتها أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين ، فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينيين

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٤٢/١. وقد رمي بالإلحاد في الأستانة على أيدي علمائها من أجل قوله إن النبوة صناعة مكتسبة ، واتهمه بعض علماء الأزهر بالإلحاد ومنهم الشيخ عليش. انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٣٥.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ٧٩/١. دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٤٢ ، ص ٣٤٥.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٠.

(٤) هكذا كانوا يطلقون عليه. ولكنه كان هو الحاكم الأول لمصر ، ولم تكن سلطة الخديوي بجانبه إلا اسمية فقط.

(٥) من تقرير كرومر السنوي الذي كتبه بمناسبة وفاة محمد عبده. الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٩.

خطوات ، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة ، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه «جمال الدين الأفغاني» ، كما أنه هو الذي شجع «قاسم أمين» على ترويج السفور في مصر» [١] .

ويقول عنه وعن شيخه الأفغاني : «فلعل الشيخ «محمد عبده» وصديقه أو شيخه «جمال الدين» أراد أن يلعبا في الإسلام دور «لوثر وكلفن» زعيمي البروتستانت في المسيحية [٢] ، فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين ، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالنهوض والتجديد» [٣].

وأفضل ما يقال عن الشيخ «محمد عبده» من خلال منهجه العقلاني الذي أراد به أن يوفق أو يقرب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية : «أنه كان يريد أن يقيم سداً في وجه الاتجاه العلماني ، يحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه ولكن الذي حدث ـ كما يقول «حوراني» في كتابه «الفكر العربي في عصر الحرية» (ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE,) ـ هو أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامي ، لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ «محمد عبده» وأتباعه ، فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى طريق العلمانية» [٤].

فكيف يعد بعد ذلك مصلحًا دينيًا أو يكون متأثرًا بالدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب». وهو مع تمهيده الطريق أمام الأفكار التغريبية التي حاول أن يلبسها ثياب الإصلاح وبالتالي استحق عليها لقب «المصلح» إن وضعناه في مصاف علماء الدين كان معتزليًا متطرفًا ، تظهر اعتزاليته أو عقلانيته في تأويلاته المشهورة للملائكة والجن والطير الأبابيل وخلق آدم [٥]. فأي تأثر بعد كل هذا يمكن أن يقال.

أما «خير الدين التونسي» فيقول في مقدمة كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» : إنه قد تدبر أحوال الأمم وأسباب تقدمها وتأخرها ، فانتهى إلى أن رسم طريق الإصلاح والرقي بالمسلمين لا يتأتى إلا بالنظر في أحوال الأمم الأخرى ، وما جرى عليها من أسباب التقدم» [٦].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١/١٣٢ نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية ص ١١١.

(٢) كان الأول ألمانيًا والثاني فرنسيًا ظهرا في القرن السادس عشر الميلادي ، ودعيا إلى إصلاح الكنيسة وتكون من آرائهما الإصلاحية ما عرف بالمذهب البروتستانتي. انظر محاضرات في النصرانية ص ١٧٧ ، ص ١٨٢.

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١/١٤٤ نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية ص ١١٢.

(٤) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٧. وانظر العلمانية ص ٥٧٩.

(٥) العلمانية ص ٥٧٥.

(٦) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ٩. نقلاً عن الحضارة الغربية ص ٣٥.

« وتفكير خير الدين واضح وصريح فيما يذهب إليه من أن الحصول على أسباب القوة السياسية والحربية والاقتصادية لا يتيسر إلا بتغيير نظم المجتمع الإسلامي والاقتباس من النظم الأوربية .... وهو يرى وجوب الأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي ، الذي يقوم على مسؤولية الوزارة أمام مجلس نيابي منتخب، ويبرر ذلك بما ورد من نصوص شرعية في وجوب المشاورة ويجري في كل كلامه وفي أثناء حجاجه على أن أعضاء المجالس النيابية يقابلون أهل الحل والعقد عند المسلمين..»[١] فأين أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في مثل تلك الآراء!!.

نعم قد يكون كل من «جمال الدين القاسمي» و«صديق حسن» قد تأثر بدعوة الشيخ كما ظهر ذلك واضحاً في مؤلفاتهما كتبنيهما للعقيدة السلفية ودعوتهما إليها. وإن كان ذلك التأثر أشد وضوحاً عند «القاسمي» من «صديق حسن». ظهر ذلك من أتباع الأول لعقيدة السلف في تفسيره المشهور «محاسن التأويل» فلم يكد يخالفها [٢]. ومخالفة الثاني لها بوقوعه في بعض التأويلات الكلامية. غير أن ذلك لا يمنع من انتسابه إلى علماء المذهب السلفي [٣] ، وأن يكون قد تأثر بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، خصوصاً إذا علمنا أنه قد جرت بينه وبين بعض مشايخ الدعوة عدة مكاتبات ، ورحل بعضهم إلى بهوبال لأخذ الحديث عن علمائها ، ومنهم «صديق حسن خان» رحمه الله[٤].

وأما «الآلوسي» فقد كان اتجاهه صوفياً ، ومال في تفسيره المشهور «روح المعاني» إلى التفسير الإشاري الذي يتبعه كثير من الصوفية حتى عد تفسيره من ضمن كتب التفسير الإشاري[٥]. ومال في تفسيره لآيات الصفات إلى مذهب الأشعرية ، ونقل كثيراً من بحوث «الرازي» حولها. ولم يوافق عقيدة السلف إلا في مسألة أو مسألتين [٦]. فكيف يقال إنه تأثر بدعوة الشيخ وهو دائم الانتصار للمذهب الأشعري ، ولو أدى ذلك به إلى لمز أئمة السلفية [٧].

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ٣٦.

(٢) انظر : المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ٢٢٧/١ محمد عبد الرحمن المغراوي. دار طيبة للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣) المصدر السابق ٢٠٤/١.

(٤) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٧٦. ومن الغريب في الأمر أن المؤلف لم يذكر عند حديثه عن أثر الدعوة في الشام علامة دمشق الشيخ جمال الدين القاسمي.

(٥) التفسير والمفسرون ٣٦١/١. د. محمد حسين الذهبي. دار إحياء التراث العربي.

(٦) المفسرون بين التأويل والاثبات ٢٤١/٢.

(٧) المصدر السابق ٢٤٢/٢.

ولو كان «الزركلي» ذكر ابن أخيه الشيخ العلامة «نعمان خير الدين الألوسي» الشهير بابن الألوسي (المتوفى سنة ١٣١٧هـ) صاحب الكتاب الرائع «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» (١) أو حفيده العلامة «محمود شكري الألوسي» (المتوفى سنة ١٣٤٢هـ) صاحب كتاب «غاية الأماني في الرد على النبهاني» لكان ذلك جديراً بالقبول. وهما كتابان كما ترى يدافعان من خلالهما عن عقيدة السلف، ويذودان عن أئمتها وعلمائها. ويقارعان المبتدعين لأجلها. ومن قرأ سيرتهما وتمعن في ترجمتهما رأى أثر الدعوة السلفية واضحاً في مصنفاتهما بادياً في آثارهما. رحمهما الله رحمة واسعة.

ولا ندري على أي شيء اختار «الزركلي» أبعد الأسرة الآلوسية عن عقيدة السلف، ليذكره مثالاً على أثر الدعوة في العراق، وترك من هو أقربهم إليها فعلاً، ومتأثر بها، وعرف منافحاً عنها، وأوذي من أجلها (٢).

وكون بعض هؤلاء الذين ذكرهم صاحب «الأعلام» قد أنكروا بعض ما أنكره الشيخ من بدع ومحدثات فإن إنكارهم لم يكن صدى لتأثرهم بدعوة الشيخ بقدر ما كان صدى لتوجههم الغربي، ولهزيمتهم النفسية أمام الحضارة الغربية التي تكفر بعالم الغيب جملة وتفصيلاً. كما وقع لخير الدين التونسي ومحمد عبده على سبيل المثال. ونأتي الآن إلى الجماعات الإصلاحية التي ذكر أنها متأثرة بدعوة الشيخ إن لم تكن امتداداً لها كما مر معنا من قبل.

يرى بعض الباحثين أن في دعوة الشيخ عاملين أساسيين هما :

العامل الأول : الهدف والغاية هو الإصلاح

العامل الثاني : المنهج الذي سلكه في الإصلاح

«وبهذين العاملين أو بأحدهما يمكن أن يكون الأثر في الحركات الإصلاحية التي أعقبت حركة الشيخ» (٣) وعلى ضوء ذلك أورد الباحث بعض الجماعات والحركات التي تكون قد تأثرت بدعوة الشيخ إما في الهدف والغاية وإما في المنهج والسبيل وإما بهما جميعاً (٤).

ونقف مع العامل الأول وهو الهدف والغاية الذي هو الإصلاح. فنقول إن كلمة الإصلاح كلمة

---

(١) يعني أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام الذي تهجم عليه بالغواية والباطل أحمد بن حجر المكي. ففند المؤلف اتهاماته، وكشف أباطيله.

(٢) انظر : ما وقع للعلامة محمود شكري الألوسي لأجل إنكاره على أهل البدع. في مبحث : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها في الباب الأول من هذه الرسالة ص

(٣) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٤٢١.

(٤) كالمهدية والسنوسية وحركة الشيخ عثمان بن فودي وحركة الشيخ أحمد بن عرفان.

مطاطة استخدمت بكثرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من قبل فئات كثيرة. لذا كان لا بد من تحديد معالم هذا الإصلاح. ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح. بمعنى أن كل من نادى بإصلاح الأوضاع يكون مصلحًا. فكل فئة وكل أصحاب فكر وعقيدة يدعون الإصلاح حتى المنافقين. ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ [البقرة ١١ ، ١٢].

والتغريبيون من أمثال السلطان « محمود الثاني » و «محمد علي باشا» الذين سبق أن تحدثنا عنهما. هدفوا من إجراء سياساتهم وتنظيماتهم إلى الإصلاح . ولكن أي إصلاح . إصلاح على الطريقة الغربية!! يرمي في غايته إلى إستبدال القوانين الغربية بالشريعة الإسلامية. و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» هدفا إلى الإصلاح واعتبرا مصلحين عظيمين. ولكنه إصلاح على حساب المعتقدات الدينية ، ولصالح الاستعمار والغرب.

والقوميون العرب من نصارى وغيرهم كانوا يسعون إلى الإصلاح حسب منهجهم وقاوموا الترك وحاربوهم لأجل ذلك . فلابد من تحديد مفهوم الإصلاح الذي هدفت إليه جميع الحركات الإصلاحية واعتبرته غاية لها .

فالإصلاح مصطلح قرآني . قال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود ٨٨]» ومعناه : «الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ، ويضيع بعض الفرص. فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرصة القذرة ، ويعوض عنها كسبًا طيبًا ورزقًا حلالاً ، ومجتمعًا متضامنًا متعاونًا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام»(١). وهو إصلاح على منهج الأنبياء يعرف أن نجاحه متوقف على توفيق الله عز وجل والتوكل عليه. وفوق ذلك الرجوع إلى الله عند السير في خطواته والعمل من أجل تحقيقه.

فلا بد إذن أن يكون الإصلاح على منهج الأنبياء وبالتحديد على منهج الرسول ﷺ الذي قام بأعظم إصلاح عرفته البشرية في تاريخها الطويل. وجنى ثماره المسلمون ردحًا من الزمن تقدمًا وقوة وحضارة وما واجب أي حركة إصلاحية أو مصلح ديني إلا الرجوع إلى ذلك الإصلاح العظيم ومحاولة إحيائه من جديد.

---

(١) في ظلال القرآن ١٩٢١/٤.

ومن هنا كان المنهج السلفي الذي تبناه الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» في قيامه بحركته الإصلاحية لم يكن إلا عودة صادقة إلى المنهج النبوي الذي ابتعد المسلمون عنه كثيراً بسبب الانحرافات التي فصلنا القول فيها.

ومن هنا نقول إن الإصلاح ما استهدف الرجوع بالأمة إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والقرون المفضلة في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة بالوسائل المشروعة. وباختصار شديد ما كان على المنهج السلفي. وأي عدول عن ذلك المنهج فلا يؤدي إلى اصلاح حقيقي يرضى الله عز وجل ، وتتحقق من خلاله مصالح البلاد والعباد.

ونأتي الآن إلى ما ذكره الباحث من تأثر الحركات الإصلاحية فنقول إنه لا بد أن تكون الحركة متأثرة بدعوة الشيخ في العاملين اللذين ذكرهما معاً في الغاية والهدف وفي المنهج الذي سلكته هذه الحركة في الإصلاح. أما أن يكون التأثر بواحد منهما دون الآخر وهو ما سار عليه الكثيرون فذلك أمر لا يصح.

وقد سبق أن ذكرنا أن الإصلاح كلمة مشتركة استعملها أناس كثيرون وجماعات متعددة. ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح ما لم يكن ذلك على منهج السلف الصالح. وبسبب هذه القاعدة الخاطئة التي سلكها الكثيرون وقعت نتائج خاطئة. كاعتبار الحركة المهدية دعوة إصلاحية فضلاً عن أن تكون متأثرة فعلاً بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله (١). وهي الحركة التي أسست بادئ ذي بدء على الانحراف ، وأقيمت على شفا جرف هار من الكذب والابتداع والخرافة.

وقد ذهبت «الموسوعة الميسرة» إلى اعتبارها من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي (٢). وإلى أنها متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في ضرورة الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة ، وفتح باب الاجتهاد ، ومحاربته لبناء القبور (٣).

واعتبار المهدية من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي خطأ فادح لا ريب نتج عن الخلط والجهل بمفهوم الإصلاح ، وأغرب منه اعتبارها متأثرة بالدعوة السلفية ، فليس كل من دعا إلى الكتاب

---

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٤٢١ حيث اعتبرها دعوة إصلاحية ، وص ٤٧٠ حيث اعتبر ما قام به المهدي ذا علاقة وثيقة بدعوة الشيخ من حيث العمل على الإصلاح. وهذا أثر بالهدف وهو الإصلاح كما يقول ص ٤٧١ وقد بينا خطأ هذا فيما سبق. مع أن الدكتور أحمد الزهراني حفظه الله قد انتقد المهدية بأمور كثيرة تجعل ما ذهب إليه من تأثرها بدعوة الشيخ أمراً مستبعداً. ولكن إصرار الكثيرين ممن كتبوا عن آثار دعوة الشيخ على ربط كل حركة وثورة لبست ثوب الدين بحركة الشيخ جعل ذلك كحقيقة مسلمة عند أغلب الباحثين.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ٤٦٥ ومع انتقادها للحركة المهدية فقد اعتبرتها حركة إصلاحية.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٠.

والسنة بشكل عام يعتبر مصلحاً . ودعوى الكتاب والسنة قديمة حرصت كثير من الفرق الضالة على التستر بها . بل لا بد من شرط جوهري لقبول هذه الدعوى وهو أن الأخذ من الكتاب والسنة يكون وفق منهج السلف. فهل فعل المهدي ذلك! حتى نقول إنه متأثر في ذلك بدعوة الشيخ ، وما فعله المهدي من دعوة إلى الأخذ مباشرة من الكتاب والسنة لا تختلف كثيراً عن دعاوى المتصوفة والمتكلمة والمتمذهبة في كل عصر ومصر من أنهم يتلقون علومهم مباشرة من الكتاب والسنة وأنهم يصدرون عنهما في كل أقوالهم وعقائدهم.

ولكن المعيار الصحيح في ذلك أن يكون ذلك التلقي حسب المنهج السلفي لا منهج آخر ولا ندري بعد هذا ما هو الاجتهاد الذي دعا المهدي إلى فتح بابه ؟ وتأثر في ذلك بدعوة الشيخ (١) هل هو الاجتهاد الشرعي في ضوء الكتاب والسنة ! أم هو اجتهاد من نوع آخر كما وقع فعلاً حيث كان اجتهاد المهدي يخدم ثورته ويدعم دولته قبل أي شيء آخر.

ومن تلك الاجتهادات أو شئت أن تقول الضلالات. تكفيره لمن خالفه أو شك في مهديته ولم يؤمن

---

(١) في الحقيقة لم أجد نصاً واحداً دعا فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحد من أبنائه أو تلامذته إلى فتح باب الاجتهاد صراحة، ولم يدع أحد منهم الاجتهاد المطلق، ولكن المتمعن يرى أنهم كانوا يرون الاجتهاد باقياً وإن لم يناقشوا هذه القضية كما فعل العلامة محمود شكري الألوسي في «غاية الأماني في الرد على النبهاني» الذي شنع على من يقول بسد باب الاجتهاد. وقد ذكر الألوسي في معرض رده على الزائغ النبهاني الذي رمى الشيخ وأتباعه بأنهم ادعوا الاجتهاد جهلاً منه وضلالاً فقال :

إن نسبة دعوى الاجتهاد إلى الوهابية .. افتراء وكذب وبهتان عليهم. فإن أهل نجد كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في فروع الأحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحدا من الناس إلى تقليده. غاية الأماني ٦٠/١.

ويقول الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد في رسالته التي كتبها لما دخلوا مكة سنة ١٢١٨ فاتحين : ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ولا أحد لدينا يدعيها إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد من الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب كأرث الجد والأخوة فإنا نقدم الجد بالأرث وإن خالف مذهب الحنابلة. ويقول أيضاً رحمه الله : ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه. عقيدة الشيخ ص ٢٢١.

وفي ظني أن الهجمة الشرسة التي شنها المبتدعة والمقلدة المتعصبون على أهل الدعوة جعلتهم يحجمون عن مناقشة هذه القضية الخطيرة صراحة ، وينفون نسبة الاجتهاد إليهم مكتفين بتلميحات تدل على بقاء الاجتهاد كتلك التي أوردناها. وقد ذكرت الموسوعة الميسرة ضمن ما جاءت به الدعوة السلفية أنها دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقًا منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ص ٢٧٦. ولا أدري ما هو مستندها في ذلك. خصوصاً وأنها لا توثق المعلومات مفصلة. وإذا أراد قارئ التثبت حول معلومة معينة ضاع بين خضم من المراجع وكان الأولى بها أن توثق كل معلومة حسب مصدرها. وعلى العموم فالمسألة ما زالت تحتاج إلى بحث وتحقيق.

به. وتسميته للزمان الذي قبله زمان الجاهلية أو الفترة. ومنعه لملكية الأرض لأنها لبيت المال ومنعه النساء من لبس حلي الذهب والفضة [١]. إلى غير تلك الضلالات التي أطلق عليها اجتهادات ، وكانت تهدف لتقويته وجعل الأمور كلها في يده حتى لو خالف اجماع المسلمين.

وأما محاربته لبناء القبور فينظر في ثبوت ذلك أولاً. ولعله أراد من ذلك تثبيت دعواه للمهدية وخشي من نفوذ من يسمونهم بالأولياء من الأموات. واذا كان قد حارب البناء على القبور كما قيل فلماذا لم يلتزم أتباعه من بعده بأمره. حيث بنوا عليه بعد موته قبة نسفها اللورد «كتشنر» القائد الإنجليزي الذي أطاح بالدولة المهدية .

فهل يصح بعد هذا أن تكون حركته متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب!!» أو أن تعتبر حركة إصلاحية!! وكون المهدي حارب الإنجليز رافعاً شعار الجهاد ضد الكافرين لا يخول لأحد أن يعتبر حركته إصلاحية نظراً للإنحرافات العظيمة التي وقع فيها. وأقرب شيء عندي يمكن أن يوصف به المهدي هو ما قاله «الزركلي» لدى ترجمته له في «الأعلام» حيث قال : «ثائر ، كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية» [٢] ومثله في ذلك مثل عشرات الثائرين الذين اتخذوا الدين ستاراً لثوراتهم ، وادعى بعضهم المهدية ، ومنوا جميعهم بالفشل.

وقد نسبت جميع الحركات الإصلاحية الأخرى إلى دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» كالسنوسية في ليبيا ودعوة الشيخ «عثمان بن فودي» في غرب أفريقيا. ودعوة الشيخ «أحمد بن عرفان» في الهند. والشيخ «عبد الحميد بن باديس» وجمعية العلماء في الجزائر وغيرها من الحركات والجماعات والدعوات فقيل إنها قد تأثرت بدعوة الشيخ كل ذلك يحتاج إلى تحقق وتثبت وإعادة نظر نعم قد يكون بعضها قد تأثر فعلاً بعض الشيء. ولكن لا بد من الإتيان بالدليل لاثبات صحة هذه الدعوى. وللعلم فإن غالب هذه الحركات والدعوات مخالفة لدعوة الشيخ وعقيدته السلفية كما نقاشنا بعضها. فلم تكد دعوة منها تسلم من غائلة الصوفية المنحرفة ولا العقائد الكلامية ولا البدع المحدثة في الدعوة. بل إن كثيراً من أرباب هذه الدعوات لا يعرفون عن الشيخ إلا من طريق أعدائه ودعاياتهم الكاذبة وبصورة مشوهة غير حقيقية ، أو يعرفه بعضهم ولكن لا يعترف بطريقته السلفية [٣].

ولا يخفى ما في نسبة هذه الحركات المنحرفة إلى دعوة الشيخ وتأثرها بها من خطورة بالغة ، وإصرار كثير من أتباع هذه الحركات والجماعات على التمسح بالدعوة السلفية ليس إلا محاولة منهم

---

(١) الموسوعة الميسرة ص ٤٧٠.

(٢) الأعلام ٦/٢٠.

(٣) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٩١.

لإخفاء انحرافاتهم وضلالاتهم سواء كان ذلك في الوسائل أو في المنهج. ومحاولة منهم لجذب شباب الصحوة الذين يتشوقون إلى العودة إلى منهج السلف الصالح.

إن إطلاق القول بتأثر كثير من الدعوات والجماعات بدعوة الشيخ دون دليل حقيقي ليعطي هذه الدعوات المنحرفة شرعية وسمعة ليست جديرة بها. ومبرراً لاستمرارها على ما هي عليه من إلتواء وانحراف. بالإضافة إلى ما في ذلك من تلبيس على الناس، وخداع لهم، وتغرير بهم وليس في ذلك أي فائدة للدعوة السلفية، بل على العكس من ذلك حيث تفقد أصالتها ويضعف تميزها. «وأغلب ما تعتمد عليه هذه الأقاويل على مصادر غربية بعيدة معادية لا دقة لديها ولا تحقيق ولكن تعتمد على الظنون وما تريده من تشويه للصورة الصحيحة حتى لا يفهم الناس الحقيقة» (١).

وبعد: فنقول: لقد كان أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عظيماً في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون العقيدة السلفية آخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد. وأن يكون المنهج السلفي قد حاز مكاناً مرموقاً في فكر الصحوة الإسلامية وعملها. ومن المنتظر إن شاء الله تعالى أن تزول كل المناهج الخاطئة التي تزاحمه، ويبقى هو وحده في الميدان ليقود الأمة في حاضرها كما قادها في ماضيها ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال﴾ [الرعد ١٧].

* * *

(١) المصدر السابق ص ٦٩١.

الفصل الثاني

الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر

ويشتمل على :

أولاً : العقبات في طريق الصحوة

ثانيًا : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل

أولاً : العقبات في طريق الصحوة

لقد رأينا في الباب الأول «الأحوال الدينية للمسلمين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين» كيف فسدت تلك الأحوال ودب الانحراف فيها. وأصبح الناس في غالبهم بعيدين عن دين الله المنزل ، قد تعلقوا بأمور حسبوها من الدين ، وما هي من الدين.

ورأينا في الباب الثاني ما ترتب على ذلك من آثار عظيمة وعواقب وخيمة سواء أكانت تلك الآثار داخلية أو خارجية. المهم أن الأمة قد أصبحت ضعيفة ذليلة متخلفة. وأصيبت بخواء عقدي. هائل بسبب ما وقعت فيه من انحرافات.

وفوق ذلك كله أضحت مغزوة في عقر دارها بجحافل الاستعمار الصليبي ، وحملات الغزو الفكري الموجهة ، وجيوش المنصرين الحاقدة . وهكذا سقطت في الميدان لا لشراسة تلك الهجمات المكثفة. بل لما أصابها من ضعف وما طرأ عليها من مرض وانحراف.

وفي هذه الأجواء المظلمة والخطوب المدلهمة ، وفي أثناء هذا الانحطاط السحيق والتدهور المريع، وبعد أن أحكم الأعداء قبضتهم ، يأذن الله عز وجل بانبعاث هذه الصحوة المباركة في كل مكان. تلك التي جاءت بعد عدة قرون متوالية من الجهل والضعف والتخلف والانحطاط. «جاءت الصحوة الإسلامية في موعدها المقدور عند الله .. وكانت مفاجأة ضخمة لكثير من الناس! ولكن هل كانت مفاجأة في الحقيقة؟!

إن الذين فوجئوا بها من الداخل كانوا هم الذين نقلوا نقطة ارتكازهم نهائياً من الإسلام إلى الحضارة الغربية ، وأداروا ظهرهم للإسلام على أنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وأنهم هم «المثقفين» ـ هم الطليعة للأجيال القادمة، التي ستتحرر نهائياً من كل عقابيل الماضي ، وتمضي على طريق التحرر إلى نهاية الشوط.

وأما الذين فوجئوا بها من الخارج فكانوا هم الذين بذلوا جهد الشياطين طوال ما يزيد على قرن من الزمان لإبعاد الأمة عن الإسلام بكل الوسائل ، ورأوا بالفعل أجيالاً تبتعد تدريجياً عن الإسلام ، وكل جيل يبتعد أكثر من سابقه عن نقطة ارتكازه الأصيلة ، فظنوا ـ بحساباتهم الأرضية ـ أن الأمة قد أزمعت أن تخرج نهائياً من الإسلام .. ولن تعود!.

ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا قد أغفلوا حقيقة ضخمة تندرج تحتها حقائق كثيرة لا تسير بحسب حساباتهم ، ولا تستطيع حساباتهم أن تصل إليها ، لأن الله قد جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا وجعل في آذانهم وقرًا!.

أغفلوا بادئ ذي بدء أن الذي يدبر الأمر في هذا الكون العريض كله ليسوا هم ، وليس غيرهم من البشر ، إنما هو الله ! ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [يوسف ٢١] ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار. ما كان لهم الخيرة** ﴾ [القصص ٦٨] ﴿ **بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ [البقرة ١١٧] والله سبحانه هو الذي قرر أن يبقى هذا الدين في الأرض إلى قيام الساعة على الرغم من كيد الأعداء كله : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ [الصف ٨ ـ ٩].

وأغفلوا ثانيًا أن الناس في المنطقة الإسلامية قد صحبوا هذا الدين اثني عشر قرنًا كاملة قبل أن يجيئوا هم بسمومهم ليفتنوا الناس عن دينهم ، وامتزجت به مشاعرهم ، وأصبح هو حياتهم وفكرهم ، ومبدأهم ومعادهم ، ونبضهم الطبيعي الذي تنبض به قلوبهم ، فلا عجب أن يرجعوا إليه ولو غفلوا عنه فترة ، إنما العجب ـ كان ـ أن يشردوا عنه ويتجهوا إلى غيره! والعجب الأكبر ـ كان ـ أن يثبتوا على هذا الشرود ، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعي!.

وأغفلوا ـ فيما أغفلوا ـ أن هذا «دين الحق» .. لا تنطبق عليه كل تخرصاتهم عن الدين الذي انتهى إلى غير رجعة ، والذي كان يمثل مرحلة وسيطة بين السحر والعلم ، والذي أخلى مكانه بصفة نهائية للتقدم العلمي والحضاري والتكنولوجي .. الخ. فكل هذه التخرصات إن انطبقت على دين أوربا الجاهلي ـ الذي حرفت فيه الكنيسة ما حرفت ، وشوهت ما شوهت ـ فلا تنطبق على الدين الحق ، الذي حفظ الله أصوله فلم يطرأ عليها تبديل ولا تحريف ، والذي يملك الناس في كل لحظة أن يرجعوا إلى أصوله الصحيحة المحفوظة ، فيصححوا مسيرتهم إن أصابها انحراف في أثناء الطريق .. دين الفطرة ، الذي أنزله الله ليلتقي تمامًا مع الفطرة السوية كما أنشأها الله ، لأنه مفصل على قدها بالضبط ، والذي يصحح انحرافات الفطرة كلما وقع فيها اختلال»(١).

حقًا إنها لمعجزة عظيمة تلك العودة الصادقة والصحوة المباركة من أمة الإسلام التي غفت قرونًا متوالية ، واليوم هي تستيقظ من جديد تنفض الغبار الذي تراكم عليها عبر السنين. وفي كل قطر إسلامي ، ومع إشراقة كل يوم تنبعث صحوة إسلامية على غير ميعاد. ويقبل الناس والشباب خاصة

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٦٤.

إلى الدين بعد فراق دام طويلاً. وتنساب قوافل التائبين والمنيبين في كل حين على طريق الحق غير آبهة بتعالي صيحات المستنكرين في دنيا الجاهلية.

إنها ظاهرة محيرة، ظاهرة تستحق الوقوف عندها طويلاً. تلك الأعداد الغفيرة التي تعود يوماً بعد يوم إلى رحاب الإيمان الطاهرة ، رغم كثرة العقبات وتنوع الصعوبات . إنها معجزة عظيمة وآية ربانية . فرح بها المؤمنون ، وفرق منها المنافقون **﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾** [التوبة ١٢٤ ـ ١٢٥]».

«واليوم يدور الزمن دورته ، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة المسلمين ينحسر ، يبزغ فجر جديد للإسلام في ربوع الإسلام. بدأ الناس ـ والشباب المثقف خاصة ـ يعودون إلى الإسلام ، يريدونه رائقًا صافيًا كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام.

وفي كل مكان في الأرض التي حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث إسلامي ، ودعاة يدعون إلى الإسلام ، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذي يجدون فيه الإسلام مطبقًا بالفعل واليوم الذي يعود في المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض ـ في صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة ـ تحقيقًا لوعد الله : **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن له دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ﴾** [النور ٥٥]». وفي الطريق عقبات كثيرة تعوق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير»[(١)].

وها هي الصحوة الإسلامية تنبعث اليوم لتخوض صراعً عنيفًا وجولات حامية مع الواقع السئ المظلم في مرحلة حرجة من حياة الأمة الأسلامية تمثل صورة من أشد صور الصراع بين الحق والباطل وتحاول أن ترد الأمة إلى دينها الذي بعدت عنه كثيراً ، ولكن الطريق مليء بالعقبات محفوف بالعوائق والمخاطر.

إن مهمة الصحوة الإسلامية تتبلور أساسًا في إرجاع الأمة إلى إسلامها الذي حجبته عنها عوامل كثيرة. أو هو إصلاح الواقع الناتج عن انحراف الأحوال الدينية وآثارها السيئة.

فمجال عمل الصحوة إذن هو معالجة الانحرافات الدينية ومقاومة آثارها الداخلية والخارجية على السواء .. وهو مجال عمل ضخم جداً ويحتاج إلى زمن كي يتسنى إصلاحه.

ولا يمكن أن يتم ذلك أصلاً إلا بالرجوع إلى الأصول الصافية لهذا الدين. الكتاب والسنة. وكما قلنا سابقًا على ضوء عقيدة السلف الصالح ومنهجهم القويم.

---

(١) المصدر السابق ص ١٢.

وبالنسبة لموقف الصحوة بين الانحرافات الدينية وآثارها السيئة أمام الحضارة الغربية يجب أن يكون موقف الوسط بين الرافضين لها تماماً دون تمييز وبين الداعين إلى أخذها برمتها دون وعي. موقف يرتكز على سياسة الإنتقاء الواعي من هذه الحضارة فيؤخذ ما يوافق الإسلام وكان نافعاً مفيداً ، ويلقى ما سوى ذلك فلا يلتفت إليه بتاتاً إلا للتحذير منه. وكل ذلك يشكل تبعة عظيمة ومهمة صعبة تضطلع بها الصحوة ولا شك. وفي السطور التالية نشير إلى العقبات التي تعترض طريق الصحوة على سبيل الإيجاز : «تواجه الصحوة الإسلامية مهمة شاقة لم تتعرض لها «حركة إصلاحية من قبل .. فإنه لم يتجمع مثل هذا الركام الذي تجمع اليوم في أية فترة سابقة من التاريخ ، على هذا المستوى الشامل ، وعلى نطاق العالم الإسلامي كله»(١).

إن استمرار الانحرافات الدينية المتراكمة عبر القرون ليشكل الصعوبات الأساسية التي تقف حجر عثرة في طريق الصحوة الإسلامية وتعرقل مسيرتها. ومع أن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» استطاعت بقدر الله عز وجل أن تخترق تلك الحواجز والركامات من بقايا الانحرافات ، وأن تنبعث الصحوة الإسلامية على أثرها في كل مكان إلا أن هذه الانحرافات ما تزال متغلغلة في أرض الواقع. لذا كان لا بد لنا من وقفة حول تلك القضية. فنقول : إن من عوامل نجاح الصحوة الإسلامية في نشر التوحيد وإقامة حكم الله في الأرض معرفة هذه الانحرافات التي ما زالت ترزح في طريقها ، ودراسة الأحوال الدينية والعقدية التي سبقت ظهور الصحوة وواكبتها فيما بعد.

وما هذه الرسالة إلا نقطة على الطريق الصحيح الذي يجب على الصحوة أن تجعله نصب عينيها لتسير عليه ، فغايتها أن تكشف بوضوح عن مدى الانحرافات الهائلة التي سقطت فيها الأمة وكانت السبب فيما حل بها من ضعف وتخلف وتأخر.

إن معرفة ذلك ضروري جداً للصحوة حتى تقدر العمل المطلوب والجهد اللازم لإعادة البناء من جديد. إن على الصحوة أن تدرك جيداً أن تلك الانحرافات التي وقعت منذ دهر واستمرت قروناً لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها ، أو في سنوات قلائل.

كما يجب عليها أن تدرك أيضاً عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وضخامة الجهد الذي تحتاج أن تبذله في علاج تلك الانحرافات التي تشعبت بفروعها داخل جسم الأمة الإسلامية ولم يبق جزء منه إلا دخله الانحراف ، وأصابه الداء.

إنها صعوبات عسيرة ومهمة شاقة تضطلع بها الصحوة وتحتاج منها إلى عمل دؤوب وجهد

---

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. ص ١٦٧ الشيخ محمد قطب. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

مستمر وصبر متواصل. فإن الأمة التي انحرفت عن دين الله عز وجل ، وظلت تنحرف وتنحرف وتظن أن انحرافها كان للدين وإلى الدين وليس عن الدين ليس من السهل أن ترجع عن ما ألفته أثناء انحرافها عن الطريق القويم. ويجب على الصحوة أن تعي هذا جيداً.

«إن الصحوة ليست بصدد «حركة اصلاحية» في جانب واحد من جوانب الحياة ، أو بضعة جوانب بعينها، إنما هي بصدد إعادة البناء. وقد كانت إقامة البناء أول مرة جهداً شاقًا بذله رسول الله ﷺ وبذله صحابته الكرام رضوان الله عليهم أما إعادة البناء .. فما أدري - فقد تكون مهمة أشق، فقد قال رسول الله ﷺ ، لصحابته الكرام رضوان الله عليهم : « إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم » قالوا : يا نبي الله ! أو منهم ؟ قال :« بل منكم»[(١)].

وأيا كان الجهد ، وأيًا كانت المشقة ، فقد قامت الصحوة بفضل الله ورحمته ، وهي ماضية في سبيلها حتى تحقق بإذن الله أهدافها ، وتحقق موعود الله بالنصر والتمكين للمؤمنين.

ولكن عليها أن تدرك مهمتها على وجه الدقة ، لتقوم بها بإذن الله على الوجه الأكمل .. وعليها ألا تستعجل الخطى ، ولا تستطيل الطريق ، ولا تستبطئ النصر ، ولا تنخدع ببعض البشائر فتظن أن الثمرة قد حانت ، ولم يبق إلا القطاف.

بل بقي الجهد .. كل الجهد .. وبقي العرق والدماء والدموع .. وكل عقبات الطريق .. ثم يأتي النصر بمشيئة الله»[(٢)].

ولو نظرنا إلى الواقع الذي تهدف الصحوة إلى إصلاحه لوجدنا أن الانحرافات التي تحدثنا عنها في الباب الأول ما زالت تقف عقبات في طريق الصحوة!.

فانحسار مفهوم العبادة الواسع في صورة الشعائر التعبدية فقط ما زال يعشعش في عقول الكثير من الناس. وزاد من حدته تعاظم المد العلماني وطغيانه على الساحة الإسلامية.

«فقد فهموا معنى العبادة - التي جعلها الله غاية الخلق - فهمًا جزئيًا قاصراً. فهي لا تعدو أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء.

وبهذا الفهم المبتور لا يبالون ما قصروا فيه بعد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيه وأحكامه ووصاياه ، التي تستوعب كل مجالات الحياة ، مع أن العبادة - كما جاء بها القرآن والسنة . وكما فهمها خير قرون هذه الأمة - تشمل الدين كله. وتشمل الحياة كلها»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي ، برقم (٤٣٤١) ، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩٤.

(٢) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٦٩.

(٣) العبادة في الإسلام ص ٩. د، يوسف القرضاوي. مؤسسة بيروت الرسالة. الطبعة التاسعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

والفكر الإرجائي ما زال طاغياً على المجتمعات الإسلامية. ولم تنج الصحوة نفسها من غائلته فما يزال كثير من المتصدرين للدعوة يسيرون في التيار الإرجائي ، وينكرون أشد الإنكار على من يكفر من يحكم بغير ما أنزل الله. ويقولون عمن حكم البلاد والعباد بالقوانين الكفرية الوضعية إنه ليس بكافر لأنه لم يستحل الحكم بغير ما أنزل الله وينادون بالكف عمن قال لا إله إلا الله ولو فعل ما فعل.

ويستدلون في قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [المائدة ٤٤] بقول ابن عباس رضي الله عنهما : «ليس بكفر ينقل عن الملة» ويقول «عطاء» «كفر دون كفر» (١).

ومعنى أن الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة مثل «حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله» أما هؤلاء الذين جاؤونا بالقوانين الكافرة. وطبقوها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنار ، وحاربوا وعذبوا كل من نادى بتطبيق الإسلام فهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء. ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء ٦٥] (٢).

وعلوم الكلام والفلسفة والمنطق ما زالت مسيطرة على أغلب الجامعات والمعاهد في العالم الإسلامي وعقائد المتكلمين ما زالت متبناة عند قطاع عريض من المنتسبين إلى الصحوة الإسلامية. بل إن كثيراً من زعماء الجامعات الإسلامية يرون أن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الأشاعرة . ويرون أن أئمة الاعتقاد هم أئمة المتكلمين من أمثال «الأشعري» (٣) و«الماتريدي» وأتباعهما .

وما زال الشرك الأكبر ضارياً بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي. فعبادة الأضرحة والقبور والتعلق بالموتى والاستغاثة بهم والتوسل بهم ودعاؤهم من دون الله عز وجل كل ذلك يقف في طريق الصحوة. وإن مما يحز في نفس المؤمن أننا لا نكاد نعثر لكثير ممن تولوا قيادة الصحوة في غالب البلاد الإسلامية على كلام أو دعوة بين ظهراني المشركين من عباد القبور في بلدانهم التي غرقت في أوحال الشرك والبدعة والخرافة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٦٢.

(٢) العقيدة في الله ص ٢٨.

(٣) من الثابت أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله قد رجع عن مذهبه إلى مذهب السلف كما اتضح ذلك من كتابه «الإبانة» حيث يقول فيه : «وقولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا محمد ﷺ ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون - ولمن خالف قوله مجانبون» الإبانة عن أصول الديانة ص ٥٢ طبعة الجامعة الإسلامية ١٤٠٥هـ.

يقول الدكتور مصطفى حلمي : «ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعري - وأبرزهم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري) أن كتابه (الإبانة) من أواخر كتبه وهو دليل على استقراره على طريقة الإمام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف». قواعد المنهج السلفي ص ٢٢٠. دار الدعوة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

وكأن الأمر لا يعنيهم. وتأتي البلية الكبرى حين ينبري بعضهم للدفاع عن هؤلاء القبوريين ، ويهون من شركهم ، ويشنع على من أنكر عليهم ، ويجعل أمر التوحيد ـ وهذا أقل ما يقال ـ في مهب الريح. وتلك لعمر الله فادحة حلت بالصحوة ، وعثرة لا تقال ، جديرة بتعطيل مسيرتها . بل والقضاء عليها .

والصوفية ما زالت تحاول العودة للسيطرة على المجتمعات من جديد وتلقى رعاية وتأييداً من قبل أغلب الحكومات العلمانية ، نكاية في الصحوة الإسلامية التي رضي بعض زعمائها ـ وللأسف الشديد ـ بالإنتساب إلى طرقها ، ولهجوا بالثناء عليها ، بل اعتبروها التربية الأصيلة التي تسمو بها الروح ، وتزكو بها النفس. وانجرف كثير منهم في منزلق الخرافات الصوفية ، وآمنوا بولاية بعض الدجالين والمشعوذين وبما ينفثونه من سحر ودجل وشعوذة على أنه من كرامات الصالحين.

وأما بدع الذكر عند الصوفية التي أوردنا طرفاً منها في الباب الأول فما تزال تحظى بالقبول والاحترام عند كثير من الجماعات الإسلامية.

أما الفرق فقد عظم بلاؤها في هذا العصر ، وصار لغالبها شوكة ودولة. وليست المصيبة في ذلك ، ولكن المصيبة في انطلاء أمر هذه الفرق المحاربة للإسلام والمسلمين على كثير ممن يتصدون لقيادة بعض جماعات الصحوة ، وانخداعهم بها .

وليس أدل على ذلك حين اندلعت الثورة الرافضية في إيران من تسارع كثير من الجماعات الإسلامية إلى تأييدها والإشادة بزعيمها الهالك ، وربط مستقبل الأمة ومصيرها بها .

«جاءت ثورة «الخميني» التي شارك «كارتر» في تصميمها ، وساهم جنراله «هويزر» في تنفيذها عندما نجح في تحييد الجيش ... جاءت هذه الثورة فافتتن بها معظم الإسلاميين ، وظنوا أنها ستعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، وبطولات خالد وصلاح الدين .

وبالغت المجلات الإسلامية في تضخيم شخصية «الخميني» وثورته ، وفي احدى هذه المجلات لم يعد القارئ قادراً على التمييز ما بين السني والرافضي في كتاب هذه المجلة ، وفتحت هذه المجلة بابها على مصراعيه فنشرت كل ما يريده الرافضة ، وأقل ما نشر قصائد تدعو إلى تقبيل تراب «قم ونجف وكربلاء» ، وشد الرحال إلى تلك المزارات والطواف حولها والركوع والسجود لها .

وتنافست معظم الجماعات الإسلامية في تأييد الثورة الايرانية ، وهذه الجماعات التي تنتسب إلى مذهب أهل السنة متناحرة فيما بينها متخاصمة. ومن الصعوبة جداً أن توحد صفها لكنهم جميعاً متفقون على ضرورة تأييد الثورة الايرانية والتعاون والتنسيق مع البطل الاسلامي الخميني ـ كما يقولون ـ .....

ويحار المرء عندما يلمس سطحية الدعاة وغفلتهم ، ثم يلمس مخططات الرافضة ، وتصريحاتهم عن تصدير الثورة ، ووقوفهم على أهبة الاستعداد للانقضاض على الخليج والعراق وسورية ليعيدوا ذكريات العبيديين والقرامطة.

الرافضة يحيكون المؤامرات ضد المسلمين ، وجمهور أبناء السنة يصفقون لهم ، هؤلاء الذين وصفهم أحمد شوقي فقال :

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
ملأ الجو صراخًا بحياتي قاتليه
يا لـه من ببغاء عقله في أذنيه(١)

وكنتيجة للجهل المطبق أو التغاضي الخاطئ عند بعض الجماعات الإسلامية ، برز ما يسمى بفكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة وهي فكرة شيعية نادى بها «محمد التقي القمي» من فقهاء الرافضة. وقد صرح القمي «وهو إيراني الجنسية» أنه بدأ بدعوته منذ عام ١٩٣٧م وأن دعوته قد أثمرت وساق المعلومات التالية كأدلة على نجاح دعوته :

١ ـ وزارة الأوقاف المصرية تطبع وتنشر كتب أئمة الشيعة.

٢ ـ جامعة الأزهر قررت تدريس الفقه الشيعي دراسة مقارنة.

٣ ـ وزارة العدل المصرية تأخذ بآراء فقهاء الشيعة في قوانين الأسرة والأحوال الشخصية (٢).

ويرى كثير ممن يتصدون لتنظير فكرة الصحوة الإسلامية أن الخلاف بين السنة والشيعة ، كالخلاف بين المذاهب الفقهية.

هذه صورة مجملة عن بعض الانحرافات الدينية التي تعرضنا لها في الباب الأول وما زالت مستمرة ليست في الأمة فقط! بل في الصحوة نفسها وعند كثير من قياداتها كما رأينا. وهؤلاء في قيادتهم للأمة كمن يحاول أن يقود جسداً مثخنًا بالجراح ، مليئًا بالأمراض. والسبب في ذلك أن عقيدة السلف لم تلق بعد أي عناية من هؤلاء الذين يقودون الصحوة. وحملت بذور الانحراف معهم إلى جسمها. بل إنهم كثيراً ما يهاجمون أتباعها ويتهمون من يدعو إلى عقيدة السلف ومحاربة البدع والخرافات بالقصور وعدم المنهج والسطحية والاهتمام بالفرعيات وإغفال القضايا الحساسة.

---

(١) وجاء دور المجوس. الجزء الأول ص ٦. عبد الله محمد الغريب. الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٣.

وكثير منهم يلمزون من يتصدى للرد على الفرق المبتدعة من علماء العقيدة السلفية ويعتبرون أن ذلك أمر لا طائل من ورائه ، ولا فائدة منه. مع ما في ذلك من تفريق للأمة.

ولا ندري لماذا يصر كثير من هؤلاء القائمين على العمل الإسلامي على دفن رؤوسهم في الرمال ويحاولون التغاضي عن انحرافات هذه الفرق التي هي موجودة بالفعل ، وتحاول نشر عقائدها وترويج مذاهبها ، وتعتبر عقبة كبيرة في طريق الصحوة الإسلامية التي وللأسف الشديد يحاول كثير من قياداتها نسيانها وعدم الاكتراث بها ، بل وانتقاد من يحاول التنبيه إلى خطرها.

وكثير منهم لا يميزون بين الخلافات البسيطة ، وبين الخلافات العقدية الكبيرة التي تدين بها الفرق المبتدعة على اختلافها ، فيجعلون لرؤوسها الضالين نصيب المجتهدين. ويدعون إلى عدم الإنكار عليهم بحجة أوهى من بيت العنكبوت وهي أن هذه الأمور مما يسوغ فيها الاجتهاد ويرى بعضهم أن التمسك بمذهب السلف وعقيدتهم ، ونبذ آراء الفرق المحدثة وردها وبيان بطلانها ، وتحذير الأمة منها، لا يتماشى مع أدب الخلاف.

وبهذا الخلط العجيب تميع أمور العقيدة وقضايا الإيمان ، ويجعل للمبتدعة أجر المجتهدين. وتختفي معالم عقيدة السلف وتقوض دعائمها ، ويصبح الباطل إلى جانب الحق. والبدعة إلى جوار السنة. ويضحي المسلمون في أمر مريج. ويأبى الله عز وجل أن يقع هذا ، وأن يخالط الضلال الهدى. بإصرار أهل الباطل على باطلهم قبل كل شيء ومنافحة أهل السنة عن عقيدتهم مما يدحض مثل هذه الآراء الشاذة التي لا تنال من عقيدة كنيلها من عقيدة السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ . يقول الدكتور «ناصر العقل» :

« إن المتأمل لواقع الدعوة والحركات الإسلامية القائمة اليوم يجد أن غالبها يدعى الانتماء إلى أهل السنة والجماعة .... ولا شك أن منها .... ما هو جدير بالانتماء لأهل السنة ، ومنها ما هو بعيد ـ كل البعد ـ عن أهل السنة . ومنها من يعني بأهل السنة الأشاعرة والماتريدية ونحوهم من الفرق التي هي أقرب إلى أهل السنة في الجملة ...».

«كيف ينتمي لأهل السنة من يؤول صفات الله ، ويقول على الله بغير علم ، ويقع فيما حذر منه السلف من تقديم العقل على كلام الله وكلام رسوله ﷺ في صفات الله والقدر وسائر أمور الغيب؟ ...: إن بعض الدعوات القائمة تقوم على هذا الأساس ، وتدعى أنها هي أهل السنة. ثم كيف ينتسب لأهل السنة من يرى أن الطرق الصوفية المبتدعة منهجاً سليماً للدعوة .

والعجب كل العجب .. أن يدعى الانتساب لأهل السنة من الدعاة من يدافع عن البدع أو يروج

لها أو يرضى بها ، أو يرى أن أمرها يسير ، وأنها ليست من مسائل الدين المهمة ، مثل بدع الموالد ، والاحتفالات الدينية البدعية ، وأين هذا من عقيدة السلف ، إن من الدعاة من يعمل هذه البدع ، ومنهم من يستهين بأمرها ويهون من خطرها.

والأدهى من ذلك أن يوجد من الدعاة الكبار الذين ينتمون إلى حركات إسلامية مشهورة - من يتمسح بالقبور والأولياء من الأموات والأحياء ، ويطلب منهم كشف الضر ، وجلب النفع ، ويلجأ إليهم في السراء والضراء. وكيف يدعي رفع شعار أهل السنة من يتصدر للدعوة وهو لا يعرف عقيدة السلف ، وربما سئل أحدهم عن بدهيات العقيدة فلا يجيب ، وإن أجاب خلط.

وهل يكون من أهل السنة من لم يكف لسانه ولا قلمه عن التعرض بالنقيصة واللمز أو السباب لبعض الصحابة أو التابعين وأئمة الهدى المعتبرين وسلف الأمة الماضيين. خاصة علماء السنة والحديث وهناك مع كل آسف - من كبار الدعاة أو ممن يزعمون أنهم دعاة من يؤخر الصلاة الفريضة عن وقتها دون ضرورة ، أو لا يهتم بصلاة الجماعة ، ومن يستحل أكل الربا ، ومن يستحل سماع الأغاني والموسيقى ، أو يقتني الصور المجسمة ، أو يدخن ، ومنهم من يحلق لحيته دون ضرورة. أو يتشبه بالكفار في لباسه ومظهره ، وسائر تصرفاته المعاشية ، ومنهم ن لا يهتم بالحجاب الشرعي للنساء ، أو يقر الاختلاط المحرم ويرضى به الخ. من الأمور التي تخل بالدين ، أو تجرح العدالة ، أو تنافي الفضيلة ، ولا تقبل ممن يتصدر الدعوة ويكون قدوة.

وهل يجدر أن ينتسب لأهل السنة من لا يجعل من أهدافه وأهداف دعوته ، تعلم وتعليم عقيدة أهل السنة ورفع لوائها ، والدعوة إليها ، والدفاع عنها؟ لأنها هي النهج السليم والصحيح للإسلام؟.

بل كيف يكون من أهل السنة من يجعل من أهدافه تحاشي التظاهر باعتقاد أصول أهل السنة ، وتحاشي الرد على الفرق المخالفة ، وبدع المبتدعين . بدعوى تفادي إثارة الخلافات بين المسلمين»[(١)].

وبعد : فهذا استعراض سريع لكثير من العقبات التي تتمثل في امتداد الانحرافات العقدية والدينية وتقف في طريق الصحوة . وقد رأينا وللأسف الشديد أن بنور هذه الانحرافات وعدوى هذه الأمراض قد انتقلت إلى جسم الصحوة الإسلامية ، وقد حمل هذه البنور وهذه العدوى أناس كثيرون وجماعات متعددة مما يزيد في صعوبة ما تواجهه الصحوة الإسلامية من عقبات. إن مثل هؤلاء الذين يتغافلون أو يهونون من هذه الانحرافات ويرون أنه يمكن إصلاح الأمة دون علاجها كمثل من يحاول أن يرمم منزلاً متداعياً على وشك السقوط من الخارج فيطليه بالألوان الزاهية. ولم يصنع في الحقيقة

---

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها ص ٥١ ، ٥٢. د. ناصر عبد الكريم العقل. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى.

شيئًا ليتفادى الكارثة . هؤلاء هم الذين لا يدركون خطورة هذه الانحرافات ولا يكترثون بها ، ولا يحاولون علاجها أو التصدى لها ، وينتقدون من يحاول أن يفعل ذلك من غيرهم ، ويتهمونه بشق عصا المسلمين وتفريق كلمتهم.

إن على الصحوة الإسلامية قبل كل شيء أن تحاول تنقية نفسها وتصفية فكرها من هذه الانحرافات الخطيرة برجوع جماعاتها وقياداتها إلى عقيدة السلف الصالح ومنهجهم الواضح. إن كثيرًا من هذه الجماعات والقيادات تهدف فعلاً إلى الإصلاح ، ولكن فات هؤلاء أن ذلك لا يتم بغير الرجوع إلى مذهب السلف الصالح وإعادة الأمة إليه.

فاذا تم للصحوة تطهير نفسها وفكرها وأصبحت في مأمن من عادية هذه الانحرافات ـ وتلك مهمة في اعتقادنا طويلة وشاقة ـ أمكن بعد ذلك إصلاح الأمة وتدارك أحوالها.

والغريب أن يأتي بعد ذلك من يستبطئ النصر ، ويمل الطريق ويقول بعضهم «مضى على الدعوة أكثر من نصف قرن .. ولم تنجح بعد .. أي لم تصل إلى الحكم لتحقيق ما تدعو إليه من تحكيم شريعة الله ، وحل مشاكل المجتمع على أساس المنهج الرباني»(١).

ونسي هؤلاء أن الإسلام بفعل هذه الانحرافات أضحى غريبًا في أوطانه . ولا بد للصحوة الإسلامية أن تكشف هذه الغربة وتجلوها عنه حتى يمكن في الأرض من جديد. ولا يتم ذلك أبدًا بدون التخلص من هذه الانحرافات المزمنة . وهي مهمة عسيرة كما ذكرنا غير مرة . وهي تحتاج من الجهد والعمل والصبر قريبًا من الذي أقيم به الإسلام أول مرة.

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» في شرح حديث الغربة عن الإسلام : «وكذلك اذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر. وقد قال له ﴿ **أفغير الله أبتغي حكمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق. فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ [الأنعام ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦] ، وقال تعالى ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾ [الفرقان ٤٤].

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة. ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريبًا بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد. ...... وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به ورسوله وأتباعه فهذا من

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٥.

ذنوبه ونقص إسلامه ، كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد». إلى أن قال رحمه الله : «وكذلك قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ . فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف . فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد . وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا كان استخلافه المذكور أتم . فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص. وذلك أن هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»(١).

وليت جماعات الصحوة تفهم هذا الكلام وتفقه هذه الحقيقة وتدرك أن الوصول إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض لا يكون إلا بإزالة هذه الانحرافات من الطريق ، وتربية الناس على الإسلام كما أنزل ، وإن أبطأ النصر ، وتأخر التمكين ، فلنعلم أن المسافة ما زالت طويلة والعقبات كثيرة. قال تعالى : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران ١٦٥]. فإذا أضفنا إلى ذلك تفاقم الخلافات بين الجماعات الإسلامية حتى إن الأمر ليصل إلى الصراع والتقاتل في بعض الأحيان أدركنا وعورة الإصلاح وصعوبته.

«ولعلنا لا نكون مبالغين ، إذا قلنا بأن الظاهرة الفكرية والحركية ، الأكثر دلالة على مجمل واقع العمل الإسلامي إنما هي الاختلاف والفرقة وإنك لترى في واقع الإسلام اليوم ، من التحزبات والفرقة والشقاقات أكثر بكثير مما يمكن أن تعثر عليه في عصر الفتن الكبرى في تاريخ الإسلام ، وفي تراث الفرقة فيه»(٢).

«وأصبحت ترى الحركة الواحدة ، والجماعة المنظمة ، يصيبها ـ فجأة ـ الانشطار ، لتبدأ سلسلة غريبة من الانشطارات والتفرقات ، على طريقة المتواليات الهندسية»(٣).

«وقد تصل الفرقة إلى حد المأساة المفزعة ، عندما يتحول الخلاف الفكري إلى عراك حقيقي بين العاملين تسيل فيه دماء مسلمة ، شاهدة على سفاهة السفهاء ، وناعية على جهالة الجهلاء ..»(٤).

إن التفرق علة مذمومة أصيبت بها الأمة الإسلامية ، واعتل بها العالم الإسلامي ، وكان الواجب على الجماعات الإسلامية العاملة في حقل الصحوة أن تحذر منها ، وأن تتجنبها بقدر

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨/٢٩٨، ٢٩٩ ، ٣٠٢ .

(٢) فقه الخلاف. مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي ص ٤٠ جمال سلطان. مركز الدراسات الإسلامية. برمنجهام. بريطانيا. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٣) المصدر السابق ص ٤٢.

(٤) المصدر السابق ص ٤٥.

المستطاع ، ولكن شاء الله عز وجل لحكمة يريدها سبحانه ألا يقع هذا. بل ولدت الصحوة من أول يوم ، وكأنما لفت في رداء من الخصام والفرقة ، وتعاهد العاملون فيها على عدم الاتفاق أبدًا. أما وقد وقع التفرق وحدث الخصام فلا مندوحة إذن من العمل الدائب المخلص على إزالته ، وقد حذر الله عز وجل من التنازع والتفرق ، وأمر بالاجتماع والتعاون فقال سبحانه : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ [آل عمران ١٠٣] . وقال أيضًا : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ [الأنفال ٤٦] وقال أيضًا : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ [الصف ٤] ، وقال أيضًا : ﴿ **وتعاونوا عى البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان** ﴾ [المائدة ٢].

ونحن لا نلقي باللائمة على تعدد الجماعات الإسلامية ، فذلك أمر لا مناص منه في أغلب الأحيان لاختلاف الأحوال وتنوع الظروف من بلد إلى آخر. ولكن اللوم يقع على ما يحدث من تنابذ وتخاصم وتفرق وتشاحن بين تلك الجماعات التي تناصب بعضها العداء ، وتنسى في غمرة هذا الصراع الأحمق! العدو الأصلي المشترك ، الذي يتربص بها الدوائر .

والمؤلم كثيراً أن نرى بعض قادة الجماعات الإسلامية ، يفتحون صدورهم وعقولهم للنقاش مع العلمانيين ، ويحاولون ـ بزعمهم ـ تقريب وجهات النظر فيما بينهم ، في الوقت الذي تضيق صدورهم، وتأبى عقولهم أن يفعلوا بعض ذلك مع الجماعات المخالفة لهم. وفي حين نراهم يرددون دائمًا وجوب الحكمة والموعظة الحسنة في مناقشة العلمانيين وأثناء حوارهم ، نراهم على الطرف الآخر يكيلون ألفاظ التهكم والسخرية بمن يخالفهم من الجماعات الأخرى ، وربما وصموها بالتزمت والتطرف ، إلى غير ذلك من الأمور المؤسفة التي تدور في ميدان الصحوة.

ولعل أهم خلاف نشب بين مختلف الجماعات الإسلامية هو «اختلاف الرأي بين العاملين للإسلام في مناهج الإصلاح والتغيير المنشود :

أنبدأ بالقمة أم بالقاعدة؟ أنرجح طريق الثورة والعنف أم طريق التدرج والرفق؟

أيفضل الانقلاب العسكري أم الكفاح السياسي ، أم التكوين التربوي؟

أنعطي الأولوية للعمل الجماهيري ، أم لتكوين الطلائع؟

أيجوز تعدد الحركات العاملة للإسلام ، فيعمل كل منها في ميدان أم لا بد من حركة جامعة شاملة؟ إلى آخر ما يمكن أن يقال في هذا المجال ، وهو رحب» (١).

---

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ١٧ د. يوسف القرضاوي. دار الوفاء. المنصورة. نشر دار الصحوة. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

وليس هناك من طريق موصل إلى التغيير الكامل والإصلاح المنشود غير طريق التربية الطويل.

إن المرحلة التي تمر بها الصحوة الإسلامية مرحلة استضعاف وتشرذم. مرحلة تحتاج إلى جهاد الدعوة بالقلم والبيان. كما قال تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ [الفرقان ٥٢]. والضمير يعود هنا على القرآن كما فسر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما [(١)]. «وإن في هذا القرآن من القوة والسلطان ، والتأثر العميق ، والجاذبية التي لا تقاوم ، ما كان يهز قلوبهم هزاً ، ويزلزل أرواحهم زلزالاً شديداً ، فيغالبون أثره بكل وسيلة فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً .....

وإن في القرآن من الحق الفطري البسيط ، لما يصل القلب مباشرة بالنبع الأصيل ، فيصعب أن يقف لهذا النبع الفوار ، وأن يصد عنه تدفق التيار ، وإن فيه من مشاهد القيامة ومن القصص ، ومن مشاهد الكون الناطقة، ومن مصارع الغابرين ، ومن قوة التشخيص والتمثيل لما يهز القلوب هزاً لا تملك معه قراراً .

وإن السورة الواحدة لتهز الكيان الإنساني في بعض الأحيان ، وتأخذ على النفس أقطارها ما لا يأخذه جيش ذو عدة وعتاد!

فلا عجب مع ذلك أن يأمر الله نبيه أن لا يطيع الكافرين ، وألا يتزحزح عن دعوته وأن يجاهدهم بهذا القرآن ، فإنما يجاهدهم بقوة لا يقف لها كيان البشر ، ولا يثبت لها جدال أو محال» [(٢)].

فأين الجماعات الإسلامية من هذه الآية العظيمة. وهل يكون الجهاد بالقرآن إلا بالتزام عقيدة السلف ومنهجهم فكراً وسلوكاً وواقعاً.

«إن حجم الانحراف الذي وقعت فيه الأمة خلال القرون ـ وفي القرن الأخير خاصة ـ أضخم

يحتاج أولاً إلى تبيين الحقائق المجهولة من هذا الدين ، بدءاً بحقيقة لا إله إلا الله، ويحتاج ثانياً إلى تربية الناس على ما تقتضيه هذه الحقائق من سلوك واقعي في واقع الحياة . وهو جهد طويل طويل لا يمكن ـ بحسب السنة الجارية ـ أن يتم في سنوات قصار. والسنوات التي مرت في الدعوة ـ بالقياس إلى عمر الأمم ، قصار جد قصار»[١].

وللأسف الشديد «فإن المتفحص للساحة الإسلامية يرى أن معظم الجماعات الإسلامية بنت مخططاتها في التغيير على المبدأ الديمقراطي ، فهي إما ضالعة فيه ، وإما مناضلة لأجله. وكم من وعود معلنة كانت قد قدمتها بعض الجماعات الإسلامية بأنها في حال هيمنتها على الحكم ستجعله ديمقراطياً ، وأن مجلسها النيابي ستتمثل فيه كافة الطوائف ، وأنها ستطلق حرية الأحزاب والتعبير عن كافة الآراء والاتجاهات مع عدم التعرض لها حال إعلانها ولا حال الدعوة إليها.

وقد انبرى عدد من الكتاب الإسلاميين للدفاع عن هذا المنهج الديمقراطي ، وسارع عدد من الدعاة المعروفين إلى ترشيح أنفسهم عند أول بادرة سنحت لهم في ذلك. وقامت المجلات الإسلامية ، وما تزال ، بتغطية إعلامية مكثفة لهذا المنهج ، فدبجت المقالات وعقدت المقابلات وأجرت الحوارات. ورغم السقوط العلمي لهذا المنهج وثبوت إفلاسه في تقديم أي خدمة معتبرة لهذا الدين ودعاته فإن هذا السقوط ما زاد أصحاب الديمقراطية إلا شدة في الدفاع عنها وحماساً متأججاً للدعوة إليها»[٢].

وفي هذا المجال هناك كثير من الملاحظات السيئة على العمل السياسي الإسلامي لبعض الجماعات الإسلامية. من ذلك :

١ ـ عدم وضوح الرؤية بشأن إسقاط المعنى العقدي للحاكمية على واقع الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي.

٢ ـ انتهاج الطريق الديمقراطي كمنهج للوصول لتحكيم الشريعة الإسلامية.

٣ ـ الدخول في تحالفات مرفوضة شرعاً مع قوى غير إسلامية وتشكيل جبهات وطنية معها.

٤ ـ تأييد الدساتير التي تكرس الحكم بالقوانين الوضعية.

٥ ـ تغلغل أجهزة الأنظمة في بعض المشاريع المهمة للعمل الإسلامي أفقد قيادات ذلك العمل الإسلامي استقلالية القرار السياسي[٣].

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٧.

(٢) الإسلاميون وسراب الديمقراطية ص ٢٥ عبد الغني محمد الرحال. الجزء الأول. مؤسسة المؤتمن دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية. الطبعة الأولى ١٤١٣/هـ.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣.

«إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إلى نتيجة قبل تكون «القاعدة المسلمة» ذات الحجم المعقول! ولنفرض جدلاً أننا توصلنا إلى تشكيل برلمان مسلم مائة في المائة.. كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله ! فماذا يستطيع هذا البرلمان أن يصنع بدون «القاعدة المسلمة» التي تسند قيام الحكم الإسلامي ، ثم تسند استمراره في الوجود بعد قيامه؟ انقلاب عسكري يحل البرلمان ، ويقبض على أعضائه فيودعهم السجون والمعتقلات ، وينتهي كل شيء في لحظات!! [(١)].

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات .. وفوق ذلك فهو يحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم ، وتعوقها كثيراً على الرغم مما يبدو ـ لأول وهلة ـ من أنها تمكن لها في التربية وتعجل لها الخطوات :

المزلق الأول هو المزلق العقدي .. فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها ، والذي يقول له دينه إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي ، لا يجوز قبوله ، ولا الرضى عنه ، ولا المشاركة فيه .. كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغير ما أنزل الله ، ويعلن بسلوكه العملي ـ في كل مناسبة ـ أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله؟ .

كيف يجوز له أن يشارك فيه ، فضلاً عن أن يقسم يمين الولاء له ، ويتعهد بالمحافظة عليه ، وعلى الدستور الذي ينبثق عنه ، والله يقول سبحانه : ﴿ **وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذن مثلهم** ﴾ [النساء ١٤٠]» وهؤلاء حديثهم الدائم هو مخالفة شريعة الله ، والإعراض عنها ، ولا حديث لهم غيره وينتظره المنتظر حتى يخوضوا فيه! .. فكيف إذن يقعد معهم؟

كل ما يقال من مبررات : أننا نسمعهم صوت الإسلام .. أننا نعلن رفضنا المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله .. أننا نتكلم من المنبر الرسمي فندعو إلى تحكيم شريعة الله .. كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقدية الواضحة ......

والمزلق الثاني هو تمييع القضية بالنسبة «للجماهير» .

إننا نقول للجماهير في كل مناسبة إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل ، وإنه لا شرعية إلا للحكم الذي يحكم بشريعة الله .. ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه فكيف تكون النتيجة؟! ......

---

(١) وما حدث في الجزائر فيه أصدق شاهد على ذلك. حين فازت جبهة الإنقاذ الإسلامية في الانتخابات بأغلبية ساحقة. وكانت النتيجة أن تدخل الجيش وألغى الانتخابات ، وأدخل كثيراً من قيادات الجبهة البارزة السجون وفتحت المعتقلات لألوف من الشباب. فهل تعي قيادات العمل الإسلامي ذلك ، وتفيق من غفلتها وسذاجتها!؟

والمزلق الثالث أن لعبة «الدبلوماسية» كما أثبتت تجارب القرون كلها ، لعبة يأكل القوي فيه الضعيف ، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن «يغافل» القوي فينتزع من يده شيئًا من السلطان!.......

ومن ثم فإن الجماعات الإسلامية ـ الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام ـ هي الخاسرة في لعبة الدبلوماسية، والأعداء هم الكاسبون! سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير بتعاون الجماعات الإسلامية معهم ، أو تحالفها معهم ، أو اشتراكها معهم في أي أمر من الأمور أو بتمييع قضية الإسلاميين في نظر الجماهير» [(١)].

«إنه لا بد من ارتياد الطريق الطويل .. المجهد الشاق .. البطئ الثمرة .. المستنفد للطاقة ، طريق التربية ، لإنشاء «القاعدة المسلمة» الواعية المجاهدة ، التي تسند الحكم الإسلامي حين يقوم ، وتظل تسنده لكي يستمر في الوجود بعد أن يقوم ..» [(٢)].

ومع ذلك فإن منهج التربية والإصلاح على ضوء عقيدة السلف الصالح لم يأخذ طريقه كما يجب أن يكون في ساحة العمل الإسلامي ، ومن ثم فلم يعد مستغربًا بعد ذلك أن تبطئ الثمرة ، وأن يتأخر النصر ..

ولا ريب أن هذه الاختلافات «من حصيلة الماضي أكثر مما هي مؤشر للمستقبل من حصيلة الصحوة بعد الغفوة الطويلة .. فحين يهب الناس من الغفوة الطويلة ويدركون ما أصابهم ، ويحاولون الخلاص ، وفي غيبة المرشد الذي تطمئن القلوب إليه وتنقاد له ، يمكن أن يحدث اختلاف وجهات النظر ، فهذا يرى طريق الخلاص من هنا ، وذاك يراه من هناك ، وثالث يرى غير هذين ، ولكن من خلال التجربة .. من خلال المعاناة .. يتضح رويدًا رويدًا أي الطرق أصح ، وأيها قمن بالوصول» [(٣)].

هذه أهم العقبات التي تواجه الصحوة من داخلها. استمرار للانحرافات الدينية والعقدية. في حياة الأمة الإسلامية. وانتقال عدوى هذه الانحرافات إلى الصحوة نفسها مما يزيد الأمر صعوبة ووقوع الخلاف وتفاقمه بين الجماعات الإسلامية ، وعدول كثير منها عن المنهج الصحيح وهو التربية إلى الطرق السياسية المسدودة التي ما يزال كثير من زعمائها يصرون على الخوض فيها، رغم الفشل الذريع الذي جنوه على مدار نصف قرن تقريبًا. هذا كله بالإضافة إلى ما تواجهة الصحوة من خارجها من كيد وحرب ومكر من قبل أعدائها المتربصين بها في كل مكان. ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ [ابراهيم ٤٦].

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٦٢ ـ ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٧.

فما اجتمع أعداء الإسلام على حربه كاجتماعهم في هذا العصر. اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون كل هؤلاء الأعداء المتربصين يرمون الصحوة عن قوس واحدة ، ويحاولون بكل ما أوتوا من إمكانيات مادية أن يقضوا عليها إلى الأبد. ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا . إن الله بما يعملون محيط ﴾ [آل عمران ١٢٠].

«وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الاسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب ، وهو منهي عن هذا بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأن العاقبة للتقوى. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر ، إن وعد الله حق ، وليستغفر لذنبه ، وليسبح بحمد ربه بالعشي والأبكار» (١) .

وما يقوم به أعداء الإسلام من تذبيح وتعذيب وتنكيل بدعاة الصحوة وشبابها ليس إلا محاولة يائسة منهم لإطفاء نور الله في الأرض ، وإجهاض هذه الصحوة المباركة ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة ٣٢ ، ٣٣].

وواجب على دعاة الصحوة أن يتجنبوا الصدام ما أمكنهم ذلك ، وأن لا يستخفنهم الذين لا يوقنون. فيدخلوا في معارك هم الخاسرون فيها. وواجب عليهم أيضًا توحيد المنهج وإزالة أسباب الخلاف ولا يتم ذلك كما قلنا إلا بالرجوع إلى عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ [العنكبوت ٦٩].

ولا شك أن جمع كلمة المسلمين هدف عظيم ، بل هو من أعظم أصول الدين ، ولا ينكره إلا ضال أو جاهل ، لكن جمع المسلمين يجب أن يكون على الحق وعلى الكتاب والسنة ، والاعتصام بحبل الله ، لا على مجرد الشعارات الإسلامية الفارغة من الاعتقاد الحق (٢) .

هذا هو الطريق ، طويل وشاق ، مليء بالعقبات ، محفوف بالمخاطر والصعوبات ، طريق يتطلب تضحيات جسيمة ، وأثمانًا باهظة من الدماء والأنفس والأموال إنه طريق الجنة !! ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة ٢١٤].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨/٢٩٥ .

(٢) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥٣.

ثانياً: المبشرات في طريق الصحوة، وآفاق المستقبل

على الرغم من الأحوال الدينية السيئة وآثارها العظيمة. وعلى الرغم من كثرة العقبات وضخامة الصعوبات في طريق الصحوة، وعلى الرغم من تواطؤ قوى الكفر والشر في الأرض لضرب الصحوة والقضاء عليها إلا أننا نقول وثقتنا بالله وحده دون سواه أن المستقبل لهذا الدين وأن العاقبة للمتقين. ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣].

ومع استضعاف الفئة المؤمنة في الأرض، وعلو القوى الشريرة وإفسادها. تأتي المنة الإلهية والمنحة الربانية فتجعلهم أئمة يرثون القوى الكبرى التي بادت. وتمكن لهم دينهم في الأرض. ويقوم حكم الله في العالم، ويأتي أمره الذي لا غالب له، وهو ما كانت تحذر منه هذه القوى وتعمل بكل ما أوتيت من قوة وبطش لطمسه والحيلولة دون وقوعه . ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص ٥ ، ٦]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في ذلك لبلاغًا لقوم عابدين﴾ [الأنبياء ١٠٥ ، ١٠٦].

فهذا الاستضعاف للمؤمنين، وذاك العلو والتكبر والافساد للكافرين في حد ذاته بشارة للصحوة الإسلامية التي استضعف دعاتها وشبابها أيما استضعاف. فما بعد هذا الاستضعاف بإذن الله عز وجل إلا النصر والتمكين ونيل الإمامة والقيادة في الأرض، ولا يتم ذلك بغير الصبر واليقين ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة ٢٤]. فلتوقن الصحوة بنصر الله، ولتصبر على ما تلقاه في ذات الله، ولتكن بعد ذلك هادية بأمر الله . عندئذ يتحقق النصر، ويتم لها التمكين في الأرض.

من المبشرات أيضًا : «اتساع القاعدة، واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تيارًا ذاتيًا عند الشباب، لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة، أو بوجود جماعة معينة، إنما ينبعث تلقائيًا في نفوس الشباب»[١].

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٣٤.

«وحين كان العمل منحصراً في جماعة معينة كان من السهل على «الجهات المختصة» أن تضرب تلك الجماعة ، فتعطل العمل الإسلامي . أما الآن فلم يعد ضرب جماعة معينة ـ ولا حتى الجماعات كلها ـ يقتل العمل الإسلامي ، الذي «ينبثق» دائماً في تشكيلات جديدة ، بعد ضرب التشكيلات القائمة في الساحة!» (١)

وتلك البشارة لعمر الله هي التي أرقت العلمانيين وأقضت مضاجع الظالمين. ومع كل تنكيل وضرب للصحوة الإسلامية وقتل المئات وسجن الآلاف وتعذيبهم تتسع دائرة الصحوة يوماً بعد يوم ، وتنبعث طلائعها المباركة في كل مكان. ويعود إلى الإسلام أناس من مختلف المستويات قد أضناهم الشرود عن رحابه الطاهرة. وليست توبة كثير من الفنانين والفنانات هذه الأيام (٢) إلا من هذا النهر الجاري الذي تعجز قوى الكفر والشر عن إيقافه.

«لقد صمد الإسلام في حياته المديدة ، لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية ، التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان ـ وكافح ـ وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية ـ وانتصر ، وبقي ، وأبقى على شخصية الجماعات والأوطان ، التي كان يحميها ، وهو مجرد من السلاح» (٣).

وهناك أيضاً دخول الكثيرين في الإسلام في كل أنحاء العالم قاطبة. فما تكاد تغرب شمس يوم إلا وعشرات من الحائرين يدخلون في هذا الدين.

«إن العالم اليوم في حاجة إلى الإسلام .... ومئات الألوف الذين دخلوا في الإسلام من أوربا وأمريكا ـ وفيهم الأطباء والمهندسون والمفكرون وغيرهم من ذوي الحيثيات في بلادهم ـ هم إشارة على الطريق .. إشارة إلى المستقبل» (٤).

ففي مصر مثلاً بلغ عدد الذين جاءوا إلى لجنة الفتوى بالأزهر ليعلنوا إسلامهم خلال عام واحد ستمائة أجنبي ما بين رجل وامرأة. يمثلون مختلف جنسيات الدنيا أجمع الكل على أن الباعث الأول وراء اهتدائهم هو التيقن بأن الإسلام هو الدين الصحيح ، يحمل بين طيات تعاليمه وأحكامه كل ما يكفل بسعادة البشرية (٥).

---

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٢.

(٢) ذكرنا هؤلاء الطائفة مثالاً للرجوع إلى الإسلام لأنهم من أبعد الطوائف في المجتمع عن الدين ، فرجوع غيرهم من باب أولى.

(٣) المستقبل لهذا الدين ص ٩٠. سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٤) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٣٦.

(٥) المد الإسلامي الباهر ص ١٥ مصطفى فوزي غزال. شركة دار القبلة. جدة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

هذا عدا دخول الأقباط في الإسلام الذي تحاول الكنيسة الأرثوذكسية عرقلته دائماً [١].

أما دار تبليغ الإسلام التي يقوم عليها الداعية المصري المهندس «محمد توفيق أحمد». فقد كانت آخر بطاقة دخل صاحبها في الإسلام لرجل هولندي تحمل الرقم ٣٣٣٤ [٢].

من المبشرات ايضاً ما : «يتمثل في فشل النظم المستوردة في حل مشاكل الناس ، وفشل الزعماء العلمانيين في تحقيق ما كانت الأمة تعلقه عليهم من الآمال. فهذا هو الواقع المشهود بعد قرن كامل من استيراد النظم من غرب أوربا أو شرقها على السواء. ضعف متزايد من جانب المسلمين وقوة متزايدة وعدوان مستمر من جانب الأعداء» [٣]. لقد أدرك الكثيرون حقيقة هذه الشعارات الزائفة التي طالما خدعت بها الشعوب ، وضللت بها الجماهير. «وحين ييأس الناس من هذه النظم ومن هذه الزعامات .. فإلى أين يتجهون؟ إنه رافد للصحوة الإسلامية لا يمكن وقفه!» [٤].

إنهيار الشيوعية. وسقوط المعسكر الشرقي أو الاشتراكي من المبشرات . «فقد كانت الشيوعية فتنة لكثير من الشباب في العالم الإسلامي ، بل كانت أمريكا ذاتها تستخدم الشيوعية - في مناطق نفوذها - لتحارب لها الإسلام! وكانت تضع وسائل الإعلام في أيدي الشيوعيين ليشوهوا صورة الإسلام في نفوس الشباب ويفتنوهم عنه. ومهما يكن في جعبة اليهود - مبتدعي الشيوعية - من بدائل لفتنة الناس عن الدين ، فإن انهيار النظام الذي كان قائماً على الإلحاد ، هو دفعة للاتجاه الديني في الأرض كلها ، ودفعة للتيار الإسلامي في أرض الإسلام» [٥].

وبعد أن انهار المعسكر الشرقي ، نحن في انتظار انهيار المعسكر الغربي . حيث الحضارة الغربية قد هرمت وشاخت وهي على وشك السقوط وحافة الانهيار بعد أن ظهرت أماراته ودلائله. وقد تصايح كثير من زعماء تلك الحضارة وأنذروا قومهم بسوء المصير. فهذا الرئيس الأمريكي «ويلسون» يكتب قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً جاء فيه : «إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية ، إلا إذا استردت روحانيتها» [٦]. ولم يعد عند النصرانية المحرفة من الروحانية ما تسعف به هذه الحضارة المتداعية.

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠. نقلاً عن منار الإسلام ، شوال ١٤٠٧هـ/١٠٨.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٥٢٨.

(٤) المصدر السابق ص ٥٢٩.

(٥) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٤. ولا يخفى ما كان للجهاد الأفغاني من دور في تهاوي الشيوعية كما اعترف نيكسون نفسه في كتابه الآخير «اغتنموا الفرصة» انظر : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧.

(٦) المستقبل لهذا الدين ص ٧٣. انظر : صيحات الخطر . والمخلِّص في نفس الكتاب.

«وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تنهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين تتكلم عن الانهيار ؛ لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم .. تحمل قوة العلم وقوة الصبر والجلد على العمل، وعبقرية التنظيم، والروح العملية في دراسة المشاكل والبحث لها عن حلول، وتحمل تيسيرات نافعة في كثير من جوانب الحياة . تحاول أن ترفع الجهد عن كاهل الإنسان وتحمله للآلة. وكل هذه قوى تمسك بالكيان المتساقط وتمنعه من السقوط السريع ، رغم كل «الأوزار» التي تدفع به إلى الانهيار.

نعم .. ولكنها ـ كلها ـ لا تستطيع أن تحول دون النهاية المحتومة .. لأنها من سنة الله» (١).

ولا شك إن ما يعج به ذلك الماخور العظيم من خواء روحي ، وقلق نفسي ، وأمراض نفسية وازدياد نسبة الجنون والانتحار والطلاق والإجهاض. وارتفاع معدلات الجريمة والاغتصاب والقتل والسرقة والاختطاف وجنوح الأحداث وفشو المخدرات والشذوذ الجنسي وانتشار الأمراض الفتاكة. كل تلك الظواهر الخطيرة جديرة بإيقاف ذلك الماخور وتحطيم عجلته وانحداره إلى هاوية الهلاك (٢). وكل هذا إن شاء الله يصب في رصيد الحركة الإسلامية في المستقبل التي ينتظر منها أن ترث الأرض بعد أن تزول تلك الحضارة الجاهلية ، وتقود البشرية من جديد.

من المبشرات أيضاً وإن كان يرى لأول وهلة أنه ضد الصحوة وهكذا أريد له فعلاً : «الوجود الإسرائيلي ذاته ، الذي قصد به أن يكون «بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض» وهي اليوم قائمة بعملية الوخز على أبشع صورة .. ولكن ما الأثر المتوقع حين يشتد الوخز؟ إن الذي يتوقع هو أن يهب العملاق ـ من شدة الألم الذي يحدثه الوخز ـ ليكيل الضربة لمن يخزه ، وذلك حين يصبح الألم أشد من الاحتمال ، ويصبح خطر التعرض للموت أهون عند صاحبه من استمرار الآلام.

إن اليهود يتصرفون اليوم بحماقة ضد صالحهم وهذا أمر مشهور عنهم في التاريخ : أنهم يظلون يتمادون في صلفهم وعجرفتهم حتى يضيعوا ما بأيديهم وهم اليوم يلعبون بالنار في المنطقة ، ويعملون على إثارة الروح الإسلامية التي جيء بهم لإخمادها» (٣).

وليس أدل على ذلك من انبعاث الإنتفاضة الإسلامية في الأرض المحتلة لا ترى بغير الجهاد تحريراً للمسجد الأقصى وفلسطين المغتصبة ، وعجز اليهود عن القضاء عليها.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٥٢٨.

(٢) انظر : «الإنسان ذلك المجهول» للدكتور ألكسيس كاريل. و«حرب أم سلام» للمستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة. وانظر : نموذج واحد للمأساة في كتاب «العلمانية» ص ٤١٦.

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٣.

كل هذه المبشرات توحي بأن المستقبل للإسلام وأن العاقبة للصحوة الإسلامية. هذه المبشرات ما كانت لتحمل في ثناياها البشرى لولا الوعد الصادق والبشارة الحقيقية من الله عز وجل في كتابه العظيم وسنة النبي الكريم ﷺ بنصر هذه الأمة وتمكين دينها في الأرض.

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور ٥٥].

وقال عز وجل : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر ٥١].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة في هذا المعنى والتي قدمنا طرفًا منها.

أما البشارات الصادقة التي بشر بها الصادق المصدوق ﷺ فنذكر منها :

قوله ﷺ : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا ادخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزًا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر» (١).

حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «إن الله زوى «أي جمع وضم» لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها» (٢).

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : قال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، اذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني القسطنطينية» (٣).

قال الشيخ «الألباني» : «وقد تحقق الفتح الأول على يد «محمد الفاتح» العثماني كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين» (٤).

عندما تسقط روما عاصمة الفاتيكان تحت الفتح الإسلامي المرتقب ، تتهاوى معاقل النصرانية معقلاً بعد معقل ، وتدك دول الصليب دولة بعد دولة . وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢٤٧/٨ . وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/١.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٨٨٩ كتاب الفتن وأشراط الساعة. باب هلاك الأمة بعضهم ببعض ٢٢١٥/٤.

(٣) رواه الإمام أحمد ١٧٦/٢ والحاكم ٥٠٨/٤ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٤).

(٤) السلسلة الصحيحة ٨/١.

أما المعركة الفاصلة مع اليهود فيخبر عنها الرسول ﷺ بقوله : «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»[١].

هذا الوعد الصادق من النبي ﷺ نكاد نراه في قول الله عز وجل في سورة الإسراء : ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا﴾ [١٠٤].

ومع أن جمهور المفسرين فسروا ذلك بالمجيء في الدار الآخرة. فإن ذلك لا يمنع أن نقول استناداً إلى الحديث السابق أن هذه الآية الكريمة تكاد تحكي الواقع الآن. فإن اليهود الذين شردوا في الأرض هكذا في الأرض مطلقًا. في كل أنحائها ودولها لتشتد هجرتهم وتتلاحق عودتهم إلى أرض المعركة الفاصلة بإذن الله عز وجل. جئنا بكم لفيفًا.

هذه الهجرات الجماعية المتواصلة من قبل اليهود والتي يستميتون في عملها واستمرارها هي أمارات المعركة القادمة. وهي طلائع الوعد الصادق. وعد الآخرة. عند ذلك يتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من عودة الخلافة التي تكون على منهاج النبوة : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت»[٢].

وكما عرفنا كثرة العقبات وضخامتها لابد أن «نعرف من جانب آخر أن المبشرات أكبر من العقبات . الصحوة ذاتها آية من آيات الله ، بعد كل ما أصاب الأمة من انحراف، وكل ما كاده الأعداء من كيد ، إن الناظر إلى جسامة الانحرافات التي وقعت فيها الأمة ، حتى أفرغت لا إله إلا الله من محتواها الحي كله، فأصبحت مجرد الكلمة التي تنطق باللسان. والناظر إلى جسامة الكيد الذي كاده الأعداء للأمة الإسلامية في القرون الأخيرة ، والقرن الأخير خاصة ، كان يجزم أن هذه الأمة لن تعود أبداً ، وأن هذا الدين قد انتهى من الأرض!

ولكن قدر الله الغالب كان عكس ذلك .. كان هو الصحوة الإسلامية!

والمسافة التي قطعتها الأمة - أو قطعتها الصحوة الإسلامية - من الخواء الميت إلى الحركة

---

(١) رواه البخاري بنحوه في كتاب الجهاد باب قتال اليهود برقم ٢٩٢٦ (الفتح ١٠٣/٦). ورواه مسلم بهذا اللفظ برقم ٢٩٢٢ كتاب الفتن ٢٢٣٩/٤ وزاد مسلم في هذه الرواية قوله : إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

(٢) رواه الإمام أحمد ٢٧٣/٤ انظر السلسلة الصحيحة ٨/١.

الحية مسافة هائلة في حقيقة الأمر. فإذا قلنا اليوم إن الشوط مازال بعيداً ، فليس هو أبعد في حقيقة من الشوط الذي قطعته بالفعل. وفرق بين الجهد المبذول لإيقاظ النائم من غفوته ، ووضع قدميه على الطريق ، وبين الجهد المطلوب لترشيد حركته ، وبث مزيد من النشاط فيها » (١).

إن الحديث عن المبشرات في خضم هذا الواقع المليء بالعقبات، وفي الوقت الذي يستضعف فيه المسلمون شرقًا وغربيًا، وتتألب قوى الكفر والنفاق على وأد هذه الصحوة الإسلامية وطمس معالمها قد يكون منساقًا مع العواطف التي تجيش في النفوس المؤمنة التي ضاقت عليها الأرض بما رحبت. ولكنه الحق على أي حال. وما أجمل تمثيل الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله تعالى في هذا المقام الذي تكاد هذه المبشرات أن تفقد شعاعها الساطع على صخور العقبات العنيفة بقصة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي رضي الله عنه! حيث يقول بعد أن بين أن المستقبل لهذا الدين : «ولا حاجة بنا إلى المضي في توكيد هذه الحقيقة على هذا النحو. فنكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة من الواقع التاريخي للإسلام ، لعلها أنسب العبر في هذا المقام :

بينما كان « سراقة بن مالك » يطارد رسول الله ﷺ وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه - وهما مهاجران خفية عن أعين قريش .... وبينما كان سراقة يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول وصاحبه ، طمعًا في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد وصاحبه أو بخبر عنهما. وبينما هو يهم بالرجوع - وقد عاهد النبي ﷺ - أن يكفيهما من وراءه..

في هذه اللحظة قال النبي ﷺ «ياسراقة كيف بك وسواري كسرى؟ (٢).. يعده سواري كسرى شاهنشاه الفرس! (ملك الملوك!). والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة ، حول هذا العرض العجيب. من ذلك المطارد الوحيد .. إلا من صاحبه الذي لا يغني شيئًا عنه والمهاجر سرًا معه!.

ولكن الرسول ﷺ - كان عارفًا بالحق الذي معه ، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك.. وكان واثقًا من أن هذا الحق لابد أن ينتصر على هذا الباطل وأنه لا يمكن أن يوجد «الحق» في صورته هذه ، وأن يوجد «الباطل» في صورته هذه، ثم يكون ما يكون! كانت الشجرة القديمة قد تآكلت جذورها كلها ، بحيث لا يصلها ري ولا سماد .... كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن

---

(١) لا إله إلا الله. عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧.

(٢) قصة سراقة أصلها في الصحيح. رواها البخاري برقم ٣٩٠٦. وليس فيها خبر سوارى كسرى. وروى الحافظ البيهقي قصة السوارين وإلباس عمر إياهما لسراقة في دلائل النبوة ٣٢٥/٦. وذكرها الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢٠/٢ والحافظ ابن حجر في الإصابة ١٩/٢. والحافظ ابن كثير في البداية ٦٩/٧.

تجتث.. وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء .. وكان واثقًا من هذا كله ثقة اليقين نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته ، وكل سماته. مع الجاهلية كلها من حولنا .. فلا يجوز - من ثم - أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة . العاقبة التى يشير إليها كل شيء من حولنا. على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التى تحيط بنا! إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج ، ليست بأقل من حاجتها يومذاك ، وإن هذا المنهج اليوم - بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج - لا يقل عنه يومذاك.

ومن ثم ينبغي ألا يغالبنا الشك فى أن ما وقع مرة فى مثل هذه الظروف لابد أن يقع. ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك ، بسبب مانراه من حولنا ، من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان» (١).

حقًا إنه تمثيل جميل. وما أشبه الليلة بالبارحة. حين يعطى النبي ﷺ وهو الطريد الشريد ذلك الوعد العظيم لأعرابي في الصحراء ! إننا نذكر المبشرات في تلك الحقبة السوداء من التاريخ التى تعصف فيها الأحداث الهائلة بالأمة الإسلامية ، وتتكالب قوى الكفر والنفاق والشر لخنق الصحوة . ويدب اليأس إلى نفوس الكثيرين في خلال تلك الفتن العصيبة ، وتزلزل الفئة المؤمنة زلزالاً شديداً - اقتداءًا ببشارة المصطفى ﷺ لسراقة بن مالك في أشد مراحل الاستضعاف في تاريخ الدعوة النبوية

إن الصحوة يجب أن تنطلق في تعاملها مع الأحداث وهي تنظر إلى العقبات والمبشرات في آن واحد - تنظر إلى العقبات دون تفريط في الحساب لها. وتنظر إلى المبشرات دون أفراط في الاعتماد عليها. لا تطغى نظرة على نظرة. وإن كانت المبشرات هي الأوفى ميزانًا والأصدق عاقبة. وكذا ينبغي أن تكون هي اليقين الذي لا يخالطه ريب عند دعاة الصحوة وشبابها، ولكن الطريق طويل. والمرحلة عسيرة. والعقبات كثيرة. ولكن الله قضى بنصر الدين وتمكين عباده المؤمنين ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [يوسف - ٢١].

* * *

---

(١) المستقبل لهذا الدين ص ٩٣.

الخاتمة

أحمدك يا رب على ما أنعمت به من إتمام هذه الرسالة ، ويسرت إخراجها على هذه الصورة . فلك الحمد حتى ترضى . وقد توصلت فيها إلى نتائج كثيرة من أهمها :

١ - أن الانحرافات العقدية قد ظهرت مبكراً وإن كان في وقت ظهورها تفاوت وكانت دائرتها تتسع مع مرور الزمن ، حتى أناخت بكلكلها الثقيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين .

٢ - أن الأمة كانت قوية ومتقدمة ومتصدرة للعالم حين كانت متمسكة بدينها محافظة على عقيدتها ، وأنها لم تضعف وتتقهقر إلا حين فرطت في دينها ، وانحرفت في عقيدتها. وأن ما وقع من انحرافات في تلك الفترة يفوق كل تصور .

٣ - أن انحصار مفهوم العبادة في الإسلام كان انحرافاً خطيراً حدث في الأمة وكان ذا آثار سيئة في حياتها ، وكذلك ما وقع من انشعاب وتصدع في فهم حقيقة الإسلام .

٤ - أن الفكر الإرجائي من أخطر الانحرافات التي وقعت في الأمة - إن لم يكن أخطرها على الإطلاق - وحسبنا أن زمر المرتدين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله قد أمنوا على أنفسهم في ظلال ذلك الفكر الباطل ، ولهذا عظم ذم السلف للإرجاء .

٥ - أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة ، وإن الأمة لم تسقط فريسة للغزو الفكري ، وتصبح تابعة لقوى الشر والكفر إلا بعد أن حطمت تلك العقيدة في نفوس المسلمين على أيدي العملاء من المنتسبين إليها .

٦ - أن عقيدة أهل السنة والجماعة قد أصبحت في تلك الفترة غريبة ومحاربة من جماهير الأمة، وكان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من تلك الحرب والعداوة أوفر الحظ والنصيب .

٧ - أن الدين قد تحول عند كثير من الناس إلى عبادة الأضرحة والأولياء وإلى التصوف بطرقه وأذكاره وبدعه. وكان التفاخر بهما هو ما تتنافس فيه البلدان ، ويتجارى فيه الناس .

٨ - أن الحالة العلمية في تلك الفترة كانت ضعيفة للغاية، وكانت أبرز علامات الضعف تنحصر في جمود مناهج التعليم ، وفي التعصب المذهبي وفي رفض إعادة فتح باب الاجتهاد .

٩ - أن الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة على اختلاف فرقها قد ازداد نشاطها في تلك الفترة ، وكان تعاونها مع الاستعمار وعملها لحسابه سبباً في سيطرتها على كثير من المراكز الحساسة في بعض الدول الإسلامية ، وعلى عجلة الاقتصاد فيها .

١٠ - أن موقف الغالبية من العلماء في تلك الفترة لم يكن على المستوى المطلوب ، بالإضافة إلى عزوف كثير من العلماء عن المشاركة في الأحداث التي كانت تعصف بالأمة ، ومع مشاركة بعضهم فيها إلا أنها لم تكن مشاركة فعالة .

١١ - أن وجوه الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي والعلمي لم تكن هي الأسباب الجذرية لتخلف المسلمين كما يتصور الكثيرون ، إنما هي آثار ترتبت على سوء الأحوال الدينية عندهم ، وانحرافهم عن هدى ربهم . وكذلك الاستعمار والتنصير والغزو الفكري ، كل تلك كانت من الآثار التي ترتبت على انحراف الأحوال الدينية عند المسلمين ، ولا يمكن القضاء على هذه الآثار مالم يتم القضاء على الأسباب التى أفرزتها .

١٢ - أن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية لم تسقط تحت وطأة غارات الغزو الفكري إلا بعد أن تحولت إلى عادات رتيبة وتقاليد خاوية ، وفقدت روحها وصلتها بالعقيدة .

١٣ - أن رحيل الاستعمار عن الوطن الإسلامي لم يكن إلا ظاهرياً في أغلب الأحيان .

١٤ - أن الأثر العظيم الذي أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تمثل في تبوىء المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر شباب الصحوة الإسلامية .

١٥ - أن ما جرى عليه كثير من الباحثيين من نسبة كل الحركات والجماعات إلى التأثر بدعوة الشيخ لا صحة له على الإطلاق ، وأن هذه النسبة الخاطئة تستخدم أحيانا لتبرير انحرافات هذه الحركات وتغطية مساوئها .

١٦ - أن أهم العقبات في طريق الصحوة تتمثل في استمرار الانحرافات العقدية ، التى لم تنج من غائلتها كثير من الجماعات الإسلامية التى كان يفترض فيها أن تصحح هذه الانحرافات وتقومها

١٧ - أنه بالرغم من ضخامة العقبات وكثرتها ، إلا أن هناك من المبشرات الشرعية والمحسوسة ما يبشر بأن المستقبل للإسلام وأن النصر سيكون للصحوة الإسلامية . وهناك نتائج أخرى عرضنا لها في ثنايا البحث ولم نذكرها في هذه الخاتمة .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين .

الفهارس العامة

١ ـ فهرس المراجع والمصادر .
٢ ـ فهرس الموضوعات .

فهرس المصادر والمراجع

حرف الألف

أئمة اليمن في القرن الرابع عشر للهجرة . محمد بن محمد بن زبارة . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٧٦هـ .

الإبانة عن أصول الديانة :– أبو الحسن الأشعري . طبعة الجامعة الإسلامية ١٤٠٥هـ الإبداع في مضار الابتداع علي محفوظ دار الاعتصام القاهرة الطبعة السابقة ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م.

ابن باديس، حياته وآثاره . د عمار الطالبي . الجزء الأول . دار الغرب الإسلامي . بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

ابن تيمية السلفي . د محمد خليل هراس . مكتبة الصحابة بطنطا . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ

الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . د محمد محمد حسين . دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . أحمد بن أبي الضياف . تحقيق أحمد عبد السلام . الطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٧١هـ .

أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية . خادم حسين إلهي بخش . دار حراء . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر . د سيد محمد موسى . مطابع المدني بمصر ١٣٩١هـ .

أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية . د عبد الحميد ميهوب . دار الكتاب العربي . القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

أحكام القرآن . ابن العربي . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد . سعيد الأعظمي الندوى . دار القلم . دمشق . بيروت ط٢ . ١٣٩٨م – ١٩٧٨م .

إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

تابع فهرس المصادر

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام . دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر. دار الرسالة . مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م .

الإخوان المسلمون . أحداث صنعت التاريخ . محمود عبد الحليم . دار الدعوة . الاسكندرية .

أدب الطلب . الإمام محمد بن علي الشوكاني . مركز الدراسات والأبحاث اليمنية . صنعاء ١٩٧٩م .

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني . محمد سيد كيلاني . دار الفرجاني . القاهرة . ط ١٩٦٥م .

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف. الأمير شكيب أرسلان . تعليق الشيخ محمد رشيد رضا .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . الإمام محمد بن على الشوكاني . دار الفكر .

إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . الشيخ ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي . بيروت . دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

الأزهر تاريخه وتطوره . وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر . مطابع الشعب . ط ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م .

استامبول وحضارة الخلافة الإسلامية برنارد لويس . تعريب وتعليق د سيد رضوان علي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الرياض . الدمام . الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

الاستعمار الفرنسي في مراكش (المغرب الأقصى) محمد عبد العالي جلال مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام . د/علي عبد الواحد وافي . دار نهضة مصر . القاهرة .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. أحمد بن ناصر السلاوي . المطبعة المصرية ١٣١٢هـ .

الإسلام في القرن العشرين . عباس محمود العقاد .

الإسلام والحضارة الغربية. د محمد محمد حسين دار الرسالة. مكة المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م .

الإسلام والمذاهب الفلسفية . د مصطفي حلمي دار الدعوة . الاسكندرية . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

تـابع فهرس المصادر

الإسلاميون وسراب الديمقراطية . دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية . الجزء الأول عبد الغني بن محمد الرحال . المؤتمن للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

الإصابة في تمييز أسماء الصحابة . الحافظ ابن حجر العسقلاني دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

إصلاح المساجد من البدع والعوائد . العلامة جمال الدين القاسمي . خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي . بيروت .

الاعتصام . أبو اسحاق الشاطبي . تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا . دار المعرفة . بيروت .

الأعلام . خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الثامنة ١٩٨٩م

الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام . العباس بن ابراهيم السملالي . الطبعة الملكية . الرباط ١٩٧٤م .

أعلام العراق . محمد بهجت الأثري . المطبعة السلفية ومكتبتها . القاهرة ١٣٤٥هـ .

أعلام المغرب العربي . عبد الوهاب منصور . المطبعة الملكية . الرباط ١٣٩٨م - ١٩٧٨م .

أعلام من طرابلس . على مصطفى المصراني. دار الفكر طرابلس لبيبا. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

أعيان القرن الثالث عشر . خليل مردم بك . لجنة التراث العربي . لبنان ١٩٧١م .

إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان الحافظ ابن قيم الجوزية . تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي دار المعرفة . بيروت .

أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية . د عبد الودود شلبي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الطبعة السادسة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم . شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق الشيخ محمد الفقي . دار المعرفة . لبنان .

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . خير الدين التونسي .

إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . اسماعيل محمد البابانى دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

أيعيد التاريخ نفسه . محمد العبدة . المنتدى الإسلامي . لندن . ١٤١١هـ .

حرف الباء

البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر . محمود فهمي المهندس . مطبعة بولاق ١٣١٢هـ .

تابع فهرس المصادر

بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . تونس ، الجزائر ، ليبيا من ١٨١٦م – ١٨٧١م . عبد الجليل التميمي . الدار التونسية للنشر الطبعة الأولى ١٩٧٢م .

البداية والنهاية . الحافظ ابن كثير . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين. دار الكتب العلمية بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع . الإمام الشوكاني . مطبعة السعادة . ط١ ١٣٨٤هـ .

بصمات الاستعمار في المجتمعات الإسلامية . المشكلة والحل . يوسف البدري . دار العدالة . القاهرة .

بلاد الشام في القرن التاسع عشر . دراسة وتحقيق د سهيل ذكار . دار حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

البلاد العربية والدولة العثمانية . ساطع الحصري . دار العلم للملايين . ط٢ ١٩٦٥م .

بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام . القاضي حسين بن أحمد العرشي . مطبعة البرتيري . القاهرة ١٩٣٩م .

حرف التاء

تاريخ الأمم والملوك . الحافظ ابن جرير الطبري . دار الكتب العلمية . بيروت .

تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول . حسن السندوبي . مطبعة الاستقامة ١٣٦٧هـ – ١٩٤٨م .

تاريخ آداب اللغة العربية . جرجي زيدان . مطبعة الهلال . ط ١٩٣١م .

تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد رشيد رضا . مطبعة المنار . القاهرة .

تاريخ الإسلام في الهند . د عبد المنعم النمر . دار العهد الجديد للطباعة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م .

تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح . الشيخ عبد المتعال الصعيدي مطبعة الاعتماد بمصر . الطبعة الثالثة .

تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت .

تاريخ التعليم في عصر محمد علي. د أحمد عزت عبد الكريم. مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨م.

التاريخ الثقافي . د حسن فقي . دار المعارف مصر . الطبعة الثانية . ١٩٧١م .

تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري . د أبو القاسم سعد الله الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر الطبعة الأولى ١٩٨١م.

تابع فهرس المصادر

تاريخ الحركة القومية . عبد الرحمن الرافعي . مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الرابعة ١٩٥٥م – ١٣٧٤م .

تاريخ حضرموت السياسي، صلاح البكري، مطبعة البابي حلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م .

تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك المحامي . تحقيق الدكتور إحسان حقي . دار النفائس بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

تاريخ السلطنة السنارية .أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة . دار إحياء الكتب . ١٩٦١م .

تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . د فيليب حتي . ترجمة د كمال اليازجي . دار الثقافة بيروت ١٩٥٩م .

تاريخ الشعوب الإسلامية . كارل بروكلمان . ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي . الطبعة السادسة بيروت ١٩٧٤م .

تاريخ العرب الحديث . العراق . د عبد العزيز سليمان نوار، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٦م .

تاريخ الفقه الإسلامي . د . عمر الأشقر مكتبة الفلاح . الكويت . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

تاريخ المذاهب الإسلامية الجزء الأول في السياسة والعقائد . الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي .

تاريخ معرة النعمان محمد سليم الجندي . تحقيق عمر رضا كحالة . وزارة الثقافة والارشاد القومي . مطبعة الترقي بدمشق ١٣٨٣هـ – ١٩٦٣م .

تاريخ مكة . أحمد السباعي . دار الفريس ١٣٨٢هـ .

تاريخ نجد . العلامة محمود شكري الألوسي المكتبة العربية . بغداد . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٣هـ .

تاريخ ونظام التعليم في مصر . منير عطا الله وآخرون . القاهرة ١٩٧٢م .

تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوداث وتاريخ اليمن . عبد الواسع بن يحيى الواسعي . مطبعة حجازي القاهرة ١٣٦٦هـ – ١٩٤٧م .

التبشير والاستعمار . د عمر فروخ وصلاح الخالدي المكتبة المصرية .

التجانية . علي بن محمد الدخيل الله دار طيبة الرياض .

تابع فهرس المصادر

تحفة الزائر في تاريخ الجزائر . الأمير عبد القادر محمد عبد القادر الجزائري دار اليقظة العربية تعليق ممدوح حقي . الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .

التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية . محمد بن خليفة النبهاني . منشورات مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة ، ١٩٨٠م مستل من الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ .

تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . أبو الريحان البيروني.

التدمرية . شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق محمد عودة السعوي . طبع شركة العبيكان . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوداث الزمان . الشيخ ابراهيم بن عبيد آل عبد المحسن مطابع مؤسسة النور . الرياض . الطبعة الأولى .

ترجمة الأولياء في الموصل الحدباء . أحمد بن الخياط الموصلي تحقيق سعيد الديوه جي مطبعة الجمهورية الموصل ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .

التصوف في مصر إبان العصر العثماني . د توفيق الطويل . مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .

تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية . د ماجد عرسان الكيلاني دار ابن كثير دمشق . بيروت . مكتبة دار التراث . المدينة المنورة . الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

تفسير القرآن العظيم . الحافظ ابن كثير . دار الفكر . بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

التفسير والمفسرون . د محمد حسين الذهبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار . م -م - الرمزي الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ المطبعة الكريمية والحسينية ببلدة أور نبورغ .

التوحيد . الحافظ محمد بن خزيمة . دار الرشد . الرياض .

تونس العربية . د إحسان حقي . دار الشمالي للطباعة . بيروت .

تيسير العلام شرح عمدة الأحكام . الشيخ عبد الله البسام . مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة . مطبعة الحلبي بمصر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

حرف الثاء

الثقافة الإسلامية المستوى الرابع . الشيخ محمد قطب والشيخ محمد المبارك والشيخ مصطفى كامل .

تابع فهرس المصادر

حرف الجيم

جامع العلوم والحكم . ابن رجب الحنبلي . دار المعرفة بيروت .

الجامع الفريد مجموعة رسائل تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي . الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ طبع على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح طبع شركة العبيكان . الرياض .

جمال الدين القاسمي وعصره . ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي . المطبعة الهاشمية دمشق . الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

جوامع الموصل في مختلف العصور . سعيد الديوه جي . مطبعة شفيق . بغداد ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م .

حرف الحاء

حاشية ابن عابدين . ابن عابدين . دار الفكر . الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م .

حاضر العالم الإسلامي . د جميل المصري . دار أم القرى . عمان الأردن الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

حاضر العالم الإسلامي . د علي جريشة . دار المجتمع جدة . ط٣ . ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

حاضر العالم الإسلامي . لوثروب استودار والأمريكي تعليق الأمير شكيب أرسلان ترجمة حجاج نويهض ١٩٧٤م .

الحجاب . أبو الأعلى المودودي . دار الفكر بيروت .

الحراب في صدور البهاء والباب . محمد فاضل . دار المدني جدة . الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨م - ١٨٣٩م). د محمد عبد اللطيف البحراوي . دار التراث القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث . جمال الدين الشيال .

الحركات الباطنية في العالم الإسلامي . د محمد أحمد الخطيب مكتبة الأقصى عمان الأردن الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

حصوننا مهددة من داخلها . د محمد محمد حسين . دار الرسالة مكة المكرمة . الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

حقائق الأخبار عن دول البحار . اسماعيل سرهنك .

حقائق ووثائق دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي . د عبد الودود شلبي الدار السعودية للنشر جدة ط١ ١٤٠٩هـ - ١٩٨٢م .

تابع فهرس المصادر

الحكومة الباطنية . د حسن الشرقاوي دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ -١٩٨٢م .

حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . عبد الرزاق البيطار . تحقيق محمد بهجت البيطار مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م .

حول تطبيق الشريعة الإسلامية . الشيخ محمد قطب. مكتبة السنة . القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

حياتي . أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٩م .

الحياة السياسية عند العرب دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر مكتبة السنة القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

حياة الصحابة . محمد يوسف الكاندهلوي . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

حرف الخاء

خصائص التصور الإسلامي . الأستاذ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة العاشرة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة . علي باشا مبارك دار الكتب الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

خطط الشام . محمد كرد علي . دار العلم للملايين. بيروت ١٣٩٠هـ .

حرف الدال

دراسات في الفرق . الصوفية . نشأتها وتطورها . محمد العبدة طارق عبد الحليم . مكتبة الكوثر الرياض الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية . د عرفان عبد الحميد مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين « الخوارج والشيعة » . د أحمد محمد جلي الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .

الدرر السنية في الرد على الوهابية. أحمد بن زيني دحلان. ط٤ . ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م . مطبعة البابي الحلبي . القاهرة .

الدر المنثور في طبقات ربات الخدور . زنيب بنت فواز العاملي دار المعرفة الطبعة الثانية .

دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام . مصطفى فوزي غزال دار طيبة الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

تابع فهرس المصادر

الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ – ١٤٠٧هـ عبد الوهاب خليل الرحمان . مكتبة البحث العلمي .

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ للدكتور أحمد عطية الزهراني مكتبة البحث العلمي .

دلائل النبوة . للحافظ البيهقي . تحقيق عبد المعطي قلعجي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

دليل الأستانة . محمد شكري الناعمة مطبعة جرجي غرزوزي الاسكندرية ١٩٠٩م .

الدولة السعودية الأولى . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات الإسلامية ١٩٦٩م .

الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . د عبد العزيز الشناوي مكتبة الأنجلو مصرية القاهرة. مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م.

الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . د محمد كمال دسوقي. دار الثقافة القاهرة ١٩٧٦م .

الدين والمجتمع دراسات ومحاضرات قدمت في ملتقى الندوة الإسلامية بالقيروان ١٩٧٧م وزارة الشؤون الثقافية تونس .

حرف الذال

ذكرى أبي الثناء الألوسي . عباس الغراوي. شركة التجارة والطباعة زم م . الصالحية بغداد ١٣٧٧هـ – ١٩٥٨م .

ذكريات . أحمد علي منشورات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

حرف الراء

رجال الفكر والدعوة في الإسلام شيخ الإسلام ابن تيمية الجزء الثاني أبو الحسن الندوي دار القبلة . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

رحلات الإمام محمد رشيد رضا. جمع الدكتور يوسف ايبش المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧١م .

رحلات عبد الوهاب عزام . الرسالة. الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ – ١٩٥٠م .

تابع فهرس المصادر

الرحلة الحجازية . محمد بن علي السنوسي . تحقيق علي الشنوفي . نشر الشركة التونسية للتوزيع ١٤٠١هـ .

الرحلة الحجازية . محمد لبيب التبنوني . مطبعة المعارف . الناشر محمد سعيد كمال الطائف الطبعة الثالثة .

رحلة كنفليك إلى الشرق. ترجمة محمود العابدي جمعية أعمال المطابع التعاونية عمان ١٩٧١م.

الرحلة اليمانية . شرف بن عبد المحسن البركاتي بيروت الطبعة الثانية .

الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض . الحافظ السيوطي مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

رسالة تحكيم القوانين . الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . نعمان قسطالي دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين . محمد بن عثمان القاضي. مطبعة الحلبي القاهرة الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م .

رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي الجزء الأول مؤمرات الدويلات الطائفية . محمد عبد الغني النواوي الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر . الشيخ محمد قطب دار الوطن الرياض الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

رؤية إسلامية للاستشراق . د أحمد عبد الحميد غراب المنتدى الإسلامي لندن الطبعة الثانية ١٤١١هـ .

رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع . الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣م .

حرف الزاي

زاد المعاد في هدى خير العباد. الحافظ ابن قيم الجوزية. تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت . الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

زبدة الآثار الجلية في الحوداث الأرضية . ألفه في الأصل ياسين بن خير الله العمري وانتخب زبدته داود الحلبي . تحقيق وتعليق عماد عبد السلام رؤوف مطبعة الآداب النجف .

تابع فهرس المصادر

حرف السين

سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه . عبد الكريم الخطيب. دار الأصالة الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

سلسلة الأحاديث الصحيحة . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م بيروت . دمشق .

السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده . أورخان محمد علي دار الوثائق الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية . موفق المرجة. مؤسسة صقر الخليج للطباعة الكويت ١٩٨١م . الناشر أحمد عبد الله القليج .

سنن ابن ماجه . الحافظ محمد بن يزيد بن ماجة القزويني. دار الفكر .

سنن الترمذي . أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي . تحقيق الشيخ أحمد شاكر مطبعة مصطفى البابي حلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

سنن النسائي . أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي. المكتبة العلمية بيروت .

السنة . عبد الله بن أحمد بن حنبل . تحقيق الدكتور محمد بن سعيد القحطاني . دار ابن القيم الدمام. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد. د صلاح الخالدي. دار القلم. بيروت. ط الأولى ١٤١١هـ

سير أعلام النبلاء . الحافظ الذهبي أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

حرف الشين

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . محمد بن محمد مخلوف. دار الكتاب العربي بيروت .

شرح العقيدة الطحاوية . ابن أبي العز الدمشقي تحقيق الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الشرق الإسلامي في العصر الحديث . حسين مؤنس. مطبعة حجازي. القاهرة الطبعة الثانية ١٩٣٨م .

شهر في دمشق . عبد الله بن خميس. مطابع الرياض ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

الشيخ محمد الحامد. عبد الحميد طهمان. دار القلم بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

تابع فهرس المصادر

حرف الصاد

الصحافة والأقلام المسمومة . أنور الجندي . دار الاعتصام . القاهرة .

الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم . د يوسف القرضاوي دار الصحوة القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

صحيح ابن ماجه . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

صحيح أبي داود . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

صحيح مسلم . الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

صحيح النسائي . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . أبو الحسن الندوي . دار القلم . الكويت الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان . الشيخ محمد بشير السهسواني تقديم الشيخ محمد رشيد رضا .

حرف الطاء

طبقات الشافعية الكبرى . عبد الوهاب بن علي السبكي . تحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي . عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى.

حرف الظاء

ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيده بجامعة أم القرى للدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي مكتبة البحث العلمي .

حرف العين

العالم الإسلامي . محمود شاكر . المكتب الإسلامي بيروت . دمشق الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ .

العبادة في الإسلام . د يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة التاسعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

تابع فهرس المصادر

عبدالله بن سبأ وأثره في الفتنه الكبري . د سليمان العودة .

العبودية . شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق خالد عبدالطيف العلمي دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

العثمانيون في التاريخ والحضارة . د محمد حرب دار القلم دمشق ط١ ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

عجائب الآثار في التراجم والأخبار . الشيخ عبد الرحمن الجبرتي. دار الفارس. بيروت .

عقد الدرر في أخبار المنتظر . يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي . دار الكتب العلمية. بيروت ط ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . د عثمان عبد المنعم عيش . مكتبة الأزهر ١٩٧٨م .

عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . د أحمد سعد حمدان . دار طيبة . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي . د صالح العبود الجامعة الإسلامية المدينة المنورة المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .

العقيدة في الله . د عمر الأشقر . مكتبة الفلاح. الكويت . الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .

عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين عشرون رسالة لجمع من أئمة الدعوة جمع وترتيب الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي . تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز. مكتبة الطرفين الطائف . الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند . د قدرة الله الحسني . دار الشروق جدة . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

العلمانيون والإسلام . الشيخ محمد قطب . دار الوطن . الرياض . الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .

العلمانية . د سفر بن عبد الرحمن الحوالي. الدار السلفية الكويت ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

عنوان المجد في تاريخ نجد . عثمان بن بشر . مكتبة الرياض الحديثة .

عودة الحجاب الجزء الأول معركة الحجاب والسفور. محمد بن اسماعيل. دار طيبة . الرياض الطبعة الرابعة .

حرف الغين

الغارة على العالم الإسلامي . أ . ل شاتليه. ترجمة مجد الدين الخطيب و مساعد اليافي الدار السعودية للنشر والتوزيع. جدة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

تابع فهرس المصادر

غاية الأماني في الرد على النبهاني . العلامة محمود شكري الألوسي. المطبعة العربية . لاهور ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام . د فتح الله عبد الستار السعيد . دار الأنصار . القاهرة .

غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام . د فتحي محمد الزغبي . مطابع غباشي طنطا مصر الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

حرف الفاء

فتح الباري شرح صحيح البخاري . الحافظ ابن حجر العسقلاني. أشرف على طبعه محب الدين الخطيب دار المعرفة. بيروت .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . الإمام بن علي الشوكاني. دار الفكر بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

فجر الإسلام . أحمد أمين دار الكتاب العربي. بيروت. ط ١١. ١٩٧٥م .

فقه الخلاف مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي . جمال سلطان مركز الدراسات الإسلامية برمنجهام بريطانيا الطبعة الأولى١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . د محمد البهي. دار المعارف مصر . الطبعة العاشرة ١٩٨٩م .

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي . الشيخ محمد بن يوسف الحجوي تحقيق د عبدالعزيز القارىء المكتبة العلمية المدينة المنورة. الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.

الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا . أنور الجندي. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

فلسفة التاريخ العثماني . محمد جميل بيهم . شركة فرج الله للمطبوعات . بيروت ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م.

فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني . بسام العسلي . دار الفكر .

في ظلال القرآن . الأستاذ سيد قطب . دار الشروق القاهرة . الطبعة العاشرة . ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

حرف القاف

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الصليبي الماسوني وضرب الاتجاه الإسلامي . د سليمان بيومي . عالم المعرفة . جدة . الطبعة الأولى ١٤١١هـ -١٩٩١م.

تابع فهرس المصادر

قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية . د سليمان محمد الغنام . دار تهامة ١٩٨٠م.

قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها . د محمد عبد القادر هنادي . مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٧٨م .

قواعد المنهج السلفي . د مصطفى حلمي . دار الدعوة . الاسكندرية . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

القول الحق في بيروت ودمشق . عبد الرحمن بك سامي. دار الرائد العربي بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

حرف الكاف

الكامل في التاريخ . عز الدين ابن الأثير . دار صادر . بيروت . ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

كتاب إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين . علي حسن عبد الحميد مكتبة ابن الجوزي الأحساء الهفوف. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية . أحمد عرابي الحسيني . مطبعة مصر . طبعة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ م .

كشف الشبهات. الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب . تعليق الشيخ محمد حامد الفقي. دار الثقافة. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة. دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

الكشف عن حقيقة الصوفية . محمود عبد الرؤوف القاسم . دار الصحابة . لبنان . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

حرف اللام

لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج . حياة الشيخ محمد قطب دار الوطن الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

اللطائف المصورة (مجلة) العدد (١٠٩٨) . القاهرة .

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم . الأمير شكيب أرسلان . تقديم الشيخ محمد رشيد رضا . مراجعة خالد فاروق . دار البشير . القاهرة مطابع المختار الإسلامي .

حرف الميم

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . أبو الحسن الندوي دار القلم . الكويت . الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

تابع فهرس المصادر

ماضي الحجاز وحاضره . حسين محمد نصيف . الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ

مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية منها . د ناصر عبدالكريم العقل . دار الوطن الرياض . الطبعة الأولى .

المجتمع الإسلامي . د أحمد شلبي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٦٧م.

المجتمع الإسلامي المعاصر. الشيخ محمد المبارك. دار الفكر . بيروت ط١ .١٣٩٠هـ – ١٩٧١م.

مجتمعنا المعاصر أسباب ضعفه ووسائل علاجه . د عبد الله سليمان المشوخي . مكتبة المنار الزرقاء الأردن . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

مجموع الفتاوى. شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم العاصمي النجدي وابنه طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود. اشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .

مجموعة التوحيد . تحتوى على ١٦ رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية والأمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ونخبة من علماء المسلمين الأفاضل رحمهم الله المكتبة السلفية . المدينة المنورة .

محاضرات في النصرانية . الشيخ محمد أبو زهرة .دار الفكر العربي. بيروت.

مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي. دائرة المعاجم في مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٦م.

مختصر الصواعق المرسلة . للشيخ الموصلي . من كتاب الصواعق المرسلة للحافظ ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر . الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير. اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي أحمد علي مطبوعات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه إلى قسم التاريخ الإسلامي جامعة أم القرى للدكتورة أميرة علي مداح ١٤٠٦هـ مكتبة البحث العلمي .

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . الحافظ ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

المد الإسلامي الباهر . مصطفى فوزي غزال دار القبلة جدة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

مذاهب فكرية معاصرة . الشيخ محمد قطب. دار الشروق. القاهرة ط١ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني . ترجمة محمد حرب الحميد. دار الوثائق. الكويت .

تابع فهرس المصادر

مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها . محمد رؤوف السيد طه الشيخلي . مطبعة البصرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

المرأة بين الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر خولة درويش دار الرسالة. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

مرآة الحرمين . ابراهيم رفعت باشا. بدون تاريخ طبع واسم مطبعة .

مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . سعاد ماهر مطبعة الأهرام التجارية نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ١٩٧١م .

المستدرك على الصحيحين . الحاكم النيسابوري. دار الكتب العلمية .

المستقبل لهذا الدين . الأستاذ سيد قطب دار الشروق . القاهرة الطبعة التاسعة . ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .

المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر . الشيخ محمود شكري الألوسي تحقيق د عبد الله الجبوري دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

المسلمون في الاتحاد السوفيتي : شانتال كلكجي والكسندر بينفس تعريب الدكتور احسان حقي . مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

المسلمون في معركة البقاء . د عبد الحليم عويس . دار الاعتصام . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية . عبد الله حمد الشبانة. دار طيبة الرياض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

مشكلات الجيل في ضوء الإسلام . الشيخ محمد المجذوب ط ١٣٩٠هـ .

المعجم الأدبي . جبور عبد النور . دار العلم للملايين . .بيروت ط٢ ١٩٨٤م .

المعسول . محمد المختار السوسي .

المغني . الإمام موفق الدين ابن قدامة دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

مفاهيم ينبغي أن تصحح . الشيخ محمد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة السابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م.

المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات . محمد عبد الرحمن المغراوي دار طيبة الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م .

مقالات الاسلاميين . أبو الحسن الأشعري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

تابع فهرس المصادر

مقدمة ابن خلدون . دار احياء التراث العربي بيروت، الطبعة الرابعة .

المقفى الكبير . العلامة المقريزي، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

الملل والنحل . أبو الفتح الشهرستاني . دار الفكر . بيروت .

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . العلامة عبد القادر بن بدران المكتب الإسلامي دمشق ١٣٧٩هـ .

من أخلاق العلماء . الشيخ محمد سليمان، بدون تاريخ طبع واسم مطبعة

من أعلام الفكر المعاصر . عبد الله الجراري .

منتخبات تواريخ دمشق . محمد أديب الحصني، دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية . شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د محمد رشاد سالم، جامعة الأمام محمود بن سعود الإسلامية الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

موسوعة مقدمات العلوم والمناهج . عالم الإسلام المعاصر. أنور الجندي توزيع دار الأنصار مطبعة التقدم القاهرة ١٩٧٧م .

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامي . الرياض الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .

موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية . حسان علي حلاق . جامعة بيروت العربية ١٩٧٨م .

حرف النون

النبوات . شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ . ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر . الشيخ عبد الحي الحسني . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن الهند ١٣٧٨هـ – ١٩٥٩م .

نشأة الفكر الفلسفي . د علي سامي النشار . دار المعارف بمصر . الطبعة السابقة ١٩٧٧م .

نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول . أبو الثناء الألوسي . مطبعة ولاية بغداد ١٢٩١هـ .

نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام . أبو الثناء الألوسي، مطبعة ولاية بغداد ١٢٩٣هـ .

النعت الأكمل لأصحاب الامام أحمد بن حنبل . محمد كمال الدين الغزي العامري وعليه زيادات واستدراكات حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ . نزار أباظة . دار الفكر . بيروت ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م .

نفحة البشام في رحلة الشام . محمد بن عبد الجواد القاياتي، دار الرائد العربي بيروت ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م .

تابع فهرس المصادر

نفحة الرحمن في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم السيد أحمد بن المرحوم السيد زيني دحلان . أبو بكر بن محمد شطا . القاهرة دار فينوس ١٣٠٥هـ

نفحة العنبر في حياة إمام العصر أنور محمد يوسف البنوري. إدارة المجلس العلمي كراتشي

النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد . دار الخلفاء . الكويت . ط١ . ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

نهر الذهب في تاريخ حلب. كامل بن حسين البالي الحلبي الغزي . المطبعة المارونية ١٣٤٢هـ .

نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن الثالث عشر . محمد بن محمد بن زبارة . المطبعة السلفية القاهرة . ١٣٤٨هـ .

حرف الواو

واقعنا المعاصر . الشيخ محمد قطب . مؤسسة المدينة للصحافة. جدة. الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

وجاء دور المجوس أحوال أهل السنة في إيران الجزء الثالث . عبد الله محمد الغريب الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .

وجاء دور المجوس الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية . عبدالله محمد الغريب الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

الولاء والبراء . د محمد بن سعيد القحطاني . دار طيبة الرياض ١٤٠٤هـ .

الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث . د أحمد على المجدوب . الزهراء للإعلام العربى القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

حرف الهاء

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن . الأمير أحمد فضل بن علي محسن العبدلي المطبعة السلفية. القاهرة ١٣٥١هـ .

حرف الياء

يوم ١١ يولية ١٨٨٢م. الأمير عمر طوسون ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م .

يوميات الخليل خليل مردم بك مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

اليوميات الليبية . حسن الفقيه حسن . تحقيق محمد الأسطى ، عمار جحيدر . منشورات جامعة الفاتح مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي الجماهيرية العربية الليبية ١٩٨٤م .

اليهود والماسون في مصر . د علي شلش. الزهراء للإعلام العربي الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

انتهى والحمد لله

* * *

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١	مقدمة الرسالة .
١١	تمهيد (نبذة عن أحوال الأمة الإسلامية فيما قبل هذه الفترة)
	الباب الأول
	الأحوال العقدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين
٤٧	الفصل الأول : انحصار مفهوم العبادة في الإسلام .
٦٣	الفصل الثاني : الفكر الإرجائي وآثاره .
٧٩	الفصل الثالث : ضعف عقيدة الولاء والبراء .
١١٧	الفصل الرابع : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها .
١٣٩	الفصل الخامس : هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على علماء ومؤلفات العقيدة .
١٥٤	الفصل السادس : انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات .
	ويشتمل على :
١٥٥	أولاً : انتشار مظاهر الشرك . ويحتوى على :
١٥٨	* بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور .
١٨٢	* الاستغاثة والاستعانة بأصحاب هذه الأضرحة في الشدائد والأزمات ودعاؤهم من دون الله عز وجل .
١٩٢	* الذبح والنذر للأضرحة .
١٩٥	* الاستشفاء وطلب البرء من الأضرحة .
١٩٨	* الاعتصام بالأضرحة .
٢٠١	* الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس كلها .
٢٠٦	* الشرك الأكبر من خلال مايسمى بالمدائح النبوية .
٢٠٩	* الغلو في أهل البيت والأشخاص .

الموضوع	رقم الصفحة
* الشرك بالأحياء والغلو فيهم .	٢١٢
* الحلف بغير الله عز وجل .	٢١٥
ثانيًا : انتشار البدع والخرافات . ويحتوي على :	٢١٧
* المولد النبوي .	٢٢٢
* الاحتفالات بالموالد الأخرى .	٢٣٣
* بدعة المحمل .	٢٣٨
* احتفالات أخرى .	٢٤٢
* انتشار الخرافات .	٢٤٩
الفصل السابع : الصوفية في هذين القرنين .	٢٥٣
ويحتوي على :	
* نشأة الصوفية .	٢٥٣
* أسباب انتشار الصوفية .	٢٥٥
* نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي .	٢٦٠
* نظرة المتصوفة إلى الحياة ومجالاتها .	٢٦٥
* نظرتهم إلى العلم .	٢٧٣
* الطرق والزوايا عند الصوفية .	٢٧٦
* الذكر عند الصوفية (الإنشاد ، الغناء ، الرقص)	٢٨٧
* الكرامات والخوارق عند الصوفية في هذه الفترة .	٢٩٥
* الشيخ والمريد عند الصوفية .	٣٠٥
* الصوفية والجهاد ومقاومة الاستعمار .	٣١١
* الصوفية والمجاذيب الأولياء .	٣١٧
* الصوفية والعقائد المنحرفة .	٣٢١
الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة .	٣٢٨
الفصل التاسع : موقف العلماء في هذه الفترة .	٣٤٦
الباب الثاني	
الحالة العلمية	
ويقع في ثلاثة فصول :	

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول : المستوى التعليمي ومناهج التعليم . ويحتوي على :	٣٦٧
الفصل الثاني : التعصب المذهبي .	٤٠٥
الفصل الثالث : رفض إعادة فتح باب الاجتهاد .	٤١٦
الباب الثالث	
(الآثار المترتبة على الأحوال الدينية	
في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين)	
الفصل الأول : الآثار الداخلية (تفشي الضعف في الأمة)	٤٣٢
ويحتوي على :	
أولاً : الضعف السياسي والحربي .	٤٣٢
ثانيًا : الضعف الاقتصادي .	٤٤٨
ثالثًا : الضعف العلمي .	٤٦١
رابعًا : الضعف الاجتماعي والأخلاقي .	٥٧١
الفصل الثاني : الآثار الخارجية .	٤٩٠
ويحتوي على :	
أولاً : الاستعمار	٤٩١
ثانيًا : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم .	٥١٤
ثالثًا : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي .	٥٥٣
الباب الرابع	
(الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل)	
الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي .	٥٨٥
الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر .	٦٠١
ويحتوي على :	
أولاً : العقبات في طريق الصحوة .	٦٠٢
ثانيًا : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل .	٦٢٠
خاتمة الرسالة .	٦٢٨
فهرس المصادر والمراجع .	٦٣١
فهرس الموضوعات .	٦٥٠